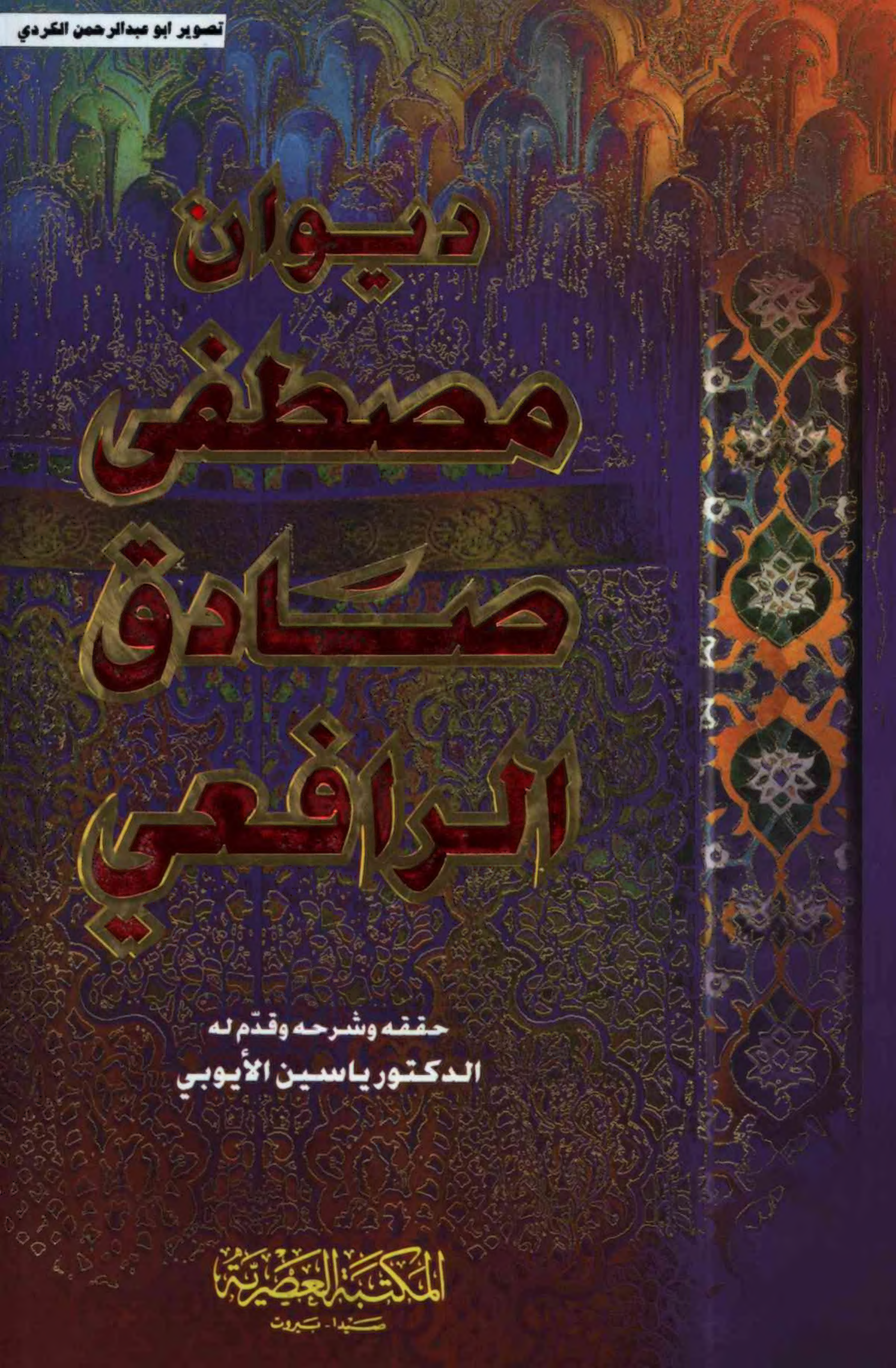


تصوير ابو عبدالرحمن الكردي
ديوان
مصطفى
صادق
الرافعي
حققه وشرحه وقدّم له
الدكتور ياسين الأيوبي
المكتبة العصرية
صيدا - بيروت

ديوان مصطفى صادق الرافعي

حققه وشرحه وقدم له

الدكتور ياسين الأيوبي

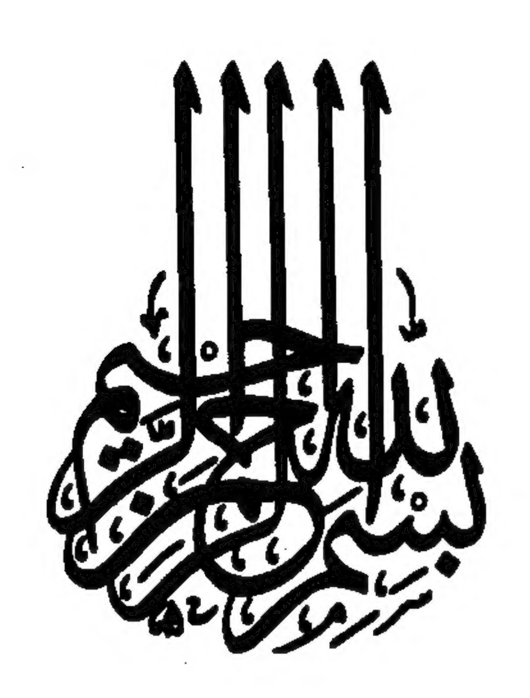


١٤٢٥هـ - 2004

شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع
المكتبة العصرية
الدار النموذجية المطبعة العصرية

بيروت - ص.ب ٨٣٥٥ ١١ - تلفاكس ٦٥٥٠١٥ ٠٠٩٦١١
صيدا - ص.ب ٢٢١ - تلفاكس ٧٢٠٣١٧ ٠٠٩٦١٧
E-mail: alassrya@terra.net.lb - alassrya@cyberia.net.lb

ISBN 9953-34-018-8


بسم الله الرحمن الرحيم



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

أبادر ـ في مستهل هذه المقدمة ـ إلى توضيح السبب الذي دفعني إلى وصف صنيعي في هذا الديوان، **بالتحقيق**، وما هو كذلك بالمعنى الاصطلاحي الدقيق، القائم بالدرجة الأولى، على معاينة المخطوطات، والمقارنة بينها، وتبيُّن الأصل الصحيح فيها، ومن ثم اعتماد النص الذي توافرت فيه أعلى درجات الحقيقة التي كان عليها عندما وضعه صاحبه.

وأما السبب، فهو أنني، في البداية، اعتمدتُ النص الذي نشرته مؤسسة الكتب الثقافية في بيروت سنة ١٩٩٣، والذي قام بتحقيقه وعلّق عليه: **أسامة محمد السيد**، تحت عنوان مُبْتدَع هو: «**إيوان الألمعي في شرح ديوان مصطفى صادق الرافعي**».

وما إن أخذتُ في القراءة، حتى اعتراني إحساس بأنَّ هناك تصرفاً طارئاً على الديوان، وبأن **السيد المحقق، لا يقوم بالشرح والتعليق بقدر ما يتدخل في مشاعر الشاعر، وصوره، وصياغاته**، من خلال التعاليق التي ذيّل بها الصفحات، مخطِّئاً، ومستهجناً، ومستنكراً الخ. . الأمر الذي خرج به عن كل ما تقتضيه المنهجية السليمة في وضع هوامش النصوص المحققة أو المدروسة.

وتابعتُ القراءة في جميع الأغراض والأبواب حتى نهاية الكتاب الذي ضم مائتين وثلاثين صفحة من القطع الوسط، لأُفاجأ بأن هذا الديوان لا يضم إلّا الجزئين الأول والثاني، ولا شيء عن الجزء الثالث.

فتحرّيتُ طويلاً هذا الجزء، لأجده في مكتبة الجامعة الأميركية في بيروت، التي تحتفظ بنسختين من الديوان: واحدة في مجلد واحد، وثانية بثلاثة مجلدات لأجزائه الثلاثة.

طبع الجزء الأول في المطبعة العمومية بمصر ١٣١٩ ـ ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م، ويبلغ ١٥٤ صفحة من القطع الوسط.

وطبع الجزء الثاني في مطبعة الجامعة بالإسكندرية ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م وعدد صفحاته ١٢٥ صفحة.

وطبع الجزء الثالث بمطبعة الأخبار بالفجالة بمصر ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م وعدد صفحاته ١٥١ صفحة، أي ما مجموعه ٤٣٠ صفحة.

فقابلتُ بين الطبعتين المصرية والبيروتية، فهالتْني الفروق؛ فعدتُ أدراجي في القراءة من جديد، فإذا بي أمام عمل مضنك جرّاء المواضع الكثيرة جداً التي وقع فيها النقصُ، والاختلافُ، بما في ذلك التغيير والتبديل ما بين ألفاظ مفردة، وجمل، وشطور شعرية أو أبيات كثيرة في القصيدة الواحدة، وصولاً إلى قصائد ومقطّعات بكاملها، لم يرد لها ذكر في الطبعة البيروتية.

وفيما يلي عيّنات وشواهد على ذلك.

● ورد البيت الأول من القصيدة الضاديّة التي قرّظ بها الشاعر العراقيُ عبد المحسن الكاظميُ شاعرَنا الرافعي، كما يلي:

أَدري المفوّهُ «مصطفى» صفرتْ وطاب بغَيْضِهِ

وصوابه: «أدرىٰ المفوّهُ. . .». ولم يكتف المحقق بذلك، بل حذف مقدّمة القصيدة التي وضعها شارح الطبعة المصرية، وما أكثر ما أثبتَ هذا الأخيرُ من مقدمات القصائد وعناوينها! كما حذف البيت الثاني من القصيدة، وهو مفعول فعل [درى] في مطلع البيت الأول:

أنّ الحوادثَ أقعدَتْني عن أداء فروضِهِ

(الطبعة البيروتية/ ص٢٢٥)

● ورد البيت الرابع من مقطّعة لاميّة من أربعة أبيات، كما يلي:

فكن عالِماً جاهلاً بينهمْ فهم خدَمُ العالِم الجاهلِ

(الجزء الثاني من الطبعة المصرية/ ص٣٥)

فحرّفه المحقق وقال:

فكن عالِماً عاملاً بينهمْ فهم خدَمُ العالِم العاملِ

(طبعة بيروت/ ص١٥١)

● ورد في البيت الأخير من قصيدة داليّة، من الجزء الثاني، كلمة «خلوداً»

ولو أنّ في الدنيا وفا ءً كانت الدنيا خلودا

فأبدلها السيد المحقق: «سعودا». .

(ديوانه ـ الطبعة البيروتية/ ص٢١٧)

ولم نفقهْ مسوّغ التلاعب والتغيير أو التبديل!.

● ورد في البيت العاشر، من قصيدة دالية بعنوان: «حادثة السّرب المشهورة»

إنما الناسُ ما يخلِّدهُ النا سُ، وإن كان أمرُهُمْ للنفادِ

(الطبعة البيروتية/ ص٢١١)

فقال المحقق: «ما يُوقِّرُه».

● أصاب التحريف ـ ولا نقول التصحيف ـ نثر المقدمات التي كتبها **الرافعي** الشاعر، فعدَّل من بعض ألفاظه، مما لم يستسغه المحقق، أو لم يقع على معناه، كقوله في مقدمة الجزء الثاني، الصفحة الأولى، السطر السادس: «إنسان ملكيته» والأصل: «إنسانٌ بين ملكَيْه».

● أو الصفحة الثانية من المقدمة، السطر السادس: «الشيخ الهَرِمُ» وأصلها في الطبعة المصرية: «الشيخُ الهِمُّ»، بمعنى الهَرِم.

● أو الصفحة الثالثة منها، السطر السادس (دائماً من الطبعة المصرية): «مظَنَّة السرقة» والأصل: «مظنة السَّرَق»، مصدر: سرقَ يسْرقُ سَرِقاً وسرقةً. . .

● أو الصفحة الثالثة، السطر العاشر (ط. مصر): «بالوحي»، والأصل: «وحْياً». . الخ.

وهو ـ أي المحقق ـ في المقابل، ينقل الكلام الخطأ كما هو ظناً منه أن «ناقل الكفر ليس بكافر»، أو أنه أراد أن يُثْبت أمانته، فلا يصوب خطأً ما ينقلُ ويقرأ، ولا يشير إليه، ولو بحاشية.

● كنقله قول **النابغة** في أحد أبياته (طبعة بيروت/ ص١٣٥):

.... إذا ما بنو نعشٍ دنَوا فتصوبوا

فقد نقلها المحقق «بنوَا» بزيادة ألف الإطلاق، تماماً كما جاء في أصل الطبعة المصرية.

● كذلك فعل في أحد ألفاظ بيت **للفرزدق** (طبعة بيروت/ ص١٣٥)

وإجّانةٍ رَيَّا الشروب كأنهما إذا غُمِّسَتْ فيها الزجاجةُ، كوكبُ

فقد نقلها **السيد** «السرور»، كما وردت في أصل الطبعة المصرية.

● كذلك فعل مع أحد أبيات **امرئ القيس**، وفيه (طبعة بيروت/ ص١٣٦)

«إذا نحنُ قمنا عن شِواءٍ مضهَبِ»

فنقلها **السيد**: «مهضَّبِ» كما جاء في أصل الطبعة المصرية.

كل ذلك، من غير تصويب، أو تحقّق!

● وقد وصل التصرفُ المزاجي للسيد المحقق، درجة التحريف والتزوير في صياغة عجز بيتٍ لم يعجبه، ظناً منه أن فيه بعض الكبائر التي لا تقلُّ فيها العقوبةُ عن الإقامة الخالدة في سعير جهنم، عندما جعل البيت الثاني من نونيّة **الرافعي** المحاكية نونيّة **ابن زيدون**، وهو:

تطيرُ نفسيَ من ذكراكَ خافقةً «على ليالٍ تَخِذْنا ذكرها دينا»

فأبقى على صدر البيت كما هو، لكنه غيّر العجز، وقال بصياغة متكلفة، خامدة، لا حياة فيها:

«عـلـى لـيـالٍ تُـوافـيـنـا وتَـسْـبـيـنـا»

(ديوان الرافعي ـ طبعة بيروت/ ص٩١: البيت الثاني).

فأي مدرسة من مدارس التحقيق اعتمد صاحبنا؟ وأي منطقٍ، وأي سنَد اتخذه في حذف ما شاء، وإضافة ما شاء، وغير ذلك مما يأباه العلم والأمانة؟؟

● ومن تجاوزات السيد المحقق، حذفه لعشرات الأبيات، بما يربو على المائة، لا لشيء إلّا لأن فيها بعض الألفاظ الفقهية الإسلامية، والأوصاف التي ترد عادة في النصوص الدينية والتفاسير ونحوها.. ولا سبيل إلى التمثيل عليها ههنا، فهي كثيرة ومحدَّدة بدقة في الحواشي التي ذيَّلتُ بها صفحات الديوان، مع التعاليق المناسبة من حين لآخر.

● ومن تجاوزات المحقق السيد **أسامة السيد**، أو قل إساءاته غير المغتفرة بأي حال من الأحوال، **حذف قصائد ومقطعات بكاملها**، كأن لم يكن لها أثر من قبل، وبخاصة القصائد التي تتعلق بمفتي الديار المصرية الإمام **محمد عبده**، ومَن شابهه في السيرة والموقع، موافقاً بذلك ما قاله **مصطفى الرافعي** في أحوال عصره، في القصيدة عينها التي مدح بها الإمام **محمد عبده**:

مـولايَ أمـسـىٰ الـديـنُ مـمـا بـدَّلـوا　　فـيـه كـمـرقَـعـةٍ مـن الأديـانِ

(طبعة مصر/ جزء ثان/ ص٧٣)

والمرقعة: الثوبُ الذي جرى فيه ترقيع كثير.

وأتساءل في هذا المقام: كيف يمكن لباحث ندَب نفسَه أو انتُدب لتحقيق ديوانٍ، وشرحه والتعليق عليه، أن يتصرف بالنص الذي أمامه (وهو هنا ديوان الرافعي بأجزائه الثلاثة المنشور في مصر منذ ما يقرب من مائة سنة هجرية) من حَذْفٍ جزئي، لأبيات وشطور وقصائد بكاملها، أو تبديل لكلماتٍ وصيغٍ في هذه القصيدة أو تلك، أو تحوير، وما شابه؟؟ وهو الذي عنون كتابه «إيوان الألمعي في شرح ديوانِ مصطفى صادق الرافعي»؟

كيف يُسمِّيه (ديواناً) وقد بتر منه ما يقرب من نصفه، إذا وضعنا في نظر الاعتبار خلوَّ (ديوانه) من الجزء الثالث كليًّاً؟

كيف يكون ديوانٌ، أي مجموع شعر شاعر، وهو يعاني من نقص فاضح في عدد كبير من الأبيات والقصائد والمقطعات؟

وأخيراً، وليس آخراً، متى كان جمع آثار السلف يخضع لأمزجة الباحثين المحققين، فيُثبتون ما يروق لهم ويُغفلون ما لا يروق، أو ما يرونه يمسُّ معتقدهم الفكري أو الديني؟

أفلا يجب آنئذٍ الاعتذار عن عمل كهذا، أو تحويل جهة نشره، من «الديوان» إلى «المنتخبات»، فيَصْدقَ الباحثُ ويتوافقَ مع نفسه ومشربه؟

وأخلص من هذه التساؤلات المُمِضَّة، إلى همسات رقيقة أَهمسها في روع الأستاذ السيّد، ألا وهي:

تَرْكُ الشعر وشأنه لأهله.. فهو، كما يبدو لي، رجلُ دين متشدِّد، كي لا أقول: متزمِّتٍ، ولينصرفْ إلى مسائل أخرى في علوم الدين والقرآن والسنة، فهي أقرب إلى ثقافته الدينية ومذهبه واهتماماته!

أما الشعر فأعذبُه ما خرج به عن جادّة الحقيقة، إلى رحاب الفنّ والخيال، وعن المباشرة، إلى الخَلْق الفني الذي لا يجوز محاكمته ومقاضاتُه كما يحاكَمُ الباحثُ المؤرخُ، والفيلسوف، وعلماء الطبيعة، وكتّابُ البحوث العلمية الرصينة.. وإلّا، فما عليه إلّا القبول التام، غير المنقوص بما يَجمع ويَشرح، وله عند الضرورة الملحة أن يذكر في الحواشي بعض ملحوظاته التي ينبغي معها اللطف الشديد، والتحفظ الهادئ، من دون وعظ وتقريع، وسَوْق التعوذ والاستغفار من حين لآخر، كما فعل السيِّد!!

وأعود من جديد، إلى توضيح السبب الموجب لوضع صفة التحقيق في ذيل عنوان الديوان.

فقد كابدتُ كلَّ المكابدة للتحقق من سلامة القصائد، والأبيات، والألفاظ، التي اشتمل عليها الديوان بطبعتيه المصرية والبيروتية..

ولا أغالي إذا قلتُ، لم أترك بيتاً في الطبعة البيروتية إلّا راجعته وقارنته بمُطابِقِه في الطبعة المصرية، كلمةً بكلمة، لشدّة ما زَرع فيَّ السيد من هواجس البَتْر والتغيير والتحريف.. فكان جهداً تحقيقياً صرفاً بحيث أعدتُ عشرات الأبيات إلى مواضعها في القصائد، وعدداً كثيراً من الألفاظ لا أكاد أحصيه، إلى نصها الأصلي، وكذلك الشطور الشعرية والصيغ المحرَّفة أو المحذوفة. وهو عمل يوازي مهمة التحقيق التي تُجرىٰ على نسخة مخطوطة أو أكثر، لجهة ضبط الكلام، وشرحه، والتثبت من سلامته التي ورد فيها.. وقد بيّنتُ كل ما قمتُ به، في حواشي النصوص الشعرية، وأثناء شرحها.. ناهيك بالأخطاء الجسيمة التي حفلت بها الطبعة البيروتية، إن في التشكيل أو في الفهم المغلوط، أو في كثير من التعاليق المثبتة في هوامش هذه الطبعة.

وصفوة القول، في هذا المقام، إنني لم أصادف في حياتي الأدبية كلِّها، كتاباً اقتُرفتْ فيه خطايا ونواقص، كالذي اشتمل عليه ديوان الرافعي في طبعته البيروتية.

ولهذا وجدْتُني لا أتحرَّجُ من وضع سمة التحقيق على عملي، **وأنا الحريص كلَّ الحرص على ألَّا يوصف عمل من أعمال الكتابة، إلّا بحقيقة الجهد المبذول فيه**، وما أكثر أنواع هذا الجهد ودرجاته من مراجعة، وتقديم، أو إشراف، أو دراسة أو تعليق، أو تحقيق! . .

فلْتُسمَّ الأشياءُ بأسمائها! ولا يجوز انتحالُ أي صفة لا تمتّ إلى الحقيقة بصلة، فتختلط المفاهيم، وتعمّ الفوضى، وتَرخُص الجهود الكبيرة، وتُخبَط الهمم العظيمة، ويُصبح كلُّ صاحب قلم، أديباً، وناقداً، ومحلِّلاً، ومحقِّقاً. . كما هي حال كثير من إصدارات دور النشر في هذه الأيام، ولا رقيب ولا حسيب!!

من معالم صنيعي في هذا الديوان

معلوم أن ديوان **الرافعي**، قد صدر في مصر، مشروحاً من قبل شقيق الشاعر **محمد كامل الرافعي**، الذي ذيَّل مقدِّمات الناظم، في الجزئين الأول والثاني، بكلام يسيرٍ شرح فيه موقع الشعر الذي قدَّمه الشاعرُ للعربية، وردَّ على بعض منتقدي هذا الشعر، كونه صدر عن شاعر لمّا يتجاوز الثالثة والعشرين، وغير ذلك من مشاعر اغتباط وتقدير، وأشياء من صنيع الشارح في الديوان. وللحقيقة، **فإن الشارح هنا، قد اعتمد في حواشيه وشروحه، في معظم صفحات الديوان نهجاً ذاتياً لا يخضع لقاعدة مرسومة**. . فنراه حيناً يسهب في إلقاء الأضواء على هذه الصورة الشعرية، أو الخبر، أو بعض أسماء العَلَم الواردة في طيات القصيدة. . وحيناً يحجم عن ذكر أي شيء. . **فإذا** بالجزء الأول حفل بكثير من الشروح والتعليقات، بينما ضؤل ذلك كثيراً في الجزء الثاني، وكاد أن ينعدم في معظم قصائد الجزء الثالث. ولمَّا كانت الطبعة المصرية غائبة عني طوال المدة التي اعتمدتُ فيها طبعة بيروت وعانيتُ فيها ما عانيتُ. .، كثرتْ شروحي وحواشيَّ، بينما قلَّت نسبياً مع قصائد الجزء الثالث الذي اعتمدتُه مباشرة في طبعته المصرية التي مكَّنتني ـ أي هذه الطبعةُ ـ من إعادة النظر بكثير من الأبيات والمقاطع، وعدد لا يحصى من الألفاظ. أما الشروح والحواشي فلم أجد حرَجاً في الإبقاء عليها، ولكني أضفت ما كنت أراه مفيداً وضرورياً. .

وفيما يلي **أبرز عناوين الجهد الذي قمتُ به في صنيعي الأدبي**:

- **تغيير بعض عناوين القصائد، ومقدماتها**، عندما كنت أجد فيها بُعداً عن موضوع الشعر، أو أنها لا تفي بالعنوان الصحيح، وخاصة في الجزئين الأول والثاني.

- **اختصار شروح محمد الرافعي**، إمَّا لطولها وإسهابها غير الموافقين، وإما لبعدها عن جوهر الشعر المشروح.

- **أبقيت على كل تقديمات النصوص الشعرية** (في الجزء الثالث بخاصة)، **وبسطتُ القول في ما لم يذكر منها شيء**؛ كما قمتُ، بصورة شبه تامة، **بوضع عناوين قصائد الديوان بأجزائه الثلاثة**.

● **لم تكن الحواشي التي ذيلتُ بها نصوص الشعر، شروحاً لغوية أو قاموسية فقط**، بل **تعدَّتْ ذلك إلى بعض النقود اللغوية والبلاغية والأسلوبية**، ممَّا كانت المَلَكةُ، النقدية تلحظُه في المتن، وترى ضرورة إثباته هنا وهناك، من تعليق واستطراد أو شيء من الإحصاء لغير معنى وغير صورة، يَرِدان من حين لآخر.

● **دققتُ في شروح الطبعة البيروتية، فإذا هي ذات منحَيَيْن**:

الأول: محاكاة شرح الرافعي، وتبنِّي الكثير من حواشيه، من دون الإشارة إليها من قريب أو بعيد.

الثاني: التعليق الشخصي على كثير من الأبيات والصيغ الشعرية التي أتى بها الشاعر مُقتبِساً، أو مُضمِّناً أو مُذكِّراً بالنص القرآني والحديث النبوي، أو الفقه الإسلامي، ونحو ذلك؛ فإذا هو **تعليق زجري ردْعي، على جانب كبير من التدخل في السياق الشعري ونظم المعاني** ـ على نحو ما بيَّنتُ في صفحة سابقة ـ **فاستبعدتُ كلَّ هذه الشروح والتعاليق**، وقمتُ بالشرح والتحشية اللذين يقتضيهما الفكر الأدبي، والذوق الفني، بكل تجرد وموضوعية.

● **كما دققتُ النظر في سياق الأبيات، فإذا** بي أمام عشرات الأبيات التي سقطتْ سهواً، والباقي أُسقط عمداً، من دون مسوِّغ أو إشارة، لأنها لم تلق هوى أو رضاً لدى المحقق؛ ومعظمُها، مما يلامس أو يحاكي المضمون القرآني والنبوي، بصورة أو بأخرى.

● اعتمدتُ في نظام الحواشي ضربين: **الترقيم العددي، والنجمة**.

اتخذتُ لنفسي في الجزئين الأول والثاني، نظام الرقم العددي، وجعلتُ حواشي **النجوم، للشارح محمد الرافعي**، لكثرة شروحي وحواشيَّ، من جهة، وقلة المعتمد من حواشي الشارح الأول.

● فيما يتعلق **بحواشي الرافعي الشارح**، كنت **أنقلها، أحياناً، بكاملها، أو أحذف منها ما لا حاجة به**، من غير تصرف بالكلام.

وأحياناً **أقتطفُ ما أراه مناسباً**، وأضيفه إلى شروحي وتعليقاتي، واضعاً إياه بين مزدوجين، محدَّداً في الغالب، موضعه الأصلي في حواشي طبعة مصر.

● من الجهود التي ينبغي الإشارة إليها، أن **شروح الرافعي التي طُبعت، هي** والشعر، **على النهج المصري القديم** في مطالع القرن العشرين وما قُبَيله، وُضِعتْ من **دون علامات وقف، أو إعجام حرف الياء، أو تشكيل من أي نوع**، وخلافه... **هذه الشروح ضبطتها كلها، وأخضعتُها لكثير من العناية والتوضيح**..

• وأخيراً، لا آخراً، ذيَّلْتُ الديوان بما يقتضيه التحقيق العلمي، بعددٍ من الفهارس الضرورية ولا سيما القصائد والمقطعات بحسب رويّها، وموضوعاتها، على التوالي، فتُراجَعُ إمَّا بحسب عناوينها وإما وفقاً للرويّ.

وفهرس للمصادر والمراجع(*) ـ وهو كلُّه، لا أثر له في طبعة بيروت التي لم تشتمل إلا على فهرس واحد هو عناوين القصائد.. فضلاً عن مقدمتي الطويلة التي صرفتُ فيها جهداً خاصاً، دونتُ فيها ـ أي المقدمة ـ كلاماً كثيراً في مهمتي، وفي موضوعات الديوان وخصائص الصنعة الشعرية، فجعلتها في فصلين: الأول في سيرة الشاعر وأحواله وآثاره، والثاني لقراءة ديوانه قراءة نقدية مسهبة، وما سوى ذلك من دراسة أدبية، أرجو لها ولمجمل صنيعي، السَّداد والإفادة، كما أرجو دوام العافية لقلمي، وحسن القصد.

والله الموفق من قبل ومن بعد.

ياسين الأيوبي

طرابلس ـ لبنان
الثامن من رجب الخير ١٤٢٢هـ
الموافق الخامس والعشرين من أيلول ٢٠٠١

(*) لا بدّ ههنا، من التنويه بالجهد القيّم الذي بذله الصديق الدكتور محمد علي صباغ، في إعداد هذه الفهارس... فله جزيل التقدير وجميل الامتنان.

الفصل الأول

مصطفى صادق الرافعي

في سيرته، وأحواله، وآثاره

أ ـ نبذة مقتضبة عن السيرة الذاتية

ينتسب شاعرنا إلى دوحة الرافعيين الذين استوطنوا بلاد الشام واتخذوا من طرابلس ـ لبنان، مَنْبتاً وسكناً. وإلى هذه الدوحة ينتسب عدد كبير من رجالات العلم والأدب والسياسة والقضاء، يذكر منهم:

١ ـ **الأديب، الصوفي، الشاعر**: عبد القادر بن عبد اللطيف بن **عمر الرافعي**، المتوفى ١٨١٥م.

٢ ـ **المحدِّث، اللغوي، الفقيه، الصوفي، الكاتب الشاعر**:

عبد الغني بن أحمد بن عبد القادر **الرافعي**، المتوفى ١٨٩١م.

٣ ـ **المؤرخ**: محمد رشيد بن عبد اللطيف بن عبد القادر **الرافعي**، كان حياً قبل ١٨٩٤م.

٤ ـ **الأصولي، الفقيه**: عبد القادر بن مصطفى بن عبد القادر **الرافعي** المتوفى ١٩٠٥م.

٥ ـ **الكاتب القصصي**: توفيق سعيد **الرافعي** ـ كان حياً قبل ١٩١٠م.

٦ ـ **السياسي، الصحافي**: أمين بن عبد اللطيف **الرافعي**، المتوفى ١٩٢٧.

٧ ـ **القاضي والشاعر المشهور**: عبد الحميد بن عبد الغني بن **أحمد الرافعي** وهو عمُّ الشاعر **مصطفى**، المعروف «**ببلبل سوريا**» (١٨٥٩ ـ ١٩٣٢م).

٨ ـ **المحامي والقاضي والمدرِّس والشاعر**: عزّتلو، **عمر** بك تقي الدين **الرافعي**، من أعلام طرابلس الفيحاء، ولد سنة ١٨٨١ ولم تعرف سنة وفاته.

وعشرات غيرهم ممن يعاصروننا اليوم في طرابلس الشام بينهم القاضي، والشاعر، والطبيب ـ وفي مقدمتهم **نائب طرابلس** السابق الطبيب **عبد المجيد الطيِّب الرافعي**... إلى هؤلاء وغيرهم ممن حَفظتْ أسماءهم وسيرهم كتبُ التراجم، ينتمي شاعرنا **مصطفى صادق الرافعي**.

وهو مصطفى صادق بن عبد الرازق (وفي بعض كتب التراجم: عبد الرزاق) بن

محمد سعيد بن أحمد بن عبد القادر **الرافعي**، المولود في بهْتِيم، إحدى قرى محافظة القليوبية، في كانون الثاني من ١٨٨٠م، الموافق لصفر من ١٢٩٨هـ. وتلقى دروسه الابتدائية في مدرسة دمنهور الابتدائية، ثم في المنصورة، ونال الشهادة الابتدائية. عُيِّن على أثرها كاتباً في محكمة طنطا الأهلية. لكنه لم يشغل القضاء على الرغم من أسرته التي ضمت ما يزيد على الأربعين قاضياً في مصر، بينهم والده عبد الرازق، وأحد جدوده: محمد طاهر الرافعي. ولم يلبث أن مرض، فلزم الفراش أسابيع طويلة؛ ولم يُعْرف نوعُ مرضه، ويُرجَّح أنه عصبي أصاب رأسه وصحته بالكثير من الفتور والانحلال. ثم تطور المرض ليصيب أذنه فازدادت آلامُه، وتضاعفتْ معوِّقاته، ولا سيما أن المرض قد كفَّ سمعَه فصَمَّ، ولم يعد في وسع الناس مخاطبته إلّا بالكتابة إليه؛ وكان ذلك بين الثلاثين والخامسة والثلاثين من عمره. وتفيدنا كتب التراجم وبعض من أرَّخوا لسيرته، أنه ظل في محكمة طنطا حتى نهاية حياته، منكبّاً على مكتبة أبيه الحافلة بكتب الفقه والدين واللغة والآداب، وبخاصة التراثية الشعرية، الأمر الذي زوده بثقافة متنوعة الموارد والطعوم؛ فكان **يكتب المقالة، والرسالة، والقصيدة، والدراسة النقدية، والمقالة الصحفية، ويؤرخ لآداب العرب وتراثهم**، وغير ذلك من فروع المعرفة التي تضمَّنتْها آثاره النفيسةُ المتعددة المذاقات والاتجاهات. وكانت وفاته في طنطا، التاسع والعشرين من صفر ١٣٥٦هـ/ نيسان ١٩٣٧م(*).

ب ـ طبائعه وحالته الصحية

قد لا أضيف جديداً إذا قلتُ: **إن أكثر ما يتصف به الشعراء، حدَّةُ الطبع، وتغير المزاج، ورقة الإحساس لدرجة التقطع الهيِّن** أو قل: **التمزق المُخدق، لدى أية انتكاسة نفسية أو خروج على تناغمية الحياة والسلوك في دنياهم**.. وقد تتناهى الرقة لدرجة الرهافة، والرهافةُ، لدرجة الحدَّة، فالاحتراقِ، لتُضحي الحالةُ الشعورية شكلاً

(*) اعتمدنا في كتابة هذه النبذة على كتب التراجم والسير، الآتية:

ـ **معجم المؤلفين**، لعمر رضا **كحالة**. الجزء الثاني عشر. مكتبة المثنى ودار إحياء التراث العربي. بيروت سنة ١٩٥٧، ص٣٥٦ ـ ٣٥٨.

ـ **الأعلام**، **للزركلي**، دار العلم للملايين، بيروت ط سابعة سنة ١٩٨٦ جزء ٧/ ص٢٣٥.

ـ **مصادر الدراسة الأدبية**، ليوسف أسعد داغر. منشورات جمعية أهل القلم في لبنان، الجزء الثاني، القسم الأول (الراحلون)ص٣٧٥ ـ ٣٨١.

ـ **حياة الرافعي**، لمحمد سعيد العريان، القاهرة سنة ١٩٣٩.

ـ **تاريخ الشعر العربي الحديث**، لأحمد **قَبِّش**. دار الجيل، بيروت سنة ١٩٧١.

ـ **مصطفى صادق الرافعي: رائد الرمزية العربية المطلّة على السوريالية**، للدكتور **مصطفى الجوزو**. دار الأندلس، بيروت سنة ١٩٨٥.

من أشكال الانحراف الصحي في العقل والبدن والنفس. وتفيدنا الكتب التي أرخت لسيرة **الرافعي**، ولا سيما كتابا: **حياة الرافعي** لسعيد العريان، **ومن رسائل الرافعي**، لمحمود أبو ريّة الصادر في القاهرة ١٩٦٩، اللذان اعتمدهما الصديق الباحث الدكتور **مصطفى الجوزو**، في ترجمة أحوال **الرافعي** الصحية، والخُلقية، في كتابه المشار إليه في حاشية سابقة، أنَّ مصطفى **الرافعي** قد استحوذت عليه طبائع وسماتٌ، كشفتْ عنها كتاباتُه الإبداعية، الشعرية والنثرية على السواء، ورسائلُه، وأخباره وحكاياته المرويَّة عنه من قِبل أصدقائه ودارسيه. وفي طليعة **هذه الطبائع**:

● **التأمل الحزين** الذي نشأ فيه وترعرع، وأخذَ بعداً فكرياً تحليلياً، مع العِشْرة الأولى للطبيعة وعناصرها، بدءاً من القمر الذي أوحى له إنشاء كتابه الأدبي الموسوم: «**حديث القمر**» الذي انطلق منه إلى عالمه النفسي وأجواء الحزن والدموع التي كاد أن يفلْسِف حقيقتها وينبوعها، ويخلص من ذلك إلى تداعياتٍ فكرية بعيدة الغور، عميقة التأثير، كقوله، مازجاً بين رومنسية الإحساس وتصوف العابد:

> **«إنّ روحي لا تزال في مذهب الحسّ كأنها تُجهشُ للبكاء، ما دامت هذه الدمعة فيه تجيشُ وتَبتدرُ؛ ولكن إذا أنا سفحتُها وتعلَّقتُ بأشعتك الطويلة المسترسلة، كأنها معنًى غزلي يحمله النظرُ الفاترُ، فلا تُلقها على الأرض، أيها القمر! فإنَّ الأرضَ لا تُقدِّس البكاء، وكلُّ دموع الناس لا تبلُّ ظَمأَ النسيان، ولو انحدرت كالسيل يدفع بعضُها بعضاً»**[١].

ويطَّردُ التأملُ الحزين عنده، ليدخل في رحاب الحكمة الفلسفية، فيُحدِّثنا بلغة تذكِّر كثيراً بلغة **جبران**، **ونعيمة** اللذين انصهرا ـ وهما معاصران له ـ في أتُّون المعاناة الوجودية، وصولاً إلى ما وراء التخوم، فيقول:

> **«فكلُّ حكيم لا يَنبتُ على شاطئ الدموع الشريفة، فهو فيلسوف جافٌّ، كأنه مصنوع من جلود الكتب. وما دمعتي إلا النهر الذي نَبتُّ في شاطئه؛ وهي أطهر شيء وأصفاه، لأنها مخلوقة من ثلاثة عناصر تُقابل العناصر السماوية: من الحب** الذي يقابلُ عنصرَ **النار**، ومن **اللين** الذي يقابل عنصر **الهواء**، ومن **البكاء** الذي يقابل عنصر **الماء»**[٢].

ويعرض الدكتور **الجوزو** لطبيعة الحزن لدى **الرافعي**، فيصل إلى أن هذا الأخير «**يعترف** بكينونة الحزن فيه».. «إنه التطير الذي يُعرف به الأشخاص الحسّاسون الذين يُريبهم المجتمعُ وتخيفهم الطبيعة».

---

(١) **حديث القمر**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة السابعة سنة ١٩٧٤/ ص١١.

(٢) **حديث القمر** ص١١.

يَنتجُ عن ذلك سأمٌ، وضجرٌ، وضيق، وسخط على الناس، تنتهي كلها بالاعتزال والانقطاع عنهم[١].

● من طبائع الرافعي، **إيمانه العميق بالغيب** الذي جعله يُحدِّث أصدقاءه أحاديث غريبة عن الأرواح والشياطين، ومناجاة الأموات للأحياء أو العكس، الأمر الذي جعله يَركُن كثيراً إلى أعمال السحر وتصديق الهواجس الداخلية التي كانت تنتابه، فيتخذها نقطة ارتكاز في كثير من تصرفاته وسلوكاته في القول والكتابة[٢].

● كبرياء شديدة وتصلب في المواقف

نجد ذلك مع بعض كتاب عصره الذين خطَّأهم **الرافعي**، ولم يتقبَّل ردودهم برغم صوابها وصحتها، ومنهم **أحمد شوقي، وعباس العقاد، وطه حسين، وزكي مبارك**.. فكان يرى نفسه نموذجاً لصحة التعبير والتصور لا يكاد يجاريه في هذا الباب أحد[٣].

● سمة التعظيم الذاتي

توقف الدكتور **الجوزو** عند هذه السمة، فأوضح بعضاً من ملامحها وآثارها؛ فإذا هو ـ أي **الرافعي** ـ المثال الأعلى للشاعر والإنسان، وأنه في **الطبقة الأولى** من شعراء عصره، وأن **إمارة الشعر يجب أن تكون له**، لا **لشوقي**، «وهو يقدم نفسه على **طاغور**»، و«يرى كلامه أرقى من كلام الفيلسوف الفرنسي **هنري برغسون**، ويفكِّر في معارضة «**غوته**» في روايته الخالدة: «**آلام فُرتر**»؛ كما أنه يطمح إلى عالمية الشعر بين شعراء الكرة الأرضية وأدبائها، يضاهي كلاً من **غوته وشكسبير وهيجو**...

ويبلغ به التعظيم الذاتي تشبيه نفسه **بالسيد المسيح**، «موقناً بأنّ الوحي قد يأتي بأسمى البيان وأعلى الحكمة وأعجب البلاغة، متى كانت النفس مختارةً مصطفاة، كالذي أُوحيَ من الكتب المُنْزلة؛ فليس يشكُّ فيه إلّا غبيٌّ بليد الحسّ، لا يدري ما هو البيان ولا الإلهام»[٤].

ويذكر **العريان** في كتابه المشار إليه، غير مرة، أن أديبنا **الرافعي** قد شحذ قريحته لوضع قصيدة طويلة شبيهة بأحد أسفار التوراة أو أناشيد سليمان.

---

(١) **مصطفى صادق الرافعي: رائد الرمزية العربية**... ص٣٤. ولمزيد من الاطلاع والتأمل، تُقرأ الفصول أو الفقرات الخمس تحت عنوان «الجمال البائس»، ومحوره أحاديث ولقيات مشوّقة بين الشاعر وإحدى نساء المسارح في الإسكندرية: (**وحي القلم** جـ١/ ٢٦٨ ـ ٣٠٥).

(٢) **حياة الرافعي**، لمحمد سعيد **العريان**/ ص٢٧٤ وغيرها.

(٣) اقرأ بعض التفاصيل في كتاب الدكتور **الجوزو** أعلاه (ص٤٧ ـ ٤٨).

(٤) كتاب الجوزو، ص٥٠ (نقلاً عن كتاب: **من رسائل الرافعي**، لمحمود أبو ريّة).

ويلخص **مصطفى الجوزو** خاصية التعظيم الذاتي هذه، وبعض طبائعه الشخصية الأخرى قائلاً:

«باختصار، إن الرجل لم يكن اجتماعياً، بل كان فيه صلف وشدَّة، وميل إلى الاعتزال والتهديم، على أنه كان مرحاً في حضور النساء، له في مجالسهن دعابة وفكاهة» (. . .) ويرجِّح الدكتور **الجوزو** أن في شخصية **الرافعي** ازدواجية ما بين مرحه من جهة، واعتزاله الناس والتودد إليهم[١] من جهة ثانية.

أما الحالة الصحية

فلها فصول وأطوار، بدأت مبكرة في حياته، واتخذت أشكالاً شتى ودرجات متفاوتة الخطورة والتأثير.

وقد رصدَها الدكتور **مصطفى الجوزو**، وأفرد لها فقرة خاصة في كتابه[٢]، نقف منها على أهم العناوين والمحطات.

- تفيد الرسائل التي كان يبعث بها إلى صديقه محمود أبي ريَّة، **أنه كان دائم الاعتلال** سقيماً، لا يفتأ يذكر له مداهمات المرض له، وتعطيله عن الكتابة والتأليف، بما في ذلك الرسائل الصغيرة إلى الأصدقاء.

- معظم **أمراض الرافعي، ذات منشأ عصبي** تعاقبت عليه منذ فراغه من الجزء الثاني من كتابه: **«تاريخ آداب العرب»**. ومحور هذا المرض دماغُه الذي كان في جدلية شبه دائمة بين الصحة والمرض؛ ويرجح الدارسون أن دواءه تمثل في الرياضة، والهواء الطلق، وفي أحيان كثيرة، في الانقطاع الاضطراري عن الكتابة والتأليف.

- وقد **أخذ المرض يُعيقه** عن كثير من مخططاته وأعبائه منذ العام ١٩١٥ وهو في الخامسة والثلاثين، حيث أصابه في أذنه وسمْعه؛ فيتوقف عن الكتابة في أوقات متلاحقة، فيزداد مرضه وتزداد هواجسه بسبب انعدام الكتابة التي، بقدر ما يرتاح إليها ويجد فيها منفذاً لوحدته وتنفيساً لتوتر أعصابه، ترفع درجة الداء وتتسع دائرته **ليشمل معدته** ورئتيه اللتين تصابان **بسعال** شديد يشتد ليصبح **نزلة شعبية** تورثه التعب الشديد والخمول الطويل فيقعد سنة كاملة عن الكتابة. . في سنة ١٩٢٦.

ولكن الكتابة هوًى مستبد لا يعالج إلَّا بمزيد منها، مصداقاً لقول **أبي نؤاس «وداوني بالتي كانت هي الداء»**! فيكتب **«أوراق الورد»** في أعلى درجات الإجهاد والضعف الشديد، كما يكتب عدداً من المقالات والمطالعات والقصائد، وهو يزداد

---

(١) المرجع نفسه/ ص٥٣.

(٢) المرجع نفسه/ ص٢٣ ـ ٣٠.

انحرافاً وهزالاً وتخبطاً بين البرء والسقام، الكتابة والانقطاع عنها؛ كل ذلك في سباق مع الزمن حتى قبل وفاته بثلاث سنوات، فنجهل أخباره الصحية بسبب انقطاع رسائله مع **أبي رية**.

«هذه كانت حالة **الرافعي** التي نظن فيها نوعاً من الربو أو التهاب المسالك التنفسية، متأتياً عن مرض عصبي. وربما كان مرضٌ في الكبد قد تبع ذلك، وأثر في معدته؛ وربما كان مرضه العصبي سبباً في صممه»[١].

«ثم انتقل الداء إلى صدره، فأصاب حبال صوته حتى كاد يمنعه من الكلام، وترك تلك الحبْسة في حلقه التي تجعل صوته أشبه بصراخ الطفل»[٢].

ج ـ الرافعي وأدباء عصره

إن المرحلة التي عاش فيها **الرافعي**، شهدت حركة أدبية وفكرية لا نكاد نجد لها مثيلاً إلا في العصور الذهبية التي عرفها العرب في العهود العباسية، كعهد **الرشيد**، **والمأمون**، وعصر **سيف الدولة**، **والصاحب**، **وابن العميد**.

فهو العصر الذي تألقت فيه أسماء لامعة، ورجالاتُ علم وسياسة وأدب، رفدوا أمتهم ولغتهم بأنفس ما جادت به قريحة، وصاغه قلم..

من هذه الأسماء، في مصر: **محمود سامي البارودي**، **سعد زغلول**، **ومحمد عبده**، **وأحمد شوقي**، **وحافظ إبراهيم**، **وعباس محمود العقاد**، **وأحمد أمين**، **ومصطفى لطفي المنفلوطي**، **ولطفي السيد**، **وأحمد حسن الزيات**، **وسلامة موسى**، **ومحمد حسين هيكل**، **وزكي مبارك**، **وطه حسين**، **وإسماعيل مظهر**...

ومن العرب: **أمين الريحاني**، **ويعقوب صروف**، **وإبراهيم اليازجي**، **وعبد المحسن الكاظمي**، وشاعر سوريا **عبد الحميد الرافعي**، **وعبد الرحمن البرقوقي**، وغيرهم، عدا أنسبائه من الرافعيين ولا سيما أبناء عمومته ممن نبغوا في أيامه.

هذه القائمة التي ذكرتُ، قد جمعته بأعلامها، صِلاتُ وُدٍّ أو خصومة: مَنْشأُ الاثنين، موقفُهم من نتاجه الشعري والنثري، بين مؤيد ومعارض، مادح مُطْرٍ، أو ناقدٍ مُزْرٍ، نصيبُ النقد والتحامل أو التجريح، أكبر من الجانب الأول.

لن أعرض لجميع هذه العلاقات وأصحابها جميعهم، بل أكتفي بإشارات خاطفة لبعضها، متوقفاً بعض الشيء عند ما أسميه **عقدة طه حسين**.

● من علاماته السلبية المنطوية على حقد طويل الأجل، **موقفه من صاحب «النظرات»**

---

(١) المرجع نفسه/ ص٢٩.
(٢) المرجع نفسه/ ص٢٩.

مصطفى لطفي المنفلوطي الذي لم يقدِّر أسلوب الرافعي، ونظر إليه باستخفاف؛

• أو موقفه من عباس العقاد عقب صدور كتاب «إعجاز القرآن»، وامتداح سعد زغلول له، الأمر الذي أغاظ العقاد؛ وكانت ردودٌ ومواقف زادت من خصومة الرجلين وتربصهما بعضهما ببعض في مقالات شديدة التطرف ولا سيما من قبل الرافعي؛

• أو موقفه من الدكتور زكي مبارك، وتخطئة الرافعيّ له فيما اكتشفه من أغلاط شنيعة وقع فيها المبارك في تقديم كتاب «زهر الآداب» للحصري القيرواني، وأمور أخرى تتصل بما نسبه مبارك من رسائل صبيانية غلمانية، إلى رسائل الحب والغرام، وهي في نظر الرافعي من الرسائل الإخوانية؛

• أو موقفه من سلامة موسى الذي نقد أدب الرافعي وشعره فرأى فيه نهجاً شعرياً قديماً، بعيداً عن حركة التجدد الحديث، وما إلى ذلك، فتصدى له الرافعي، وعرَّض به وبسيرته لدرجة الدخول في ترهات القول وسفاسف الأمور.

• • • أو موقفه من كلٍّ من أحمد أمين، ومحمد حسين هيكل، ولطفي السيد، وكلُّهم أصابتْهم جمارُ الرافعي وناره، والسبب البارز في ذلك، نصرتهم لطه حسين في خصومته للرافعي، ودعوة بعضهم إلى الفرعونية أو ما عرف بالتمصير.

• وقل مثل ذلك، عن أمين الريحاني وتصاعد التأييد لمنحاه الشعري في نثره، كما هو لديوانه الشعري الذي أصدره بالإنكليزية.

هؤلاء الأدباء وغيرهم، مثَّلوا في نظر الرافعي واجهة الأدب العريضة للمرحلة التي عاشها أديبنا، ولم تكن في المستوى المرجوّ كما يطمح إليه، بل على العكس، ازدادت فاعليتها في الأوساط الأدبية، مشكِّلة جبهة قوية لا يستهان بها ولا يقوى أحد على زعزعة بنيانها.. من هنا كانت فكرة إنشاء كتابه الطريف جداً «على السَّفُّود» الذي مثل الوسيلة الفضْلى في الانتقام من هذه الزمرة، ومقاضاتها بما يشبه الحساب العسير الذي يلقاه أهلُ الكفر والنفاق في دار السعير بالآخرة..

• أما معركته مع عميد الأدب العربي طه حسين، ففحواها وخلاصتها ما يلي:

تناول الدكتور طه حسين أحد كتب مصطفى الرافعي ـ وهو: «رسائل الأحزان» ـ بالنقد، ونشر هذا النقد في القسم الأدبي من جريدة «السياسة» التي كان يرأسها محمد حسين هيكل[١]. ويدور حول نقاط كثيرة، لا يسعني

---

(١) نشر النقد على مرحلتين أو مقالتين: الأولى بعنوان: «عود إلى كتاب هيكل: رسائل الأحزان في فلسفة الحب والجمال». والثاني: «أحسن إليّ وأنا مولاك»، الجزء الثالث، المجموعة الكاملة لمؤلفات طه حسين، دار الكتاب اللبناني ـ الطبعة الثانية، المجلد الثاني بيروت سنة ١٩٨٠ (ص٦٩٥ ـ ٧١٠).

تفصيلها والوقوف عليها جميعها، ولكنني أوجز أهم ما جاء فيها.

ـ يفتتح طه حسين مقالته الأولى بقول مبسط جامع هو:

«الأستاذ الرافعي لا يُحب النقد إلّا أن يكون هذا النقد على هواه»[(١)].

ـ يعترف طه حسين بادئ ذي بدء، **بصعوبة الكتاب وبعدم فهمه له**.

ـ وتالياً **لا يمكنه الردُّ على طلب الرافعي** بحسْن نقده وإبداء الرأي الجميل فيه، على الرغم من طلب الرافعي الملح غير مرة. وما دام طه لا يفهمه، فإنه لا يمكنه نقده، وإذا نقدَه فلن يكون ذلك جيداً.

ذلك أن طه يقرأ القرآن ويفهمه، ويقرأ الشعر فيفهمه، ويقرأ ضروباً من النثر العربي والأجنبي فيفهمها، أما كتاب الرافعي، فلم يفْهمه[(٢)].

ـ **ويفصِّل طه حسين الأمر أكثر، فيقول:**

«إنَّ كل جملة من جُمل هذا الكتاب تبعث في نفسي شعوراً قوياً مؤلماً بأن الكاتب يلدها ولادةً، وهو يقاسي في هذه الولادة ما تقاسيه الأمُّ من آلام الوضع (. . .) ولكنه لا يظفر من هذه الآلام بشيء.

(. . .) وتَظْلم الأستاذ الرافعي إن قلت: إنَّ حظَّه من العلم باللغة العربية وآدابها وبدقائقها قليل. وإنما الحق أنَّ الذين يَعْلمون هذه اللغة، كما يعلمها الأستاذ الرافعي، قليلون جداً.

ولكن ماذا تريد وقد أبى الأستاذ الرافعي أن يكون علْمه باللغة مفيداً، وأن يكون ظهوره على أسرارها نافعاً[(٣)]»!

ـ **يعمد طه حسين إلى شيء من المقارنة بين عباس العقاد ومصطفى الرافعي، فيجد أن غموض العقاد مقبول، وغموض الرافعي مشكول.**

ـ ثم يعترف للرافعي، **بجمال العبارات والجمل**، لكنه لا يُطْنب في ذلك، بل يرى فيها ما يُرى من جمال الرياح والأعاصير، ليصل إلى أن **الرافعي**: صاحب مذهب غريب في النثر،

«فيتكلَّف العَناء والمشقة في الغوص على المعاني الغريبة، ثم يتكلف العناء والمشقة في أن يُسبغ على هذه المعاني الغريبة ألفاظاً غريبة؛ حتى إذا تمَّ له من ذلك خَلْقٌ غريب، رَصَّ هذا الخَلْقَ بعضه إلى بعضٍ،

---

(١) المصدر السابق/ ص٧٠٠.

(٢) م. ن. ص٧٠١.

(٣) م. ن. ص٧٠٢.

فاتّسقت منه رسالة، ثم يستأنف العمل حتى تتَّسقَ له رسالة أخرى، ورسالة ثالثة ورابعة، ثم يرصُّ هذه الرسائل بعضها إلى بعض، فيتَّسِق له منها كتاب»[١].

ـ يَسُوقُ طه بعض الشواهد الأدبية من غموض الرافعي، معلِّقاً على الغموض والغرابة، ليختم الفصل بدعوة إلى

«من يريدون أن يُروِّضوا أنفسَهم على الطلاسم واقتحام الصعاب، وتجشُّم العظائم من الأمور، يستطيعون أن يجدوا في كتاب الرافعي ما يريدون»[٢].

ـ ويرى طه حسين أن سبب غموض الرافعي في كتابه الآنف الذكر، هو عدم فهمه لفلسفة الحب والجمال، وهذا يعود إلى عدم إحساسه بهذه الفلسفة أو شعوره بها. وتالياً فهو يكذب على الناس، ويتكلف القول، وعلى نفسه، وقلبه.

ـ لذلك ينصحه طه باعتماد طرائق القدماء في صدقهم مع أنفسهم ومع الناس، من هنا فهمنا لهم، وعدم فهمنا لهؤلاء السادة «المتقادمين»[٣].

ـ ثم يلخص فحوى الفصل الذي قام طه بنشره، للرافعي، بأنه:

حقد وخوف وتحدٍّ: حقدٌ على من يَنبرون لنقده بما لا يريحه، وخوفٌ مسبق من النقد، وتحدٍّ في أن يقوم طه حسين ومَنْ على شاكلته بكتابة مثل هذا الفصل بأقل من ستة وعشرين شهراً، وهو لم يستغرق فيه أكثر من ستة وعشرين يوماً.

ـ وينتهي عميد الأدب العربي من كلامه في المقالين المذكورين بتسليط الضوء مجدداً على أوصاف الرافعي،

فهو غامض، عابث باللغة، متسوّل على الناس في المدح والثناء، حاقد مغرور، معجب بنفسه، سفيه، محموم أو كالمحموم، حريص على سماع المديح والثناء كيفما كان.

ـ ولا يجد مناصاً من توجيه النصح الموفي إلى التبصر والاعتبار؛ وأهم هذه النصائح: التمييز بين المدح والنقد.

«فمهما يكن الذي ينقدُك سيِّئ النية، أو مُسْرفاً في ظلمك والجور عليك، فهو يدلك على عيوب أنت خليق أن تمتحنها. فإن تكن فيك، اجتهدتَ في أن تبرأ منها؛ وإن لم تكن فيك، حمدتَ اللّه واجتهدتَ في ألّا تتورط فيها». كن عاقلاً! واعلمْ أنَّ الثناء الخالص الذي لا يشوبه

---

(١) مصدر نفسه/ ص٧٠٣.

(٢) م. ن. ص٧٠٤.

(٣) م. ن. ص٧٠٦.

النقد، إنما هو كالماء أُذيب فيه كثيرٌ من السكَّر، وتُوشك، إن أسرفتَ في شربه، أن يأخذك الغثيان»(١).

تلكم هي خلاصة الخصومة الأدبية التي نشأت بين **الرافعي وطه حسين**! وقس على ذلك سائر الخصومات التي إن لم تشهد هذا السجال المتواصل والمخاطبة الجارحة المكشوفة، من دون ابتذال في القول أو تجريح في المقام الشخصي والنسبي. . ، فإنها أذكتْ مشاعر العداء لمعظم الكتاب الذين عاصرهم **الرافعي**، وأجَّجت من وتيرة أسقامه المتواصلة والمتعاظمة يوماً بعد يوم.

ولئن توقفتُ عند الجانب السلبيّ دون الإيجابي، من هاتيك العلاقات، فلأنَّ ديوانه قد تولَّى إيفاء الجانب الأخير حقَّه من القصائد المادحة أو المقدِّرة، أو الرائية التي طالعتْنا في هذا الجزء أو ذاك من ديوانه الشعري الكبير. . وتجدر الإشارة إلى أن هذا الديوان قلَّما اشتمل على قصائد القدح والذم أو ما يعرف بالهجاء، إلّا ما كان في السلوك الأدبي العام وبعض المواقف الاجتماعية المتخادلة، مما تضمنتْه أبواب الحكمة والأوصاف العامة؛ بينما حفل بقصائد المدح والإشادة بمحاسن الأشياء، وجمال القيم، والمآثر الإنسانية التي تحلَّى بها الشاعر وأصدقاؤه الخلَّص الذين امتدحهم غير مرَّة، ومنهم أمير الشعراء **أحمد شوقي**، و**محمود سامي البارودي**، و**حافظ إبراهيم**، والإمام **محمد عبده**، والشيخ **عبد المحسن الكاظمي**، و**يعقوب صروف**، والشيخ **إبراهيم اليازجي** و**مصطفى لطفي المنفلوطي** و**حسين مهدي**، وغيرهم.

د ـ آثاره

ترك **مصطفى صادق الرافعي** آثاراً جلَّى في فنون الأدب، نثراً وشعراً، خواطر وتأملاتٍ، ورسائل متنوعة، ومقالاتٍ نقدية، فضلاً عن الشعر بمختلف أبوابه وأغراضه، وفصول الدراسة الأدبية التاريخية. . فإذا نحن **أمام حصادٍ ثرّ، وقطوف شهية تُرضي الأذواق، وتغني النفوس وتزرع فيها نوازع البحث عن حقائق الحياة ودقائق العصر، أو تُوقظ فيها الحنين إلى معانقة الشرفات المطلة على سفوح المعرفة المترامية الأطراف، المتناهية الألق.**

وسأقف عند هذه الآثار وقفة العارض المتأمل، لا الدارس الناقد، استكمالاً للتعرف إلى هذه الشخصية الأدبية التي أدرك صاحبها أنها لن تُعطى ما تستحق من التقدير أو ما قدَّرَ لها هو، فإذا بـ يُغدق عليها من رفيع النعوت وجليل القدر، ما جعله يرى نفسه فوق الوصف والتقدير بين قائمة الكتاب والشعراء الذين عرفهم عصره.

---

(١) المصدر نفسه/ ص٧٠٨.

وتقع آثار الرافعي ضمن دوائر ثلاث، متداخلة متكاملة في جوهر الصنعة الأدبية، مختلفة متباعدة من حيث الاتجاه والينبوع.

● **الدائرة الأولى** وتضم كلاً من:

١ ـ تاريخ آداب العرب

جعله المؤلف في ثلاثة أجزاء اشتمل كل جزء على بضعة أبواب، وهي مجتمعةً، اثنا عشر باباً.

حوى الجزء الأول: على البابين الأول والثاني، وهما في:

١ ـ **تاريخ اللغة** ونشأتها وما يتصل بذلك.

٢ ـ **تاريخ الرواية ومشاهير الرواة**، وما تقلب من ذلك على الشعر واللغة.

وحوى الجزء الثاني: الباب الثالث وهو في: **منزلة القرآن الكريم من اللغة وإعجازه وتاريخه** وقد سمّاه المؤلف: **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**.

وحوى الجزء الثالث والأخير، الأبواب الباقية فيما عدا أربعة منها هي: الرابع، والثامن، والتاسع والثاني عشر. أي أن هذا الجزء تضمَّن الكلام في:

ـ **تاريخ** الشعر العربي **ومذاهبه وفنونه المستحدثة**.

ـ **حقيقة القصائد المعلقات ودرس شعرائها**.

ـ **أطوار الأدب وتقلب العصور، وتاريخ أدب الأندلس إلى سقوطها**.

ـ **التأليف وتاريخه عند العرب**، ونوادر الكتب العربية.

ـ **الصناعات اللفظية** التي أولع بها **المتأخرون** في النظم والنثر.

أما الأبواب الأخرى الغائبة، فيرجَّح أن المؤلف قد نوى بحثها والكتابة فيها فلم يفعل.

صدر **الجزء الأول في** القاهرة ١٩١١ ويقع في ٤٤٣ صفحة.

وصدر **الجزء الثاني** في مطبعة الأخبار بمصر ١٩٢٢ ويقع في ٣٦٦ صفحة.

ثم في طبعة رابعة بتحقيق وضبط وتصحيح محمد سعيد **العريان**، مطبعة الاستقامة مصر ١٩٤٠؛ ويقع في ٤٥٢ صفحة.

وصدر **الجزء الثالث**، في مطبعة الاستقامة ١٩٤٠ ويقع في ٤٥١ صفحة. بإشراف وعناية محمد سعيد **العريان**..

بقي أن أقول إنّ الأبواب التي غابت عن البحث ولم ترد في الكتاب، هي:

ـ تاريخ الخطابة والأمثال في الجاهلية والإسلام.

ـ تاريخ الكتابة وفنونها وأساليبها ورؤساء الكتاب فيها.

ـ حركة العقل العربي وتاريخ العلوم، وأصناف الجاهلية في الجاهلية والإسلام.
ـ الطبقات وشيء من الموازنات[١].

٢ ـ تحت راية القرآن، أو المعركة بين القديم والجديد.

طبع في المطبعة الرحمانية ١٩٢٦، ويقع في ٤٣٧ صفحة.

أصل هذا الكتاب، مقالات كتبها **الرافعي** في الأدب العربي، والرد على كتاب الدكتور **طه حسين** «**الشعر الجاهلي**»، كان قد نشرها تباعاً في مجلة «**كوكب الشرق**» ومجلة «**الزهراء**» ثم «**البيان**» وغيرها.

٣ ـ على السَّفُّود

وهو مجموعة مقالات نقدية جارحة في عدد غير يسير من كتّاب عصره، بينهم **طه حسين**، و**عباس محمود العقاد**، و**زكي مبارك**، وفيه غير سفّود في شاعر معاصر له شغل مهنة التحرير في ديوان الملك فؤاد، وهو **عبد الله عفيفي** الذي كان يلقبه **الرافعي** بالشعرور. صدر الكتاب في منتصف ١٩٣٠.

و«**السَّفُّود**» في اللغة: حديدة ذات شُعب معقَّفة، يُشوى به اللحم، وجمعه سفافيد[٢].

ولنا أن نفهم المنحى الذي ذهب إليه **رافعيُنا**، والمستوى الهابط لدرجة الإسفاف والتجريح الشخصي، اللذين دار في فلكيهما الكتاب المذكور، بحيث خرجت الكتابة عن مسارها الفني المرسوم إلى دَرْك من خصومة الرعاع يتلبَّسُها **الرافعي** من غير حرج ولا تحفظ؛ على الرغم من أن معظم هذه السَّفافيد، قد وضع في أحوال صحية سيئة.. وإن كان لي من تعليق على هذا الكتاب، فهو أنه فريد في بابه ومنحاه، إذ يمكن وضعه تحت خانة «**الحقد الأدبي**» لا النقد الأدبي، ولعله بذلك أول من كتب في هذا النوع الغريب في أدبنا العربي.

● ● الدائرة الثانية

وتضم الغالبية من كتب **الرافعي** التي تنتسب في نسيجها ومنطلقها، إلى **الأدب الإنشائي**، من خواطر، وتأملات، وقصص، ورسائل، على جانب كبير من جودة التعبير وجمال التأثير... وهي على التوالي:

١ ـ حديث القمر

مجموعة فصول من الأدب التأملي، اتخذ من القمر ضمير خطاب ومناجاة،

---

(١) اقرأ مزيداً من الكشف والتوضيح، مقدمة الجزء الثالث، بقلم **محمد سعيد العريان**، دار الكتاب العربي، الطبعة الثانية، بيروت سنة ١٩٧٤، ص١٠ ـ ١٢.

(٢) «**لسان العرب**» لابن منظور. [سفد] ٣/ ٢١٨.

ولكنه في الحقيقة، ضمير امرأة لقيها في منتجع صيفي في لبنان، وهي شاعرة على قدر كبير من الجمال والثقافة العالية.

صاغ فصول الكتاب بلغة قريبة من الشعر، جمع فيها بين الحكمة، والحوار، والتحليل، والمعالجة الهادئة. وطرزها بقصيدة عمودية قوامها أربعة وأربعون بيتاً، بعنوان: «الشرق المريض» مطلعها:

يا مَن لهذا المريض المدْنَف العاني ... مردَّدِ النفس من آنٍ إلى آنِ

ويختمها، ببيتين، يودعهما العلاج الشافي لهذا المريض، ألا وهو الحب الخالص من كل الأدران:

دارُ السعادة دارُ الحب دار منى الـ ... ـأحباب، دارُ الغرام الخالد الهاني[1]

والجدير ذكره أن فصول الكتاب العشرة، بما في ذلك، القصيدة الشعرية، كتبها المؤلف في غضون شهر ونيف، وصدر في طبعته الأولى ١٩١٢، واختُلف في ملهمته فيه، ما بين الأديبة الذائعة الصيت: مي زيادة أو امرأة أخرى لها شأن مماثل.

٢ ـ رسائل الأحزان (في فلسفة الجمال والحب)

كناية عن أربع عشرة رسالة، في ١٨٤ صفحة، كتبها الرافعي في سنة إصدارها ونشرها في القاهرة ١٩٢٤؛ ضمَّنها خواطر فلسفية في الحياة والقدر، والعقل، والقارئ. وهو الكتاب الذي تناوله عباس محمود العقاد بالنقد والتعليق؛ من خلال عنوانه فقط، لم يتعدَّه إلى المحتوى الذي يقع وراء الغلاف أو العنوان[2].

نَحا فيه المؤلفُ نحو غوته في روايته الشهيرة «آلام فرتر» التي لم ير فيها الرافعي عملاً مميزاً، ومع ذلك شرع في معارضتها وكتابة رسائل من نفس النوع الذي كتبه غوته أو بطلُ الرواية، فرتر.

الكتاب إذاً ترسلي، لا تزيد صفحاته عن صفحات «فرتر» بشيء يذكر، والجو العام المخيم كآبة وقلق وآمال ضبابية، من خلال حب بائسٍ، لئن أدى إلى انتحار البطل «فرتر» في رواية غوته، فإنه جرف الرافعي إلى ما يُشبهه أو يقرب منه.

ومع ذلك فهناك أمور كثيرة يختلف فيها الكتابان، اختلافاً بيِّناً، ومنها:

---

(١) حديث القمر، دار الكتاب العربي، طبعة سابعة ـ بيروت سنة ١٩٧٤، ص١٠٩ و١١٣.

(٢) نشر العقاد الدراسة في كتابه: «مطالعات في الكتب والحياة» دار الفكر، القاهرة سنة ١٩٧٨، ص٢٥٠، وكان قد نشرها أول مرة في صحيفة «البلاغ» في ٢٠ أيار سنة ١٩٢٤.

ـ أن الرسائل كانت ترد من صديق ما إلى مصطفى صادق، بينما كان فرتر هو الذي يبعث الرسائل، من غير أن يتلقى رداً واحداً طوال الرواية.

ـ كذلك هي حال الرسائل التي بقيت في كتاب «رسائل الأحزان» على طبيعتها الموضوعية في أدب الترسل، بينما اتخذت منحى قصصياً سردياً على جانب كبير من التطور الدرامي وتعقيد الأحداث والأدوار، لدى فرتر ـ غوته.

ـ ناهيك بالإثارة والغوص إلى أغوار النفس الحسّاسة المتوهجة في قلب البطل، أو قل: أبطال الرواية الألمانية، على قلتهم وضيق دائرة تحركهم. بينما غلب الحوار الفلسفي التأملي على جو «رسائل الأحزان».

ـ بقي أن نشير إلى أن هذا الكتاب بالذات كان شرارة الخصومة الكبرى بين المؤلف وطه حسين، الذي كتب مقالتين فيه ونشرهما في صحيفة «السياسة»، كما أشرنا في فقرة سابقة. وأرى أن العميد حسين لم يحسن تذوق الكتاب ولم يتقبل الأسلوب الشاعري الرمزي الذي صاغ منه الرافعي كتابه؛ فما كان منه، أي العميد، إلّا أن نعته بالغامض المستغلق، وما هو كذلك، في رأينا..

٣ ـ السحاب الأحمر

عدّه بعضهم، تكملة لكتاب: «رسائل الأحزان»[١]، بينما رأى فيه بعضهم «كتاباً مختلفاً لا يكمل الأول»[٢].

ـ صدرت الطبعة الأولى في المطبعة السلفية بمصر ١٩٢٤، في ١٨٠ صفحة.

ـ وصدرت الطبعة الثانية في مطبعة الاستقامة بمصر ١٩٤٢ في ١٦٠ صفحة.

والكتاب بمضمونه العام مجموعة مقالات في المرأة، وحبها، وبغضها، ولؤمها. ولكن بعض هذه المقالات اتخذ صفة الحكاية القصصية، وبعضها تأملات وخواطر في الحب والمرأة وشجون العلاقة معها. وبلغت فصولُه في ذلك كله تسعةً، أهمها الأوّلان. وقد قرّظه الرافعي كثيراً وجعله في مرتبة أولى بالنسبة إلى كتبه ورسائله، كما جعله أهم ما كتب في العربية في موضوعه.

٤ ـ أوراق الورد أو «رسائلها ورسائله»[*]

صدر أول مرة في المطبعة السلفية بمصر، سنة ١٩٣١ عن ٢٩٩ صفحة. وكان قد بدأ بكتابته قبل ذلك بست سنوات، وقيل ثماني سنوات.

---

(١) يوسف أسعد داغر: مصادر الدراسة الأدبية (مرجع سابق) ص٣٧٧؛ والرافعي نفسه يرى ذلك.

(٢) د. مصطفى الجوزو: مصطفى صادق الرافعي.. (مرجع سابق) ص٧٤.

(*) اقرأ سبب وضع هذا الكتاب، في مقدمة مقالة بعنوان: «ورقة ورد» (وحي القلم) جـ١/ ٩٨.

وهو عبارة عن «**طائفة من الخواطر في فلسفة الجمال والحب، أنشأها الرافعي ليصف بعض أحواله في سنيّ عمره**»(١).

وسبب تسمية الكتاب «بأوراق الورد» كما يقول المؤلف في مقدمته، إقبال امرأة جميلة على تعليق وردة كانت تشمها، على عروته، قائلة له:

«**ما أرى الحب إلّا كورق الورد في حياته ورقته وعطره وجماله، ولا أوراق الوردة إلّا مثله في انتثارها على أصابع من يمسُّها، إذا جاوز حدّاً بعينه من الرفق**».

فقال لها: «وضعتُها، لكن على معانٍ في القلب كأشواكها»(٢).

وهكذا نرى أن هذا الكتاب، كسابقَيْه: «**رَسائل الأحزان**»، و«**السحاب الأحمر**» فصول من رسائل الحب اتخذت وجوهاً من الكتابة، كالتأملات، والحوادث والمناجيات، بعضها صيغ في نسق شعري موزون، وبعضها في نثر شاعري، وبعض ثالث في نثر فني..

٥ ـ كتاب المساكين

صدر الكتاب في طبعته الأولى عام ١٩١٧، ثم صدر بعد ذلك ١٩٢٨، مضافاً إليه فصول جديدة، فبلغ ٢٨٧ صفحة.

وهو مجموع مقالات متنوعة الغرض والأسلوب، شأنه شأن الكتب الثلاثة الأخيرة المعرَّف بها أعلاه، فيما عدا الصبغة التراسلية التي سادت بعض فصولها.

وتتلخص موضوعات الكتاب «بالدين، والعلم، والإيمان، والقدر، والفقر، والحظ، والحب، والجمال، والحرب، والشك، والخير، والنظام الاجتماعي»(٣).

تولّى الكلام في هذا الكتاب، رجل شيخ من قرية مصرية اسمه «علي»؛ عاش على الكفاف الشديد، مصحوباً بأطياف السعادة التي نبعتْ من قناعته الكلية بهذه الحياة. «فالمسكنة» هنا غلاف ظاهري، يشتمل في داخله على نفس مؤمنة متبصِّرة بحقائق الوجود، قادرة على رؤية الحلول الكامنة وراء الأشياء، وإيجاد السبل المُوصِلة إلى رياض السعادة.

وأسمح لنفسي بتوسيع مدلول كلمة «المساكين» لأصل بها إلى السكينة التي تعمر قلب الإنسان المؤمن القانع بقضاء اللّه وعدله ونعيمه، تحت أي مظهر كان. وقد يكون الشيخ علي هو الرافعي نفسه، أراد أن يتخذ منه المؤلفُ بوقاً ينفخ فيه من آرائه

---

(١) كتاب الدكتور الجوزو، ص٨٧.

(٢) م. ن. ص٨٧.

(٣) **مصادر الدراسة الأدبية** مرجع سابق، ص٣٧٨.

ورؤاه؛ وهي طريقة درجَ عليها كتّابٌ كبار في ماضي البشرية وحاضرها، كما هي حال فلاسفة العرب والمسلمين، وحال **أبي العلاء المعري** في **«رسالة الغفران»**، ومن قبل **أفلاطون ودانتي**، **وغوته** في عمله الأدبي الفلسفي الفذ **«فاوست»** وغيرهم..

٦ ـ وحي القلم

يتألف الكتاب من ثلاثة أجزاء، ويضم بين دفّاته، في طبعته الأخيرة التي أصدرتها دار الكتاب العربي في بيروت، من غير تأريخ: ألفاً ومائة وأربعين صفحة، من القطع الكبير.. وكان صدوره، في جزئيه الأول والثاني، عن لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٣٦. وأما الجزء الثالث فقد صدر بعد وفاته، وقام بجمع فصوله **محمد سعيد العريان** الذي قدَّم له بمقدمة من أربع صفحات، تومئ إلى معالم وعناوين مفيدة، ومنها:

ـ إنَّ هذا الكتاب «آخرُ ما أنشأ **الرافعي**، لكنه أول ما ينبغي أن يُقرأ له. وإنَّ البدء به لحقيق أن يعوِّد قارئه أسلوب **الرافعي**، فيَسْلَسَ له صعبُه وينقاد»[١].

ـ الكتاب مجموعة مقالات وفصول وأحاديث فاض بها الخاطر ودونها القلم.

ـ معظم ما جاء فيه نشر في مجلة «الرسالة» القاهرية ما بين ١٩٣٤ و١٩٣٧.

ـ يجمع هذا الكتاب كل خصائص **الرافعي** الأدبية، والعقلية والنفسية[٢].

ولا بأس من إيلاء هذا الكتاب، من العناية ما يستحقه، فأُفردُ له حيزاً أوسع قليلاً مما نال آثاره السابقة.

● **من حيث النوع طُبعت المقالاتُ** وعددها مجتمعةً: مائة وستون، بالقِصَر، (أي ما بين ثلاث صفحات إلى العَشر، ما عدا واحدة في مطلع الجزء الثالث، بلغت أربعاً وعشرين صفحة)؛ كما طبُعت، في ما يزيد على الثلثين، **بأسلوب القص والإخبار**.

● **كل المقالات، صيغت بالنثر الأدبي الرفيع**، ما عدا مقالة واحدة بعنوان «لحوم البحر» التي عرَّفها المؤلف بـ«قصيدة مترجمة عن الشيطان»، وهي في الحقيقة نص نثري فنّي عالي السمات البلاغية، شديد الإيحاء، كأنما تُرجِم فعلاً عن نص شعري بالأجنبية ـ أو كمعظم ما يُنشر اليوم تحت عنوان «قصيدة النثر». وهناك مقطع شعري بالعامية المصرية، في معرض حديثه القصصي: «حديث بنت الباشا (الجزء الأول/ ص٩٦).

● **جميع مقالات الجزء الأول، أحاديث قصصية إخبارية**، ما عدا مقالتين

---

(١) **«وحي القلم»** دار الكتاب العربي، بيروت ـ لا تاريخ، جزء أول/ ص١٢.

(٢) مصدر نفسه/ ص١٣.

نقديتين تعالج بتأمل ظواهر الاحتفال بالأعياد (انظرهما ص٢٩ و ٣٤).

● **ارتفعت وتيرة السرد القصصي في بعض الأحيان** لتشمل ما يمكن تسميته: القصة الطويلة.

كقصة «المجنون» التي تقع في اثنتين وخمسين صفحة جعلها المؤلف في ستة حلقات متتابعة (الجزء الثاني/ ص٣١٧ ـ ٣٦٩).

ـ ومثلها قصة «الانتحار» التي صاغها من التراث الأدبي، وبلغت ثلاثاً وخمسين صفحة (نفسه/ ص١٨٧ ـ ١٤٠).

ـ ومثلها أيضاً، أقاصيص «أحاديث الباشا» التي نشرها في ثلاث عشرة حلقة أو مقالة (الجزء الثاني/ ص٢٦٢ ـ ٣١٢).

ـ ومثلها أحاديث «القلب المسكين» التي بلغت ثماني حلقات، وخمسين صفحة (جزء ٢/ ص ١٠٤ ـ ١٥٤).

● **تميّز الجزء الثالث**، عن سابقيه، **بتنوع الكتابة والمعالجات الأدبية**، إذ ضمَّ هذا الجزء مقالات منسَّقة في نقد بعض الآثار الشعرية والنثرية الصادرة في أيامه، كما تضمَّن مقالات نقدية في بعض شعراء العصر (**شوقي وحافظ إبراهيم**) والباقي، أحاديث قصصية.

● على الرغم من الإطار القصصي العام الذي أفرغ فيه **الرافعي** ذوب قريحته، ومداد قلمه، **فإن المادة الأدبية التي تشكل قلب هذه الأحاديث**، تنبجس من معين واحد **هو الوجدان الفني المرهف المشرع إلى كل الأحاسيس والمنافذ والطرقات**... دأبه وغايته: **السموّ بالنفس نحو مشارف الصفاء الروحي، والانعتاق من قيود المادة والواقع لمعانقة الحرية الخالصة**.. وهو يدرك تماماً بأن تحقيق ذلك، دونه الجهد الأكبر، أو كما قال في مقدمة كتابه:

> **«ربما عابوا السموَّ الأدبيَّ بأنه قليل، ولكنَّ الخير كذلك؛ وبأنه مخالف، ولكن الحقَّ كذلك؛ وبأنه مُحيِّر، ولكن الحسْنَ كذلك؛ وبأنه كثير التكاليف، ولكن الحرية كذلك.**
>
> **إنْ لم يكن البحرُ، فلا تنتظر اللؤلؤ! وإن لم يكن النجم، فلا تنتظر الشعاع! وإن لم تكن شجرةُ الورد، فلا تنتظر الورد!**
>
> **وإن لم يكن الكاتبُ البياني، فلا تنتظر الأدب!»**[1].

ذلكم ما توصلتُ إليه من آثار الرافعي النثرية، ولا أظنني وقعتُ عليها جميعها،

---

(١) وحي القلم/ جزء أول/ ص١٧.

لأن هناك عدداً غير يسير من المقالات والأحاديث المخطوطة والمسجّلة، لا تزال تنتظر من يجمعها ويؤلف بينها ليخرجها إلى النور[١].

ومن لنا بسعيد عريان جديد يؤتى القربى والأمانة والكفاءة الأدبية ليقوم بما قام به العريانُ الأول؟

● ● ● الدائرة الثالثة، الخاصة بالنتاج الشعري..

لم يترك **مصطفى صادق الرافعي** من الشعر ما تركه من النثر.. لا بل إن الشعر لا يكاد يمثل إلا جزءاً يسيراً من نتاجه الأدبي العام.

ويمكن اعتبار ديوانه ذي الثلاثة الأجزاء، والجزء الأول من ديوانه النظرات، الآثار الشعرية الوحيدة التي تخضع للدرس والتقويم.

أما الديوان الذي كُتبتْ هذه الدراسة من أجله، فقد ألمحتُ إلى شارحه وناشره وتواريخ طبعاته، في مطلع المقدمة.

وها أنذا أقلب صفحاته من جديد لأنقل للقارئ أهم ما تضمنه من أقسام وعناوين.

جعل **الرافعي** «**ديوانه**» الشعري في ثلاثة أجزاء، قدَّم لكل جزء بمقدمة تحمل موقفه وآراءه في الصنعة الشعرية غابراً وحاضراً، وهو ما لم يقم به معظم شعراء زمانه.. أي لم يكتبوا مقدمات لدواوينهم، وإنما قام بها آخرون.. لعل **الرافعي** بذلك، لا يريد لأحد أن يتوسط بينه وبين القارئ.. ومن شاء الكتابة، فلتكنْ خارجَ الديوان، لا داخله.

- **تطرق في المقدمة الأولى** إلى نقاط كثيرة تدور حول:

الشعر، وآلته، والشعراء ومذاهبهم، وطبائعهم، وميزات أشعارهم.. يلي مقدمة الجزء الأول (التي تبلغ تسع صفحات) مجموعةً من القصائد والمقطعات المنسجمة مع أبوابها، وهي سبعة: **في التهذيب، والمديح، والوصف، والغزل والنسيب، والأغراض والمقاطيع**، وباب سابع **في التقاريظ**.

- **وتطرّق في مقدمة الجزء الثاني** إلى موضوعة عامة سمّاها: «**في سرقة الشعر وتوارد الخواطر**» تناول فيها: **الخواطر والأمثال، ومذاهب الأخذ والانتحال، أو الاقتباس والتأثر، والإخراج الجيد لمعانٍ** أو صور مسبوقة.

---

(١) أشار الدكتور **الجوزو** إلى ثمانية كتب لم تخرج للنور، بعضها رغباتٌ وخطوط عريضة، وبعضها الآخر، غير مكتمل، وبعض ثالث منشور في كتب سابقة. «**مصطفى صادق الرافعي رائد الرمزية...**» (ص١٠٤ ـ ١١٠).

ويفصِّل ذلك في تسميات وتصنيفات أخرى ذات دلالات محددة.. يلي المقدمة التي بلغت أيضاً تسع صفحات، ستة أبواب في:

التهذيب والحكمة، والنسائيات والموضة، والوصف، والمديح، والغزل والنسيب، والأغراض والمقاطيع، وسابع صغير في **التقاريظ**..

ـ **وتطرَّق في مقدمة الجزء الثالث** إلى موضوعة عامة بعنوان:

«**نوع من نقد الشعر**» عرض فيها: **لماهية الشعر، ومراتب تكوينه** أو أطواره.. **ولأغراض الشعر عند العرب، وتطور صنعته لديهم، ولأقسامه وأبوابه،** وما تشتمل عليه دواوين بعضهم، ولما فات الشعراءَ منه، كالشعر القصصي أو الملحمي؛ وما سوى ذلك من مقومات وأساليب.

يلي ذلك قصائد ومقطعات متناسقة وأبوابها الثمانية، وهي:

التهذيب والحكمة، النسائيات، الوصف، الغزل والنسيب، الأغراض والمقاطيع (وهو باب صغير)، **المديح والتقريظ، المراثي،** وباب صغير في **التقاريظ**..

وهكذا نرى أن **الرافعي** لم يخرج عن عمود الشعر والشعراء، لا في أغراض الشعر ولا في أساليبه، وضروب نظمه.. حتى الأبوابُ التي تضمنتها أجزاءُ ديوانه الثلاثة، هي نفسها تقريباً، في كل جزء.. ولهذا ـ كما يتراءى لي ـ مهَّد لقصائده بمقدمات نثرية أودعها رؤياه النقدية في الشعر، ومواقفه وتصوراته التي مزج فيها بين دراسات الأقدمين وما حصَّله من ثقافته الشعرية المعاصرة، عساه يستشعر تَمايُزاً ما في إرثه الشعري، ويكتسب منزلة أعلى تليق بطموحه ونزعته إلى ذرى المجد.

ـ **أما ديوانه الثاني** الذي ظهر في حياته فهو «**ديوان النظرات**» الذي لم يصدر منه إلا جزء واحد، وذلك ١٩٠٨، فبقي ينتظر من يجمعه من الصحف والأصدقاء، أو ما تبقى من نتاجه الشعري المخطوط. ويذكر أحد دارسيه أن **قصائد الديوان تضمنت أغراضاً في الوطنيات والطبيعة والذكريات،** مع مقدِّمة في حقيقة الشعر وعناصره ومقوماته[١].

ـ وهناك ديوان آخر بعنوان: «**نشيد سعد باشا زغلول**»، صدر في مصر ١٩٢٣، ولم يزد صاحب «مصادر الدراسة الأدبية» شيئاً آخر عنه[٢].

ـ يضاف إلى ما ذكر، مجموعة دواوين، أميط اللثامُ عن أسمائها، ولكنها لم تر

---

(١) «**الإمام مصطفى صادق الرافعي**» **لمصطفى البدري**. دار البصري/ بغداد سنة ١٩٦٨/ ص٢٩٦ ـ ٢٩٨ (عن كتاب **الدكتور الجوزو**/ ١١٢).

(٢) يوسف أسعد داغر: **مصادر الدراسة الأدبية**/ ص٣٧٨.

النور، وهي: «**أغاريد الرافعي**» ذي المجموعات الثلاث، وقصائدها تدور حول **ترقيص الأطفال**، والأناشيد الوطنية، وبعض قصائد الموشحات.

- «**أغاني الشعب**» في الأناشيد والموشحات.
- «**الفؤاديات**» قصائد مدح في الملك فؤاد الأول.

وعلى الجملة، فإن هذه الدواوين ظلت بمعظمها مشاريع، بدأ بها **الرافعي** ولم يتمها، أو أنها ظلت مخطوطة لم يقيض لها النشر. ويبقى المعوَّل، في شعره بعامة، على الديوان الكبير الذي سنفرد له فقرة خاصة لدرسه وتحليله بما يستحق.

الفصل الثاني

محطات الكتابة

في ديوان مصطفى صادق الرافعي

حرص صاحب «**وحي القلم**» ألّا يَدخُل القارئ إلى شعره، كيفما كان؛ فأنشأ مداخل متعددة الخطوط والعناوين، وثيقة الصلة بحصاده الشعري، مسبوكة بلغة الباحث الرصين، وأسلوب نقدي هادئ؛ مدادهُ المخزونُ النظري الموروث، ومضمونُه الهمُّ الشعري العام، وما يكتنفه من أفكار ورؤًى معاصرة.

ولم يشأ أن تكون هذه المداخلُ مقدماتٍ أو توطئاتٍ لما يشتمل عليه شعرُه من موضوعاتٍ وأبواب وأساليب، اختطها لنفسه، كما هي حال الكثرة الكاثرة من الكتب والمصنفات التي طرزها أصحابها بمقدمات وتماهيد تكشف عن الغاية والطريقة والغرض، التي يندرج ضمنها الكتاب أو المصنَّف، بل شاء أن تكون مقدمته الأدبية، ميداناً يُدْلي فيه بدِلائه، ويبسط آراءه ونظراته في مختلف المسائل الشعرية المطروحة قديماً وحديثاً، مومئاً بصورة أو بأخرى، إلى المنزلة التي هو فيها أو يطمحُ أن يتبوأها، وإلى طرائق حرفته الشعرية، وطبيعة الشعر الذي رتَّبه وقدمه إلى قارئه.

قدَّم شاعرُنا الكثير من الأفكار والمفاهيم البناءة، وطرح مسائل هي في صميم الصنعة الشعرية ومقوماتها؛ ولم يُلْمح إلى شيء مما ضمَّه ديوانه من نتاج شعري غزير، تاركاً للقارئ أن يتلمس بنفسه طريقه إليه، ويتحسَّسَ طعم الشعر فيه؛ يَسْتجلي معالمه وعناصره، وينفذ إلى الرُّدَه والأَبهاء ومساقط الإبداع، فيسبر غوره، ويقيس أبعاد الحسْن والجودة، ويَميزها من الكلف أو السطحية والتقليد.

إلى ذياك الغرض البعيد يسعى القلم؛ ومن خلاله يتوصل إلى رصد الكوى الفنية المضيئة في ديوان **الرافعي**، متتبِّعاً الخطوات الآتية التي تنطلق جميعها من عنوانين رئيسين:

١ ـ طبيعة المادة الشعرية: نسيجُها وإطارها البلاغي العام.

٢ ـ وجوه التعثر والتعقيد في الديوان . . .

* * *

أولاً

المادة الشعرية : نسيجها، وإطارها البلاغي العام

لم يخرج الرافعي، في نظم أغراضه، وأحواله، عن النسق الشعري القديم المتمثل في: عمودية النظم، واستخدام البحور الخليلية المعروفة التي تعامَل معها جميعها ولم يبتدع بحراً جديداً . . ،

وفي اعتماد الأصباغ البيانية والبديعية المعروفة، من غير تطرف أو مغالاة، ولا سيما التشبيه بوجوهه المختلفة، وامتداداته في ضروب الاستعارة والمجاز . . ، أو الجناس والتسجيع والمطابقة والتورية، وغيرها من محسنات البديع.

ومن معالم النسق الشعري القديم أيضاً:

حرْصُ الشاعر على أساليب الاقتباس والتضمين لكثير من الآيات، والأبيات الشعرية، والأمثال والأقوال المأثورة، والخواطر والحكم المعتصرة بين ثنايا القصائد والمقطعات . .

كلُّ ذلك في أُطر مناخية متفاوتة الدرجة والتأثير:

ما بين هدوء وهبوب، اعتدال ومغالاة، بساطة وتعقيد، تقليد وتجديد، وغير ذلك مما تتناوله الصفحات والفقرات الآتية، متوقفاً بخاصة عند مَعْلَمة التشبيه.

التشبيه

يمثل التشبيهُ، الركنَ الأساسي أو العمود الفقري في صناعة الشعر العربي عبر العصور . . وهو كذلك في المحسنات البلاغية وفي مقدمتها المجاز . .

وإذا كان علم البيان، جوهرَ علوم البلاغة العربية، وميدان الإبداع في تصوير الجمال بمختلف أشكاله ووجوهه، فإنَّ التشبيه، هو الجسر الوطيد والبنيان المشيد لذلك الميدان؛ من دونه ينحسر الأداء التصويري الجميل، لا بل تتعثر مسيرة الأدب نحو مشارف المتعة الفنية، إذ لا سبيل إلى تجاوزه بأي شكل من الأشكال.

وأنا هنا لا أخص التشبيه بمعناه الاصطلاحي البلاغي، وإنما أعني كلَّ ما يقوم عليه ويتفرع، من أشكال المجاز وبخاصة المجاز اللغوي المرسل المتمثل بالاستعارة وضروبها المتنوعة.

أقول ذلك انطلاقاً من الوظيفة البالغة الأهمية التي يضطلع بها التشبيه، ألا وهي التمثيل بكل ما يعني من مقاربة ومقارنة، أو مفارقة ومطابقة، ونقل المعنى من حيّز إلى حيز، بوساطة ملكات الخيال، وطاقات الغوص إلى دقائق الأشياء وأسرارها.

وقد أدرك النقاد هذه الخاصّية، فأنشأوا لأجله الدراسات والبحوث المستفيضة، وصولاً إلى وضع كتب خاصة به كما فعل علي الجندي منذ ما يقرب من نصف قرن، وهو القائل معرّفاً وكاشفاً عن أصالته في النفس البشرية:

«التشبيه لون من ألوان التعبير الممتاز الأنيق، تعمد إليه النفوس بالفطرة حين تسوقها الدواعي إليه، سواء في ذلك العرب والعجم، والخاصة والعامة، والبلدي والقروي، والحضري والبدوي، والعالم والجاهل، والذكيّ والغبيّ.

فهو من الصور البيانية التي لا تختص بجنس ولا لغة؛ لأنه من الهبات الإنسانية، والخصائص الفطرية، والتراث المشاع بين الأنواع البشرية جميعاً.

ذلك، لأن أساسه هذه الصفات المشتركة أو المتشابهة أو المتضادة التي يراها الإنسان في الأشياء، ويترتب على ذلك استساغة استعمال الألفاظ بعضها مكان بعض تجوزاً»[١].

كأنما يريد الجندي أن يقول، إن التشبيه أكبر من أن يخضع لأطر اصطلاحية ضيقة، مهما كانت دقيقة، ولا إلى جانب من جوانب التصور، دون آخر.. إنه عالم وسيع الأرجاء، بعيد الأثر، يختزل كثيراً من معادلات التقصّي المعرفي التي يعتمدها العالم الباحث، والفنان الأديب على السواء، شاعراً كان أم كاتباً؛ إلّا أنه في الشعر أكثر حضوراً وغنىً. أو كما قال الجندي، نقلاً عن قدامة بن جعفر:

«فهو من أشرف كلام العرب، وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم.

وكلما كان المشبِّه (بالكسر) منهم، في تشبيهه ألطف، كان بالشعر أعرف؛ وكلما كان بالمعنى أسبق، كان بالحذف أليق»[٢].

ولنبحث الآن في المدى الذي بلغه التشبيه في ديوان الرافعي! وسنجد أننا أمام نمطين من أنماط التشبيه: نمط تقليدي متأصل في تربة الشعر العربي، وآخر متجدد على درجة ملحوظة من الإبداع. ونبدأ بالثاني:

* * *

أ ـ النمط التجديدي (على درجة من التشكيل والشمولية)

لعل أكثر ما يميز القصيدة الرافعية أو يَطْبعها في الشكل والصورة، كثرةُ التشابيه

---

(١) كتابه ذو الجزئين، «فن التشبيه». مكتبة الأنجلو المصرية، الطبعة الثانية، القاهرة سنة ١٩٦٦، جـ١/ ص٤٨.

(٢) المرجع نفسه/ ص٥٣. وانظر كذلك «كتاب نقد الشعر» لقدامة.. المكتبة العلمية بيروت سنة ١٩٨٠ ص٥٨.

بمختلف الأشكال المعروفة في تراثنا الشعري، ولكن على درجة متفاوتة من الاسترسال والتهالك، وشيء من التشكيل الفني والشمولية الموضوعية.

فإنك تقرأ بعض القصائد فتجدها مشحونة بضروب متتالية من التشابيه، تتدافع في ركن من أركان القصيدة، كما هي حال قصيدته (العينية) في «أفانين الحرب وويلاتها» التي مطلعها:

هـمُ الناسُ حتى يَرويَ الأرضَ مَدْمَعُ وتـالـلّـهِ يَـروى آكـلٌ لـيـس يَـشْـبَـعُ

حيث حشد في أبياتها السبعة الأخيرة ثمانية تشابيه، انطلقت من مشهد استبسال أبطال الحِمى في الدفاع عن الوطن؛ فلم يقف الشاعر عند وجه واحد من المقاربة التصويرية، بل جال بعيداً وطاف وحوَّم حول هذه الصورة وتلك، ليستقر به المقام عند التسليم بالواقع الإنساني الغاشم الذي يعتمد القوة سبيلاً للسيادة والتفوق.

ـ **وأول التشابيه:**

كـأنـهـمُ، والـمـوتُ حـان نُـزولُـهُ سجودٌ يـخـافـونَ الـعـذابَ، ورُكَّـعُ

ـ **يليه،** بما هو أدق وأبعد مدى:

كـأنَّ ثـيـابَ الـمـوتِ كـنَّ بَـوالـيـاً عـلـيـه، وبـالأرواح أمـسـتْ تُـرقَّـعُ

شبَّه واقع الموت الرتيب، قبل الحرب، بالأثواب الرثَّة البالية؛ فلما وقعت الحرب أصلحتْ قماشته البالية برُقع من الأرواح المزهقة.

ويسترسل الشاعر في وصف المشاهد المأساوية المتعاقبة، من (زفرات الميدان) و(اهتزاز الأرض على وقع الزلازل) وتوالد القبح من القبح من رحم الدنيا الفتيَّة الشنيعة:

كـذاك أرى الـدنـيـا فـتـاةً شـنـيـعـةً فـإنْ وَلـدَتْ، جـاءتْ بـمـا هـو أشـنـعُ

وأخيراً، يترجل من طوافه ويحط على أرض الحقيقة الإنسانية المرة، قائلاً:

كأنْ قد غدا الإنسان وحشاً فلا أرى يُـعـزَّزُ إلّا الـمـرءُ، واديه مُـسْـبِـعُ[١]

أي: إلّا حيث سيادة القوة، من غير رادع أو نظام أو شرعة.

ومن هذا القبيل، قول الشاعر في وصف امرأة رفيعة الشأن، والتأثير، وقد أُلحدتْ قبراً، تالياً سبعة تشابيه في سكبة واحدة، متقصياً كل ما تراءى له من صور ومعان، بعضها حسِّي عياني، وبعضها معنوي تخييلي على درجة من رقيّ التمثل والمحاكاة:

كـأنَّ قـلـوبـاً فـي غـرامِـكِ أُحـرِقـتْ فـذَوبَـهـا الـصـيَّـاغُ بـيـن الـسـبـائـكِ[٢]

---

(١) **ديوان الرافعي،** الطبعة المصرية، الجزء الثاني/ ص٢٣.

(٢) قوله: «الصيَّاغ» غلط، والصحيح: الصوَّاغ، من [صاغ، يَصوغ صَوْغاً].

كـأنـي أرى أفـقـاً تـجـلَّـتْ نـجـومُـهُ كـأنَّـكِ فـيـه بـعـضُ تـلـك الـمـلائـكِ
كـأنَّ الـلآلـي الـمُـشْـبـهـات أزاهـراً فـرائـدُهـا بـعـضُ الـدمـوع الـسـوافـكِ
كـأنَّ ظـلامَ الـقـبـر فـي لَـمـعـانـهـا شُـعـورُ الـغـوانـي بـيـن حـالٍ وحـالـكِ
كـأنَّ سَـنـاكِ فـي ديـاجـيـه نِـيَّـة تَـرَدَّدُ فـي قـلـبِ طَـهـورٍ مـبـاركِ
كـأنـي أرى تـلـك الـمـآذنَ أيـديـاً تُـشـيـرُ إلـى الأفـلاكِ أنَّـكِ هـنـالـكِ[1]

لا غرو أن تكون أداةُ التشبيه ههنا، المفتاحَ الرئيس لقافلة المعاني والصور التي ساقها الشاعِرُ ليضيء الأفق المعتم الذي يلف المرأة المرثيَّةَ، كما يلفُّ الشاعرَ نفسَه وقد أحلَكَ الفكرُ فيه وحامتْ حوله سحبُ القلق والانقباض، جرّاء حادثة المرأة الجميلة الملحودة في التراب، فكان يلج في الصورة إثر الصورة، ويفتح نوافذ التصور الفني يبحث عن حقيقة ضاعت ملامحها في محاريب الغسَق.. وليس هناك ما يفوق «كأنَّ» في اقتحام الحجب واستجلاء المستور. ذلك أنها مؤلفة من (الكاف) الْمِثليَّة، و(أَنَّ) المصدريَّة اليقينية التي تَختزلُ ما بعدها بكلمة واحدة أو أكثر بقليل، مهما بلغ الكلام أو طال.

لا أقصد من وراء هذا الكلام تعظيم الأداة المشار إليها، إنْ هي إلّا واحدة من حروف المعاني، ووسائل الربط والتأليف بين عناصر الكلام، والتي لا تفضُلُ الواحدةُ الأخرى إلّا بحسْن موقعها وحسن استخدامها؛ وإلّا فالكلام كله بحروفه وأسمائه وأفعاله، أجسادٌ لا حياة فيها ولا حركة إلا في ائتلافها ودخول أجزائها وعناصرها بعضها ببعض، دخولَ الهواء في الأنفس، والماء في التربة الموات.

وأتابع لأقول: لم يكن التشبيه سقْفَ البلاغة ومنتهى البيان الفني.. فهناك **الاستعارة** بمختلف وجوهها وجوانبها، **والمجازُ** بطرائقه وأساليبه التي ينسكب فيها الكلامُ مقطَّراً تقطيراً خالصاً من كل أدوات الربط والفصْل، وسائر النوافي والمؤكدات التي يحفل بها النثر العلمي، ويتحاشاها النثر الفني بعامة، والشعر بخاصة.

كان القصد من وراء الوقوف عند كبريات أدوات **التشبيه**، تأكيدَ الصبغة البيانية التي توكأ عليها **الرافعي** في حياكة أشعاره ورسم صوره ورؤاه، لدرجة التهالك واستنفاد المخزون الذهني والخيالي الذي تُقلِّب فيه الأشياء. فإذا به، في قصيدة مشابهة، نظمها في امرأة أديبة جميلة استحوذت على لبابه، فناشَدَها وتمنى لها الحفاظ على مهمتها التربوية الكبرى، من دون سائر المهام الاجتماعية السائدة، ناسجاً لأجل ذلك أوصافاً جمالية مشرقة، وإكباراً لطبيعتها وموقعها الأنثوي والأمومي الأكمل بما يزيد على السبعة عشر تشبيهاً تفاوتت إصابة وجودة وإبداعاً.

(١) **ديوانه**، جزء ٢/ ص٥٢. والحالي: المحلّى بالذهب والأحجار الكريمة.

فكان التشبيه الحسِّي الإفرادي في أول بيتي القصيدة:

مِدَادُكِ في ثغر الزمان رُضابُ وخَطُّكِ في كلتا يديه خضابُ

وكفُّكِ مثلُ البدر قد لاحَ نصفُه فلا بدْعَ في أنّ اليراع شهابُ

وكان التشبيهُ الصورةُ أو ما يعرف بالتشبيه التمثيلي، وهو أرقى أنواع التشبيه، حينما توغل في حنايا المرأة، وأبحر ما بين أطياف المغرب وعرائس الفجر، يستلُّ منها هيئة يخلعها على هذه المرأة:

كأنَّ أديمَ الليل طِرسٌ كتبْتِهِ وفيه تباشِير الصباح عتابُ

كأنَّ جبينَ الفجر كان صحيفةً كأنَّ سطور الخط فيه ضبابُ

فهو لم يرتو من صورة التشبيه الأولى في البيت الأول، والمكونة من حضور المرأة في البال كمثل الكلام المكتوب على صفحة الليل البهيم الذي غار منه الفجر، فسطَّر له عتاباً رقيقاً، بل أردف بصورة ثانية وقلبَ فيها الأدوار، فتقدَّم الفجرُ على الليل ليدوِّن الشاعرُ عليه حضور المرأة وسطورها الجمالية المشعَّة؛ لكنه أي الشاعر، لم يُنحِّ أثر الليل وجلبابه المحيط بالأشياء، فجعل السطور الضوئية التي سطرها الفجر، مسربَلةً بالضباب، أي بسوء الرؤية والانقشاع.

لذلك رأيناه في البيت الحادي عشر، من القصيدة البائية ذات العشرين بيتاً، يُرسي شراع التشبيه، عند شاطئ الضحى الأنور، وقد استقرت خلجاتهُ، وأخلد إلى السكينة بعد طول ارتحال:

كأنكِ إمّا تنظري في كتابةٍ ذُكاءُ، وأوراقُ الكتاب سحابُ[١]

وقل مثل ذلك، في (البائية) التي نظمها في مآسي الأغنياء والعلماء ممن فقدوا القيم الإنسانية، ومطلعها:

هي الأفلاكُ لاشُمُّ القِبابِ ولا كالفُلْك تجري في العُبابِ

فقد حشد فيها عدداً من التشابيه البليغة، لوصف المقام الرفيع لقيم الحياة الاجتماعية المتمثلة بالعلم والمال والدين؛ وكان لنا من ذلك صور معبرة، أدعاها إلى الذكر قوله في تبيان حقيقة المال، وحساسية موقعه في الحياة:

وليس «المالُ» غيرَ العينِ إمّا غدتْ سودُ الحوادث كالنقابِ[٢]

فقد شبَّه المال الذي يحيط بصاحبه، ويشغله بهمِّ جمعه وتضخيمه، بالنقاب الذي يحيط بالوجه، فلا ترى العينُ إلَّا ظلال الأشياء وجزئياتها.

---

(١) ديوان الرافعي، جـ٢/ ص٣٨. (٢) ديوان الرافعي جـ٢/ ص٢٥.

وأمضي في قراءة الديوان، فأعثر على تشابيه غير اعتيادية، يصح تسميتها تشبيه التشبيه الذي يمكن النظر إليه بكثير من التأمل، واعتباره شيئاً غير مسبوق؛ تبيَّنتُ ذلك في القصيدة (الرائية) التي مدح فيها السلطان عبد الحميد خان يوم جلوسه على عرش الملك، ومطلعها:

يومٌ بهذي الليالي يُشبه القمرا فإنْ رأى حَلكاً في أُفقها، سَفَرا

ليقول، في السياق عينه:

يومٌ جلَا غرَّةً في المجد سائلةً تُناظرُ الشمسَ إن قاسوا بها الغُرَرا

مرآةُ فكرِ مليكٍ فوقَها انعسكتْ أنوارُه، كغديرٍ مَثَّل القَمرا[١]

فالمتأمل في البيت الثاني، يجد فيه ثلاثة تشابيه، رُكِّبَ بعضُها من بعض، أو قل: توالد بعضها من بعض، وفقاً للتسلسل التالي:

شبَّه يومَ جلوسه، بمرآة أفكار الممدوح. وشبَّه هذه الأفكار المشعشعة الأنوار، بالمياه الراكدة الهادئة؛ وهي بدورها شبيهة بالقمر.

هذه التشابيه المتوالدة، إن لم يرشح منها التصوير المبدع، فقد تغشَّاها التجديدُ، وانتابني حيالها التفاتةُ إعجابٍ غير عابر، لا لشيء إلّا لأن الرافعي خالجته مشاعر التجديد، وأورى زنادَ قريحته ليأتي بثلاثة تشابيه متوالدة، في بيت واحد بدلاً من بيتين أو ثلاثة.

وسوف يتعزز الإعجاب، في موضع آخر، سَما فيه التشبيهُ، واكتسب حلَّةً بيانية أكثر إشراقاً وأشهى مذاقاً، وذلك في قوله يصف أبعاد القُبل المكتومة وتراسلها الهامس:

وما زلتُ حتى كاتَمَتْنيَ قُبلةً على حذَرٍ حتى من الحَلْي والعَقْدِ

وكنّا كمثل الزهر يَلثمُ بعضَهُ ولا صوتَ للنسرينِ في شفة الوردِ[٢]

تضمن البيت الثاني ثلاثة تشابيه، يفضي الواحدُ إلى الآخر إفضاء الأشياء إلى نهاياتها..

- تمثَّل **التشبيهُ الأول**: بصورة الحبيبين يتلاثمان كما الأزهار فيما بينها.

- وتمثل **التشبيهُ الثاني**: الذي أومأ إليه الشاعر بصورة ضمنية خفية، بالصوت الهامس الذي لا شيء يشبهه مثل صوت النسرين... فتأمل أبعاد هذا «الصوت» الساكن!

- وأما **التشبيه الثالث**: فهو للشفة الوردية التي تمتلكها الحبيبةُ..

ويمكن اعتبار «النسرين» وجهاً محاكياً لشفة الشاعر، أو صوتِ قبلته المضْمر في الأحشاء.

---

(١) مصدر نفسه جـ٢/ ص٦٩. (٢) نفسه/ ص٩٠.

وفي أول قصائد الوصف، في الباب الثالث، من الجزء الثالث، تطالعُنا قصيدة لطيفة بعنوان «القمر» تحتوي، من أولها حتى نهاية المقطع الأول البالغ أربعة عشر بيتاً، ما يزيد على عدد أبياتها تشابيه، صاغها الشاعر في وصف القمر وشبيهته من مليحات النساء وفواتنهن، وقد نهضتْ من شاطئ الظلمات بعد استحمامها، ثم وقفت لتتنشّف وهي تسْتر بعض أجزاء جسدها..

اللافت في هذه التشابيه تنوع أشكالها وأساليبها، ما بين جمل فعلية (وبتُّ أظنُّ البدر..) وأدوات (الكاف) و(كأنَّ) التي طغت على النص طغياناً بارزاً دفعت الشاعر إلى استخدامها صريحة: تسعَ مرات شبه متتالية، بنفس الزخم والتدافع لدرجة التهالك، لكنه تهالكُ المشوق لعناق الأسرار واحتوائها في ضمَّة واحدة..

كأني أرى بين الكواكب نِسْوَةَ الـ ـعزيز وهذا البدرُ فيهنَّ يوسفُ
كأنَّ النجوم الغرَّ سُبْحةُ زاهدٍ معلَّقةٌ في الأفق والبدرُ مصْحفُ
كأنكَ يا بدرَ الكواكب بينها فتاةٌ مشتْ بين الأزاهر، تَقطفُ
كأنكَ في موج الضياءِ، مليحةٌ تَراقَصُ في ماء الغدير فيَرجُفُ
كأنكَ في شطِّ الحنادس جسْمُها وقد ستَرَتْ من بعضه «تَتَنشَّفُ»[1]

لم يؤد التشبيهُ الأول، في البيت الأول، غرض الشاعر في كشف الحقيقة الكامنة في قلب «القمر» الموصوف، فتداعت الصور داخل المخيلة الشعرية، وتقلبت الهيئات: من **يوسف الحسْن** عليه السلام، إلى **سبحة العابد** الزاهد، تباركتْ في كنف المصحف الشريف، إلى **الفتاة الغضة** تتنقل بين الحدائق من زهرة إلى زهرة، إلى **فتاة أخرى** لم يشأ لها الشاعر استحماماً مألوفاً، بل جعله في موج من الأضواء يتوهج الماء من حولها مرتعداً من لفحها.. ولا يرتوي عند هذا الحد.. بل نراه يطارد الصورة عينها ويفتِّق صورة أخرى يتمثل فيها البدرَ كنفس المليحة الموصوفة. لكنها الآن خارجة من شاطئٍ غشِيَتْه ظلماتُ المساء، فخشيتْ أن يكون لهذه الظلمات عيونٌ نافذة، فستَرتْ بعضَ جسدها منها...

وهكذا حتى نهاية المقطع الشعري وتشابيهه المتراكمة من دون انقطاع.. وأرى أن شاعراً نهِماً للجمال تذوقاً وابتداعاً، لا يدرك أغراضه الفنية في هذا المدار العجيب..

فإذا خُيِّل إلينا بأنه أدرك وارتوى، فإنَّ ذلك مؤقت، سرعان ما يُجدِّد البحث عما كان يبحث عنه، ويحث السير إلى واحة الارتواء؛ دليلي على ذلك، ما جاء في قصيدة لاميَّة أنشأها في امرأة حسناء تراءت في المرآة.. فهو لم يكرر ما توصل إليه في

(١) ديوان الرافعي، الجزء الثالث/ ص٦٤.

تصاوير مشابهة، بل سعى إلى تجديد الرؤية وتعميق الخيال، وانتزع صورة موحية عالية من الغنى:

ولاحتْ في المِرآةِ فقلْ سَماءٌ تولَّتْها الملائكُ بالصقالِ
وكانت كالغصون أصبْنَ نهراً فداعَبْنَ الظلالَ على الزُلال[1]

في البيت الأول تشبيه تمثيلي رائع، جعل فيه الوجهَ الجميل البديع وهو قبالة المرآة، سماءً مجلوّة بأيدي الملائكة وأدواتهم التجميلية الخارقة. وأغلب الظن أن مثل هذه الصورة الفنية لم ترد من قبل.

أما البيت الثاني فقد ضم صورة فنية متهادية الخطىٰ، رقراقة الظلال حيث زاد الشاعرُ من نسبة الجمال في المشبَّه (وهو المرأة المتمرئية) فرصدَ حركتها ومثَّلها بحركة الغصون فوق مياه النهر الصافية كالزلال، مضفياً على الصورة جرساً موسيقياً في مجانسة (الظلال والزلال) وهو من توقيعات الشاعر الآسرة.

وقريب من ذَيْنك التشبيهين الأخيرين، قول الشاعر في معرض شَكَاته من طول معاناته مع الحبيب وجَرْعه صنوفَ التعثر والتذلل، من قصيدة رائية:

أَبيتُ لا بدرُ الدجى مُسْعدي ولا أخوه في الكرى زائري
والليلُ في خطوة أقدامِهِ أبطأُ من تأميليَ العاثرِ[2]

- تشبيه البيت الأول تقليدي على الرغم من مؤاخاة المشبَّه (المرأة) بالمشبه به (البدر).

- وأما التشبيه الثاني فقد كتمه الشاعر وجعله حالة متوازنة مع انطوائه هو وانكفائه على نفسه، إذ جعل الليل الطويل، يزداد طولاً ويخبط في حركته البطيئة خبْط المدحور يجرُّ معه أذيال الذل والهزيمة.. ولم يكتف بذلك، بل رفع من طبيعة التشبيه الذي تشكَّلَ في استعارة بديعة، إلى مستوى الآمال المتعثرة والأماني الحسيرة..

ومن تشابيهه التي أعقب فيها التشبيهُ الاستعارةَ أو العكس، قوله من قصيدة رائية من مجزوء الرجز، في هوًى تليد مرَّ كلمح البصر:

تلينُ في حديثها وقلبُها كالحجرِ
وانعقد الثديانِ في قوامها كالثمرِ[3]

(١) ديوانه، جزء ثانٍ/ ص٤٠ ـ ٤١.
(٢) ديوانه، جزء أول/ ص٩٩.
(٣) ديوان الرافعي، جزء أول/ ص١٠٦.

مجازان لغويان، الأول تشبيه تقليدي، والثاني استعارة سلسة عذبة، موحية، إذ شبَّه الثديين بالزهر الذي ينعقد ليصبح ثمراً. وقد خالف القياس الذي يقوم على انعقاد الزهر على حُبَيْباتِ ثَمَرٍ فجٍّ لا ينضج إلّا بعد حين.. فجعلها الشاعر ثمراً عند الانعقاد. وفي ذلك خفةُ تصورٍ ورشاقةُ خيالٍ.

ومن هذا القبيل، قوله من قصيدة مشابهة، في فتية عاقروا الخمرة حتى نسوا عشّاقهم ولياليهم، ولكنهم في المقابل «تراوحوا كاساتها» كارتياد «الأرواح للأجسام»، ليصل إلى استعارة مكنيَّة لطيفة، بقوله:

حتى إذا انطفأتْ مصابيحُ الدجى وأضاء فَوْدُ الليل بعد ظلام
خَبَأوا الهوى بين القلوب وأصبحوا وتوارتِ الأزهارُ في الأكمامِ[١]

جعل لليل فَوْدَين، وهما جانبا الرأس من الإنسان، مما يلي الأُذن مباشرةً، واستعار هذه الهيئة وأسبغها على الليل الذي اتخذ من خفقان القلوب وتوهجها بالحب، أضواءً خافتة في أديم الليل الحالك.

ويستكمل الشاعر عناصر الصورة الفنية، فيضفي على فتيان الشراب أحوالاً متداخلة من الصحو والإغفاء، يقابلها احتجابُ الزهر في الأكمام وانبثاق العطر من بين أليافها وتلابيبها..

* * *

ب ـ النمط الاتباعي

قد لا نجد فرقاً ملحوظاً بين الأسلوب التجديدي والأسلوب الاتباعي، في التشبيه؛ لأننا في النهاية مع شكل تعبيري مجازي يسمو فيه المعنى من حال إلى حال، بوساطة أدوات خاصة لها فاعلية شبيهة بالسحر.

وسواء ذُكرتْ هذه الأدوات أم حُذفتْ، ولُحظ وجهُ الشبه الذي يؤلف القاسم المشترك بين المشبه والمشبه به، أم لا، فالتشبيه قائم بجميع عناصره وأركانه وهي: الطرفان (المشبه، والمشبه به) والأداة، والوجه.

وما التسميات التي تُطلق على هذا التشبيه وذاك، من مُرسَل، إلى مجمل، إلى مؤكد ومفصل، إلى ضمنيّ وبليغ... الخ.. إلا صفات شكلية لا تمسُّ الجواهر ولا تزيد في عناصره أو تُنقص، لأن ما هو محذوف لفظاً، ملحوظ ضمناً..

فقول **الرافعي** مثلاً، يصف حال الأغنياء المغترّين بتحقيق السعادة بواسطة أموالهم:

يُمَنّونَ السعادةَ وهي منهم مَنالُ الماءِ في بحر السرابِ[٢]

---

(١) نفسه/ ص١٠٧.

(٢) ديوانه جزء ٢/ ص٢٦.

تشبيهٌ ضمني، لكنه مكتمل العناصر من دون زيادة ولا نقصان. وتأويله بصورة مباشرة هو: سعادة هؤلاء الأغنياء شبيهة بالسراب الذي يظنه المسافر في الصحراء ماءً.. وغاية التشبيه في البيت الشعري إفادةُ: أَن السعادة لا تتحقق بالمال الكثير...

الفرق الوحيد بين ذكر أداة التشبيه والوجه، أو إخفائهما، أننا بالذكر، نَعْبُرُ سريعاً إلى الغرض الأساسي من التشبيه، بينما نسلك درباً أطول، ونُمْعِنُ في التخيل، إن حُذف عنصر أو أكثر من التشبيه. وكلما كثر الحذف، سَمَتِ القيمةُ الفنية ورقيَ الخيال. وهذان الأثران يؤلفان جوهر الفن الأدبي.

لذلك عُدَّ التشبيهُ المؤكد الذي حُذفت منه الأداةُ، أرفعَ من التشبيه المرسل الذي ذكرتْ فيه الأداة.. والتشبيهُ المجمل الذي حذف منه وجه الشبه، أرفع من التشبيه المفصل الذي ذكر فيه الوجه..

والتشبيه البليغ الذي حذف منه الوجه والأداة، أرفعَ الأنواع المذكورة وأبلغ.. وهكذا...

قدمتُ بهذه الشروح شبهِ البديهيّة، لأؤكد ما ذهبتُ إليه، في مطلع الكلام في هذه الفقرة، من ضبابية الفرق بين تشبيه تقليدي وتشبيه متجدد، وأنَّ التقسيم الذي اتبعتُه ما هو إلا إجْراءٌ شكلي يسمح بالكشف عن رتبة هذا التشبيه أو ذاك، ووصف الصور البيانية، بمزيد من الدقة والموضوعية.

ويتصدَّر المنحى الاتباعي التقليدي في تشابيه الرافعي، ما يطلق عليه منذ العصور القديمة حتى اليوم: **«الاستدارة التشبيهية»، وهي التي تفصل ما بين المشبه والمشبه به بشيء من الدوران يطرق فيه الشاعرُ غيرَ معنى، ويرسم غير صورة، ليصل إلى المشبه به؛ والقصد من ذلك إطالة مرمى المشبه إلى المشبه به، وإغناء المخيلة التي تتلقى هذه المقاربة وتتأثر بها.**

ومن جميل استداراته التشبيهية أو قل: أطولها، قوله في وصف قوة الجنس اللطيف، وما يعتوره من صروف التقلب والطغيان على الآخرين، جَرّاءَ ما تقوم به امرأة صادفتْ فراغاً في الحب، فتكلفتْه واحتالت لاصطناعه، ناظماً في هذه الحال ستة أبيات، **أولها مشبه به هو البحر،** يليه خمسة أبيات في وصف تعاقب أحواله، ومعظمها في الهياج والعواصف والأعاصير، وما يحيق بها، وآخرها المشبه الذي هو المرأة. وإليكم ما جاء في هذه الاستدارة:

ما البحرُ، مُلْتطماً تَضاربَ موجُهُ ... كالغيظ في صدر امرئٍ يتردَّدُ

متواثباً كالشيخ يَحْرَجُ صدرُهُ ... فتقومُ هامتُه لذاك وتقعدُ

متنفِّساً نَفَس القتال إذا دَوَى ... وقْعُ المهنَّد، يلتقيه مهنَّدُ

متغيّظاً حَرِداً، فلولا أنه ماءٌ لسال أشعَّةً تتوقدُ

تَثِبُ العواصفُ فوقه وثبَ الجُنو نِ يظلُّ يُبْرِقُ، إذ يهيجُ، ويُرعِدُ

بأشدَّ من أنثى تكلَّفتِ الهوى وأتتْ بحيلة ضعفها تتنهَّدُ[1]

- لِأُشِرْ أولاً، إلى الأصل الشعري المتَّبع في الاستدارة التشبيهية، ألا وهو ما جاء به **النابغة الذبياني** في العصر الجاهلي، مادحاً **النعمان بن المنذر** ومعتذراً إليه، **والأخطلُ** في عصر بني أمية، مادحاً **عبد الملك** بن مروان.

تبدأ استدارة **النابغة** بقوله:

فما الفراتُ، إذا هبَّ الرياحُ له تَرمي غواربُهُ العِبْرَين بالزَّبَدِ[2]

وتبدأ استدارة **الأخطل** بقوله، متتبِّعاً خطى **النابغة** معنًى وصورةً:

وما الفراتُ إذا جاشَتْ حوالبُهُ في حافَتَيه، وفي أوساطه العُشَرُ[3]

وقد أقفل كُلٌّ من الشاعرين دورةَ تشبيهه ببيتٍ رابع أجاب بالإيجاب على تساؤلٍ منفيٍّ يتضمَّن الطرف الأول من التشبيه المقلوب، فقال **النابغة**:

يوماً، بأجود منه سَيْبَ نافلةٍ ولا يحولُ عطاءُ اليوم دونَ غَدِ

وقال **الأخطل**:

يوماً، بأجود منه حين تَسألُه ولا بأجهرَ منه حين يُجتَهَرُ

- ولأُشِر **ثانياً إلى موافقة النهج القديم بما يشبه المطابقة:**

حافظ **الرافعي** على السياق الشعري الذي اختطه **النابغة** وتمثَّله **الأخطل**، بأمانةٍ، على شيء من التغيير الذي طرأ على مسافة الدورة التشبيهية (ستة أبيات بدلاً من أربعة)، وعلى طرفي التشبيه ما بين نهر الفرات والملكين الممدوحين، لدى الشاعرين القديمين، والبحر والمرأة، لدى شاعرنا الحديث..

كما حافظ على الإطار الوضعي السردي كما جاء لدى القدامى؛

كذلك هي حاله في رسم نقطتي الاستدارة: **الأولى**: استهلال بالنفي، **والثانية** ختام بتأكيد قاطع (بالباء) المصاحبة التي تفيد القوة والثبات للشيء المؤكد..

- ولأُشِرْ، **ثالثاً إلى ذاتية الشاعر وتطلعه إلى تفوقه في الأداء**، والنهج الشعري،

(١) **ديوان الرافعي**، الجزء الثالث/ ص٥٤ ـ ٥٥.

(٢) **ديوان النابغة الذبياني**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر. سنة ١٩٧٧، (ص٢٦ ـ ٢٧).

(٣) **شعر الأخطل**، صنعة السكري، تحقيق د. فخر الدين **قباوة**. دار الآفاق الجديدة، طبعة ثانية، بيروت سنة ١٩٧٩، جزء أول/ ص١٩٧.

فأبدل الغزل بالمدح، والمرأة بالملك، ووالى بين اسم الفاعل الحالي (نسبه إلى الحال المنصوبة) والفعل المضارع، موالاةً تعاقبية تفيد التنويع، لا التغيير، لأن المضارع الذي يفيد الحضور والاستمرار، إنما هو كذلك لأنه يضارع (يشابه) اسم الفاعل.. فكان لنا من **المضارع**:

(يترددُ، يَحرجُ، فتقوم، وتقعدُ، يلتقيه، تتوقد، تثب) وما بعدها من أفعال مضارعة أخرى..

وكان لنا من **اسم الفاعل** الحاليّ:

(ملْتطماً، متواثباً، متنفساً، متغيِّظاً..)

ـ ولأشِرْ **أخيراً** إلى ما يمكن اعتباره **إضافة أو إغناء للنهج التشبيهي القديم**، عنيتُ، إرداف المشبه به: (البحر الملتطم) بمشبه به ثانٍ، هو: «الغيظ في صدر امرئٍ» وإرداف المشبه به: (ماء البحر) (بالأشعة المتوقدة السائلة).

وإرداف المشبه به: (العواصف المتوثبة)، (بالجنون) الذي منحه الشاعر قيمة بلاغيَّة عالية عندما استعاره من أوصاف الإنسان وسلوكه الخارق ونَسبه إلى هياج البحر وما يرافقه من بروق ورعود..

هذه الروادف التشبيهية، منحت الشاعر قبساً من الشعور بالاعتداد والتفوق ـ وهو شعور مستَحقٌ لا غبار عليه ـ فوجدتُني أتقبل استدارة الشاعر ذاتَ الستة الأبيات، وأنظر إليها بشيء من الارتياح، لأن الشاعر سار في ركب الشعر القديم وحسَّن في النسج الداخلي، مضيفاً إلى المشهد التقليدي حركة وحيوية.

ومن **الاستدارات التشبيهية** الموفقة التي سار فيها الشاعر على **نهج القدامى**، **وصْلة شعرية توسَّطتْ قصيدة دالية**، رشيقة الحركة، خفيفة الوقع، دافقة الوهج، أنشأها في «حسان الأرض والسماء». وقوام هذه الاستدارة سبعة أبيات متتابعة طرفها الأول «الوردةُ» والطرف الثاني: «قلب الشاعر». والغرضُ الأول أو قل: المعنى الرئيس من هذه الأبيات ـ الاستدارة: (قلبي أسمى من الوردة وأطهر مذاقاً ومقصداً).

ولكن الشعر لا يقرر حقائق، ولا يرسم أغراضاً ومقاصد، إنما هو دفق مشاعر وشُحنة رؤى تتداخل وتتواصل في حركة تناغمية، لا يقف تأثيرها عند حدود الكشف والإبانة بل يتعداهما إلى السموّ فوق الأشياء، والزهو بامتلاك ناصية الخلْق وإعادة تكوين الواقع..

تاللَّهِ ما الوردةُ قد أصبحت ... تَرشفُ من ريقِ السماء النَّدي

واختبأتْ ما بين أوراقها ... ريحٌ كنَفْحِ الزمن الأرغدِ

وما العيونُ النجْلُ قد كُحِّلتْ   من إثمد الحسن بلا مِرْوَدِ
وانبعثتْ ما بين أجفانها   أسرارُ حدِّ الصارم المُغْمَدِ
ولا شفاهُ الغيد قد أطبقتْ   على ابتسامٍ كان عن موعدِ
واختبس الوجْدُ بها قُبلةً   لولا الحيا قد نالها المجتدي
ما كلُّ ذا مُشْبِهُ قلبي، وما   أطهرَ ما في القلب من مقصدي![1]

نهجٌ اتباعيٌّ متقن، وتَرسُّمٌ أمين لأطراف التشابيه الواردة تباعاً في الأبيات السبعة، لكنه بتوقيع مصطفى الرافعي ونفَسه ومذاقه..

إذْ لم يَحْبس نفْسه في الحدود المرسومة التي تشكلت الاستدارةُ التشبيهية التقليدية منها، والمتمثلةُ بطرفين اثنين فقط للدائرة..، بل انعتق من هذه الحدود إلى أطراف أخرى، ودوائر تجري داخل الدائرة الكبيرة، شارعاً لنفسه وللقارئ نوافذ تلوح منها مشاهدُ ولوحات تصويرية على جانب من الجودة والانسجام، نذكر منها مشهدَ البيتين الأوَّلين اللذين تضمَّنا صورة الوردة، وما خبأته أوراقها من عبير زمني راغد.

أو مشهدَ العيون المكحولة بحسنٍ جارح لا حدَّ لتأثيره وتضوُّع أسراره، أو مشهدَ الشفاه النديَّة اكتنهت قبلة هي موئل الظامئين لرشافِ ابترادٍ...

ولعلَّ الرافعي، بنزوعه إلى تعدد أطراف التشبيه ضمن الدائرة التشبيهية الكبرى، لم يكن يرمي إلى التغيير أو تجديد الأسلوب، بقدر ما سعى إلى إشباع الذائقة الشعرية، وخلْق المناخ الفني المؤاتي لرسم أحاسيسه ورغابه، من خلال تشابيه واستعارات لطيفة مرافقة، جعلت من الاستدارة التشبيهية الكبرى لوحة نابضة بالحياة والدماء الجديدة.

ومن أنماط التشبيه المستدير في شعر الرافعي، مقطع شعري صغير قوامه بيتان اثنان تضمنا ما رأيتُ فيهما نوعاً جديداً داخل النهج التشبيهي المتَّبع، وهما من قصيدة شبه متفردة في ديوانه، كتبها في ما يعانيه من نوازع الذات ويقظات الشعر:

«وفكرةٍ كمَدار النجم جاريةٍ   بالسعد في أمة من غُرِّ أقوالي
ترمي بمنفتق الجوِّ الأشعَّةَ مِن   قلبي، فيحسبُها الراؤون، آمالي»[2]

«المنفتق» في البيت الثاني: المنشقُّ، المنبجِسُ.

شبَّه ما يصدر من قلبه، من آمال، وأحلام، وتصورات خفية، بالأشعة تشقُّ مدارَ السماء، كما يشق الضوءُ حُجُبَ السحب أو الظلمات.

---

(١) ديوانه، جزء ثالث/ ص٥٠.
(٢) ديوانه، جزء ثالث/ ص١٣٤.

والغريب، في صورة هذين البيتين، أن ما ينقله الشاعر مما يجول في خاطره يتراءى للناس كآماله. وفي هذا التشبيه نوع من الاستدارة التامة على الشيء نفسه، بحيث بدأ بفكرة أولية صدرت عنه، وانتهى فيها بالآمال التي هي ضمير هذه الفكرة، الأمر الذي يوحي بأن **الرافعي** قد جاء بتشبيه تمثيلي لم يُسبق إليه..

وبهذا المثال التشبيهي الأخير، يتأكد لي ـ وأرجوه كذلك للقارئ ـ أن **الكلام في أنماط تقليدية أو تجديدية في التشبيه ووجوه البلاغة الأخرى، مسألة لا حَسْمَ فيها، وأن ما قلتُه في المقاطع** الأولى من هذه الفقرة، حول **ضبابية الفرق بين الاتباعي والتجديدي، يمكن الأخذ به واستجلاؤه ليس في ديوان الرافعي فحسب**، بل **في كثير من النتاج الشعري الحديث والمعاصر** الذي توكأ على أساليب القدماء واقتفى آثارهم في موضوعاتهم وطرائق نظمهم..

ولا بدّ لنا في هذا الصدد، من توخي الدقة في ضروب المقارنة والمحاكاة، فنختار من النتاج ما تقاربتْ أغراضُه وتَشاكلتْ مداراتُه التعبيرية، وامتلك قدراً من الأصالة والغنى وصحَّة الانتساب إلى صاحبه وبيئته.. وإلّا نقع على مفارقات شاسعة بين هذا النتاج وذاك، مما أصدرَتْه قرائحُ القدامى والمعاصرين. وبدلاً من رصد جوانب مضيئة، وإن تقليدية اتباعية، ووشائج قربى ومحاكاة، نُصابُ بخيبات مريرة مما نصادفه من ركام النظم التقليدي الخاوي من كل صدق ومعاناة، وما أكثره وأكبر حجمه في نتاج شعرائنا الجدد!.

كقول **الرافعي** نفسه في قصيدة دالية من قصائد النسيب الذي بلغ التقليد فيه شوطاً بعيداً، وبخاصة هذه القصيدة:

«(...) وإذا بكيتُ جرتْ مدامعُها ... جريَ الندى صبحاً على الوَرْدِ

(...) سَلْ مسرحَ الآرام ما فعلتْ ... تلك الظباء الغيدُ من بعدي؟

أوَ ما نَهيتُك في (الجزيرة) عن ... كُنُس المهى ومصارع الأُسُدِ؟

وأرَتْكَ الألحاظ مُغْمَدَةً ... كالسيف مسلولاً من الغِمْدِ

(...) حَمِّلْ تحيتَكَ الصَّبا فعسىٰ ... يوماً تعود إليكَ بالردِّ!»[1]

على هذه الوتيرة معظم أبيات القصيدة: وتيرة النظم التقليدي المباشر، والاقتداء الأمين بنهج القدماء وموضوعاتهم وألفاظهم وتشابيههم:

الوردُ، الآرام، الظباء، المهى والكِنَاس والأُسد، السيف والغمد، **والصَّبا (وهذه اللفظة لو قمنا بإحصائها في ديوانه، لأعيتنا الحيلة وتعذَّر تعدادها)**؛ ناهيك بنهج

(١) ديوان الرافعي، جزء أول/ ص٨٦ ـ ٨٧.

الوصف التقليدي والتشابيه والاستعارات الشكليَّة المعادة، ومعاني الشعر المطروقة مئات المرّات عبر العصور القديمة، كي لا نقول، الحديثة..

ومثله قول **الرافعي** أيضاً، من قصيدة سابقة، في موضوعة (المرأة المُدِلَّة) حيث استخدم المعاني والألفاظ وصيغ المجاز عينها قائلاً:

«هي غُصْنُ الرياضِ والزهرُ والور دُ، قَواماً ونَفحةً وخدودا

وهي شمسُ السماء والظبية الغيْـ ـداءُ، وجهاً، ومُقلَتين، وجيدا»[1]

كم من المرات استُخدم الغصنُ الرطيب، والزهرُ والورد، رموزاً للقوام الرشيق المتثني، والخدود البضة الحيِيَّة؟!

وكم مرة توكأ الشعراء على الشمس تأكيداً لسطوع الجمال وإشراقه، وعلى الظبية وروادفها من مهى وآرام وغزلان، لوصف جمال العيون وسواد المقل المكحولة، والأجياد الحالية الناعمة؟!

ومثله قول **الرافعي** من قصيدة رائية سبقت الإشارة إليها، واصفاً وقع امرأة جميلة صادفها لحظات خاطفة، واختفت، فقال مردداً صيغاً ومعاني وتشابيه واستعارات أكل الزمن عليها وشرب:

طال عليَّ ليلي ولليلُكُمْ في قِصَرِ

مَن نام مِلْءَ العين لا يَعرفُ أهلَ السَّهَرِ

فسَائلوا ريحَ الصَّبا تُنبيكُمُ عن خَبري

يا قمرَ الآفاق هل سرقْتَ حسْن قمري؟

فأنت مثلُ وجهها والليلُ مثل الشَّعَرِ

ذاتُ جفونٍ قتلتْ بصارمٍ منكسرِ[2]

فطولُ الليالي وقِصَرُها، طالما ردّدهُ شعراء العصور الخالية؛ وأرَقُ العيون وسُهْدُ الجفون مثلُ ذلك؛ والقمرُ الحبيب، والوجه المشِعُّ والليل الحالك والشعرُ الفاحم، واللحاظ، والسيوف... الخ. لم يبق لها ما يَسمح بأخذٍ واقتفاء، بله الإضافة والتجديد.

قصَرتُ الشواهد التقليدية، التقريرية، على شعر **الرافعي**، لأنه موضوع البحث؛ فلْيَقِس القارئ عليه، ويضاعف النسبة أضعافاً مضاعفة، مع كثير من شعراء زمانه ممن فاتهم لطف المأخذ، وقوة العارضة، وطول المراس والخبرة التي أوْتيها **مصطفى صادق الرافعي**.

* * *

(١) **ديوان الرافعي**، جزء أول/ ص٨٢.

(٢) مصدر نفسه/ ص١٠٦.

ثانياً

مسيرة التعثر الشعري

ينتمي شعر **مصطفى صادق الرافعي**، إلى إرث أدبي عريق، عمره من عمر اللغة العربية، ومساحته شاسعة لا نهاية لحدودها الجغرافية.

وكما أنَّ في التاريخ والجغرافيا علاماتٍ ومناطق جميلة باعثة على الرضا والاستمتاع، هناك أيضاً علامات ومناطق وعرة موحشة، عصية السلوك؛ باعثة على السخط والتذمر.

هكذا الحال في ديوان **الرافعي**، الذي يماثل تقريباً ديوان **المتنبي**، في حجمه وموضوعاته، أو يزيد عليه بضع مئات من الأبيات.

والمعروف أن ديوان **المتنبي** يحتوي على ما يقرب من الخمسة آلاف والثلاثمائة بيتٍ من الشعر. ومع ذلك فقد عثر له النقادُ على كمية وافرة من سَقْط الشعر وزؤانه، وكمٍّ آخر أكبر بكثير، من الشعر المسروق والمسبوق. وظلَّ **المتنبي** سيد الشعراء في زمانه، كما هو في كل الأزمنة.

ولن يكون **الرافعي** بمعزل عن السقوط والتعثر في هذا الجانب أو ذاك، في دربه الشعري الطويل.

وقد رصدتُ له مواضع كثيرة، جانبَ فيها السلوكَ الشعريَّ الحسَن، وانحرف عن جادَّة الشعر المبدع الأصيل، فذبلتْ قصائدُ وشحبتْ مقاطع، وازْوَرَّ القارئ عن مواضع كثيرة، مبدياً من الأسف والاعتراض، أو التذمر والاغتياظ، ما جعلني أقف عند معظم جوانب التعثر، ألقي عليها بعض الأضواء وأُحمِّل صاحبها تبعة ما وقع فيه، ناسباً إليه **سطحية التجربة تارة**، **وشُحَّ القريحة ثانيةً**، **وسوء التناول ثالثةً**، **وضعف المحاكاة والتقليد رابعةً**، فكانت العناوين الآتية، وهي تقع تحت عنوان فرعي، هو:

دائرة التعثر الشِّعري

أ ـ نثرية النظم
ب ـ المغالاة والتطرف
ج ـ التعقيد اللفظي والتباس المعنى
د ـ الخلل العروضي
هـ ـ الخلل اللغوي . . .

* * *

أ ـ نثرية النظم

وأعني بها نَسَقاً من الكلام لا يختلف كثيراً عن لغة الخطاب اليومي، فلا اختصار أو كثافة تعبير، ولا جمال في الوقع والأثر، ولا عناية بالمحاسن البيانية والبديعية. وقد لا نجد سبباً واحداً يؤدي إلى هذه النثرية؛ فالمسألة غير خاضعة لرصد العقل بقدر ما هي ذوقية نهجية.

وأغلب الظن أنها من رواسب **الذاتية المفرطة التي يتشبث فيها الشاعر بكل ما يصدر عنه من كلام منظوم**، يراه صاحبه عند صدوره عنه، جميلاً فيُبقي عليه.

● من هذا القبيل عدد كبير من أبيات قصيدة (نونية) اقتفى فيها (نونيَّة) **ابن زيدون** «أضحى التنائي بديلاً من تلاقينا».

ومن **هذه الأبيات، مطلع القصيدة**، ومَخْتمها، وبعض الأبيات الأخرى:

كفى صُدوداً فما أبقى تجافينا ... منّا، ولا الدمعُ أبقى من مآقينا

(. . .) لا يمدُدُ الدهرُ بعد اليوم لي، يدَهُ ... فما سوى الهمّ أمسى بين أيدينا

(. . .) قالتْ رأيتُكَ مجنوناً فقلت لها ... لولا هواكِ لما كنا مجانينا

(. . .) إن كان سهلاً على اللّه تفرقُنا ... فليس صعباً عليه أن يلاقينا[1]

كلام عادي، لا مجاز فيه ولا خيال ولا إثارة فنية ما. ولولا النظم والوزن والقافية، لكان نثراً مرسلاً.

● ومن ذلك **قوله من قصيدة** (رائية) يشكو فيها عثرات الزمان:

. . . أنا يا دهرُ لم أسئ لكَ يوماً ... فلماذا أساءني الهمُّ دَهرا؟

(. . .) هو أدرى بما أحاول منه ... وأنا بالذي يحاول أدرى[2]

لاحظْ العتاب الساذج في البيت الأول، فضلاً عن تداخل ضميرَيْ الخطاب بين الهمّ والدهر، وسوء توجيه العتاب والمساءلة لهما؛ فالخطاب موجَّه إلى الدهر، لكنّ المسيء هو الهم لا الدهر. . كذلك القول في البيت الثاني الذي لم ينمّ على شيء يذكر مما يعتمل في صدر الشاعر، سوى الدراية والمحاولة، فجاءت في الصدر طرْداً، وفي العجز عكساً.

● ومنه **قوله في مقطع شعري** من بيتين اثنين، في مَن أخلفَ وعْدَه:

يا مُخلِفَ الوعدِ كم ... تكذبُ فيما تَنطِقُ

---

(١) **ديوان الرافعي**، جزء أول/ ص١١٣ ـ ١١٥. (٢) **ديوانه**، جزء أول/ ص١١٩ ـ ١٢٠.

أصْدَقُ ما وعَدْتَني أنك لستَ تَصْدقُ[١]

قد يعبِّر هذا المقطع عن شيء من البديهة في خفة القول ومسِّ الحقيقة، لكنه يظل رَصْف كلام موزونٍ لا يختلف عن الخطاب العادي أو المحاورة العابرة.

● ومن ذلك **قوله**، من **قصيدة رائية** يقص فيها حادثة غرامية، مُقْسِماً فيها قَسَماً صبيانياً لا روح فيه ولا معنى:

لا، وذاتِ السِّوَارِ ما نَقضَ العَهْدَ (م) ولا خانَهُ، لا وذاتِ السِّوَارِ[٢]!

و«ذات السِّوار»: بطلةُ القصيدة التي دارت عليها الأبيات.

● ومن **ذلك**، على الوتيرة نفسها، **قوله** من **قصيدة ميمية** من ثمانية أبيات، يشكو حرمان الحب:

رحماكَ يا ليلُ، ورحماكَ بي وألفُ رحماكَ، ودعني أنامْ[٣]

أيُّ كلام يقال في سطحية هذا البيت، لا يفي الفنّ الشعريَّ حقَّه. نكتفي بقيلةٍ واحدة: رحماك يا «**مصطفى**»! ما كان أحوجك عن هذا الكلام وأنت عملاق في فنك!!

● ومن **شواهد النثر المنظوم** لدى شاعرنا المفتون بالجمال، المتعبد في محرابه، **قوله، في مقطَّعة** من **سبعة أبيات**، وهو يناجي الحبيب في جنح الخيال:

يا من تَباعدَ عني حفظتُ في البعد عهدَكْ
فكيف حالُك بعدي قد ساءَ حاليَ بعدَكْ؟
يا ليتني كنتُ خالاً وكنتُ ألثم خدَّكْ
وليتني كنتُ ثوباً وكنت ألمسُ قدَّكْ
وليتَ طيفكَ عندي وليت طيفيَ عندكْ[٤]!

ما من بيت إلَّا وفيه كلمة على الأقل، تكررتْ مرتين من دون مسوِّغ أو إضافة معنوية أو إيقاعية. أما البيت الأخير، فهو عَجُزٌ يكرر صدراً، لا يقال في الشعر بل في مكالمة خاصة يفضي فيها الحبيبان بكل ما يرد على اللسان.

وأعود إلى النثرية لأقول: إنها **ليست عيباً في ذاتها، ولا هي مدار ضعف في أدب الكاتب**، بل هي **غير متجانسة مع روح الشعر ونسيجه القائم على حرير اللفظ، وظلال المعنى، وتضور الإيقاع**، ما لا يسع النثر القيام به إلّا في أحوال نادرة.

وأرى أنَّ **كل ما يقال في لغة الخطاب الاعتيادي، لا يجوز نقله كما هو إلى**

(١) نفسه، جزء أول/ ص١٢٢.
(٢) ديوانه، الجزء الأول/ ص١٣٠.
(٣) ديوانه، الجزء الثاني/ ص٧٧.
(٤) ديوانه، الجزء الثاني/ ص٨٠.

الشعر، بشيء من النظم الذي يستطيع أيٌّ كان القيام به، إنْ هو عَرَف قواعد التقطيع العروضي. والعكسُ بالعكس: **ما يؤدى في الشعر لا يؤدى في النثر**، كلٌّ له عالمه التعبيري الخاص، وسرُّ تركيبه.. **فالشعر** إيحاء وتخييل وإيقاع وكثافة معان، ليس للنثر منها إلا القليل.

ب ـ المغالاة والتطرف

وأقصد بهما **الخروج عن حدود الاحتمال** vraisemblance كما يقول **أرسطو**، **والوقوع في ما يشبه التصور المحال**، أو اتخاذ مواقف لا قبل للقارئ بها..

وفيما عدا ذلك فإنّ كلَّ ما **تقتضيه الصنعة الشعرية**، يجب أن يكون خارجاً عن المألوف، **متسماً بصورة** أو بأخرى، **بالتفرد في التناول، والتمرد على القواعد والمقاييس** الرتيبة الموروثة.

ولا يكون شعر أو فن من الفنون إلّا بما ذكرت من تفرد وتمرد، يعيدان خلق الأشياء من جديد ويصوغان المشاعر والأغراض بغير الأساليب الاجتماعية المعمول بها.

وسنجد أن **مصطفى صادق الرافعي** قد وُفق إلى بلوغ هذه المراقي في كثير من قصائده وشواهده جعلتْه يزهو ويختال بصورة كاد أن يتفرد بها بين شعراء عصره.

لكنه، في المقابل، جنح بعض الشيء في تصوراتٍ لامست في جوانب منها، محرَّمات العقيدة الإسلامية، من **مثل قوله، في جميلٍ فاتك**، من مقطَّعة من ستة أبيات (ضاديّة):

وقـد ألّـهـهُ الـسحـبُ فـأدّيـنـا لـه الـفَـرْضـا[1]

فالتأليهُ وقْفٌ على **الله** سبحانه، الذي وحْده تؤدى له الفروض العيانية والكفائية.. لكن الشاعر وظّف هذا الشعور القدسي وما لزم عنه من مظاهر العبادة، في بيته الشعري، ليؤكد عظمة ما يعتريه من لواعج الغرام وشدّته.

ومثل ذلك قوله، من مقطع من بيتين اثنين، **في سحر كفّ الحبيبة**:

بنفسيَ مَن تَشفي أناملُها الجوى فلو قَبّل المضنى يديها لما اشتكى

ولو أنّ قلبي كان في القبر ساكناً ومرّتْ عليه كفُّها، لتحرّكا[2]

ليس هناك من اعتراض على كلا البيتين، لأنهما موحَيان من يَنبوع واحد هو انعصار الشاعر في أعماقه لارتشاف ما تقطُر به يدُ الحبيب، فكانت هذه الصور، التي يتقبل القارئ

---

(١) **ديوانه**، جزء أول/ ص٩٨.

(٢) **ديوانه**، جزء أول/ ص١٠١.

أُولاها وهي: شفاء مريض الغرام بلمسة يديها، ويتحفظ على الصورة الثانية التي تجعل من كف الحبيبة مُحْيية لأجداث القبور. والمُحيي والمميتُ هو **الله** وحده جلَّت قدرته.

• ومن **الأشعار التي غالى فيها الرافعي** وتطرَّف، لا في التصور والتخيل، كما سبقت الإشارة إلى ذلك غير مرة، بل **في موقفه الشخصي من المرأة. فبعد أن جعلها في أعلى المراتب** التي يمكن أن ينالها إنسان على وجه البسيطة، ألا وهي التأليه والعبادة، ثم جعلها مصدر حياة وشفاء للمرضى والأموات، إذا به ـ في غمرة انفعال متطرف وانحراف مُوفٍ إلى عَتبات الجهل ـ **يحرِّم عليها القراءة والكتابة، ويقصُر وجودَها كلَّه بخدمة المنزل**، وخياطة الأثواب، قائلاً في ما يشبه التهور الفاضح، مقطعاً من ثلاثة أبيات:

يا قوم لم تُخلَقْ بناتُ الورى ... للدرس والطِّرْس وقالٍ وقيلْ

لنا علومٌ ولها غيرُها ... فعلِّموها كيف «نشْرُ الغسيلْ»

والثوبُ والإبرةُ في كفِّها ... طِرسٌ عليه كل خطٍّ جميلْ[1]

لقد بلغ **الرافعي** ههنا، من التطرف في النظر إلى المرأة، وتحديد مهامها وعلومها، ما يدعو إلى الاستغراب، فالاستهجان؛ لأن «**العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة**». وكلما ازداد علمها، رقيت في سلّم الوعي الذي هو أكبر سلاح تمتلكه المرأة. فهل هي سهوةٌ شعرية أصابت الشاعر في هذا المقام، فأنشأ هذه الأبيات، بدافع المزاح الطريف، وهو الذي مجّد الجمال الأنثوي كل تمجيد ورفع صاحبته إلى حيث لا بَعْدُ ولا فوقُ؟

وكيف تكون المرأة جميلة موحية ببدائع الشعر وطرائفه، وهي لا تحسن من الحياة غير «نشر الغسيل»[2]؟

• وفي السياق نفسه ـ أي مغالاة الرأي والتطرف الشديد اللذين يصدمان القارئ ويجعلانه في حيرة وقلق فائقين ـ قول **الرافعي** في ما هو النقيض الكلّي لما رشح منه في المقطع الشعري الأخير، **وهو يعرض لقوة المرأة، وأثرها الخارق في كل ما له علاقة بالإبداع والنصر والتفوق**، لدرجة احتلالها واجهة الوجود وآفاقَه ومَداراتِه.

لنقرأ ملياً ما قال، ونتأملْ في العبرة والمغزى!

إنّ النساء هي الوجودُ، أما يَرى ... كلُّ الرجال، لأجلها ما يوجدُ؟

---

(١) ديوانه، الجزء الثاني/ ص٤٨.

(٢) انظر شرح البيت وتعليقي عليه، في موضعه من الديوان (جـ٢/ ص٤٨) دائماً، من الطبعة المصرية، حيث تضمنت الحاشية هناك، كل ما أوردتُه هنا من تعليق.

هي في القلوب، وكلُّ شيء راجعٌ للقلب، فهي لكل شيء مَوردُ
والقلبُ في نَسْج الطبيعة، عقدةٌ بين الهوى والرأي، لم تَلِها يدُ
فإذا نظرتَ إلى العظائم لم تجدْ إلا إرادات النسا تتجدَّدُ
وإذا بحثتَ وجَدْتَ كلَّ عظيمةٍ في طَيِّها نظراتُ أنثى تَشهدُ[١]

أين هي الموضوعية، وأين التفكير الواقعي المنطقي؟ إنَّ للمرأة تأثيراً كبيراً ودوراً بارزاً في سيرورة المجتمعات والأوطان، وإحراز الأمجاد، وربما النكسات والهزائم.. لكنها بالتأكيد، ليست كل شيء، وليست وراء كل العظائم أو الكبائر.. ليست الوجود، كما يقول **الرافعي**، وليس كل ما هو قائم، لأجلها، وأنها مورد كل المشاعر والأحاسيس، وغير ذلك مما حواه المقطع الشعري أعلاه. **إنه التطرف الأقصى، والتفرد الخارق لا يقبله المنطق، ولا تُقرُّ به المذاهب الفكرية والدينية، المعتدلة منها والمغالية.**

حتى الميدانُ العاطفي أو القلبي، لا تملك المرأةُ فيه كل عناصره ومركَّباته، لأن العاطفة تيار داخلي لبني الإنسان، رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، **قد تعظُم لدى أحدهم أو بعضهم، لكنها غير موقوفة على المرأة وحدها.**

لقد بالغ **الرافعي** في إعطاء المرأة هذه القوى الخارقة لدرجة احتوائها جميعاً، فخرج عن المعقول، ودخل في مدار التيه، والانفلات من كل قيد أو تعقل.

والجدير ذكره عقب هذا الكلام، أنَّ **معظم الشواهد** ـ إن لم أقل كلَّها ـ في كلتا الفقرتين السابقتين: (**نثرية النظم، والمغالاة والتطرف**)، اتخذت المرأةَ موضوعاً لها وإطاراً، **كأنما موضوعة الغزل والنسيب، لا ضوابط للغتها واتجاهاتها، يجري فيها الكلام وفقَ المزاج والهوى، وما على الشاعر والقارئ إلّا القبول به والتكيف مع مسراه المتقلب.**

ج ـ التعقيد اللفظي والالتباس

التعقيد في الكلام: **سلوك مختلٌّ في التركيب اللغوي**، وذلك بخروجه على قواعد الصرف والنحو من جهة، أو «**تأليفه على وجهٍ يَعْسر فهمُه** لسوء ترتيبه، من جهة ثانية، أو لاستعمال مجاز بعيد العلاقة، أو كناية بعيدة اللزوم، وهو التعقيد المعنوي»[٢]، من جهة ثالثة؛ الأمر الذي يجرُّ غموضاً أو صعوبة شديدة في الفهم والاستيعاب.

ومثلُه الالتباسُ الذي يعني **الاختلاط والإشكال، جرَّاءَ التداخل غير المنظم لعناصر الكلام بعضها ببعض.**

---

(١) **ديوان الرافعي**، الجزء الثالث/ ص٥٣.

(٢) **المعجم الوسيط**، الجزء الثاني/ ص٦١٤ [عقد].

وسوف نرى أن نصيب الشعر المعقَّد الملتبِس، في ديوان **الرافعي**، أكبر مما مرَّ من شواهد الفقرات السابقة. ربَّما **عاد ذلك إلى تداخل الأفكار واكتظاظها في فوَّهة اللسان، وبوَّابة الوعي**.. وربما كان ذلك **بسبب فجاجة التجربة الشعرية، وهشاشة المعاناة الذاتية، أو لعدم التمرس الطويل في التعبير عن أغراض بعيدة عن دائرة الواقع**.

كما يمكن ردُّه إلى **شعور دفين في قلب الشاعر أنه قادر على ركوب أي موجة من أمواج التركيب الشعري**، فلا بأس عليه من استخدام هذه الصيغة أو تلك، هذا التركيب البياني أو النحوي، أو ذاك.. إلى ما هنالك من عوامل لا حصر لها مما عرفتْه أساليب الكتابة الأدبية في تعاقب العصور والمراحل.

تجمَّعَ لديَّ من تعقيدات الشاعر، شواهدُ كثيرة تفوق بكثير شواهد الفقرات السابقة والطوابع الأدبية العامة، لا يسعني عرضُها كلها، بل أقف عند أكثرها جحوظاً، تبعاً لورودها في الديوان.

● **قال من قصيدة في مسارح شبابه وذكرياته** وآهاته الحرَّى، من جراء البعد والضمور:

يــا قــلــبُ مـالــي مـا أضِــنُّ بــه من بعد ما فقدت سوى فقدي[1]

فالمعنى غامض تماماً حول ما يضنُّ به الشاعر؛ هل هو فقده لها الذي يضنُّ به؟ وما معنى الضنِّ بمثل هذا الفقد؟ ثم هل يقصد فقدها هي، ولا شيء في القصيدة يشير إلى شيء من ذلك، وإلَّا تحوّل النسيب إلى رثاء؟

● **وقال من قصيدة نونية في مشاعر شتى وذكريات متقطعة:**

ورميتُ الدجى بساهرة الليل (م) تفيضُ الدموعَ وجداً وحزنا

فتَحتْ جفنَها فطار كراها وبكَتْهُ فليس تُغمضُ جفنا

إنْ تعِشْ يرجعُ المنامُ إليها أو نَمُتْ بعدها ففي الحب مِتْنا[2]

أستعير هنا نص الحاشية التي دونتُها في موضعها من شرح الديوان، قائلاً: في الأبيات المذكورة، موضع التباس شديد حول «ساهرة الليل»: هل هي امرأة بذاتها ذكرها الشاعر، ولها سيرة معروفة في الحزن والكمد؟ أم هي عينُه هو الذي قاوم ليل حبه الداجي، بسهر عينيه لا يغشاهما النوم؟

حتى البيت الأخيرُ، فيه شيء من التناقض في تشريطه الملتوي، وذلك في قوله «إنْ تعِش» (بتاء) المخاطبة، و«إن نمت» (بنون) جمع المتكلم.. فلم أجد رابطاً بين (عيش) المرأة الساهرة، و(موت) الشاعر، كلٌّ في اتجاه.

---

(١) **ديوان الرافعي**، الجزء الأول/ ص٨٧.

(٢) **ديوانه**، الجزء الأول/ ص١١٢.

وأين كانت المرأة الساهرة طوال الأبيات السابقة، وهو لم يتحدث إلّا عن نفسه وماضيه المغمور بالحسرات والزفرات؟

● **وقال من قصيدة يناجي فيها الحبيب الهاجر:**

لو شئتَ يا حلْوَ اللمى لم تبتْ غلَّة هذا القلب لم تنقعِ[١]

كيف قلَّبْتَ الحركات في عجز البيت، يبقى الغموضُ المعنوي على درجته بسبب عدم وضوح الموقع الإعرابي لكلمة «غلّة». وهل «تنقع» هي للمعلوم أم للمجهول؟

● **وقال من قصيدة صغيرة، في شرقيي زمانه،** وقد أشكل علي القصدُ:

يرثي لِمَنْ ليس منه وموتُ أهليه عُرْسُهُ

من كان ضرس سِواهُ فليس يعنيه ضِرْسُهُ[٢]

اختلَّ المعنى في كلا البيتين، وبخاصة عجز الأول وصدر الثاني. فإلى أين يعود الضمير في «أهليه» و«عرْسُه»؟ وأين خبر «كان ضرس سواه»؟ لا بد أن يكون في الكلام حذف، تقديره: من كان ضرس غيره هو الموجوع، فلا يعنيه ذلك بشيء.

● **يلي البيتين أعلاه، بيت ثالث،** هو آخر المقطع الشعري السِّينيِّ ذي الستة الأبيات.

واللّه لو عقَلَ الشرقُ لاختفَتْ عنه شمسُه[٣]

في البيت غموض والتباس وتساؤل رافض لمقولة البيت؛ إذ كيف تختفي الشمس إذا استخدمَ الشرقُ عقله؟ ولا بد أن يكون الكلام، «ما اختفتْ عنه شمسُه» عوضاً عن: «لاختفتْ»؛ وما أبعد الفرق في القصْد!!

● **وقال في مطلع قصيدة همزية يقارن بين نساء الشرق ونساء الغرب:**

أبى الجهلُ إلّا أن يكونَ نساؤنا رجالَ سوانا، والرجالُ نساءَ[٤]

الالتباس هو في عجز البيت، نتيجة التكلف في الصياغة وخلل التركيب. فلا معنى لـ«رجال سوانا» ولا معنى لـ«الرجال نساء»!

● **وقال من مقطَّعةٍ ميمية من خمسة أبيات تحت عنوان:** «تسليم الأولاد للمراضع والخدَم»:

ومن فيكِ تُبعثُ فيه الحياةُ ويسقمهُ غيره كلُّ فَمْ[٥]

(١) **ديوانه**، الجزء الأول/ ص١٠٣.
(٢) نفسه، الجزء الثاني/ ص٢٤.
(٣) نفسه، الجزء الثاني/ ص٢٤.
(٤) **ديوان الرافعي**، الجزء الثاني/ ص٤٦.
(٥) **ديوان الرافعي** الجزء الثاني/ ص٤٩.

لم نَر وجْهاً لمعنى عجز البيت، وتالياً، لضبط إعرابه أو تشكيله.

● **وقال من مقطعة دالية من خمسة أبيات، يتحسَّر على الخمر:**

وتُذكِرُنا الأَزْمُنَ الخالياتِ كذكْرِ العظيم ليالي المُهودِ[1]

لم نَفْقه معنى «العظيم» ولا حتى «ليالي المهود» هل هو عظيم القدر ذو البأس الشديد؟ وهل قصد «بليالي المهود» سنوات الرضاعة الأولى؟ وكيف يكون ذكراها وهي غائرة في قَعْر اللاوعي؟

● **وقال في موضع مشابه، على شيء من التعالي، من قصيدة بائية:**

طرَحْنا غمامَ الأسى للسماءِ فرأسُ السماء به شائبُ

ومن عَنَت الراحِ تُدْني المنى وتحضرها وأنا غائبُ[2]

البيت الأول واضح المعالم نَميرُ المعنى، أما الثاني فيَعْسر البدء بمعناه أو تحديد جوانبه بشكل أو بآخر. أين فاعل «تدني»؟ هل هو «السماء» في البيت الأول أم الخمر بعامة؟ وما معنى «تحضرها» وأي (غياب) يقصد؟

والحقيقة أن (العَنَت) منسوب إلى الشاعر لا إلى (الراح)، وذلك بإدخال الضمائر والصيغ بعضها ببعض من غير نظام أو مراعاة للسياق الشعري.

● **وقال من قصيدة لامية طويلة في وصف راقصة فريدة من نوعها، على جانب من التصوير الفني الموحي:**

أقبلْنَ يَختَلْنَ فلم يكُنَّ غيرَ الأَسَلِ

ثم نظَرْنَ نظرةً معقودة بالأَجَلِ[3]

لن أقول إن هناك تعقيداً أو التباساً. إنما هو الغموض الشديد في معنى «الأسل» في البيت الأول، و«الأجل» في الثاني. مع أن كلتا (الأسل والأجل) واضحتا المعنى القاموسي، لكن التركيب محيِّر، والقصد متنازع الجهات.. هل نحن مع صور رمزية موحية على غموض شديد؟

● **وقال من القصيدة اللامية عينها، في وصف الراقصة المُعجبة:**

وصدرُها كالقَصْر شيـ ـدَ فوق ذاكَ الطَّلَلِ[4]

كيف يكون «صدرٌ» مكوَّرٌ رقيق، كالقصر؟ وما الذي يرمز إليه «الطلل» هنا؟ إنها صورة مكتنفة بالغموض، تحتمل كثيراً من المعاني والتصورات، ولا تقرُّ على قرار.

---

(١) **ديوان الرافعي**، الجزء الثاني/ ص٦١.

(٢) المصدر نفسه، ص٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ص٦٣.

(٤) **ديوان الرافعي**، الجزء الثاني/ ص٦٤.

● **وقال من قصيدة بائية في تهنئة الخديوي عباس حلمي:**

يُذْني النفوسَ وتُقْصيها مهابتُهُ كزخرف الشمس في الهندية القُضُبِ
وما رأى وجْهَ «عباسٍ» يقابلُه إلّا تهلَّل بين التيه والعَجَبِ [١]

في البيت الثاني التباس في المعنى نتيجة التركيب المقلوب. فما فاعل «رأى»؟ وما فاعل «يقابلُه»؟ أتراه قصد بذلك إثارة التساؤل والتأويل، عانياً ما يلي: (وما رأى وَجْهَ عباس، من رآهُ، وقابله، إلّا هلَّل وكبَّر؟).

● **وقال في القصيدة نفسها**، موقعاً القارئ في حيرة:

فدُمْ لِمصْرٍ، فلم يَثْبُتْ سواكَ لها صدقُ العزيمةِ والأيام في كذبِ [٢]

بقدر ما عبَّر صدر البيت بوضوح عن معناه ومبناه، أساءَ العجُزُ، فأربكَ وأساءَ، ولا أرى وجهاً لمعنى أو مقصدٍ حسن.

● **وقال، من قصيدة قافية، معارضاً فيها قصيدة أبي الطيب:**

«لعَينيكِ ما يلقى الفؤادُ وما لقي»

ومَهلاً أُضيءْ آفاقَها ثم انطفي كما أطفأتْ أنفاس حُبِّك رَونقي [٣]

لم أفقه سبب جزم «أضيءْ» المشكولة بالسكون في أصل الطبعة، ولا معنى «انطفي». فالصدر على جانب كبير من التعقيد اللفظي والمعنوي، الذي لا يُفضي بنا إلى شيء!

● **وقال من قصيدة رائية طويلة، في تقلبات الصدود وحرارة التمنيات،** يصف بعض ما يرمز إليه ثديُ المرأة في صدرها، لكنه وقع في شرك التعقيد والالتباس:

علمتُ من الثدي ما تُضمرين فقد وقفَ الثديُ حتى أشارا [٤]

بيت جميل الصدر، موحي الكناية فيه؛ كذلك هو في مطلع العجُز. لكننا مع نهاية البيت في حيرة ووجوم، أية إشارة أرسلها وقوفُ الثدي؟ وما علاقة الوقوف بالإشارة.. ولماذا هذا الترابط المُقْحم الذي أفقد البيت رواءه وصفاء صوره الموحية؟

● **وقال، من قصيدة نونية في تأكيد تجاوب الحبيبة له،** ما يشبهُ اللغزَ:

لا تَعجبي مما يُمنّي الهوى ما في يد العشاق إلّا المنى
قد نال بعد العشق أطماعَهُ من نال بَعْدَ الكيمياء الغنى [٥]

---

(١) ديوان الرافعي، الجزء الثاني/ ص٧١.
(٢) مصدر نفسه، الجزء نفسه/ ص٧٢.
(٣) مصدر نفسه، الجزء نفسه/ ص٧٨.
(٤) مصدر نفسه، الجزء نفسه/ ص٨١.
(٥) ديوان الرافعي، الجزء الثاني/ ص٨٣.

بقدر ما فَسحَ البيت الأول للتأمل دروباً، وفتَح كوى للاعتبار، خيَّبَ البيت الثاني الأمل وسدَّ مجاري التأول، ليحوِّلها إلى احتباس النظر في إقحام كلمة هي عنوان لعلم قائم بذاته: «الكيمياء». أين نحن من الكيمياء؟ ومن أين جاء بها الشاعر؟ ناهيك (بالغنى) المتعلق با(الكيمياء)! أسئلة يطرحها القارئ ليرى منفذاً أو عذراً للشاعر فلا يجد. **وعندما تُوصد الأبوابُ أمام عدسات الوعي، يصبح الكلام نوعاً من العبث الفكري.**

● **وقال، من قصيدة يائية، مخاطباً فيها البدر** ليشهد له حسن وفائه لحبيبته ودوام وصاله:

وأخشى عليها من شعاعِك مثلما ... يخاف على النفس الجبانُ المواضيا[(١)]

من أسوأ ما يكون التركيب اللغوي.. فقد أخَّر «المواضيا» التي هي مفعُول «يخاف» لتكون قافية البيت، وحذَف حرف الجر (من) الذي يتعدى به فعلُ الخوف. وسياق البيت في تركيبه الطبيعي هو: يخاف الجبانُ على نفسه من عاقبة السيوف.

● **وقال في مقطع من أربعة، يشكو نحوله وهزاله من صد الحبيب:**

لولا الحبيبُ وقصدي أن يَبينَ له ... يريه ما فعلتْ عيناه، لم يَبنِ[(٢)]

بغض النظر عن التقليد الممجوج في وصف الجسد المهزول من شدَّة الجوى، الذي سُبقَ إليه الشاعر مرات ومرات، بدءاً **بالمتنبي**، مروراً **بصفي الدين الحلّي** وغيرهما، **فالبيت غاية في الاختلال والتعوُّج**، جرَّاء التقديم والتأخير، والحذف المخلّ، وتعليق الكلام من غير ضابط. وأسأل:

أين فاعل «يبين»؟ وأين فاعل «يريه»؟ وكذلك فاعل «يبن»! وجواب «لولا».. وأغلب الظن أن الشاعر أراد أن يقول: لولا الحبيبُ لما حصل لي ما حصل من ضمور وضنك. وكم أجهد ليعرف حالي ويراها! لكنه سالٍ عني. ولو قصد إلى رؤيتي تعذَّر عليه ذلك. ألهذا قصد الشاعر؟ بئس القصد، وبئس ما تقوَّلتُه عنه!

● **وقال، من قصيدة دالية طويلة، بعنوان «حادثة السِّرْب»**، وفيها سربٌ من التأملات في حاضر الإنسان وغابره، واقعه ومآله، ليقول:

هو ألقى في النار فحماً فلمَّا ... أجَّ لم يختطف سوى الوقَّادِ

ليس للملك من يسوقُ هواها ... حامل التاج، مثل سوق الجيادِ[(٣)]

لم أجد سبيلاً للدخول إلى معنى البيت الثاني، ولم أجهد لتأويله أو تصويبه.

---

(١) **ديوان الرافعي**، الجزء الثاني/ ص٨٦.

(٢) المصدر نفسه، والجزء نفسه/ ص٩٢.

(٣) المصدر نفسه، والجزء نفسه/ ص١٠٤.

حتى التشكيلُ الإعرابي، لم أشأ القيام به لأنه مرتبط بالمعنى، والمعنى مستغلق. حتى القصيدةُ التي ضمَّتْ تأملاتٍ حكمية جميلة، على مدى الأبيات الاثنين والثلاثين التي سبقت البيتين، أو قل البيت الثاني الشديد التعقيد، هذه القصيدةُ قد اختلَّتْ مسيرتها الشعرية المؤثرة عند عبوري هذا البيت، وما تلاه من سائر أبيات القصيدة، حيث تحوَّل الكلام من التأمل الاعتباري والقصِّ الرمزي الموحي، إلى حكاية خارجة عن السياق العام تَعْرض لمَلكٍ وقعَ في هوى امرأة باغية، ثم نفاجأ بغِيلةِ المرأة، وحِدادٍ قاتمٍ تَبِعَ ذلك، على تحسُّر بالغ؛ هكذا من دون أن نعرف مغزًى لهذه القصيدة، أو شيئاً من حوافزها، ومسوِّغات نظمها..

• **وقال من قصيدة ميمية متنوعة الأغراض**، بين استذكارٍ وتحسُّر ومراجعات وجدانية غابرة:

وثغرُ الهوى إن دام يبسم للفتى ... سَلا، ومتى يَضحكْ شبابُكَ يَهرمِ[1]

بيت، أقل ما يقال فيه: **فالتٌ**، لا يرتبط بغيره، ولا يَشي بشيء يستحق الذكر.. ربما قصد الشاعر أموراً ذات بالٍ لكنها هنا أخيلة وخطوط ملغزة، أو قل: **كلمات متقاطعة**..

فما معنى كلمة «سَلا» في العجز؟ وما قيمتها ومحلُّها في الإعراب؟ وما معنى (هرم الشباب إذا ضحك)؟ هل هو نَسْخٌ لقول **دعبل الخزاعي** الشهير:

«لا تعجبي يا سَلْمَ من رجلٍ ... ضحكَ المشيبُ برأسه فبكى»؟[2]

• **وأنشأ الرافعي قصيدة قافية في مدح الشيخ إبراهيم اليازجي** من سبعة عشر بيتاً شعرياً، نصفها الأولُ متكلف، مصنوع صُنعا، إذ خلط فيه النسيب (في الأبيات الخمسة الأولى) بالحكم الزمانية المعبِّرة، من غير رابط موضوعي أو تناسق بين موضوعتي النسيب وصروف الدهر. ومطلع القصيدة:

نظرَتْ إليَّ فقلتُ يا قلبُ اتَّقِ ... وتقول بالألحاظ للقلبِ: اعشقِ

ويقول بعد ذلك، في حكْم الدهر القاهر:

ومتى، ودهري أحمقٌ يأتي لنا ... من صُلبه إلّا بيوم أحمقِ؟[3]

وللحقيقة، لم يُعقِّد **الرافعي** في هذه القصيدة، ولم يُخلَّ بشروط الفصاحة. ومبعث الثقل، هذا التداخل الغريب بين ما وطَّأ له من مقدمة غزلية تقليدية، وما تخلَّص به إلى المدح..

---

(١) **ديوان الرافعي**، الجزء الثالث/ ص١١٧.

(٢) استعرتُ الحاشية نفسها التي ذيَّلْتُ بها شرح البيت في موضعه من الديوان.

(٣) **ديوانه**، الجزء الثالث/ ص١١٩.

فقد أراد **الرافعي** أن يكون مَخْلصُه مختلفاً عما ساد قصائد المدح العربية من قبل، فجعله في ذم الزمان الذي لم يُراعِ القيم والمقامات، ومن بينها مقام الشيخ **إبراهيم اليازجي**، بقوله:

لو أنه أعطى الرجالَ بحقهم لأَحلَّ إبراهيم عينَ المَشْرِقِ

● **وقال**، من **قصيدة دالية** مضمومة الرويّ، **يرثي بها الشاعر المرموق محمود سامي البارودي**:

فيا مصْرُ لا تُبقي على القول عَبرةً وخَلّي لنجديّكِ وصف الهوى نَجْدُ[1]

لم أَتبيَّن السياق النحوي لعجز البيت، بسبب غياب بعض روابط الكلام، وانعدام التشكيل الذي لا يَحسُنُ فهمُ العربية من دونه. أضف إلى ذلك غياب مفعُول «خلّي».. فإذا كان المفعُول «وصْف»، فما حكمُ «نَجْدُ» من الإعراب؟ كل ما يقال ههنا ترجيح واحتمال، قابلان للنقض والاعتراض. وقل مثل ذلك عن «نجدييك» التي لم أقو على تشكيلها لضبابية معناها.

وبعد، هل **أجرؤ على القول إن مصطفى صادق الرافعي**، عبْر العديد من الشواهد الشعرية التي خرجت عن جادة الإبداع الشعري، واصطبغت بصباغ قاتم من التكلف والتعقيد والاضطراب، **قاصر عن إدراك ما اعتور شعره من نشاز الكلام وسقط الصور؟**

ألم يكن بالإمكان مراجعة ديوانه والاستهداء إلى ما شابَهُ، فيحذفَه ويُشذِّبَه ولا يُبقي منه إلّا على قمحه الدرِّي، وضمَّات فُلِّه وياسمينه وقرنفله، تتعانق وشميمَ عراره وشامخَ صنوبره وسندیانه؟؟

وهل يمكن القول إن ما وقع فيه **الرافعي**، سمةٌ أدبية عامة نُصادفها في مختلف الآثار الشعرية من كل الطبقات؟

بلى، يسعنا القول بمثل ذلك. وقد نعثر على شعر أكثر تعقيداً وأدعى إلى الاستهجان، لدى فحول الشعراء، من دون تمييز.. لكننا في الغالب، نكون مع نماذج مقصودة لذاتها، عكف عليها أصحابها لتخرج بهذه الطريقة الملتبسة، أو تلك؛ وربما كان ذلك لإظهار ملكات التفنن والابتداع، كما هي حال **أبي تمام وأبي الطيب المتنبي** وكثير ممن ألغزوا في أشعارهم وحاجُوا وعَمَّوا.. لكن ذلك لم يخرج عن دائرة الصنعة والتمهُّر.. ولا أظن أن ما عرضناه من شعر **الرافعي** هو من هذا القبيل.

قد يكون ذلك من سهو القريحة والخاطر، وقد يكون بعضه مقصوداً، لا للإلغاز والإرباك، بل لانسياقٍ فني مسترسل، يغيب عنه الرقيبُ، فيرتطم بما يلوي ويَلفَح،

---

(١) ديوان الرافعي، جـ٣/ ١٤٥.

ويُوقع في الفراغ. وعلى الجملة، ليست الشواهد الشعرية الناتئة التي توقفتُ عندها ملياً، إلا غيضاً من فيض الديوان الذي طفح بما يُعجب ويوحي، وكفى بالرافعي فخراً هذه العيّنات الهيّنة من هنات قلمه ووجدانه!

د ـ مواضع الخلل العروضي

الخروج على الوزن في صناعة الشعر لا يعني بالضرورة، قصوراً في معرفة العروض وقواعده وقوافيه. وهو ليس وقفاً على فئة دون أخرى من الشعراء.. فقد يقع الخلل العروضي لدى كبار الشعراء ومقدَّمي فحولهم؛ وتخرج القافية الشعرية عن سلَّم الإيقاع العام لقوافي القصيدة، فيكونُ ما سمَّاه علماء العروض: عيوب القافية من **إقواء، وإكفاء، وإصراف، وإجازة، وسناد** بشقَّيْه: الردف، والتأسيس، **وإيطاء**، وغير ذلك مما عرض له الدارسون القدامى[١].

ونادراً ما أخلَّ الشعراء القدامى بنظام البحور الشعرية ولا سيما المتأخرون؛ أما الأقدمون وبخاصة شعراء الجاهلية، فقد انطلقوا في نظم قصائدهم، على السجيَّة والبديهة، فوقعوا في بعض الزحافات غير المأنوسة أو غير المريحة، وخاصة في التفعيلة الثانية لبحر الطويل «مفاعيلن»، فجاءت مقبوضة (مفاعلن) في عدد كبير من أشعارهم، حتى أصبح ذلك مشروعاً على مدى المرحلتين الجاهلية والإسلامية الأموية. ولكنها فيما بعد، انتظمت وعادت إلى سياقها النغمي المتآلف.

ومثلها تفعيلة (فعولن) للمتقارب، وللطويل، التي طرأ عليها الخرم، ولا زال حتى الآن، ولكنْ في مطلع القصيدة فقط.. ومثلها، ولكن بصورة نادرة، تفعيلة (الكامل) «متفاعلن» التي وقع فيها زحاف الوقص والخزل فتصبح: (مفاعلن) و(مفتعلن)، وهو مكروه.

ذلكم ما تناهى إلينا من ظواهر الخروج على بعض قواعد العروض والقافية، في نتاج الأقدمين.

أما المعاصرون، فنسبة الخلل لديهم أوسع دائرةً وانتشاراً، وبخاصة مع شعراء التفعيلة المحدثين حيث أطلقوا لعنانهم التحلل من كثير من القواعد والجوازات، وبقي شعراء الأبحر الخليلية أكثر حفاظاً على أصول النظم وجوازاته المتوارثة؛ ومع ذلك، لم يسلموا من أخطاء النظم وعثراته، كما هي حال شاعرنا الكبير **مصطفى صادق الرافعي** الذي عثرتُ له على مجموعة من الأبيات التي خرجت عن الوزن الشعري الذي انتظمت فيه القصائد.. وفيما يلي عيّنات من هذه الأبيات.

---

(١) عرضت ذلك بالتفصيل، في كتابي: **«كشف الغموض عن قواعد البلاغة والعروض»** (بالاشتراك) دار الشمال، طرابلس ـ لبنان سنة ١٩٩٠، (ص٣٣٦ ـ ٣٣٩).

● **قال، من قصيدة سينيَّة يذكر فيها وفاءه للحبيب**، وهي على [بحر الخفيف]:

هــل تــرى حــبُّ عـبـلــةَ مــات إلّا يومَ مات الكريمُ فارسُ عبس؟(١)

فقد أخلَّ في تفعيلتَيْ الصدر، الثانية والثالثة، ولم أصحح أو أعدِّل كي لا أسيء إلى الأصل.

● **وقال، من قصيدة رائية، في غابر عشقه وربوعه المتباعدة**، وهي من [مخلّع البسيط]:

وقــد تــركـنــا زيــداً وعــمــراً يَـضـربُ زيـدٌ هـنـاك عَـمـرا(٢)

فقد وقع الخلل في التفعيلة الوسطى من صدر البيت، حيث جاءت: فاعلن، مفعُولن: «نا زيداً». وليس في قواعد العروض أن تأتي (فاعلن) مفعولن..

وقال، من مقطَّعة خماسية رائية، وهي في آجال الناس المقررة جيلاً بعد جيل... وقد نظمها على [المتقارب]:

تُـرى فـيـه نـفـسُ الـفـتـى مـثـلـمـا تـرى فـي الـمـرآة وجـوهُ الـبـشَـرْ

(...) وما الناس إلّا حديثٌ يدوم فـالـخـيـرُ خـيـرٌ والـشـرُّ شَـرْ(٣)

وقع الخلل في التفعيلة الثانية من عجز البيت الأول: «المرآة»، يزول الخلل بحذف المدَّة (الهمزة الممدودة) وتصبح: مراة بالتخفيف. وطالما أخلَّ الشاعر في لفظة: «المرآة». كما وقع الخلل في عجز البيت الثاني، كله، كأنما هو لبيتٍ آخر، أو من قصيدة أخرى. فالخلل هنا ليس في تفعيلة واحدة، بل في شطر كامل من البيت الشعري.

● **وقال، من قصيدة لامية، في امرأة حسناء أمام مرآتها**، [من الوافر]:

ولاحـتْ فـي الـمـرآةِ فـقـل سَـمَـاءٌ تـولَّـتْـهـا الـمـلائـك بـالـصـقـالِ(٤)

وقع الخلل في التفعيلة الثانية من صدر البيت.. فجاءت (مفاعلتن): (مفعوللتن) وربما جاز تخفيف المد إلى سكون، لكنه جواز ثقيل، لأن فقدان المد من فوق ألف (المرآة)، أو (المرأة) يُفقد الكلمتين مغناهما وبنيتهما الأساسية.

● **وقال، من قصيدة في تقلبات الصدود وحرارة التمنيات**، وهي [من المتقارب]:

اتـقـي الـلَّـهَ إنـي رأيـتُ الـجـفـون تُـعـلِّـم نـفـسـي لـديـك انـكـسـارا(٥)

الخلل في مطلع البيت حيث جاءت (فاعلاتن) بدلاً من فعولن. ويستقيم البيت لو حذفنا ألف «اتقي»، فتصبح: (تقي اللَّهَ).

---

(١) ديوان الرافعي، الجزء الأول/ ص٩٣.

(٢) ديوان الرافعي، الجزء الأول/ ص١٠٥.

(٣) ديوان الرافعي، الجزء الأول/ ص١٤١.

(٤) نفسه، الجزء الثاني/ ص٤٠.

(٥) نفسه، الجزء الثاني/ ص٨١.

• **وقال من قصيدة من سبعة أبيات بائية، يسائل نفسه في حنوّ، على** [الطويل]:

ويا بانتي ميلي ويا زهرتي انفتحي ويا نَسْمة الأزهار في روضنا هُبّي[(١)]

جعل عروض البيت: «رتي انفتحي»: (مفاعلتن) وحقها أن تكون: (مفاعلن). وليس في أعاريض الطويل مفاعلتن، إلّا في التصريع. فالخلل كبير في هذا الجانب.

• **وله من مقطع سيني من ثلاثة أبيات، يردد فيها أمنية مستحيلة،** [من مجزوء الرمل]:

لـيـتَ لـي نـفـسَـيـن إنْ أهـ ـلِـكُ نـفـسـاً تَـبـقَ نـفـسُ[(٢)]

ضمَّ (كاف) «أهلِكُ» للضرورة الشعرية؛ وإلّا اقتضى السياقُ الإعرابي، جَزمها، فعلاً للشرط.

• **وله من قصيدة بائية يتعهد فيها حبَّه ليبقى على أعلى درجة من الوفاء** [من مجزوء الرمل]:

تـقـاسَـمْـنـا: لـكَ الـجـنَّـا تُ، والـنـارُ لـقـلـبـي[(٣)]

وقع الخلل في التفعيلة الأولى من البيت، فجاء البيت على مجزوء المتقارب. ويزول الخلل بإضافة حرف الاستفهام [هل] أو حرف [الهمزة] على أول البيت.

• **وله من مقطع رباعي واويّ، في تعلم الهوى واكتسابه،** [من مجزوء الكامل]:

أنـا عـن مـخـاطـبـة الـعـوا ذِلِ كـالـمـصـلـي قـد نـوى

ألا مـا يـذكـرون سـواه قـلـتُ: جَـلَّ عـن الـسُّـوىٰ[(٤)]

خرج البيت الثاني كلياً عن وزن البحر العروضي، فلا هو من مجزوء الكامل ولا من غيره. ولا أعرف سرَّ هذا الخروج الكامل، ولا يستقيم البيت إلّا بإعادة نظمه من جديد.

• **وله، من قصيدة تائية، في الغانيات المتفرنجات،** [من الخفيف]:

وجعَلْنَ ابتسامهنَّ نوراً إلى القلْـ ـب ليكشفْنَ عن مقرِّ الحياةِ[(٥)]

الخلل فاضح في عروض البيت، التي لا وزن لها بين أعاريض البحور. ولا سبيل إلى إصلاحها.

• **وله من قصيدة نظمها وأرسلها إلى معرِّب الإلياذة، سليمان البستاني وهي على** [بحر المديد]:

وطُـرُقُ الـحـبِّ واسـعـةٌ ربَّـمـا ضـلَّـتْ بـمـن سَـلَـكـا[(٦)]

---

(١) ديوان الرافعي، الجزء الثاني/ ص٩٣.
(٢) المصدر نفسه، الجزء الثاني/ ص٩٤.
(٣) م. ن. الجزء نفسه/ ص٩٥.
(٤) م. ن. جزء نفسه/ ص٩٦.
(٥) ديوان الرافعي، الجزء الثالث/ ص٨٨.
(٦) ديوان الرافعي، الجزء الثالث/ ص١٢٠.

الخلل واضح في المطلع، فجاء الصدر على مجزوء الوافر، ويستقيم البيت إن أبدلنا حرف «الواو» بـ(إنّ) فيصبح البيت: إنَّ طُرْق الحب واسعة...

هذه المواضع المختلّة من شعر الرافعي، لا يخلو منها ديوان شاعر، وليس هناك من حصر لهذا الخلل أو ذاك، أو لأسبابه التي أوضحتُ بعضها في مقدمة هذه الفقرة. **وربما وقع ذلك في غفلةٍ عن الرقيب الموسيقي الذي يقبعُ في تضاعيف الأذن، لغير سبب. ولعل الانجراف المتعاظم في غمرة الانفعال الشعوري الذي يقذف بحمم اللفظ والتراكيب الشعرية إلى بوابة الوعي، هو الذي يحمل معه ذلك الغُثاء الشعري الناشز من غير أن يعلم أو يُحسّ به صاحبُه.** ولا أجد في ذلك غضاضة، لأنني أؤمن - في أحيان قليلة - بغلبة الانفعال على التقسيم العروضي المنظوم في قوالبه الصحيحة. وقد تحدثتُ عن هذه المسألة في مقدمة مجموعتي الشعرية الثانية: **«قصائد للزمن المهاجر»** قائلاً:

> **«إنَّ من الشعراء من ينساقون - في غمرة انفعالاتهم الشعرية المشحونة - خلْف قوالب موسيقية، غير منسجمة تطبيقياً مع بعض القواعد العروضية الموروثة. وأنا من هؤلاء الذين يقعون أحياناً - تحت وطأة الانفعال الساخن أو العاصف - في حال يشرد معها الرقيب العروضي، فتنتظمُ المقاطع الشعرية وفقاً لاندفاعات الشحنات الشعورية. بينما المطلوب هو العكس، في الحالات الطبيعية»**[1].

سواء كنتُ محقاً في ما ذهبتُ إليه أم مجانباً للحقيقة، فإن احتمال وقوع الشاعر في مهاوي الخلل ومنزلقاته، قائم على الدوام، لسبب أو لآخر. وقد لا نعثر عليه فيما يقع بين أيدينا من آثار شعرية مطبوعة، لكنه حاصل في نِسَب متفاوتة أثناء القيام بعملية النظم التي لا تخلو عادة من التصويب والغربلة والصقل وخلافه.

هـ - مواضع الخلل اللغوي

إذا كانت هناك معاذير يُركَن إليها في الاختلال العروضي، أو سَمحتْ بها جوازاتٌ نادرة أو مستكرهة، فإنه لا معذرة للخطأ اللغوي في الكتابة الأدبية، لأننا ههنا في أصل البنية التركيبية؛ ولا يجوز التجوز أو التسامح مع الخطأ اللغوي أياً كان صاحبه، لأن ما بُنيَ على خطأ انتهى إلى محصلة خاطئة..

ويشمل الخلل اللغويُّ كل ما هو خارج على قواعد التركيب اللغوي في الصرف والنحو، والفصل والوصل، والاشتقاق، والتعدي، والربط بحروف المعاني، إضافة إلى أخطاء الإملاء والكتابة..

---

(١) **«قصائد للزمن المهاجر»، ياسين الأيوبي.** دار الرائد العربي، بيروت سنة ١٩٨٣ ص١٣.

كل هذه الأمور تشكل جِبلَّة التكوين الأساسية للكتابة الصحيحة، وهيكليته؛ فلا يستقيم كلام، ولا يصح معنى، أو يحسنُ التعبير، إلَّا إذا رُوعيتْ شروطها وتمتعت بسلامة الحركة وعافية النبض.

فهل كانت عثرات اللغة الشعرية لدى **الرافعي** من النوع الذي يطعن بسلامة الأداء، أم هي هفوات عابرة، والتواءاتٌ أملَتْها الضرورة الشعرية، فانحرف المسار وشطَّ بالشاعر المقياسُ الذي صيغت به تصاريف الكلام؟

سأتركُ الإجابة الموضوعية إلى ما بعد التعرف إلى نماذج الخلل التي وقعتُ عليها في تضاعيف قصائده..

● **جاء في قصيدة ميمية يخاطب فيها النساء اللواتي يسلِّمن أولادهن للخدم:**

وصَدرُكِ أولى بمَن هو منه فؤاداً ونَفساً ولحماً ودم

(...) فإنْ تُعطِ طفلَكِ للخادمين فما زدتِ إلَّا عديدَ الخَدَمْ(١)

فقد حذفَ ياء المخاطبة من فعل (تُعطين) المجزومة بإن الشرطية، فعلاً للشرط، للضرورة الشعرية.. وهذا خطأ بيِّن، غير مغفور. فالجواز الشعري لا يسمح بخطأ نحوي من هذا النوع.

● **وجاء في قصيدة كافيَّة، يصف فيها امرأة رفيعة الشأن حلَّت في قبر:**

كأنَّ قلوباً في غرامِك أُحرقتْ فذوَّبها الصَّياغُ بين السبائكِ(٢)

استخدم «الصيَّاغ» والصحيح: (الصوَّاغ) من صاغ يصوغ صوغاً، وصياغَة، فالتبس عليه الأمر وانطلق من (الصياغة)، ولم ينطلق من جذر الفعل ومضارعه، وعينُ الجميع: واو.

● **وجاء في مقطع نوني من بيتين اثنين، يذكر فيهما غدر الهوى والخمر معاً:**

رأيتُ الهوى والخمرَ سِيَّينِ غَدرةً وليسا على قلبي الحزين بسِيَّينِ

إذا أتوارى يَطلُبانِ فضيحتي فتظهرُ في وجهي ويَظهرُ في عيني(٣)

الخطأ اللغوي، في دخول «إذا» الشرطية غير الجازمة على مضارع، وحقُّه إدخال «إن» الشرطية مكانها. لكنه عدَل إلى «إذا» ليستقيم له النظم الشعري المؤاتي.

والمعروف أنَّ «إذا» أداة شرط لا تجزم إلّا في الشعر وفي مواضع نادرة جداً، ولذلك

---

(١) **ديوان الرافعي**، الجزء الثاني/ ص٤٩.
(٢) المصدر نفسه، الجزء الثاني/ ص٥٢.
(٣) **ديوان الرافعي**، الجزء الثاني/ ص٦٢.

وجبَ دخولها في الماضي لأنها تفيد التحقيق، بعكس «إنْ» التي تفيد الشك والإبهام[(١)].

وقد جوَّز بعضُهم دخول «إذا» على المضارع في حال الظرفية للمستقبل، وتضمنها معنى الشرط، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾[(٢)].

● **وجاء في قصيدة يائية يخاطب فيها البدر**، مستعيناً به على ما وقع له من سوء الحال:

مكانكَ يا بَدرٌ لأَشْكُوَ حبَّها ... وتشهَدَ عند اللَّهِ إنْ كنتَ رائيا[(٣)]

فنوَّنَ «بدر» وجعله نكرة غير مقصودة، بينما هو يخاطب بدراً بعينه، شاهداً على ما هو فيه. وحقه أن يَبْنيَه على الضم، لتكون المخاطبة مباشرةً وحميمة وفاعلة. ناهيك بأن المخاطب المنادى هنا في حال تنوينه، يجب أن يكون منصوباً، ويكون التنوين بالفتحتين، فجعله الشاعر منوّناً بالضمتين ليجمع بين المنادى المقصود بالنداء، واستقامة الوزن الشعري، إذ التفعيلة هنا على الطويل (مفاعيلن)، مع أنه لو أبقاها مضمومة لتخلَّص من مخالفة القاعدة النحوية.

● **وقال من موشَّح لاميّ الأقفال، في لظى الوصال وتردِّي الحال:**

وذا الجوى يا ما ... أمضَّ الجوى

قتلتُ نفسي ... والغرام انطوى

مذ نقضوا عهدي ... وأخلفوا وعدي

بذا المِطالْ[(٤)]

فقد استخدم (المِطال) بالكسر، والتذكير. والصحيح (بالتأنيث): المِطالة ـ وهي فعْل المَطْل، أي التسويف والتأجيل بالوعود والعهود.. وقد فعل ذلك مراعاة لرويّ القافية.

● **وجاء في قصيدة دالية، يخاطب فيها حسان الأرض والسماء**، وهي على [بحر السريع]:

يا ربُّ من طينٍ خلقتَ الورىٰ ... مَن باتَ في عُدْمٍ وفي سودَدِ

---

(١) انظر: «جامع الدروس العربية»، للشيخ مصطفى الغلاييني، المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت، الطبعة ١٤ سنة ١٩٨٠، الجزء الثاني/ ص١٩٥.

(٢) «مغني اللبيب عن كتب الأعاريب» لابن هشام الأنصاري. دار الفكر، الطبعة الخامسة، بيروت سنة ١٩٧٩، ص١٢٧، والآية الكريمة، من الآية ٤٨ من سورة الروم.

(٣) ديوان الرافعي، الجزء الثاني/ ص٨٥.

(٤) المصدر نفسه، الجزء نفسه/ ص٨٧.

فما الحورُ الأرض يَهجرنَنا إن لم تكن من طينة العَسْجَد؟[1]

ليس هناك خطأ ظاهر. . لأن السياق ملتبس لا يفضي إلى معنى واضح. الأمر الذي أوقع الشعر في الخلل العروضي والمعنوي. والأرجح أنَّ فيه حذفاً، تقديره: (فما بال حور الأرض يهجرْننا؟).

• وجاء في قصيدة عينيّة، في طفلته «وهيبة»، في شهرها السابع، والقصيدة [من الوافر]:

فمِن «بي بي» إلى «بابا» إلى ما يَشُذُّ عن القياسي والسَّماعي
ولفظٌ تُقْبِلينَ لهُ ولفظٌ تَرَيْن له معاني الامتناعِ[2]

جاء بلفظ «تُقْبلين» وعدّاه بـ(اللام) «له»، وحقُّه التعدية بـ(على) لكنه عدل إلى اللام. لإقامة الوزن الشعري. .

• وجاء في القصيدة العينية نفسها، قوله، مخاطباً طفلته:

وهل ناغَتْكِ أُمُّك في دعابٍ كأن كلامه لغةُ الطِّباعِ؟

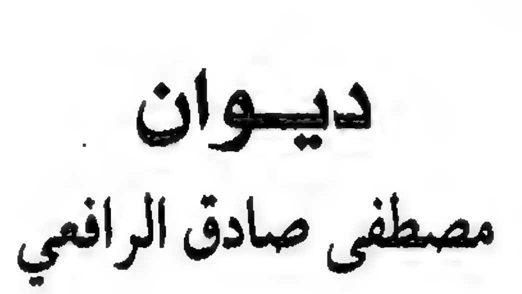
«استخدم «الدعاب» على القياس، والاسم: الدُّعابة؛ وهي المزاح والعبث البريء. ولم يكتف بذلك، بل جعله (أي: الدعاب) مسمًّى له مضمونه ومعناه، فنسَبَ إليه أصناف الكلام، في عجز البيت وما بعده من أبيات. . والطريف أنه ـ أي الشاعر ـ يتحدث، كما رأينا في الشاهد السابق، عن الابتداع، والقياسي، والسماع، ناسباً ذلك كلَّه إلى طفلته، وهو الذي سبق طفلته إلى ما ذكر»[3].

أخلص من ذلك إلى أن نماذج الخلل اللغوي التي عرضْت لها، غلبَ عليها إقامةُ الوزن الشعري، فأحسَن إلى العروض، وأساء إلى اللغة وقواعدها، ولا أظن أن الرافعي يجهل ذلك أو يتحلل منه، لكنه تغاضى عنه مغاضاةً، جعلتني أقف معه مصوِّباً ومعلِّلاً، ناشداً سَداد الخطى وسلامة الأداء اللغوي، يلتزمُهما القارئ النبيه المتطلِّع إلى مجد الكلمة وبهائها الساطع.

فُرِغ من كتابة فصول مقدمة الديوان، ظهيرة النصف من شعبان ١٤٢٢ هـ. الموافق غُرَّة تشرين الثاني ٢٠٠١م.

❁❁❁

(١) **ديوان الرافعي**، الجزء الثالث/ ص٥١.
(٢) المصدر نفسه، الجزء نفسه/ ص٦٢.
(٣) نقلتُ الحاشية (*) التي وضعتُها في موضعها، في شرح الجزء الثالث من الديوان ص ٦٢ (ط. مصر).



الجزء الأول

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة الناظم

أولُ الشعرِ اجتماعُ أسبابه. وإنما يرجعُ في ذلكَ إلى طبع صقلَتْهُ الحكمةُ، وفكرٍ جَلا صفحتَهُ البيانُ. فما الشعرُ إلا لسانُ القلبِ إذا خاطَبَ القلبَ، وسفيرُ النفسِ إذا ناجتِ النفس. ولا خيرَ في لسانٍ غيرِ مبينٍ، ولا في سفيرٍ غيرِ حكيمٍ.

ولو كَانَ طيراً يتغردُ لكانَ الطبعُ لسانَهُ، والرأسُ عُشَهُ، والقلبُ روضتَهُ؛ ولكانَ غناؤهُ ما تسمعُهُ من أفواهِ المُجيدينَ مِنَ الشعراءِ. وحسبُكَ بكلام تنصرفُ إليه كلُّ جارحةٍ، وتضمُ عليهِ كلُّ جانحة، ويجيءُ مِنْ كلِّ شيء، حتى لتَحْسب الشعراءَ من النحل، تأكلُ من كلِّ الثمراتِ ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾[1].

وكأنما هو بقيةٌ من منطقِ الإنسان، اختبأتْ في زاويةٍ من النفس، فما زالتْ بها الحواسُّ حتى وزنَتْها على ضرباتِ القلبِ، وأخرجتْها بعد ذلك ألحاناً بغيرِ إيقاعٍ. ألا تراها ساعةَ النظْم كيفَ تتفرغُ كلُها ثم تتعاون، كأنما تبحث بنور العقل عن شيء غاب عنها في سويداء الفؤاد وظلماته؟ لذلك كان أحسنُ الشعر، ما **تتغنى به قبل عمله**؛ وهي طريقة تفنَّنَ فيها الشعراءُ، حتى لكأنَّ **الحطيئة**[2] يعوي في إثْر القوافي عواء الفصيل في إثْر أمه[3].

وتَرى المُجيدَ من أهلِ الغناءِ إذا رفعَ عقيرتَه[4] يتغنى، ذهبَ في التحركِ مذاهبَ، حتى كأنما يَنتزعُ كلَّ نغمةٍ من موضعٍ في نفسهِ، فيتألفُ من ذلك صوتٌ إذا أجالَ حَلْقَهُ فيه، وقعتْ كلُّ قطعةٍ منه في مثْلِ موضعِها من كلِّ مَن يسمعُ، فلا يلبثُ أنْ

---

(١) جزء من الآية ٦٩ من سورة النحل.

(٢) هو جرول بن أوس، من بني قُطيعة بن عبس. لقِّب الحطيئة، لقِصَره وقربه من الأرض. وكان راوية زهير بن أبي سلمى. شاعر جاهلي إسلامي، أسلم بعد وفاة النبي ﷺ. توفي سنة ٣٠هـ/ ٦٥٠م (الشعر والشعراء، لابن قتيبة، جـ١/ ٣٢٨ ـ ٣٣٥).

(٣) الفصيل: ولد الناقة أو البقرة بعد فطامه.

(٤) العقيرةُ: الصوت. وأصلها الرجل. وذلك أن رجلاً قُطعت رجلهُ، فرفعها وصَرخَ بأعلى صوته، فقال الناس: رفعَ عقيرته.

يستفزّهُ طربُهُ؛ كأنما انجذبَ قلبهُ، وتصبو نفسُهُ كأنما أخذ حِسَّهُ. لا فرقَ في ذلك بين أعجميٍّ وعربيٍّ. ومِنْ أجْلِ هذا، تَرى أحسنَ الأصواتِ يغلبُ على كل طبعٍ. وإنما الشاعرُ والمغني في جذبِ القلوبِ سواءٌ، وفي سِحْرِ النفوسِ أكفاءٌ. وأحدُهما يفيضُ عليهِ والثاني يأخذُ منهُ. والويلُ لكليهما إذا لم يُطربْ هذا ولم يُعْجِبْ ذاكَ.

والشعرُ موجودٌ في كلِّ نفسٍ من ذكرٍ وأنثى. فإنك لتسمعُ الفتاةَ في خِدْرِها[١]، والمرأةَ في كِسْرِ[٢] بيتها، والرجلَ وقد جلسَ في قومِهِ، والصبيَّ بين إخوتِهِ: يقصُّونَ عليكَ أضغاثَ أحلام[٣]، فتجدُ في أثناءِ كلامِهم في عَبَقِ الشعرِ ما لو نسمتَهُ لفغَمَكَ[٤]. وحسْبُكَ أن تكسر وِسادَكَ تتحدثَ إليهم، فتراه طائراً بين أمثالهم، وفي فلَتاتِ ألسنتِهم، وهو كأنما قد ضلَّ أعشاشه. ولقد نبغَ فيه من نساءِ هذهِ الأمةِ، شموسٌ سطعْنَ في سماءِ البيانِ، وطلعنَ في أفقِ البلاغةِ. ولا يزالُ الناسُ إلى اليوم يروُونَ **للخنساءِ، وجَنوبِ، وعُليّة، وعنان، ونزهون، وولّادة**[٥]، وغيرهنَ. وبِحَسْبِكَ قولُ **النواسيِّ**: «ما قلتُ الشعرَ حتى روَيْتُ لستينَ امرأةً منهنَّ **الخنساءُ وليلى**»[٦].

ولو كانَ الشعرُ هذه الألفاظَ الموزونةَ المقفاةَ، لَعددْناهُ ضَرْباً من قواعدِ الإعرابِ لا يعرفُها إلا من تَعلَّمها؛ ولكنه يتنزَّلُ من النفسِ منزلة الكلامِ لكلِ إنسانٍ ينطقُ به ولا يُقيمهُ كل إنسانٍ. وأما ما يَعرِضُ له بعدَ ذلكَ من الوزنِ والتقفيةِ، فكما يَعْرِض للكلامِ من استقامةِ التركيبِ والإعرابِ. وإنك إنما تمدحُ الكلامَ بإعرابهِ ولا تمدحُ الإعرابَ بالكلامِ.

---

(١) خِدْر المرأة: المكان الذي تستتر فيه من البيت ونحوه. جمع أخدار وخُدور.

(٢) الكِسْر (بالكسْر): الجانب والناحية. ج: أكسار وكُسُور.

(٣) أضغاث أحلام، هي الأحلام التي لا سبيل إلى تأويلها لاختلاطها واضطرابها. مفردها: ضِغْث.

(٤) نَسَمْتَه: شممْتَهُ، وفَغَم الطيبُ الإنسانَ: ملأ خياشيمَه.

(٥) **الخنساء** هي الشاعرة الجاهلية الإسلامية المعروفة، وصاحبة المراثي الشهيرة بأخيها صخر.
وجنوب، هي الشاعرة الجاهلية، جَنوبُ الهذلية، أخت **عمرو ذي الكلب**، التي رثَتْ أخاها عمراً بأحرِّ ما يكون الرثاء. **وعُليّة** هي الشاعرة المغنية المعروفة. وهي المعروفة **بعُليّة بنت المَهْدي** بن المنصور، وأخت **هارون الرشيد**. توفيت سنة ٢١٠هـ/ ٨٢٥م. **وعنان**، هي الشاعرة المستهترة. عنان الناطفية، نسبة إلى رجل من أهل بغداد يدعى الناطفي، كانت جارية له. أحبها **العباس بن الأحنف**؛ ولها أخبار مع **أبي نواس**. توفيت سنة ٢٢٦هـ/ ٨٤١ .**ونزهون** هي الشاعرة الأندلسية بنت القلاعي، من شواعر الأندلس الشهيرات توفيت نحو سنة ٥٥٠هـ/ ١١٥٥م.
وأمّا **ولّادة**، فهي الشاعرة الأندلسية الشهيرة: **ولّادة بنت المستكفي**، معشوقة الشاعر الأندلسي **ابن زيدون**. ولها معه ومع غيره أخبار ومساجلات شعرية معروفة. توفيت سنة ٤٨٤هـ/ ١٠٩١م.

(٦) ليلى هنا هي **ليلى الأخيلية**، الشاعرة الإسلامية المعروفة، ومحبوبة الشاعر الإسلامي **توبة بن الحميّر** الذي أحبته وقالت فيه شعراً كثيراً. توفيت سنة ٨٠هـ/ ٧٠٠م.

ولم يكنْ لأوائلِ العربِ من الشعراءِ، إلا الأبياتُ يقولها الرجلُ في الحاجةِ تعرِضُ له، كقولِ دويدِ بن زيدٍ حينَ حضرَه الموتُ وهو من قديم الشعرِ العربي:

اليومَ يُبنى لدويدٍ بيتُهُ   لو كانَ للدهرِ بِلًى أبليتُهُ[1]

أو كانَ قِرْني واحداً كُفيتُهُ

وإنما قُصِّدتِ القصائدُ على عهدِ عبد المطلبِ أو هاشم بن عبد مناف[2].

وهناكَ رفعَ امرؤُ القيسِ ذلك اللواءَ، وأضاء تلك السماءَ التي ما طاولتْها سماءُ[3].

وهو لم يتقدمْ غيرَهُ إلا بما سبقَ إليه مما اتبعَهُ فيهِ من جاءَ بعدَهُ. فهوَ أولُ من استوقفَ على الطلولِ، ووصفَ النساءَ بالظباءِ والمهى والبيض، وشبَّهَ الخيلَ بالعقبانِ والعصي، وفرَّقَ بين النسيبِ وما سواهُ من القصيدةِ، وقرَّبَ مآخذَ الكلامِ، وقيَّدَ أوابده[4]، وأجاد الاستعارة والتشبيه. ولقد بلغ منه أنه كان يتعنت على كل شاعر بشعره.

ثم تتابعَ القارضونَ من بعدهِ؛ فمنهمْ من أسهبَ فأجادَ، ومنهم من أكَبَّ[5] كما يكبو الجواد. وفريقٌ كانَ مثلَ سُهيلٍ في النجومِ، يعارضُها ولا يَجري مَعَها. ولقد

---

(١) دويد بن زيد، شاعر وخطيب جاهلي. قيل إنه عاش أربعمائة وخمسين سنة، وأدرك الإسلام، وهو لا يعقل. وارتجز وهو يُحْتَضَرُ، ما جاء في كلام الرافعي، وقال في المناسبة نفسها:

«يا رُبَّ نَهْبٍ صالحٍ حَوَيتُهُ

وربَّ غَيلٍ حَسَنٍ لَوَيتُهُ

ومِعْصَمٍ مُخَضَّبٍ ثَنَيتُهُ»

ومعنى الكلام في الشطر الأول: القبر. والقِرْن، في الشطر الثالث: النِّدُّ والكُفْؤ. (انظر تاج العروس، للزبيدي، الكويت سنة ١٩٧٠ جـ٨/ ٧٣ ـ ٧٤ [دود]).

(٢) عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، زعيم قريش في الجاهلية، وأحد سادات العرب وفصحائهم، وهو جدُّ رسول الله ﷺ. عاش ما بين ١٢٧ق. هـ إلى ٤٥ق. هـ/ ٥٠٠ ـ ٥٧٩م. وفي قول الرافعي بأن عبد المطلب أو هاشم بن عبد مناف، أول من قَصَّد الشعر، فيه نظر، لأن المعروف أنَّ المهلهل بن ربيعة، شقيق كليب بن ربيعة، هو الذي قصَّد الشعر أو قصَّد القصائد (أي جعلها قصائد لها نظامها بعد تنقيحها وتجديدها)، كما قيل: هلهلَ الشعر بترقيقه، من دون إحكامه. (انظر الشعر والشعراء، لابن قتيبة جـ١/ ٣٠٣).

(٣) هذا القول، هو نهاية بيت شعري للشاعر المملوكي شرف الدين البوصيري، في مطلع همزيته الرائعة وهو:

كيف تَرقى رُقيَّكَ الأنبياءُ   يا سماءً ما طاولَتْها سماءُ

(ديوانه/ تحقيق محمد سيد كيلاني. القاهرة ط٢، ١٩٧٣/ ص٤٩).

(٤) الأوابد، مفردها: آبدة، وهي الأمر العجيب، العويص. وقيَّد أوابده: أخْضَعها لمراجعةٍ، وجمعَ من عويصها ووحشيِّها.

(٥) قوله: أكبَّ لا تفي بالمعنى. والصواب هو: كَبا، بمعنى: عَثَرَ.

جَدُّوا في ذلكَ، حتى إنَّ منهم مَن كان يظنُّ أنَّ لسانهُ لو وُضِعَ على الشعرِ لحلقَهُ. أو الصخرِ لفلقَهُ[١].

ذلك أيامَ كان للقولِ غررٌ في أوجهٍ ومواسمَ، بل أيامَ كان من قدَرِ الشعراءِ أن تَغْلبَ عليهم ألقابُهم بشعرِهم، حتى لا يُعرَفون إلا بها: **كالمرقِّش، والمُهَلْهِلِ، والشريدِ، والممزَّقِ، والمتلمِّسِ، والنابغةِ**[٢] وغيرهم. ومِن قَدَر الشعرِ، أنْ كانت القبيلةُ إذا نبغَ فيها شاعرٌ، أتتِ القبائلُ فهنأتها بذلك، وصُنعَتِ الأطعمةُ، واجتمعَ النساءُ يلعبنَ بالمزاهرِ كما يصنعنَ في الأعراسِ. وأيامَ كانوا لا يُهنّئون إلَّا بغلامٍ يولدُ، أو شاعرٍ يَنْبُغُ، أو فرسٍ تُنتجُ. وكانتِ البناتُ يَنْفُقنَ بعد الكَسادِ إذا شبَّبَ بهنَّ الشّعراءُ.

ولم يتركِ العربُ شيئاً مما وقعتْ عليه أعينهُم، أو وقعَ إلى آذانِهم، أو اعتقدوهُ في أنفسهمْ، إلَّا نظموهُ في سِمْطٍ[٣] من الشعرِ، وادَّخروهُ في سَفَطٍ[٤] من البَيانِ. حتى إنك لتَرى مجموعَ أشعارِهم ديواناً فيه من عوائدهم، وأخلاقهم، وآدابهمْ، وأيامهمْ، وما يستحسنونَ ويستهجنونَ حتى من دوابهم. وكانَ القائلُ منهم يستمدُّ عفْوَ هاجسهِ، وربما لَفظَ الكلمةَ تَحسبُها من الوَحْي، وما هيَ من الوحي. ولم يكن يُفاضِلُ بينهم إلا أخلاقهُم الغالبةُ على أنفسهم. **فزهيرٌ** أشعرُهم إذا رغبَ **والنابغةُ** إذا رهبَ، **والأعشى** إذا طربَ، **وعنترةُ** إذا كلبَ، **وجريرٌ** إذا غَضِبَ، وهلمَّ جَرّاً.

ولكل زمنٍ شعرٌ وشعراء، ولكلِ شاعرٍ مرآةٌ من أيامهِ. فقد انفردَ **امرؤ القيسِ** بما

---

(١) قصد بذلك، حِدَّة اللسان الشعري وقوة تأثيره. والفَلْقُ: الشَّقُّ.

(٢) **المرقّش الأكبر**، عوف بن سعد بن مالك؛ سمِّي كذلك لبيت شعر قاله. وهو شاعر جاهلي قديم، وأحد المتيَّمين عشقاً حتى الموت. توفي سنة ٥٥٢م.

ـ **والمهلهل**، هو الشاعر الفارس عدي بن ربيعة، امتنع عن اللهو والشراب، حتى يثأر لمقتل أخيه **كليب**، بسبب **حرب البسوس**. لقِّب كذلك: لطيب شعره، ورقّته، وكانت وفاته سنة ٥٣١م.

ـ **والشريد**، لقب صخر بن عمرو، شقيق **الخنساء**، ومستَجْمَعُ شعرها بعامة. لقِّب بالشريد لبعده عن أهله بعد جرحه البليغ وانفراده... وكانت وفاته سنة ١٠ قبل الهجرة/ ٦١٣م.

ـ **والممزّق**، هو شأس بن نهار من قبيلة نُكْرة. جاهلي قديم، مدح **النعمان بن المنذر**، ولقِّب الممزّق (بفتح الزاي وكسرها) لبيت شعر قاله.

ـ **والمتلمّس**، هو جرير بن عبد المسيح، من بني ضُبَيْعة. سمِّي بالمتلمّس، لبيت شعر قاله. وهو خال **طرفة بن العبد**. توفي سنة ٥٦٩م أو ٥٨٠م.

ـ **وأما النابغة** فهو زياد بن معاوية الغطفاني، وسمِّي النابغة لقوله، في معرض قصيدة له: «فقد نبغَتْ لنا منهُمْ شؤونُ» وكانت وفاته سنة ٦٠٤م.

(٣) الخيط الذي توضع فيه حبّات اللؤلؤ. وهو عقد الجواهر.

(٤) السَّفَط: وعاءُ الطيب.

علمتَ، واختُصَّ **زهيرٌ** بالحوليَّاتِ[١]، واشتهرَ **النابغةُ** بالاعتذاراتِ[٢]، وارتفعَ **الكميتُ** بالهاشمياتِ[٣]، وشمخَ **الحطيئةُ** بأهاجيهِ، وساقَ **جريرٌ** قلائصَهُ[٤]، وبرز **عَدِيٌّ**[٥] في صفاتِ المطيَّةِ، **وطفيلٌ**[٦] في الخيلِ، **والشمَّاخُ**[٧] في الحميرِ؛ ولقد أنشدَ **الوليدُ بن عبد الملكِ** شيئاً من شعرهِ فيها، فقالَ: ما أوصَفَهُ لها، إني لأحْسِبُ أنَّ أحدَ أبويه كانَ حِماراً! . . . وحَسْبُكَ من **ذي الرُمةِ**[٨] رئيسِ المشبِّهينَ الإسلاميين، أنه كان يقولُ إذا قلتُ «ولم أجِدْ مَخلصاً منها، فقَطعَ اللّهُ لساني». ولقد فتنَ الناسَ **ابنُ المعتزِ**[٩] بتشبيهاتِهِ، وأسكرهمْ **أبو نواسٍ**[١٠] بخمرياتهِ، ورقَّتْ قلوبُهم على زهدياتِ **أبي العتاهيةِ**[١١]، وجرت دموعُهمْ لمراثي **أبي تمامٍ**[١٢]، وابتهجتْ

---

(١) نسبة إلى «الحَوْل» أي السنة الكاملة. وقد كان زهير ينشئ بعض قصائده في زمن طويل يستغرق سنة أو أكثر.

(٢) المقصود بذلك اعتذارياته إلى أبي قابوس، النعمان بن المنذر، بعد أن وُشي به أنه قال شعراً بالمتَجرِّدة، زوجة النعمان.

(٣) هو الكميت بن زيد الأسديّ شاعر متشيِّع. والهاشميات، هي قصائده في بني هاشم، وهم آل البيت ـ توفي سنة ١٢٦هـ/ ٧٤٤م.

(٤) القلائص، ج: قَلوص: الناقة الفتيّة من الإبل، تظلُّ كذلك حتى التاسعة من عمرها. وقُصد بسَوْق القلائص، طول وصفه لها.

(٥) هو عديّ بن زيد بن مالك، المعروف بعدي بن الرِّقاع. وهو غير عدي بن زيد الشاعر النصراني الجاهلي. وعدي هو أموي، مدح خلفاء بني أميّة، ولا سيّما الوليد بن عبد الملك. ويُعَدُّ أوصفَ الشعراء للمطيَّة والظبية. توفي سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م.

(٦) هو طُفَيل بن عوف بن كعب الغنوي، شاعر جاهلي. وسمي «طفيل الخيل» لكثرة وصفه إياها في جميع أبواب شعره. توفي سنة ٦١٠م.

(٧) هو الشماخ بن ضرار، من بني مازن بن ثعلبة. شاعر إسلامي مخضرم. شُهِر بأوصافه القوس والحُمُر، وهي حُمُر الوحش. توفي سنة ٢٢هـ/ ٦٤٣م

(٨) هو غَيلان بن عُقْبة بن بُهَيْش. سمِّي ذا الرُمة لبيت شعرٍ قاله. شاعر أموي: أحب امرأة من بني عامر تدعى: ميَّة. وهام عشقاً بها. وهو أحسن شعراء عصره تشبيهاً، وأكثرهم استشهاداً بشعره في اللغة والنحو. توفي سنة ٧٧هـ أو ١١٧هـ/ ٧٣٥م.

(٩) هو عبد الله بن المعتز، بن المتوكل. والمعتز هو لقب أبيه الخليفة محمد. عرف ابن المعتز أيضاً بتشبيهاته وعنايته بالبديع، توفي سنة ١٩٨هـ/ ٨١٤م.

(١٠) هو الحسن بن هانئ. شاعر الخمر ومن أوائل الثائرين على النهج الشعري التقليدي. سبقه إلى ذلك بشار بن برد.

(١١) هو إسماعيل بن القاسم، أبو العتاهية، المشهور بقصائده في الزهد والتقشف. المتوفى سنة ٢١١هـ/ ٨٢٦م.

(١٢) هو حبيب بن أوس الطائي، أستاذ فن الصنعة في الشعر العربي القديم. توفي سنة ٢٣١هـ/ ٨٤٦م.

أنفسهمْ بمدائحِ **البحتريِّ**[١] وروضيَّاتِ **الصنوبريِّ**[٢]، ولطائفِ **كشاجم**[٣].

فمن رجعَ بصرَه في ذلكَ، وسلكَ في الشعرِ ببصيرةِ **المعريِّ**[٤]، وكانتْ له أداةُ **ابن الروميِّ**[٥]، وفيه غَزَلُ **ابن أبي ربيعةَ**[٦] وصَبابةُ **ابنِ الأحنفِ**[٧]، وطبْعُ **ابنِ بُرْدٍ**[٨] وله اقتدارُ **مُسْلم**[٩]، وأجنحةُ **ديكِ الجنِ**[١٠]، ورقَّةُ **ابن الجهم**[١١]، وفخرُ **أبي فراسٍ**[١٢]، وحنينُ **ابن زيدونٍ**[١٣]، وأنَفَةُ **الرضيِّ**[١٤]، وخطراتُ **ابنَ هانئٍ**[١٥]، وفي نفسِهِ من فكاهة **أبي دُلامة**[١٦]، ولعينيهِ بصرُ **ابنِ خفاجة**[١٧] بمحاسنِ الطبيعة، وبين جنبيهِ قلبُ **أبي الطيِّب**[١٨]، فقدِ استحقَ أن يكون شاعرَ دهرِه، وصنَّاجةَ عصرِهِ.

ولا يَهُولَنَّكَ ذلكَ إذا لم تستطعْ عدَّ الشعراءِ الذينَ انتحلوا هذا الاسمَ، وألحقوهُ بأنفسهم إلحاقَ (الواو) بعمرٍو، فكلهم أمواتٌ غيرُ أحياءٍ وما يَشْعرون.

وأبرعُ الشعراءِ مَن كان خاطرُهُ هدفاً لكل نادرةٍ؛ فربما عَرضَتْ للشاعر أحوالٌ مما لا يعني غيره؛ فإذا علِقَ بها فكرُهُ، تمخَّضتْ عن بدائعَ من الشعر، فجاءت بها كالمعجزاتِ وهي ليستْ من الإعجاز في شيءٍ، ولا فضْلَ للشاعرِ فيها إلا أنه تنبهَ لها.

---

(١) هو الوليد بن عبيد، **أبو عبادة البحتري**. الشاعر المدَّاح، والوصَّاف، وصاحب الديباجة البحترية. توفي سنة ٢٨٤هـ/ ٨٩٨م.

(٢) هو أحمد بن محمد، الحلبي، المعروف **بالصنوبري**، لكثرة وصفه الرياض. توفي سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٦م.

(٣) هو محمود بن الحسين بن السِّندي ت سنة ٣٦٠هـ/ ٩٧٠م.

(٤) هو **أبو العلاء**، أحمد بن عبد الله بن سليمان. الشاعر الفيلسوف المتوفى سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م.

(٥) هو علي بن العباس بن جريج **الرومي** الشاعر الوصَّاف، والهجَّاء المبدع. ت سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م.

(٦) هو عمر بن عبد الله بن **أبي ربيعة**: شاعر الغزل العربي الأول. ت سنة ٩٣هـ/ ٧١٢م.

(٧) هو العباس بن **الأحنف**: الشاعر الغزل الرقيق. من شعراء العصر العباسي. ت سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٨م.

(٨) هو بشار بن بُرد **العقيلي**، أحد كبار المولَّدين في الشعر العربي. عاش ومات ضريراً، توفي سنة ١٦٧هـ/ ٧٨٤م.

(٩) هو **مُسْلم بن الوليد** المعروف **بصريع الغواني**. توفي سنة ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م.

(١٠) هو عبد السلام بن **رغبان**، شاعر عباسي من حمص. توفي سنة ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م.

(١١) **علي بن الجهم**، المتوفى سنة ٢٤٩هـ/ ٨٦٣م.

(١٢) **الحارث** بن سعيد التغلبي المتوفى سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م.

(١٣) أحمد بن عبد الله **الأندلسي** المتوفى سنة ٣٦٠هـ/ ١٠٧١م.

(١٤) محمد بن الحسين **الرضيّ** الحسيني، المتوفى سنة ٤٠٦هـ/ ١٠١٥م.

(١٥) محمد بن **هانئ** بن سعدون **الأندلسي** المتوفى سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٣م.

(١٦) زَنْد بن الجَوْن الأسدي بالولاء. أسود اللون، توفي سنة ١٦١هـ/ ٧٧٨م.

(١٧) إبراهيم بن عبد الله **الأندلسي** المتوفى سنة ٥٣٣هـ/ ١١٣٨م.

(١٨) أحمد بن الحسين **الجُعْفي** المتوفى سنة ٣٥٤هـ/ ٩٦٥م.

ومن شديدِه على هذا، جاءَ بالنادر من حيثُ لا يتيسرُ لغيرِهِ ولا يقدرُ هو عليه في كل حين.

وليسَ بشاعرٍ مَنْ إذا أنشدكَ، لم تحسبْ أنَّ سمْعَهُ مخبوءٌ في فؤادكَ، وأنَّ عينَك تنظرُ في شَغَافِهِ[١]. فإذا تغزَّلَ أضحكَكَ إنْ شاء، وأبكاكَ إن شاءَ. وإذا تحمَّسَ فزعتَ لمساقطِ رأسكَ. وإذا وصفَ لك شيئاً هممتَ بلمسهِ، حتى إذا جئْتَهُ لم تَجدْهُ شيئاً. وإذا عتبَ عليكَ جعلَ الذنبَ لكَ ألزمَ من ظِلِّكَ. وإذا نثلَ[٢] كنانتهُ، رأيتَ من يَرميه صريعاً، لا أثرَ فيهِ لقذيفةٍ ولا مُدْيةٍ ولكنها كلمةٌ فتحتْ عليها عينُهُ، أو ولجتْ إلى قلبِهِ من أذنِهِ، فاستقرتْ في نفسهِ وكأنما استقرَّ على جمرٍ.

وإذا مدحَ حسبتَ الدنيا تجاوبهُ، وإذا رثى خفْتَ على شِعْرِهِ أن يجريَ دموعاً، وإذا وعظَ استوقفتِ الناسَ كلمتُهُ وزادَتْهُمْ خشوعاً، وإذا فخرَ اشْتمَّ من لحيتهِ رائحةَ الملكِ فحسبْتَ إنما خفَّتْ به الأَملاكُ والمواكبُ.

وجِمَاعُ القولِ في براعةِ الشاعرِ، أَنْ يكونَ كلامهُ من قلبِهِ؛ فإنَّ الكلمةَ إذا خرجتْ من القلْبِ وقعتْ في القلبِ، وإذا خرجتْ من اللسانِ لم تتجاوزِ الآذانَ.

ولقد رأينا في الناسِ مَن تكلَّفَ الشعرَ على غيرِ طبعٍ فيهِ، فكان كالأَعمى يتناولُ الأشياءَ ليُقِرَّها[٣] في مواضعها، وربما وضعَ الشيءَ الواحدَ في موضعينِ أو مواضعَ، وهو لا يدري.

وأبصَرْنا فيهمْ كذلكَ من يجيءُ باللفظِ المونقِ والوشْيِ النضرِ، نُثِرَتْ أوراقهُ لم تجدْ فيها إلَّا ثمراتٍ فجة.

ورأَينا في المطبوعينَ مَن أُثقلَ شعرُهُ بأنواعٍ من المعاني، فكان كالحسناءِ تَزيَّدتْ من الزينةِ حتى سَمِجَتْ[٤] فصَرَفتْ عنها العيونَ بما أرادتْ أن تَلْفِتَها بهِ. على أنَّ أحسنَ ما كانتْ زينتهُ منه[٥]، وكلُّ ثوبٍ لبسَتْهُ الغانيةُ فهو معرِضُها.

وهو عندي أربعةُ أبياتٍ: **بيتٌ يُستحْسَنُ، وبيتٌ يَسيرُ، وبيتٌ يَنْدُرُ، وبيت يُجنُّ به جنوناً**، وما عدا ذلكَ فكالشجرةِ التي نُفضَ ثمرُها، وجُنيَ زهرُها لا يرغبُ فيها إلا مُحْتَطِبٌ.

أما مذاهبُهُ التي أَبانوها من الغزلِ، والنسيبِ، والمدحِ، والهجاءِ، والوصفِ،

---

(١) الشَّغاف، هو شغافُ القَلْب أو: سويداء القلب، أي حبَّتُه، وقيل هو غلاف القلب.

(٢) نثَل الكِنانَة: استخرج ما فيها، أفرَغها.

(٣) يُقِرُّها: يُثْبِتُها، فيجعلها مستقرَّةً هادئة.

(٤) السَّماجَةُ: القُبْح.

(٥) قصد بذلك، الجمال الطبيعي الذي لا يحتاج إلى زينة أخرى.

والرثاءِ وغيرِها، فهي شُعوبٌ[١] منه؛ وما انتهى المرءُ من مَذْهب فيه إلَّا إلى مذهبٍ، ولا خَرجَ من طريقٍ إلَّا إلى طريقٍ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾﴾[٢]. وما دامت الأعمارُ تتقلبُ بالناسِ، فالشعرُ أطوارٌ. آونةً تخطرُ فيهِ نسماتُ الصَّبا ما بينَ أفنانِ الوصفِ إلى أزهارِ الغزلِ، ويتسبسبُ[٣] فيه ماءُ الشبابِ من نَهْرِ الحياةِ إلى مشرعةِ الأملِ؛ وطوراً تراه جمَّ النشاطِ تكادُ تُصْقَلُ بمائه السيوفُ، وتُفْرَقُ[٤] بحدهِ الصفوفُ. وحيناً تجدهُ وقدْ ألبسهُ المشيبُ ثوبَ الاعتبارِ، وجَمَلهُ بمسحةٍ من الوقارِ. وهو في كل ذلكَ يَروي عن الأيامِ وتُروىٰ عنهُ. وما أكثرَ فنونَ الشعرِ إذا روَيْتَها عن أفانينِ الأيامِ!

وأمَّا ميزانُهُ فاعْمِد إلى ما تُريدُ نقْدَهُ، فَرُدَّهُ إلى النثرِ؛ فإن استطعتَ حذْفَ شيءٍ منهُ لا ينقصُ من معناهُ، أوْ كانَ في نثرِهِ أكملَ منه منظوماً، فذلكَ الهَذْرُ[٥] بعينهِ أو نوعٌ منهُ. **ولن يكونَ الشعرُ شعراً، حتى تجدَالكلمةَ من مَطْلعها لمَقْطعها مُفْرَغةً في قالبٍ واحدٍ من الإجادةِ؛ وتلكَ مقلداتُ الشعراءِ.**

إليكَ مثلاً قولُ ابنِ الرومي يصفُ منهزِماً:

لا يعرفُ القِرْنُ وجْهَهُ ويَرىٰ قَفاهُ من فرسخٍ فيعرفُهُ[٦]

فقلِّبْ نظرَكَ بينَ ألفاظهِ وأجِلْهُ[٧] في نفْسكَ، ثم ارجِعْ إلى قولِ ذلكَ الخارجيِّ وقدْ قالَ لهُ **المنصورُ**: أخبِرْني، أيُّ أصحابي كانَ أشدَّ إقداماً في مبارزتِك؟ فقال: ما أعرفُ وجوهَهم، ولكنْ أعرفُ أقفاءَهم. فقل لهمْ يُدْبِروا أُعرِّفْكَ. ألستَ ترىٰ في ذلك النظْم، من كمالِ المعنى وحلاوةِ الألفاظِ، ما لا تراهُ في هذا النثرِ؟

ولقد بقيَ أن قوماً لم يَهْتدوا إلى الفَرْقِ بين منثورِ القولِ ومنظومِهِ. والذي أراهُ أنَّ النظمَ لو مدَّ جناحيهِ وحلَّقَ في جوِّ هذه اللغةِ، ثم ضَمَّهما لَمَا وقَع إلا في عُشِّ النثرِ وعلى أعوادِهِ. ولن تجدَ لمنثورِ القولِ بهجةً، إلَّا إذا صدحَ فيهِ هذا الطائرُ المغردُ[٨].

---

(١) قصد بالشعوب، الفروع والتشعُّبات.

(٢) جزء من الآية ٢٢٥ من سورة الشعراء.

(٣) سَبْسَبَ الماءُ: جرى هيِّناً ليِّناً.

(٤) تُفْرَق: تنقسم إلى قِسْمين.

(٥) الهَذْرُ: الكلام المختلط، لا قواعد له.

(٦) القِرْنُ: البَطَلُ الكُفْؤ، ج: أقران. والبيت في ديوان ابن الرومي. من أربعة أبيات كلها في صِدْق القِرْن وإخلافه. والديوان من تحقيق وشرح عبد الأمير علي مهنّا. دار ومكتبة الهلال بيروت سنة ١٩٩١ جـ٤/ ٢٠٥.

(٧) أجِلْه، فعل أمر لـ أجال، يُجيلُ إجالةً: أدارَ. وهي هنا بمعنى التأمل من جميع الوجوه والجهات.

(٨) كناية عن الشعر الذي يرى فيه الشاعرُ لوناً من ألوان التغريد.

بلْ لو كانَ النثرُ مَلِكاً لكانَ الشعرُ تاجَه، ولو استضاء لما كانَ غيرُهُ سِراجَه.

وما زال الشعراءُ يأتونَ بجُملٍ منهُ كأنها قِطَعُ الروضِ إذا تورَّدَ بها خدُّ الربيعِ.

وهذا **ابنُ العباسِ**[1] وكتبه، **وابنُ المعتزِ**[2] وفصولُه، **والمعري**[3] ورسائلُه.

وانظرْ إلى قولِ **بشارٍ**[4] وقد مدحَ **المهديَّ**[5] فلم يُعطِهِ شيئاً؛ فقيلَ لهُ: لم تُجِدْ في مدحِهِ. فقالَ: «واللَّهِ لقد مدحتُهُ بشعرٍ لو قلتُ مثلَهُ في الدهرِ لما حتَفَ صَرْفَهُ على حُرٍّ، ولكني أكذِبُ في العملِ فأُكذَبُ في الأملِ».

وبشَّارٌ هو ذلكَ الغوَّاصُ على المعاني الذي يزعمُ **ابنُ الروميّ** أنه أشعر من تقدَّمَ وتأخرَ، وهو القائلُ في شعرِهِ مفتخراً:

إذا ما غَضِبْنا غضبةً مُضَريةً هَتكْنا حجابَ الشمسِ أو قطرتْ دما

إذا ما أَعرْنا سيِّداً من قبيلةٍ ذُرىْ مِنبرٍ صلَّى علينا وسلَّما[6]

والأمثلةُ على ذلك أكثرُ من أن تعدَّ. وأوسعُ من أن تحدَّ.

ولا تجدُ الناظِمَ وقد أصبحَ لا يُحسنُ هذا الطرازَ، إلا إذا كانَ جافيَ الطبعِ، كدِرَ الحسِّ، غيرَ ذكيِّ الفؤادِ، لم تجتمعْ له آلةُ الشعرِ. وهو إذا كان هناكَ، وجاءَ من صنعتِهِ بشيءٍ، فإنما هو نظَّامٌ وليس بشاعرٍ.

أما الفرقُ بينَ المترسِّلينَ[7] والشعراءِ، فإنْ كانَ كما يقولُ **الصابي**[8] «إنَّ الشعراءَ

---

(١) ليس هناك ما يدل على أديب بعينه. لأن (ابن العباس) لقبٌ لعدد من الكتاب والشعراء. بينهم **ابن الرومي والعباس بن الأحنف**، وابن العباس، محمد، **اليزيدي**، الأديب والعالم اللغوي. له عدد من الكتب في اللغة والشعر والأنساب. توفي سنة ٣١٠هـ/ ٩٢٢م.

(٢) **ابن المعتز**، هو الشاعر والخليفة المعروف. سبق التعريف به.

(٣) **المعرّي**، أبو العلاء المتوفى سنة ٤٤٩هـ/ ١٠٥٧م.

(٤) **بشار** بن برد المتوفى سنة ١٦٧هـ/ ٧٨٤م.

(٥) هو محمد بن عبد اللّه المنصور، الخليفة العباسي الثالث، بعد **أبي جعفر المنصور والسفَّاح** عبد اللّه بن محمد. توفي سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م.

(٦) من قصيدة فخرية، أورد منها ديوانه تسعة أبيات. مطلعها:

أبى طلَلٌ بالجزع أن يتكلَّما وماذا عليه لو أجابَ متيَّما؟

(ديوانه، جمع وتحقيق السيد بدر الدين العلوي. دار الثقافة بيروت، لبنان سنة ١٩٦٣ ص١٩٩ ـ ٢٠٠).

(٧) المترسِّلون، هم كتاب الرسائل الأدبية والديوانيَّة.

(٨) **الصابئ**، هو **أبو إسحاق**، إبراهيم بن هلال، نابغة عصره في الكتابة. تقلَّد دواوين عدد من الخلفاء والأمراء، وضاهى بذلك **الصاحب بن عباد** الذي كان يميل إليه ويتعهده. توفي سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م.

إنما أغراضُهم التي يرتمونَ إليها: وصفُ الديارِ والآثارِ، والحنينُ إلى الأهواءِ والأوطارِ، والتشبيبُ بالنساءِ، والطلبُ والاجتداءُ، والمديحُ والهجاءُ؛ وأمّا المترسلون، فإنما يترسَّلونَ في أمرِ سَدادِ ثغرٍ وإصلاحِ فساد، أو تحريضٍ على جهادٍ، أو احتجاجٍ على فئةٍ، أو مجادلةٍ لمسألةٍ، أو دعاءٍ إلى أُلفةٍ، أو نَهيٍ عن فُرْقةٍ، أو تهنئةٍ بعَطيةٍ، أو تعزيةٍ برزيةٍ، أو ما شاكلَ ذلك».. فذلكَ زمنٌ قد دَرجَ[1] فيهِ أهلُهُ، وبساطٌ طُوِيَ بما عليهِ، ولم يعُدْ أحدٌ يَحْذَرُ مؤاخاةَ الشاعرِ لأنه يمدحهُ بثمنٍ، ويهجوه مجاناً؛ وإنما الفرقُ بينَ الفريقين أنَّ مَسْلكَ الشاعرِ أوعرُ، ومركبَهُ أصعَبُ، وأسلوبَهُ أدقُّ، وكلامَهُ مع ذلكَ أوقعُ في النفسِ؛ وعلى قَدْرِ إجادتهِ يكونُ تأثيرهُ. فالمُجيدُ من الشعراءِ أفضلُ من غيرهِ في صناعةِ الكلامِ. وإنك إنما تَزينُ النثر بالشعرِ، ولا تزينُ الشعرَ بالنثرِ.

وفي الحديثِ الشريفِ «إنَّا قد سمعنا كلامَ الخطباءِ والبلغاءِ، وكلامَ ابن أبي سلمى[2] فما سمعْنا مثلَ كلامهِ من أحدٍ». وقال الشافعيُّ[3] في كتابِ الأمِّ: الشعرُ كلامٌ كالكلامِ، فحُسْنُهُ كحُسْنهِ، وقبيحُهُ كقبيحهِ، وفضلهُ على سائرِ الكلامِ أنه سائرٌ في الناسِ يبقىٰ على الزمانِ فيُنْظَرُ فيهِ.

هذا وإنَّ من الشعر[4] حكمة ﴿وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾[5].

---

(١) بمعنى: ذهبَ ومضى لسبيله، أو: ماتَ وانقضى.

(٢) قصد بذلك الشاعر الجاهلي الحكيم: زهير بن أبي سلمى.

(٣) هو الإمام محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان، ابن شافع الهاشمي القرشي. أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنّة. ولد في غزة بفلسطين، ثم حُمل إلى مكة وهو ابن سنتين، قصد مصر وتوفي فيها سنة ٢٠٤هـ/ ٨٢٠، وقبره فيها. له عدد كبير من الكتب والمصنفات، من أشهرها: «الأم» كتاب من سبعة مجلدات، في الفقه.

(٤) ورد الحديث بسندَيْن: عن أُبيّ بن كعب: «إنَّ من الشعر لحِكْمةً» وعن ابن عباس: «إنَّ من الشعر حِكَماً».

صحيح سُنن ابن ماجه، مكتب التربية العربي لدول الخليج. بإشراف زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، طبعة ثالثة سنة ١٩٨٨، مجلد ثان/ ص٣٠٩، رقم ٣٠٢٣ و٣٠٢٤.

(٥) معظم الآية ٢٦٩ من سورة البقرة، وأولها: ﴿يُؤتي الحِكْمة مَنْ يَشاءُ ومَنْ يُؤتَ الحكْمة...﴾.

مقدمة الشارح

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الرَّحْمَٰنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الْإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾ فله الحمدُ، سبحانه وتعالى، حمداً يوافي نِعَمه. ﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾. والصلاةُ والسلام على أفصح مَن نطقَ بالضاد، وعلى آله وأصحابه.

أما بعد: فقد دعاني حضرةُ أخي ناظم هذا الديوان، إلى شرحه، فكنتُ إلى إجابته أسرعَ من السيل إذا انحدرَ، عالِماً أني إنما أُنسّق أزهاراً وأَجمعُ رياحين. لا حاجة بي إلى ذكر شيء من أمر الشعر والشعراء؛ فلم يبقَ في ذلك مجالٌ لقائل؛ وإنما أذكر هنا كلاماً قاله **الجاحظ** يكون عنواناً لما ستراه في هذه الأوراق، قال:

«أفضلُ الكلام ما كان قليلُه يُغنيك عن كثيره، ومعناه ظاهراً في لفظه، وكأنَّ اللَّهَ قد ألبسَه من ثياب الجلالة، وغشّاه من نور الحكمة، على حسَب نية صاحبه، وتَقْوى قائله؛ فإذا كان المعنى شريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صحيحَ الطبع، بعيداً من الاستكراه، منزَّهاً عن الاختلال، مصوناً عن التكليف، صنَعَ في القلوب صنيعَ الغيث في التربة الكريمة. ومتى فُصِّلت الكلمةُ على هذه الشريطة، ونفذتْ من قائلها على هذه الصفة، كسَاها اللَّهُ من التوفيق، ومنحَها من التأييد، ما لا يَمتنِعُ من تعظيمها به صدورُ الجبابرة، ولا يَذْهَلُ عن فهمها معه عقولُ الجهَلَة».

وقد قصدتُ فيما كتبتُه من هذا الشرح إلى مطلق الفائدة، حريصاً على الإيجاز. وربما ذكرتُ النادرة لبعض الشبه بينها وبين ما يجيء في النظم، ضناً بفائدة المناسبة أنْ تَضيعَ. وبهذا يكون الكتابُ من نظمه ونثره، حاجةَ الأديب، وملهاةَ السائر، وأنيسَ المسافر.

وكنتُ أود لو أمكنني أن أتوسَّع في القول، فأذكرَ شيئاً مما يمتاز به هذا الديوان، ولكن حَسْبُنا أن يَحْكُم القراء بذلك. غير أني لا أجدُ بداً من أن أذكر لهم،

أنَّ هذا الشعر الذي يقرأونه، في هذا الجزء من نظم صاحبه في سنتي (١٣١٩ و ١٣٢٠) على غير تفرغٍ له. وهو الباكورة الشهيَّة إن شاء اللّه.

والآن أحبِسُ عِنانَ القلم، لئلا يُحسَبَ الكلامُ تزكيةً، والبيانُ إطراءً، وخيرُ الكلام ما قلَّ ودلَّ.

محمد كامل الرافعي

في التهذيب

قِطَعٌ نظمها للنشءِ العصريِّ
من تلامذةِ المدارسِ تهذيباً لأنفسهم وتحليةً لعقولهم

قال يصف عمرَ بنَ الخطابِ، داعياً الرجال إلى الاقتداء به:

[من البسيط]

لا زِينةُ المرءِ تُغليهِ ولا المالُ ... ولا يُشرِّفُهُ عَمٌّ ولا خالُ
وإنما يتسامى للعُلا رَجُلٌ ... ماضي العزيمةِ لا تَثنيهِ أهوالُ
يُريكَ مِن نَفسِهِ فيما يهمُّ بهِ ... أنَّ النفوسَ ظُبَى[1] والناسُ أبطالُ
لا يَنثني أنْ عِداهُ سوءُ حالتهِ ... وكلُّ حالٍ تُوافي بعدَها حالُ
ألم يكن عمرٌ يرعى المَخاضَ فهل ... ترى العلا بطنَ وادٍ فيه آبالُ[2]
وهل سوى نفسه قد سَوَّدَتْهُ وهل ... تُنالُ إلا بشقِّ النفسِ آمالُ؟[3]
رأى الهدى فجَلاه للورى قَمراً ... مِلْءَ العيونِ وجُلُّ الناس ضُلَّالُ
وجدَّ في نُصْرةِ الهادي ودَعوتِهِ ... ولا يَخيبُ امرؤ في الحق فعَّالُ
وأطلقَ النفسَ مما تبتغيهِ هوًى ... وإنما شهواتُ النفسِ أغلالُ[4]
ولم يكنْ أحدٌ يُلهيهِ عن أحدٍ ... كأنهُ والدٌ والناسُ أطفالُ
بذا تَفزَّعتِ الدنيا لهيبتِهِ ... حتى تداعتْ عُروشُ الصِّيد تنهالُ[5]
وأرهبتْ أُسُدَ الآفاقِ زأرَتُهُ ... وملْءُ آفاقِها أُسْدٌ وأشبالُ
فثبَّتَ الأرضَ يُلقي في جوانبِها ... كتائباً هُنَّ فوقَ الأرضِ أجبالُ[6]

---

(١) الصواب: ظُباً (بالألف الممدودة) جمعُ ظُبَة، وهي حدّ السيف والسِّنان. وتجمع على ظُبات وظُبُون.
(٢) المخاض، هي الإبل الحوامل. وجمع الإبل، (وهي النوق) آبال. ولا مفرد للإبل من جنسها.
(٣) سوّدته: جعلته سيداً حُرّاً.
(٤) الأغلال، واحدها، غُلٌ، القَيْد.
(٥) الصِّيد: مفردُها، أَصْيَدُ وصَيْداء: كلُّ من له حَوْلٌ وطَوْل من ذوي السلطان والتفوق.
(٦) الأجبال، واحدها: جَبَل. وتجمع على جبال وأَجْبُل.

ومــدَّ آمــالَــهُ فــي كــلِّ نــاحــيــةٍ ... ولا ســـريـــرٌ ولا تـــاجٌ ولا مـــالُ
والــمــرءُ إنْ كــانَ إنــســانــاً بــزيــنــتــهِ ... فــإنــمــا هــو بــيــنَ الــنــاسِ تــمــثَــالُ
وفــي الأنــامِ رجــالٌ كــالــنــجــومِ إذا ... أتــى الــفــتــى مــا أتَــوْهُ نــالَ مــا نــالــوا[1]

❁❁❁

وقال على غرار بائيَّة أبي تمام «السيف أصدقُ إنباءً»:

[من البسيط]

الــمــجــدُ مــا بــيــن مــوروثٍ ومــكــتَــسَــبِ ... والقَطرُ في الأرضِ لا كالقطر في السحبِ
ومــا الــفــتــى مــن رأى آبــاءَه نُــجُــبــاً ... ولــم يــكــن هــوَ إنْ عَــدُّوهُ فــي الــنُّــجُــبِ[2]
وإنَّ أولــىٰ الــورىٰ بــالــمــجــدِ كــل فــتًــى ... مــن نــفــســهِ ومــن الأمــجــادِ فــي نَــسَــبِ
فــالــشــهــبُ كُــثْــرٌ إذا أبــصــرتَــهــنَّ ولا ... يُــعــدِّدُ الــنــاسُ غــيرَ الــســبــعــةِ الــشُّــهُــبِ[*]
ومــا رقَــى الــمــلِــكُ الــمــأمــونُ يــوم سَــمــا ... لــلــمــجــدِ فــي درجــاتِ الــعــزِّ والــحَــسَــبِ
ولا اســتــجــابــتْ لــه الأمــلاكُ يــوم دَعــا ... بــفــضــلِ أمٍّ غــذَتْــه الــفــضــلَ أو بــأَبِ[3]
لــكــنْ رأى الــمــجــدَ مــطــلــوبــاً فــهــبَّ لــه ... ومَــن يــكــنْ عــارفــاً بــالــقــصــدِ لــم يَــخِــبِ
وعــزَّزَ الــعــلــمَ فــاعــتــزَّ الأنــامُ بــهِ ... ومــا إلــى الــعــزِّ غــيرُ الــعــلــمِ من ســبــبِ
ودولــةُ الــســيــفِ لا تَــقــوىٰ دعــامــتُــهــا ... مــا لــم تــكــنْ حــالــفــتــهــا دولــةُ الــكُــتُــبِ
ومــن يَــجِــدَّ يَــجِــدْ[4]، والــنــفــسُ إن تــعــبــتْ ... فــربــمــا راحــةٌ جــاءتْ مــن الــتــعــبِ
ويــلٌ لــمــنْ عــاشَ فــي لــهــوٍ وفــي لَــعِــبٍ ... فــمــيــتــةُ الــمــجــدِ بــيــنَ الــلــهــوِ والــلــعــبِ

---

(١) أي إذا فعل المرءُ ما فعل الرجال الأشاوسُ، نال مثْلَ ما ناله هؤلاء.

(٢) النجب، واحدها نجيب، وهو الفاضل النفيسُ من الناس، ويجمع على أنجاب ونُجَباء.

(*) هي: زحل، والمشتري، والمريخ، والشمس، والزهرة، وعطارد، والقمر.

(٣) الأملاك، جمع مَلِك. وكان المأمون قد كاتب الملوك أن يرسلوا له ما عندهم من نفائس الكتب.

(٤) القول تضمين مباشر للمثل الحكمي القائل:

«مَـنْ جَـدَّ وجَـدَ ومـن زرعَ حـصَـدْ»

(●) **ملحوظة أوليّة**: الحواشي التي تخضع لأرقام حسابية (١ و٢ و٣... الخ). لشارح الديوان الثاني: **ياسين الأيوبي**، كذلك الحواشي التي أشير إليها بمستديرات سوداء (●)...

أما الحواشي التي أشير إليها بنجوم (*) فهي للشارح الأول **محمد كامل الرافعي**. وقد خرجتُ على هذا النظام في حواشي الجزء الثالث فقط حيث عكستُ النهجَ...

(ألم ترَ الشمسَ في الميزانِ هابطةً ... لما غدا برجُ نجمِ اللهوِ والطربِ)[*]

❁ ❁ ❁

وقال في الكمال في التربيةِ:

[من الوافر]

لكلِّ فتى من الدنيا كمالُ ... فما نقصَ الورى إلا الفَعَالُ[١]

ومَن لم يُرشدوهُ في صِبَاهُ ... تحكَّمَ في شبيبتهِ الضَّلالُ

فما قلبُ الصغيرِ سوى كتابٍ ... تُسطَّرُ في صحائفهِ الخِلالُ[٢]

ونفسُ المرءِ في جنْبَيْهِ نَصْلٌ ... ولسْنَ بغيرِ حاملِها النِّصَالُ

فكم رجلٍ ترى فيه صَبيّاً ... وكم مِن صِبْيةٍ وهُمُ رجالُ[٣]

وإن هيَ لم تكنْ صُقلتْ طَواها ... على صَدإٍ فما يُجدي الصُّقَالُ

ومن لم يَغْذُهُ أَبَواهُ طِفلاً ... هَوى العلياءِ، أسقمَهُ الهُزالُ

❁ ❁ ❁

وقال في الاعتماد على النفسِ:

[من الكامل]

المرءُ يُمنىٰ بالرجا والياسِ ... ويَضيعُ بينهما ضعيفُ الباسِ

فإذا عزمتَ فلا تكنْ متردداً ... فسدَ الهَوا بترَدُّدِ الأنفاسِ

وإذا استعنتَ فبالتجاربِ إنها ... للنفسِ كالأضراسِ للأضراسِ

وعلامَ تَرجو الناسَ في الأمرِ الذي ... يَغنيكَ أنتَ، وأنتَ بعضُ الناسِ؟

النفسُ قوسٌ والعزيمةُ سَهْمها ... فازمِ الرَّجا منْ هذهِ الأقواسِ

وأَضِئْ حياتكَ بالمعارفِ إنما ... هي في ظلامِ العمرِ كالنبراسِ[٤]

واجعلْ أساسَ النفسِ حُبَّ اللَّه إذْ ... لا خيرَ في بيتٍ بغيرِ أساسِ

❁ ❁ ❁

(*) البيت لأبي الفتح البُستي، استخدمه الرافعي من باب التضمين.

(١) الفَعَال (مفرد): الفعل الحَسَن، والعَمل الحميد. وكل صنع جيِّدٍ فهو فعَالٌ. .

(٢) الخلال، ج: خَلّة (بالفتح): الخَصْلة، حَسَنةً كانت أم سيئة.

(٣) «ترى فيه صبياً»، أي: يسلك سلوك الأطفال في طيشه وتهوُّره.

(٤) النبراس: المصباح.

وقال في زمن الدراسةِ:

[من الخفيف]

زمـنٌ كـالـربـيـعِ حـلَّ وزالا ... لـيـتَ أيـامَـه خُـلِـقـنَ طِـوالاً
يـحـسـبُ الـطـفـلُ أنـه زمـنُ الـهـمِّ ... ومـا الـهـمُّ يـعـرفُ الأطـفـالا[1]
يـا بَـنـي الـدرس مَـن تـمـنَّـى الـلـيـالي ... كـلـيـالـيـكـم، تـمـنَّـى الـمُـحَـالا
لـيـلـةٌ بـعـدَ لـيـلـةٍ بـعـدَ أخـرى ... ولـيـالـي الـهـنـا تـمـرُّ عِـجـالا
قـد خَـبـرنـا الأنـامَ فـي كـلِ حـالٍ ... فـإذا الـطـفـلُ أحـسـنُ الـنـاسِ حـالا
وهـو إن جـدَّ لـم يـزلْ فـي صـعـودٍ ... وكـذا الـبـدرُ كـان قـبـلُ هِـلالا
غـيـرَ أنَّ الـكَـسـولَ فـي كـل يـومٍ ... يـجـدُ الـيـومَ كـلَّـهُ أهـوالا
ويَـرى الـكُـتْـبَ والـدفـاتـرَ والأقـ ... ـلام وأوراقَ درسـهِ أحـمـالا[2]
وإذا مـا مـشـى إلـى قـاعـةِ الـدر ... س ذراعـاً يـظـنُّـه أمـيـالا
مَـن يـقـمْ فـي الأمـورِ بـالـجِـدِّ يَـهْـنـا ... والـشَّـقـا لـلـذيـن (قـامـوا كـسـالى)[3]
وزمـانُ الـدروس أضـيـقُ مـن أن ... يَـجِـدَ الـخـامـلـونَ فـيـهِ مَـجـالا
أيـهـا الـطـفـلُ لا تُـضـيِّـعْ زمـانـاً ... لـسـتَ تَـلـقـى كـمـثـلـهِ أمـثـالا
ربـمـا نـلـتَ مـا يـفـوتُ وهـيـهـا ... تَ إذا فـاتـكَ الـصِّـبـا أن تَـنـالا

❁ ❁ ❁

وقال بعدَ المدرسةِ:

[من الخفيف]

مـا لأيـامِ ذا الـصِّـبـا تـتـفـانـى ... وقـديـمـاً عـهِـدْتُـهـا تَـتـوانـى[4]
ذهـبَـتْ بـالـصِّـبـا سَـلامٌ عـلـيـهـا ... مـن فـؤادٍ بـحـبـهـا مـلآنـا[5]
كـلُّ ذي حـالـة سـيُـمْـنـى[6] بـأخـرى ... ويُـلاقـي بـعـد الـزمـانِ زمـانـا

---

(١) حقه أن يقول: لا يعرفُ الأطفالُ الهمَّ. فقلبَ السياق للضرورة.
(٢) في البيت خلل عروضي مصدره: «الأقلام». بحيث لو حذفت «م» من (الأقلام) استقام. فيختلُّ المعنى.
(٣) تضمين قرآني لقوله تعالى، يصف المنافقين: ﴿وإذا قاموا إلى الصَّلاةِ قامُوا كُسالى﴾ سورة النساء، آية ١٤٢.
(٤) تتفانى: تَفْنى يوماً بعد يوم، بينما هي في زمانها كانت ثقيلة، بطيئة الدوران، فاترة الأثر.
(٥) نوَّنَ (ملآن) على الاتباع (ممنوع من الصرف).
(٦) سيُمنى: سيُبْتلى، ويُقدَّرُ له.

والفتى مَن إذا تغيرَ حالٌ ... لم يقِفْ في وجوهِهِ حَيْرانا(*)

هذهِ ساعةُ الحَصادِ فمَن كا ... نَ تعنَّى(١) أراحَهُ ما عانى

والذي يَزرعُ التهاونَ في الأشـ ... ـياءِ لا يَجتنيهِ إلا هَوانا

ليس يُجدي الإنسانَ أن يأملَ النا ... سُ فلاناً من قومِهِ وفُلانا

فاسْعَ في الأرضِ إنَّ عِقْبان(٢) هذا ... الجوِّ لا يَرتضِينَ منهُ مكانا

واحْذرِ الناسَ إنما يأمنُ النا ... سَ صبيٌّ يَظنُّهم صِبْيانا

واركَبِ الجِدَّ في الأمورِ ولا تجـ ... ـبنْ إذا فاتَ بعضُها أحيانا

إنَّ هذا الوجودَ كالحَرْب لا يُكْـ ... ـرَمُ في الحربِ من يكونُ جبانا

❁ ❁ ❁

وقال في الشرف بالمعارفِ:

[من الكامل]

إنَّ المعارفَ للمعالي سُلَّمُ ... وأُولُو المعارفِ يجهدونَ لينعموا

والعلمُ زينةُ أهلهِ بين الورى ... سِيَّانِ فيه أخو الغِنى والمُعْدَمُ(٣)

فالشمسُ تَطْلُعُ في نهارٍ مُشْرِقٍ ... والبدرُ لا يُخفيه ليلٌ مظلمُ

لا فخرَ في نَسَبٍ لمنْ لم يفتخرْ ... بالعلم، لولا النابُ ذلَّ الضيغمُ(٤)

وأخو العُلا يسعَى فيُدرِكُ ما ابتغى ... وسِواهُ مِن أيامهِ، يَتظلَّمُ

والخاملونَ إذا غَدَوْتَ تلومُهم ... حَسِبوك في أسماعهم، تَترنَّم(**)

في الناس أحياءٌ كأمواتِ الوغى ... وَخْزُ الأسنَّةِ فيهمُ لا يُؤلمُ

فاصْدِمْ جهالتَهُمْ بعِلْمكَ إنما ... صَدْمُ الجهالةِ بالمعارفِ أحْزَمُ

واخْدُمْ بلاداً أنتَ من أبنائِها ... إنَّ البلادَ بأهلِها تتقدمُ

واملأْ فؤادَكَ رحمةً لذوي الأسى ... لا يرحَمُ الرحمنُ مَنْ لا يَرْحَمُ

❁ ❁ ❁

(*) يريد بهذا، أنَّ الفتى: مَنْ كان عارفاً بطرق منافعه في كل أمر؛ فإن تغيرت حالٌ، غيَّر طريقه.

(١) تعنَّى: عانى كثيراً، من العَناء، وهو العذاب الشديد.

(٢) واحدها عُقاب، طائر جارح حادّ البصر، قويّ المخالب. ويجمع على: أَعْقُب.

(٣) سِيَّان، واحدها: سِيٌّ، وهو المِثلُ والنظيرُ. يقال للمذكر والمؤنث. فيقال هو سِيُّك أي مِثْلك (ابن منظور ١٤/ ٤١١ سَوَا).

(٤) الضَيغم: الأسد الواسع الشدْق. ج: ضَيَاغِم وضَيَاغِمَة.

(**) إذا كان الأحولُ يرى الشيء شيئين، فلا عجبَ إذا سمع الخاملُ صيحة الزجر غناءً.

وقال في الاجتهاد:

[من الطويل]

لقد كذَّبَ الآمالَ من كانَ كسْلانا وأجْدَرُ بالأحلامِ مَن باتَ وَسْنانا[1]

ومنْ لم يُعانِ الجِدَّ في كلِّ أمرهِ رأى كلَّ أمرٍ في العواقبِ خِذلانا[2]

وما المرءُ إلا جِدُّهُ واجتهادُهُ وليسَ سوى هذينِ للمرء أعوانا

كأنَّ الورىٰ يَجْرونَ طُرّاً لغايةٍ وقد دُحِيَتْ هذي البسيطةُ مَيْدانا[3]

فمَن كانَ مِقْداماً فقد فازَ جَدُّهُ وباءَ بكلِّ الويلِ من ظلَّ حَيْرانا[4]

فلا تتقاعدْ إن تَلُحْ لكَ فرصةٌ ولا تَزْدرِ الشيءَ الحقيرَ وإنْ هانا

ولا تَعْدُ أخلاقَ الكرامِ فإنما بأخلاقهِ الإنسانُ قد صارَ إنسانا

❁ ❁ ❁

وقال في العلم والعمل:

[من الرمل]

آفةُ العالِمِ أن لا يَعْمَلا وشَقا الجاهلِ أنْ لا يَسْألا

إنما العِلْمُ كمِثْلِ المالِ لا تَنْفعُ الأموالُ حتى تُبْذَلا[*]

ولكلِّ الناس فقرٌ شاملٌ والغَنيُّ فقْرُهُ أنْ يَبْخَلا

وأخو العِلمِ كربُّ المال لا يستزيدُ المالَ حتى يَعْمَلا[**]

والكسولُ يستَغنَّى آخِراً بالذي قد علِّموهُ أوَّلا

وإذا كانَ من العلمِ شقاً فنعيمُ المرء في أن يجهلا[5]

حاملُ العلم ولم يَعْمَلْ به كالحمارِ حاملٌ ما حَمَلا

---

(١) أولُ النوم: النعاس: أي حاجة الإنسان إلى النوم. ثم الوَسَنُ، وهو ثِقَلُ النعاس. ثم الكرى والغُمْض. . «فقه اللغة وأسرار العربية» للثعالبي. بعناية د. ياسين الأيوبي. المكتبة العصرية بيروت سنة ١٩٩٩/ ص٢٠٥.

(٢) الخِذلان: التخلّي عن المساعدة والنصرة. ومعنى البيت: من لم يَفِدْ من التجارب ويمارس الجدَّ في حياته، لا يعرف معنًى لعواقب الأمور ويحسب كلَّ فَشلٍ انهزاماً.

(٣) طُرّاً: جميعاً. ودُحِيتْ، أي: بُسِطَتْ.

(٤) باءَ بالويل: رجَع به، كأنه من جَنْيه وتحصيله.

(*) يقال: من كتم علماً، فكأنه جاهلُه.

(**) في الحديث الشريف: من عمل بما علم، ورَّثه اللّهُ علْمَ ما لم يعلم.

(٥) شَقاً، مخفَّف، شقاءً: اسم كان.

وإذا لم يكُ إلّا عِلْمُهُ كانت الأوراقُ منه أفضلا[١]

خابَ من قالَ ولم يفعلْ، فما يُفلح القائلُ حتى يفعلا[*]

❁ ❁ ❁

وقال في هوى الأوطان:

[من الطويل]

بلادي هواها في لساني وفي دمي يُمجِّدُها قلبي ويدعو لها فمي

ولا خيرَ فيمنْ لا يُحِبُّ بلادَهُ ولا في حليفِ الحبِّ إن لم يُتَيَّمِ

ومَنْ تُؤوِهِ دارٌ فيَجحَدَ فضلَها يكنْ حيواناً فوقَهُ كلُّ أعجمِ[٢]

ألم ترَ أنَّ الطيرَ إنْ جاءَ عشَّهُ فآواهُ في أكنافِهِ يترنَّمِ

وليسَ من الأوطانِ من لم يكنْ لها فداءً، وإنْ أمسى إليهنَّ ينتمي

على أنها للناس كالشمس لم تَزلْ تُضيءُ لهمْ طُراً وكم فيهِمُ عَمي

ومن يَظلمِ الأوطانَ أو يَنْسَ حقَّها تُجِبْه فنونُ الحادثات بأظلمِ

ولا خيرَ فيمنْ إنْ أحبَّ ديارَهُ أقامَ ليبكي فوقَ رَبْعٍ مهدَّمِ[٣]

وقدْ طُويتْ تلكَ الليالي بأهلِها فمَن جهِلَ الأيامَ فليتعلَّمِ

وما يَرفعُ الأوطانَ إلا رجالُها وهل يترقى الناسُ إلا بسُلَّمِ

[ومن يَكُ ذا فضلٍ فيبخلْ بفَضْلِهِ على قومه يُستَغْنَ عنه ويُذْمَمِ][٤]

ومن يتقلبْ في النعيمِ شَقِيْ بهِ إذا كان من آخاهُ غيرَ مُنَعَّمِ

❁ ❁ ❁

وقال ليتلوها طفلٌ صغيرٌ في الاحتفالِ بامتحانِ تلامذةِ إحدى مدارسِ الجمعية الخيرية الإسلامية:

[من الخفيف]

لكُمُ سادتي أجلُّ احترامي وعليكمْ تحيَّتي وسَلامي

---

(١) الأوراق: كناية عن الصحف والكتب التي يقرأ فيها ويتعلّم.

(*) قال بعض النساك؛ أسكتتني كلمةُ ابن مسعود عشرين سنة، وهي: من كان كلامُهُ لا يوافِق فعله، فإنما يوبخ نفسَه.

(٢) الأعجم: الذي لا يُفصح في كلامه.

(٣) ينتقد الرافعي هنا شعراء الوقوف على الأطلال، داعياً إلى إعادة البناء وإحياء ما هدَّمته الأيام.

(٤) البيت لزهير بن أبي سلمى، من معلّقته المشهورة.

وإليكم أَسوقُ عني حديثاً ... حِكَماً جلَّ قدرُها في الكلامِ
كنتُ في حِجْرِ والديَّ رضيعاً ... هِمَّتي في البُكاءِ أو في المنامِ
ثم أصبحتُ بعدَ ذلكَ طِفلاً ... لا أقاسي سوى عذابِ الفِطامِ
ثمَّ لمَّا شبَبْتُ أنطقني اللَّـ ... ـهُ مُفيضُ الجميلِ والإنعامِ[١]
واهبُ السمعِ والبصائرِ والأَبـ ... ـصارِ مُعطي العُقولِ والأفهامِ
ثم ميَّزتُ كلَّ شيءٍ أراه ... وعرفتُ الضِّيا ولونَ الظلامِ
ورأى اللَّهُ أن يُقَدِّرَ لي الخَيْـ ... ـرَ وأَحظى بأوفرِ الأقسامِ
فأتى بي إلى المدارسِ أهلي ... وجعلتُ العلومَ فيها مَرامي
دفتري صاحبي، ولوحي رفيقي ... وكتابي في كلِّ فنٍّ أمامي
فتعلَّمتُ ما تعلَّمتُ مما ... أتباهى بعِلْمِه في الأنامِ
راجياً أن أكونَ بالعلمِ يوماً ... في بلادي من الرجالِ العظامِ
فأشيدَ المدارسَ الشمَّ فيها ... لبني البائسينَ والأيتامِ
وأربِّي على محبتها القو ... مَ لترقى بهم على الأقوامِ
سادتي أُنشروا العلومَ لتشفي ... ما بجسمِ البلادِ من أسقامِ
إنها روحُها وما بسِوَى الرو ... حِ تكونُ الحياةُ في الأجسامِ

❁ ❁ ❁

وقال ليتلوها طفلٌ أصغرُ من ذاك:

[من الخفيف]

نحنُ في هذه المدارس نسعى ... لِنَبَرَّ الوالداتِ والوالدينا[٢]
وتَرانا أوطانُنا خيرَ قومٍ ... ففلاحُ الأوطانِ في أيدينا
عن قريبٍ نكون فيها رجالاً ... ونربِّي بناتِنا والبنينا
فادرأوا الجهلَ بالمعارفِ عنَّا ... واتقوا اللَّهَ أيها الناسُ فينا
ربِّ هذي يدُ الضراعةِ والذلِّ (م) فوَفِّقْ عبادَكَ المُحْسنينا[*]

---

(١) المُفيض: اسم فاعل من: أفاضَ الجميلَ: رزقَه وأغدقَه بكثرة.

(٢) العجز مختلٌّ، ويستقيم إذا جعلنا «الوالدات» (الوِلْدانَ)، ولا يختلُّ المعنى.

(*) كان شاعرنا حاضراً ذلك الاحتفال، فلم يتمالك أن بكى حينما سمع هذه الألفاظ الكبيرة يصيح بها ذلك الطفلُ، فتخرج من فمه الصغير؛ ورآه يبسط يده خاشع الطرف، رافعاً رأسه إلى =

يـا إلـهـي دعـاكَ طـفـلٌ صـغـيـرٌ ... فـتـقـبـلْ يـا أكـرمَ الأكـرمـيـنـا

۞۞۞

وقال يتفجَّعُ لمجدِ الشرقِ القديم، ويضربُ الأمثالَ للشرقيينَ لعلهم يتذكرونَ:

[من المتقارب]

تـمـايـلَ دهـرُكَ حـتـى اضـطـربْ ... وقـد يـنـثـنـي الـعِـطْـفُ لا مِـنْ طَـرَبْ

ومـرَّ زمـانٌ وجـاءَ زمـانٌ ... وبـيـنَ الـزمـانـيـن كـلُّ الـعَـجَـبْ

فـقـومٌ تـدلَّـوْا لـتـحـتِ الـثـرى ... وقـوم تـعـالَـوا لـفـوقِ الـشُّـهُـبْ

لـقـد وعَـظَـتْـنـا خـطـوبُ الـزمـانِ ... وبعضُ الخطوبِ كبعضِ الخُطَبْ[1]

ولـو عـرفَ الـنـاسُ لـم تَـهْـدِهـمْ ... سَـبـيـلَ الـمـنـافـعِ إلا الـنـوبْ[2]

فـيـا رُبَّ داءٍ يـكـون دواءً ... إذا عـجـزَ الـطـبُّ والـمـسـتَـطَـبْ[3]

ومِـن نـكَـدِ الـدهـرِ أنَّ الـذي ... أزاح الـكـروبَ غـدا فـي كُـرَبْ

وأَنَّ آمـرأً كـان فـي الـسـالـبـيـنَ ... فـأصـبـحَ بـيـنـهـمُ يُـسـتـلـبْ[4]

ألـسـتَ تَـرى الـعَـربَ الـمـاجـديـن ... وكـيـفَ تـهـدَّمَ مـجـدُ الـعـربْ؟

فـأيـنَ الـذي رفـعـتْـهُ الـرمـاح ... وأيـنَ الـذي شـيَّـدتـهُ الـقُـضُـبْ[5]؟

وأيـن شـواهـقُ عِـزٍّ لـنـا ... تـكـادُ تـمـسُّ ذراهـا الـسـحـبْ؟

لـقـد أشـرقَ الـعِـلـمُ مـن شـرقـنـا ... ومـا زالَ يـضـؤُل حـتـى غَـرُبْ

وكـنَّـا صـعِـدنـا مَـراقـي الـمـعـالـي ... فـأصـبـحَ صـاعـدُنـا فـي صَـبَـبْ[6]

وكـم كـانَ مـنَّـا ذَوو هِـمَّـةٍ ... سَـمـتْ بـهِـمُ لـمـعـالـي الـرُّتَـبْ

= السماء، يسأل الله أن يوفق عباده المحسنين، على حين أن هؤلاء (المحسنين) الحاضرين كانوا كالحجارة أو أشدّ قسوة، فلا ندري إلى متى هذا الجمود؟

(١) الخطوب، مفردها: خَطْب، هو الأمر الشديد، المكروه، والخُطَب، مفردها: خُطبة: لون من الكلام يُلقى في مناسبة ما. والخِطبة (بالكسر) طلب المرأة للزواج.

(٢) النُّوَبُ: ج: نائبة، المصيبة الشديدة، وتجمع على نوائب.

(٣) الموصوف للمعالجة، من دواءٍ وغيره.

(٤) السالِب: الذي يقوم بالسَّلْب وهو السرقة والنهب. ويُسْتَلَبُ: صيغة للمضارع المجهول، أي المسروق.

(٥) القُضُب: ج: قضيب، وهو السيف القاطع.

(٦) الصَّبَبُ: ما انحدر من الأرض.

وكم من هِزَبْرٍ تهزُّ البرايا … بوادِرُهُ إن وَنى أو وَثَبْ[1]
وأُقسمُ لولا اغترارُ العقولِ … لما كَفَّ أربابُها عن أَرَبْ[2]
ولولا الذي دَبَّ ما بينهمْ … لما استصعبوا في العلا ما صَعُبْ
ومن يُطْعِمُ النفسَ ما تشتهي … كمَنْ يُطْعِمُ النارَ جَزْلَ الحطَبْ
ألَا رحِمَ اللَّهُ دَهراً مضى … وما كادَ يبسِمُ حتى انتحبْ
وَحَيّا ليالِيَ كنَّا بها … رعاةً على مَن نأى واقتربْ
فمَلْكاً نُقيلُ إذا ما كَبا … وعرشاً نقيمُ إذا ما انقلَبْ[3]
سَلُوا ذلكَ الشرقَ ماذا دهاه … فأرسلهُ في طريقِ العَطَبْ[4]
لَوَ آنَّ بَنيهِ أَجلُّوا بَنيه … لأصبحَ خائبُهم لم يَخِبْ[5]
فقد كانَ منهمْ مَقرُّ العلوم … كما كانَ فيهم مقرُّ الأدَبْ
وهلْ تُنبتُ الزهرَ أغصانُهُ … إذا ماءُ كلِّ غَديرٍ نضَبْ؟
وكم مرشدٍ باتَ ما بينهمْ … يُسامُ الهوانَ وسوءَ النصَبْ[6]!
كأنْ لم يكنْ صَدرُهُ منبعاً … لما كانَ من صدْرِهِ يَنسكِبْ
ومن يستَبِقْ للعُلا غايةً … فأولى به مِن سِواهُ التعبْ
وليس بضائرِ ذي مطلبٍ … إذا كفَّهُ الناسُ عمَّا طَلبْ
فكم من مصابيحَ كانت تُضيءُ (م) بينَ الرياحِ إذا لم تَهُبْ
وما عِيبَ من صدَفٍ لؤلؤٌ … ولا عابَ قدْرَ الترابِ الذهبْ
بني الشرقِ أينَ الذي بيننا … وبينَ رجالِ العلا من نسَبْ؟
لقد غابتِ الشمسُ عن أرضكم … إلى حيثُ لو شئتمُ لم تَغِبْ
إلى الغربِ حيثُ أولاءِ الرجالُ … وتِيكَ العلومُ وتلكَ الكُتبْ

---

(١) الهِزَبْرُ: من أسماء الأسَد.

(٢) الأرب: الغاية والهدف.

(٣) إقالةُ المَلِك، أو المُلْك (بالفتح والضم): إقامة عثراته، ومدُّه بالقوة والسلطان.

(٤) العطبُ: الفَساد والهَلاك.

(٥) أجلُّوهُ: جعلوه جليلاً، رفيع الشأن والمقام.

(٦) النَّصَب (بالفتح) الإرهاق والتعب الشديد.

فإن كانَ هذا بحكمِ الزمانِ ... فتبَّتْ يدا ذا الزمانِ وتَبّْ[١]
وإن كانَ مما أردتمْ فما ... تُنالُ العُلا من وراءِ الحُجُبْ
فدُوروا مع الناسِ كيف استداروا ... فإنَّ لحكمِ الزمانِ الغلَبْ
ومن عاندَ الدهرَ فيما يُحبُّ ... رأى من أذى الدهرِ ما لا يُحِبّْ

❁ ❁ ❁

وهذه شذراتٌ من الحكمةِ ألحقناها بهذا البابِ

قال في تبدّل الأيام:

[من الوافر]

رُويداً إنما الأيامُ سَفْرٌ[٢] ... إذا وفدٌ تَولَّى جاءَ وفْدُ
كأنَّا في الجحيمِ فمَن تَفرَّى ... له جِلدٌ تبدَّلَ منه جِلدُ[٣]
أرى قوماً أعدُّوا ما استطاعوا ... لدَهرِهمُ، وقوماً ما أعدُّوا
فلا يَغرُرْكَ مِن أحدٍ ودادٌ ... فليسَ لواحدٍ في الناس وُدُّ
رمَوْا شبكاتِهمْ في كلِّ ماءٍ ... فلو راموا السماءَ إذاً لجَدُّوا[٤]

❁ ❁ ❁

وقال في جمال الصبر والقناعة:

[من الكامل]

حمِّلْ فؤادَكَ ما يُطيقُ ولا تكنْ ... حَزَناً فإن الحَزْنَ ليسَ يطاقُ[٥]
كم مملقٍ أمسى الثَّراءُ ببابهِ ... ولكَمْ رماهُ على الثرى الإملاقُ[٦]!

---

(١) تَبَّتْ: هلكتْ وخسرتْ. وهو مقتبس من قوله تعالى: ﴿تبَّتْ يَدا أبي لَهَبٍ وتَبَّ﴾. وخصَّ سبحانه وتعالى، اليَدين بالتَّباب، لأن العمل أكثر ما يكون بهما. أي خسِرتا وخسِرَ هو. وأبو لهب هو عبد العُزَّى، ابن عم عبد المطلب عمّ النبي ﷺ. راجع تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن الكريم) جـ٢٠/ ص٢٣٥ ـ ٢٣٦.

(٢) السَّفْر: اسم جمع لمُسافِر؛ و«تولّى»: مضى وتوارى.

(٣) تفرّى: تقطَّع وتشقَّق. مأخوذ من قوله تعالى عن الكافرين ﴿كلَّما نضِجَتْ جلودُهم بَدَّلْناهم جُلوداً غيرَها ليذُوقوا العذابَ﴾ الآية ٥٦ من سورة النساء.

(٤) لجَدُّوا: لَسَعَوْا إليها بكل ما لديهم من جدٍّ ونشاط.

(٥) الحَزْنُ: هو الوعر الصعب. ومن الناس: من خشنَتْ معاملته.

(٦) الإملاق: الفقر. والمُملِقُ: الفقير.

واقنعْ برزقِكَ ما كفاكَ فإنما ... زادُ المسافرِ هذهِ الأرزاقُ
والناسُ كالركْبِ الذين إذا سَرَوا ... ناموا ولكنَّ المطيَّ تُساقُ[١]

❁ ❁ ❁

وقال في الفرج بعد الضيق:

[من المقتضب]

ربما دها حَزَنٌ ... فيه راحةُ المهجِ
والذي يُقدِّرهُ ... قادرٌ على الفرجِ

❁ ❁ ❁

وقال في فقد الوعي والإدراك:

[في المتقارب]

إذا صِحْتَ في شرقنا صيحةً ... وقلتَ: أرى الغربَ منَّا اقتربْ
فما أنتَ مُسْمِعُ مَن في القبورِ[٢] ... ولا أنتَ مفزعُ مَن في السحُبْ

❁ ❁ ❁

وقال في عاقبة الخمول:

[من الطويل]

زرَعنا فلم نَحْصِدْ وكان جدُودنا ... متى يبذروا في أرضِنا الحَبَّ يَحْصِدوا
وما قتَلَ المَحْلُ البلادَ وإنما ... أصابَ الصَّدا مِحراثَنا فهو مِبْرَدُ[٣]

❁ ❁ ❁

وقال في إنسانٍ يفتخرُ بأجدادِهِ وهو أبعد ما يكون عنهم:

[من السريع]

يا مَنْ يَرى الفخرَ بأجدادِهِ ... لستَ من الأجدادِ لو تَدْري
وما أرىٰ أعجبَ من جَدْولٍ ... ينضَبُ والأمواهُ في النهرِ

---

(١) سروا: أي ساروا ليلاً. والمطيُّ والمطايا: الجمال والبغال، وكل ما يُحْمَلُ عليه في السَّفَر.
(٢) هذا الصدر مقتبس من قوله تعالى: ﴿وما أنْتَ بمُسْمِعٍ مَنْ في القُبور﴾ جزء من الآية ٢٢ من سورة فاطر.
(٣) الصَّدا: مخفَّف الصَّدأ (بالهمز) وهو طبقة هشَّةٌ تعلو الحديد، بفعل الاهتراء. فكأن المحراث، وهو آلة الفلاحة، لكثرة الإهمال والخمول، أصبحَ كالمِبْرد، أو المُبْرَد (للمجهول)، أي أنه بحاجة إلى ما يبردُه.

فاتركْ عِظامَ[1] الناس في قَبرِها ... ولا تقلْ زَيدي ولا عَمرِي

❁❁❁

وقال في الكذوب:

[من الكامل]

لا تَسألِ الكَذَّابَ عن نِيَّاتِهِ ... ما دام كذَّاباً عليك لِسانُهُ

يُنبيكَ ما في وجهِهِ عن قلبِهِ ... إنَّ الكتابَ لسانُهُ عنوانُهُ

❁❁❁

وقال في الحظّ يؤتىٰ الغنيّ ويحرم منه الفقير:

[من الكامل]

كلُّ امرئٍ يَسعىٰ بما في وُسْعِهِ ... إما إلى السَّرَّا أو الضرَّاءِ

وأرى الحظوظَ أَلِفْنَ كلَّ مُرَفَّهٍ ... ونأتْ بجانبها عن البؤساءِ

سُبْحانكَ اللهمَّ تُعطي ذا الغنى ... وتُقتِّرُ الأرزاقَ للفقراءِ

❁❁❁

وقال في زوال النِّعم:

[من الوافر]

أرىٰ الدنيا تَؤولُ[2] إلى زوالٍ ... ويَنضَمُّ الأميرُ إلى الحقيرِ

فإن كانَ الغِنىٰ كالفقرِ يَفنىٰ ... فما شرَفُ الغنيِّ على الفقيرِ؟

❁❁❁

وقال في الطموح المستحيل:

[من المتقارب]

إذا ما استشاركَ ذو كُربةٍ[3] ... فَضيِّقْ عليه طَريقَ الأملْ

فإنَّ النفوسَ يُؤمِّلنَ حتى ... ليدخُلنَ سَمَّ الخياطِ الجمَلْ[4]

❁❁❁

وقال في انعدام النصح وزوال الراحة:

[من المجتث]

يا ويحَ دهريَ لم يَبْـ ... ـقَ في بَنيهِ نَصيحُ

---

(١) في هذا البيت تورية بديعة وهي «عظام» جمع: عَظْمة. و«عظام» جمع: عظيم.

(٢) تؤول: تَصير وتنتهي.

(٣) الكُرْبةُ: الغمُّ يغشى النفسَ. جمعها: كُرَب وكربات.

(٤) سَمُّ الخياط: ثَقْبُ الإبرة. أراد الطموح المُعجز، والمحاولة الدائمة لفعل المستحيل.

فــــلا فـــؤادَ ســـلـــيـــمٌ ولا وِدادَ صـــحـــيـــحُ
وكـــلُّ مـــا يَـــخْـــبَـــأُ الـــقـــلـــبُ فـــي الـــعـــيـــون يَـــلُـــوحُ
وكُـــلُّـــنـــا فـــي عـــنـــاءٍ فـــمـــن إذنْ يـــســـتـــريـــحُ

❁ ❁ ❁

وقال في تطبيق الحق ولو كان يُحدث ظُلماً:

[من الطويل]

إذا مـا دَعـاكَ الـحـقُّ لـلـظـلـمِ مـرةً وقـد كـنـتَ ذا حِـلـمٍ فـلا تـكُ ذا حِـلـمِ
فـإنَّ مِـن الإشـفـاقِ إنْ زاغـتِ الـنـهـى عن الحقِ مَيْلُ المشفقينَ إلى الظلمِ[١]

❁ ❁ ❁

وقال في جمال التوكلُّ على اللّه وتوقُّع الفرج بعد الشدَّة:

[من السريع]

إنْ ضِـقْـتَ بـالـعُـسْـرِ فـلا تـبـتـئـسْ فـربـمـا دلَّ عـلـى ضِـدِّهِ[٢]
كـالـبـرقِ يَـحْـكـي فـي سَـنـاهُ الـلـظـى وقـد يـكـون الـغـيـثُ مـن بَـعْـدِهِ
فـكِـلْ إلـى الـلّـهِ وبِـتْ راضـيـاً فـكـلُّ مـا مـسَّـكَ مِـن عـنـدِهِ

❁ ❁ ❁

وقال في حلول شهر رمضان المبارك:

[من الوافر]

فـديـتُـكَ زائـراً فـي كـلِّ عـامِ تُـحَـيَّـا بـالـسـلامـةِ والـسـلامِ
وتُـقْـبِـلُ كـالـغَـمـامِ يَـفـيـضُ حـيـنـاً ويـبـقـى بَـعْـدَهُ أثـرُ الـغَـمـامِ
وكَـم فـي الـنـاسِ مِنْ دَنِفٍ[٣] مَـشُـوقٍ إلـيـكَ وكَـم شَـجِـيٍّ مُـسْـتَـهـامِ!
رمَـزْتُ لـه بـألـحـاظِ الـلـيـالـي وقـد عَـيَّ الـزمـانُ عـن الـكـلامِ[٤]
فـظَـلَّ يَـعُـدُّ يـومـاً بـعـدَ يـومٍ كـمـا اعـتـادوا لأيـامِ الـسـقـامِ
ومُـدَّ لـهُ رِواقُ الـلـيـلِ ظِـلاً تَـرِفُّ عـلـيـهِ أجـنـحـةُ الـظـلامِ

---

(١) في المقطع الشعري ما يشبه التناقض، أو الالتباس. فهو يدعو إلى ترك الرويّة والسماحة؛ لكنه يوحي بأن تطبيق الحقّ أحياناً يستدعي الصرامة والتشدُّد، فيقع الظلم في بعض الناس الذين زاغوا عن الحقّ لسبب أو لآخر، وهم بُسَطاء.

(٢) مصداق لقوله تعالى: ﴿فإنَّ مع العُسْرِ يُسْراً * إنَّ مع العُسْرِ يُسْراً﴾ الآيتان ٥ و٦ من سورة الشَّرح.

(٣) دنِفٌ: مريضٌ، وهو هنا شدَّة الحب لدرجة الهيام المَرَضيّ.

(٤) عيَّ: عَجَزَ وامتنعَ.

فبـاتَ ومـلءُ عـينـيـهِ مـنـامٌ | لـتـنـفُـضَ عـنـهـمـا كَـسَـلَ الـمـنـامِ
ولـم أرَ قـبْـلَ حُـبّـك مـنْ حـبـيـبٍ | كـفـى الـعـشّـاقَ لـوعـاتِ الـغـرامِ
فـلـو تـدري الـعـوالـمُ مـا دَرَيْـنـا | لـحَـنَّـتْ لـلـصـلاةِ ولـلـصـيـامِ
بـنـي الإسـلامِ هـذا خـيـرُ ضَـيْـفٍ | إذا غـشـيَ الـكـريـمُ ذُرى الـكـرامِ
يَـلُـمُّـكـمُ عـلـى خَـيْـرِ الـسـجـايـا | ويَـجـمـعُـكـمْ عـلـى الـهِـمَـمِ الـعِـظـامِ
فـشُـدُّوا فـيـهِ أيـدِيَـكُـمْ بـعَـزْمٍ | كـمـا شَـدَّ الـكَـمِـيُّ عـلـى الـحـسـامِ[1]
وقـومـوا فـي لـيـالـيـهِ الـغـوالـي | فـمـا عـاجـت عـلـيـكـم لـلـمُـقـامِ[2]
وكـم نَـفَـرٍ تـغُـرُّهـمُ الـلـيـالـي | ومـا خُـلِـقـوا ولا هـيَ، لـلـدوامِ
وخَـلُّـوا عـادةَ الـسـفـهـاءِ عـنـكـم | فـتـلـكَ عـوائـدُ الـقـومِ الـلـئـامِ
يُـسـحِـلُّـونَ الـحَـرامَ إذا أرادوا | وقـد بـانَ الـحـلالُ مـنَ الـحـرامِ
ومـا كـلُّ الأنـامِ ذوي عـقـولٍ | إذا عَـدُّوا الـبـهـائـمَ فـي الأنـامِ
ومَـن روَّتْـهُ مـرضـعـةُ الـمـعـاصـي | فـقـد جـاءتْـهُ أيـامُ الـفِـطَـامِ

❁ ❁ ❁

(١) الكميّ: لابِس السِّلاح. وهو هنا: الشجاع المقدام في الحرب.
(٢) عاجتْ عليكم: عطفَتْ ومالتْ. أي لن يَسْتميلها المقامُ طويلاً.

في المديح

قال يَمدحُ أمير[1] المؤمنين، وخليفةَ الرسولِ الأمين، ويهنئه بعيدِ جلوسهِ الميمونِ لسنةِ ١٩٠١، ويذكرُ حادثةَ الأرصفةِ التي كانتْ يومئذٍ، وتهديدَ فرنسا للدولةِ العثمانية:

[من الطويل]

أراكَ[2] الحِمىٰ هل قَبَّلَتْكَ ثغورُها ... فمالتْ بأعطافِ الغُصونِ خمورُها؟[3]

وَحنَّتْ إلى سَجْعِ الحَمام كأنَّهُ ... رنينُ الحِلىٰ إذْ لاعبَتْها صدُورُها

عَذيريَ من تلكَ الحبيبة ما لها ... تَقولُ عَذيري والمحبُّ عَذيرُها؟[4]

يُقَلِّبُ عينيهِ إليها ضَميرُهُ ... ويَلْفِتُ عينيها إليهِ ضَميرُها

وما كلُّ ما يخشاهُ منها يَضيرُهُ ... ولا كلُّ ما تخشاه منهُ يَضيرُها[5]

وقام إليَّ العاذلاتُ يلُمْنَني ... فقلْنَ ألَا (تَنفَكُّ)؟ قلتُ أَسيرُها[6]

لئن لم يكنْ للظبْيِ سِحْرُ عُيونِها ... فما شيمةُ الغِزلانِ إلَّا نُفورُها

وما شَفَّني[7] إلَّا النسيمُ وتيهُهُ ... عليَّ إذا ما لاعَبَتْهُ خُدورُها

ألَا فاعذِلُوا قد مَرَّ ما كنتُ حاذراً ... وعادتْ ليالي الدهرِ يحلو مُرورُها[8]

---

(١) يعني السلطان عبد الحميد العثماني.

(٢) الأراك: شجر المِسْواك، واحدتُها أراكة. له ثمار حُمْر دكناء تُؤكل..

(٣) الخمور، كنى بها عن الشذا الفائح من ثغرها. شبهه بالخمر..

(٤) العَذيرُ: العاذِرُ، اللائم. أي أنه هو الذي يحب ويَلُوم ولا من يَعْذِره حتى هي.

(٥) الضَّيْرُ: الضررُ.

(٦) في البيت تورية لطيفة وبديعة، وهي: «تنفك» بمعنى فكِّ عقدة الأسْر، والمعنى الثاني: الحب المستحكم. وفي البيت أيضاً إيجاز بليغ، هو إيجاز حذف بمعنى: ألَا تنفك تُحبُّها وتحيا أسيراً لها؟

(٧) شفَّني: جعلني شَفّاً: رقيقاً، نحيلاً.

(٨) في البيت أيضاً تورية في «مرَّ» و«مرورُها». والمعنى الأول: المَرُّ، الذهاب والانقضاء، والمعنى الثاني: المرارةُ التي هي نقيض الحلاوة. مع العلم أنه استخدم مصدر (المرور) بدل المرارة، للضرورة الشعرية.

وأصبحتِ الدنيا تُضاحِكُ أهلَها ... ويبسِمُ فيهمْ بِشرُها وبَشيرُها
تَتيهُ بأعيادِ الملوكِ وكيفَ لا ... وعيدُ (أميرِ المؤمنينَ) أميرُها
أعادَ به روحَ الخلافةِ ربُّها ... وجاءَ لها بالنصرِ فيه نصيرُها
فراعتْ صناديدَ الملوكِ وما سوى ... مليكِ البرايا قد أقلَّ سريرَها[١]
وجارَ عليها الدهرُ شُعْثاً[٢] خطوبُهُ ... فهبَّ لها (عبدُ الحميدِ) يُجيرُها
بَصيرٌ بنورِ اللّهِ في كلِّ أزمةٍ ... تردُّ عيونَ الصيدِ حسرى ستورُها
وطارَ بها لا يَرتضي النجمَ غايةً ... تمدُّ جناحَيْها عليهِ طيورُها
يظنُّ عِداهُ أنَّ في الناسِ مثلَهُ ... فيا ويحهمْ: شمسُ الضحى ما نَظيرُها؟
وغرَّ (فرنسا) أن ترى الليثَ باسماً ... فلم تدرِ حتى لجَّ فيها (سفيرُها)[٣]
أيجلوك يا عضبَ الشبا ما هذت بهِ ... وقبلكَ ما ضرَّ النبيَّ هريرُها[٤]
وكم دولةٍ جالتْ أمامكَ جولةً ... وسِيقتْ كما ساقَ الشياهَ غرورُها[*]
ملأتَ عليها الأرضَ أُسداً عوابساً ... يُرَدِّدُ بين الخافِقَيْنِ زئيرُها
فمالتْ بهم إن شئتَ يوماً قِفارُها ... وماجتْ بهم إن شئتَ يوماً بحورُها
وقد صفَّتِ الآجالُ في حومةِ الوغى ... وحامتْ على القومِ العداةِ نسورُها
إذا انتضلتْ[٥] رسلُ المنياتِ أحجمتْ ... جيوشُهمُ فاستعجلتها قبورُها
وما لسيوفِ التركِ يجهلها العدى ... وقد عرفتْها قبلَ ذاكَ نحورُها
يهزُّ إليكَ المسلمينَ صليلُها ... وإن ضمَّ منهمْ جانبَ الصينِ سورُها[**]
لِيَهْنَ أميرَ المؤمنينَ، جلوسُهُ ... على العرشِ وليهنَ البرايا[٦] سرورُها

---

(١) أقلَّ: حمَلَ ورفَع. أي أن هذه الخلافة قد أدهشت عظماء العالم. ولم يحمل عرشَها غيرَ سيِّدِ الناس ومَلكِهم العظيم.
(٢) الشُّعْث، مفردها: أشعث، وهو المتلبد، المتداخل، قصد بذلك الخطوب (المصائب) الدهياء!
(٣) قصد بذلك سفيرها: كونستان المشهور في تلك الحادثة.
(٤) عضبُ الشَّبا: صفة للسيف القاطع. والشَّبا، واحدته: شَباةٌ، وهي حدُّ السيف والسِّنان. والهريرُ: نباح الكلاب.
(*) يسوقها الطمعُ في غيرها والغرورُ بنفسها، كما تساق الشياهُ للمجزرة، وهي تحسب أنها ذاهبة إلى المرعى.
(٥) انتضلتْ: تَبارتْ وتسابقتْ بالنبال ومثلها: تناضَلَ.
(**) يقال إن أول من دخل الصين من المسلمين رجل من الصحابة يدعى (وهاب بن رغشة) سافر إليها بعد الهجرة، ونشر هناك الدين الحنيف.
(٦) البَرايا: الخَلْق جميعاً. مفردها: بَريَّة..

فقد طارحَ (البوسفورُ)[١] مصرَ تحيةً أضاءتْ لَها في جانبيها قصورُها
وشاهدَ أهلوها من الأفقِ نُورَهُ ولاح لأهليهِ من الأفقِ نُورُها
وقامَ فتاها يُنطِقُ الوُرْقَ سجْعُه وقد هزَّ عِطْفيهِ إليها هديرُها[٢]
بصادحةٍ لا يُطربُ القومَ غيرُها وهل أنا للأشعارِ إلّا جَريرُها؟[٣]
ترفُّ قوافيها إذا هي أقبلتْ تزفُّ معانيها إليكَ سطورُها
وما قدَّمَ الماضينَ أنَّ زمانَهمْ تَقدَّمَ إن بذَّ الجيادَ أخيرُها[٤]

❁ ❁ ❁

وقال يمدحُ الجناب العالي الخديوي، ويهنئهُ بعيدِ جلوسهِ السعيدِ على الأريكةِ الخديوية لسنة ١٩٠٣:

[من الطويل]

شكوتُ هواها فاشتكَتْني إلى هَجْرِ وقد غلبَ الأمرانِ فيها على أمري
وبتُّ ولا مِنْ حيلةٍ غيرَ أنني أرى الذكْرَ يُصْبيني فأصبو إلى الذكرِ[٥]
مهَاةٌ لعينيها تغزَّلْتُ في المهى وما غزَلي في سحرهنَّ سوى السحرِ
وأعشقُ فيها الشمسَ والبدرَ والذي يُشبِّهُهُ العشاقُ بالشمسِ والبدرِ
وما مضَّني[٦] إلا جفاها ولحظُها فإنَّ كلا السيفينِ أغمدَ في صدري
تراءتْ لنا بالقصرِ يوماً فلم تزلْ ترفرفُ نفسي بعدَ ذاكَ على القصرِ
وراحتْ وقد صدَّتْ وبين قلوبنا مسافةُ ما بينَ الوصالِ إلى الهجرِ
فقاسمتُها قلبي وقلتُ لعاذلي لها شطرُها مما قسمتُ ولي شطري
وأنفقتُ أيامي كما أسرفتْ يدي جواداً بمالي في هواها وبالعمرِ
ولمَّا تلاقينا ومالتْ تجافياً كما تحذرُ الورقاءُ جارحةَ الصقرِ[٧]

---

(١) هو المضيق الشهير الذي يفصل مدينة اسطمبول إلى قسمين: قسم في آسيا، وقسم ثانٍ في أوروبا.
(٢) الوُرْق: جمع ورقاء، وهي الحمامة. وسجْعُه: ترجيع صوته. وهديره، تردُّده في حَنجرته.
(٣) قوله «جريرها» نسبةً إلى جرير، الشاعر الأموي، المعروف.
(٤) بَذَّ: غلَب وتفوَّقَ. ومعنى البيت: لا فضل للماضين بما سَبَقوا إليه؛ فقد يفوقهم من تأخر عليهم بإبداع جديد أعظم مما توصلوا إليه.
(٥) الصبوةُ إلى الشيء: الميل والهوى. ويُصْبيني: يُميلني ويَشُدُّني.
(٦) مضَّني مَضّاً ومَضيضاً: آلمني وأحْزَنني. ومنه المَضَض.
(٧) «جارحة الصقر»: انقضاضُه على فريسته. والجارح صفة للصقر وغيره من الطيور الجارحة.

شددتُ على قلبي يدي، ويدُ الهوى تُقلِّبه بينَ الضلوعِ على جَمْرِ
وقلتُ لها أَبقي على الودِّ ساعةً لعلَّ لنا في الغيبِ يوماً ولا ندري
فقالتْ: أغيرُ (العيدِ) يومٌ لشاعرٍ؟ بِحسْبِكَ يومُ العيدِ يا قمرَ الشعرِ!
فقمتُ وقد أبصرتُ قصْدي ولم أزلْ بفكريَ حتى أشرقَ الفجرُ من فكري
وعنديَ من أشتاتِ ما في كنوزِهِ قلائدُ شتى من نظيمٍ ومن نَثْرِ
(أعبَّاسُ) إنْ لم يَبْتدِرْ مدحَكَ الورى فلا نطقَتْ لُسْنٌ بمدحكَ لا تجري[1]
على أنكَ استغنيتَ عن كلِ مادحٍ بآثاركَ الغَرَّا وأيامكَ الغُرِّ[2]
وأسديتَ لي ذا الشعرَ حتى كأنما لقطتُ نفيسَ الدرِّ من ساحلِ البحرِ
ولم يكُ مدحي غيرَ أوصافكَ التي هي الزهرُ إن يعبقْ مديحيَ كالعِطْرِ
وإنَّ رخيصاً كلُّ قولٍ وإنْ غلا لمَسْلِكِ بلادٍ تُرْبهُنَّ من التِّبْرِ
جرى النيلُ فيها حاكياً نَيلَ كَفِّه وهل في الورى من يَعْدِلُ البحرَ بالنهرِ؟
فأغرَوا بهِ (الخزّانَ)[3] حتى لَخِلْتُهُ وصيّاً يُريهِ كيفَ يُنفِقُ بالقدرِ
وما النيلُ في مصرٍ سوى دَمِ قَلْبها إذا حفظوهُ دامت الروحُ في مِصْرِ
يفيضُ بهِ في عصرِ (عباسَ) ما ترى من العلمِ لا ما كان من نبإ الخدرِ[4]
فتى المُلكِ لا عُسْرٌ بعصركَ يُشتكَى وقد كانَ هذا اليومُ فاتحةَ اليُسرِ
تُضيءُ بكَ الأيامُ حتى كأنها دياجي الليالي قابلتْ غُرَّةَ الفجرِ

---

(١) اللُّسُنُ: جمع لِسَان. ويُجمع على أَلْسُن، وأَلْسِنة. ونلاحظ أن **الرافعي**، هنا قد أطال في حسن التخلص من الغزل إلى المدح؛ فلم يكتف ببيت واحد، أو بنصف بيت، كما كانت الحال مع الشعراء القدامى، بل استغرقَ التخلص لديه، ثلاثة أبيات. من: «فقالَتْ أغير العيد» حتى: «أعبّاسُ». وفي شرح الديوان **لمحمد كامل الرافعي**، إشارات موسعة لافتتاح الخزان، وإلى ما أبطله **عمرو بن العاص** من تقاليد أسطورية لتفادي فيضان النيل. (**ديوان الرافعي** جـ١/ ص٣٧ ـ ٣٨ حاشية (١) و(٢) وهو ما لخصته الحاشية (٤) من شرحنا هنا.

(٢) «الغرّا» تخفيف: الغَرّاء، ومعناها البيضاء، بصنيعها وجمائلها على الناس. ومثلها: «الغُرُّ» جمع: أغرُّ، وغرّاء..

(٣) قصد به أحد السدود التي أقيمت على النيل لتخزين مياهه والانتفاع بها لريّ الأراضي البعيدة.

(٤) إشارة إلى ما كان سائداً في مصر قبل الإسلام، من تقديم الناس أجملَ الفتيات، لنهر النيل، عند جفافه. فجاء الإسلام على يد **عمرو بن العاص**، فأبطلَ هذا الطقسَ الشنيع، بأمرٍ من الخليفة الراشدي **عمر بن الخطاب**، رضي الله عنه.

ويومَ تبوَّأتَ الأريكةَ سطَّروا معاليَ هذا الشعبِ في صُحفِ الفخرِ
رأوكَ فتًى فوقَ الملوكِ عزيمةً وشتانَ ما بينَ العصافيرِ والنسرِ
على حِلْمِ عُثمانٍ وهيبةِ حيدرٍ وعدلِ أبي حفصٍ وعزمِ أبي بكرِ (١)
فدُمتَ مُرَجًّى في نبيِّكَ مُهنِّئاً دوامَ جلالِ البدرِ في الأنجمِ الزُّهرِ (٢)

❁❁❁

يمدح إنسان الزمان، وشرفَ الإنسان فضيلة الأستاذ العظيم، والفيلسوف العليم، الشيخ محمد عبده، مفتي الديار المصرية حفظه الله(*):

[من الكامل]

لو كنتِ راضيةً رعيتِ وفائي بعدَ العواذلِ فيكِ والرقباءِ
خالقتهنَّ غداةَ علَّمني الهوى أنَّ النساءَ ضرائرُ الحسناءِ
يا ظبيةَ الوعسَا وهل بعثَ الجوى في القلبِ إلا ظبيةَ الوعساءِ؟(٣)
كلتا يديَّ يدٌ تكفكفُ أدمعي ويدٌ أشدُّ بها على أحشائي
ولكم ملأتُ الليلَ شجواً ظنَّه الـ ـعُذَّال شدْوَ حمامةٍ ورقاءِ
حتى تلثَّمتِ النجومُ وساقطتْ عينُ الظلام مدامعَ الأنداءِ(**)
فجرَتْ على خد الصباح يَراعتي وتعلَّقتْ بكواكب الجوزاءِ
فنظمتُها مدْحَ (الإمام) وإنه لأجَلُّ مَن يُهدىٰ إليه ثنائي
(يا عبدُهُ) والدهرُ في غُلَوائه وبنوه ما كفُّوا من الغُلَواءِ(***)
مُرْ ذا الزمانَ تُظِلّنا أفياؤه وَسِمِ الليالي باليد البيضاءِ

---

(١) الحِلْم: العقل الواسع، وعثمان، هو ثالث الخلفاء الراشدين: عثمان بن عفّان (رض) وحيدر، لقب علي بن أبي طالب، وأبو حفص، كنية عمر بن الخطاب، وأبو بكر، هو أبو بكر الصديق، رضي الله عنهم وكرّمهم.

(٢) مُهَنِّئاً: مقدِّماً ما يَهْنأ به الإنسانُ من جميل العطاء. ويلاحظ القارئ أن مقدّمة الغزل في قصيدة المدح هنا، ناهزت نصفَ القصيدة، مما جعل المدح موضوعاً ثانياً ولم يكن رئيساً.

(*) لم ترد القصيدة كلها في الطبعة البيروتية.

(٣) الوعساء: الأرض اللينة ذات الرمل، تُنبت البقول الجيدة. مذكرها: الأوعس.

(**) مما نذكره فكاهةً، أنَّ قدماء اليونان كانوا يعتقدون آلهة اسمُها (اورور)، أي الفجر. فزعموا أنه قد كان لها ولد يدعى (ممنون) فذهب لإعانة الملك (ابريام) في حرب مدينة (تروادہ) فقتله (آشيل) وبكت عليه أمه زمناً طويلاً، فكانوا يقولون أن دمعها هو الندىٰ.

(***) غُلَواءُ الدهر: غلوُّه في نكبة أهله.

لولاكَ كان الدهر بؤساً كُلُّه والدهرُ يوماً شدةٍ ورخاءِ
مُغْضٍ، ولولا أن تهابَك نفسُه لَهوَتْ صواعقُه على البؤساءِ
أَذْكَيْتَ للشِّرْكِ البيانَ فذرَّه والنار لا تُبقي على الحَلْفاءِ[١]
وأريتَنا الخُلَفاءَ فيك وإننا لنقولُ عنك: خليفةُ الخُلَفاءِ[*]
من مبلغ الدنيا بأنك مَجْدُها والدينِ، أنك مُرْغِمُ الأعداءِ؟
كشفتْ لكَ الأشياءُ عما أبطنَتْ حتى اجتلَيْتَ بواطِنَ الأشياءِ
يا واحدَ الدنيا المضيءَ على الورى كالشمس جاءك واحدُ الشعراءِ
لمَّا رآه الناس يَمدحُ حاتماً نظروا إليه فلقبوه الطائي[**]

❁ ❁ ❁

وقال يمدحُ سلطانَ اليراعِ، وإمامَ البيانِ بلا نزاعٍ، سعادةَ محمود باشا سامي البارودي حفظهُ اللّهُ:

[من الكامل]

مرَّتْ لياليها ولمَّا تَرْجِعِ فالعينُ إنْ هَجعَ السُّها لم تَهجعِ[٢]
أيامَ تهتفُ بي المهى ويَغِرْنَ إنْ ذكروا حنيني للغزالِ الأَتلعِ[٣]
وأرى تحيتهنَّ في جيبِ الصَّبا وسلامَهنَّ مع البروقِ اللمَّعِ
زمنٌ بهِ كانَ الزمانُ يهابني وحوادثُ الأيامِ ترهبُ موضعي
ينظرنَ مني قيصراً في قصرِهِ ويخفنَ من همي عزيمةَ تبَّعِ[٤]
في حينَ لا العَبراتُ تَكْلُمُ أعيني حُزناً ولا النيرانُ تَكْوي أضلعي[٥]

---

(١) الحلفاء: نبتٌ أطرافُه محددة كأطراف سعف النخل. ينبت في مغايض الماء.
(*) الخلفاء: هم الأربعة الراشدون، رضي اللّه عنهم وعنا بهم.
(**) حاتم: هو كريم طيّئ المشهور. الذي لم تَمْحُ اسمَه الدهور. وأخباره في الكرم لا تعد، بل لا يعدل به غيره في ذلك. والطائي: هو أبو تمام (حبيب بن أوس) الشاعر الكبير المشهور. وكان واحد عصره في شعره. واحتجاجُ صاحبنا على أنه واحد الشعراء، من أبدع ما يسمع.
(٢) السُّها: كوكب صغير من مجموعة بنات نعشٍ الكبرى.
(٣) الأتلعُ: الطويلُ العُنقِ والقامةِ... كناية عن الجمال.
(٤) القيصر: لقب ملك الروم، وكسرى، لقب ملك الفرس.. وتُبّع. أحد ملوك العرب قبل الإسلام. وكان ملكاً على اليمن الذي حكمه عدد من التبابعة. بينهم حسّان بن أسعد، وتُبّع بن حسّان..
(٥) تكلُم: تجرح: من الكَلْم: الجَرْحُ والجُرْح، ج: أكلام وكُلوم.

وبلوتُ من ظلماتِ يونس ليلةً فنسختُ آيتَها بآية يوشَعِ[*]
يجري الهوى طرباً على آثارِها مشيَ الجآذر للغديرِ المترعِ[1]
ظمآن لا ترويهِ إلا عَبْرةٌ أو مهجة هطلتْ[2] بجنبَيْ مولعِ
حسبوه غصناً في الثياب وزهرةً تحت القميصِ ووردةً في البرقعِ
أمسيتُ من آمالهِ في ليلةٍ ضلَّ الصباحُ بها طريقَ المطلعِ
تشكو نجومُ الليلِ أنّي رُعتُها ومتى تُرَوَّعُ أنّةُ المتوجِّعِ؟
وكأنها إذْ أحدَقتْ في جانبي حسبتْ هلالَ سمائِها في مضجعي
غُرٌّ (كمحمودِ) السريرةِ إنْ دَعا زهراً كغرتهِ المضيئةِ إنْ دُعي[3]
لو أنصفوها لاستبانوا أنها حبَّاتُ ذياكَ القريضِ المبدعِ[4]
عرفوا بهِ شعرَ الفحولِ وأهلَه وسجيةَ المطبوعِ والمتطبعِ
فلوَ انَّ عَمْراً أسمعوهُ حماسةً لحَمَا به الصمصامُ إن لم يقطعِ[5]
أو أنشدوا المجنونَ بعضَ نسيبهِ لنسي به ليلىٰ فلمْ يتفجّعِ[6]
لم أتلُ يوماً آيةً من آيهِ إلّا حسبْتُ الكونَ يتلوها معي[7]
وأراهُ أحيا للبلاغةِ دولةً مات ابنُ بُردٍ دونها والأصمعي[8]

(*) يونس هو ذو النون عليه السلام المرادُ بقوله تعالى: ﴿وذو النون إذْ ذهبَ مُغاضِباً فظَنَّ أنْ لن نقدر عليه فنادى في الظلمات﴾ الآية.. ويوشعُ هو ابن نون، صاحب موسى عليهما السلام. وقد سقط هذا البيت، أو أسقط من طبعة دار الكتب الثقافية، في بيروت، كما أسقط غيره من أبيات وقصائد، مما نشير إليه في حينه.

(١) الجآذر، ج: جؤذر. صغير الظباء. والمُترَع: الملآن.

(٢) هطلتْ، نزفت دموعاً داخلية. استعارة رائعة.

(٣) في البيت تكلُّف بيِّن، وسوء أداء، والتباس في المعنى، ناهيك بسوء مخْلصه من الغزل إلى المدح، مع أنه أي الشاعر، في صدد مدح شاعر كبير، يقتضي معه الانسياب الشعري الجميل.

(٤) الضمير في «أنصفوها» عائد إلى غُرّة الممدوح. والقريض: الشعر.

(٥) هناك غير شاعر فارس يدعى عَمْراً، منهم عمرو بن كلثوم التغلبي، وعمرو بن معدي كرب، وعمرو بن الشريد؛ ونرجح الأول لقوة سيفه وشهرته في قطع رأس عمرو بن هند. والصمصام، من أوصاف السيف.

(٦) المجنون: لقب قيس بن الملوّح الذي جُنَّ بحب ليلى، فلقِّب «مجنون ليلى».

(٧) جعل شعر البارودي صنيعاً معجزاً، فنسبَ إليه صفة الآية التي هي علامة كبرى من علامات الخَلْق.

(٨) ابن برد، هو بشّار، الشاعر العباسي المخضرم... والأصمعي، هو عبد الملك بن قُريب. راوية الشعر المعروف ولد ومات في البصرة سنة ٢١٦هـ/ ٨٣١م. ويلاحظ الدارس أن نسبة المدح هنا بلغت ثلث أبيات القصيدة أي: اثنا عشر بيتاً للغزل وثمانيةٌ للمدح..

وأبيكَ لولا مكرُماتُ بيانِهِ ... ما كانَ في إحيائها من مطمعِ

❁❁❁

وقال يمدح الشيخ عبد المحسن الكاظمي(١):

[من الكامل]

لكَ أن تَشا وعليَّ أنْ لا أجزَعا ... وليَ الهوى وعليك أن تتمنعا

ما الحبُّ إلّا أن تكونَ مملَّكاً ... ونَذِلَّ يا ملكَ القلوبِ ونَخضعا

زعمَ الوشاةُ بأنني لك صارمٌ ... أو ما رأيتَ لكلِ واشٍ مصرعا؟(٢)

ولوَ انَّ حبلَ هوايَ كان مقطَّعاً ... ما باتَ قلبي في هواكَ مقطَّعا

غادرتُ عيني لو يُفَرِّقُ سُهدُها ... في الناسِ ما باتَ العواذلُ هجَّعا

وأمنتُ أن أهوىٰ سِواكَ فرُعتَني ... حتى أمِنتُ عليكَ أن تتوجَّعا

لا تَمضِ في هذا الدلالِ فإنما ... أهوى دلالَكَ أن يكونَ تصنُّعا

إني ليَقتلُني الصدودُ فكيفَ بي ... وأرى صدودَكَ والنوى اجتمعا معا؟

فسَلِ الدجى(٣) عني تُنَبِّئكَ الدجىٰ ... واسألْ عن العينينِ هذي الأَدمعا

وأَصِخْ لشعري إن رحمتَ فلم يزلْ ... شعري يحنُّ إليكَ حتى تسمعا

أمسى بحسنكَ مُولَعاً وخُلقتَ لا ... تَهوىٰ الذي يُمسي بحسنك مولَعا

لو لم أَزِنْهُ بمدحِ (عبد المحسن) (م) ... المولى(*) لما باهىٰ الدراريَ لمُعّا(٤)

ملكَ البيانَ ومن غَدا في أهله ... فذَّ المشارقِ والمغاربِ أجمعا

---

(١) عبد المحسن الكاظمي، من شعراء العراق.. ولد في بغداد سنة ١٨٦٥، ونشأ في الكاظمية وإليها انتسب. كان يلقب بشاعر العرب الأكبر، كما عدّه بعضهم ثالث اثنين: الشريف الرضي، ومهيار الديلمي. توفي في مصر الجديدة، بضواحي القاهرة سنة ١٩٣٥م.

(٢) استخدم «صارم» بمعنيين: الأول: القاطع، صفة للسيف؛ والثاني، قاطع العلاقة. وهي من توريات الشاعر اللطيفة. وقد سمّاها شارح الديوان، محمد الرافعي: الاستخدام «وهو إطلاق لفظ مشترك بين معنيين، ثم يؤتى بلفظين يفهم من أحدهما أحد المعنيين، ومن الآخر المعنى الآخر. فإن لفظة (صارم: مشتركة بين معنى الهاجر والسيف، وقد أريد المعنيان جميعاً. والفرق بين الاستخدام والتورية أن الاستخدام إرادة المعنيين، وأما التورية فإرادة أحدهما» (ديوان الشاعر بشرح الرافعي جـ١/ ٤٢ حاشية (٢)).

(٣) الدجى، جمع دُجْيَة: الظلمة. وتُجمع على دياجي.

(*) المولى من أعظم الألقاب في العراق، لا يطلق إلّا على أكابر الأئمة: ولهذا استعمل هنا. فإن الممدوح من العراق وهو فخره وزينته.

(٤) الدراري: ج: الدُّرّي. نسبةً إلى الدُرّ. وهي النجوم اللوامع.

نثَروا على تاجِ الزمانِ قريضَهُ ... فغدا به تاجُ الزمانِ مرصَّعا

ولَوَ انَّ للعُرْبِ الكرامِ عقودَهُ ... ما عطَّلوا في البيتِ منها موضعا(*)

يا كوكبَ الفَلَكِ الذي آياتُه ... تأبىٰ على كل (امرئٍ) أن يطمعا

عَدُّوا أكاسرةَ القريضِ ثلاثةً ... ولقد أراهمْ أصبحوا بكَ أربعا(١)

سلْ ذلكَ الغِطريفَ ماذا يدَّعي ... لو أدركتْه مروِّعاتُك ما ادعى(٢)

أوَ ما تركتَ السابقينَ إذا جرَوا ... ومشيتَ هوناً دونَ شأوكَ ظُلَّعا؟(٣)

ولقد أطاعَتْكَ الكواكبُ مثلما ... كانتْ ذكاءُ وقد أطاعتْ يُوشَعا(٤)

وسطَا على الشعرِ الزمانُ وغالَهُ ... فحفظْتَ ما غالَ الزمانُ وضيَّعا(٥)

وأريتَنا من سِحْرِ بابلَ أعيُناً ... تُجري علينا البابليَّ مشعْشَعا(**)

تركتْ فؤادَ الدهرِ يخفقُ صبوةً ... وحنينَ أهلِ الخافقَيْنِ مُرَجَّعا

فإذا تلَوْها أصغَتِ الدنيا لها ... حتى كأنَّ لكلِ شيءٍ مَسْمعا

وسجعتَ في مصرٍ وملكُ الشعرِ في ... مصرٍ إذا اشتقتَ العراقَ لتسجعا(٦)

(*) كان العرب في الجاهلية يقول الرجلُ منهم الشعر في أقصى الأرض، فإن استُحسنَ رُويَ، وعُلِّق على ركن من أركان الكعبة حتى يُنظر إليه..

(١) لم يوضح الشاعر من هم الثلاثة الأول في الشعر. والأرجح أنهم: **امرؤ القيس، والمتنبي، وأحمد شوقي**. وجعلهم شارح الديوان. ثلاثة هم: **أبو تمام والبحتري والمتنبي**.

(٢) قصدَ به **المتنبي** الذي لم يَر فوقه أحداً من الشعراء وغير الشعراء. والغطريف: السيد الكريم، والمتكبِّر المُختال.

(٣) **الظُّلَّعُ**: واحدها: ظالعٌ، وهو الذي به عرَج في مشيته. و«ظلَّعاً» حال «للسابقين إذا جرَوْا» في صدر البيت.

(٤) **ذُكاء**: اسمٌ من أسماء الشمس، ممنوع من الصرف لعلميَّته. ولا تعرَّف.
ويوشع هنا هو أحد الأنبياء الذين عاشوا في زمن **موسى** عليه السلام، ويدعى يوشع بن نون بن أفرائيم بن يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن **إبراهيم الخليل**. وقد أُمر بالسير إلى أريحا، مدينة الجبارين، وفَتْحها. فدخلها يوشع وقتل منها خلْقاً كثيراً، وبقيت بقية «وقاربت الشمسُ الغروب، فخشي أن يدركهم الليل، فيُعجزوه، فدعَا اللّه تعالى أن يَحْبس عليهم الشمسَ، ففعلَ وحبسها حتى استأصلهم». (انظر **الكامل في التاريخ**، لعز الدين بن الأثير، دار بيروت، بيروت سنة ١٩٨٢، جـ١/ ص٢٠٠ ـ ٢٠٢).

(٥) غالَ واغتال، بمعنى: هو القتل والإبادة.

(**) بابل: بلد في العراق، إليه ينسب السحر والخمر، ويقال قصيدة فلان: عينُ شعره، أي أحسنه. وشعشَعَ بالثلج والراح بالماء: مزجهما.

(٦) مَلِكُ الشعر في مصر، كناية عن أمير الشعراء **أحمد شوقي** المتوفى سنة ١٩٣٢م.

مـا زلـتَ تـذكـرُهـا الـفـراتَ ودجـلـةً ... حتى بكى النيلُ السعيدُ وما وعى
فاجعلْ لمدحي منْ قبولكَ موضعاً ... واجعلْ لشعري في بيانكِ منْزَعا
إنـي إذا أرهـفـتُ حـدَّ يـراعـتـي ... لم تلقَ في الشعراءِ غيريَ مُبْدِعا

❁ ❁ ❁

وقال يمدحُ فضيلةَ عمه الأستاذ الأفضلِ، العالِمِ الأكملِ، الشيخِ عبدِ الحميدِ أفندي الرافعي[1]، ويُهنئهُ بإسنادِ قضاءِ المدينةِ المنورةِ إليه، على ساكنِها أفضلُ الصلاةِ والسلامِ، من لدن أميرِ المؤمنينَ أعزهُ اللّهُ وأيدهُ وأعزَّ به الإسلامَ والمسلمينَ:

[من الطويل]

أتتكَ القوافي ما لها عنكَ مَذهبُ ... فـأنـتَ بـهـا بَـرٌّ وأنـتَ لـهـا أبُ
وما وَجدتُ مثلي لها اليومَ شاعراً ... أياديكَ تُمليها عليَّ فأكتبُ[*]
وهلْ كلساني إن مدحتُك مبدعٌ ... وهل كبياني ساحرٌ حين أنسِبُ؟[2]
دَعِ الشعرَ تقذِفْهُ من البحرِ لُجَّةٌ ... إليكَ ويُلقيهِ من البَرِّ سَبْسَبُ[3]
فإنْ يَمَّمَ الغُرُّ الميامينُ (مكةً) ... حَجيجاً فهذي كعبةُ الشعرِ (يثربُ)[4]
طلعتَ عليها طلعةَ البدرِ بعدما ... تَجلّلها من ظُلمةِ الظلمِ غيهبُ
بوجهٍ لوَ انَّ الشمسَ تنظرُ مرةً ... إليهِ لكانتْ ضحوةُ الصبحِ تَغرُبُ
فجلَّيتَ عنها ما أدلَهمَّ وأبرقتْ ... أساريرُ كانتْ قبلَ ذلكَ تقْطُبُ[5]

---

(١) هو الشاعر الطرابلسي اللبناني عبد الحميد بن عبد الغني بن أحمد الرافعي. الملقب: بلبل سوريا. احتفل جمهرةٌ من الكتاب والشعراء به وهو في السبعين من عمره، وألقيت خطب وقصائد جُمعت في كتاب: «ذكرى يوبيل بلبل سورية». له أربعة دواوين شعرية معظمها مطبوع. عاش ما بين ١٨٥٩ و١٩٣٢م.

(*) الأيادي، جمع يد وهي النعمة، أما الجارحة فهي أيدي.

(٢) أنسب: أي أقول النسيب، وهو ضرب من ضروب الغزل يتحدث فيه الشاعر عن لواعج القلب حيال المحبوب.

(٣) السَّبْسَبُ: الأرض الواسعة لا ماء فيها. ج: سَبَاسِب.

(٤) جعل المدينة المنورة كعبة الشعر بعد أن حلّ بها «والغُرُّ الميامين هم المؤمنون وقد وُصفوا بالغُرِّ المحجّلين أيضاً. ويثرب اسم مدينة الرسول ﷺ سميت بأول من سكنها من ولد سام بن نوح. قال ابن الأثير: يثرب اسم مدينة النبي ﷺ قديمة. فغيَّرها وسماها طيبة، وطابة، كراهة التثريب، وهو اللّوم والتعيير».

(٥) أسارير الوجه، هي خطوط تتجمع وتنبسط وفقاً لحالتي الحزن والفرح.

وهـل كـنـتَ إلا ابْـنَ الـذي فـاضَ بِـرُّهُ   عـليها كـما انْـهلَّ الـغمامُ وأعـذَبُ؟(*)
فـكـنْ مثلَـهُ عَـدْلاً وكـنْ مثلَـهُ تُـقًى   وصـنْ لـبنـيـه مـا يَـدُ الـدهـر تَـنـهـبُ
سـمـا بـكَ أصـلٌ طَـبَّـقَ الأُفْـقَ ذكـرُهُ   وسـارتْ بـهِ الأمـثالُ فـي الأرضِ تُـضْـرَبُ
وقـومٌ هـمُ الـغـرُّ الـكـواكـب كـلـمـا   تَـغـيَّـبَ مـنـهـمْ كـوكـبٌ لاح كـوكـبُ
وهـم مـعـشَـرُ الـفـاروق مـن كـلِّ أغـلـبٍ   نـمـاهُ إلـى لـيـثِ الـعـريـنـةِ أغـلـبُ(١)
حـفـظـتَ لـهـم مَـجْـداً وكـان مُـضـيَّـعـاً   وأبـقـيـتَ فـخـراً كـادَ لـولاكَ يَـذهـبُ
ونـالـكَ فـضـلُ الـلّـه والـمَـلِـكُ الـذي   أرى كـل مَـلْـكٍ دونـهُ يـتـهـيَّـبُ
إذا ذَكَـروهُ كَـبَّـرَ الـشـرقُ بـهـجـةً   وإنْ لـقَّـبـوهُ أَكْـبـرَ الـشـرقَ مـغـربُ
يُـصـدِّعُ قـلـبَ الـحـاسـديـن وإنـهُ   إلـى كـلِّ قـلـبٍ فـي الـورى لَـمحـبَّـبُ(٢)
ويـرضـي رعـايـاهُ فـيُـردي عـدوَّهُ   ومـا زالَ فـي الـحـالـيـنِ يُـرجى ويُـرهـبُ
حـبـاكَ بـهـا غَـرَّاءَ يَـفْـتَـرُّ ثـغـرُهـا   وكـنـتَ لـهـا بـعْـلاً وغـيـرُكَ يَـخـطـبُ
وكـم أمَّـلَـتْـهـا أنـفـسٌ فـتـحـجَّـبَـتْ   وبـنـتُ الـعُـلا إلّا عـنِ الـكُـفْـءِ تُـحْـجَـبُ
سـمـوتَ إلـيـهـا مـا وَنَـيْـتَ وقـد أرىٰ   ذوائـبَ قـومٍ دونـهـا تـتـذَبـذبُ(٣)
فـطِـرْ فـوقَـهـا مـا الـعِـزُّ عـنـكَ بـمُـبْـعَـدٍ   وفـضـلُ أمـيـرِ الـمـؤمـنـيـنَ مـقـرَّبُ
كـأنـي بـربِّ الـروضـةِ الـيـومَ بـاسـمـاً   وصـدِّيـقُـهُ يُـزْهـىٰ وجَـدُّكَ يُـعْـجَـبُ(٤)
ويـشْـرِبُ مـمـا أدركـتْ مـن رجـائـهـا   بـمـقـدمـكَ الـمـيـمـونِ بـاتـتْ تُـرَحِّـبُ

❁ ❁ ❁

(*) يريد سيدنا عمر بن الخطاب، رضي اللّه عنه؛ فإنه الجد الأكبر لهذه الأسرة الشريفة، والأصلُ لهذه الدوحة الباسقة بارك اللّه فيها.
(١) إشارة صريحة إلى الشجرة الرافعية المنتسبة إلى الخليفة العادل عمر بن الخطاب.
(٢) يُصدِّع.. يشقُّ ويُقطِّع.
(٣) سموتَ إلى ما أنت فيه من مهمّة شريفة عالية؛ لم تضعف ولم تَتراخ، بينما تراقصتْ رؤوس غيرك واضطربت لأجلها.
(٤) ربُّ الروضة، صفةٌ لرسول اللّه ﷺ، والصّديق، صفة الخليفة الراشدي أبو بكر.. «وجدُّك» عمر بن الخطاب.

في الوصف

قالَ يصفُ القرى وفجرَها والعيشَ فيها:

[من الوافر]

دُموعُ الفجرِ هذي أم دموعي ... تَرَقْرَقُ بينَ أجفانِ الربيعِ؟

مُصَفَّقةٌ كصافيةٍ جلاها ... بأكؤُسِه الخليلُ على الخليعِ[1]

وهنَّ منَ الأزاهرِ في شفاهٍ ... كما تحلو اللُّمى بعدَ الهجوعِ[2]

وثديُ الروضِ درَّ على جَناهُ ... درورَ المرضعاتِ على الرضيعِ

ومدَّ الليلُ أنفاساً عِذاباً ... كأنفاسِ المليحةِ للضجيعِ

ولاحَ الصبحُ يُسْفرُ عن جَبينٍ ... عليه الشمسُ حاليةُ السطوعِ[3]

وقدْ بكَرتْ لتملأَ جَرَّتَيْها ... فتاةُ الريفِ كالرشأِ المَرُوعِ

فورَّدتِ الطبيعةُ وجنتيها ... ونضَّرَ وجهَهَا الحُسْنُ الطبيعي

تروحُ وتغتدي والزهرُ يرنو ... إليها في الذهابِ وفي الرجوعِ

وثغرُ النهرِ يبسِمُ عن لُمَاها ... وإنْ لم تشفِ ريقتُهُ وَلُوعي[4]

وتخبرنا النسائمُ عن شذاها ... كما تروي الهواجر عن ضُلوعي[5]

مُكَحَّلَةٌ ولا كُحلٌ ولٰكنْ ... سَلِ الظبْياتِ عن ذاكَ الصنيعِ

وقد مَدَّتْ حواجبَها شَراكاً ... وطيرُ الرَّوحِ دانيةُ الوقوعِ[6]

---

(١) الصافيةُ، صفة الخمر. والمصفَّقة، التي اختلطت بغيرها ومُزجت وصُبَّت في الكأس. والخليع: المنهمك في الشراب. والخليل، هو النديم في الشراب.

(٢) اللَّمى، السُمرة في الشفاه. ومنه قولهم: لمياء وألمى، جمع: لُمي.

(٣) حالية السطوع: كأن الشمس على جبين الصبح، عقودٌ من المَصاغ الذهبي الساطع.

(٤) اللُّمى (بالضم) لغةٌ في اللَّمى (بالفتح)، وهو سواد الشَّفة أو سُمرتها.

(٥) الهواجر، ج: هاجرة: شدة الحر في منتصف النهار. استعارها لأنفاسه التي تتلظى بين ضلوعه، من شدَّة الهيام.

(٦) الشَّراكُ: حبالةُ الصيد، وصوابُها: الشَّرَك (بفتح الراء وحذف الألف) تجمع على أشْراك وشُرُك. والدوح، غابة من الشجر الكثيف الملتفّ. واحدته: دَوْحَة.

أراهـا إنْ تـكـنَّـفَـهـا حِـسَـانٌ كـنُـورِ الـكـهـربـاءةِ فـي الـشـمـوعِ[١]
وتُـحـجَـبُ حـيـنَ تُـخْـفِـيْ الـشمـسُ لـكـنْ تُـسـابِـقُ أخـتَـبـهـا عـنـدَ الـطـلـوعِ
فـيـا قـلـبُ اغـمـصِ كـلَّ هـوًى سِـواهـا ويـا نـفـسـي سِـواهـا لا تُـطـيـعـي
فـذاكَ الـحُـسْـنُ لا مـا تَـشـتـريـهِ ضـرائـرُهـا مـن الـحُـسْـنِ الـمَـبـيـعِ[٢]
ومـا تَـحْـوِي الـمـدائـنُ غـيـرَ بِـدْعٍ وإن حـسـبـوا الـتـبـدُّعَ كـالـبـديـعِ[٣]
فـقـد حَـسُـنـتْ هـنـالـكَ كـلُّ أنـثـى كـأنَّ الـحُـسْـنَ قُـسِّـمَ فـي الـجـمـيـعِ[٤]
يُـدَمِّـمْـنَ[*] الـخـدودَ وأيُّ عـيـنٍ تـحـبُّ الـخـدُّ يُـصـبـغُ بـالـنـجـيـعِ
وكـم شـفَّـعْـن ذاكَ الـحـسْـنَ لـكـنْ مـتـى احـتـاجَ الـغـوانـي لـلـشـفـيـعِ؟
وهـلْ تـقـفُ الـقـلـوبُ عـلـى قَـوامٍ كـأنَّ ذيـولَـه قِـطَـعُ الـقُـلـوعِ؟[٥]
فـمـا لـي والـمـدائـنُ مـا تـراهـا مـدافـنُ مـا بـهـنَّ سـوى صـريـعِ؟
وهـل كـانَ الـتـمـدنُ فـي بـنـيـهِ سـوى مـا يَـفـعـلـونَ مـن الـفـظـيـعِ[٦]؟
وهـل أبـصـرتَ بـيـنَ الـقـومِ طُـرًّا سـوى رجـلٍ مُـضـاعٍ أو مُـضـيـعِ؟
فـهـذا بـاتَ فـي شِـبَـعٍ وريٍّ وذلـكَ مـاتَ مـن ظـمـإٍ وجـوعِ
وأحـلـى مـن أولـئـكَ فـي عـيـونـي بِـأريـافِ الـقُـرى نـظـرُ الـقـطـيـعِ[**]

(١) تكنّفها: أحاط بها. وهنا بمعنى الحضور والاختلاط.
(٢) دعوة صريحة إلى الحفاظ على الجمال الطبيعي، وتجنُّب كلِّ جمالٍ مصنوع، مما تقوم به نساء المدن. والضرائر، واحدتها: ضُرَّة، إحدى الزوجتين. شبه نساء المدن حيال طبيعة القرية وحسناء القرية، بالضرائر.
(٣) البدع (بالكسر) بمنزلة الضلال. وليس فيه من البَدْع الحقيقي شيء.
(٤) هنالك، أي في القرى.
(*) دمَّمتِ المرأةُ خدَّها: صبغته بالأحمر. والنجيعُ: الدمُ.
(٥) القُلوع: أشرعة السفن والزوارق، واحدها: قِلْع.
(٦) الأمر الفظيعُ: المستعظَمُ الشنيع.
(**) سلكَ في هذا مَسْلَكَ ميسون بنت بحدل، في تفضيل البداوة، ونرى من واجب الأدب أن نذكر أبياتها هنا:

لَـبَـيـتٌ تـخـفـقُ الأرواحُ فـيـه أحـبُّ إلـيَّ مـن قـصـرٍ مـنـيـفِ
ولُـبْـسُ عـبـاءةٍ وتـقـرُّ عـيـنـي أحـبُّ إلـيَّ مـن لـبـس الـشـفـوفِ
وأكْـلُ كُـسَـيـرةٍ فـي كِـسْـرِ بـيـتـي أحـبُّ إلـيَّ مـن أكـل الـرغـيـفِ
وأصـوات الـريـاح بـكـل فـجٍّ أحـبُّ إلـيَّ مـن نـقـر الـدفـوفِ

الخ.. (شرح ديوان الرافعي جـ١/ ٤٩ حاشية (١)).

وأنَّ الأمرَ تُمضيهِ فستاةٌ ... لَخيرٌ من فتًى غِرٍّ جَزوعِ[1]
وما شَظَفُ المعيشةِ في هَناءٍ ... تقرُّ بهِ سوى العيشِ المريعِ
فلو مزجوا ببعضِ الهمِّ ماءً ... لصارَ الماءُ كالسمِّ النقيعِ
ولو أنَّ الرواسيَ كنَّ تِبْراً ... لما كانَ الغِنَىٰ غيرَ القُنوعِ
أرى ذا الليلَ قدْ خفقتْ حَشاهُ ... وبيَّضَ عينَهُ نزفُ الدموعِ
أكبَّ يُرىٰ لهُ كبداً تنزَّى ... زجاجتُها منوَّعةُ الصدوعِ[2]
وأبصرَ بعدَ ذلكَ من قريبٍ ... جيوشَ الصبحِ تمرحُ في الربوعِ
فخلَّىٰ ما تَمَلَّكَهُ وولَّى ... كما فَرِقَ الجبانُ من الجموعِ[3]
وكنتُ مُخَبَّأً في جانبيهِ ... فيا شمسُ اكتميني أو أذيعي

❁❁❁

وقال يصفُ الأصيلَ، وإقبالَ الليلِ، ونضرةَ الرياضِ، وتغريدَ الطيورِ، ثم استطردَ من ذلكَ إلى ما يخطرُ على قلبِه، وعارضَ بها النابغة الذبياني على غير طريقة الجاهلية[*]:

[من الكامل]

ثوبُ السماءِ مطرزٌ بالعسجدِ ... وكأنها لبست قميص زبرجدِ[4]
والشمسُ عاصبةُ الجبينِ مريضةٌ ... تصفرُّ في منديلها المتورِّدِ
حسدتْ نظيرتَها فأسقمَها الأسى ... إنَّ السقامَ علامةٌ في الحُسَّدِ
ورأتْ غبارَ الليلِ ينفضُ فوقها ... في الأفقِ فانطبقتْ كعينِ الأرمدِ
ومضى النهارُ يشقُّ في أثوابِه ... حُزناً وأقبلَ في رداءٍ أسودِ
فتهلَّلتْ غررُ النجومِ كأنما ... كانتْ لضاحيةِ السماءِ بمرصدِ[5]

---

(١) الفتى الغِرُّ: الجاهل الذي غلب عليه طيشُ الشباب. والجَزوع: الذي يخافُ.. الكثيرُ الجَزَع.

(٢) لم نَر وجْهاً لنصب «كبداً». فهي في موقع نائب فاعل لـ «يُرى». والكبدُ المُنَزَّاةُ: المتوثِّبةُ من الخَفَق. والصدوعُ والتصدُّعُ: التشقق والانكسار.

(٣) فَرِقَ، فَرَقاً: جزعَ واشتدَّ خوفُه.

(*) قصيدة النابغة المعارضة، هي التي يقول في مطلعها:

أمِنَ آلِ ميَّةَ رائحٌ أو مغتدِي ... عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مزوَّدِ

(٤) العَسجد: الذهب الخالص. والزبرجد: حجر كريم كالزمرّد.

(٥) ضاحية السماء، رمز إلى الشمس التي تتصدر كبد السماء أثناء النهار.

وكأنها عِقْدٌ تناثرَ دُرُّهُ من جيدِ غانيةٍ ولم تستعمِدِ
أَوْ حَلْيُ ربَّاتِ الدلالِ أذلْنه شتى يروحُ على النهودِ ويغتدي[١]
والأفقُ بينَ مُفَضَّضٍ ومُذَهَّبٍ كالجيدِ بينَ معطَّلٍ ومقلَّدِ[٢]
وكأن صفحةَ بدرِه إذْ أشرفتْ مصقولةَ الخدينِ، صفحةُ أمردِ
وكأن ضوءَ الفجرِ رونقُ صارمٍ نُضِيَتْ صحيفتُهُ ولمَّا تُغْمَدِ[٣]
والأرضُ في حُلَلٍ كسَتْ أطرافَها إلا معاصمَ نهرِها المتجرِّدِ
حفَّتْ جوانِبَهُ الرياضُ كأنها وشْيُ الفِرِنْدِ على غِرارِ مهنَّدِ[٤]
وكأنه صدرُ المليحةِ عارياً ما بين لَبَّتِها وبين المَعْقِدِ[٥]
وكأن أثوابَ الرياضِ من الصَّبا عبقَتْ بأنفاسِ الحسانِ الخُرَّدِ[٦]
يمشي النسيمُ خلالَها مترنِّحاً بينَ الغديرِ وبينَ ظلٍّ أبردِ
والطيرُ مائلةٌ على أوكارِها منها مغرِّدةٌ وغيرُ مغرِّدِ
باتتْ تناغي لا تحاذرُ فاجعاً مما نكابدُ في الزمانِ الأنكدِ[٧]
يا طيرُ ما في العيشِ إلا حسرةٌ إنْ خلتَها نقصَتْ قليلاً تَزْدَدِ
لم يمنعِ القصرُ المشيدُ ملوكَهُ منها، فكيفَ وَقَاكَها الغصنُ الندي؟
تَأبى على الأحرارِ إلا ذلَّةً ولَوَ أنَّهم صعِدوا مدارَ الفرقدِ
فانعمْ بوَكْرِكَ إنه لك جُنَّةٌ كالخُلْدِ لولا أنتَ غيرُ مُخَلَّدِ

---

(١) أذَلْنَه: أرسَلْنه. وهو من ذال: صار له ذيلٌ، أو طال ذَيْلُه.
(٢) الجيد المعطَّل: الذي لا حُليَّ فيه، والمقلَّدُ: الذي نَعِمَ بالقِلادة.
(٣) الصارم: صفة للسيف القاطع. نُضِيتْ: سُلَّتْ ولم توضع في غِمْدها..
(٤) الفرند: ما يُلمح في صفحة السيف من أثر تموّج الضوء. وغرار المهنّد، واحدها: غِرٌّ: حَدُّ السيف..
(٥) اللَّبَّةُ: موضع القلادة من العنق. والمعْقد، موضع عقد الزنار في الخَصْر.
(٦) الخرد: جمع خريدة، وهي اللؤلؤة غير المثقوبة. كنّي بها عن المرأة الجميلة العذراء..
(٧) قال **محمد كامل الرافعي**، [حدثنا الناظم، قال: أنشدتُ شيخَ الشعراء سعادة **محمود باشا البارودي** هذه القصيدة، فلما بلغتُ هذا البيت قال: إنها تحاذر الصقر. فقلت ما بلغ من علمنا أن الطيور إذا تناغت على أوكارها، وقد بسط الليلُ جناحيه، تبيت تُحاذر الجوارح إلَّا أن تكون عُلِّمَتْ منطق الطير] (**ديوان الرافعي** جـ١/ ٥١ حاشية: ٣). نقول، إنه لا ضرورة لتعلُّم منطق الطير، لأنَّ الطير ككلِّ حيوان، يباتُ محاذِراً كلَّ خطر داهم؛ لذلك يختار الأوكار الآمنة. ولم نر وجهاً لاستغراب **البارودي**، من قول **الرافعي**، على حدِّ ما جاء في حاشية الطبعة المصرية.

كم واجدٍ منا تقاذفَ قلبَهُ ... ذاتُ الدلالِ، فإن دنا هو تَبْعُدِ[1]
فتَّاكةُ الألحاظِ أنّى يمَّمَتْ ... سمعتْ زفيرَ متيَّمٍ متنهِّدِ
كالبدرِ، لولا أنها إنسيَّةٌ ... والشمسِ، لولا أنها لم تُعْبَدِ
قالتْ عشقتَ وما قضيتَ كمن قضَوْا ... هذا الطريق إلى الردى فتزودِ
دعْ عنكَ أمرَ غدٍ إذا ما خفْتَهُ ... يوماً، لعلكَ لا تعيشُ إلى غدِ
فلقد أراكَ اليومَ من أثرِ الهوى ... كالشمسِ إن لم تحتجبْ فكأنْ قَدِ[2]

❁ ❁ ❁

وقال في الأيام الخالية ولياليها ورياضها:

[من المتقارب]

أما حدَّثوك بأخبارِها ... وقدْ نَزَلَ البينُ في دارِها؟
ليالي (امرؤُ القيسِ) بينَ الخيامِ ... يُباهي السماءَ بأقمارِها[*]
فما لكَ تَذكرُ تلكَ الديارَ ... وما لكَ تبكي لتذكارِها؟
وبينَ الضلوعِ قلوبٌ عفَتْ ... وضنَّ الغرامُ بآثارِها
قلوبٌ فزِعْنا بها للدموعِ ... فما أطْفأَ الدمعُ من نارِها
تَهزُّ لها الغانياتُ القدودَ ... إذا ما تناجتْ بأسْرارِها
ألا فرَعَى اللّهُ تلكَ القصورَ ... وحلَّى السماءَ بأنوارِها
يسبسيت يحنُّ لها جارُها ... وإنْ لم تَحِنَّ إلى جارِها
قصورٌ تُدِلُّ بأيامِها ... دلالَ الرياضِ بآذارِها[3]
إذا طلعَ الصبحُ حيثُ ذكاءُ ... شموساً توارتْ بأستارِها[4]
تكادُ لِرقَّةِ سُكّانِها ... تَردُّ السلامَ لزوّارِها

---

(١) الواجد: الذي أصابه الوجد، وهو مرتبة عالية من الحب.

(٢) أي: فكأنها قد احتجَبتْ. فحذف مَقُولَ «قد» للدلالة عليه. «والمعنى: أراك من أثر الهوى، وهو الصفرة التي تمسحُ وجه العاشق، كالشمس ساعة مغيبها، إنْ لم تكن قد احتجبتْ، (فكأن قد احتجبتْ) لقرب موعدها» (ديوان الرافعي جـ١/ ٥٢ حاشية: ١).

(*) هو أبو وهب أو أبو الحارث امرؤ القيس بن حجر الكندي، إمام شعراء الجاهلية بالإجماع، وحامل لوائهم، وهو أول من فتح للشعراء باب البيان، ومات قبل النبي ﷺ بثمانين سنة تقريباً.

(٣) آذار: أحد شهور الربيع الأولى.

(٤) ذكاء: اسم علم للشمس.

هُمُ علَّموها اجتذابَ القلوبِ ... وشقَّ مرائرِ نُظَّارِها
وقد سامحتْها خطوبُ الزمانِ ... وضنَّتْ عليها بأكدارِها
ودارتْ بمعصمِها كالسوارِ ... رياضٌ تَسامَتْ بأسوارِها
تُحاكِي المجرَّةَ أنهارُها ... وتحكي النجومَ بأزهارِها
كساها الشتاءُ ثيابَ الربيعِ ... وزَرَّتْ[1] عليها بأزرارِها
إذا اعتلَّ فيها نسيمُ الصَّبا ... حِ ناحتْ بألْسُنِ أطيارِها
وإنْ طلبَ الظِّلَّ فيها الهجيرَ ... تأبَّتْ عليهِ بأشجارِها
وإنْ حلَّ فيها النَّدامى رأَوْا ... ليَاليَها مثلَ أسحارِها[*]
ودَبَّ النسيمُ لعيدانِهم ... فباتتْ تنوحُ بأوتارِها
وأنْسَتْهُمُ معبداً والغريضَ ... وشَدْوَ القِيانِ بأشعارِها[2]
وأهلَ البضيعِ وذكرى حبيبٍ ... وشدَّ المطيِّ بأكوارِها[3]
سقتها السماءُ بما تشتهي ... وجادتْ عليها بأمطارِها

❁ ❁ ❁

وقال في الخمر ومجلسها وآثارها:

[من المنسرح]

مِلْ بي عنِ الوَرْدِ واسقني القدَحا ... فوَرْدُها من خدودِكَ افْتُضِحا
وقد شكا للنسيمِ خجلَتَهُ ... فحينَ مرَّ النسيمُ بي نَفَحا[**]

---

(1) زرَّتْ بالأزرار: أدخلتِ الأزرارَ في عُراها. استعارة مكنية معبِّرة عن التداخل العضوي لعناصر الرياض بعضها ببعض.

(*) يقال، في الأماكن المعتدلة الهواء: ليلُها كلُّه سَحَرٌ، ونهارُها كلُّه غداة.

(2) مَعْبد بن وَهْب، كبير مُغنّي العصر الأموي، كان مولى يرعى الغنم في المدينة، ولمّا نبغَ في الغناء، رحل إلى الشام واتصل بالبلاطات. حفلت كتب الأدب القديمة بأخباره، وبخاصة كتاب الأغاني. وكانت وفاته سنة ١٢٦هـ/ ٧٤٣م.

وأما الغريض، ويدعى عبد الملك، فهو أحد الموالي الذين سكنوا مكة المكرمة. غنّى لسكينة بنت الحسين، وعزف على غير آلة عربية، ولقّب «الغريض» لجماله ونضارة وجهه، وتوفي سنة ٩٥هـ/ ٧١٣م.

(3) البضيع (بفتح الباء وكسر الضاد، أو بضمها وفتح الضاد) جبل بالشام، قيل إنَّ السيد المسيح عليه السلام، أشرف منه على غوطة دمشق. (معجم البلدان، لياقوت جـ١/ ص٤٤٣ ـ ٤٤٤).

والأكوار، في البيت، مفردها كُور: الرَّحْلُ بأداته، ويجمع على كِيران.

(**) نفح الطيب، إذا فاح. وخجلةُ الورد: احمراره، وهذا من حسن التعليل.

وقُمْ بنا نَصطبحْ معتَّقةً واسمحْ بها فالزمانُ قد سمَحا
كأنها فرحةٌ على كَبِدٍ تنفُضُ عنها الهمومَ والترحا
فاجْلُ بها النفسَ إنها صدِئَتْ وآسِ بها القلبَ إنهُ قُرِحا
وقلْ لمن لامني على سَفَهٍ ما ضرَّنَا أنْ نابحاً نبَحا[1]
أما ترى الدَّنَّ قد جرى دمُهُ كأنه من لحاظِك انجرحا؟
يمجُّ راحاً كأنَّ شُعلتَها تحتَ الدياجي شعاعُ شمسِ ضحى
أخفُّ عندي ممنْ ضنيتُ به رُوحاً وأخفى من الضَّنا شبحا
وإن تسرَ الهمَّ قاتلاً فَرحي فانظرْ لها كيفَ تبعثُ الفرحا؟
الفجرُ ما كادَ ينزوي حزَناً في الأُفقِ حتى رآكَ فانشرحا
والطيرُ قد كانَ فوقَ منبرِهِ عَييّاً فلما سَكَبْتَهَا صَدَحا
والفلُّ والياسمينُ مِن حَسَدٍ كلاهما فوقَ غُصْنِهِ انطرحا
تنافسا في الجمالِ آونةً فحينما لاحَ وجهُكَ اصطلحا

❁❁❁

وقال فيها أيضاً:

[من السريع]

زُفَّتْ ولمَّا يفترغها المِزاجْ كما تُزفُّ البكرُ عندَ الزواجْ[2]
فهلَّلَ الشَّرْبُ سُروراً بها وكَبَّر الديكُ وصاحَ الدجاجْ
كأنهم رهبانُ في بِيعةٍ[3] قد أوقدوا في كل كأسٍ سراجْ
كأن حاسيها المريضَ ارتمى على سريرٍ يتعاطى العلاجْ
كأننا إذ نحن صرعى بها فرسانُ حربٍ صُرِعُوا في العَجاجْ[4]
من كَفِّ حَوْرَاءَ غُلاميَّةٍ مفعمةِ الحِجْلَيْنِ خَوْدٍ رَجاجْ[5]
شكَّ فؤادي لحظُها وانثنى فلم يَزلْ من لحظِها في انزعاجْ

---

(١) في عجز البيت خلل عروضي يزول إذا أضفنا كلمة «بها» فتصبح القافية. [بها نَبَحا].
(٢) فَرَعَ البِكْرَ وافترعَها؛ فَضَّها. شبَّه مخالطةَ الماء للخمر، بالافتراع، وهو صورة حسيَّة بديعة.
(٣) البيعةُ: معبد النصارى. جمعها: بِيَعٌ.
(٤) العَجاج، الغبار أو الدخان. واحدته: عَجَاجة.
(٥) الحِجْل: الخلخال. والخَوْد: الشابة الجميلة، جمعها خُود وخَوْدات. والرَّجاج: المهتزَّة طرباً.

يُـبـصِـرُهـا مـن خـلـفِ أضـلاعِـه ... كـأنـمـا يُـبـصـرُهـا مـن زجـاجْ[١]

❁ ❁ ❁

وقال فيها وهي من أولِ قوله:

[من السريع]

هـاتِ اسـقـنـيـهـا والـدجـىٰ سـاحـبٌ ... ذيـلَ الـصَّـبـا كـالـمسلِـكِ الأشـوسِ

واقـبـسْ لـنـا مـن نـارهـا جَـذْوةً ... تَـثـورُ بـالـنـخـوةِ فـي الأرؤسِ

قـد شَـبَّـهـا[٢] الـلـيـلُ لـمـن يـهـتـدي ... فـصـبُّـهـا الـفـجـرُ لـمـن يـحـتـسي

كـالـخـدِّ والـدمـعِ ولـكـنـهـا ... لـيـسـتْ مـن الـوردِ ولا الـنـرجـسِ

وعـاطِـنـي والـروضُ مـن حُـسـنِـه ... يـرقـصُ فـي الأطـلـسِ[٣] والـسـنـدسِ

❁ ❁ ❁

وقال فيها:

[من الخفيف]

يـا غـلامُ ارْقُـبِ الـفـجـرَ حـتـى ... يَـتـجـلَّـى فـنـادِنـي لـلـمُـدامِ[٤]

بـيـنَ شـمـسٍ تـدورُ فـي كـفِّ بـدرٍ ... وعـيـونٍ مـن الـزهـورِ نـيـامِ[٥]

تـترامـى بـهـا الـصَّـبـا عـن يَـمـيـنـي ... ويـسـاري، وتـنـثـنـي مـن أمـامـي

وإذا مـا شـربـتَ خـدَّيـهِ فـامـلأْ ... واسـقـنـيـهـا كـخـدِّهِ يـا غـلامـي

وأدِرْهَـا تُـرَوِّنـي، فـلَـوَ أنـي ... غـيـرُ مـضـنًى سـكـبْـتُـهـا فـي عـظـامـي

واطْـرحِ الـهـمَّ لـلـعـواذِلِ حـتـى ... يـقـضـيَ الـلّـهُ بـيـنـنـا بـسـلامِ

❁ ❁ ❁

---

(١) لم يؤتَ الشاعرُ ملكة الإبداع في القصيدة، فبدتْ عليها الكُلفة، ولم تطاوعه القافية، بينما حفلتْ القصيدةُ (الحائية) السابقة بقدْر من الصور البيانية الجميلة. فيما عدا البيت الأخير من القصيدة، الذي قال فيه شارح الديوان: «هذا البيت مما لم يُسبق إليه الشاعر. ولا أحسن من تشبيه الضلوع التي أضناها الهوى، بالزجاج لأنه شفّاف سريع الكسر، وقد قيل إنَّ القلوب تتشاهد، فإذا كان تعليل المشاهدة كما هنا، كان ذلك غاية في الإبداع» (**ديوان الرافعي** جـ١/ ٥٦ حاشية: ٢).

(٢) الشَّبُّ والشُّبوبُ: التوقد والاشتعال.

(٣) الأطلس، هنا كناية عن العالم الجغرافي الطبيعي.

(٤) في صدر البيت خلل عروضي واضح. وباقي الأبيات مستقيمة. والمُدام، من أسماء الخمر.

(٥) شبه الخمر بالشمس، لضيائها وتألقها، وشبَّه الغلام الذي يحملها أو يسقيها، بالبدر، وشبَّه الشُّرب من حولها بالزهور المطمئنة من أثر النشوة الحالمة.

وقال فيها:

[من المتقارب]

تَجنّى الحبيبُ فقالوا غَضِبْ وتاهَ دلالاً فقالوا اجتَنبْ
ألا دَعْهُمُ ذاكَ بدرُ السما إذا ما أضاءَ السماءَ احتجبْ
وهذي عروسُ الصَّبا أقبلتْ تزفُّ إلينا عجوزَ الحقبْ(١)
فقمْ فاجلُها إنَّ بنتَ الضحى تخافُ أشعةَ بنتِ العنبْ
ولا تأمنِ الماءَ يخلو بها فيُولدَها من بَناتِ الحَبَبْ
وكمْ غشَّني حينَ عاملْتُهُ فمِزْ بَينَ فضَّتِهِ (والذَّهَبْ)
وإمَّا دعانِيَ داعي الصَّبا ومالت بعِطْفِيَ أمُّ الطربْ(٢)
فقل لخطيبِ الرياضِ ارتجلْ فإنَّ خطيبَ الهوى قد خطَبْ(٣)
وللصبحِ يبدي تباشيرَهُ ويروي الهنا عن إمامِ الأدَبْ

❁ ❁ ❁

وقال يصف القمر وجمال وقعه ويخلص إلى بعض الحكم:

[من المتقارب]

زهتهُ المَلاحةُ حتى سَفَرْ وخلّى الدلالَ لذاتِ الخَفَرْ
وباتَ يسامرُ أهلَ الهوى وقد طاب للعاشقينَ السَّمَرْ
يُحَدِّثُنا عن بني عُذْرةٍ ويروي لنا عن جَميلٍ خَبرْ(٤)
وليلى وعنْ حُبِّ مجنونِها وعمَّنْ وفَى للهوى أو غَدَرْ

---

(١) عجوز الحقب: صفةٌ أو اسم من أسماء الخمر. وصفتْ بذلك لعِتقها. فيقال للخمر إذا عتقتْ: عجوزٌ. والحِقَب، مفردها: حِقْبَة: مدةٌ من الدهر.

(٢) العِطْفُ: الجانب. ج: أعطاف. وأمُّ الطرب: كناية عن الخمر لما تحدثه في شاربها من تثنٍّ وترنُّم.

(٣) خطيب الرياض، كناية عن البُلبل أو ما يشبهه في التغريد.

ومن الضروري هنا، لفتُ النظر إلى التكلّف البادي في الصنعة الشعرية، وإلى ضعف التجربة الشعورية واستخدام بعض الألفاظ مكرَّرةً في كل قصيدة، وبخاصة **الصِّبا** (بالفتح والكسر) لا فرق... فلو أحصينا مواقع ورود هذه اللفظة في ديوانه، لبلغ ذلك مئات المرات.

(٤) بنو عُذرَة: قبيلة من قبائل العرب اشتهرت بالعشق العفيف، وإليها يُنسبُ الحب العُذري. أما جميل فهو جميل بن معمر صاحب بثينة، وقد اشتهر بعشقه لها. **والمجنون** - في البيت التالي، هو صاحب **ليلى العامرية؛ قيس بن الملوّح**.

ويُــذكِــرُنَــا فَــعَــلاتِ الــردى بــأهــلِ الــبــوادِي وأهــلِ الــحَــضَــرْ
كــحــظِّ الــســعــيــدِ إذا مــا ارتــقــى وحــظُّ الــشــقــيِّ إذا مــا انــحــدرْ
أرى كــلَّ شــيءٍ لــه آيــةً وآيــةُ هــذي الــلــيــالــي الــعِــبَــرْ
فــيــا قــمــرَ الأفــقِ مــاذا الــزمــان جــيــلٌ تــخــلــى وجــيــلٌ غــبــرْ[١]
ويــومٌ يــمــرُّ ويــومٌ يَــكُــرُّ فــآنــاً نُــســاءُ وآنــاً نُــسَــرْ
بــربِّــكَ هــل بــالــدجــى لــوعــةٌ؟ فــإن غــابَ عــنــهُ ســنــاكَ اعــتــكــرْ
كــغــانــيــةٍ فــارقــتْ صَــبَّــهــا فــأرخــتْ عــلــيــهــا حــدادَ الــشَّــعــرْ[٢]
إذا مــا ســهِــرْنَــا لِــمَــا نــابَــنــا فــمــا لــلــنــجــومِ ومــا لِــلــســهــرْ؟
أتَــرْثــي لــمــن بَــاتَ تــحــتَ الــدجــى يــقــلِّــبُ جــنــبَــيْــهِ حَــرُّ الــضــجــرْ؟
عــلــى لــوعــةٍ يــصــطــلــي نــارَهــا وحَــرُّ الــهــوى فــي حــشــاه اســتــعــرْ!
وقــد بــســطَ الــبــدرُ فــوقَ الــثــرى بــســاطــاً فــنــامَ عــلــيــه الــزهَــرْ
إلــى أن طــوتْــهُ يَــمــيــنُ الــصَّــبَــا وقــدْ بــلَّــلَــتْــهُ عــيــونُ الــســحــرْ
وبــاحَ الــصــبــاحُ بــأســرارِه فــحــجَّــبَــتِ الــشــمــسُ وجــهَ الــقــمــرْ(*)

❁ ❁ ❁

وقال يصفُ الصورَ المتحركةَ المعروفة (بالسنوغراف)[٣] وهي من أولِ قوله:

[من السريع]

كــيــفَ فــؤادي والــهــوى شــاغــلُ يَــهــيــجــهُ الــمــنــزلُ والــنــازلُ
مــا زلــتُ أُخــفــيــهِ وأُخــفــى بــهِ فــي الــنــاسِ حــتــى فــضــحَ الــعــاذِلُ
فــعــادَنــا الــمَــطْــلُ وعُــذْنَــا لــهُ زُحْــمَــاك فــيــنــا أيــهــا الــمــاطــلُ[٤]!
كــلُّ امــرئٍ أيــامُــهُ تَــنــقــضــي لا أمَــلٌ يَــبْــقَــى ولا آمِــلُ

---

(١) قوله: «ماذا الزمان» أي: (ما هذا الزمانُ)؟ و«غبَر»: قَدُمَ حتى أضحى من الغابرين.
(٢) الصَّبُّ، العاشق المشُوقُ. وحداد الشَّعر، كناية عن السواد.
(*) قال الناظم، إنه لم يصف القمر في هذه القطعة، إلّا بما يناسب الغرض الذي كان في نفسه يومئذٍ.
(٣) ما يتعلّق بصناعة السينما وفنها التصويري.
(٤) المَطْلُ: الإخلافُ بالوعد. والماطل: المُخلِفُ، الحانِث بوعده.

ومـا (الـسـنـوغـرافُ) ومـا مَـثَّـلَـتْ إلَّا الـصـدى يـنـقـلُـه الـنـاقِـلُ
تُـبـعَـثُ فـيـهـا أُمَـمٌ قـدْ خَـلَـتْ وتُـجْـتَـلَـىٰ فـي (لـنـدنٍ بـابـلُ)(*)
كـم مَـثَّـلَـتْ مـن طـلـلٍ مـاثـلٍ فـكـادَ يَـحْـيَـا الـطـلـلُ الـمـاثـلُ
كـأنَّ فـيـهـا لـلـهـوى مـنـزلاً فـكـلُّ قـلـب عـنـدهـا نـازلُ
تـلـهـو بـه عُـطْـبُـولـةٌ خـاذِلٌ وقـد بـكَـتْ عـطـبـولـةٌ خـاذلُ(١)
وعـانـقَ الـعـاشِـقُ مـعـشـوقَـهُ فـاجـتـمـعَ الـمـقـتـولُ والـقـاتـلُ
يـا ويـحَ نـفـسـي، هـلْ رُؤىٰ نـائـمٍ أم خَـطْـرَةٌ ظـنَّـهـا غـافـلُ
لا تُـضْـحِـكُ الـجـاهـلَ فـي نـفـسِـه إلَّا بـكـى فـي نـفـسِـه الـعـاقـلُ
مـواعـظٌ مـثـلُـهـا هـازِلٌ وربَّ جـدٌّ جـرَّهُ الـهـازلُ(٢)
تـزولُ مـن بـعْـدُ إلـى عِـبْـرَةٍ وكـلُّ شَـيءٍ غـيـرَه زائـلُ(**)
وهـكـذا الـدنـيـا انـتـقـاصٌ ومـا يـكـونُ فـيـهـا فـرحٌ كـامـلُ(٣)

❁ ❁ ❁

وقال يصف الساعة وانعكاساتها في النفس والذاكرة:

[من المنسرح]

تَـضْـرِبُ كـالـقـلـبِ شَـفَّـهُ الـسـقَـمُ كـأنَّ فـيـهـا الـهـمـوم تـصـطـدمُ
ذاتُ مـحـيـا أَظَـلُّ أقـرأ مـن خُـطـوطِـهِ مـا يَـخـطُّـهُ الـقـلـمُ

(*) لندن عاصمة البلاد الإنكليزية، وبابل هي البلدة التي يُنسب إليها السحْرُ والخمر، واختلفوا في حدّ موضعها. ويقال إن أول من سكنها نوح عليه السلام، وهو أول من عمَّرها. وقال بعضُهم إنَّ الذي بناها هو (بيوزا سيف) الجبار، واشتق اسمها من اسم المشتري، لأن بابل باللسان البابلي الأول، اسم للمشتري.

(١) العُطْبُلُ والعُطْبولُ: المرأة الفتيَّة الممتلئة والطويلة العنق، في اعتدالٍ وحُسْنٍ. والخاذِلُ: المتأخرة عن سرْبها. وهي هنا بمعنى المتراخية الكسول.

(٢) الهازل: القائم بتمثيل دور من أدوار المسرح، هزلاً كان أو جدّاً، نسبة إلى المِهْزلة: المسرحية الهازلة.

(**) سقط البيتُ من طبعة بيروت، أوْ أُسقط. ومعناه: «كل شيء غيره» أي غيرَ اللّه تعالى، وكل من عليها فانٍ، ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

(٣) هذا البيت صدى وتذكار لبيت طرفة بن العبد في معلَّقته الداليَّة: «لخولة أطلالٌ»:

أرى العيشَ كنزاً ناقصاً كلَّ ليلةٍ وما تَنْقُصِ الأيام والدهرُ يَنْفَدِ

(شرح ديوان طرفة، بقلم د. سعدي ضناوي، دار الكتاب العربي، بيروت سنة ١٩٩٤/ ص١٠٦).

تُذكِرُني ما يَمُرُّ من عُمُري فكلّ يومٍ يجدُّ لي، ندَمُ
وليسَ إمّا سَعَتْ عقارِبُها يَدِبُّ في غيرِ مهجتي الألمُ
ولا إذا عجّلتْ فجائِعُها في غير ضيقِ القلوبِ تزدحمُ
ما إنْ تُراعي لأهلِها ذِمماً إن رُعِيَتْ عند أهلِها الذِّمَمُ[1]
وما أراها سوى الزمان، أمَا يَدورُ فيها النعيمُ والنِّقَمُ؟
يا أختَ ذاتِ البروجِ هل حَجَبتْ طوالِعَ السعدِ هذه الظُّلَمُ؟
وهلْ تعودُ الجُدُودُ ثانيةً من بعد هذا العبوسِ تبتسِمُ[2]؟
ما أثبتَ الهمَّ في الصدورِ إذا أمستْ ليالي الحياةِ تنهزمُ!

❁ ❁ ❁

وقال في وردةٍ وادعة أضرَّ بها حسدُ الأزهار:

[من مجزوء الخفيف]

وردةٌ هَبَّ في الريا ضِ على الفجرِ طِيبُها
عانقَتْها الصَّبا كما ضمَّ خَوْداً حبيبُها[3]
فرَمَتْها من الزهو رِ عيونٌ تَريبُها[4]
تركَتْها من الضحى في هموم تنوبُها[5]
ثم جفَّتْ عروقُها وتجافتْ جنوبُها[6]
وشكتْ في الهجيرِ من زفراتٍ تُذيبُها
فدعا روضُها الأصـ ـيلَ فوافى طبيبُها
وشَفَاها بنسمةٍ كان طبّاً هُبُوبُها[7]

(١) الذِّمم، واحدها: ذِمّة: العهد والأمانة.

(٢) الجُدود، مفردها: جَدٌّ: الحظُّ. ومن معانيها أيضاً: أبو الأب أو الأم، والرزقُ، والمنزلة بين الناس الخ...

(٣) الخَوْدُ: المرأة الشابّة الجميلة. شبّه هبوب النسيم العليل على الوردة، بعناق المرأة الريّانة لحبيبها.

(٤) تريبُ: تبعث فيها الرِّيبة. أي الظنونَ السيّئة.

(٥) تنوبُها: تنتابها، تُصيبها.

(٦) الجنوبُ: ريح الجنوب.

(٧) الطِّبُّ: العلاج. والطَّبُّ: المعالج الرفيق.

ساءلت عن مُصابها فتنادىٰ يُجيبُها
ليسَ تخلو مليحةٌ من عيونٍ تُصيبُها[1]

❁ ❁ ❁

وقال ساخراً من شبان اليوم ولا سيما هندامهم الأنثوي:

[من الوافر]

أرى عجباً إذا أبصرتُ قومي وما تخلو من العجبِ الدهورُ
صعاليكَ[2] إذا ما ميَّزوهم وكلٌّ في عشيرتِهِ أميرُ
ومن يكُ أعوراً والقلبُ أعمى فكلُّ الخلقِ في عينيهِ عورُ
فيا للَّهِ أيُّ فتىً أراهُ كما انعطفتْ بشاربِها الخمورُ؟
كأنَّ قوامهُ غصنٌ ولكنْ تَفَتَّحَ فوق عُرْوَتِهِ الزهورُ
كأنَّ ثيابَهُ شُدَّتْ عليهِ كما لَبِسَتْ من الريشِ الطيورُ
فتحسَبُ قدَّهُ فيهنَّ خَصْراً وتَخْسُنُ في (المشدَّاتِ) الخُصورُ
كأنَّ الحَلْيَ يَبْرُقُ في يديهِ لتَكْمُدَ مِن تلألُئِه النحورُ
ألَا أبقُوا الحجابَ على الغواني قد اشتبه الحمائمُ والصقورُ[3]

❁ ❁ ❁

---

(١) إشارة صريحة إلى ما يسمَّى إصابة العين. وقد حضَّ الحديث النبوي على الرُّقْية منها إذا لم يُعرف صاحبها، أو أن يَغْتسل صاحبُ العين إن هو عُرف. ومن هذه الأحاديث: «**العَيْنُ حقٌّ**». و«**استعيذوا باللّه، فإنَّ العينَ حقٌّ**». وهذا الحديث: «**أعوذ بكلمات اللّه التامَّة، من كلِّ شيطان وهامَّة، ومن كل عين لامَّة**». وغير ذلك الكثير. (انظر صحيح سنن ابن ماجه جـ٢/ ٢٦٤ ـ ٢٦٨).
وعلَّق شارح الديوان **محمد الرافعي** على هذا البيت وما سبقه من أبيات قائلاً: «انظر يا رعاك اللّه، إلى الوردة كيف تفتحت في فجر هذا الشعر، ثم هبت عليها صَبا هذه السلاسة، فاعتنقتْها، فغارت منها الألفاظُ التي هي كعيون الزهر، فطلعتْ عليها شمس من البلاغة جفَّت لها عروقها، وتجافت جنوبها، ثم زفر عليها حرُّ هذا الكلام فكاد يذيبُها ماءً كالرضاب، فهبَّتْ عليها بسمةٌ من تلك الخطرات، أنعشَتْها، فأعلمها الشاعر أن المليحة لا تخلو من عيون تصيبُها؛ وعادت الوردةُ في الأصيل كما كانت في الفجر طيباً ونضرة. أليس هذا هو البيان؟».
(**شرح الديوان** جـ١/ ٦٢) حاشية (٣).

(٢) استخدم الشاعر «الصعاليك» بالمعنى الشائع اليوم، لا بمعناها التاريخي العريق.

(٣) الحمائمُ، رمز للنساء، والصقورُ، رمز للرجال. وفي ذلك نقمة عارمة من الشاعر الذي دعا إلى الحجاب للمرأة، لا لِسَتْر المفاتن والعورات، ولكن لتمييز المرأة من الرجل!.

وقال في حريق ميت غمرٍ(١)، مضمِّناً قصيدته كثيراً من حكم الحياة:

[من الطويل]

أَلَا لا تـلُـمْـهُ الـيـومَ أن يـتـألَّـمـا ... فـإنَّ عـيـونَ الـحـي قـد ذَرفـتْ دمـا

رأى من صروفِ الدهرِ في الناس ما أرى ... وعـلَّـمَـه الـدهـرُ الأسـى فـتـعـلَّـمـا

ولـم يـكُ مـمـنْ يـمـلـكُ الـهـمُّ قـلـبَـهُ ... ولـكـنْ أتـاه الـهـمُّ مـن جـانِـبِ الـحِـمَـى

هـنـالـكَ حـيٌّ كـلـمـا عـنَّ ذكـرُهـمْ ... تـقـسَّـمَ مـن أحـشـائِـهِ مـا تَـقَـسَّـمـا

يـمـثـلـهـم فـي قـلـبِـهِ كـلُّ لاعـجٍ ... وتـرمـي بِـهِ ذكـراهـمُ كـل مـرتـمـى

فمِن مُرسِلٍ عينيهِ يبكي، ولو جرَتْ ... مـدامِـعُـهُ بـيـن الـغَـضَـا لـتَـضـرَّمـا(٢)

ومـن واجـدٍ(٣) طـاوٍ عـلـى حـسـراتِـهِ ... ولـو أنـهـا فـي شـامـخٍ لَـتـهـدَّمـا

ومِـن ذي غـنًـى يـشـكـو إلـى الـلَّـهِ أمـرَهُ ... وقد بـاتَ محـتـاجـاً إلى النـاسِ مُـعْـدِمـا

ومـن ذاتِ خِـدْرٍ لـم تَـجِـدْ غـيـرَ كَـفِّـهـا ... نِـقَـابـاً ولـم تـتـركْ لـهـا الـنـارُ محـتـمـى

جرتْ في مـآقـيـهـا الـدمـوعُ عـفـيـفـةً ... وقد كـشـفـتْ للـنـاسِ كـفّـاً ومِـعْـصَـمـا(*)

وبـاتـتْ وبـاتَ الـقـومُ عـنـهـا بـمـعـزلٍ ... مـنـاجـيـةً ربّـاً أَبـرَّ وأرحـمـا(**)

وعـذراءَ زَفَّـتْـهـا الـمَـنـونُ فـلـم تَـجِـدْ ... سوى القبر من صهرٍ أعفَّ وأكرما(***)

فـحـطَّـتْ أكـفُّ الـمـوتِ عـنـهـا لِـثَـامَـهـا ... وهـيـهـاتَ بـعـد الـموت أن تـتـلـثَّـمـا!

ومـن والـدٍ بَـرٍّ وأمٍّ رحـيـمـةٍ ... تـنـوحُ عـلـى مـن غـالـهُ الـموتُ منـهـمـا

فـإنْ رأيـا طِـفـلاً تـجـشـمـتِ الـبـكـا ... عـلـى طِـفْـلِـهـا بـعـدَ الـرضـا، وتـجـشـمـا(٤)

---

(١) شبت النار في موضع يسمّى: **ميت غمر**، بعد ظهر الخميس أول يوم من أيار ١٩٠٢، الأمر الذي أحدث خسائر كبيرة في الممتلكات، فضلاً عن تشريد الآلاف بلا مأوى.

(٢) الغَضا وصوابه الغَضى (بالألف المقصورة): نوع من الشجر يلتهب جمره ويبقى كذلك طويلاً. واحدته: غضَاة.. و«تضرَّما» شبَّت فيه النار.

(٣) الواجد، هنا الموسر الغنيُّ، الذي انطوى كمداً على ما أصابه..

(*) قوله: «عفيفة» احتراسٌ، إذ من الجائز أن يكون مجرى دمعها لريبةٍ مثلاً.

(**) في البيت قلبٌ بين (ربّاً وأبرّ)، ومثاله قوله تعالى: ﴿وربَّك فكبِّرْ﴾.

(***) **قال عبيد بن عبد الله بن طاهر:**

لـكـلِّ أبـي بـنـتٍ يُـرجَّـى بـقـاؤهـا ... ثـلاثـةُ أصـهـارٍ، إذا ذُكـر الـصـهـرُ

فـبَـيْـتٌ يُـغـطِّـيـهـا وبـعـلٌ يـصـونُـهـا ... وقـبـرٌ يُـواريـهـا، وخـيـرُهـمـا الـقـبـرُ

(٤) في البيت حذفٌ وتكرار، حيث حُذِفت «الأمُّ» من «تجشَّمتِ البكا» دلَّ عليها (الهاء) في «طفلها» وحذف الوالد، من «تجشَّما».

وإنْ هَجَعا أرضاهما الوهْمُ في الكَرى ... وساءَهما بعد الكرى ما تَوَهما
ووالدةٌ ثكلى وزوجٌ تأيَّمت ... ومرضعةٌ حسرى وطفلٌ تيتَّما[١]
وقومٌ وراءَ الليل لا يَطْرقُ الكرى ... عيونَهُمُ إنْ باتتِ الناسُ نُوَّما
فمِنْ مُطْرِقٍ يَروي الثرى بدموعِه ... كأنَّ الثرى يشكو إليهِ من الظَّما
ومن طامحٍ للأفقِ حتى كأنه ... على العُدْمِ، يستجدي من الأفقِ أنجما
حنانَيْكَ يا رباهُ كم باتَ سيدٌ ... يَمدُّ يديهِ يسألُ الناسَ مَطْعَما
وكم مِنْ أشمِّ الأنفِ أُرغم أنفُهُ ... وما كانَ يوماً يُطرِقُ الرأسَ مُرْغماً[٢]
إذا همَّ بالتسآل أمسكَ بعدها ... حياءً فلم يَفْتحْ بمسألةٍ فَما
وكم من فتى غُلَّتْ يداهُ عن العُلا ... وقد كانَ مجدولَ الذراعين ضيغما
أتتهم وراءَ النارِ كلُّ فجيعةٍ ... تسوقُ لهمْ في (مَيْتِ غمرٍ) جَهنَّما
إذا عَصَفتْ شدَّتْ على الناسِ شِدَّةً ... فلم تُبْقِ بينَ البائسين مُنَعَّما
وإنْ زفرتْ شابَ الوليدُ لِهَوْلِها ... وكانَ خَليقاً أنْ يَشيبَ ويَهْرَما
يحومُ عليها الموتُ من كل جانبٍ ... وقد نُظِرَ الأرواحُ أقبلنَ حُوَّما
فلو كانَ يُسْتَسقىٰ الغَمامُ بمثلها ... لأغرَقَنا من صيِّبِ الغيثِ ما هَمىٰ[٣]
سلامٌ على تلكَ الديارِ وقد غَدَتْ ... طُلولاً تُناجيها الدموعُ وأرسُما
فكم طلَلٍ قد باتَ يَرْثِي لصحبِه ... ولَوْ أنَّهُ اسطاعَ الكلامَ تكلَّما[٤]
وكم منزلٍ قد باتَ قَبْراً لأهلِه ... وباتوا به جِلْداً رُفاتاً وأعظما
سلامٌ على الباكينَ مما دهاهُمُ ... على حينَ لا تُجْدِي دموعٌ ولا دِما
سلامٌ عليهم إنَّ في مصرَ عصبةً ... سِراعاً إلى دفعِ الردى أينَ خَيَّما
فكم فرَّجوا عن كل نفسٍ حزينةٍ ... (فما عبسَ المحزونُ حتى تَبَسَّما)

❁ ❁ ❁

---

(١) تأيَّمتْ الزوجةُ: صارت أيِّماً، أي فقدت زوجها، فهي أيِّمٌ وأيِّمة.
(٢) أُرغِمَ أنفُه: ذلَّ. أصلُه من الرَّغام: التراب كأنما ألصقَ أنفه بالتراب من القهر والتذلل.
(٣) أراد أن يقول: لو كان الغمام من أرواح الموتى، واستُسْقيَ الغمامُ، أغرق الناس بصيِّبه موتاً.. وهي صورة تخييلية مشغولة.
(٤) البيت صدى لبيت عنترة بن شداد واصفاً حصانه بما يشبه الإعجاز الفنّي:
لو كان يدري ما المُحاورة اشتكى ... ولكان، لو علمَ الكلامَ مُكلِّمي

في الغزلِ والنسيبِ

قال يصف سِرْباً من العصافير، ثم يَعرّج إلى سِرْبٍ من الحِسَان:

[من الطويل]

عصافيرُ يحسبنَ القلوبَ من الحبِّ فمَنْ لي بها عصفورةٌ لقطتْ قلبي؟

وطارتْ فلما خافتِ العينُ فَوْتَها أزالتْ لها حبّاً من اللؤلؤِ الرَّطْبِ

فيا ليتني طيرٌ أجاورُ عُشَّها فيُوحشَها بُعدي ويؤنسَها قربي

ويا ليتها قد عشَّشتْ في جوانبي تُغَرِّدُ في جَنْبٍ وتمرحُ في جَنْبِ!

ألا يا عصافيرَ الربى قد عشقتُها فهُبّي أعلِّمْكِ الهوى والبكا هُبّي!

أعلِّمْكِ النوحَ الذي لو سَمِعْتِهِ رَثَيْتِ لأهلِ الحب من شَغَفِ الحبِّ[1]

خُذِي في جناحيكِ الهوى من جوانحي وروحي بروحي للتي أخذتْ لبي[2]

نظرتُ إليها نَظرةً فتوجعتْ وثنَّيتُ بالأخرى فدارتْ رُحَى الحرْبِ

فمِنْ لحظةٍ يُرمَى بها حدُّ لحظِه كما التحمَ السيفانِ عضْباً على عضبِ[3]

ومن نظرةٍ ترتدُّ من وجهِ نظرةٍ كما انقلبَ الرمحانِ كعباً إلى كعبِ

فساقتْ لعيني عينُها، أيَّ أسهمٍ قذفنَ بقلبي كلَّ هولٍ من الرعبِ؟

وساق لسمعي صدرُها كلَّ زفرةٍ أقرَّ بصدري كلَّ شيءٍ من الكَرْبِ

ودارتْ بيَ الألحاظُ من كلِّ جانبٍ فمنهنَّ في سلبي ومنهنَّ في نَهْبي

فقلتُ خُدِعْنَا إنها الحربُ خدعةٌ وهوَّنَ خطبي أن أسرَ الهوى خطبي

فقالتْ: إذا لم تنجُ نفسٌ من الردى فحسبكَ أن تَهْوَى، فقلتُ لها: حَسْبِي!

---

(١) شَغَفُ الحب، إحدى مراتبه الإثنتي عشرة، كما صنّفها الثعالبي، والمرتبة هنا هي: السابعة بعد: الهوى، والعلاقة، والكَلَف، والعشق، والشعف، واللوعة.. (فقه اللغة، بعنايتنا/ ص ٢١١).

(٢) روحي (الأولى) فعل أمر من الرواح. والثانية: الروح. وهو جناس شائع في هذا المقام كثيراً، واللُّبُّ: العقل الحادُّ.

(٣) العضْب: السيف الحادُّ القاطع.

ولـي الـعُـذْرُ إمَّـا لامـنـي فـيـكِ لائـمٌ — فـأكـبـرُ ذنـبـي أنَّ حُـبَّـكِ مـن ذنـبـي

ويـا مَـنْ سـمِـعْـتُـمْ بـالـهـوى إنـمـا الـهـوى — دمٌ ودَمٌ هـذاكَ يَـصْـبُـو وذا يُـصْـبـي(*)(١)

مـتـى ائـتـلـفـا دُلاًّ ودَلاًّ تـعـاشـقـا — وإلّا فـمـا فـي رونـقِ الـحـسْـنِ مـا يَـسْـبِـي(٢)

سـلـونـي أُنـبِّـئْـكُـمْ فـلـم يَـدْرِ مـا الـهـوى — سـوايَ ولا فـي الـنـاسِ مـثـلـيَ مـن صَـبُّ(٣)

إذا شـعـراءُ الـصَّـيـدِ عُـدُّوا فـإنـنـي — لـشـاعـرُ هـذا الـحـسْـنِ فـي الـعُـجْـمِ والـعُـرْبِ

وإنْ أنـا نـاجـيـتُ الـقـلـوبَ تـمـايَـلَـتْ — بـهـا نـسـمـاتُ الـشِّـعـرِ قـلـبـاً عـلـى قَـلْـبِ

وبـي مَـن إذا شـاءتْ وصَـفْـتُ جـمـالَـهـا — فـوالـلّـهِ لا يَـبْـقَـى فـؤادٌ بـلا حـبّ

مـن الـغـيـدِ، أَمَّـا دَلُّـهـا فـمَـلاحَـةٌ — وأمـا عـذابـي فـهـو مـنْ ريـقـهـا الـعَـذْبِ

ولـم يُـبْـقِ مـنـهـا عُـجْـبُـهَـا غـيـرَ خَـطْـرَةٍ — ولا هـي أبـقـتْ لـلـحـسـانِ مـن الـعُـجْـبِ(**)

عـرضـتُ لـهـا بـيـنَ الـتـدلـلِ والـرضـا — وقـد وقـفـت بـيـن الـتـدلـلِ والـعَـتْـبِ

وأبـصـرتُ أمـثـالَ الـدُّمـى يـكـتَـنِـفْـنَـنـي — فقلت: أهذي الشهبُ أم شَبَهُ الشهْبِ؟(***)

وقـد رُحْـنَ أسـرابـاً وخـفـتُ وُشـاتَـهـا — فـعـيـنـيَ فـي سِـرْبٍ وقـلـبـيَ فـي سِـرْبِ

وقـالـت تَـجـلَّـدْ قـلـتُ يـا مـيُّ سـائـلـي — عن الحزنِ يعقوباً ويوسفَ في الجبِّ(٤)

ومـا إنْ أرى الأحـبـاب إلّا ودائـعـاً — تُـرَدُّ فـإمّـا بـالـرضـاءِ أو الـغـضـبِ

❁ ❁ ❁

(*) حدثنا الناظم ذات مرة قال: ليس العشق ما يظنونه من مليحٍ يُسْتحسنُ أو حسنٍ يُستملَح، ولكنه دم يتحرك دلالاً، ودم يتحرك غراماً. وهذا آخر رأيه فيه؛ ومن أجله قدَّمنا هذه القصيدة. (من حاشية لشارح الديوان محمد كامل الرافعي...).

(١) يصبو: يهوى ويميل... ويُصْبي، يستميلُ ويَشُدُّ.

(٢) يَسْبي: يأسِرُ، والسَّبِيُّ والسَّبيُّ: المأسور.

(٣) الصَّبُّ: العاشق الولهان.

(**) يريد أنها دائماً تتمايل من العُجب، حتى لا يرى الإنسان منها إلا خطراتٍ.

(***) هي نجمة معروفة عند الملاحين توجد دائماً في جهة الشمال. وهي آخر نجمة من ذنب الدب الأصغر، فإذا ضلوا في البحر اهتدوا بها إلى الجهة التي يقصدونها. والنكتة هنا في «الناظر» لأنه غريق في العيون، ضالٌ في بحر الجفون.

(٤) يعقوب، هو النبي يعقوب الذي قصَّ حكايته القرآنُ الكريم فذكرَ شدة حزنه على ولده يوسف، بعد مكيدة إخوته له بإبعاده عن والده، وتشريده في البلاد. بدءاً من رَمْيه في الجُبِّ حتى اعتلائه عرش مصر. والجُبّ: البئر. (راجع سورة يوسف بكاملها في القرآن الكريم).

وقال يشكو حاله مع جارة حسناء له، ويذكر القطار، وينتهي إلى بعض الحِكَم.

[من الخفيف]

جارتي هل رأيتِ مِثْلِيَ جارا كلما جنَّةُ الظلامُ استجارا؟
يَنْثني مرةً على الكَبِدِ الحَرَّا (م) ويبكي على الفؤادِ مَرارا!
فأعِيني على الأسى اليومَ وارْعَيْ بيننا الودَّ والهوى والجِوارا
كيفَ تنأيْنَ والقلوبُ بكفَّيْـ ـكِ ولمَّا تُفَكَّ هذي الأَسَارَى
كلَّ يومٍ تبلو العذابَ جديداً وهي ليستْ تُحِبُّ إلا اضطرارا
وإذا ما عَذَّبْتِ ذي العينَ بالما ءِ فكيفَ استحقَّ ذا القلبُ نارا[١]
أمهليني أذرَّ المدامعَ حيناً إنَّ في أعيني دموعاً غزارا[٢]
وبنفسي على الحبيبة عَتْبٌ مثلُ هزِّ النسائمِ الأزهارا[٣]
ليتها حينما تَجَنَّتْ ولا ذنْـ ـبٌ جنَيْنَاه تَقْبَلُ الأعذارا
كيفَ هام القطارُ حينَ رآها أتُرى، حسْنُها استهامَ القِطارا؟
ليس في قلبِه سوى الشوقِ لكنْ كتمَ الدمعَ فاستحالَ بُخارا
وإذا صاحَ صيحةَ البينِ فينا تركَ العاشقينَ طُرّاً حيَارى
سارَ يطوي جوانِبَ الأرضِ طيّاً ولوِ اسْطاعَ أن يَطيرَ لَطارا
كزمانِ الصِّبا ونومي إذا نمـ ـتُ وطيفِ الحبيبِ ليلةَ زارا
أو كمعنىً يمرُّ بالفكرِ لا ينـ ـقادُ أو مثلِ خاطري لا يُجارى
وكأنَّ البلادَ أرسلنَ منه مثَلاً راحَ بينها سيَّارا
يا شبيهَ الدجى إذا غابتِ الشمـ ـسُ انطَلِقْ سالماً وُقيتَ العِثارَا[٤]

(١) في البيت ثقل في المعنى والسياق، ولا وجه لشرح كيفية وقوع الظلم، لما لكل من العين والقلب من مسؤولية في الهوى.

(٢) ذَرَّ: لها معانٍ كثيرة، أقربها: النشر والتفريق. وذرَّ عينه بالذُّرور: كحلها بها. وأُرجِّح المعنى الأخير. أي أمهليني أكحِّل عينيَّ بالدموع! وفي صدر البيت خلل عروضي يزول لو أبدلنا «المدامع بـ(دمعي).

(٣) لم نر وجهاً للتشبيه هنا، إلّا أن يكون العتاب مُنعِشاً للقلوب كما يقال.

(٤) طاب للشاعر التشبيه المتتالي في الأبيات الأربعة المتتالية، لا لشيء إلّا لأنه لم يستقرَّ لديه الخيال الشعري إلّا بهذا التتابع، وهو بذلك يكاد يلامس الإبداع لِلَطافة ما جاء من صور مُباغتة، كزمان الصِّبا، وزيارة طيف الحبيب.

لو درى الأُفقُ أنها فيك ما أطلـ ـعَ شمسَ الضحى لئلّا تَغارا
سوفَ تأسىٰ كما أَسيْت إذا ما آنست أهلَها وتلكَ الديارا
وسرورُ الفتى غُرورٌ إذا كا نَ يرى ما يسرُّهُ مستعارا
ليتَ شعري، أنافعي اليومَ أني لا أرى كالذي ترى أشعارا؟
تحسب الناسُ أن تلوها سكارى قد حسوها وما هُمْ بسكارى
وإذا ما أنشَدْتُها الفجرَ يوماً سحرَ الفجرَ حُسنُها فاستطارا[*]
ورأيتُ النجومَ غارتْ حياءً وسمعتُ الهزارَ يُشجي الهزارا
إنْ عَدِمْنا في الناسِ مَن يُسعِدُ النـ ـاسَ فإنّا لم نَعْدَمِ الأطيارا
يا ليالي الفراق كوني طِوالاً داجياتٍ أو مشرقاتٍ قِصارا
ما لمنْ فارقَ الحبيب جفونٌ تعرفُ الليلَ بعدهُ والنهارا[1]
والذي يعشقُ الحسانَ إذا سرَّ تهُ دهراً أسأتْهُ أدهارا
والأماني يسعى لها الناسُ لكنْ أنهكَ الحظُّ دونها الأغمارا[2]

❁ ❁ ❁

وقال في الثغر وكتمان الحب:

[من مجزوء الوافر]

أرى في ذلكَ الثغرِ طِلاً وشفاهُكِ الكاسُ[3]
فإنْ جدتِ شفيتِ وإنْ بخِلتِ أمضَّني الياسُ
وأحلى الحبِّ ما كانَ ولم يعلم بهِ الناسُ

❁ ❁ ❁

(*) استطار الصباحُ، إذا انتشر ضوؤه. واستطار الرجل بالكلمة، إذا طرب لها... وإن من البيان لسحراً..

(١) أي سيَّانِ عندي طول لياليك أو قصرها، إظلامُها أو إشراقها.. فلم يعد لديَّ نظر يميّز بين الليل والنهار..

(٢) الأغمار، مفردها: غَمْرٌ، وهو الذي لم يجرّب الأمور. وجاء في طبعة مصر: «الأعمارا» بالعين المهملة.

(٣) الطِّلا والطِّلاء: من أسماء الخمر، قال الشاعر عَبيدُ بن الأبرص:

هي الخمرُ يَكْنونَها بالطِّلا كما الذئبُ يُكنى أبا جَعْدَة

(لسان العرب [طلي] ١٥/ ١١).

وقال يصف رحيل الأحبة ووقع ذلك في نفسه، مقلِّداً نهج الشعراء القدماء، كما وصف فيها القطار أيضاً:

[من الكامل]

أتُرى، زمانُكِ بالحِمَى سيعادُ ... أم طُولُ دهرِكُما نَوًى وبِعَادُ؟

سارتْ فما لبثَ الفؤادُ كأنما ... بينَ الفؤادِ وبينها ميعادُ

ودرتْ عيوني بعدَها كيفَ البُكا ... ودرى بعيني بعدَها التسهادُ

وحَسَدْتُ واشيَها إذِ استمعتْ لهُ ... فعرفتُ كيفَ تُوجِّعُ الحسادُ

للّهِ أيُّ مدامعٍ مِنْ بعدها ... تجري وأيةُ لوعةٍ تنقادُ؟

كِدْنَا نُجَنُّ وقدْ تأهَّب أهلُها ... وجُنِنتُ لما ودَّعوا أو كادُوا

لَوْ أنَّهُمْ زَمُّوا النياقَ لسلَّمتْ ... عينٌ وودَّعَ جانبيهِ فؤادُ[1]

لكنْ جرى بالبينِ فيما بيننا ... (برقٌ) لهُ في مَرِّه إرعادُ

يتخطفُ الأرواحَ والأجسادَ إنْ ... عَرَضَتْ له الأرواحُ والأجسادُ

ويُفرِّقُ الشملَ الجميعَ فإن دها ... لم يُمهلِ الأحبابَ أن يتنادوا

مَتضرِّمُ الأحشاءِ لا مِن لوعةٍ ... لكنما استَعَرَتْ به الأكبادُ

كالقصرِ فيهِ لكل خَودٍ حجرةٌ ... ولكلِّ صَبٍّ مَضجعٌ ووِسادُ

وكأنهُ إذ أشرقتْ منه المها ... فلكٌ تحفَّفَ حولَه الأرصادُ[2]

وكأنَّ أبراجَ السما حُجراتُها ... في كلِّ بُرجٍ كوكبٌ وقَّادُ

لو لم يكنْ للبينِ فيهِ علامةٌ ... ما كان فيهِ من الغرابِ سَوادُ

يا سعدُ هذا عصرُنَا فدعِ النيا ... قَ يشقُّها الإتهامُ والإنجادُ

واهجرْ حديثَ الرَّقْمَتَيْنِ وأهلَهُ ... بادَتْ ليالِيْ الرقمتينِ وبادوا[3]

---

(١) لا نفهم كيف أمكن لشاعر كالرافعي يعيش في القرن العشرين، وفي قلب مدينة كالقاهرة، أن يأتي على ذكر الرحيل من فوق الجمال، بدافع التقليد الشعري المتعاظم لدى شعراء هذا العصر ومن قبلهم؟! ولا يكتفي بذلك، بل يأتي إلى ذكر الإتهام والإنجاد، وليالي الرقمتَيْن، في مواضع أخرى من القصيدة، مما حفلت به حياة الشعراء القدامى وقصائدهم؟؟ سواء دعا الشاعر إلى نسيان ذلك أم لا!

(٢) تحفَّف، أحاطَ بما يَزيد في الزينة والانبهار.

(٣) الرقمتان: روضتان بناحية الصمَّان، وهذه الأخيرة أرض غليظة فيها ارتفاع، وهي في أرض تميم، قال زهير:

ودارٌ لها بالرقمتين، كأنها ... مَراجيعُ وشمٍ في نواشِرِ مِعْصَمِ

(لسان العرب [رقم] ١٢/ ٢٥٠، ومعجم البلدان، جـ٣/ ٤٢٢).

واذكُرْ أحبَّتَنا الذينَ ترحَّلُوا ... ولو أنهم رجموا القلوبَ لعادوا
إني أراهمْ كلما طلعتْ ذُكا ... أو مالَ غصنُ البانةِ الميَّادُ
أو لاحَ لي قمرُ السَّما أو أتلَعتْ ... بين الرياضِ من الظِّبا الأجيادُ[1]
ولقد رأيتُ لِحَاظَهم مسلولةً ... يوم انتضَتْ أسيافَها الأجيادُ
تلكَ السيوفُ وما سواءٌ في الهوى ... ما تحملُ الظبياتُ والآسادُ
أتُراهُمُ ذكروا هوايَ وقد جَفَا ... ذاتَ الجناحِ على الغصونِ رُقادُ؟
فبكتْ على شجَنٍ ورجَّعتِ البكا ... وتمايلتْ جزَعاً لها الأعوادُ!
أم يذكرونَ هوايَ أن قيلَ انقضى ... أجَلُ المريضِ وخفَّتِ العوَّادُ؟
بَخِلُوا وجُدْتُ، كأنما خُلِقَ الهوى ... مِنْ عاشقَيْن بَخيلةٌ وجَوادُ
قِفْ بي على القصر الذي ودَّعتَه ... وعليه من ظُلْمِ الفراقِ حِدادُ
واسألْهُ هلْ لهُمُ إليهِ مَرجِعٌ ... ولذلكَ الزمنِ القديمِ معادُ؟
فعسى يُجيبكَ أنني أرعى لهُ ... عهْدَ الودادِ وللقصورِ ودادُ
ولعلهُ يَحكِي تَنهُّدَها فقدْ ... يحكي الجمادُ الصوتَ وهو جمادُ(*)

❁ ❁ ❁

وقال في امرأة جميلة يتطلَّع إلى لقائها:

[من الخفيف]

قَمرٌ أطلعتْ أخاهُ السَّماءُ ... وغزالٌ ما شابَهتْهُ الظباءُ
إنْ رنَا يَفضَحُ النساءَ وإن قيـ ... ـلَ تَأبَّى تغارُ منهُ النساءُ
يَدَّعِي البانُ قدَّهُ وتَثَنِّيـ ... ـهِ وما البانُ والقدودُ سواءُ
ويَرى الوردُ أنه مثلُ خدَّيْـ ... ـهِ وتأبى خدودُهُ الحمراءُ
هلْ سبيلٌ إلى لقاهُ وإن لم ... يَشْفِ ما بي من الغرامِ اللقاءُ؟
فأُناجيهِ مثلما غرَّدَ الطيـ ... ـرُ وناجتْ أليفَها الورقاءُ
يا مليكَ الهوى اتَّقِ اللَّهَ في النا ... سِ فقد قطعَ القلوبَ الجفاءُ

---

(١) أتلعَتْ، وتَلَعَتْ: مدَّتْ بأعناقها لمزيد من النظر والرؤية.

(*) يريد بالجماد (الفونوغراف) وهو حاكي الأصوات. والمعنى الذي يريده: أن القصر يرعى له الوداد، وأنها تحبه. ولذلك تتنهد ساعة الخروج، فيحفظ القصرُ هذا الصوت ليتحفه به إذا جاءه مسلّما.

إن تــكُــنْ راعــيَ الــمــحــاسِــن فــيــنــا فــأنَــا مــن رعــيَّــتِــي الــشــعــراءُ

❁❁❁

وقال في طائرٍ شجاه حالُه وقارنهُ بمحبوبه:

[من السريع]

يــا طــيــرُ مــا لــلــنــومِ قــدْ طــارا ومــا قــضَــيْــنــا مــنــهُ أوطــارا[1]
كــأنَّ هــذا الــســهــدَ لا يــأتــلــي يــطــلــبُ مــنْ أجــفــانِــنــا ثــارا[2]
إن كــنــتَ ظــمــآن فــذي أدمــعــي تــفــجــرتْ فــي الأرضِ أنــهــارا
أو كــنــت ذا مــســغــبــة فــالــتــقــطْ حــبــةَ قــلــبــي كــيــفــمــا ثــارا
أو كــنــتَ مــشــتــاقــاً فــكــن مــثــلَــنــا عــلــى الــهــوى يــا طــيــرُ صــبّــارا
وجــارِنــي إن كــنــتَ لــي صــاحــبــاً فــإنَّ خــيــرَ الــصَّــحْــبِ مَــن جــارى
يــا طــيــر كَــمْ فــي الــحُــبِّ مــن ســاعــةٍ تَــخــالُ فــيــهــا الــعُــمْــرَ أعــمــارا؟
إن قــلــتُ تُــلــهــيــنــي بــهــا فــكــرةٌ جــرَتْ عــلــى الأفــكــارِ أفــكــارا
أو قــلــتُ أنــســاهــا أقــامَ الــهــوى مِــنْ حَــزِّهَــا فــي الــقــلــبِ تَــذكــارا
والــصــبُّ مــا يــنــفــكُّ فــي حَــيْــرةٍ تَــزيــــدُهُ حُــــزْنــــاً وأكــــدارا
مــا لــي أرى الأطــيــارَ نــواحــةً كــأنــمــا فــارقْــن أطــيــارا؟
ومــا لأغــصــانِ الــرُّبــى تــلــتــقــي كــأنــمــا يَــبْــثُــثْــنَ أســراراً؟
فــاســألْ نــســيــمَ الــصــبــحِ إنْ مــرَّ بــي هــل حــمَّــلَــتْــهُ الــغــيــدُ أخــبــارا؟
وسَــلْ عــن الــدارِ ويــا لــيــتــنــي أزورُ يــومــاً هــذهِ الــدارا!
كــأنــهــا الــجــنــةُ لــكِــنــنــي أبــطَــنْــتُ مــن وَجْــدِي بــهــا الــنــارا
ســمــاؤهــا مُــطْــلِــعَــةٌ أنــجُــمَــا وأرضُــهــا تُــطْــلِــعُ أقــمــارا
وكــمْ بــهــا مــن أكــحَــلٍ إن رنَــا ســلَّــتْ لــكَ الأجــفــانُ بــتــارا[3]!
وإن مــشــى يَــخْــطــرُ فــي تــيــهِــه هَــزَّتْ لــكَ الأعــطــافُ خــطّــارا[4]
لا أنــكِــرُ الــســحــرَ وذا طَــرْفُــهُ أصــبــحَ بــيــنَ الــنــاس ســحَّــارا

---

(١) الأوطار: الحاجات والرغبات. مفردها، وطَر.

(٢) يأتلي، يجتهد ويسعى. من ألَا، يألو، وائتلى يأتلي. ومعناه: لا يزال يطلب...

(٣) سلَّتْ بتَّاراً: بانَ فيها لَحظٌ جارحٌ كالسيف. والبتَّار: مبالغةٌ من، بَتَر: قطعَ.

(٤) خطَّاراً، من خَطَر يَخْطُرُ خَطَراناً وخُطوراً، مشى بخُيَلاء وزهْوٍ.

يـا فـاتـنَ الـصـبِّ عـلـى رُغْـمِـهِ والـمـرءُ لا يَـعْـشَـقُ مـخـتـارا
طـوراً بـنـا هَـجْـرٌ وطـوراً نـوىً أهَـكـذا نُـخْـلَـقُ أطـوارا[١]؟
لـو شـبَّـهـوا بـدرَ الـسـمـا دِرْهَـمـاً لـشـبَّـهـوا وجْـهَـكَ ديـنـاراً[*]
وكـم دَرَارٍ فـيـكَ نـظَّـمْـتُـهـا تَـجِـلُّ أن تُـحْـسَـبَ أشـعـارا[٢]
لـو أنَّ بـشَّـاراً حـكـى مـثـلَـهـا أعْـطَـوْا لـواءَ الـشـعـرِ بـشَّـارا

❁ ❁ ❁

وقال (في غادةٍ رآها والشمسُ في الطَّفَلِ)[٣]:

[من السريع]

لاحـتْ لـنـا والـشـمـسُ من غَـيْـظِـهـا قـد ضَـرَّجـتْ أثـوابَـهـا بـالـدمِ
فـاتـنـةٌ مـن بُـخـلِـهـا لـم تَـزلْ وَجْـنـتُـهـا مـعـصـورةً فـي الـفـمِ
فـمـا أراهـا راهـبٌ راهـبـاً إلَّا شَـكـا الـمُـغْـرَمُ لـلـمُـغْـرمِ

❁ ❁ ❁

وقال في مليحٍ غريب وقع في هواه:

[من الخفيف]

بـأبـي أنـتَ يـا غـزالُ ورُوحـي وفـؤادي ونـورُ عـيـنـي، وعَـيْـنـي
أنـتَ كـالـبـدرِ حـيـن يَـطْـلـعُ لـكـنْ فـي سَـوادِ الـقـلـوبِ والـمـقـلـتَـيْـنِ
لـو رآكَ الـذيـنَ قـالـوا ثـلاثٌ بـعـد وَهْـنٍ لـثـلَّـثـوا الـقـمَـرَيْـنِ[٤]
خـفـقَ الـحَـلْـيُ فـوقَ صـدركَ والـقـلـ ـبُ، فـهـل أنـتَ مـالِـكُ الـخـافِـقَـيْـنِ؟
وأرى الـسـحـرَ فـي الـعـيـونِ فـهـل جـئـ ـتَ بـهـا (بـابـلاً) إلـى الـسـاحِـرَيْـنِ؟[*]

---

(١) تضمينٌ لقوله تعالى، في الآية ١٤ من سورة نوح: ﴿وقد خَلَقَكُمْ أطْواراً﴾.

(*) تشبيه الوجوه بالدنانير كثير في الشعر العربي. على أنَّا لم نجد في كل ما قرأناه من ذلك كهذا البيت. فقد راعى النظير في كل من المشبه والمشبه به، فذكر الدرهم والدينار، والوجه والبدر، وهذا من بدائع الاتفاق.

(٢) درارٍ، جمع: دُرِّي، صفة للكوكب الدرِّيّ، نسبة إلى الدرّ الذي هو اللؤلؤ... شبَّه قصائده المنظومة في المحبوب، باللآلئ الدرِّيّة.

(٣) أي عند المغيب.

(٤) قصد بذلك النصارى القائلين بالأقانيم الثلاثة: الآب والابن والروح القُدُس. فإذا بالشاعر يتصورُ الفتى الجميلَ ثالث القَمرَيْن: الشمس والقَمر. وهو تصور فنّي لطيف.

(*) الساحران هما هاروت وماروت، وقصتهما معروفة.

وبـخـدَّيـكَ جـنَّـتـانِ ولـكـنْ ... فـي فـؤادي لـظًـى مـن الـجـنـتـيـنِ
يـا قـضـاةَ الـغـرامِ فـي أيِّ شـرْعٍ ... أن يـحـولـوا بـيـن الـحـبـيـبِ وبـيـنـي؟
فـي يـديـكُـمْ غـريـمُ ظَـبْـيٍ مـن الـغـرْ ... بِ سَـبـى الـمـشـرِقَـيْـنِ والـمَـغْـرِبَـيْـنِ
فـاتـقـوا الـلَّـهَ فـي قـتـيـلِ حـبـيـبِ ... (حـسـنٍ) طُـلَّ دَمُـهُ (كـالـحُـسَـيْـنِ)(١)

❂ ❂ ❂

وقال في حبيب آخر، على النسق السابق، من شوق وصدّ واحتراق:

[من البسيط]

سـهـرتُ والـلـيـلُ أمـسـى لـلـورى سَـكَـنـا ... فـمَـن يَـدُلُّ عـلـى أجـفـانـيَ الـوَسَـنـا؟
أرعـى كـواكـبَـهـا حـتـى إذا أفـلَـتْ ... ألـقـيـتُ لـلـطـيـرِ فـي تـحـنـانـهـا الأُذُنـا
وأسـألُ الـحُـبَّ عـن روحـي وعـن بـدنـي ... فـلا أرى لـيَ لا روحـاً ولا بـدَنـا
ومـا نـظـرتُ لأعـضـائـي وقـد بَـلِـيـتْ ... إلّا حـسِـبْـتُ ثـيـابـي فـوقَـهـا كـفَـنـا
يـا مَـنْ يَـعِـزُّ عـلـى نـفـسـي تَـدَلُّـلُـهُ ... كـم ذا أكـابـدُ فـيـكَ الـذلَّ والـوَهَـنـا؟
دَرَوْا بـمـا بـي ولـولا الـدمـعُ كـان دَمـاً ... لَـمـا تَـظَـنُّـوهُ إلّا عـارِضـاً هَـتِـنـا(٢)
ورُبَّ ذي سَـفَـهٍ قـد هَـبَّ يـعـذِلُـنـي ... فقالَ أنتَ الفتى المضنى؟ فقلتُ: أنا
وهـل أخـافُ عـلـى سـرِّ الـهـوى أحـداً ... وقـد خُـلـقـتُ عـلـى الأسـرارِ مـؤتَـمَـنـا؟
فـدعْ غـرامَـكَ يَـطْـويـنـي ويَـنْـشُـرُنـي ... وذَعْ عَـذُولـيَ يطوي جَـنْـبَـهُ الـضَّـغَـنـا(٣)
من كـانَ مـثْـلِـيَ لـم يَـحْـفِـلْ بـمـثْـلِـهِـمُ ... ومَـن أحـبَّ اسـتـلان الـمـركـبَ الـخَـشِـنـا
كـأنـمـا الـحُـسْـنُ أَمْـسَـى فـيـكَ مـجـتـمـعـاً ... فـأيـنـمـا نـظـرتْ عـيـنـي رأتْ حـسَـنـا
وإن تـكُـنْ فـتـنـةٌ لـلـعـاشـقـيـن فـمـا ... يـزالُ أمـرُ الـهـوى مـا بـيـنـنـا فِـتَـنـا
فـاسْـألْ مـحـيَّـاكَ كـم أَخْـجَـلْـتَ من قـمـرٍ ... وسَـلْ قَـوَامَـكَ ذا الـمـيـاسَ كـم غُـصُـنـا؟

---

(١) طُلَّ دَمُه: هُدِرَ وبطل ولم يؤخذ بديته. والإشارة واضحة إلى استشهاد الإمام الحسين في عاشوراء محرّم. شبّه نفسه بقتيل الحب الذي سُفِحَ دمُ قلبه ولم يعوّض عليه. وهي مبالغة غير سائغة، لشدّتها.

(٢) تظنُّوهُ، أي ظَنُّوه. ويمكن أن يقال (تظنّوه) بفتح النون المشدَّدة، بإبدال النون الثالثة من [تظنَّنَ] ألفاً، كما قالوا في تقصّص، تقصّى (المعجم الوسيط/ ظنن) جـ٢/ ٥٧٨. والعارض الهتن: السحاب الذي يعترض الأفق، وفيه مطر.

(٣) الضَّغَنُ، مصدر [ضَغِن] حقَد حقْداً شديداً. والاسم منه الضِّغْنُ، ج: أضغان.

وكم يَبيعكَ أهلُ العشقِ أفئدةً ... وأنتَ لا عِوضاً تعطي ولا ثَمَنا(*)
فيمَ اقتصاصُكَ من قلبي تُعَذّبني ... وما جنيتُ ولا قلبي عليكَ جنى؟
أمَا كفانيَ ما ألقاهُ من زمني ... حتى أغالِبَ فيكَ الشوقَ والزمنا(١)؟
إني وإياكَ كالمنفيِّ عن وطنٍ ... أيُّ البلادِ رأى لم يُنْسِهِ الوطنا!
وما أطافَ بقلبي في الهوى أملٌ ... إلّا بَعَثْتَ عليهِ الهمّ والحَزَنا
ليَهنِكَ اليومَ أني ممسكٌ كَبِدي ... وأنها قِطَعٌ تجري هنا وهنا
وفي الجوانحِ شيءٌ لستُ أعرفُهُ ... لكنَّ أهلَ الهوى يدعونَهُ شَجَنا
يَبيتُ يَنبضُ قلبي مِن تقلُّبِهِ ... حتى إذا ذَكَرُوا مَن هاجَهُ، سكنَا(**)
فهلْ رَثَيْتَ لمن لَوْ بثَّ لوعتَه ... مع الصباحِ لأبكى الطيرَ والفَنَنا؟
وهلْ تعلِّلُنا يوماً بموعدةٍ ... وإن تكنْ لا تفي سراً ولا علَنا؟
أو أنَّ نفسي على كفيكَ، لانحدَرَتْ ... ولو دُفِنتُ لما باليتَ من دُفِنَا
وذو الشقاوةِ مقرونٌ بشِقْوتِهِ ... أنّى تَقلّبَ جَرّتْ خلفَهُ المِحَنا

❁ ❁ ❁

وقال مُؤمّلاً حُبَّها، متخيّلاً ما قد يصير إليه لو ملكَ قلبها، من عُلوّ لا حدود له:

[من مجزوء الكامل]

خدَّاكِ يا ذاتَ العيو ... نِ الفاتراتِ النُّعَّسِ
كالوردِ إلّا أنه ... يَحميهِ لَحظَ النرجسِ
أمّا وقدُّكِ وهوَ من ... تلكَ الغصونِ المُيَّسِ(٢)

(*) هذا والله هو فقه الهوى. فما البيعُ إلّا بثمن أو عوض.

(١) تضمينٌ وتذكيرٌ لبيت أبي الطيّب المتنبي، وهو مطلع قصيدة يمدح فيها كافوراً الإخشيدي:

أغالبُ فيك الشوقَ والشوقُ أغلَبُ ... وأعْجَبُ من ذا الهَجْرِ والوصلِ أعجبُ

«شرح الواحدي لديوان المتنبي» بعنايتنا (بالاشتراك) دار الرائد العربي ـ بيروت سنة ١٩٩٩، جـ٤/ ص١٧٧٦.

(**) يريد أن نفسه، لو كانت على كف هذا الحبيب، لرماها وتركه يموت، وأنه لو مات في حبه، ودُفن لبقي الهجرُ كما كان حياً. وهجرُ الميت تركُ زيارة قبره وتناسيه. و هذا غاية في الإعراض.

(٢) المُيَّس، ج: مَيْساء، مذكرها أميس: المتأود في مشيته، والمتثني المختال... ولم نجد ميساء أو أميس.. بل ميّاس وميّاسة..

وشفاهُكِ الحمراءُ والـ ـخمرُ التي لم أَختسِ
إني إذا رقصَ السُّقا مُ ومالَ تحتَ السندسِ
ونظرتُ ثغركِ ضاحكاً وبقيتِ لي لم تَعْبسي
وسقيتِني راحَ الهوى من غير تلكَ الأكؤسِ
لأَرَى الكواكبَ خادِما تي كالجَوَارِي الكُنَّسِ
وأظنني بينَ الملو كِ مليكَ كلِّ الأنفسِ
وأرى بِحُبِّكِ كلَّ إنـ ـسٍ حاضراً في مجلسي[(١)]

❁ ❁ ❁

وقال على لسان فتاة في حوارية ذاتية:

[من السريع]

قالتْ: سألتُ الوردَ عن وجنتي يوماً، ووَجْناتي عن الوَرْدِ
فقالَ لي خَدِّي: أنا وردةٌ ثمَّ انتمى الوردُ إلى خدِّي

❁ ❁ ❁

وقال في مثله:

[من المجتث]

أهديتُ ذا الحُسْنَ وَرداً وقلتُ: (مني إليكا)
فقالَ: يا شِبْهَ خَدِّي خَدِّي يغارُ عليكا

❁ ❁ ❁

وقال مخاطباً طائراً وحيداً، ومنه إلى زمان الوصل في أجمل فصوله، منتهياً إلى مرارة الهجر:

[من الكامل]

هذا الدُّجى والهمُّ في صدري كالفحمِ زادَ توهجَ الجَمْرِ
وكأنَّ أنفاسي بها شُعَلٌ طَفِقتْ من الأجواءِ في بَحْرِ
وكأنَّ أحزاني بها شَرَرٌ زَحْمُ الكواكبِ فهْي لا تسري
يا ليلُ قطَّعتَ القلوبَ أسىً فابعثْ لها بنسائمِ الفجرِ

---

(١) يذكرنا الجوُّ المتعاظمُ من جرّاء امتلاك ناصية الحب، الذي ساد القصيدة، يذكرنا ببيت شعري غزلي رائع منسوب إلى الشاعر سعيد عقل وهو:

لو معي حُبُّكِ لاجتحتُ الذرى ولحطَّمْتُ ضميرَ الحَجَرِ

حتى م تطويني وتَنشرُني؟ ... خُلِق الردى(١) بالطيِّ والنشرِ

ما طالَ عمرُكَ يا دجى(٢) أبداً ... إلا ليَقصُرَ دونهُ عُمري

فإذا قضيتُ وأنتَ ذو نفسٍ ... فاخبأْ صباحكَ لي إلى الحشرِ

وإذا دجا ليلُ الحياة فدَعْ ... يا ليلُ مصباحاً على قبري

أنا والسَّما خصمانِ في قمرٍ ... من حينَ أخجلَ بدرَها بدري

حجَبوه في ظُلَمٍ كما سَدَلتْ ... ذاتُ الدلالِ غدائرَ الشعرِ

يا بدرُ لا تَكمُدْ وفيكَ ضنًى ... لكَ أُسوةٌ بالجَفنِ والخصْرِ

وإذا احتجبْتَ ففي الحِجابِ هوى ... وجمالُ ذاتِ الخِدْرِ في الخِدْرِ(٣)

هل كنتَ شاهدَنا ونحن كما ... قرنَ الضميرُ السرَّ بالسرِّ؟

إلْفانِ منطلقانِ في جَذَلٍ ... وهما من الأشواقِ في الأَسْرِ

هذا لذاكَ هوىً وذاكَ بذا ... صبٌّ كحاسي الخمرِ والخَمِرِ

ثغراً على ثغرٍ، وأحسنُ ما ... تَجِدُ الهوى: ثغراً على ثغرِ

يا بدرُ كانتْ ليلةً ومضتْ ... وَقْعَ العصافيرِ على الغُدْرِ(٤)

بِتنا ومن شفةٍ على شفةٍ ... حيناً ومن نحرٍ على نحرِ

أشكو ولا شكوى، ويَعذرُني ... بالحبِّ والحبُّ من العُذرِ(٥)

مثلَ الحمامِ تباكياً وهوًى ... إمّا التقى الإلْفان في وكْرِ

هيهاتَ أُرسِلُ بعدَها أملاً ... ضاعَ الرِّشاءُ اليومَ في البئرِ(٦)

يا من شَفا عينَ الزمانِ وما ... بَصَرُ الهوى إلّا عمَى الدهرِ

هبْني كتاباً أنتَ مالِكُهُ ... واقرأْ ولو حرفينِ من صدري(*)

---

(١) في عجز البيت تعقيد والتباس في كلمة «خلق» غير المشكولة. فهي تُقرأ: خلَقَ (بمعنى بليَ ورثّ) وخُلِقَ (بمعنى وُجد وكان) وبمعنى خَلَقٍ (بمعنى: كَخَلَقٍ) ولا يختلّ البيت. وكله جائز في القصد...

(٢) ذكَّر الدجى، بتقدير: الظلام. وهي مؤنث، جمع دُجْية: الظلْمة.

(٣) ذات الخِدْر: المرأة الجميلة يُضرَب لها سِتْرٌ في ناحية البيت.

(٤) الغُدْرُ، واحدها غَدير، وهو مساحة مائية بقيتْ من السيل. وتجمع على غُدُر وغُدْران.

(٥) في العجز خلل أو ثِقَل، إذ استخدم (مفتعلن) مكان: متفاعلن ومستفعلن. وهو مكروه في الكامل.

(٦) الرشاءُ: الحبل يُدْلى به الدلو في البئر.

(*) إنّ الكتاب متى قرئ عنوانه، عرف موضوعه.

وعـلامَ تُـهـمـلـنـي وأنـتَ تـرى ... واوَ الـهـجـا حُـسِـبَـت عـلـى عَـمْـرِو[١]

إن الـذيـن هَـجَـرْتَـهُـم خُـلِـقـوا ... كـالـنـحـلِ لَا تَـسْـخَـيَـا بـلا زَهْـرِ

فـلـئـنْ تـكـنْ قـد سُؤْتَـنـي زمـنـاً ... فـالـحـبُّ ذو يُـسْـرٍ وذو عُـسْـرِ

يُـزجَـىٰ الـغِـنـىٰ لـلـفـقـرِ وهـو شَـقـاً ... أفـلـيـسَ يـرجـى الـوصـلُ لـلـهـجْـرِ؟

إن تـبـتـعـدْ تـقْـرُبْ إلـى أمـلـي ... والـدهـرُ مـنـعـكـسٌ بـمـا يـجـري

وإذا قـسـوتَ تَـزيـدُنـي طَـمـعـاً ... كـم يـخـرجُ الـمـاءُ مـنَ الـصـخـرِ[٢]!

وبـأضـلـعـي قـلـبٌ أعـلِّـلُـه ... بـالـوعـدِ أحـيـانـاً وبـالـصـبـرِ

مـن كـان يـجـنـي الـحُـلـوَ مـن ثـمـرٍ ... وأمـرَّ، فـلـيـصـبـرْ عـلـى الـمُـرِّ[٣]

❁ ❁ ❁

وقال في فلسفة الحب: شجونه ومحصَّلاته:

[من الخفيف]

لا تـلـمْ ذا الـهـوى عـلـى أن يَـبـوحـا ... هـكـذا الـعِـطـرُ دأبُـهُ أن يـفـوحـا

كـيـفَ تـخـفـى بـيـنَ الـعـواذلِ نـارٌ ... سـاورَتْـهـا الـريـاحُ ريـحـاً فـريـحـا

وسـقـامُ الـهـوى يـلـوحُ عـلـى الـعـا ... شِـقِ مـهـمـا أرادَ أن لا يـلـوحـا

غـلـبَ الـشـوقُ أهـلَـهُ فـتـرى الـقـو ... مَ طـريـحـاً قـضـى، ونِـضْـواً طـريـحـا[٤]

وكـأنَّ الـغـرامَ حـيـنَ شـرى الأنـ ... ـفـسَ ألـفـى الـكـرامَ أرخـصَ روحـا

يـا أخـا الـحُـبِّ مـا أرى الـحـبَّ إلا ... نـظَـراً جـارحـاً وقـلـبـاً جـريـحـا

ثـم مَـن عـاش بـعـد ذاك فـقـد عـا ... ش لـيـبـكـي مـمـا بِـهِ أو يـنـوحـا

وتـرى الـطـيـرَ ربـمـا قـامَ يـسـعـى ... لـحـظـةً، بـعـد أن تـراهُ ذَبـيـحـا

لـيـسَ هـذا الـهـوى سـوى سـكـرةِ الـمو ... تِ فـهَـيِّئْ لـلـعـاشـقـيـنَ الـضـريـحـا

يُـطـمِـعُ الـنـفـسَ فـي الـجـمـالِ فـإمَّـا ... طـمـعَـتْ ألْـفَـتِ الـجـمـالَ شـحـيـحـا

وهـو بـيـنَ الـعـيـونِ والـقـلـبِ رسْـمٌ ... كـلـمـا جـالـت الـلـواحـظ يُـمـحـى[٥]

---

(١) استعان الشاعر بقاعدة حذف (الواو) من «عمرو» إذا نُصِبت. ليذكر إهمال الحبيب له، وهي صورة جافّة.. و«الهجا» مقصور، هو الهجاء، أي: حروف الهجاء.

(٢) في العجز خلل أو ثقل، كحال البيت السابق الذي ينتهي «بالعذْرِ».

(٣) أَمَرَّ الشيءُ، صار مُرّاً.

(٤) النِّضو: المهزول، والمُجْهد.

(٥) وقع الشاعر في أحد عيوب القافية، وهو سناد التأسيس، حين خالف (حرف) المَدّ الذي تأسست عليه القصيدة، فاستخدم الميم الساكنة «يُمحى» بدل (الياء أو الواو) المتعاقبتين في جميع الأبيات.

آهِ مــا أوجــعَ الــغــرامَ ومــا أعــ ـجبَ جِسْماً على الغرامِ صحيحا
لـم أكـدْ أعـرفُ الـصـبـابـةَ حـتـى بَـرَّحـتْ بـي هـمـومُـهـا تـبـريـحـا
وألِـفْـتُ الـعَـنـاءَ حـتـى مـن الـرا حـةِ عـنـدي أن لا أرىٰ مـسـتـريـحـا
وإذا ضـاقـتِ الـحـيـاة بـنـفـسٍ وجـدتْ واديَ الـمـمـاتِ فـسـيـحـا

❁ ❁ ❁

وقال في حبيب مُدِلّ فوق كُرسيِّه:

[من السريع]

رأتْــهُ عــيــنــي فــوقَ كــرســيِّــهِ كــالــشــمــسِ أو أبــهــى مــن الــشــمــسِ
مــثــلَ ســلــيــمــانَ عــلــى عــرشِــهِ يَــحْــكُــمُ بــيــن الــجــنِّ والإنــسِ
فــقــالَ لــي الــعــاذلُ آمــنــتُ مــا أجــحــدُ فــيــهِ (آيــة الــكــرســي)[١]

❁ ❁ ❁

وقال في مقام مشابه:

[من الخفيف]

ذاتُ مُـلْـكٍ طـغـتْ بـهـا عِـزَّةُ الـمُـلـ ـكِ فـلـم تـرعَ فـي هـواهـا الـعَـبـيـدا
ظـلـمَـتْـهـم وجـاهـدوا عَـلِـمَ الـلَّـ ـهُ فـمـن مـاتَ راح فـيـهـا شـريـدا
هـي غُـصـنُ الـريـاضِ، والـزهـرُ والـورْ دُ قَـوامـاً ونـفـحـةً وخـدودا[٢]
وهـي شـمـسُ الـسـمـاءِ والـظـبـيـةُ الـغـيـ ـداءُ وجـهـاً ومـقـلـتـيـنِ وجـيـدا
ولـهـا الـنـهـيُ فـي الـهـوى ولـهـا الأمـ ـرُ ومـا كـانَ مـوعـداً ووعـيـدا
لـيـسَ فـي الـحـبِّ أن تَـشـاءَ ولا فـي قَـدَرِ الـحـبِّ والـقَـضـا أن تُـريـدا
إنـه فـي الـرقـابِ مَـسـكـنـةُ الـدهـ ـرِ كـمـا طـوَّقَ الـهـوانُ الـيـهـودا

❁ ❁ ❁

وقال في جمال النقاب:

[من مجزوء الكامل]

حُــطِّــي نِــقــابَــكِ لــحــظــةً فــالــحُــسْــنُ أجــمــعُ فــي نِــقــابِــكْ

---

(١) لم يُوَفَّق الرافعي في التضمين القرآني، فأقْحَم «آية الكرسي» في البيت إقحاماً، ليؤكد سُموَّ مقام الحبيب (وعَرْشانيَّته). وآية الكرسي، آيةٌ طويلة، تقع في الآية ٢٥٥ من سورة البقرة. وقوله ما أجحَدُ فيه. أي: لا أُنكر مقامَها ههنا!

(٢) إشارة إلى بعض ما جاء في الآية ٦١ من سورة البقرة: ﴿وضُرِبَتْ عليهِمُ المَسْكَنَةُ وباءُوا بغَضَبٍ مِنَ اللّهِ﴾. وانظر كذلك ما في الآية ١١٢ من سورة آل عمران.

ظَمَأُ الفؤادِ إلى رِضا ... كِ ظَمَا الشفاهِ إلى رضابكْ

❁ ❁ ❁

وقال في عذاب الحب والاستسلام له، على توكؤ كبير على التشبيه والمحسنات البديعية:

[من الطويل]

غرامُكَ لا يبقي على نَفسِ إنسانِ ... فسَلْهُ لماذا غالَ قلبي وأبقاني
أفي كلِّ يومٍ لي من الحبِّ حَسْرَةٌ ... وحُزْنٌ وقد ضاقَ الفضاءُ بأحزاني؟
وها أنا ذا بينَ الصبابةِ والصِّبا ... تُجاذِبني الأُولى فيدفعُني الثاني
ولم يُبقِ من جسمي الهوى غيرَ ذَرَّةٍ ... كما أبقتِ الكاساتُ من عقلِ نَشْوانِ
أكادُ لذَاكَ الحيِّ، إن مرَّتِ الصَّبا، ... أطيرُ وإنْ لم يحتملْني جناحانِ
وتَنظرُ هذي الشمسُ عيني كأنها، ... وقد أذْكَرَتْني حُسْنَ وجهكَ، شمسانِ
هُمُ عبَدُوها في الجمَالِ ضلالةً ... ويمنعُني من مِثلِ ذلكَ إيماني
على أنهمْ ذَلُّوا لسلطانِ حُسْنِها ... وحُسْنُكَ سلطانٌ على كلِّ سلطانِ
وقالوا حكَيْتَ الظبيَ جيداً ولَفْتَةً ... وأشبهت غصْنَ البانِ في هَيَفِ البانِ[1]
وأقسِمُ: ما الغِزلانُ في لفتاتِها ... ولا هَيَفُ الأغصانِ إلَّا الشبيهانِ[2]
لكَ الحسْنُ من كلِّ الحسانِ ولِلذي ... يحبُّكَ في أشعارِهِ كلُّ إحسانِ
وأنتَ الذي قربتَ من جسميَ الضنا ... وأنتَ الذي باعدتَ ما بينَ أجفاني
فإن قيلَ عني: إنهُ ماتَ عاشقاً ... فقلْ لهمُ: ها رحْمَةُ المَيْتِ مِن شَانِي
إذا كنتَ لا ترثي وفيَّ بقيةٌ ... فكيفَ إذا ما أدرجوني بأكفاني؟
وإنْ يقرأِ العُذَّالُ ما أنا كاتِمٌ ... فقد خطَّ في خدَّيَّ بالدمعِ سطرانِ
ولو شئتَ لم يَدْروا بما دارَ بيننا ... ولو أنَّ حسَّادي عليك من الجانِ
أبى الدهرُ أن يلقى أخو الحبِّ صاحباً ... من الإنس إلَّا دونه ألفُ شيطانِ
فيا ليتَ أنَّ الافقَ تَهوي نجومُهُ ... على كلِّ واشٍ بالمحبينَ خوَّانِ
ويا ليتَ نيرانَ الجحيم تَزيدُهُمْ ... قلوباً تَلَظَّى حَسْرةً فوقَ نيرانِ

---

(١) الهَيَفُ والهَيْف (بالفتح والتسكين): الرقَّة والنُّحول.
(٢) أراد استخدام التشبيه المقلوب ولكن بالتصريح، لا التصوير، فأخفق.

ويا ليتَ أنَّ الأرضَ دُكَّتْ جبالُها ... فكَمْ فيهِمُ مِن مثْلِ رَضوَى وثهلانِ(١)
وما كنتُ أدري قبلهمْ أن في الورى ... من الناسِ أقواماً على شكلِ أوثانِ
فيا مَن لَحاني في الصبابةِ ما ترى ... ملامَك هذا بالصبابةِ أغواني؟(٢)
وبي رَشَأ لم يُبقِ مني دَلالُه ... سوى ما تراهُ من همومٍ وأشجانِ
تَعشَّقْتُهُ ظمآنَ للحبِ فارتوى ... فؤادي ولكنْ ردَّني جِدَّ ظمآنِ
وأضحكَني دهري زماناً بقُرْبِهِ ... ولكنَّه مِن بَعدِ ذلك أبكاني
ولن تَجِدَ الدنيا سوى ما وجَدْتُها ... ولا سائرَ الأزمان إلّا كأزماني
ويا جيرتي، والنفسُ جمٌّ عَناؤُها ... ألا عاشقٌ عانٍ لذا العاشقِ العاني؟
رأيتُ فؤادي مُطْبِقاً جَفْنُهُ الأسى ... كما اكتحلتْ بالنومِ أجفانُ وَسْنانِ
وقد كانَ لي كأساً لدى مجلسِ الهوى ... إذِ الحبُّ راحي والحبائبُ ريحاني(٣)
وفي الحبِّ سُلوانٌ ولكنني أرى ... تأسِّيَ ذي الحاجات ليس بسلوانِ
وهذا الهوى تاجٌ على كلِّ عاشقٍ ... فما شرفُ الأملاكِ من غير تيجانِ

❁ ❁ ❁

وقال في قوامٍ جميل:

[من المديد]

يا قَوامَ الغصنِ مُنْثَنِياً ... ومثالَ الحُسْنِ والظَّرْفِ
أنتَ (والطربوشُ) منحرفٌ ... كهلالِ الأفقِ في النُّصُفِ
فاتَّقِ الخالقَ في قَومِ ... عَبدوا اللهَ على حَرْفِ(٤)

❁ ❁ ❁

(١) رضوى: جبلٌ بالمدينة، والنسبة إليه رَضَوِيّ. وثَهْلان: جبل ضخم لبني نُمَير بن عامر بن صعصعة، بناحية من نواحي نجد (معجم البلدان جـ٣/ ٥١، وجـ٢/ ٨٨).

(٢) لَحَاني: عذلني ولامني. وهو تقليد مباشر لبيت أبي نواس الشهير:

دَعْ عنكَ لَومي فإنَّ اللومَ إغراءُ ... وداوني بالتي كانت هي الداءُ

(٣) الحبائب، مفردها حبيبة. والأحبة والأحباء، واحدها: حبيب.

(٤) استخدام «قوم» هنا فيه ثقل عروضي، وخروج عن المسموع اللغوي. فإذا قال: (قَوَم) مجانسةً لعروضَيْ البيتين السابقين، عبث وأباح لنفسه زِنَةَ كلام، غير صحيحة. وإذا قال (قُوَم) جمعاً لـ(قَوْم) ابتدع جمعاً لا وجود له. وجمع (القوم) أقوامٌ وأقاوِم وأقَايِم (اللسان [قوم] ١٢/ ٥٠٥). وفي العجز تضمين لقوله تعالى جزءاً من الآية الحادية عشرة من سورة الحج: ﴿ومِنَ الناس مَنْ يَعْبُدُ اللَّه على حَرْفٍ﴾؛ أي يعبدونه «على طرف من الدين لا في وسطه وقلبه». (تفسير النَّسَفي، تحقيق مروان النشار. دار النفائس، بيروت سنة ١٩٩٦ جـ٣/ ١٤١).

وقال في حبيب صَلِيَ بنار حُبِّه:

[من الخفيف]

لا تـلـومـوا إذا تـعـذَّبـتُ فـيـهِ وقـضَـيـتُ الـحـيـاةَ وَجْـداً عـلـيـهِ

فـفـؤادي وإن أطـالَ عـذابـي لـيـسَ يـلـقـى الـنـعـيـم إلَّا لَـدَيـهِ

وجـهُـهُ جـنـةُ الـعـيـونِ وإن كـا ن تَـلَـظَّـى الـسَّـعـيـرُ فـي وجـنـتـيـهِ

❁ ❁ ❁

وقال في مقام شبيه، معاقباً بين مخاطبة المذكر والمؤنث:

[من الخفيف]

سـائـلـوهُ مـتـى يُـفـيـقُ الـذي جُـنَّ (م) وهـل أصـبَـحَـتْ تُـبَـاعُ الـعـقـولُ؟

واذكـروا أنـنـي سَـلَـوْتُ عـن الـسُّـلْـ ـوانِ فـالـصـبرُ في الهوى مستحيلُ[١]

أعـشـقُ الـحُـبَّ والـحـبـيـبَ لأنـي فـي هـوى الـحـبِّ والـحـبـيـب قـتـيـلُ

نـضَـبَ الـدمـعُ بـعـدمـا كـانَ يـنـسـا بُ كـمـا فـاضَ فـي الـبـلادِ الـنـيـلُ

فـرعـى الـلّـهُ مـن تَـصَـدَّقَ بـالـدمـ ـع عـلـى أعـيـنٍ كـواهـا الـهُـمـولُ[٢]

أيـهـا الـعـاذلُ ابْـغِ لـي[٣] كـبـداً لـمْ تـتـقـصَّـفْ بـجـانـبـيـهـا الـنـصـولُ

واسـتـعـرْ لـي وقـتـاً طـويـلاً فـإنـي أَجِـدُ الـوقـتَ فـي الـهـوى لا يـطـولُ

وأَعِـنّـي عـلـى الـعَـزاءِ فـقـلـبـي ثـاكـلٌ واصـطـبـارُهُ مـشـكـولُ

أتُـرانـي أعـيـشُ والـحـبُّ فـي الـنـا س دلـيـلٌ وراءهُ عـزريـلُ؟[٤]

يـأمُـلُ الـنـاسُ فـي الـحـيـاةِ نـعـيـمـاً وقـلـيـلٌ مَـنْ سَـرَّهُ الـمـأمـولُ

والأمـانـي عـلـى رقـابِ الـلـيـالـي صـارمٌ فـي يـدِ الـردى مـسـلـولُ

كـمْ تُـريـنـي مـصـارعَ الألىٰ قـتـلَ الـوجـ ـدُ ومَـن أهـلـكـتـهُ تـلـك الـسـبـيـلُ![٥]

---

(١) أي: فاتني كلُّ ما يمكِّنني من الصبر والسُّلوان (الذي هو النسيان). فالصبر في الحب أمر غير مُتاح، لضعف المحب وذُلِّه أمام المحبوب.

(٢) الهُمول) اسم مصدري مِنْ: هَمَلتِ العينُ، هَمْلاً وهَمَلاناً وهُمُولاً: فاضتْ وسالتْ.

(٣) وردتْ في الأصل: «أيها العاذل ابغي كبداً» وهو مختل، ولا معنى له. والنصول، واحدها، نَصْل: حديدة السيف، والرمح الحادة.

(٤) عزريل، تخفيف اسم مَلَك الموت: عزرائيل. أي هل يكتب له حياة طويلة و(عزرائيل الحب) له بالمرصاد؟

(٥) في الصدر خلل عروضي ظاهر بسبب تراكم الكلام بما يزيد على تفاعيل [الخفيف]. فضلاً عن الإشكال في حقيقة «تريني» هل هي للمخاطبة أم للمؤنث الغائب، أم هي مصحَّفة من (تراني). وقس على ذلك ما بعدها من الكلام.

أنا منهم فذرْ أخاكَ ضجيعاً ... كيفَ يأسى على أخيكَ عذولُ؟
لَا تعِبْ ما ترى بهِ من نحولٍ ... زينةُ العاشقينَ هذا النحولُ[1]
واعذُرِ الصبَّ ما بقيتَ خليَّ الـ ... ـقلبِ فالصبُّ قلبُه مَتْبُول[2]
أنا من ترتمي الحسانُ عليهِ ... إنْ رأتهُ جميلةٌ أو جميلُ
وأقلُّ الغرامِ عندي أنّي ... بينَ قومي على الغرامِ دليلُ
يا عيونَ الأغنّ لا تُزهقي اللحـ ... ـظَ فسيفُ اللّحاظ عَضبٌ صقيلُ
ما لهذا القَوامِ يَخطرُ كِبْراً ... كغُصونِ الرياضِ حين تميلُ؟
ولذاكَ الدلالِ يتركُ مَنْ عَزَّ ... ذليلاً، فكلُّ صبٍّ ذليلُ!
علِّليني بالموتِ كيفَ تَشائيـ ... ـنَ فإنّي على المماتِ عَليلُ
أنا واللّهِ، أشتهي الموتَ في الحبِّ ... ليأسىْ عليَّ هذا البخيلُ(*)

❁ ❁ ❁

وقال في مقام شبيه، متجشماً أسلوب القدماء بكثير من التقليد والتقريرية:

[من الكامل]

مرّي علينا يا صَبَا نَجْدِ ... تشكو إليكِ مدامعي وَجْدِي!
أمسيتُ والأشواقُ مُضنِيةٌ، ... عندي من الأشواقِ ما عندي
تَجري عيوني في محاجرِها ... ومدامعي تجري على خَدّي
ما أنسَ والأيامُ تَجْمَعُنا ... وكأنني في جنّةِ الخُلدِ
تشكو كما أشكو الهوى وإذا ... طارحتُها أبْدَتْ كما أُبْدِي
وتُراعُ من ذكرِ الصدودِ إذا ... خطرتْ بقلبي لوعةُ الصدِّ

---

(١) الضمير في «لا تَعِبْ» للعاذِلِ، في بيت سابق..

(٢) المتبولُ في الحب، الذي ذهب عقله. والتَّبْلُ، يقع في المرتبة العاشرة (تصاعدياً)؛ يليه في علوّ الرتب: التدليه، والهُيوم. (فقه اللغة/ للثعالبي (بعنايتنا) ص ٢١١).

(*) قال بشار:

أنا واللّهِ أشتهي سِحْرَ عَينيـ ... ـكِ وأخشى مصارعَ العشّاقِ

وكان أبو تمام يقول: «ما رأيت شعراً أغزل منه». وليس فيه من الغزل إلّا أنه جبان غير محبٍّ، وما الجبن من شيم العاشقين. وأين هذا ممن يشتهي الموت في هوى من أحبَّه ليذكره، فيحزن عليه، ويشتد في ذلك حتى يجعل نفسه عليلاً من أجل هذا الموت؟ والحقُّ أن بشاراً لو قال مثل هذا لجنّ به أبو تمام.

وإذا بكيتُ جرَتْ مدامعها جريَ الندى صبحاً على الوردِ
قلبي وما في العيش لي طمعٌ ما دمتَ يا قلبي على وَقْدِ[١]
هل كلُّ من يهوى يموتُ أسىً أم قدْ بُليت بذا الأسى وحدي؟
سَلْ مسْرحَ الآرامِ[٢] ما فعلتْ تلكَ الظباءُ الغيدُ من بعدي!
لَهفي عليها كم وَفَيْتُ لها لوْ أنَّ لهفي بعدها يُجْدي
ولكم حفِظْتُ لها الوِدادَ على بُعْدِ المزارِ وضيَّعَتْ وُدِّي!
ماذا أصابكَ بعد ما نظرتْ ورمَتْكَ عيناها على عَمْدِ؟
أو ما نَهَيْتُكَ في (الجزيرة) عن كُنُسِ المهى ومصارعِ الأسْدِ؟[٣]
وأَرَتْكَ الألحاظَ مُغْمَدَةً كالسيفِ مسلولا من الغمدِ[٤]
أَعْدَىٰ على كبدي هواكَ فلو أعلَمْتَني أنَّ الهوى يُعدي[٥]
يا قلبُ ما لي ما أضنُّ به من بعدما فقدت سوى فقدي[٦]
حَمِّلْ تحيَّتكَ الصَّبا فعسى يوماً تعودُ إليكَ بالردِّ
واجزعْ على قربِ الديار فقد صبَرتْ أوانسُها على بُعدِي
يا غادةً أرعى العهودَ لها هل أنتِ باقيةٌ على عهدي؟
أمسيتُ في قلبي وليت إذنْ قلبي يساعدني على الوجدِ

❁ ❁ ❁

وقال في الحبيب البعيد:

[من السريع]

يا مَن أطالَ الهجرَ من بعدما مسَّنِيَ الحبُّ بما مسَّني[٧]

---

(١) الوَقْدُ، والوُقود، والوَقَدانُ، مصدرُ وقَدت النارُ: اشتعلتْ.
(٢) الرئم: الظبي الخالص البياض، ج: أرْآم وآرام.
(٣) الكُنُس، ج: كِناس، وهو مأوى الظبي في الشجر الملتفّ، ويجمع على أكْنِسَة.
(٤) أي أن هذه الألحاظ، وهي مغمضة الأجفان، لها تمام فعل السيوف التي سُلّت من أغمادها.
(٥) أعْدى، بمعنى: نَقَلَ العدوى.. شبه الهوى بالداء المُعْدي.
(٦) نلاحظ هذا الانتقال العشوائي بين ضمائر النص، من متكلم، إلى غائب، إلى مخاطب من دون مسوّغ أو تمهيد.. وما ذلك في رأينا، إلا لأن معظم شعر الغزل والنسيب لدى الرافعي بارد التجربة، ماضٍ فيه الشاعر على نهج القدامى أسلوباً وأفكاراً وصوراً ومفرداتٍ، على غنى ذلك الشعر وذيّاك الأسلوب.. سقى الله زمانهم بعبق الخلود، ونضّر ثراهم على مر العهود.
(٧) مَسُّ الحب، هنا: شبهُ الجنون.

أنتَ وإن أسرفتَ في ذا الجفا — أحسنُ خلقِ اللهِ في أعيني

❁ ❁ ❁

وقال في الحبيبة المتسلِّطة:

[من المجتث]

هيفاءُ تأمرُ بالحُسْـ — ـنِ مَنْ تشاءُ وتَنْهى
تُغنيني عن البدرِ والبد — رُ ليسَ يغنيكَ عنها
أعطيتُها بيدي رو — حِيَ ولمَّا تَصُنْهَا
يدِيْ التي قَتَلَتْني — فكيفَ أقتصُّ منها؟[*]

❁ ❁ ❁

وقال في قوة صموده وثباته على مستوى الحب الرفيع:

[من المنسرح]

ويحكَ يا قلبُ عُذتَ للنَّزَقِ — أما رَمَتْكَ الظِّباءُ بالحَدَقِ[1]؟
وهل نسيتَ الهوى وما بعدتْ — أيامُ ذاكَ الودادِ والمَلَقِ[2]؟
وكيفَ ينسى الغريقُ روعتَه — إذا نجتْ روحُهُ من الغرَقِ؟
رحماكَ يا قلبُ ليس من شِيَمي — أني أبيعُ الوفاءَ بالحُمُقِ
فاقبرْ بلحدِ الهوى لواعِجَهُ — إنكَ إن تَمُتْ فيهِ لم تُفِقِ
ما خُلِقَ القلبُ للغرامِ ولم — تُخلقْ عيوني لذلكَ الأرَقِ

❁ ❁ ❁

وقال يهوى حبيبَه في الوصل والقطع:

[من مجزوء الكامل]

جافيتَني والذنبُ ذَنبُكْ — وظَلَمْتني فاللَّهُ حَسبُكْ
ما بالُ قلبِكَ لا يَرِ (م) — قُّ أَمِنْ صَميمِ الصخرِ قلبُكْ؟
وبخِلْتَ حتى بالرَّسا — ئلِ خوفَ أن تَشْفِيهِ كُتْبُكْ

(*) هذا سؤال يعني الفقهاء أكثر مما يعني الأدباء، فهل من فقيه أديب، أو أديب فقيه يبين لنا كيف يكون القصاص هنا؟

(١) النَّزَقُ: الخفَّة والطيش.

(٢) المَلَق: اللينُ من الكلام، والتودُّدُ.

وضَننْتَ حتى بالعِتا ... بِ وربما يكفيهِ عَتْبُكْ
ومنعتَ حتى الطَّيفَ لا ... يدنو وقربُ الطيفِ قُرْبُكْ
صِلْنِي أو اهْجُرْ إنَّني ... في الوصلِ والهجرِ أُحِبُّكْ
ولقد تَرَى أن الوقا ... دَأْبي فما للصدِّ دأْبُكْ
كلُّ الأنامِ عواذلي ... صَحْبي يُعَنِّفني وصَحْبُكْ
فاعجَبْ وتِهْ ماذا عليـ ... ـكَ إذا أَذلَّ الناسَ عُجْبُكْ؟
إن تَبتعدْ أو تقتربْ ... فأنا على الحالينِ صَبُّكْ

❁ ❁ ❁

وقال منادياً قلبه في صيغٍ طلبية استفهامية طاغية:

[من المتقارب]

أناديكَ يا قلبُ مذ ودَّعوا ... فما لي أنادي ولا تَسْمعُ؟
أمَا أنتَ أخضعْتَني للهوى ... وما كنتُ، لولا الهوى، أخضعُ؟
أمَا قدْ أطعتُكَ في حُبِّهِ ... وكنتُ له العبدَ بل أطوعُ؟
ألم أَئتمِنْكَ على أضلعي ... وكانتْ مغانيكَ الأضلعُ[1]؟
أَمَا أنتَ بيتُ حياتي وهلْ ... لنفسيَ من بَعدها مطمعُ؟
وكنتَ أظنكَ لي راجعاً ... فما لك يا قلبُ لا ترجعُ؟
أما والذي في يديه القلوبُ ... لقد أمستِ العينُ لا تهجَعُ[*]
وباتت من الدمع مطروفةً ... فأنَّى ذكرتُ اسمه تُدمِعُ[2]
ويُسْرِعُ في خاطري ذِكرُهُ ... ودمعيَ من ذكرِهِ أسرعُ
وقد غادرتْني النوى بعدَهُ ... إذا وصفوا لي النوى أجزَعُ[3]
نحيلٌ كأنيَ من خصرِهِ ... ولكنني دونه الموجَعُ
وقد حسبونيَ طيفَ الخيا ... ل لولا الوسادةُ والمضجعُ
فيا ظبيُ كيفَ أسلْتَ الحشا ... وكنتَ بِوادي الحشَا ترتعُ؟
ويا بدرُ كيفَ صدعتَ الفؤاد ... وكنتَ بآفاقِهِ تَطْلُعُ؟

---

(١) المغاني، ج: مَغْنَى، المنزل أو الربعُ الذي غَنِيَ به أهلُه.
(*) سقط عجز البيت السابع، وصدرُ البيت الثامن، من طبعة بيروت.
(٢) «تُدمع»، ضميرُها يعود إلى القلوب.
(٣) النوى: البعدُ والفراق.

أقامَ بموضعِ قلبي الأسى ... فلو عادَ لم يَسَعِ الموضِعُ[١]

❁ ❁ ❁

وقال فيه جامعاً بين الحب والنسك:

[من السريع]

يا فاتن النسّاكِ ما عَهِدُنا ... أن يَدخُلَ المسجدَ ريمُ الفلاةْ

أما تخافُ اللّهَ في خلقِهِ ... لو تركوا (إن شاهدوكَ) الصلاةْ؟

❁ ❁ ❁

وقال مورّياً بخليل الله (إبراهيم) وكليمه (موسى) عليهما السلام:

[من الخفيف]

وخليلٍ ضممتُهُ فتأبّى ... وانثنى نافراً كظبيِ الصَّريمِ[٢]

قالَ نارُ (الخليلِ) في القلبِ شبّتْ ... قلتُ أقبِلْ فتلكَ نارُ (الكليمِ)[٣]

❁ ❁ ❁

وقال مقارناً بينه وبين طائر الحمام:

[من المنسرح]

أَرَّقَنِي يا حَمامُ ذا الكَمَدُ ... فهل وجَدْتَ الهوى كما أجِدُ[٤]؟

بِتَّ على الغصنِ نائحاً غرِداً ... وبتُّ أبكي الذينَ قد بعُدوا

وأَعْيُنِي ما تزالُ واكِفَةً ... وأضلعي ما تزالُ تَتَّقِدُ[٥]

إنّا كلانا لعاشقٌ دَنِفٌ ... طارَ بنومي ونومِكَ السُّهُدُ[٦]

فنُحْ رويداً فما سوى كَبِدي ... تذوبُ، يا باعثَ الجوى، كَبِدُ

لي مهجةٌ تعشقُ الجمالَ وهلْ ... يلامُ في حُبِّ روحِهِ الجسدُ؟

---

(١) أي: لو عاد الحبيب ليحتلَّ موقعه من قلبي، لَمَا وسع القلبَ احتواؤه، لأن الأسى قد احتلَّ مساحة القلبِ كلَّها.

(٢) الصريم، هو مكان منعزل من الرمل، وهو مشتق من الصَّرْم: القطع. ومن الطبيعي أن يكون حيوانه ولا سيما الظبي، جفولاً نفوراً من كل إنسيٍّ.

(٣) البيت نموذج رفيع للتورية. فقد ورّى (الخليل) الذي هو الخلُّ والصاحب، بإبراهيم النبي خليل اللّه، وورّى (الكليم) الذي هو الجريح، بالكليم الذي هو النبي موسى كليمُ اللّه، عليه وعلى إبراهيم وعلى نبينا محمد أتمُّ الصلاة والتسليم.

(٤) الكَمَدُ: الحزن والكآبة.

(٥) العين الواكفة: التي تقطرُ بالدموع شيئاً فشيئاً.

(٦) العاشق الدنِفُ: المتهالك من سُقمه وحبه.

عـذَّبَـهـا بـالـصـدودِ ذو هَـيَـفٍ أَغْـيَـدُ قـدْ زانَ جـيـدَهُ الـجَـيَـدُ[(١)]

تَـعِـزُّ فـي حُـسْـنِـهِ الـظـبـاءُ وقـد ذُلِّـلَ فـي مُـلْـكِ حُـسْـنِـهِ الأَسَـدُ

قِـفَـا عـلـى دَارِهِ فـاسـألاهُ أَقـلُّ مـنْ وعـدِهِ الـذي يَـعِـدُ

وغَـنِّـيـا إنْ رأيـتُـمـا طـلـلاً (أقـفـرَ بـعـدَ الأَحِـبَّـةِ الـبـلـدُ)

⊛ ⊛ ⊛

وقال فيه نافياً عن نفسه السلوان من حبه:

[من الوافر]

عـزمـتَ عـلـى الـتـجـنـبِ أمْ تُـدِلُّ وهـل لِـسِـواكَ فـي قـلـبـي مَـحَـلُّ؟

أمَـا يُـرضـيـك مـنـي أنَّ نـفـسـي تَـذِلُّ ومـثـلُ نـفـسـي لا تَـذِلُّ؟

وقـدْ أحـرقْـتَ قـلـبـي مـا تُـبـالـي وفـيـهِ إلـيـكَ شـوقٌ مـا يُـبِـلُّ[(٢)]

فـسـلْ عـيـنـيـكَ مـا لـهـمـا اسـتـحـلَّا دمـي، ودمـي حـرامٌ لا يَـحِـلُّ؟

لـقـد كَـذَبَ الـعـواذلُ يـومَ قـالـوا سَـلَا أو سـوفَ يـنـسـاهُ فـيـسـلـو

ومـا أنـا والـسُـلُـوُّ ونـحـنُ قـومٌ إذا بـلـغـوا الـهـدايـةَ لـم يَـضِـلُّـوا

أرى أيـامَ عـمـري فـيـكَ تُـطـوى كـأنَّـكَ الـشـمـسُ والأيـامُ ظـلُّ

⊛ ⊛ ⊛

وقال يشكو الأسى، ويتلهف، ويتأسَّى بالصبر، مستخدماً جُموعاً سماعيَّة:

[من المتقارب]

ألَا أيـهـا الـقـلـبُ لا تـبـأسِ وأيـتـهـا الـنـفـسُ لا تـيـأسـي[(٣)]

أَإنْ نـفَّـروا الـظـبـيَ لـم تـأنـسـا لـوحـشـةِ لـيـلـي فـلـم آنـسِ؟

وضـاقـتْ بـيَ الأرضُ حـتـى كـأنـي مـن الـضـيـقِ أمـسـيـتُ فـي مـحـبَـسِ

دعـاه يُـحَـجِّـبْـه داجـي الـهـمـوم فـمـا تـطـلـعُ الـشـمـسُ فـي الـحِـنـدسِ[(٤)]

وإلَّا تُـعِـيـنـا عـلـى سَـلـوةٍ فـصـبـراً عـلـى الأعـيـنِ الـنـعَّـسِ

---

(١) الأغْيَدُ: المتثني بلينٍ ونعومة. الجَيَدُ: صفة الطول في العنق.

(٢) بَلَّ المريضُ وأَبَلَّ يُبِلُّ: صحَّ من مرضه وبَرَأَ.

(٣) لا تَبْأس (من بَئِس بُؤساً) افتقر، فهو بائِس.

(٤) دعاه، فعل أمر تثنية مخاطب للقلب والنفس. والحِنْدِسُ: الليل الشديد الظلمة.

عـهـدتُـكُـمـا طـائـرَيْ بـانـسـةٍ ... وعُـودُكـمـا خَـضِـرٌ مُـكْـتَـسِـي
فـأيـبـسـهُ حَـرُّ هـذا الـهـوى ... ومـاءُ الـصِّـبـا فـيـهِ لـم يَـيْـبَـسِ
وسـامـكُـمـا الـشـوقُ هـذا الـهـوانَ ... وسـاءكـمـا فـي الـنـوى مـا يُـسـي[1]
وإنـي لـسَـيَـحـزُنُـنـي بـعـدَ ذا ... كَ أن يَـذهـبَ الـحـبُّ بـالأنـفـس
فـيـا آنـسَ الـلّـهُ أهـلَ الـهـوى ... ومـن يُـخـلَـقـون بـلا مـؤنِـسِ
تَـرىٰ الـصـبَّ تَـحـسَـبُـهُ مـيِّـتـاً ... ضجـيـعـاً عـلـى الـقـبـرِ لـم يُـرمَـسِ[2]
وحـسْـبُ بـنـي الـشـوقِ أن يـعـرفـوا ... بـذُلِّ رؤوسِـهِـمُ الـنُّـكَّـسِ[3]
لـقـد ضَـلَّ بـيـنَ الـهـوى والـعـيـو ... نِ رَأيُ الـفـتـى الـحـازمِ الأكْـيَـسِ
كـمـا ضَـيَّـعَ الـعـقـلَ أهـلُ الـعُـقـو ... لِ بـيـنَ الـمُـدامَـةِ والأكـؤسِ
فـيـا كـوكـبَ الـصـبـحِ إمَّـا بـزغْـتَ ... تـألَّـقَ تـاجـاً عـلـى الأرؤسِ
ويـا طـلـعـةَ الـبـدرِ إمَّـا سَـفَـرْتِ ... كـمـا تُـسْـفِـرُ الـخَـوْدُ فـي الـمـجـلـسِ
ويـا غـادةَ الـروضِ إمَّـا جـرَرْتِ ... ذيـولَ الـحـرائـرِ والـسـنـدسِ[4]
ويـا أُذُنَ الـريـحِ إمَّـا وَعَـيْـتِ ... سـلامَ ذوي الـكَـلَـفِ الـبُـؤَّسِ[5]
ويـا شـفَـةَ الـوردِ إمَّـا لَـثِـمْـتِ ... عـيـونـاً تـفـتَّـحُ فـي الـنـرجِـسِ
ويـا لِـمَّـةَ الآسِ فـيـنـانـة ... كَـلُـمَّـةِ ذي الـصُّـيَّـدِ الأشـوسِ[6]
ويـا قُـضُـبَ الـبـانِ مـيَّـاسـةً ... تَـرنَّـحُ كـالأهْـيَـفِ الـمُـخـتَـسِـي[7]
خـذي لـلـمـحـجَّـبِ عـنـي الـسـلامَ ... وقـولـي نَـسِـيـتَ فـتًـى مـا نَـسِـي

❁ ❁ ❁

(١) سامكما، من السَّوْم، وهو الخسْفُ والذلُّ. ويُسِي، تخفيف يُسيء (بالهمز).
(٢) يُرْمَس، يُلْحَد في القبر.
(٣) النكَّسُ: جمع ناكِسٍ، وهو المطأطئ الرأس من الذلّ والهوان.
والجمع الحقيقي لِـ ناكس: نواكس. والنكَّسُ (جمع قياسي).
(٤) السندسُ، ضرب من رقيق الديباج.
(٥) البُؤَّسُ (بالتشديد) على سبيل القياس، والجمع: بائسون، وأبْؤُس.
(٦) كذلك الصُّيَّدُ، التي لا وجود لها كما هي. والأرجح أنها (الصَّيَدُ) بمعنى الكِبْر والشموخ.
والأشوس: المقدام، الذي لا يَهابُ. واللُّمَّة (بالضمّ) هكذا وردتْ: الرُّفقة. ولا معنى لها هنا.
أما اللِّمَّة (بالكسر) فهي بمعنى الشعر الملتفّ والمتجمّع. فيكون المعنى: نبات الآس (وهو الريحان) المتجمع، والفينانة: ذات الأفنان الوارفة، وقصد بها «الحسنة الشعر الطويلة».
(٧) الأهيفُ: الهضيم الخصر، الرقيق القدّ، الناعم، مؤنثه: هيفاء.

وقال يذكر وفاءه للحبيب واحتفاظه بجميل وصاله:

[من الخفيف]

زعموني نسيتُ والهَجْرُ يُنسي ... وتَلاهَيْتُ بعدَ أيامِ أُنسي
سائلوا النومَ هل رأتْه عيوني ... واسألوا عن هوايَ مالِكَ نفسي!
فوَرَبِّ السماءِ والأرضِ إنّي ... لأرَى في مصارعِ الحبِّ رَمْسي
كيفَ أسلو وقد حَسَوْتُ كؤوسي ... من خُدودٍ ومن مَراشفَ لُعْسِ
كلما دارتِ الشفاهُ بكأسٍ ... دارَ خدّاه لي بكأسٍ وكأسِ
وأرى وجهَهُ وقد بدَتِ الشمـ ... ـسُ فأغدو ما بينَ شمسٍ وشمسِ
ومتى كنتُ ناقِضَ العهدِ حتى ... أتناسى عهودَه بالتأسّي؟
إنما الحبُّ في الكرام حبيسٌ ... أنزلوهُ من صدرِهم خيرَ حبْسِ
هل ترى حُبَّ عَبلةَ ماتَ إلّا ... يومَ ماتَ الكريمُ فارسُ عبسِ(1)
وإذا كانَ بينَ قومٍ ودادٌ ... لم يخنهُ في القومِ غيرُ الأخسِّ
إكْفِني ذلكَ الصدودَ فإنّي ... لا أرى الصدَّ غيرَ طالعِ نحسِ
وارْوِ من مُهجَتي عليكَ غليلاً ... سَعَّرَتْهُ في أضلعي نارُ يأسي
إنني ذاكرٌ وِدادكَ ما عشْـ ... ـتُ وإن كانتِ الحوادثُ تُنسي
لا أرى عَبْرَتيَّ والنوحَ والسُّهْـ ... ـدَ ووَجْدِي، سوى فرائضَ خمسِ(*)
ولقد شفَّني العواذِلُ حتى ... خِلْتُ عمري ما بينَ يومي وأمسي

❁ ❁ ❁

وقال يخاطبها بلغة ومشاعر متكلّفة، وصور مكررة:

[من الخفيف]

سِحْرُ عينيكِ سالَ في تشبيبي ... فانتشى منهُ عِطفُ كلِّ أديبِ(2)
وتمشّى إلى القلوبِ كبُشْرَىْ ... يوسفٍ إذ مشتْ إلى يعقوبِ(3)

---

(1) فارس عبس، هو الشاعر الفارس عنترة بن شداد العبسيّ. وفي صدر البيت خلل عروضي واضح.
(*) أسقط البيت من القصيدة لأنه يمسُّ أو مسَّ شعور المحقق. في طبعة بيروت...
(2) العِطْف، الجانب، جمعه أعطاف. والتشبيبُ: إشعال نار الحب والصبوة.
(3) شبَّه ما أصابه من سحر عينيها وما اعتراه من تأثيره المرتقب، بالبشرى التي حملها إخوة يوسف عليه وعلى نبيّنا أفضل الصلاة والسلام، إلى أبيهم. وهي كناية عن القميص الذي احتفظ به يوسف منذ خروجه مع إخوته، ورَمْيه في الجبّ. يؤكد ذلك قوله تعالى في الآيتين ٩٣ و٩٦ من سورة يوسف: ﴿اذْهَبُوا بقميصي هذا فألْقوه على وَجْهِ أبي يأتِ بصيراً﴾، و﴿فلمّا أنْ جاءَ البَشيرُ ألْقاه على وَجْهِه فارْتَدَّ بَصيراً﴾.

يستميلُ المشوقُ نحوكِ هزَّ الـ ـخَمْرِ عِطْفَ الطَّروبِ نحوَ الطروبِ
فاعْجَبِي كيفَ شاءَ حسْنُكِ ما التيـ ـهُ إذا شاءَهُ الهوى بعَجيبِ؟
واخْضِبي بالقلوبِ لَحْظكِ إنّا لا نُحبُّ الحُسَامَ غيرَ خضيبِ[1]
وَتَجنَّيْ كما بدا لكِ فينا وبدا للدلالِ في تعذيبي
واتركيني تُراقب النجمَ عيني ودَعيني وما يشاءُ رَقيبي
كلُّ ما تكرهُ النفوسُ من الضُّرِّ (م) حبيبٌ إنْ مسَّها مِن حَبيبِ
يا دُعاةَ السهادِ في كلِ ليلِ وعداةَ الكرى وأهلَ النحيبِ
وذوي المُدْنفاتِ والكَبِدِ الحَرْ رَىٰ عليها من كلِّ صَبٍّ كَئيبِ
أطْلِعُوها على القلوب عساها تستحي من فِعالِها بالقلوبِ
لا تَضُنّي يا ظَبْيَةً أن تُحَيِّي عاشقاً هام في النَّقا والكثيبِ[2]
من بعيدٍ إذا اغتدَى من بعيدٍ وقريبٍ إذا اغتدى من قريبِ[3]
أنا أيوبُ من هواكِ فأينَ الصـ ـبرُ يسرو الهموم عن أيوبِ[4]؟
وفؤادي في راحتيكِ وخَيرٌ أن يكونَ العليلُ عند الطبيبِ

❁ ❁ ❁

وقال يخاطب غادة جميلة، منتهياً إلى معنى غريب:

[من الخفيف]

قلتُ للغادةِ البخيلةِ لمَّا رَفَضتْ رُقعتي وخافتْ جوابي[5]
ما لِمَرِّ النسيمِ يَجرحُ خدَّيْـ ـكِ ومرُّ النسيم مثلُ عتابي؟

---

(١) اخضبي لحظك بالقلوب: اجرحي القلوب بلحظك، كأنما اللحاظ سهام جارحة. لا نحب الحسام إلّا مخضّباً بالدم.

(٢) النَّقا: مرتفعُ الرمل، والكثيب: الرمل المرتفع المحدَوْدب.

(٣) هذا البيت يشبه قول الشاعر القديم:

كأننا والماءُ من حولنا قومٌ جلوسٌ حولهم ماءُ

أي كالذي فسَّر الماء بعد الجهد بالماء.

(٤) سَرا (بالألف اللينة) يَسْرو: نَزَع. ويَسْرو الهمَّ عن أيوب: يُلقيه عنه. وتشبُّه الشاعر بأيوب تصور مبالغ فيه، مهما كان عذاب الشاعر ومعاناته: إنْ هي إلّا ذاتية، بينما معاناة أيوب خارجة عن نطاق البشر. . .

(٥) رفضتْ رقعتي: كناية عن الصحيفة التي تضمنت رسالة الشاعر. استعار لها أحد أسماء أدوات الكتابة القديمة.

ولَلَمْسِ الحريرِ يُوجِعُ كفيـ ـكِ ولمسُ الحريرِ مثلُ كتابي؟
فرأيتُ العيونَ تنطقُ بالسحـ ـرِ وقالتْ عليَّ فصلُ الخطابِ
عوذتْ منكَ قلبَها بالتجني ووقتْ منك كفَّها بالخضابِ[1]

❁❁❁

وقال على المنوال نفسه:

[من الكامل]

حجبوهُ عن عيني فباتتْ صَبَّةً كيلا ترى في النوم طيفَ خيالِهِ
وبَقِيتُ يَعذُلُني المنامُ بصَدِّهِ ويسومُني التبريحُ في إذلالِهِ
يا رَحْمَتَا للصبِّ فيما نَابَهُ حتى كرى جفنيهِ من عذَّالِهِ

❁❁❁

وقال يُصرِّفُ أَحوالَ الحب والمحبِّين، في وصايا حكميّة:

[من مخلَّع البسيط]:

ما لكَ عندَ الحبيبِ عُذْرُ وكلُّ يومٍ نوىً وهَجْرُ
إذا تناءيتَ لا يُبالي وإن تقرَّبْتَ لا يُسَرُّ
يأبى عليهِ الدلالُ أنْ لا يزالَ فيهِ عليكَ كِبْرُ
ليسَ سوى الحبِّ من جنونٍ وليسَ غيرَ العُيونِ سِحْرُ(*)
تشكو إلى البدرِ مِن جَفاهُ كلاهما لو علمتَ بدرُ
وترقُبُ الفجرَ في الدياجي وهل لِلَيْلِ المُحِبِّ فجرُ؟
قد عرفَ الناس ما تعاني وليسَ للعاشقينَ سِرُّ
فلا تُطِعْ من يلومُ فيهِ ولا يَغُرَّنْكَ ما يَغُرُّ

---

(١) التجنّي: قصد به التجنُّن، استبدل النون الزائدة بالياء، كما فعل من قبل بالتظنّي، وأصلها: التظنُّنُ. ومعنى التجني، الاستتار والتغليف. والغريب في الأمر هذا الانتقال السَّيِّئ من ضمير المخاطب إلى ضمير المتكلم، إلى ضمير الغائب في البيت الأخير، كأنما هو معزول عن السياق، لا يتوافق مع الكلام السابق.

(*) من عجيب ما يروى عن (سحر العيون) أنَّ فتًى رأى عيناً سوداء من كوَّةٍ، فافتتن بها، وطال تردده على الكوة زمناً حتى ضَنِيَ، فشكا لبعض أصدقائه، فقال: تلك دار بعض أقاربي، ولا عهد لي بمثل تلك العين فيها. ثم دخل الدار فلم يرَ كما وصف إلا عين (شاة) مربوطة عند الكوة؛ فعاد متعجباً، وأخبره، فلم يصدقه صاحبُنا، وقضى غراماً.

ولا تــكُـنْ لـلـوشـاةِ عـبـداً ... فـلـيـس بـيـنَ الـوشـاةِ حُـرُّ
واصـبـرْ عـلـى الـلـغـوِ صـبـرَ قـومٍ ... مَـرُّوا كِـرَامـاً غـداةَ مَـرُّوا[1]
وهَـوِّنِ الـخَـطْـبَ كـم عَـسـيـرٍ ... أعـقَـبَـهُ فـي الأمـورِ يُـسـرُ
مـاذا عـلـى الـدهـرِ إنْ تَـمـادَى ... وكـلُّ يـومٍ عـلـيـكَ دَهْـرُ؟
وكـيـفَ تـرضـاهُ وهـوَ حُـلْـوٌ ... وتـجـزعُ الـيـومَ وهـوَ مُـرُّ؟
لا تَـرْجُ مـن أغـيـدٍ وفـاءً ... شـيـمـةُ أهـلِ الـجـمـالِ غـدْرُ(٭)
واصـبـرْ لـهـا مـا دعـاكَ خـطـبٌ ... إنَّ دواءَ الـهـمـومِ صَـبْـرُ
تَـفـنـىٰ الـلـيـالـي ولـيـسَ يـبـقـىٰ ... مـا يَـنـفـعُ الـمـرءَ أو يَـضُـرُّ
يـا مـن تـعـذَّبـتُ فـي هـواه ... أمَـا لـصـبـري الـطـويـلِ أجْـرُ؟
بـي حـسَـراتٌ عـلـيـكَ مـا إن ... يَـقْـوَىٰ عـلـى مَـسِّـهـنَّ صَـدْرُ
نَـسِـيـتَـنـي والـزمـانُ بـؤسٌ ... وكـنـتَ لـي والـزمَـانُ نَـضْـرُ
إذا رضـيـنـا فـمـا عـلـيـنـا ... أنْ لـيـس يـرضـى زيـدٌ وعـمـرو

❁ ❁ ❁

وقال في صحوة قلب المحب الدائمة:

[من السريع]

يـا صـاحِ مَـنْ لـلـقـلـبِ مِـنْ نـائـمٍ ... كـلُّ مُـحِـبٍّ فـيـه سَـهْـرانُ
هـجـرتُ نـومـي وهْـوَ لـي هـاجِـرٌ ... فـكـلُّ عـمـري فـيـه هِـجْـرانُ
لـو سـلَّـطـوا عـيـنـيـه فـي عـسـكـرٍ ... لـم يـبـقَ فـي الـعـسـكـرِ إنـسـانُ

❁ ❁ ❁

وقال في معادلة لطيفة بين خد الحبيب والجنَّة:

[من السريع]

أبـصـرتُـه تـحـتَ ظـلامِ الـدجـى ... تُـضِـيء فـي خـدَّيـهِ لـي جـمـرتـانِ
فـقـلـتُ فـي الـخـدَّيـنِ نـارُ الـحـشـا ... فـقـال لـكـنْ فـيـهـمـا جـنـتـانِ

❁ ❁ ❁

(١) في هذا البيت اقتباس قرآني شبه حرفي، لقوله تعالى، في وصف عباد الرحمٰن، الآية ٧٢ من سورة الفرقان: ﴿والَّذين لا يَشْهَدُونَ الزورَ وإذا مَرُّوا باللَّغْوِ مَرُّوا كِراماً﴾.

(٭) سقط البيت من طبعة بيروت.

وقال في أَحْور العينين:

[من المنسرح]

حِكمةُ اللّهِ في القلوبِ فما ترحمنا عينُهُ من الحَوَرِ[1]
وما أرى قلبُهُ يرقُّ لنا كأنما قلبُهُ من الحجرِ
يا فاتنَ الناسِ حسنُ صورتهِ ما تتقي اللّهَ خالقَ الصورِ

❁❁❁

وقال في حبيب خطَر، ثم غاب، منتهياً إلى حِكَم غزلية:

[من الوافر]

أَطَابَ لذلكَ الرشإ الجفاءُ فلذَّ لأعيني فيهِ البكاءُ؟
رَشاً ذلَّتْ له الأُسْدُ الضواري وعزَّتْ في مَلاحته الظباءُ
تعلَّمَ كيفَ تَنبعثُ المنايا وكيف تُراقُ في الحُبِّ الدماءُ
وعلَّمَ ناظِرَيْهِ الفتكَ حتى كأنَّ عليهما وقَفَ القضاءُ
تلقَّتْهُ الصَّبا سَحراً فمرَّتْ وفيها للمحبينَ الشفاءُ
له مني التذلُّلُ والرضاءُ ولي منه التذلُّلُ والإباءُ[2]
فما ألقاهُ إلا في الأَماني وهل يَشْفي الجوى هذا اللقاءُ
إذا ما شاء ردَّ عليَّ نومي ولكني أراه لا يشاءُ[3]
لعَمري ليس في الدنيا مليحٌ يكونُ سجيَّةً فيه الوفاءُ
ولوْ مَثَلَ الجمالُ لكان نفساً خلائقُها الخيانةُ والرياءُ(*)
عفتْ تلكَ المرابعُ والمغاني وما عفتِ المودةُ والإخاءُ

---

(١) الحَوَرُ، أن يشتدَّ بياضُ العين وسوادُ سوادها، وتستديرَ حدقتُها، وترقَّ جفونُها، ويبيضَّ ما حولها... ولا تُسمَّى المرأةُ حوراءَ حتى تكونَ مع حَوَر عينيها بيضاءَ لون الجسدِ، وقيل: الحَوَرُ أن تَسْودَّ العينُ كلها مثل أعين الظباء، والبقر، وليس في بني آدم حَوَر، وإنما قيل للنساء: حُورُ العِينِ لأنهنَّ شُبِّهْنَ بالظباء والبقر.
والحَوْراء: البيضاء، والأعراب تُسمّي نساء الأمصار حواريّاتٍ لبياضهنّ وتباعدهنّ عن قَشَف الأعراب بنظافتهنّ (لسان العرب [حور] ٤/ ٢١٩).

(٢) يقتضي سياق المعنى أن يكون البيت معكوس المعاني التي وردت فيه، أي، هكذا:
لهُ مني التذلُّل والرِّضاءُ ولي منه التذلُّل والإباءُ

(٣) منتهى النثرية في قوله هذا..

(*) أسقط هذا البيت والذي قبله مباشرةً، من طبعة بيروت لأنهما يعرضان للخليقة والنفس.

وأصبحتِ الليالي حاسراتٍ ... كما لطمتْ عوارضَها النساءُ[1]
وفي قلبي من الهِجْران سُقمٌ ... وفي كَبدي من الأَشْواقِ داءُ
ولَيلٍ بثُّ أقضيه بُكاءً ... وما لليل بعدهمُ انقضاءُ[•]
تَمرُّ به الفَجائعُ مُشرِعاتٍ ... وأَنجُمُه كآمالي بِطاءُ
لوَ انّ على الكواكب ما بنفسي ... لأَلْقَتْها إلى الأرضِ السماءُ
همومٌ تُشفِقُ الأَطوادُ منها ... وأحزانٌ يَضيقُ بها الفضاءُ
كأني ما لبستُ الصبحَ تاجاً ... تألَّقُ فوقَ مفرقِهِ ذُكاءُ
ولم أنضُ الكؤوسَ محجَّلاتٍ ... تخفُّ بها إلى الهمِّ الطِّلاءُ[2]
بروضٍ تصدحُ الآمالُ فيه ... ويرقصُ بين أيدينا الهناءُ
وقد هَبَّ النسيمُ على فؤادي ... كنِضْوِ اليأسِ هبَّ له الرجاءُ[3]
كأنَّ من المجرَّةِ فيه نهراً ... تَحومُ عليهِ أفئدةٌ ظِماءُ
وقد أَنِسَ الحبيبُ ومرَّ يلهو ... كما تلهو بمسرحِها الظباءِ
وضرَّجتِ المدامةُ وجْنتَيْهِ ... فكادَ الوَرْدُ يفضحُهُ الحياءُ
ومالَ، فراح يرقُصُ كلُّ غصنٍ ... وللأغصانِ بالقدِّ اقتداءُ[4]
زمانٌ كانَ مثلَ الصبحِ راحتْ ... بهِ الدنيا وأعقَبَهُ المساءُ
كذاكَ الدهرُ حالٌ بعدَ حالٍ ... لأهليهِ التنعمُ والشقاءُ
إذا سَرَّتْكَ أيامٌ أساءَتْ ... فليتَكَ لا تُسرُّ ولا تُساءُ
وإن لم يبقَ في الدنيا حبيبٌ ... فأولُها وآخرُها سَواءُ

❁ ❁ ❁

---

(١) العوارِضُ، واحدها: عارضٌ، وهو جانبُ الوجه أو: صفحةُ الخَدِّ.

(•) أسقط البيت من طبعة بيروت. . ولا ندري السبب. أيكون عدم انقضاء الليل ـ لدى الشاعر ـ كفراً؟

(٢) في طبعة بيروت: لم أنضِ (بالكسر) خطأ، والصواب: لم أنضُ من [نَضَا، يَنضو]: يَنْزِعُ ويُخرِج. ولا معنى هنا لـ(أنْضَى) الرباعية.
وقوله: «الكؤوس محجَّلات» صورة بديعة على جانب من التعقيد، لارتباط (التحجيل) ببياض الأقدام حيث مواضع الخلخال وتراخي الثوب، وما شابه. ولن نفصِّل هذه الصورة تاركين للقارئ حريَّة تمثُّلها. والطِّلاءُ: الخمرُ.

(٣) النِّضْوُ: المهزول، أجهده السَّفَر.

(٤) تشبيه مقلوب. أو قل: تشبيه ضمنيٌّ لطيف على تفنن في الجناس البديعي.

وقال في زمان الحب الأول:

[من المتقارب]

إذا مــا بــكــيــتُ فــنُــحْ يــا حَــمــامْ ... وطــارِحْ أَخــاكَ شُــجــونَ الــغَــرامْ

ويــا نــفــحــاتِ الــصــبــاحِ احْــمِــلــي ... بِــجَــيْــبِ الــصَّــبــا نــفــحــاتِ الــسـلامْ

ومُــرِّي بــتــلــكَ الــدِّيــارِ الــتــي ... بــكــيــتُ عــلــيــهــا بــكــاءَ الــغَــمــامْ

فــكــم زمــنٍ هــامَ فــيــهــا الــفــؤا ... د بــيــنَ الــفــتــاةِ وبــيــنَ الــغُــلامْ(1)

بــكــيــتُ لــصَــحْــبِــي فــأبــكَــيْــتُــهــم ... وكــم مــســتــهــامٍ بــكــى مــســتــهــامْ!

وذو الــشــوقِ يــرثــي لإخــوانِــه ... كــذي الــســقــمِ يــرحــمُ أهــلَ الــســقــامْ

ألا فــرَعــى الــلَّــهُ ذاكَ الأنــيــسَ ... وإنْ كــانَ روَّعــنــا بــالــخــصــامْ!

هــوَ الــبــدرُ لــكــنَّــهُ ظــالــمٌ ... وذلــكَ يــكــشــفُ عــنــا الــظــلامْ

وقــالَ صِــحَــابــيَ خــذْ فــي الــمــنــى ... فــقــلــتُ أراهُ ولــو فــي الــمــنــامْ

ومــن لــي بــذاكَ الــرُّضــابِ الــذي ... أرى كــلَّ خــمــرٍ ســواهُ حــرامْ

لــقــد هــجــرَ الــحــبُّ جُــلَّ الــقــلــوب ... ولــكــنــهُ فــي ضــلــوعــي أقــامْ

❁ ❁ ❁

وقال في جميل فاتكٍ:

[من مجزوء الوافر]

أمــا آنَ لــهــذا الــمُــغــ ... ـرضِ الــغــضــبــانِ أن يــرضــىٰ؟

رمــتْ عــيــنــي الــفــؤادَ بــهِ ... فــبــعــضــي قــاتــلٌ بــعــضــا

وقــد ألْــهَــهُ الــحــبُّ ... فــأدَّيــنــا لــه الــفَــرْضــا(*)

ومــا أصــبــحَ مــثــلَ الــشــمــ ... ـسِ حــتــى فَــتَــنَ الأرضــا

فــإن يُــقــضــى عــلــيَّ بــه ... فــقــد قُــدِّرَ أنْ يُــقْــضَــىٰ

ولــســتُ إذا الــطــبــيــبُ جــنــى ... أرى الــذنــبَ عــلــى الــمــرضــىٰ

❁ ❁ ❁

وقال في صولة الحبيب:

[من الكامل]

لــم يــألُ صَــبــراً عــنــكَ حــيــن هــجَــرْتَــه ... لــو كــان يــنــفــعُ صَــبــرُهُ لــسَــلاكــا

---

(1) أراد حُبَّه الأول عندما كان غلاماً، وكانت حبيبته فتاة صغيرة. ولم يُرد حُبَّ الفتيات والغِلْمان.

(*) أُسقط البيت من طبعة بيروت، والسبب واضح هو ـ «والعياذُ باللّه» ـ تألُّهُ المحبوبِ!!

تطوي الليالي في هواكَ حياتَه وأراهُ يَنساها ولا يَنساكا
رُحماكَ يا من قد أطالَ بليَّتي يا منْ أطالَ بليَّتي رُحماكا[1]
أعليَّ هذا الهجرُ طالَ عذابُهُ وعلى الذي يهواكَ صالَ هواكا؟
فلقد عرفتُ بكَ الشقا بعدَ الهنا لمَّا غضِبْتَ عليَّ بعد رضاكا
نَهْنِهْ دموعَكَ يا حزينُ فإنها دُوَلٌ، سيُضحِكُكَ الذي أبكاكا[2]

❁❁❁

وقال يعرض كلَّ أنواع المعاناة، والذلّ والمكابرة في مسالك الحب:

[من السريع]

قولوا لهذا الرشإِ الهاجرِ إنَّ دموعي جرحَتْ ناظري
أبيتُ لا بدرُ الدجى مُسْعدي ولا أخوهُ في الكرى زائري
والليلُ في خطوةِ أقدامهِ أبطأُ من تأميليَ العاثرِ[3]
وطائرُ البانِ على أيكهِ مكتحِلٌ منْ نوميَ الطائرِ[4]
وبي هوًى قام على مهجتي يُنفِذُ أمرَ الملكِ الجائرِ
أُطيعهُ في قَتْلِ نفسي وما عليَّ إلّا طاعةُ الآمرِ
من لم يكنْ مثلي فلا يدَّعي حُبَّ ذاتِ النظرِ الفاترِ[5]
أنا الذي أَرسلَ ذكرَ الهوى في الناسِ مثلَ المثلِ السائرِ
من معْشَرٍ نالوا العُلى كابِراً تُعزى له العلياءُ عن كابرِ[6]
حَلُّوا ذُرى الفخرِ وما غيرُهم يسمو إلى الذروةِ من فاخرِ
فقل لهذي الأرضِ تُزهى بنا زَهْوَ السما بالفَلكِ الدائرِ
إنّا ليوثٌ شهدوا أنها أشبالُ ذاكَ الأسدِ الكاسرِ
المفزعِ الدنيا بسُمْرِ القنا والضاربِ الآفاقَ بالباترِ
والمُحْكِمِ العَدْلَ كما شاءَه من باتَ يخشى بطشةَ القاهرِ

---

(١) لغةٌ من فَسّرَ الماءَ بالماء..
(٢) نَهْنِهْ دموعَك: كفكفْها وازجُرْها... والدُوَلُ، رمزٌ، للمداولة والمعاقبة والزوال.
(٣) تشبيه ضمني؛ شبَّه انقضاء الليل الطويل الثقيل، بحركة آمالِه، المتعثّرة وهو تشبيهٌ بديع.
(٤) جناس تام موفق لغنى معنَيَيْ الكلمتين: «طائر» و«الطائر»، اللذين هما هنا: الفِرارُ، والاختفاء.
(٥) في عجز البيت خلل عروضي، يزول إذا قلنا: «حُبّاً لذاتِ النظر الفاترِ».
(٦) «كابراً عن كابر» مثل عربي قديم يعني التوارث المتين، من رجال كبار عن رجالٍ كبار.

ما عابني أن قيلَ ذو صبوةٍ ... أو قيلَ (مجنونُ) بني عامرِ
والحبُّ أهدى لفؤادِ الفتى ... من حاجةِ النفس إلى الخاطرِ
يحارُ عقلُ المرءِ فيهِ فهلْ ... من حيلةٍ في عقليَ الحائرِ
وبي مليحُ الدلِّ ذو طلعةٍ ... تُكمِدُ وجهَ القمرِ الباهرِ
وافتْ إليَّ المكرماتُ التي ... ليسَ لها غيريَ من شاعرِ
لو مرَّ بالظبياتِ لاستأنستْ ... وَجْداً بمثلِ الرشإِ النافرِ
ولو رأتهُ الأُسدُ في غابِها ... رأتْ مَذَلَّ الأَسدِ الخادرِ[1]
بَراهُ مَنْ صَوَّرَهُ فتنةً ... مهفهفاً كالغصُنِ الناضرِ[2]
يَسومُني الصبرَ وهل عاشقٌ ... من لم تُمِتْهُ لوعةُ الصابرِ؟
راحَ بنومي واصطباري معاً ... يتيهُ تيهَ الملكِ الظافرِ
وما اتَّقى اللهَ ولا يتَّقي ... في مدمعي الملتطمِ الزاخرِ
يا مُرْهَفَ الأعطافِ ماذا الذي ... تُرهِفُهُ من لحظِكَ الساحرِ؟
سلَبْتَني النومَ وضيَّعْتَهُ ... فرُدَّ بعضَ النومِ للساهرِ
كم عاذلٍ فيكَ وكمْ عاذرٍ! ... وما على العاذلِ والعاذرِ
إني امرؤٌ في نفسهِ عِزَّةٌ ... تُجِلُّهُ عن شيمةِ الغادرِ
إن قتلتْني صبوتي فالهوى ... أولُهُ يقتلُ في الآخرِ

❁ ❁ ❁

وقال في سِحْر الجمال:

[من الرمل]

خلقَ اللهُ الجمالَ حكمةً ... تُذْكِرُ الناسَ نعيمَ الآخرةْ
كلُّ عينٍ سهرتْ فيهِ ولمْ ... تكُ من قبلِ الهوى (بالساهرةْ)(*)
ليس ما يُروى عن السحرِ سوى ... ما نراهُ في العيونِ الساحرةْ

❁ ❁ ❁

---

(١) الأسد الخادر، المستتر في غيله وعرينه.

(٢) براه: خلقه وكوّنه. مهفهفاً: رقيقاً، ناعماً، ناحلاً.

(*) «الساهرة» من أسماء جهنم. قال تعالى: ﴿فإذا هُمْ بالسَّاهِرَةِ﴾. وهي أيضاً اسم فاعل من سهرتُ. ففيها التورية.

وقال في غيبوبة وسنانة:

[من الكامل]

زارتْ وقدْ طافتْ بنا سِنَةٌ ... فطفقتُ أُسمِعُها من العَتْبِ[1]

وكأنما أشفي جوًى بجوًى ... وأتوبُ من ذنبٍ إلى ذنبِ

فبدا لها فتدلَّلتْ ونأتْ ... تدعو على الأحبابِ والحُبِّ

فنهضتُ مضطرباً أرى فإذا ... بيديَّ من أسفي على قلبي

❁ ❁ ❁

وقال في كفِّ الحبيبة:

[من الطويل]

بنفسيَ من تشفي أنامِلُها الجوى ... فلو قبَّل المُضْنَى يديها لَما اشتكى

ولو أنَّ قلبي كانَ في القبرِ ساكناً ... ومرَّتْ عليهِ كفُّها لتحرَّكا(*)

❁ ❁ ❁

وقال يسترجع ربوع الحب القديم:

[من الكامل]

صدَّتْ، فكانَ سلامُها نَزْرا ... وغدَتْ تَضِنُّ بذلكَ النزرِ

ومَضتْ ليالٍ كنتُ أحسِبُها ... قبلَ التفرقِ، آخرَ العمْرِ

أيامَ نحنُ وعيشُنا رغَدٌ ... يجري الزمانُ بنا ولا ندري

من عاشقٍ يشكو لعاشقةٍ ... بثَّ الأسيرِ أخاه في الأسْرِ

وتميسُ في أثوابِها الحُمرِ ... كالغصنِ في أثوابِهِ الخُضْرِ

وكأنَّ ليلةَ إذْ تُقابلني ... بعدَ التمنعِ، ليلةُ القدْرِ

كانتْ سلاماً لا نُحاذِرُ في ... ما كانَ إلّا مطلِعَ الفجْرِ

---

(١) السِّنَةُ، من: وَسِنَ يَوْسَنُ، وَسَناً وسِنَةً، «والأصل في السِّنة: الوَسْنَةُ، حذفت واوها وكُسِرت السِّين. والسِّنَةُ من الرأس، والنعاسُ في العين، والنومُ في القلب. والسِّنَةُ: النعاس في قول الجميع. والنعاسُ ما كان من العَين، فإذا صار في القلْب، صار نوماً. وبالجملة، فهي فتورٌ يَعتري الإنسانَ ولا يَفقِدُ معه عقلَه». (**الجامع لأحكام القرآن**، للقرطبي جـ٣/ ص ٢٧٢).

(*) يقول شارح الديوان **محمد الرافعي**، ليس في تحرك قلب الميت إذا مرَّتْ عليه يد الحبيبة، غرابة، ولا هذا مستحيل. فقد ظهر أن طبيباً من أطباء (بطرسبرج) صنع جهازاً يعيد به الحياة إلى القلب بعد الموت؛ وجربه في غلام بعد موته بأربع وعشرين ساعة، فجعل قلبه ينبض نبضاً منتظماً، وبقي كذلك ساعة والطبيب لا يزال واثقاً بالنجاح طامعاً فيه. وما يمنع أن تقوم كفُّ الحبيب، مقام جهاز الطبيب؟

وأرى الندى في الوردِ منحدراً كالدمعِ فوقَ خدودِها يجري
كلُّ امرئٍ لاقٍ منيَّتَهُ والحبُّ جالبُها على الحُرِّ

⁂

وقال في مقام مشابه:

[من الطويل]

سَلي بَعْدَكِ الواشينَ، هل ذاعَ لي سرٌّ وإنْ كانَ أضناني بتبريحهِ الهجْرُ؟
على أنني كاتَمْتُ صدريَ ما بهِ وفي كَبدي ما ليسَ يعلَمُهُ الصدرُ
حفِظْتُكِ لا أني أرَجّي مِن الهوى وفاءً، ولكنْ ليسَ من شِيَمي الغَدْرُ
إذا هجَعتْ عيناكِ جافانيَ الكرى وباتتْ تُناجيني الخواطرُ والفِكْرُ
أقاتِلتي ظُلماً ليَ الصبرُ والرّضا وإن كانَ قلبي ليسَ يحلو له الصبرُ
إذا كانَ ذنبي أنني لكِ عاشقٌ فمنكِ إليكِ العذرُ لو يَشفعُ العُذرُ
لكِ النَّهيُ إلّا عن هَواكِ وللهوى بِلَحْظِكِ في ألبابنا النهيُ والأمرُ
وقد ذُقتُ من حُلْوِ الزمانِ ومُرّهِ فلا الحُلْوُ أنساني هَواكِ ولا المُرُّ
ويا رَحِمَ اللّهُ الليالي التي مضَتْ ليالِيَ كُنّا والزمانُ بِنا نَضْرُ
وكانتْ حماماتُ اللواحظِ بيننا تروحُ وتَغدو والقلوبُ لها وَكْرُ
ألا رُبَّ ليلٍ أسفرَتْ تحت جُنحِهِ فما شَكَّ أهلُ الحيِّ أن طَلعَ البَدرُ
وقالتْ عَذيري منكَ أمسيتَ غادراً فقلتُ مَعاذَ اللّهِ أن يَغدرَ الحُرُّ[1]
فقالتْ: فما لِلفجرِ تشكو له الهوى؟ فقلتُ: وهل لَيلُ المُحبِّ له فَجرُ؟
فقالتْ: نسِيتَ العهدَ، قلتُ: وهلْ سِوى غَرامِكِ خَصمي يومَ يجمعُنا الحشرُ؟
فقامتْ على كِبْرٍ تقول: قتَلْتُهُ، كأنْ لم تكنْ تدري ولا عندها خُبْرُ[2]
ومثلي فتى الدنيا الذي إنْ مشَوْا بهِ إلى القبرِ لا يَطوي مآثِرَهُ القَبرُ

⁂

وقال في وحدانية العشق:

[من البسيط]

أراكَ تَنظُرُ للغِزْلانِ شاردةً ولا يَردُّ شَبَا عينيكَ عينانِ[3]

---

(١) العذير: العاذِرُ، النصير. وقوله: عذيري منك: هاتِ من يَعْذُرك!
(٢) الخبْرُ (بفتح الخاء وكسرها وضمها) كله الاختبار، بمعنى، الابتلاء..
(٣) الشَّبا، واحدها: شَبَاةٌ، وهي طرَفُ السيف والسِّنان.

ما دمتَ تهوى حبيباً فالفؤادُ له ... وليسَ ينزل في قلبٍ حبيبانِ[1]

❁❁❁

وقال في نُزوع القلب:

[من الخفيف]

نَزعَ القلبُ بي فسرتُ رويداً ... فإذا من أُحِبُّه في طريقي[2]

يستجنى كأنَّ (قاضي الجنايا ... تِ) نصيرٌ لقدِّهِ الممشوقِ

ورآني بذِلَّةِ العاشقِ الصبِّ (م) ... فصَدَّتْهُ عِزَّةُ المعشوقِ

❁❁❁

وقال يناجي الحبيبَ الهاجر:

[من السريع]

أنتَ غرستَ الحُبَّ في أضلُعي ... فكيفَ لا أَسقيهِ من أدمعي؟

لو شئتَ يا حُلوَ اللَّمى لم تبتْ ... غُلةَ هذا اللبُّ لم تَنْقعِ[3]

ولم أبتْ ليلةَ جافيتَني ... من مَضجعٍ جافٍ إلى مَضجعِ

إذا دعاني السهدُ لَبَّيْتُهُ ... وإن دعَوْتُ النومَ لم يَسْمَعِ

أسألُ ليلي ما لهُ لم يَغِبْ؟ ... وما لِنَجْمِ الصبحِ لم يَطْلعِ؟

وأحسَبُ الطيرَ إذا رجَّعتْ ... حنَّتْ لمن أهوى فناحتْ معي

ذو هَيَفٍ يُقْنِعُني طيفُهُ ... وهوَ بغَيْرِ الروحِ لم يَقْنعِ

لم ألقَ ممنْ نظَروا وَجْهَهُ ... إلَّا فتى يعشَقُ أو يدَّعي

يا هاجراً أسْقَمني طَرْفُهُ ... كلُّ دواءٍ فيَّ لم يَنْجَعِ

كم حُرقةٍ قدْ ضاقَ صدري بها ... ولوعةٍ كاتَمْتُها أضلُعي

وحَسْرةٍ في النفسِ ما غادَرتْ ... قلبَ الفتى العذريِّ حتى نُعي

أَخْلِفُها بعدي لأهلِ الهوى ... من مُوجَعِ القلبِ إلى موجَعِ

تَستنزلُ المالكَ عن عرشِهِ ... بين يَدَيْ عَرْشِ الهوى الأرفعِ

---

(١) تذكير واقتباس من قوله تعالى: ﴿ما جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِن قَلْبَيْنِ في جَوْفِهِ﴾ الآية الرابعة من سورة الأحزاب.

(٢) نزع القلبُ: حنَّ واشتاقَ. وقد عدَّاه (بالباء) للضرورة الشعرية، وحقه أن يُعدِّيَهُ بـ(إلى).

(٣) الغُلَّةُ: العطش الشديد، تنقع: تروي. أي لم أرتوِ من ظمأ الحب الجارف. واللَّمى: سُمرةٌ في الشفة. وفي البيت تعقيدٌ والتباسُ معنًى، ظاهرٌ.

وتَـبْـعـثُ الـروعـةَ يـومَ الـوغـى إلـى فـؤادِ الـبَـطَـلِ الأروعِ
فـابعـثْ لـقـلـبـي مـنـكَ تـسـليـمـةً أبـثُّـهـا فـي ذلـكَ الـمـوضـعِ[1]
تـسـتـرجـعُ الـنـومَ إلـى أعـيـنـي فـقـد مـضـى الـنـومُ ولـم يَـرْجِـعِ
كـمْ أمـرَ الـحـبُّ وكـمْ قـد نَـهـىٰ فـبـتُّ بـاكـي الـعـيـنِ لـم أَهْـجَـعِ
ومـن يـكـنْ قـائـدَهُ حـبُّـهُ يَـقُـدْهُ بـالـرُّغـمِ إلـى الـمَـضْـرَعِ

❁ ❁ ❁

وقال في حبيبٍ جمع المحاسنَ فاختال كالملوك:

[من الكامل]

أمِنَ الـظِّـبـا ذاكَ الـغـريـرُ الـمُـعْـجَـبُ؟ يـلـهـو بـحـبَّـاتِ الـقـلـوبِ ويَـلْـعَـبُ؟[2]
قـد كـنـتُ أَحـسَـبُـنـي رأيـتُ نـظـيـرَهُ حـتـى بـدا، فـرأيـتُ مـا لا أَحْـسَـبُ
قـمـرٌ كـأنَّ الـشـمـسَ فـوقَ جـبـيـنـهِ أضحـتْ لوَ انَّ الشمسَ ليستْ تَغْرُبُ(*)
وكـأنَّ طُـرَّتَـهُ طـلـيـعـةُ لـيـلـةٍ حـلـكَـتْ فـأشـرقَ فـي دُجـاهـا كـوكـبُ
جمعَ الـمـحـاسـنَ فـهـي تُـنـسـى إن يـغـبْ وإذا بـدا فـلـهُ الـمـحـاسـنُ تُـنْـسَـبُ
وعَـلِـقْـتُـهُ كـالـظـبـي أحـورَ يُـرْتَـجـى وعـشِـقْـتُـهُ كـالـلـيـثِ أزورَ يُـرْهَـبُ
يـرنـو فـتـنـتـزعُ الـقـلـوبَ لِـحَـاظُـهُ وتـكـادُ أنـفُـسُـنـا عـلـيـهِ تَـذْهَـبُ
وإذا مـشـى الـخُـيَـلاءَ فـي عُـشَّـاقِـهِ خِـلْـتَ الـمـلـيـكَ مـشـى وقـامَ الـموكِـبُ
وبـثـغـرِهِ ظَـلْـمٌ يُـحَـرَّمُ رَشْـفُـهُ ظُـلْـمـاً وعـهـدي أَن يَـحـلَّ الـطـيِّـبُ[3]
ولـقـدْ تَـحَـكَّـمَ فـي الـنـفـوسِ فـبـعـضُـهـا أودىٰ الـعـذابُ وبـعـضُـهـا يـتـعـذَّبُ[4]
وعـجِـبْـتُ أنَّ الـحـبَّ يَـقْـتُـلُ أَهْـلَـهُ ولأن أكـونَ بـهِ قـتـيـلاً أَعْـجَـبُ

❁ ❁ ❁

وقال في غابر عشقه وربوعه المتباعدة:

[من مخلّع البسيط]

أَمَـا كَـفَـاكَ الـفـراقُ غَـدْرا وبُـعْـدُ هـذي الـديـارِ هَـجْـرا؟

---

(١) التسليمةُ: واحدة السَّلام. والتسليم: التحيّةُ. وأَبُثُّ: أنشر.

(٢) الغَريرُ، والغِرُّ، والمغرورُ، والمُغْتَرُّ: الشابُّ لا تجربة له ولا حنكة في الأمور.

(*) «أضحتْ» صارت في الضحى. والشمس أحسن ما تكون حينئذٍ.

(٣) الظَّلْمُ: الرُّضاب. ويَحِلُّ، يَغْدو حلالاً طيِّباً، ولعلّه قصد بالحلال: الزواج المشروع. وهي المرة الأولى التي يُلمِّح فيها الشاعرُ إلى هذا النوع من علاقات حُبِّه.

(٤) أودى العذابُ، فيها إيجاز حذف، هو: أودى بها العذابُ. ومعناهُ: قضى عليها.

أُسائل البدرَ عنكَ حِيناً وأسألُ الشمسَ عنكَ طَوْرا
وكلَّما غرَّدَتْ حَمامٌ في الأيكِ طارَ الفؤادُ طَيْرا
قضى علينا الغَرامُ أَنَّا نتَّخِذُ الليلَ فيه سِتْرا
فمِنْ عُيونٍ تَبيتُ عَبْرىٰ ومن عُيونٍ تَبيت سَكْرىٰ
وكلُّ يومٍ يخلفُ يوماً أراهُ دهراً يعقبُ دهرا[1]
يا أحسنَ الفاتنينَ قَدّاً وأرفعَ المالِكينَ قَدْرا
فتنتَ مِصْراً فهلْ تولَّى يوسفُ يا ذا الدلالِ مِصْرا؟[2]
لو عَشِقَ الشمسَ فيكَ قومٌ لكانَ هذا الجمالُ عُذْرا
ما إنْ حسِبْتُ الزمانَ يوماً يتركُ نفسي عليكَ حسْرىٰ
إذا تثنَّى جوًى وحُسْناً وإذْ تجنَّى هوًى وكِبْرا
نقتسمُ العيشَ لا نُبالي أكانَ حُلْواً أم كانَ مُرًّا[3]
وقد تركْنا زَيْداً وعَمْرا يَضْرِبُ زيدٌ هناكَ عَمْرا
في كل ليلٍ أطرَحُ عمراً وأكتسي في النهار عمرا[*]
وقدْ أبانت لنا الليالي أنَّ لهذي الحياةِ سِرّا
بَيْنَا يكونُ الزمانُ عُسْراً إذا تراهُ استحالَ يُسْرا

❁ ❁ ❁

وقال في هوى غابرٍ مرَّ كلمح البصر:

[من مجزوء الرجز]

طالَ عليَّ ليلي وليلُكم في قِصَرِ
مَن نامَ ملءَ العينِ لا يَعْرِفُ أهلَ السَّهرِ
فسائلوا ريحَ الصَّبا تُنبيكُمُ عن خَبَري
يا قمرَ الآفاق هلْ سرقْتَ حُسْنَ قَمري؟
فأنتَ مثلُ وجهها والليلُ مثلُ الشعَرِ

---

(١) البيت كله بشطريه مختلُّ الوزن.

(٢) رمز هنا إلى يوسف الجمال، لا النبوة والحُكم. فقد كان يوسف (عليه السلام) غاية أو قل: آيةً في الجَمال، حتى ضُرب المثلُ بجماله.

(٣) عجز البيت مختلُّ الوزن. كذلك صدر البيت التالي.

ذاتُ جــفــونٍ قَــتَــلَــتْ بــصَــارمٍ مُــنْــكَــسِــرِ[1]
تَــلــيــنُ فــي حــديــثــهــا وقــلــبُــهــا كــالــحَــجَــرِ
وانْــعَــقَــدَ الــثــديــانِ فــي قَــوامِــهــا كــالــثــمَــرِ[2]
لَــهْــفــي عــلــى دَهْــرٍ مــضــى مــع الــلــيــالــي الــغُــرَرِ
مــرَّ بــهــا فــلــم تَــكُــنْ (إلّا كــلَــمْــحِ الــبَــصَــرِ)[3]
أمــاتَــنــي هــذا الــهــوى قــبــل انــقــضــاء الــعُــمُــرِ
أوقــعَــنــي فــي خَــطَــرٍ مَــنْ مُــنــقــذي مِــنْ خــطَــري؟
لا تَــعْــذِلــونــي إنــه حُــكْــمُ الــقَــضــا والــقــدَرِ

❁ ❁ ❁

وقال في مقام مُشَابه:

[من الكامل]

هــجــروكَ بــعــدَ صَــبــابــةٍ وغَــرام وأراكَ لا تَــنْــســى هــوى الآرامِ
أَتــبــعْــتَــهــمْ نــفْــســاً عــلــيــكَ عــزيــزةً وطــويــتَ جَــنْــبَــيْــهــا عــلــى الآلام
كم تحتَ جُنحِ الليلِ مثلُك مُدْنَفاً أنسى الليالي عُروةَ بنَ حِزامِ[4]
يــجــري مــعَ الأوهــامِ حــتــى إنــهُ لَــتَــكــادُ تــحــسَــبُــهُ مــن الأوهــامِ
يا قلبُ كم لكَ في الهوى مِن صَبْوةٍ ضــرَبــتْ بــك الأمــثــالَ فــي الأقــوامِ
عــدُّوا عــلــيَّ مــآثــمــا لــم أجْــنِــهــا والــحــبُّ يــا قــلــبــي مــن الآثــام
فدَعِ الهوى يَجْري كما شاءَ الهوى إنَّ الــحِــسَــانَ كــثــيــرةُ الــلُّــوَّامِ
كــم بــتُّ أحــلــمُ بــالــمــنــامِ ومــا أرى تُــجْــدي عــلــيَّ لــذاذةُ الأحــلامِ
فــادرأْ هــمــومَ الــعــيــش بــالــكــأسِ الــتــي تَــحْــكــي عــجــائــزُهــا عــن الأقــوامِ
صــهــبــاءُ إن مــسَّــتْ فــؤادي مَــرَّةً غــسَــلَــتْ بــجــنــبــي كــلَّ جُــرحٍ دامــي

(٭) سقط البيت أو أسقط، من طبعة بيروت.

(١) الصارم المنكَسِرُ: لحظُها الفاتر من الغنج. شبهه بالسيف الذي أصابه الانكسار. استعارة تصريحية بديعة.

(٢) في طبعة بيروت: «وأعقد الثديان» خطأ. وصوابه كما في طبعة مصر: «وانعقد». شبههما بالزهر الذي ينعقد ليصبح ثمراً. وقد خالف القياس، للضرورة الشعرية، وهو أجمل تصويراً وتخيلاً.

(٣) اقتبسها من قوله تعالى: ﴿وما أَمْرُ السَّاعةِ إلّا كلَمْحِ البَصَرِ أوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ الآية ٧٧ من سورة النحل.

(٤) شاعر من بني عذرة. تيَمَّته ابنة عمه «عفراء» فخطَبها إلى والدها، فطلبت أمها مهراً غالياً فلم يقدر عليه، فزوّجت لرجل من الشام، فهام في حبها ومات سنة ٣٠هـ/ ٦٥٠م.

سَمُّوا أبَاها الكرْمَ حين تبذلت ... في فتيةٍ شُمِّ الأنوفِ كِرام
وتراوحوا كاساتِها فكأنما ... عادتْ بها الأرواحُ للأجسام[*]
يا رحمةَ العُشَّاق مِن أحبابهمْ ... ناموا وباتوا الليلَ غيرَ نِيَّام
حتى إذا انطفأتْ مصابيحُ الدجى ... وأضاء فَودُ الليلِ بعدَ ظلامِ[1]
خَبأوا الهوى بين القلوب وأصبحوا ... وتوارتِ الأزهارُ في الأكمامِ

❁ ❁ ❁

وقال في ذات الحِجاب:

[من مجزوء الكامل]

خلِّ القلوبَ لِمَا بها ... تَضبو إلى أحبابها
مِن أرضهم خُلقتْ، فنا ... زَعَها الهوى لِتُرابها
كم قطَّعَتْ ذاتُ الحِجا ... بِ قلوبَنا بحِجابِها
هيفاءُ إن خَطرتْ فغُصْـ ... ـنُ البانِ في أثوابها
وإذا أمَطْتَ نِقابَها ... فالشمسُ تحتَ نقابها
والسحرُ في تلكَ العيو ... نِ يلوح من أهدابها
والوردُ في وجَناتِها ... يندى بماءِ شبابها
جمعتْ فنونَ التيهِ والـ ... إذلالِ في إعجابها
فإذا رأتْ سِربَ المهى ... تاهتْ على أترابها
وإذا رأتْ أهلَ الهوى ... عزَّتْ على طُلَّابها
وإذا رنَتْ غدتِ القُلو ... بُ تَفِرُّ من أصحابها
سكْرى القوامِ كأنما ... ثَمِلَتْ بخَمْرِ رُضَابها[2]
عاتبتُها يومَ النوَى ... وحملتُ إثمَ عِتابها
فمشتْ وأوقفني الهوى ... أبكيهِ بعدَ ذهابها

❁ ❁ ❁

(*) «تراوحوا الكاسات» بمعنى توالوا عليها، أو دارت في يد كل منهم.

(١) الفَوْد، جانب الرأس مما يلي الأذن. وللرأس فَوْدان، من اليمين والشمال. شبه خفقان الحب في الضلوع، بأضواء خافقة في جانبٍ من الليل.

(٢) الرضاب: رِيقُ الفم.

وقال يدعو إلى دوام الوَصْل :

[من الطويل]

سَعوْا بينَنا حتى لقدْ كنتَ راضياً فأصبحتَ من قولي أُحِبُّكَ تَغْضَبُ
ولم أَجْنِ ذنباً غيرَ أنيَ ذو هوًى وأنَّكَ لي دونَ الأَنامِ مُحبَّبُ
وقالوا ستنسى إنْ تَباعَدَ بيننا فيا ليتَ داري من ديارِكَ تقربُ
ويا ويلَنا إنْ بتُّ أستعطفُ الهوى وبتَّ على حُكْمِ الهوى تَتجنَّبُ
فلا تُمْكِنِ الواشينَ من ذاتِ بيننا فليسَ لهم غيرَ التفرقِ مطلبُ
وإنَّكَ لو أبصَرْتَ ما بينَ أضلعي لأبصرتَ قلبي في لظًى يتقلبُ

❁ ❁ ❁

وقال يشكو الهجران والجفاء :

[من مجزوء الكامل]

يا طلعةَ البدْرِ التما مِ وقامةَ الغُصْنِ الرطيبِ
ما شئتَ إنّي في الهوى لا بالمَلولِ ولا الغَضُوبِ
ليتَ الذي بكَ حين تنأى مُغرِضاً، مثلُ الذي بي
كم بتُّ بَعْدَكَ ليلةً أدعو بها للمستجيبِ
وشكوتُ هجرَكَ للصَّبا شكوى الغريبِ إلى الغريبِ
أمستْ ليالي ذا الجفا مثلَ الهمومِ على القلوبِ
سوداءُ في لونِ الشبا بِ وهمٌ أيامِ المشيبِ

❁ ❁ ❁

وقال في عنفوان الجمال :

[من الخفيف]

قلتُ صِلْني، فإنني لكَ باقِ ولوَ أنَّ الكثيرَ ليس بباقِ
قال من كانَ في الجمالِ وحيداً لا يبالي بكثرةِ العشاقِ

❁ ❁ ❁

وقال في سَفْك القلوب :

[من الخفيف]

يا كحيلَ العيونِ غُضَّ قليلاً أَوْشَكَ العاشقونَ أن يَعْبدوكا
كلُّ ما فيكَ بينهمْ مكْرُماتٌ ومِنَ المَكْرماتِ أن وحَّدوكا

فارقُبِ اللَّه في النفوسِ إذا النَّا سُ غداً، عن نفوسهمْ سألوكا
ما حَسِبْتُ القلوبَ تُسفَكُ حتى صار قلبي من لحظهِ مسفوكا

❁❁❁

وقال في ذكريات الحب والهجر والغدر والصدود:

[من الوافر]

أراكَ نَسِيتَ يا ظَبْيَ الصَّريمِ ليالِيَ ذلكَ الأُنسِ القديمِ
ولجَّ بكَ الجفاءُ فما تُبالي بما أَلقى من الوجْدِ الأليمِ
وطالَ عليَّ همُّ الهجْرِ حتى لقدْ سئمتْ ملازَمَتي همومي
وكنتُ أرى لهذا الدهرِ حِلْماً ولكنْ ضاقَ بي صدرُ الحليمِ[١]
وعهدي بالهوى مَلِكاً رحيماً فأينَ تعطُّف الملكِ الرحيمِ؟
ليالي والصِّبا غصنٌ رطيبٌ يكادُ يمجُّ من ماءِ النعيمِ[٢]
فكمْ منْ ليلةٍ بتْنا نشَاوَى كما شاءتْ لنا بنتُ الكرومِ[٣]
وقد أوحتْ إليَّ بكلِّ معنًى أخفَّ عليكَ من مَرِّ النسيمِ
فمِن غَزَلٍ كأنَّ السحْرَ فيه ومن عتْبٍ كعافيةِ السقيمِ
ولا غِيٌّ سوى غِيِّ التَّصابي ولا عبَثٌ سوى عبثِ النديمِ
وبتْنا والكؤوسُ مصفَّفاتٌ تُباهي الجيدَ بالعقدِ النظيمِ
إذا زُحنا لها تَحْنو علينا حُنوَّ المرضِعاتِ على الفطيمِ
وتخدعُنا مُدامتُها فنُغْضي كما يُغضي الحميمُ عن الحميمِ
جلَوناها وعينُ الفجرِ تُوحي لواحظَها إلى الليلِ البهيمِ
وكانَ الروضُ مطلولَ الحَواشي وذاكَ النهرُ مصقولَ الأديمِ[٤]
تعرَّضَ للنجوم على جفاها فزارتهُ خيالاتُ النجومِ
ويومٍ قد قطعناهُ حديثاً ألذُّ من الأماني للعديمِ

---

(١) الحِلْمُ: سعة الصدر وطول الرويّة. والحليم، هو الواسع العقل.
(٢) صورة كنائية لافتة. جعل الفتوة تنعم بشباب وحيوية شبيهة بتفطر الأغصان عن ماء الندى الناضر.
(٣) بنات الكروم كناية معروفة للخمر. والنشاوى، ج: نَشوان ونشوى: اللذان أخذتهما نشوة الخمر والسعادة.
(٤) مطلول الحواشي، سقط عليها الطلُّ وهو ندى السَّحور. والحواشي أطراف الأشجار والأزهار والأفنان..

عـلـى إفـكِ الـعـواذلِ والـلـواحـي ... وظِـنَّـة كـلِّ أفـاكٍ أثـيـمِ[(١)]
يـلاحـظُـنـي وألـحـظُـهُ كـلانـا ... كـمـا نـظَـرَ الـيـتـيـمُ إلـى الـيـتـيـم
ومـا أنـسـى مـواعـدَهُ وقَـولـي ... عـسـى يـومٌ أُهـنَّـأُ بـالـعـقـيـم[(٢)]
ولا أنـسـى بـكـائـي يـومَ غـنَّـى ... (إذا غـضِـبـتْ عـلـيـكَ بـنـو تـمـيـم)[(٣)]
فـيـا ريـحـانَ كـلِّ فـتًـى شـجـيٍّ ... حـبـيـبٍ أو خـلـيـلٍ أو كَـلـيـمِ[(٤)]
ويـا مَـلِـكَ الـقـلـوبِ وقـد أراهُ ... عـلا مـنـهـا عـلـى الـعـرشِ الـعـظـيـم
لـقـد عـذَّبـتـنـي بـالـهَـجْـرِ ظُـلـمـاً ... فـهـل لـي مـن يـعـيـنُ عـلـى الـظَّـلُـومِ؟
ومـا أبـقـيـتَ يـومَ صـدَدْتَ رُوحـي ... فـمـا تُـبـقـي مـن الـجـسـدِ الـرمـيـمِ
أحـاطَ بـكَ الـوشـاةُ وكـنـتَ تـدري ... غَـوايـةَ كـلِّ شـيـطـانٍ رجـيـمِ
فـمـا لـكَ حِـلْـتَ عـن عـهـدِ الـتـصـابـي ... ومـا عـهـدُ الـتـصـابـي بـالـذمـيـمِ[(٥)]
تـبـارَكَ مَـنْ أعـدَّ لـكـلِّ صَـبٍّ ... عـذولاً مـن لـئـيـمٍ أو كـريـمِ

❁ ❁ ❁

وقال في رشأ أغنَّ أحور:

[من مجزوء الكامل]

مَـرضُ الـعـيـونِ الـحُـورِ طِـبُّـهْ ... وسَـلامُ ذي الأجـفـانِ حَـرْبُـهْ
وبـه رَشـاً أحـوىٰ أغـنُّ (م) ... كـمـا يـشـاءُ يـسراه ربُّـهْ[(٦)]
لـم يَـحْـكِـهِ الـغـيـدُ الـحِـسَـا ... نُ وهـل تُـحـاكـي الـبـدرَ شِـبْـهُـهْ؟[(٧)]

---

(١) اللواحي، واحدها: لاحية: اللائمة. والظنّة: سوءُ الظن. والأفّاك الأثيم: الكذوب المفتري، الذي يقترف إثماً في كل ذلك.
(٢) لم نفهم معنى العجز، وكيف يهنأ المرءُ بيوم عقيم؟ أو بالمرأة العقيم؟
(٣) العجز تضمين حرفيّ لصدر بيت لجرير قاله في معرض قصيدة يهجو فيها **الأخطل** ومطلعها:
أخـالـدَ عـادَ وعـدُكُـمُ خِـلابـا ... ومـنَّـيـتِ الـمـواعِـدَ والـكِـذابـا
(**شرح ديوان جرير**/ دار الأندلس، تأليف محمد إسماعيل الصاوي، لا تاريخ، ص٦٠ و٧٨).
وتتمة البيت المضمَّن أعلاه:
إذا غـضِـبـتْ عـلـيـك بـنـو تـمـيـم ... حَـسِـبْـتَ الـنـاسَ كـلَّـهـمُ غِـضـابـا
(٤) الكليم: الجريح.
(٥) حلْتَ، من حال الشيءُ، يحُول حَوْلاً، إذا تغيَّر من الحَوْل إلى الحول، أي من العام إلى العام.
(٦) الرشأ الأغنُّ: الذي به غُنَّة، لكثرة رُغُوله العَذْب في الرياض والكثبان.
(٧) لم يحكه: لم يشبههُ. ويتساءل: هل يتشبَّه الشيء بنفسه؟ تساؤل طريف.

يَـجْـزي مـحـبَّـةَ مَـن يَـهـيـ ـمُ بـه، الـصـدودَ، وذاك دَأْبُـهْ
يـا قـلـبُ لـم يَـعْـذُرْكَ فـي هـذا الـضـنـى والـمذنـبُ ذَنـبُـهْ
مـن لـلـجُـفـونِ بـأن تـنـا مَ ومـا يـطـيـعُ الـجفـنَ هُـدبُـهْ
أتُـرى جَـنـيـتَ عـلـى حـبـيـ ـبـكَ أم كـذا قـد صـار قـلـبُـهْ؟
رشـأٌ تـلاعَـبَ بـالـنُّـهـى لا يـسـتـفـيـقُ الـدهـرَ لِـعْـبُـهْ
مـا زالَ يـهـوىٰ الـنـاسَ حـتـ ـى مـا يُـعَـدُّ الـيـومَ صَـحْـبُـهْ
والـحـبُّ أحـسَـنُ مـا يـكـو نُ إذا انـفـردْتَ بـمـن تُـحِـبُّـهْ
فـاصـبِـر عـلـى خَـطْـبِ الـزمـا نِ فـهـيـنـهُ يـمـضـي وصَـعْـبُـهْ!

❁ ❁ ❁

وقال في عنفوان حبه:

[من السريع]

بـالـلّـهِ يـا بـدرَ الـسَّـمـا هَـل دَرىٰ أخـوكَ أنـي فـي غِـمـارِ الـمـنـونْ؟
يَـقـتـلُـنـي الـشـوقُ وهـذا الـنَّـوى وذلـكَ الـسـحـرُ وتـلـكَ الـعـيـونْ
أحـسِـبُـنـي كِـسْـرى لـتـيـهـي بـهِ لـو لـمْ أكـنْ أبـطـنـتُ مـا يـعـبـدونْ[1]
ومـا أرى الـدنـيـا سـوى دولـتـي ومـن فـنـونِ الـحـبِ هـذا الـجـنـونْ
يـا بـدرُ بـلِّـغْـهُ سـلامـي وقـفْ واشـرحْ لـه مـا أحـدثَ الـعـاذِلـونْ
سـبـحـانَ مـن صـوَّرهُ فـتـنـةً يُـعَـذِّبُ الـنـاسَ ولا يَـغْـضَـبـونْ!

❁ ❁ ❁

وقال في مشاعر شتى وذكريات متقطّعة:

[من الخفيف]

أيُّ ذنـبٍ جـنـيـتُ حـتـى تـجـنَّـى؟ إنـنـي كـدْتُ بـعـدَهُ أن أُجَـنَّـا
كـلَّ يـومٍ أظـلُّ أسـألُ عـنـهُ مَـنْ أراهُ ولـيـسَ يـسـألُ عـنَّـا
أَلِـفَ الـبُـخْـلَ لا يـردُّ سَـلامـي وتـنـاسـى أيـامَ كـانَ وكـنَّـا
ورأى كُـتْـبَـهُ دَوائـي عـلـى الـبـعْـ ـدِ مـن الـشـوقِ والـجـفـاءِ، فَـضَـنَّـا[2]
لا أرى طـيـفَـهُ ولا الـدارُ تـدنـو فـأراهُ ولا الـصـبـابـةُ تَـفْـنـى

---

(١) تضمينٌ معتقدي جميل، إذ شبَّه نفسه بملك الفُرس وما يُمثِّل الفرس من عقيدة وثنية ولا سيما عبادة النار، فاستدرك قائلاً: أنا كسروي، لكنني **أخفي النار التي أصْلاها في أحشائي**.

(٢) ضَنَّ علي برسائله (كُتُبه) التي كانت بلْسماً يشفيني على بعاده.

أيُّها الدائمُ التجنّي علينا ... زادكَ اللَّهُ في تجنّيك حُسْنا
ربما مَرَّ للمحبِّ زمانٌ ... نالَ فيه المحبُّ ما قد تمنّى
قد رأى الناسُ فيه قيساً وقُسّاً ... وأرتهمْ عيناكَ ليلى ولُبنى[1]
ورميتُ الدُّجى بساهرةِ الليـ ... ـلِ تُفيضُ الدموعَ وَجْداً وحُزْنا
فتحَتْ جفنَها فطارَ كراها ... وبكتْهُ فليسَ تُغمِضُ جَفنا
إن تَعِشْ يرجع المنامُ إليها ... أو نمتْ بعدَها ففي الحبِّ مِتْنا[2]

❁❁❁

وقال يستلطف محبوبه ويذكره بما كان عليه من عظمة حبه وتعاليه:

[من الخفيف]

كم تجنَّيْتَ يا مليحَ النفورِ ... وأطلتَ الجَفا على المَهْجورِ
لا تَرُعْهُ فقد كفى ما يُقاسي ... مِنْ أنيسنٍ ولوعةٍ وزفيرِ
يَجِدُ العمرَ في هواكَ قَصيراً ... وزمانُ الصدودِ غيرُ قصيرِ
من ليالٍ تمرُّ مرَّ سنينٍ ... وشهورٍ تمرُّ مرَّ دهورِ
قائماً في دُجاهُ يرتقبُ الفجـ ... ـرَ ويَرمي الدُّجى بدَمْعٍ غزيرِ
وتكادُ النجومُ تَهْوي إذا ما ... بثَّ شكواهُ للعليمِ القديرِ
يتلاعَبْنَ في المجرَّةِ كالحُو ... رِ تراقَصْنَ في مياهِ غَديرِ
خانهُ قلبُهُ فباتَ جَزُوعاً ... وفؤادُ المُحِبِّ غيرُ صبورِ
ولقدْ كانَ في هواكَ عَزيزاً ... يَتأبّى على الظباءِ الحُورِ

---

(١) قيس وقسّ، هما إمّا قيس بن الملوح (مجنون ليلى) المتوفى سنة ٨٠هـ/ ٦٨٩، وإما قيس بن ذَريح (قيس لبنى) المتوفى سنة ٦٨هـ/ ٦٨٧م.
وقُسُّ بن ساعدة، أحد حكماء العرب القدامى وخطبائهم، وكان أسقف نجران. رآه النبيُّ قبل النبوة وقال عنه: «يُحْشَرُ أُمَّةً وحده». وعاش قسُّ عمراً طويلاً وصل في تقدير بعضهم السبعمائة سنة. وتوفي قبل الهجرة بـ٢٣ سنة (٦٠٠م). (انظر تفصيلاً لذلك: خزانة الأدب، للبغدادي، شرح وتحقيق عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي ـ القاهرة، لا تاريخ، مجلد ٢/ ص٨٩ ـ ٩١)

(٢) في الأبيات الثلاثة الأخيرة، موضع التباس شديد، حول «ساهرة الليل»؛ هل هي امرأة بذاتها ذكرها الشاعر ولها سيرة معروفة في الحزن والكمد؟ أم هي عينُه هو الذي قاوم ليل حبه الداجي بسَهر عينيه لا يغشاهما النوم؟ حتى البيتُ الأخيرُ، فيه شبهُ تناقض في تشريطه الملتوي وذلك في قوله «إن تَعِشْ.... أو نَمُتْ» وحقه أن يقول «إن تَعِشْ... و: إن تمُتْ» أو العكس بالعكس. وهكذا دأبُ شاعرنا لا يحافظ على سياق الشعر ولا على تناسقه، ولا على وحدة موضوعه وإشاراته، فهو نقّال من عرض، إلى وصف إلى تذكر، إلى حكم، إلى تساؤلات ساذجة في غالب الأحيان... عدا التناقض والالتباس وتقطيع أوصال القصيدة.

مـلـكَ الـحُـبُّ والـصـبـابـةَ والـشـو ... قَ، وربُّ الإيــوان ربَّ الـسـريـرِ[١]

فـوقَ كِـسـرى وفـوقَ قـيـصـرَ فـي الـمُـلْـ ... ـكِ وفـوقَ الـرشـيـدِ والـمـنـصـورِ[٢]

فـإذا شـاءَ أنـزلَ الـبـدرَ قَـسْـراً ... وإذا شـاءَ كـان عـنـدَ الـبُـدورِ

تـتـهـاداهُ بـالـعـيـونِ ظـبـاءٌ ... نـاقـمـاتٌ عـلـى الـغـزالِ الـغـريـرِ

أسـكـنـتْـهُ الـضـمـيـرَ حـتـى رأتْـهُ ... يـتـهـادى مـن كِـبْـرِهِ فـي الـضـمـيـرِ[٣]

وتـبـاكَـيْـنَ حـيـنَ سـار غَـرامـاً ... فـمـشـى فـوقَ لـؤلـؤٍ مـنـثـورِ

فـتَـحَـفَّـظْ بـمـهـجـتـي يـا مَـلـيـكـاً ... شـبَّ فـيـهـا هـواهُ نـارُ الـسـعـيـرِ

إنَّ خَـطْـبَ الـصـدودِ مـنـك وإن طـا ... لَ عـلـى عـاشـقِـيـكَ غـيـرُ عَـسـيـرِ

❁ ❁ ❁

ومن أول القول مُسلِّماً بحكم محبوبه:

[من المنسرح]

غـصـنٌ إذا مـالَ قـمْـتُ مِـن شَـغَـفـي ... أمـجِّـدُ الـلَّـهَ كـيـفَ سـوَّاهُ

قـالـوا سَـبـا مُـهـجـتي، فـقـلـتُ لـهـمْ: ... مـا فـي يـدِ الـعَـبْـدِ: مِـلْـكُ مـولاهُ

❁ ❁ ❁

وقال مقتفياً نهج ابن زيدون في نونيّته الشهيرة:

[من البسيط]

كـفـى صُـدوداً فـمـا أبـقـى تَـجـافـيـنـا ... مـنّـا ولا الـدمـعُ أبـقـى مِـنْ مـآقـيـنـا

تـطـيـرُ نـفـسـيَ مِـن ذكـراكَ خـافـقـةً ... عـلـى لـيـالٍ تَـخِـذْنـا ذِكْـرَهـا دِيـنـا(●)

إذ الـزمـانُ طـلـيـقُ الـوجـهِ مُـبـتـسـمٌ ... فـي صـفـحَـتـيْـهِ عِـذارٌ مـن لـيـالـيـنـا

وإذْ ريـاضُ الـتـصَـابـي مِـنـك زاهـرةٌ ... خُـضْـرُ الـجـوانـبِ تـسـقـيـهـا أمـانـيـنـا

كـانـت بـهـا نَـسَـمـاتُ الـعَـتْـبِ راقـصـةً ... تـهـزُّ مِـن حـبـنـا فِـيـهـا ريـاحـيـنـا

لا يَـمْـددُ الـدهـرُ بـعـدَ الـيـومِ لـي يـدَهُ ... فـمـا سـوى الـهـمّ أمـسـى بـيـنَ أيـديـنـا

وأدمـعٍ فـي زمـامِ الـحـبِ جـاريـةٍ ... مـا كـنَّ لـو لـمْ يَـرُضْـهـا الـحـبُّ يَـجْـريـنـا

---

(١) ربُّ الإيوان (صاحب إيوان كسرى، أي قصره المترامي الأطراف). وربُّ السَّرير: قصد به عَرْش مُلكه الكبير.

(٢) المنصور والرشيد، هما خليفتا بني العباس الأكبران، أبو جعفر وهارون الرشيد.

(٣) الضمير هنا: أعماق النفس. وقصد أيضاً مداركها وطبقات وعيها.

(●) أسقط هذا البيت قصداً. لظنه ـ أي المحقق ـ أنه يُلحق به كفراً، سامحه الله، ناسياً أن من معاني الدين: [العادة والشأن].

صَيَّرنَ هذي الدراري من عواذِلِنا ومطلعُ الشمسِ فيها من أعادينا[(١)]

مرَّ الزمانُ الذي كانتْ فجائِعهُ تُخطى وهذا زمانٌ ليس يُخطينا[(٢)]

وفرَّقَ الدهرُ شملاً كان يَجمعُنا فمَا لِذا الدهرِ مُغرًى بالمحبينا

مَنْ مبلغُ الفجر إذ قامت نوادبهُ أنّا بجنحِ الدُّجى ينعاهُ ناعينا[(٣)]

كانتْ ليالي الهوى تفترُّ ضاحكةً عنهُ فبتْنَ عليَّ اليومَ يبكينا

وكانَ فيهِ جمالٌ من نضارتِنا وفي محياهُ صفوٌ من تصافينا

أيامَ لم ندرِ أنَّ البدرَ حاسِدُنا على الهوى وضياءُ البدر واشينا

تدورُ في كأسنا صِرفُ مَشَعْشَعَةٌ من وردةِ الخد حيناً واللَّمى حِينا[(٤)]

والنجمُ في نشوةٍ مما ينادِمُنا والحَلْيُ في طربٍ مما يُغنِّينا

يا حاجة النفس لا تصغي لذي حسَدٍ فما لقينا من الأيام يكفينا

كأنها لم تصنّا في جَوانحها ولم تكنْ بسوادِ القلبِ تَفْدِينا

ولم نَبِتْ ليلةً كالروضِ حاليةً نَجني بها من صنوفِ اللهو ماشينا

والبين ظمآنُ لم تحسب عواذلنا أن الدموعَ ستروِيه وتُظْمينا

وحادث الدهر واشٍ لا تحاذِرهُ وما تلهَّى وكنا عنه لاهينا[(•)]

فيا ليالٍ ذكَرناها وأكبُدنا مقطَّعاتٌ عليها في حوانينَا[(٥)]

قد سالَ بعدكِ ما كنا نُكفكِفُهُ وجاذبتْنا النوى من كانَ يُسْلينا

لا في الأسى راحةٌ مما نغالبهُ من البعاد ولا يُغني تأسّينا

إذا نسيمُ الصَّبا رقَّتْ جوانبهُ على متونِ الروابي راحَ يُصبينا[(٦)]

تهيجُ رياهُ من ذكرى الديارِ هوًى وربما ذكروا بالمسكِ دارينا[(٧)]

---

(١) الدراري، واحدها: دُرِّي، وهو صفة الكوكب السماوي. والعواذل: اللُّوَّم في الحب والوصال..

(٢) أخطى الزمانُ الإنسانَ: جعله يخطو ويمشي، أي كنا في سالف الأزمان إذا أصابتنا مصيبة، نتخطاها بمرور الزمن.. أما اليوم فلم يعد الزمانُ يسمح لنا بذلك.

(٣) أي: إنّ الدجى ينعى الفجر تماماً، كما كانت تباشير الفجر تنعى الظلام المتواري...

(٤) الصِّرفُ المشعشعةُ: كناية عن الخمر المتوهجة بضيائها.

(•) سقط البيت أو أسقط، مع الأسف.

(٥) لم نفهم «حوانينا»، ونرجح أنها عاميّة، بمعنى الحانة (الخمارَة) ج: حانات، و(حوانين).

(٦) يُصْبي: يبعثُ الصبوةَ.. يُغري بنا ويفتح نوافذ الصبوات.

(٧) دارينَ: موضع في البحرين يُجْلب إليها المسْكُ من الهند. والنسبة إليها: داريٌّ. (**معجم البلدان** جـ٢/ ٤٣٢).

ما فيه إلا تحايا العاشقين إلى الـ ـغيد الأوانس والعُتبى أفانينا
وكم ينمُّ بأنفاسٍ تحمَّلَها فيها الحياةُ ولكن ليسَ يُحيينا
سَلي الظلامَ إذا شابتْ ذوائبهُ من هولِ ما بتُّ ألقى في تنائينا
ألاحتِ الشمسُ تغري العاذلينَ بنا كليلة الطرفِ، أمْ راحتْ تُحَيِّينا؟
لقد عدَتْنا عَوادينا وكيفَ بنا إذا عدَتْنا عن اللُّقيا عوادينا؟[1]
نَبيتُ والهجرُ في الآفاقِ يَنْشرُنا كأننا لم نبت والوصل يطوينا[2]
قالتْ رأيتكَ مجنوناً فقلتُ لها لولا هواكِ لما كنا مجانينا
يا طلعةَ الشمسِ غابتْ بعدما طلعتْ وظبيةُ القاعِ لم ترجعْ لوادينا
هل شاغلتكِ عواد ما تُشاغلنا وباتَ يُلهيك أنسٌ ليسَ يُلهينا
إن كانَ سهلاً على الله تفرقُنا فليسَ صعباً عليهِ أن يلاقينا[3]

❁ ❁ ❁

في سحر العيون:

[من الرجز]

باللهِ يا سِحْرَ العيونِ ما تَرى قلبي غَدا من عَينها مَسْحورا
ذاتُ محيَّاً هو فينا جَنَّةٌ قد خُلِقتْ فيها العيونُ حُورا
صَيَّرني مُذ حَجَبُوها كالذي أُخْرِجَ من جنتهِ مدْحورا[4]

❁ ❁ ❁

وقال في غادة صادفها في حافلة الترام (الترامويِ):

[من الطويل]

أَأَخشاهُ جَفْناً ما تُسَلُّ قواضِبُهْ وحدُّ حُسامي ما تُفَلُّ مَضاربُهْ؟[5]
فأين يَدي هاتيك والسيفُ في يدي وما لفؤادي أنكرَتْهُ جوانبُهُ؟

---

(١) العوادي، مفردها، عادية وعادٍ، وهي بمعنى العدوّ ـ والعاديةُ أيضاً: الشرُّ.
(٢) النَّشْرُ، التفريقُ.
(٣) لم يوفق الشاعر في معظم أبيات هذه القصيدة، وخاصة الأبيات الأخيرة. التي لا تختلف كثيراً عن الكلام العاديّ يقوله إنسان عاديٌّ في موقف مشابه.
(٤) اقتباس خفيف لقوله تعالى مخاطباً فيها إبليس: ﴿**قال اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءوماً مَدْحُوراً**﴾ الآية ٩ من **سورة الصافات**، والمدحور: المهزوم.
(٥) الجفن، هنا ذو معنَيَيْن، الأول، غمْد السيف، والثاني جفن العين. والقواضب، جمع قاضِبَة: القاطعة. وفي ذلك توريتان بديعتان بين الجفن والقواضب: السيوف وأهداب العين..

ومـا لـي كـأنَّ الـكـهـربـاءَ تـمـسُّـنـي إذا لاحَ ذاكَ الـبـدرُ أو نَـمَّ حـاجـبُـهْ؟
أرونـي فـؤادي كـيـفَ صَـدَّعَـهُ الأسـى وكـيـفَ تـولّاهُ الـهـوى ومـصـائـبُـهْ؟
إذا كـانَ قـلـبـي لا يُـصـاحِـبُ هـمـتـي فـمـا هـوَ لـي قـلـبٌ ولا أنـا صـاحـبُـهْ
ركبتُ لـحـيـنـي فـي (الـتـرام) عـشـيـةً أرى الـفَـلَـكَ الـدوّارَ لاحـتْ كـواكـبُـهْ[1]
وأحـسـبُـهُ قـلـبـاً يـجـاذبُـهُ الـهـوى فـيـنـقـادُ لا يـدري بـمـا هـوَ جـاذبُـهْ
فـلاحـتْ لـعـيـنـي مـن زوايـاهُ غـادةٌ هـي الـبـدرُ لـكـنْ أطـلـعـتْـهُ مـغـاربُـهْ
تَـبـسَّـمُ أحـيـانـاً وتَـعْـبِـسُ تـارةً كما يَخدعُ الواهي القِوى، مَن يُحارِبُهْ
وقـد كَـتـبَـتْ فـوقَ الـمـحـاجـرِ آيـةً يـطـالـعُ فـيـهـا الـحـبُّ مـن لا تُـخـاطِـبُـهْ
فـلـمَّـا رآهـا الـقـلـبُ آمـنَ واغـتـدى يُـكـاتـبـهـا فـي أضـلـعـي وتُـكـاتِـبُـهْ
فـمـا أنـا إلّا والـهـوى يَـسـتـفـزُّنـي إلـى حـيـثُ سـلـطـانُ الـهـوى عزَّ جـانـبُـهْ
فـقـمـتُ قـيـامَ الـلـيـثِ فـارقَ غِـيـلَـه وقـد حُـطِّـمـتْ أنـيـابُـهُ ومـخـالـبُـهْ[2]
(وسـلَّـمـتُ تـسـليـمَ الـبـشـاشـةِ والـهـوى) تـدبُّ عـلـى أطـرافِ قـلـبـي عـقـاربُـهْ
فـأَغْـضـتْ حـيـاءً ثـم عـادتْ فـسـلَّـمـتْ ومن بَعْدِ كَدْرِ الماءِ تصفو مشاربُهْ[3]
فـلـلَّـهِ مـا أحـلـى حـديـثـاً سـمـعـتُـهُ كـأنـي يـتـيـمٌ لاطـفَـتْـه أقـاربُـهْ
هـو الـخَـمـرُ لـولا طـعـمُـهـا وخِـمـارُهـا هـو الـسـحـرُ لـولا ذمُّـهُ ومَـعـائـبُـهْ
فـقـلـتُ: عـرفـتُ الـحـبَّ والـلَّـهِ إنـهُ مـطـالـبُ قـلـبٍ لا تُـحـدُّ مـطـالـبُـهْ
فـقـالـتْ: بـلـى إن شـئـتَ زِدْتُـكَ إنـه نـوائـبُ دهـرٍ لا تُـعـدُّ نـوائـبُـهْ
فـكـاشَـفْـتُـهـا مـا بـي غـرامـاً مُـبَـرِّحـاً يُـغـالِـبُـنـي فـيـه الـنُّـهـى وأُغـالـبُـهْ[4]
وقـلـتُ: أرى ذا الـقـلـبِ جُـنَّ جُـنـونُـهُ وإلّا فـمـاذا فـي ضـلـوعـي يـواثِـبُـهْ؟
فـهـزَّتْ قَـوامـاً كـالـرديـنـيّ مُـشْـرَعـاً وحـيـنَ أحـسَّ الـشـعـرَ مـاجـتْ كـتـائـبُـهْ[5]
وأعـجـبَـهـا مـا قـلـتُـهُ فـتـضـاحـكـتْ كـأنـيَ طـفـلٌ فـي يـديـهـا تُـلاعِـبُـهْ

---

(١) «لحيني» لم نتبيّن معناها ولا طبيعة صياغتها وتركيبها! إلّا أن يكون (لِحَيْني: لمَوْتي) ولا معنى له. أو لحيني. أي: الآن.

(٢) غيلُ الأسد: مكانٌ فيه شجر كثيف ملتفٌ يتخذه الأسد عريناً له.

(٣) أغضتْ حياءً: خفضتْ رأسَها حشمةً وحياءً.

(٤) النهىٰ: العقل والرويّة.

(٥) الردينيُّ: الرمحُ. نسبةً إلى امرأة كانت تقوِّم الرماح، تدعى: رُدَيْنَة.

وقد كانَ صدري أَطفأ اليأسُ نورَهُ | فأصبحَ مثلَ الليلِ طارتْ غياهبُهْ[١]
وقالتْ : أخافُ الناسَ ، فالناسُ في الهوى | لئيمٌ نُداري ، أو عَذولٌ نُراقبُهْ[٢]
وعادتْ تروعُ القلبَ لم تَذرِ أنني | شديدُ مناطِ القلبِ صلبٌ ترائبُهْ[٣]
ولما رأَتني هائماً غيرَ هائبٍ | سواها ، وقِدْماً ضيَّعَ الصيدَ هائبُهْ
تولَّتْ وقالتْ : تلكَ عاقبةُ الهوى | وبعد صدورِ الأَمرِ تأتي عواقبُهْ
فغادرتُ قلبي في (الترمواي) وحدَهُ | ينادي ولكنْ مَنْ عَساهُ يُجاوبُهْ؟
وعشتُ بلا قلبٍ وعفتُ هوى الدُمى | ولا يَردَعُ الإنسانَ إلا تجارِبُهْ

❁❁❁

(١) الغَيْهَبُ، من الليل: ظُلمتُه الحالكة. والفعلُ منه: [غَهَبَ] ومعناه: نَسِيَ.
(٢) العذول، العاذِلُ: اللائم. وقد استخدمه الشاعر بمعناه العامّي: الحاسِد.
(٣) مناط القلبِ: موضع التعلُّق.
والترائب، مفردها: تَرِيبةٌ، وهي موضعُ القلادة من الجِيد أو النحر.

في الأغراضِ والمقاطيعِ

وقال: يتوسلُ بصاحب الشفاعةِ العُظمى صَلى اللَّهُ عليهِ وسلَم وهيَ من أولِ قولِهِ:

[من الوافر]

أَبستْ عينـاكَ إلَّا أنْ تَصُوبا ... وهذا القلبُ إلا أنْ يَذوبا[1]

فما لكَ تَحْذرُ الرقَباءَ حتى ... هجرتَ النومَ تحسَبُهُ رَقيبا؟

وقامَ عليكَ ليلُكَ في حِدادٍ ... يشقُّ على مصائبكَ الجيوبا[2]

ورُبَّ حمامةٍ هبتْ فناحتْ ... تُنازعني الصبابةَ والنحيبا

أُساعِدُها وتُسْعِدني نُواحاً ... كِلانا يا حمامةُ قدْ أُصيبا

دَعي همَّ الحياةِ لذي فؤادٍ ... فما تركَ الغرامُ لنا قلوبا

ولا تنسَيْ أخاكِ وما يُعاني ... إذا ما كانَ في الدنيا غريبا

فإنَّ المرءَ ينسى إنْ تناءى ... وتَذْكُرهُ صَحَابتُهُ قريبا

رعاكِ اللَّهُ هل مثلي مُحِبٌّ ... وقد أمسى (محمدٌ) لي حبيبا؟

شفيعي يومَ لا يُجْدي شفيعٌ ... وطِبِّي يومَ لا أجدُ الطبيبا

وغَوْثي حينَ يَخذُلُني نَصيري ... وغَيْثي إنْ غدا رَبْعي جَديبا[3]

وآمنُ في حِماهُ رَيْبَ دهري ... وحادِثَهُ وإنْ أمسى غَضُوبا

وأذكرهُ فيَفرِجُ كلُّ خطبٍ ... ولو كانتْ رواسيها خُطُوبا

رسولَ اللَّهِ جئتكَ مستغيثاً ... وجودُكَ ضامنٌ أن لا أخيبا

متى تخضرُّ أيامي وتزهو ... ويُضْبحُ عُودُ آمالي رَطيبا؟[4]

---

(١) تَصُوبُ، من [صابَ] المطرُ صَوْباً وصَيْبوبةً: انصبَّ، وصوبُ العينين: انهمار الدمع منهما.

(٢) يشقُّ الجيوبَ: ينوح حزناً، وتفجّعاً. وقد استُخدم هنا مجازياً.

(٣) الجَدْب والجَديبُ: القاحل، المُقْفر.

(٤) رطوبةُ العود، مجازياً، تفيد السَّعة في العيش وتحقيق الأحلام.

فقد ضاقت بيَ الدنيا وهبَّتْ فجائعُها على قلبي هُبوبا
وما لي غيرُ حبِّك من نصيرٍ فعلَّ من العنايةِ لي نصيبا

❁❁❁

وقال يشكو ويتحسَّر، ويتذكر، في شريط من التداعيات غير المتآلفة:

[من الخفيف]

غيرُ قلبي أراهُ يستطيعُ صَبْراً وسوى علتي من الحبِّ تبْرا[1]
أنا لم يَبْقَ بين جَنْبيَّ إلّا كَبدٌ من لوعةِ الشوقِ حَرَّا
فدَعوا اللومَ إنما هو لؤمٌ وقديماً وُلِدتُ والعينُ عَبْرى[2]
ما عليكمْ من الغرامِ إذا ما كان حلوَ المذاقِ أو كان مُرًّا؟
إن تَكنْ تصغرُ المصائبُ فالنفـ ـسُ ترى فيكمُ المصائبَ كُبرى
كرجالِ الوباءِ في طلعةِ الطا عونِ أيام زلزلَ الويلُ مِصْرا
سفهاءُ كمثلِ ما افْتُضِحَ العِر ضُ لئامٌ كالعُسْرِ لم يُبْقِ يُسْرا
والذي أثقلَ الرواسيَ إني لأرى ظلَّكمْ على الأرضِ صَخْرا
لا يَغُرَّنَّ مَنْ يَلومُنيَ الصمـ ـتُ، فإني رأيتُ في الصمتِ أجْرا
أإذا نالَ مِن كريمٍ سفيهٌ فأقيموا له السفاهةَ عُذرا؟
ليتَ هذا الزمانَ يُرجِعُ يوماً من زمانِ الصِّبا، ويأخذُ عمرا[3]!
يومَ كانَ الفؤادُ كالروضةِ (م) الغنَّاءِ تجني يدُ الهوى منهُ زَهرا
والليالي كالطيرِ ناحتْ فخِلْنا ها تغنِّي وهنَّ يبكينَ قَسْرا
والأماني على الهَوى حائماتٌ مثلَ سِرْبِ القَطا إذا جئنَ نهرا[4]
كم أُرَجِّي من الزمانِ أموراً لم يُنِلْني الزمانُ منهنَّ أَمْرا
وإذا هَمَّ أنْ تُنَوِّلني يُمْـ ـنى يَدَيْهِ، همَّتْ بسَلْبيَ يُسرىٰ
أنا يا دهرُ لم أُسئْ لكَ يوماً فلماذا أساءَني الهمُّ دَهْرا؟
قد رآني مما تحمَّلَ صدري لو أتاني السرورُ، لم يَلْقَ صدرا

---

(١) تَبرا: مخفف (تَبرأ) بمعنى: تَشفى وتصح.
(٢) دموع العين في الولادة، رمزٌ للبكاء الذي هو نقطة البداية لحياة العذاب والقلق الإنساني.
(٣) أي ليته يعيد علينا بعض زمان الفتوة الأولى، ويأخذ بدلاً منها جزءاً من عمرنا الحاضر.
(٤) القطا، ضرب من الطير يشبه الحمام، يعيش في البيداء، ويهاجر في سبيل الماء. واحدته: قَطَاةٌ.

ولعَمري لم أَمشِ في الأرض إلّا … قام بي أنَّ تحتَ رجْلِيَ قبرا[1]
يا نجومَ السماءِ ما لكِ تزهيـ … ـنَ كلانا قد باتَ يعشقُ بدرا
إنْ تُعيني على همومِ الليالي … فاحملي شطرَها وأحملُ شطرا
أَجِدُ الهمَّ كلما نقصَتْهُ … ساعةٌ بالرجاءِ زادَتْهُ أُخرى
وبِنا حسرةٌ ترُجُّ لها الأر … ضُ، فهل أنتِ في سمائكِ حَسْرى؟
ما على مَن هَوَيْتِ لو حمَّل البر … قَ سلاماً واستودع الريحَ سِرّا؟
هو أدرىٰ بما أحاولُ منه … وأنا بالذي يُحاولُ أدرىٰ
أَلِفَ الصدَّ والتجافيَ غَدْراً … وأذى الصبِّ والتجنيَ كِبْرا[2]
من يُحيِّيهِ والنسيم إذا هـ … ـبَّ جفاني، والصبحُ أطولُ هَجْرا
وصِحابي إذا افتقرتُ إليهم … زادني الأغنياءُ عنيَ فَقْرا
خلقَ اللّه ذا الجمالَ مَتاعاً … غيرَ أنَّ الجميل بالتيهِ مُغْرىٰ
وأرىٰ الصدَّ لذةً وشقاءً … ومن النفعِ ما إذا زادَ ضرّا
فاحذري يا نجومُ بدرَكِ إني … أجد الحُسْنَ صار في الناسِ سِرّا

❁ ❁ ❁

وقال في قلة الأوفياء:

[من مخلّع البسيط]

رأيتُ في الناسِ كلَّ شيءٍ … تحارُ في كُنهِهِ العقولُ
جميلُهُمْ، فعلُهُ قبيحٌ … وكم قبيحٍ له جميلُ![*]
ويَصطفي المرءُ ألفَ خِلٍّ … ولا يفي منهمُ خليلُ
فلا تحاولْ لهمْ رِضاءً … إنَّ رضاءَ الناسِ مستحيلُ

❁ ❁ ❁

(١) معنى البيت مسبوق؛ وصورته من شاعر المعرّة أبي العلاء المعرّي بقوله: من داليته المشهورة:
سِرْ إنِ اسْطَعْتَ في الهواء رُوَيْداً … لا اختيالاً على رفات العبادِ
خَفِّفِ الوَطْءَ ما أظنُّ أديمَ الـ … ـأرضِ إلاّ من هذه الأجسادِ!
(ديوانه: **سقط الزند**، دار الفكر، بيروت سنة ١٩٦٥، ص٧).

(٢) في البيت غير محسّنة بديعية، ما بين جناس وطباق متّحدَين (صَبٌّ وصَدٌّ) و(التجنّي والتجافي)، وتقسيم بين شطري البيت بما يشبه الموازنة.

(*) أي: له فعل جميلٌ. وقد سقط البيت من طبعة بيروت.

وقال في تَشَكٍّ مماثل، على شيء من التدرُّج:

[من المديد]

نُوَبٌ تَغدو على نُوَبِ ... تقطعُ الأيامَ في طلبي[1]

ليتَ شعري وهي مُعْجَلةٌ ... أيُّ ذَنْبٍ لي سوى أدبي؟

أَقْبلي يا نائباتُ فما ... هذهِ الدنيا سوى تعبِ

واثْبُتي للعمرِ آونةً ... فليالي العمرِ في هرَبِ

عجَبي والناسُ إن فَطِنوا ... وجَدوا دهري أبا العَجَبِ

كم ليالٍ قد لعبتُ بها ... وغدتْ من بعدُ تلعبُ بي

كعُهودِ الغيدِ إنْ صدَقتْ ... فقُصاراها إلى الكَذِبِ

والذي يمضي على لعبٍ ... سوفَ يلقى حَسْرةَ اللعبِ

يا زمانَ الهجرِ كيفَ لنا ... بزمانِ الرُّسْلِ والكُتُبِ؟

وليالٍ كالصِّبا سَلَفتْ ... إنْ يؤبْ عهدُ الصبا تَؤبِ[2]

كم قطعناها على كَلَفٍ ... في رضا حلوٍ وفي غَضَبِ[3]

آهِ ليتَ العينَ ما نظرتْ ... ودموعَ العينِ لم تَصِبِ[4]

إنَّ هذا الحبَّ غادرني ... ليسَ لي في العيشِ من أرَبِ

كلما أفلَتُّ منْ كُرَبٍ ... ساقني قلبي إلى كُرَبِ

❁ ❁ ❁

وقال في معاناته من المِلاح:

[من الخفيف]

هجَرَتْني المِلاحُ من غيرِ ذنبٍ ... وأعانتْ عليَّ دهري المِلَاحُ

قاتلاتُ النفوسِ حَرَّمَها اللـ ... ـهُ ولكنْ لأجلهنَّ تُباحُ

وتماديْنَ في عذابيَ حتى ... ما لِلَيلي من بعدِ ليلى صباحُ

يا فؤادي اصطبِرْ فإنْ هِيَ إلّا ... غدوةٌ بَعدَها يكونُ الرواحُ

---

(١) النوب: ج: نائبة وهي المصيبة الشديدة. والنُّوَبُ أيضاً، جمع نوْبَة، من المناوَبَة، أي المرّة بعد المرّة.

(٢) آبَ، يؤوبُ أَوْباً وإياباً: رجَع، وعادَ.

(٣) الكلَفُ: هنا: التعلّق.

(٤) لم تَصِب، من صَابَ المطرُ، يَصُوبُ صَوْباً وصَيْبوبةً، إذا نزل وهطَل.

كـم أنـاسٍ يـصـدُّ عـنـهـم أنـاسٌ جـمـعَ الـموتُ بـينـهـمْ فـاسـتـراحـوا[١]

❁ ❁ ❁

وقال في رسالةٍ:

[من السريع]

أَيَـا ضـلـوعـاً قـلـبُـهـا وامـقُ ويـا عـيـونـاً طـرفُـهـا رامـقُ[٢]

مَـن لـفـؤادٍ طـاهـرٍ جَـرَّهُ إلـى الـغـرامِ الـنـظـرُ الـفـاسِـقُ؟

❁ ❁ ❁

واستبطأ كتبَ أحد أصدقائِه، وكانَ قد وُشيَ بهِ عندهُ، فكتبَ إليهِ:

[من الخفيف]

عـلـمَ الـلَّـهُ أنـنـي بِـكَ صـبُّ ولـذكـري حِـمـاكَ مـا عـشـتُ أَصْـبـو

يـا حـلـيـفَ الـوَفـا أَمَـالـيَ عـذرٌ يَـغـفـرُ الـذنـبَ إنْ يـكـنْ لـيَ ذنـبُ؟

قـد سعَـوا بي إلـيكَ بـالـعَـيْـبِ فـالـعيـبُ ومـا لـي سـوى الـمـحـبـةِ عـيـبُ

وأرادوا أن يُـلْـزِمـوا الـقـلـبَ صـبـراً لـهـمُ الـويـلُ هـل لـذي الـحـبِّ قـلـبُ؟

أتـخـذتَ الـسـحـابَ داركَ فـي الـجـوِّ فـلـيـسـتْ تـجـيـئُـنـا مـنـكَ كُـتْـبُ؟

أم، فـمـا أوجـبَ الـقـطـيـعـةَ والـبـغـضـا وقـلـبـي كـمـا عـهـدتَ مُـحِـبُّ[٣]

لـو سـألـتَ الـنـسـيـمَ عـنـي لأمـسـى بـزفـيـري عـلـى حِـمـاكَ يَـهُـبُّ

أو أذِنـتَ الـسـحـابَ أن تـذكـرَ الـدمـعَ لـبـاتـتْ مـن الـدمـوعِ تَـصُـبُّ

أو تـعـرَّضْـتَ لـلـحَـمـامِ بـذكـري طـالَ مـنـه عـلـى جـفـائـكَ عَـتْـبُ

سـقَـمـي قـاتـلـي وأَنـتَ طـبـيـبـي مـا لِـسُـقـمـي سـوى رضـائِـك طِـبُّ

❁ ❁ ❁

وكتبَ إلى مُخْلفِ وعدٍ:

[من مجزوء الرجز]

يـا مُـخْـلِـفَ الـمـوعـدِ كـمْ تـكـذبُ فـيـمـا تـنـطـقُ!

أَصْـدقُ مـا وعَـدْتَـنـي أَنَّـكَ لـسـتَ تَـصْـدُقُ

❁ ❁ ❁

(١) دائماً يختم الشاعر بحكمة أو يتسلَّح بها، لتخفيف وطأة التوتر والانفعال، حتى باتت الحكمة شيئاً ملازماً لجميع قصائد الحب والغزل عنده.

(٢) الوامِق (اسم فاعل) من: وَمَقَ، أحبَّ بإخلاص. والرامِقُ: الناظر بهَمْس وترقُّب.

(٣) الشَّيْن: خلاف الزَّيْن، القبحُ والعَيْب.

وكتبَ إلى صديقٍ لم يُحسن وُدَّه:

[من مجزوء الكامل]

مــا لــي أراكَ مُــغَــاضِــبــاً ... مــن غــيــر ذَنْــبٍ كــانَ مــنــي
فــإذا كــتــبــتُ إلــيــكَ مُــعْــ ... ــتذراً أحــلْــتَ عــلــى الــتــجــنــي
مــا كــانَ ظَــنــي يــا أخــي ... أنْ ســوفَ يُــخــطــئ فــيــكَ ظَــنــي

❁ ❁ ❁

وكتبَ إلى من ظنَّ به خيراً ولم يجده كذلك:

[من الخفيف]

كــنــتُ أرجــوكَ أنْ تُــعــيــنَ عــلــى الــهــ ... ــمّ إذا أنــتَ لــلــهــمــوم مُــعِــيــنُ
ثــم أَصــبــحــتَ بــالــودادِ جَــوَاداً ... وفــتــى الــجــودِ بــالــودادِ ضــنــيــنُ
فــإذا كــنــتَ قــد ظــنــنــتَ غُــروراً ... إنــمــا أنــتَ جــوهــرٌ مــكــنــونُ
فــبــهــذي الــفِــعــال والــخُــلُــقِ الــســو ... ءِ تــبــيَّــنْــتَ أنَّ فــعْــلَــك شَــيْــنُ

❁ ❁ ❁

وقال في صاحبٍ له تافه، ثرثار:

[من مخلع البسيط]

لــي صــاحــبٌ حــديــثُــهُ فــضُــولُ ... تــمــجُّــهُ الآذانُ والــعُــقــولُ[1]
ولــم يــزلْ مــن دأبِــهِ الــذهــولُ ... فــهــو كــمِــثْــلِ الــظــلّ إذ يَــجُــولُ
مُــنْــبــسِــطــاً فــي حــيــثــمــا يــزولُ ... وهْــو إذا أصــغَــى لــهُ الــخــلــيــلُ[2]
كــالــبــبــغــا تــعــيــدُ مــا تــقــولُ

❁ ❁ ❁

وقال في ما يكتنفه من هموم ذاته ولا يعرفها أَحدٌ:

[من السريع]

لــم يــنــكــشــفْ هــمِّــي ولــكــنَّــنــي ... أُرِيــهــمُ مــا عــرَفُــونــي بــهِ
كــذي هُــزالٍ خــانَــهُ جــســمُــهُ ... فــاســتــلــفــتَ الــنــاسَ إلــى ثَــوْبِــهِ
وربَّــمــا كــانَ الــفــتــى بــاســمــاً ... وكــانَ كــلُّ الــهــمِّ فــي قــلــبِــهِ

(١) تمجُّه: تلفِظُه وتنبذهُ. والفضول: السَّقْطُ والتفاهة.

(٢) لم نتبيَّن معنى، ووظيفةَ «منْبسطاً» في البيت، لسوء إضافتها إلى ما بعدها، ولغموض معناها بذاتها.

ومــن رأى ذِلَّــتَــهُ صَــحْــبُــهُ ... فــربــمــا هــانَ عــلــى صَــحْــبِــهِ

❁ ❁ ❁

وقال في صنوف الناس:

[من المجتث]

الأصــدقــاءُ قــلــيــلُ ... والــحــرُّ فــيــهــمْ أقــلُّ

والــنــاسُ كــهْــلٌ غــنــيٌّ ... وذو شــبــابٍ مُــقِــلُّ

فــلا تــرى الــشــيــخَ يــقــوى ... ولا الــفــتــى يــســتــقــلُّ

❁ ❁ ❁

وقال محرِّضاً على كرامة النفس وعزَّة القلب:

[من الخفيف]

أصْبِحِي يا همومُ فينا وبِيتي ... ما لهمّ على الرِّضا من ثُبوتِ

قد بلَوْنا الصدودَ حتى ألِفْنا ... هُ كإلفِ العَيِيِّ طولَ السكوتِ[1]

وغدَوْنا مع الزمانِ كما شا ... ءَ وشاءتْ فواجعُ التشتيتِ

تترامى بنا رياحُ الرزايا ... كلَّ يوم ترامِيَ العنكبوتِ

لا رعى اللَّهُ مَن يُحبُّ على الغدْ ... رِ أغَنَّاً أو ذاتَ حلْيٍ صموتِ[2]

أَحَرامٌ يا نفسُ أن أحفظَ الودَّ (م) إذا ما أضاعَهُ مَنْ هَوِيتِ؟

ليسَ قلبي لغير من يحفظُ القلْـ ... ـبَ سواءٌ أبَيْتِ ذا أو رَضِيتِ

فإذا ما الحبيبُ أعرضَ عني ... فاهْجُريه هجْرَ الطلاقِ البتُوتِ[3]

واطلبي جانبَ الفخارِ وأغْلي ... ما بناهُ الجدودُ لي، أو فموتي

❁ ❁ ❁

وقال في مقام مُشَابه:

[من المجتث]

أَرهِــفْ سُــيــوفَــكَ يــا دَهْــ ... ــرُ قــدْ عــرَفْــتَ مَــخَــزِّي[4]

---

(١) العَيِيُّ: العاجز عن الكلام، الذي فيه حبسةٌ في لسانه.

(٢) الأغنُّ: الجميل الصوت ـ وهو هنا صفة المرأة الجميلة التي يُتَغنّى بها.

(٣) الطلاق البتوتُ: أي المنْبَتُّ، المنقطع تماماً. وهو هنا الطلاق الذي لا رجعة فيه.

(٤) أرْهِفْ سيوفَك: اجعَلْها مُرهفةً، حادَّة مسنونة. والمَخَزُّ: موضع الخَزّ، أي موضع إنفاذ السهم. وفي طبعة مصر: «محزّي» (بالحاء المهملة): مكان الحزّ من الذبيح.

فلستُ أرجو لِذُلّي مَن كادني يومَ عِزّي[١]
وكم حبيبٍ فَقَدْنا فلم نَجِدْ مَن يُعَزّي

❁ ❁ ❁

وقال في قبلةٍ من خدّ أَغْيَد:

[من السريع]

وأغيدٍ قلنا له: هاتِها فقالَ: ما «هاتِ» ومعناها؟
كأنما ليسَ لنا أَضلُعٌ على هَواهُ قد طويناها
ولم تكنْ في خدِّهِ وردةٌ تزيدُ حسناً إنْ قطفناها[٢]
قلنا لهُ تلك إذنْ قبلةٌ كلُّ محبٍّ قد تمناها
فلم يزلْ يمنعنا خدَّهُ ولم نزلْ حتى أخذناها

❁ ❁ ❁

وقالَ: (في مليحةٍ تبيعُ الليمونَ المعروفَ باليوسفِ أفندي):

[من الرجز]

غانيةٌ كرونقِ الفِرِنْدِ لحاظُها مثلُ سيوفِ الهندِ[٣]
وشعرُها جُندٌ ولا كالجندِ تعلَّمتْ بطْءَ الخُطى مِن فِنْدِ[٤]
وعندها صبابةٌ وعندي لو صوروا بنانَ ذاكَ الزَّندِ[٥]
لصوروني فيه (يوسُفَنْدي)[٦]

❁ ❁ ❁

---

(١) كادَني، صنع لي مكيدة، وهي الحيلة والإهانة.
(٢) تورية لطيفة لقُبلة الخدّ.
(٣) الفرنْد: السيف، وهو أيضاً: ما يُرى في السيف من تموجات الضوء.
(٤) الفِنْدُ ههنا، اسم رجل كان مولًى عند **عائشة بنت سعد بن أبي وقاص**، أرسلَتْه عائشة ليأتي لها بنارٍ فوجد قوماً يخرجون إلى مصر، فتبعهم، وأقام بها سنةً. ثم قدم إلى المدينة، فأخذ ناراً وجاء يَعْدو فعَثَر (أي سقط) فقال: تَعِسَت العَجَلةُ! فقيل: **أبطأ من فِند**. (**تاج العروس** - الكويت سنة ١٩٧٠ جـ٨/ ٥٠٧).
(٥) الزند، هناك زندان في الذراع الواحدة: الساعد والذراع، تجمعهما من أسفل: الرُّسْغ. والبَنانُ: أصابعُ اليد، واحدها: بَنَانَة.
(٦) مختصر: يوسف أفندي، وجاء في **تاج العروس** (نفسه ص٥٠٩) أن لفظ الأفندي مشتق من الفِنْد الذي هو صاحب الفنون، زادوا عليه (ألفاً) لكثرة الاستعمال.

وقرأ إعلاناً نشرتْهُ بعضُ غاداتِ اليابانِ، في إحدى جرائدِ بلادِها، تتصبى الشبَّانَ، وتذكُر صفةَ من تهواه منهمْ. فقالَ بعضُ أصحابه: ليسَ ما يمنعني إلَّا بُعْدُ الشُّقَّةِ، وكانَ ذلك أيامَ محالفةِ إنكلترا لليابانِ، فقالَ(*):

[من المتقارب]

صَبَا لـلـقـصـورِ وغِـزْلانـهـا ... وتـلـكَ الـلـيـالـي وأَشـجـانِـهـا
لـيـالـيَ تَـجْـري جـيـادُ الـهـوى ... إلـى الـغـانـيـاتِ بـفُـرْسـانـهـا
وتَـبـعـثُـهـا خَـطَـراتُ الـقـلـوبِ ... لـمـرعـى صِـبـاهـا بـرُغْـيـانـهـا
فـهـل عَـلـمـتْ حـادثـاتُ الـزمـان ... إسـاءَتَـهـا بَـعْـدَ إحـسـانـهـا؟
رأيـنـا لـيـالـيَ أفـراحِـهـا ... تـجـرُّ لـيـالـيَ أحـزانِـهـا
وكـم حـاربـتْـنـي عـيـونُ الـمـهـى ... وحـارَبْـتُ أعـداءَ سـلـطـانـهـا
فـردَّتْ سـيـوفـي وتـلـكَ الـلـحـاظَ ... لأغـمـادِهـا ولأجـفـانـهـا
أبَـعْـدَ الـوصـالِ وبـعـدَ الـودادِ ... تَـروعُ الـغـوانـي بـهِـجْـرانـهـا؟
وتـطـرحُ شـأنَـكَ عـن هـمِّـهَـا ... وتـصـدفُ عـنـكَ إلـى شـأنِـهـا(١)
فـلا تـسـتـنـمْ لـنـؤومِ الـضـحـى ... ولا تـرجُ بِـرَّةَ أيـمـانِـهـا(٢)
ولا تَـغْـتـرِرْ بـالـتـي خـلْـتَـهـا ... تُـسِـرُّ الـغـرامَ (بـإعـلانـهـا)
تـعـلَّـمَـتِ الـودَّ بـعـدَ الـنـفـو ... رِ مـن خـاطِـبـي وُدِّ (يـابـانـهـا)
فـدع غُـصُـنَ الـبـان فـي أرْضـه ... إذا ظـلَّـلَـتْـهـمْ بـأغـصـانِـهـا
وجَـنِّـبْ فـؤادَكَ نـارَ الـهـوى ... إذا مـا حَـمَـتْـهـمْ بـنـيـرانـهـا

(*) اسم هذه الغادة «هوزو يجوش». وهذا تعريب إعلانها باللغة العربية، نقلاً عن جريدة «المؤيد» الغراء، قالت: «إنني امرأة قد بلغتُ الدرجات القصوى من الجمال، ولي شعورٌ مسترسلة على الكتفين، وتُشبه في تموجها السحابَ في يوم صافي الأديم؛ ولي قدٌّ قد يُزْري بغصن البان، في قوامه وانعطافه؛ وحاجبان كالهلال إذا طلع من مطلعه، فتطاولت إليه الأعناق، وعندي من المال الوفير والخير الكثير، الكفايةُ لأنْ أعيش مع من أُحبه، في اتصال دائم وارتباط وثيق، نرقب الفجر في الليل، ونُسرِّح الأنظار في الأزهار طول النهار. فإذا وُجد من بينكم، معشر القراء، شابٌ رقيقُ الحواشي، زكي الفؤاد، متعلم جميل، سليم الذوق، فإنني أكون سعيدةَ الحظ إذا أُتيح لي أن أُدفن بجانبه في قبر من المرمر الوردي» اهـ. والمحالفة المذكورة هي محالفة (٣٠ يناير سنة ١٩٠٢) المشهورة.

(١) تصدف عنك: تنصرف، غيرَ عابئة.

(٢) نؤومُ الضحى: المرأةُ المترفة المدلَّلةُ التي تبقى نائمة حتى وقت متأخر من ضحوة النهار. وقوله: «لا تستَنِم» لا تطمئنَّ فتنامَ ملءَ جفونك، ثقةً وأماناً!!

فَمَا العِزُّ في حُجُراتِ الكَعابِ ... ولا في الرياضِ ورَيحانِها[1]
ولا في الشعورِ كمَوجِ السحابِ ... إذا ما تراخَتْ على بانِها
ولا في الحَواجبِ مثلَ الهلالِ ... ولا في العيونِ وأجفانِها
ولا هو في طلعةِ النيِّرَيْنِ ... ولا في النجومِ وكيوانِها[2]
ولا في جَمالِ زهورِ الرياضِ ... إذا اختلَنَ في ثوبِ نَيسانِها
ورتَّلَ مما شجاهُ الحَمامُ ... أفانينَ شجوٍ بأفنانِها[3]
وما السيفُ من غيرِ أبطالِهِ ... وما العينُ من غيرِ إنسانِها
وهل ترتقي صادحاتُ الطيورِ ... من الجوِّ مِرقاةَ عقْبانِها؟
عُلاكَ أحقُّ بهذي الليالي ... من الغانياتِ بريعانِها

❁ ❁ ❁

وقال في صغيرةٍ تتعلمُ الكتابةَ في كتابٍ:

[من الخفيف]

كتبوها مثلَ الحواجبِ نُوناً ... وأروها قوامهَا في الكتابِ[4]
ثم ما زالتِ المشايخُ حتى ... علَّموها الدلالَ في الكُتَّابِ[5]

❁ ❁ ❁

وقال في هيفاءَ تمشي على الحبلِ في تياترو:

[من الخفيف]

طَلَعتْ والظلامُ يَحْسِدهُ الصبْـ ... ـحُ فخِلْنا في الأَرضِ شمسَ السماءِ
ورأتْ أكْبُدَ الورى في ثَراها ... فمشتْ من دلالها في الهواءِ[6]

❁ ❁ ❁

(١) الكَعَابُ: الفتاةُ التي نَهَد ثَدْيُها؛ وهي كاعِبٌ، ج: كواعِبُ.
(٢) لم نقع على معناها. والأرجح أن تكون: (كيانها) أشبعها، لاستقامة الوزن. والكيان: الوجود والعالم.
(٣) الأفنان، ج: فَنَنٌ، الأغصان.
(٤) شُبِّهتِ (النونُ)، بحاجب العين، ولكن بصورة مقلوبة. تشبيهاً ينطوي على معانٍ كثيرة تمثلها النونُ، وتُغرَبُ بها.
(٥) الكتّاب، المدرسة التي تعلّم فيها القدماء في مواضع كثيرة من أماكن الدرس والعبادة، وأكثر علومها القرآن والعربية والحساب. جمعها: كتاتيب.
(٦) أراد أن الراقصة، وهي تختال في رقصها على الحبال، كانت ترى الناس من تحتها، وقد تفطّرتْ أكبادهم من القَلَق عليها.

ورأى راقصاتٍ فأعجبهُ ما رأى فقال بديهاً:

[من الرمل]

يـا شُـمـوسـاً طـلـعـتْ فـي الـغَـلَـسِ ... مـا عَـلـيـكُـنَّ مـن الـمـخْـتَـلِـسِ (١)

دُرْنَ فـــي أفـــلاكِـــكُـــنَّ دورةً ... تـكـشـفُ الـرَّيْـبَ عـن الـمُـلْـتَـبِـسِ

وتـــرفَّـــقْـــنَ بـــصَـــبٍّ مُـــذْنَـــفٍ ... يـتـلـظـى قـلـبُـهُ كـالـقَـبَـسِ (٢)

ظَـــنَّـــهُ عـــاذِلُـــهُ ذا جِـــنَّـــةٍ ... أذْكَـرتْ مـن أمـرِ قَـيـسٍ مـا نَـسـي (٣)

وإذا ظَـــنُّـــوا الـــغـــرامَ هَـــوَســـاً ... فـــأنـــا ربُّ الـــهـــوى والـــهَـــوَسِ (٤)

قـد شَـجَـتْـنـي أنَّـهُ الـعـودُ فـلَـم ... يـبـقَ مـنـي غـيـرُ رَجْـعِ الـنـفَـسِ

أتُـــرى أيـــديـــهِـــمُ تَـــلـــمِـــسُـــهُ ... أم تـرى يـعـشـقُ ذاتَ (الـمَـلَـسِ)؟

❁ ❁ ❁

ورأى إحداهن وقد تأودت، حتى لم ترَ الأعينُ إلا سوادَ شعرِها المترامي على أعطافها، ثم لم يزلْ قدها بعدَ ذلكَ يتقوسُ، حتى لاحَ للناظرينَ بدرُ وجهها، فقال:

[من السريع]

مـــالـــتْ دلالاً فـــارتـــمـــى شَـــعـــرُهـــا ... كـالـلـيـلـةِ الـظـلـمـاءِ أو شِـبْـهِـهـا

فـــلـــم نـــزلْ نـــرقـــبُ بـــدرَ الـــدجـــى ... حـتـى تـجـلَّـى الـبـدرُ مـن وَجْـهِـهـا

❁ ❁ ❁

وقال يقصُّ حادثةً غراميةً لا قرار لها:

[من الخفيف]

نـــفَـــرَتْ والـــظِّـــبـــاءُ ذاتُ نِـــفَـــارِ ... وتـــجـــنَّـــتْ عـــلـــيـــهِ ذاتُ الـــسِّـــوَارِ (٥)

لـــم يـــكـــنْ يـــعـــرفُ الـــهـــوى فـــرآهـــا ... ورأى (زهـــرة الـــهـــوى) فـــي الإزارِ (*)

---

(١) الغَلَسُ: ظلمة آخر الليل، المختلطة بتباشير الفجر.

(٢) القَبَس: النار أو جمارها المشتعلة.

(٣) يتشبه الشاعر بقيس بن الملوح، الذي جُنَّ بليلى العامرية، فلُقِّب مجنوناً بها. والجِنَّة: الجنون.

(٤) الهَوَس: طَرَفٌ من الجنون. وأصله، الاختلاط والفساد (**لسان العرب** [هوس] ٦/ ٢٥٢).

(٥) النفورُ، للظبي وشبهه: الفزع والاضطراب والتحوُّل إلى مكان آخر.

(*) الزُّهَرة، أحد الكواكب السبعة السيارة. وكان القدماء يعتبرونها آلهة، واختلفت خرافاتهم في أصلها. وحكى سيسرون في كتابه: «حقائق الآلهة» أن أقدم زهرة هي بنت الفلك، وآلهةُ النار. وقال إنه يوجد هناك زهرة أخرى متولدة من زبد البحر ولَدَتْ من زوجها عطارد، ولداً، وزهرة ثالثة هي بنت جوبتير، وقد وَلَدت من المريخ ولداً. ورابعة تزوجت أدونيس، وقيل إن هناك =

ورنَــتْ عــيــنُــهــا إلــيــهِ بــأنْ لا تَــتَّــبِــعَــنــا، فــمَــرَّ فــي الآثــارِ
يــتــوارى عــنِ الــعــيــونِ وإن لــم يــكُ عــن كــاتــبــيــهِ بــالــمــتــواري
ويــدورُ الــهــوى بــلــحــظَــيْــهِ مــا بــيــنَ يــمــيــنٍ تــخــوفــاً ويــســارِ
وهــي تــخــتــالُ كــالــغــصــون إذا مــا لَ بــهــنَّ الــنــســيــمُ فــي الأَســحــارِ
أو مــهــاةِ الــنــقــا إذا رأتِ الــقــا نــصَ لــكــنــهــا بــغــيــرِ انــذعــارِ[1]
يحسبُ الناسُ طيبَها نَفَسَ الصبـ ـحِ عــلــى زهــرِ روضــةٍ مــعــطــارِ
ويــظــنــونَــهــا مــن الــحُــورِ لــولا الــحــورُ مــحــجــوبــةٌ عــن الأبــصــارِ
ويــخــالــونَ وجــهَــهــا قــمــرَ الأُفــقِ عــلــى مــا بــأوجــهِ الأقــمــارِ[2]
ويــقــولــونَ فــتــنــةٌ قــد بَــرَاهــا الــلَّــهُ ســبــحــانــهُ فــجَــلَّ الــبــاري
خطَرتْ تــخــطَــفُ الــقــلــوبَ وقــد سلَّــتْ ســيــوفــاً مــن لــحــظِــهــا الــبــتَّــارِ
فــي دَلالٍ تــجــرُّ، مــثــلَ الــطــواويــسِ عــلــى عُــجْــبِــهــنَّ، فــضــلَ الإزارِ
والــثــرى كــلُّــهُ قــلــوبٌ ضِــعــافٌ خــشِــيَــتْ صــولــة الــهــوى الــجــبَّــارِ
(والــفــتــى يــتــبــعُ الــفــتــاةَ) وقــد أمــســى بــمــا مــسَّ قــلــبَــهُ غــيــرَ دارِ
ورأى قــضــرَهــا فــطــارَ وطــارتْ وادَّعــى وادَّعــتْ حُــقــوقَ الــجــوارِ
وأتَــتْــهُ يــلــوحُ فــي وجــهِــهــا الــبِــشْــرُ وحــيَّــتْ تــحــيــةَ اســتــبــشــارِ
يــنــثــنــي خــلــفَــهــا مــن الــخُــرَّدِ الــعــيــنِ ريــاحــيــنُ طِــبْــنَ كــالأزهــارِ[3]
هــنَّ ربَّــاتُ كــلِّ ذاتِ جــمــالٍ ولــهــا وحــدهــا خُــلِــقْــنَ جــواري
فــنــشــرنَ الــكــؤوسَ وانــبــعَــثَ الــلــهــو وقــامــتْ قــيــامَــةُ الأوتــارِ(*)

= زهرة خامسة علوية وهي آلهة المودة الصادقة، وسادسة تسمى وينوس، وهي آلهة المحبة الشهوانية، وسابعة تسمى «أبو ستروفيا». ولكن المشهور عند الناس أن الزهرة آلهةُ الهوى.

(١) الانذعار (زنة انفعال) الذعر. استخدم الشاعرُ هذه الكلمة لأجل القافية.

(٢) يبدو أنه لم يرتح لشبهها بالقمر، فهي أروع منه لأنه لا يتمتع بجمال دائم ونور ساطع في كل الأوقات.

(٣) الخُرَّدُ العِينُ: واحدتها: خريدة عيناء، أي امرأة جميلة بكْرٌ كاللؤلؤة غير المثقوبة، ذات حَوَرٍ في عينها، وسَعَةٍ، والعِينُ ج: عَيْناء وأَعْيَن.

(*) لا نرانا في حاجة إلى التنبيه على ما أودعه هذا البيت من البلاغة. ولكننا نؤاخذُ على إغفال الإشارة البديعية التي في قوله: «وانبعث اللهو». فكل ما كان لهواً وجاز أن يكون في ذلك المجلس، تحتوي عليه هاتان الكلمتان.

وحكى صوتُهنَّ أصواتَ داوُو ... دَ فهبَّتْ سواجعُ الأَطيارِ[(١)]
وتراخى الظلامُ فانفجرَ الصبـ ... ـحُ وسالتْ ذكاءُ سيلَ النضارِ[(٢)]
وبكى الغيدُ رحمةً لفتاهنَّ (م) ... ولكنْ بمدمعٍ غيرِ جاري[(٣)]
ثم ودَّعنَه فقامَ حزيناً ... ينثني بينَ ذِلَّةٍ وانكسارِ
ولوَ انَّ الهوى يَمَسُّ قلوبَ الـ ... أُسْدِ ذلَّتْ نفوسُ تلكَ الضواري
لا وذاتِ السوارِ، ما نقضَ العهـ ... ـدَ ولا خانَ لا، وذاتِ السوارِ[(٤)]
صانَ أسرارَها وباحتْ بما في ... صدرِها من ودائعِ الأسرارِ
وأصاختْ إلى الوُشاةِ فلجَّتْ ... في التجني ولجَّ في الإعتذارِ
واستعارَ الزمانُ أيامَ ذاكَ الـ ... أُنسِ والدهرُ لا يردُّ العواري[(٥)]
ونأتْ دارُها فباتَ بلا قلـ ... ـبٍ ولا مُسْعِدٍ سوى (التَّذكارِ)
وجنونُ المحبِّ يومَ تراهُ ... في ديارٍ وقلبُهُ في ديارِ

❁ ❁ ❁

وقال في «شيخٍ هَرِمٍ خطبَ فتاةً ناعمةَ الصبا فأَغلظتْ له في الردِّ»:

[من الخفيف]

جاءَها خاطباً وبينَ يديهِ ... لاحَ عِزريلُ مُنذِراً وقريبا
وتصدَّى لها فصَدَّتْ وقالتْ ... قُبِّحَ الشيخُ أن يكونَ حبيبا
قالَ: هذا المشيبُ نُورٌ، فقالتْ: ... أَوْقِدوا في السراجِ هذا المشيبا![(*)]
قال: إني أبو العجائبِ، قالتْ: ... وعَجيبٌ أن لا تكونَ عَجيبا

---

(١) سواجع الأطيار: ذات التغريد، ومنها الحمام والبلابل والحساسين.. «ويقال إن داود عليه السلام كان، إذا رتَّل المزامير في البرية، هبت إليه الطير افتتاناً بصوته. ولا يخفى حسنُ التعليل هنا».
(٢) ذكاءُ اسم علم للشمس، والنضار: الذهبُ الخالص؛ شبَّه نورَها المتلألئ، بالنور المُذاب.
(٣) لم نفهم معنى البكاء والحزن اللذين ذكرهما الشاعر، وقد أمضى أجمل لياليه.. ليس إلّا التكلُّف وترصيع الكلام بحساب وغير حساب. وإلّا فما معنى (الذلّ والانكسار والاسترحام) وما تدفّق على قلبه من غير طائل؟
(٤) قَسَمٌ صبياني، سطحيُّ السياق والصورة.. ليس إلّا الحشو المتراكم.
(٥) العواري، واحدتها عارية. كل ما يعطى على سبيل الاستعارة، ثم الاستعادة.
(*) قال محمد الرافعي في حاشية الشرح: مما يناسب هذا أن شيخاً شاعراً رأى فتيَّةً فأعجبته، فخطَبها، فردَّته. فبعث إليها ببيتين يقول فيهما إنه وإن كان قد شاب، إلا أن عزمه لا يزال فتًى، وأنه مع ذلك لأديبٌ، فقالت: «لسنا نريدك لنوليك ديوان الزمام» أي ديوان الحسابات.

يـا أبـا الـهَـولِ يـا أخـا الـهَـرَمِ الأكْـــ ـبـرِ حَـسْـبـي، فـقـدْ كـفـاكَ عُـيـوبـا[*]

يـا نـذيـرَ الـمـمـاتِ يـا وجـعـةَ الـقـلـــ ـبِ متـى كـنـتَ لـلـقـلـوبِ طَـبـيـبـا؟

أنـتَ كـالـبَـدْرِ غـيـرَ أنـكَ مـمـحـو قٌ وكـالـشـمـسِ أوشـكَـتْ أن تَـغـيـبـا

وجـديـرٌ بـمـنْ يُـؤمِّـلُ فـي الـمـو تِ حـيـاةً يَـحْـيـا بـهـا، أن يَـخـيـبـا

❁ ❁ ❁

وقال: يذكر خطرة قلب ويصف خمول قومه:

[من البسيط]

يـشـكـو إلـى ثـغـرهِ مـن حـرِّ أنـفـاسـي ومـا بـنـفـسـيَ إلَّا لـوعـةُ الـيـاسِ

ويـنـظـرُ الـقـلـبُ مـجـروحـاً بـنـاظـره ولا يـرقُّ لـقـلـبـي قـلـبُـهُ الـقـاسـي

جُـرْحُ الـحـسـامِ لـه آسٍ يُـطَـبِّـلـهُ ولـسـتُ ألقـى لجرحِ اللَّحظِ من آسِ[1]

فـإن يـكُ الـحـبُّ أن أَحـيـا بـلا أمـلٍ فـقـد قـطـعـتُ مـن الآمـالِ أمـراسـي[2]

وإن يـكـنْ مـثـليَ الـعـشَّـاقُ قـد هُـجِـروا فـأيـنَ مـيـلُ قـلـوبِ الـنـاسِ لـلـنـاسِ؟

وأيـن ذو كَـبِـدٍ يَـرثـي لـذي كـبـدٍ كـأنـمـا أنـضـجـوهـا فـوقَ أقـبـاسِ؟[3]

إنـي لأنـظـرُ أجـنـاسـاً مـنـوَّعـةً وكـم يُـضَـيِّـعُ جـنـسٌ بـيـنَ أجـنـاسِ!

وقـد أرانـيَ فـي قـومٍ أولـي كَـسَـلٍ كـأنـمـا انـتـفـضُـوا مـن تـحـتِ أرمـاسِ[4]

فـبـعـضـهـمْ بـيـنَ أخـفـافِ الـهَـوانِ هـوىً وبـعـضـهـمْ ضـلَّ بـيـن الـكـاسِ والـطـاسِ

لـو كـانَ مـنـهـمْ كـلـيـبٌ يـوم نَـكْـبـتِـه لـعـافَ طـعـنَ كـلـيـب رمـحُ جـسـاسِ[5]

❁ ❁ ❁

(*) يبلغ عمر الهرم الأكبر اليوم فوق الأربعة آلاف سنة، وذلك قليل في جانب عمر صاحبنا بالنسبة إلى عمر الفتاة، والتورية ظاهرة.

(١) الآسي: المؤاسي، المُعَالِجُ.

(٢) الأمراسُ، ج، مَرَسَة: الحَبْل.

(٣) الأقباس. جَمَرات النار، مفردها: قَبَس.

(٤) الأرماس: القبور. مفردها: رَمْسٌ. وانتفضوا، خرجوا من القبور.

(٥) إشارة صريحة إلى حرب البسوس التي كان من أسبابها **طعْنُ جسَّاس بنِ مرَّة، لكليب بن ربيعة،** ثأراً لما قام به كليبُ بناقة البسوس خالة جساس، عندما رماها بسَهْم وهي على حوضه. ودارت معارك طاحنة بين بني بكر وبني تغلب، دامت أربعين سنة، عرفت بحرب البسوس.

وقال في بضاعة الشرق البائرة:

[من السريع]

الشرقُ سوقُ الغَرْبِ لكنها ... لا يُشترى منها سوى البائرِ[1]

باعَ بنوها بعضُهمْ بعضَهم ... والويلُ للرابحِ والخاسرِ

۞ ۞ ۞

وقال في صحافة الشرق:

[من السريع]

كم مَلأُوا الجوَّ بصَيْحاتهمْ ... وطاوَلُوا النجمَ بلا طائلِ

وسيَّروها صُحُفاً بعضُها ... عن بعضِها في شُغُلٍ شاغلِ

تُحتَشدُ الأقلامُ فيها كما ... يَختلِطُ الحابِلُ بالنابلِ

وتَجمعُ الحقَّ إلى خصمهِ ... وليتَها تقضي على الباطلِ

رأيتُها كالعَضْبِ إمَّا نَبَا ... فالذنبُ في ذاكَ على الحاملِ[2]

۞ ۞ ۞

وقال في وصف نساء قومه:

[من البسيط]

أرى نساءَ بني قومي ويا أسفا ... في لِسْنِهِنَّ سِهامٌ لَسْنَ في الحَدَقِ[3]

كأنما من بني تَيمٍ بُعِثْنَ لنا ... لو لم يكنَّ قِباحَ الخَلْقِ والخُلُقِ[4]

۞ ۞ ۞

وقال مورّياً بين «الهوا» و«الهوى»:

[من السريع]

وذي دلالٍ قال خذْ في المنى ... فقلتُ عيشٌ رَغدٌ سائغُ[5]

---

(١) البائر، اسم فاعل من بارَ يَبُور بَوْراً وبَوَاراً: هلك وكَسَدَ.

(٢) العَضْبُ: صفة للسيف القاطع. نَبَا: حاد عن موضعه ولم يُصِب الهدف. ومنه قولُهم: «لكل سيف نَبوة». و«الذنبُ على الحامِل» أي على حامل السيف.

(٣) اللِّسْنُ (بكسر اللام) اللغة والكلام.

(٤) أراد أنهنّ لئيمات السلوك، كحال نساء التيميين الذين قال فيهم جرير هاجياً بني تَيْم اللات بن ثَعْلبة:

والتَّيمُ ألأمُ مَنْ يمشي، وألأمُهُ ... تَيمُ بنُ ذُهْلٍ بنو السُّودِ المدانِيسِ

(لسان العرب [تيم] ١٢/ ٧٥).

(٥) السائغ: الطيِّب الهنيء.

(ويومُ وصلٍ) قال: حسْبي إذنْ هذا كلامٌ في الهوا (ى) فارغُ

❁❁❁

وقال في شفاعة الحب:

[من السريع]

لي أملٌ فيكَ اقتضَى بعضُهُ وبعضُهُ الآخَرُ لم نَقضِهِ
فإن تكنْ حَلَّتْ فيا ربما يشفع بعضَ الحبِّ في بعضِه

❁❁❁

وقال في عزة النفس:

[من المنسرح]

يا مَن يرى أنني بَخِلْتُ بما عندي عليهِ فلستُ ذا وَجْدِ
كَفَاكَ بالنفسِ وَحْدها هِبةً فإنَّ نفسي أعَزُّ ما عندي

❁❁❁

وقال في قرَّة عين النفس:

[من المتقارب]

إذا غِبْتَ عن أعيني لم أجِدْ سواكَ تَقَرُّ بهِ أعيني
وما فُقِدَ الحُسنُ لكنَّما تميلُ الطباع إلى الأحسنِ(*)

❁❁❁

وقال مضمِّناً:

[من الطويل]

مشى فكأنَّ الغصنَ تهفو بهِ الصَّبا وللعطرِ منهُ في رداء الصبا نَفْحُ[1]
ومرَّ وعنْ جنبيهِ صفًّا عَواذِلٍ (كخَطَّيْ ظَلامٍ شُقَّ بينهما صُبْحُ)(*)

❁❁❁

وقال مُقْتبساً:

[من مجزوء الرمل]

أيها الحبُّ أماناً لم أعدْ أهوى حبيبا
إن للولدانِ ﴿يوماً يجعلُ الولدانَ شِيبا﴾[2]

❁❁❁

(*) سقط البيت من طبعة بيروت.

(١) النَّفحُ: الريحُ العطرة الطيِّبة، واللَّفح: الريح الباردة القارسة.

(*) هذا عجز بيت لكُشَاجم، وصدره: «وقد حسرتْ عن واضح الفرق قاحم».

(٢) اقتباس مباشر من الآية السابعة عشرة من سورة المزمِّل، وفيها: ﴿فكيفَ تتَّقُونَ إنْ كفَرْتُمْ يوماً يَجْعَلُ الوِلْدان شِيباً﴾.

وقال في أمر الهوى والحب الغابر وهي من أول القول:

[من المقتضب]

هل لِذَا الجفا سَبَبُ ... أم صُدودُهُ لَعِبُ؟

أم ذُكاءُ ما بَرِحتْ ... تجتلي وتَختجِبُ[1]

أم غدا كَمُشْبِهِهِ ... البدرِ ليس يَقتربُ (م)

شادنٌ لِأَغْيُنِهِ ... أنفُسُ الورى سلبُ

إن يَعُدْ فليس يَفي ... والهوى لهُ أدبُ

يحكمُ المِلاحَ على ... الصدقِ إنهُ كَذِبُ (م)

وانتمى الجمالُ له ... فهو للجمالِ أبُ

وهوَ مِنْ تَدَلُّلِهِ ... هاجرٌ ومُصطحِبُ[2]

وهوَ من مَلاحتهِ ... سافرٌ ومنتقِبُ[3]

كلُّ أمرِهِ عَجَبُ ... وكذا الهوى عَجَبُ

يا ليالياً سلَفتْ ... هل تُعيدكِ الحِقَبُ؟

والرياضُ حاليةٌ ... للسماءِ تنتسِبُ[4]

وهو بينَ أكْؤُسِها ... البدرُ حولَه الشهبُ (م)

نجتليها عابسةً ... باسماً لنا الحَبَبُ[5]

كالعروسِ قد حُجِبتْ ... وهو دونها حُجُبُ

أبطأوا بِزفَّتِها ... والزفافُ مرتقَبُ[6]

أو كخدُّ أغيدَ لو ... لم يَسَلْ بها العِنَبُ

أو كأنها شفَةٌ ... عضَّها فتًى وَصِبُ[7]

---

(١) ذكاء اسم علم للشمس. وما أكثر ما استخدمها الرافعي في ديوانه!!

(٢) الهاجر والمصطحب (طباق بديعي) يجمع النقيضَيْن: الهجران والعِشْرة الطيِّبة.

(٣) السافر: الحاسر الوجه والرأس. والمنتَقِبُ: الذي يضع النقاب، وهو نوع من الأقنعة تضعه النساء على وجوههنّ بَدْءاً من الأنف.

(٤) حالية: كساها الزهر والثمر.

(٥) الحَبَبُ والحَبابُ: فقاقيع تظهر على سطح الماء.

(٦) زفُّ العروسَ: نقلها إلى بيت زوجها باحتفالٍ.

(٧) الفتى الوَصِبُ: المريض المُتْعَب.

أو كدمعِ ذي كَلَفٍ ... بالدماءِ ينسكبُ[1]

أو كقلبِ ذي حَسَدٍ ... ما يزالُ يلتهبُ

إنْ لَثَمْتُها جَذَبَتْ ... مِعطفي فيَنْجذِبُ

يَنْبري لها رشأٌ ... هزَّ عِطفَهُ الطربُ[2]

في القلوبِ مُختبئٌ ... للقلوبِ مُخْتَلِبُ[3]

خدُّهُ بخُمرتها ... كالبَنانِ مختَضِبُ

لا أرى له غَضَباً ... آفةُ الرضا الغَضَبُ(•)

تَلعبُ المُدامُ به ... كلما احتسى يَثِبُ

وهو منها في ضَحِكٍ ... وهيَ منه تَنتحبُ

أكرمُ السُّقاةِ سقىٰ ... أكرمَ الأولى شربوا(••)

مَنْ كمثلي إنْ ذَكَروا ... مَن سما به الأدبُ؟

شيمةٌ مُخَلَّقةٌ ... نافستْ بها العربُ

إنها المَعادنُ لم ... يَصْدَ مثلَها الذهبُ[4]

يا ضُلوعي ما برح الـ ... ـقلبُ فيكِ يَضطربُ

دارت العيونُ به ... فهو بينها نَهَبُ

وانجلَتْ لَواحِظُها ... فانجلى له العَطَبُ[5]

أَعْيُنٌ يَمُوجُ بها ... سِحْرُها فينسربُ

كم صَرعْنَ من أسدٍ ... حين غالبوا غُلبوا

في جفونها رُسُلٌ ... لم تجئ بها كتبُ

ويحَ من أحبَّ أما ... ينقضي له أرَبُ؟[6]

---

(١) ذو الكلف: العاشقُ المولع.

(٢) الرشأ: الغزال. والعِطفُ: الجانب.

(٣) مختلب، (اسم فاعل) من اختلبَ: فتنَ وسَحَر.

(•) سقط البيت أو أسقط من طبعة بيروت.

(••) سقط البيت أو أسقط من طبعة بيروت.

(٤) لم يَصْدَ: مضارع: صَدِئ، يَصْدَأ. مجزوم بـ لم، حذفت الهمزة للوزن الشعري. والصدأ: حمرةٌ تعلو الحديد من أثر الاهتراء.

(٥) العَطَبُ: الفساد.

(٦) الوَيْح: اسم فعل بمعنى الويل أو الترحُّم والتوجع.

إن أراحـــــهُ تـــــعـــــبٌ   شـــفَّ قـــلـــبَـــهُ تـــعَـــبُ
ســـنَّـــةٌ جـــرتْ ومـــضـــتْ   طـــاعـــةُ الـــهـــوى تـــجِـــبُ (•)

❁ ❁ ❁

وقال يشكو ويسترحم:

[من البسيط]

يا ناعسَ الطرفِ كم أَشكو وتَظْلِمُني   رحماكَ يا ناعِسَ العَينينِ رُحْماكا!
لو أن غيرَ فؤادي يشتكيك معي   لضَجَّتِ الناسُ والدنيا بشَكْواكا

❁ ❁ ❁

وقال في بدائل الحب والأحبَّة:

[من مجزوء الرمل]

إتَّـــخِـــذْ بـــالـــلـــهـــو لَـــهْـــوا   واتـــخـــذ بـــالـــروض روضـــا
إن يـــخـــنْ ظـــبـــيٌ فـــظـــبـــيـــاً   أو تـــضـــقْ أرضٌ فـــأرضـــا (١)
كـــلُّـــهـــا آيـــاتُ حُـــسْـــنٍ   بـــعـــضُـــهـــا يـــنـــسـَـــخُ بَـــعـــضَـــا

❁ ❁ ❁

وقال في ذُلِّ الهوى وأحزانه:

[من الخفيف]

يـا أنـيـسـي ذَرِ الـحـزيـنَ حَـزيـنـا   بَـعـضُ مـا سـامَـهُ الـهـوى يـكـفـيـهِ (٢)
دعْـهُ يـبـكـي فـذو الـهـمـوم جـديـرٌ   إنَّ مـا فـي فـؤادِهِ يُـبـكـيـهِ

❁ ❁ ❁

وقال في عذاب الفراق والاغتراب:

[من الكامل]

أمـسـيـتُ مـن يـومِ الـنـوى فَـزِعَـا   وَيْـلـي عـلـى يَـومِ الـنـوى وَيْـلـي (٣)
وأتـى الـصـبـاحُ بـكـل داهـيـةٍ   فـخَـرَجْـتُ مـن لـيـلٍ إلـى لـيـلِ

❁ ❁ ❁

(•) أسقط البيت الأخير من طبعة بيروت.

(١) فظَبْياً: مفعول به لفعل محذوف تقديره: نعشقُ، نتعلّقُ. ونُصبَتْ (فأرضاً) لفعل محذوف تقديره: لِنَنْشُدْ أرضاً أخرى.

(٢) سامه الهوى: قاسى منه ذُلاً وهواناً.

(٣) الويل: الهمُّ والعذاب. وهي كلمة تحذيرية لسوء العاقبة والمصير.

وقال في أَنْسَنَة الحب:

[من السريع]

مـا الـحـبُّ إلَّا أُنـسُ كـلِّ امـرئٍ لـو كـان يـدري الـنـاسُ مـا الإنـسُ

ولـوْ دَرىٰ كـلُّ الـورى فَـضْـلَـه لـهـام فـيـهِ الـجِـنُّ والإِنْـسُ

❁ ❁ ❁

وقال في الحماسة والفروسية:

[من المتقارب]

إلـى الـبـيـضِ سَـوْرةُ هـذا الـجِـمـاحِ ولـلـسُّـمـر خـفـقـةُ هـذا الـجـنـاحِ[1]

لـحـانـي الـعـواذلُ فـي حـبـهـنَّ وهـيـهـاتَ مـن حـبـهـنَّ الـلـواحـي[2]

فـمـا الـبـيـضُ إلا طِـرارُ الـسـيـوف ولا الـسـمـرُ إلا عـوالـي الـرمـاحِ

يَـرجُّ بـهـا الأرضَ هـذا الـفـتـى ويُـدمـي عـلـيـهـا عـيـونَ الـبـطـاحِ

يـجـوبُ الـمَـعـامِـعَ جَـوْبَ الـحِـمـام ويـطـوي الـمَـهـامِـهَ طَـيَّ الـريـاحِ[3]

عـلـى أشـقـرٍ كـومـيـضِ الـبـروق تُـحـفِّـزُهُ غُـلَـواءُ الـمَـراحِ[4]

جـريءٌ عـلـى الـلـيـلِ مـسـتَـجْـمِـعٌ يـهـبُّ هـبـوبَ نـسـيـمِ الـصـبـاحِ

تـكـاد لـنـشـوةِ أَعـطـافـهِ إذا مـرَّ تـحْـسَـبُـه غـيـرَ صـاحِ

❁ ❁ ❁

وقال في نُحُول الهلال:

[من الوافر]

هـلالَ الـشـكِ لا تَـعْـجَـبْ إذا مـا رأيـتَ كـمـا أرى هَـرْجَ الأنـامِ

فـقـد حَـسِـبـوا نُـحُـولَـك مـن نُـحـولـي فـسَـخـيـفَ عـلـيـكَ عـاقـبـةَ الـغَـرامِ

❁ ❁ ❁

وقال في تضافر أسباب المعاناة على أهل الهوى:

[من الكامل]

يـا لـيـتَ قـلـبـي لـم يُـحِـبَّ ولـم يَـهِـمْ بـل لـيـتَـنـي مـا كـانَ لـي أحـبـابُ

إنـي رأيـتُ أَخـا الـغـرامِ كـأنـمـا صُـبَّـتْ عـلـيـه وحـدَه الأَوصـابُ[5]

---

(١) الجماح: النفور الشديد عن السيطرة. أو الانحرافُ عن الاعتدال.

(٢) اللواحي، مفردها لاحٍ ولاحية، أي اللائم والمفنِّدُ.

(٣) المعامع، واحدها: معْمعة، الحرب الشديدة. الحِمام: الموت. المهامه: القفار واحدها: المَهْمَهُ...

(٤) المَراح، (اسم مفعول) من راح، نقيضُ غَدا: الموضعُ الذي يروحُ القومُ إليه أو يعودون منه.

(٥) الوَصَبُ: الوجع والإرهاق، جمع: أوصاب.

لكنَّ عينَ المرءِ مفتاحُ الهوى ... فإذا رنا فُتِحتْ لهُ الأبوابُ[1]
وإذا أرادَ اللَّهُ أمراً بامرئٍ ... سَدَّتْ عليهِ طريقَه الأسبابُ

❁ ❁ ❁

وقال في انعدام الحب والإخلاص بين البشر، في نظرة تشاؤمية:

[من مجزوء الوافر]

جُلُّ الناس أعداءُ ... على السرَّاءِ والضرَّا
فلا يغرُرْكَ مُبْتسِمٌ ... تكاد تُمزِّقُ الصدرا
ولو كادوا النجومَ هَوتْ ... من الخضراءِ للغبرا[2]
وما الدنيا إذا فكَّرْ ... تَ غيرَ جهنمَ الصُّغرى
ألستَ ترى بها أُمَماً ... وكلٌّ تَلْعَنُ الأُخرى؟
لقد جرَّبتُ جُلَّهمُ ... فلم أرَ فيهمُ خَيْرا
ومِثْلُهمُ لنا الكَفْرا ... وي، والصبَّانُ، والفَرَّا[3]
فعمروٌ ضاربٌ زيداً ... وزيدٌ ضاربٌ عمرا

❁ ❁ ❁

وقال في ضحك الناس على بعضهم البعض:

[من السريع]

إن ضحكَ القومُ على بعضِهمْ ... فسوفَ يبكونَ على رَمْسِهِ[4]

---

(١) رَنا إليه يرنو، رُنُوّاً: نظر بهدوء وتأمل.

(٢) الخضراءُ، صفة للسماء لخضرتها. صفةٌ غلبتْ غيرها من أوصاف السماء وأسمائها. والغبراء: الأرض التي تتألف من التراب الذي يُصْبح غباراً في أيام الجذب وهبوب الرياح. ومنه قول النبيّ ﷺ في صفة أبي ذَرٍّ الغفاري: **«ما أَقَلَّتِ الغبراءُ ولا أظلَّتِ الخضراءُ أصْدَقَ لهجةً من أبي ذَرٍّ»** (لسان العرب [خضر] و[غبر] ٤/ ص٢٤٥ و٥/ ٥).

(٣) الكفراوي والصبّان والفرّاء، من كبار علماء النحو القدامى في العربية. الأول هو **حسن بن علي الكفراوي** الشافعي. الفقيه النحوي ـ نسب إلى بلدته كفر الشيخ بالقرب من المحلّة الكبرى بمصر. له عدد من المؤلفات في صنعة الإعراب والفقه، توفي سنة ١٢٠٢هـ/ ١٧٨٨م. والثاني، هو **محمد بن علي الصبّان**، المصري، ولد ومات في القاهرة، وله **حاشيته** المعروفة على **شرح الأشموني**، على **ألفية ابن مالك**، وغيرها.. توفي سنة ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م. والثالث: **يحيى بن زياد الفرّاء**، إمام الكوفيين وأعلمهم بالنحو واللغة وفنون الأدب ـ له كتابه المشهور **معاني القرآن**، **والمذكر والمؤنث**، وغيرهما الكثير. توفي سنة ٢٠٧هـ/ ٨٢٢م.

(٤) الرمس: القبر، وخاصة الذي في مستوى وجه الأرض.

مـن كـانَ مـن إخـوانِـهِ ضـاحـكـاً فـإنـمـا يـضـحـكُ مـن نـفـسـهِ

❁ ❁ ❁

وقال يُهني نَجْل عمِّهِ، الأديبَ الفاضلَ الشيخَ سعيدَ بن عبدِ الرحمنِ الرافعي، بكريمتهِ عِناية:

[من المتقارب]

تَـبـلَّـجَ صُـبْـحُ الـهَـنَـا مُـشْـرِقـاً ونَـوَّرتِ الـشـمـسُ أُفْـقَ (الـسَّـرايـةْ)[١]

وقـد زيَّـنَ الـسـعـدُ أبـراجَـهـا عـلـى كـل بُـرْجٍ تُـرفـرفُ رايـةْ

وقـامـتْ بـنـاتُ الـعُـلـى خـادمـاتٍ فـهـذي تَـخـيـطُ وهـاتـيـكَ دايَـةْ

وقـالـوا أَبـوهـا مـثـالُ الـكَـمـال فـقـلْـنـا الـكـمـالُ مـثـالُ الـهِـدايـةْ

ومـا هـي إلا (عِـنـايـةُ) ربِّـك فـابْـقَ (سَـعـيـداً) بـهـذي الـعِـنـايـةْ[٢]

❁ ❁ ❁

وقال أيضاً: يهني صديقهُ الفاضلَ الشيخَ عامر خليفة، من أعيانِ إتياي البارودِ بنجليهِ النجيبين:

[من المنسرح]

رأيـتُ نَـجـلَـيْـكَ فَـرقَـدَي أُفـقٍ ومـا جـمـيـعُ الـنـجـومِ أَشْـبـاهُ[٣]

كـلاهـمـا فـي عُـلاكَ طـالِـعُـهُ وفـي جـبـيـنِ الـسـعـودِ سِـيـمـاهُ[٤]

لـو خُـلـقَ الـمـجْـدُ كـالأنـامِ لَـمـا كـان سـوى نـاظِـرَيْـك عـيـنـاهُ

فـاهْـنـأْ وبـاهِ الـسَّـمـا وأَنـجُـمَـها بـالـفـرقـديـنِ رعـاهـمـا الـلَّـهُ

❁ ❁ ❁

وقال في اللباسِ الإفرنجي الأسود المعروفِ بالرسمي:

[من الرجز]

يـا حُـسْـنَ ثـوبٍ لـلـدُّجـى مُـشَـابِـهْ كـأنـمـا فُـصِّـلَ مـن إهـابِـهْ

يُـحـشَـرُ الـشـيـخُ عـلـى شـبـابـهْ أُزهـى بـه وكـنـتُ لا أُزهـى بـهْ

---

(١) تبلَّج الصبحُ: أفصح وأضاءت تباشيرُه.

(٢) ورَّى الرافعي بين (عناية) الإله، و(عناية) اسم المولودة، وكذلك بين السعيد الهنيء و(سعيد) المحتفى به المكرَّم.

(٣) الفرقدُ أحد نَجْمي القطب الشمالي، اللذين يُهتدى بهما.

(٤) الطالعُ: الهلال،وهو هنا، الفألُ الحَسن الذي يستشعره الشاعر حيال نَجْلي المهنَّأ.

كأنني المليكُ في أصحابهْ   منذُ رأيتُ الناسَ من طِلَّابهْ
وكلهمْ من جاهلٍ ونابِهْ   يرون قدر المرءِ في ثيابهْ

❁ ❁ ❁

وقال في مصير الفقير المُعْدم:

[من الطويل]

أَرى المُعْدِمَ المسكينَ في الناس هالِكاً   وما حيلةُ العَرْجاءِ بينَ المَزاحمِ(١)
كأنْ لم تكنْ حَوّاءُ في الناسِ أُمَّهُ   ولم يكُ بينَ الناطقينَ ابنَ آدمِ
فقولوا لِعبَّادِ الدنانيرِ ويحَهمْ   ألا ذكَروا يوماً عبيدَ الدراهمِ؟

❁ ❁ ❁

وقال في تعب الإنسان الدائم:

[من المنسرح]

رأيتُ ذا الكونَ كلَّه تَعَبُ   سِيَّانِ فيه الوُجودُ والعَدَمُ(٢)
والناسُ كالنائمينَ ما لبثوا   فكلُّ ما يَشْهدونهُ حُلُمُ(٣)
أَبدعَ ذاتَ العِمادِ مُبْدِعُها   فأينَ راحَتْ بِأهلِها إرَمُ؟(٤)

❁ ❁ ❁

وقال في غَلَبة الطباع على سلوك الإنسان:

[من الكامل]

كلُّ امرئٍ كَلِفٌ بحبِّ طِباعِهِ   لا يستطيعُ عن الطِّباعِ سُلُوّا
فإذا وثِقتَ من الحبيبِ فربما   تجد الحبيبَ قد استحالَ عدوّا

❁ ❁ ❁

---

(١) المَزَاحِمُ: واحدُها، مِزْحَمٌ: الشديدُ الدفع في الزِّحام.

(٢) يذكرنا ببيت أبي العلاء المعرّي في داليّته المعروفة:

غيرُ مُجْدٍ في مِلَّتي واعتقادي   نَوْحُ باكٍ ولا تَرَنُّمُ شادِ

ويليها:

تَعَبٌ كلُّها الحياةُ فما أعـ   ـجَبُ إلّا من راغبٍ في ازدياد

(ديوانه: سقط الزند، دار الفكر، بيروت سنة ١٩٦٥، ص ٧ ـ ٨).

(٣) قوله «ما لبثوا» جملة حالية زمانية بمعنى: ما داموا على قيد الحياة.

(٤) قوله هنا مستفاد من قول الحقّ تبارك وتعالى في الآيتين السادسة والسابعة، من سورة الفجر ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ﴾.

وقال (في الشتاءِ):

[من مجزوء الوافر]

أيــا ضَـيْـفـاً أطـالَ الـمَـكْـ ... ـثَ حـتـى قَـبُـحَ الـضـيـفُ

لـقـدْ خَـطُـوا لـكَ الـسَّـواً ... تِ حَـرْفـاً بـعـدَهُ حَـرْفُ

وأقْـدامُـهُـمُ الأقـلا ... مُ والأرضُ هـي الـصُّـحُـفُ

وكـمْ زلـزلـتَ دُورَهُـمُ ... (فـخـرَّ عـلـيـهـمُ الـسـقـفُ)[1]

لـئـنْ يَـضْـعُـفُ لـنـا يـومٌ ... فـأيـامُـكَ لا تَـضْـعُـفُ

وقـد مـاتَ ذوو الـكـافـا ... ت والـنُّـدمـانُ والـقَـصْـفُ[2]

وبـاتَ الـنـاسُ: مَـنْ أرضـا ... هُ يـومٌ، سـاءَهُ ألـفُ

❁ ❁ ❁

وقال في شامخ بأنفه وهو أعور:

[من البسيط]

ما بـالُ أنـفـكَ هـذا قـد شـمَـخْـتَ بـهِ ... إلى الـسـمـواتِ حـتى جـاوزَ الـقَـدْرَا

لـولا خَـشِـيـتَ إذا مـا كـنـتَ رافـعَـهُ ... مـن أجـل واحـدةٍ أن يَـفْـقَـأ الأُخْـرَى

❁ ❁ ❁

وقال في بخيلٍ:

[من المديد]

نـقـصَ الـبُـخْـلُ ويـومَ أتـى ... قـيـل إنَّ الـبـخـلَ قـد كَـمُـلَا

لـو رآه أهـلُ مَـرْوٍ إذن ... ضَـرَبـوهُ بـيـنـهـمْ مَـثَـلا[3]

❁ ❁ ❁

---

(١) اقتباس لقوله تعالى، من الآية ٢٦ من سورة النحل: ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ﴾.

(٢) لم يرشح شيء من قوله «ذوو الكافات» لأنها جمع حرف (الكاف) التي تعني مباشرة: حرف تشبيه.
وقد تعني أوائل كلمات معبِّرة تبدأ بالكاف مثل: «كلّ» و«كامل» و«كمال» وغير ذلك. وقد أشار شارح الديوان محمد الرافعي إلى ما قاله ابن سكّرة من شعر يتضمَّن ألفاظاً مبدوءة بحرف الكاف. كما أشار إلى قول آخر بحرف الصاد. (ديوان الرافعي جـ١/ ص١٤٠ حاشية (٢)).

(٣) هناك مدينتان تسمَّيان مَرْو؛ الصغرى واسمها: مَرْوُ النهر، والكبرى: مرْوُ الشاهجان، وإياها قصد الشاعر، كذلك الجاحظ في كتاب «البخلاء». وهي أشهر مدن خراسان، وقصبتها. وأهلُها مشهورون بالبخل. (معجم البلدان/ لياقوت/ جـ٥/ ١١٢ ـ ١١٦).

وقال في آجال الناس المقررة جيلاً بعد جيلٍ:

[من المتقارب]

لِكُلِّ امرئٍ أَجَلٌ مُنتَظَرْ ... ويبقى مِنَ الذاهبينَ الأثَرْ

يُرَدِّدُهُ الناسُ جيلاً فجيلاً ... ويَرْوُونَهُ زُمَراً عن زُمَرْ[1]

تُرى فيهِ نَفْسُ الفتى مثلما ... تُرى في المرآة وجوهُ البشرْ[2]

فذلكَ مرآتهُ للنفوس ... وهاتيكَ مرآتُها للصُّدَرْ

وما الناسُ إلا حديثٌ يدوم ... فالخَيْرُ خيرٌ والشرُّ شَرْ[3]

❁ ❁ ❁

وقال في حتمية الموت وراحته لذوي العذاب:

[من مجزوء الكامل]

للموتِ قدْ خُلقَ البَنُو ... نَ وللردى خُلقَ البَناتْ

والموتُ أوسعُ للذي ... ضاقَتْ بهِ هذي الحياةْ

❁ ❁ ❁

وتمنَّى طهارة القلب، ودوام الوفاء من أصدقائه، فقال:

[من الخفيف]

أَتمنَّى وكيفَ لا أتمنَّى ... أنَّ لي في الأنامِ خِلاً وفيَّا[*]

وفؤاداً مُطَهَّراً يَلْمحُ الدهـ ... ـرَ وأهليهِ راضياً مرضيَّا

ذلك المجدُ خافقاً بعد موتي ... ونعيم الحياةِ ما دمتُ حيَّا[4]

❁ ❁ ❁

(١) الزُّمَرُ: جمع زُمْرَة: الجماعة من صنفٍ واحد. وفي القرآن الكريم سورة خاصة باسم: الزُّمَر، وفيها: ﴿وسِيقَ الّذينَ كفروا إلى جَهَنَّم زُمَراً ۞ وسِيقَ الذين اتَّقَوا رَبَّهُمْ إلى الجَنَّةِ زُمَراً﴾ الآيتان ٧١ و٧٣.

(٢) و (٣) عَجُزا البيتين فيهما، مختلّان عروضياً.

(*) قال بعض الحكماء: الأملُ رفيقٌ مؤنس، إن لم يبلغك فقد ألهاكَ.

(٤) أي: ذلك هو المجدُ الحقيقي، وذلك هو نعيم الحياة الدنيا.

في الرثاءِ

قال يرثي الأميرَ عبدَ الرحمنِ، أميرَ أفغانستان، والمجدُ كلُّهُ في اسمِهِ كما كانت الحكمةُ والهمةُ في جسمِهِ رحمهُ اللّهُ(*):

[من البسيط]

يا فاجعَ القوم ماذا يَنفعُ الحَذَرُ ... وقد عَهِدْناكَ لا تُبقِي ولا تَذَرُ

جَنَتْ أناملُكَ الأرواحَ فانتثرتْ ... كما تَناثَرَ من أوراقِهِ الزَّهَرُ

وما بمانعهمْ ما قدَّروا وقَضَوْا ... وقبْلَ كلِّ قضاءٍ في الورى قَدَرُ

مَنْ يتَّعظ فصروفُ الدهرِ موعِظةٌ ... وما مواعظُ دَهْرٍ كلُّه عِبَرُ؟

يا لَهف (كابُلَ) ما فاجأتَ كافِلَها ... حتى درى كلُّ قلبٍ كيفَ ينفطرُ

فَجَعْتَها وفجَعْتَ العالَمينَ بها ... حتى النجومُ وحتى الشمسُ والقمرُ

وجئتَ ضَيْغَمَها لكنْ بمِخْلَبِهِ ... فما استطاعكَ ذاكَ الضيغمُ الهَصِرُ(1)

قد كانَ يُزجِي المنايا لِلْعِدَا زُمَراً ... واليومَ عنه صروفُ الدهرِ تعتذرُ(2)

ما شبَّ في غِيَرِ الأحداثِ فكرتُهُ ... إلا أضاءتْ لهُ الأحداثُ والغِيَرُ(3)

ولو روى الفَلَكُ الدوَّارُ حكمتَهُ ... لأَمْسَتِ الشهبُ فيهِ كلُّها سورُ

والدهرُ يومانِ: يومٌ كلُّهُ كَدَرٌ ... لا صفوَ فيهِ، ويومٌ بعضُه كدَرُ

وما تَبَسُّمَ للأيامِ مُخْتَبَلٌ ... إلَّا تفجَّع بالأيام مختبِرُ(**)

سلوا المآثرَ عنه فهي باقية ... في كلِّ قلبٍ لهُ من حُبِّهِ أثرُ

(*) سئل شاعرنا مرة: لماذا لا يُكثر من المراثي؟ فقال: كثر الرثاء حتى أصبح صنعةً تُحترَفُ. وأسأل اللّه أن لا يفجعني في عزيز علي فأرثيه. وإني ما تركتُ الرثاء، لفي نعمةٍ أحمد اللّه عليها.

(1) الضيغم الهَصِرُ: الأسد الكاسر، الذي يأخذ فريسته لاوياً عُنقها.

(2) يُزجي: يدفع ويسوقُ.

(3) الغِيَرُ: أحوال الدهر المتغيرة، وأحداثه، كذلك القول في: الصروف. قيل مفردها غيرة، وتجمع أيضاً على أغيار.

(**) المُخْتَبَل (بالفتح) الذي مسّه الجنونُ.

واستخبِرُوا الشرقَ ما للشمسِ كاسفةً فما جهينةُ إلا عندَها الخبرُ[(١)]

يا شامخاً دكَّهُ ريبُ المنونِ أمَا اهـ تزَّ الحَطيمُ وركنُ البيتِ والحَجَرُ؟[(٢)]

هـذي المدافعُ والأسيافُ ناطقةٌ في الغربِ والهندِ بالأفغانِ تفتخرُ

طارتْ بنَعْيِكَ في الإسلام بارقةٌ فانهلَّ دمعُ بني الإسلام ينهمرُ

خطبٌ قلوبُ الورى من حَرِّ جاحمهِ كأنَّ نار الوغى فيهنَّ تستعرُ[(٣)]

فمَا لأنباءِ هذا السلكِ حائنةٌ حتى المدامعُ خانتْ سِلْكَها الدررُ

❁❁❁

وقال يرثي الأستاذ عبدَ الرحمن أفندي الكواكبي[(٤)]:

[من الطويل]

أحقاً رأيتَ الموتَ دامي المخالِبِ وفي كلِّ نادٍ عُصْبَةٌ حولَ نادِبِ؟

وتحتَ ضلوعِ القوم جمرٌ مؤجَّجٌ تُسَعَّرُ ما بينَ الحَشَا والترائبِ[(٥)]

وفي كلِّ جَفْنٍ عَبْرةٌ حِين أرسلتْ رأوا كيفَ تَهمِي مُثْقَلاتُ السحائبِ

أبىٰ الموتُ إلا وثبةً تَصْدَعُ الدجى وكم ليلةٍ قد باتَها غيرَ واثبِ

فما انفلقَ الإصباحُ حتى رأيتُهُ وقد نَشَبَتْ أظفارُهُ بالكواكِبِ (ي)[(*)]

وكم في حَشَا الأيامِ من مُدْلَهِمَّةٍ قد ازدحمتْ فيها بناتُ المصائبِ[(٦)]

---

(١) تضمين للمثل العربي القديم، الذي ورد في قصيدة، أنشدها الأخنسُ بن كعب من جُهَيْنَة، بعد أن قتل صاحباً له يدعى حُصَيناً، كانا قد اتفقا على سلب كل من يريانه وحيداً، فقال لامرأته (أي امرأة صاحبه القتيل):

تُسائِلُ عن حُصَينٍ كلَّ ركبٍ وعند جهينةَ الخَبَرُ اليقينُ

(مجمع الأمثال، لأبي الفضل الميداني، المجلد الثاني/ ص٣ ـ ٥) رقم المثل: ٢٣٨٣).

(٢) الحطيم: جدار الكعبة. وقيل هو جدارها مما يلي الميزاب. سمِّي بذلك لانحطام الناس عليه، ولأنهم كانوا يحلفون عنده في الجاهلية فينحطمُ الكاذب. وقيل لأن البيت رُفع، وتُرك ذلك محطوماً. (لسان العرب [حطم] ١٢/ ١٤٠).

(٣) الجاحِمُ والجحيم: النار الشديدة الاشتعال، أو المكان الذي تتَّقد فيه النار وتستعر.

(٤) هو عبد الرحمن بن أحمد بن مسعود الكواكبي. من رجالات عصر النهضة الأدبية والفكرية. ولد وتعلَّم في حلب سنة ١٨٤٩م. ساح وارتحل كثيراً وأنشأ عدة جرائد، وترك آثاراً أدبية، فكرية جليلة ومنها: طبائع الإستبداد. توفي في القاهرة سنة ١٩٠٢م.

(٥) الترائب، واحدها تريبة. وهي عظام الصدر مما يلي الترقوتين.

(*) التورية هنا لا تخفى إلّا إذا خفيت الكواكب في الليلة الصافية. وقد قضى، رحمه اللّه ليلاً.

(٦) المدلَهِمَّة: صفة لليلة المظلمة الحالكة السواد، وقصد بها: المصيبة الدهياء.

هوى القمرُ الوهّاجُ فاخْبِطْ معي السُّرى إذا لاحَ ضوءُ النجمِ بينَ الغياهِبِ[(١)]

ووطِّنْ على خَوْضِ المَنيّاتِ أنفساً تُساوِقُها الآجالُ سَوقَ النجائبِ

فهنَّ العواري استرجعَ الموتُ بعضَها وقصر البواقي ما جرى للذواهبِ

أبعدَ حكيمِ الشرقِ تَذْخَرُ عَبْرةً وما هوَ من بعدِ الرحيلِ بآيبِ؟

حَثَوْا فوقَ خدَّيهِ الترابَ وأرسلوا عليهِ سحاباتِ الدموعِ السواكبِ

لتبكِ عليه الصُّحْفُ في كلِّ مَعْركٍ إذا ما انتضى أقلامَهُ كلُّ كاتبِ

فقد كانَ إنْ هَزَّ اليَراعَ رأيتَهُ يصولُ بأمضى من فِرندِ القواضبِ[(٢)]

ولم يَكُ هيَّاباً إذا حَميَ الوغى ورفرفتِ الأَعلامُ فوقَ الكتائبِ

وكانتْ سجاياه كما شاءَها الهُدَى وشاءتْ لأهليها كرامُ المناقبِ

ولا بِدْعَ أن تُعْزَى الكواكبُ للعُلى وقد نَسَبَتْهُ نفسُهُ للكواكبِ[(*)]

سَلُوا حامليهِ هلْ رأَوا حولَ نعشِه ملائكةً مِن حارِبٍ خلْفَ حارِبٍ[(٣)]؟

وهل حَمَلُوا التقوى إلى حفرةِ الثرى وساروا بذاكَ الطودِ فوقَ المناكبِ[(٤)]؟

وهل أغمدوا في قبرِهِ صارماً إذا تَجرَّدَ راعَ الشرقَ أهلُ المغاربِ

فكم هزَّهُ الإسلامُ في وجهِ حادثٍ فهزَّ صقيلَ الحدِّ عضبَ المضاربِ[(٥)]

أرى حَسراتٍ في النفوس تهافتتْ لها قطعُ الأحشاءِ من كل جانبِ[(٦)]

وما بعجيبٍ أنَّ ذا الدهرَ قُلَّبٌ إذا كانَ في أهليهِ كلُّ العجائبِ

❁ ❁ ❁

---

(١) السُّرى: سَيْر عامة الليل. قصد: المشقَّة والمعاناة... والغياهب: الظلمات، ج: غَيْهَب.

(٢) الفِرند: السيف. والقواضبُ: القواطع، ج: قاضب وقاضبة.

(*) هذا البيت غاية في حسن التعليل، وغاية في المدح، لأن (الياء) في (الكواكبي) للنَّسَب. ولم يرضَ أن يقول إنَّ أهله نسبوه إليها، فقال إن نَفْسَه نِسْبتُهُ، دلالةً على أن ذلك بجِدِّه، لا عن أبيه وجَدِّه. ومن يعرف سيرته رحمه الله لا يجد ذلك شيئاً عجيباً.

(٣) الحاربُ: الذي يسْلبُ غيرَه كلَّ ما يملك.

(٤) الطود: الجبل العظيم، ج: أطواد، وطِوَدَة.

(٥) صقيل الحدِّ: مصقول، مجْلوٌّ، أملسُ. وعَضْبُ المضارب: قاطعٌ كيفما ضُرِبَ به.

(٦) تهافتتْ: تداعت، وتساقطتْ من شدة الحزن والتأثر.

باب التقاريظ[1]

قال لسانُ العرب، وتاجُ الأدب، والقاموسُ المحيط، صاحبُ السعادة الشاعر محمود سامي الباشا البارودي[2] أطال اللّه بقاءه:

[من الكامل]

أَبَنِي القرائحِ أَبْشِروا بطريفةٍ سمحَ الزمانُ بها وكانَ بخيلا

كَلِمٌ كسِلْكِ الدرِّ لاءم بينها طَبْعٌ أجادَ فأحكمَ التفصيلا[3]

بَدَويةُ النَّسَبِ الصريحِ فلنْ ترى لفظاً بأثناءِ الكلامِ دخيلا[4]

بارتْ «زهيراً» في المقالِ وطاولتْ «كعباً» وفاقتْ في النسيبِ «جميلاً»[5]

بلغتْ مدى الإطرابِ حتى إنَّها لتكادُ تُحدثُ في الجمادِ مميلا

بَهَرتْ برونقِها العقولَ وغادرتْ لهوى العيونِ إلى الفؤادِ سبيلا

كالروضِ باشَرَهُ الندى فترنمتْ فيهِ الحمائمُ بكرةً وأصيلا

وترَدَّدتْ فيهِ الصَّبا فتنفستْ نفساً تصحُّ به النفوسُ عليلا

لا عيبَ فيها غيرُ فضلِ براعةٍ كالسحرِ يخدعُ أنفساً وعقولا

ردَّتْ عليَّ هوى الشبابِ وأذكرتْ عهداً كمرآةِ السماءِ صقيلا

ومن العجائبِ أنَّ لي بسَماعِها طَربَ النزيفِ وما شربتُ شمولا[6]

---

(١) التقاريظ، مفردها تقريظ، وهو المدح والثناء. ويحتوي هذا الباب على عدد من قصائد المدح والثناء التي كتبها أعيان عصره من رجالات الفكر والأدب، تكريماً وتقديراً للشاعر **مصطفى الرافعي**.

(٢) **محمود سامي باشا البارودي**. ولد وعاش ومات في القاهرة. وهو من أصل جركسي مملوكي، شغل مناصب حكومية رفيعة، وترك ديواناً شعرياً كبيراً وتوفي سنة ١٩٠٤. ولنا فيه دراسة أدبية عامة في شعره وحياته، كتابنا: «**في محراب الكلمة**» عنوانها: ديوان محمود سامي البارودي: «طبيعته ـ موضوعاته، منحاه الشعري». المكتبة العصرية، بيروت ـ صيدا سنة ١٩٩٩..

(٣) الكلم: الكلامُ. وهو أيضاً جمع كلمة.

(٤) بدوية النسب: صفة للقصيدة العربية الفصيحة، لا عجمة فيها ولا لغو.

(٥) بارَتْ: نافَسَتْ، ومنها المباراة، والشعراء المذكورون هم على التوالي:
زهير بن أبي سلمى، وابنه **كعب بن زهير**، و**جميل بن معمر**، أو **جميل بثينة**.

(٦) النزيفُ: السكران، الظمآن الذي عطش حتى يبستْ عروقه وجفَّ لسانُه.

نَظْمِ امرئٍ غاصتْ قريحتُهُ على ... درِّ الكلامِ فصاغَهُ إكليلا
طلبَ الفصيحَ من الكلامِ فنالهُ ... بعزيمةٍ تدعُ الحُزونَ سهولا
هو «صادقٌ» فيما علمنا كاسمِه ... وكفى بذلكَ بالوفاءِ كفيلا
فليَبْقَ محسودَ البيانِ ممتَّعاً ... بالفضلِ حتى يبلغَ المأمولا!

❁❁❁

وقال نجمُ الآفاق، وجوهرة العراق، مالِك رقاب القوافي، الأستاذ أبو المكارم الشيخ عبد المحسن الكاظمي[*] نزيلُ مصر، وواحد العصر، وقد فرغ، حفظه الله من سحر يراعته، لساعته فجاء بديعة البدائه، ونادرة البدائع:

[من المنسرح]

أنفَسُ ما يُقْتَنَى ويُكْتَسَبُ ... عِلْمٌ يَزينُ النفوسَ أو أدبُ
وأَشرفُ المُعْلياتِ، مَعْرِفةٌ ... تدنو بها للعلا وتَقْتَرِبُ[١]
وأرفعُ النيِّراتِ منزلةً ... وجهٌ بلألاهُ تُكْشَفُ الكُرَبُ
وليسَ مثلُ الآدابِ واسطةً ... يُرْقَبُ فيها ما ليسَ يُرْتَقَبُ
ولم يكنْ من فضيلةٍ بدَلاً ... مالٌ حَوَتْهُ الأكُفُّ أو نَشَبُ[٢]
هل تَبْلُ شَيءٌ من غيرِ ما سببٍ ... لكلِّ شيءٍ ترومهُ سَبَبُ؟
مَنْ جَدَّ في الأمرِ نالَ بُغْيَتَهُ ... ولا ينالُ الأمانيَ اللَّعِبُ
ولم يكنْ شافعاً لمطلبِه ... كعزمِه حين يُحْمَدُ الطلبُ
وليس للمرءِ منتمىً أبداً ... كالفضلِ يزكو بهِ وينتسبُ
من لم يكنْ فضلُهُ له حسَباً ... فما لهُ في زمانِهِ حَسَبُ[٣]
يَبْلَىٰ الجديدانِ والفضائلُ ما ... تبلى وتمضي السنونُ والحِقَبُ[٤]
وهي على مرِّهنَّ باقيةٌ ... تضفو عليها مطارفٌ قُشُبُ[٥]

(*) **عبد المحسن الكاظمي**، الشاعر العراقي العريق. سبق التعريف به.

(١) المُعْليات، اسم فاعل للمُعْلي والمُعْلية، الذي أو التي تحقق العلوّ والرفعة.

(٢) النَّشَبُ: المال الأصيل من نقودٍ وماشيةٍ أو عقار.

(٣) الحَسَبُ: القَدْر والقيمة. وهو أيضاً: الجاهُ.

(٤) الجديدان: الليل والنهار، لأنهما يتجددان باستمرار مع الأيام والأزمان.

(٥) تَضْفو، من [ضَفَا] الشيءُ ضَفْواً وضُفُوّاً: نَمَا وكثُرَ. والقُشُب، مفردها: قشيب: الجديدُ.. والمطارف، ج، مَطْرف: الثوب المنسوج من الخز المزركش.

طـوبـى لـمـن راحَ وهْـي أهـبـتُـه ... إذا أُعِـدَّتْ فـي الـمـآزقِ الأُهَـبُ(١)

كـلُّ شـجـاعٍ يـنـجـو الـغـداةَ ومـن ... كـان جـبـانـاً لـم يُـنْـجِـهِ الـهـربُ

ومـا سَـواءٌ فـي كـلِّ مـعـتـكـرٍ ... بـواسِـلٌ لا تـحـيـدُ ولا هُـيُـبُ(٢)

ومـا شـؤونُ الـرجـالِ واحـدةٌ ... ولا جـمـيـعُ الأنـامِ تُـنْـتَـجَـبُ(٣)

شـتّـانَ مَـن زانَ ذكـرَه نـسـبُ ... ومـن تـحـلّـى بـذكـرِهِ نـسـبُ(٤)؟

كـذاكَ مَـن يـعـتـلـي بـرُتـبـتِـه ... لـيـسَ كـمـن تَـعْـتَـلِـي بِـهِ الـرتَـبُ

وخـيـرُ مـا يَـعْـظُـمُ الـخـطـيـبُ بِـهِ ... إذا اشرأبّتْ في المجمعِ الخُطَبُ(٥)

وجَـنَّ لـيـلُ الـخُـصـومِ والـتـحـمـتْ ... مـواقِـفٌ تـلـتـظـي وتـلـتـهـبُ

أوْ جُـنَّ دهـرٌ وطـارَ فـي رَهَـجٍ ... كـلُّ شَـرارٍ، ونـابَـتِ الـنُّـوَبُ(٦)

عَـزْمٌ طَـريـرُ الـغِـرارِ مَـضـرِبُـهُ ... ومِـذْودٌ بـاتِـرُ الـشـبـا ذَرِبُ(٧)

تـسـمُـو بـحـدَّيـهـمـا لـكـلِّ سَـمَـا ... تَـقْـصِـرُ عـنـهـا الـقَـنـا والـقُـضُـبُ

والـنـطـقُ يـولـيـكَ كـلَّ مَـكْـرُمـةٍ ... سـافـرةٍ مـا لـوجـهـهـا نُـقُـبُ(٨)

يَـحـتَـقِـبُ الـقـولُ مـا يـطـيـبُ ومـا ... كـلُّ صـنـوفِ الـمـقـالِ تُـحْـتَـقَـبُ(٩)

كـم دَوَّنُـوا فـي الـورى وكـم كَـتَـبُـوا ... ولـيـتَ مـا دوّنـوا ومـا كَـتَـبُـوا

ولـم يـكُـنْ لـلأريـبِ فـاكـهـةٌ ... يـلَـذُّ مـنـهـا الـمـهـذَّبُ الأَرِبُ(١٠)

---

(١) الأهَبُ، جمع أُهْبَة، وهي الاستعداد التام.

(٢) هُيُب، ج: هائب وهيّاب: الذي يخشى المقام.

(٣) تُنتَجَبُ: تُختار وتُصطَفى.

(٤) أي ما أبعد الفرق بين مَنْ زَها وفخر بنَسَبه، ومن فخِرَ نَسَبُه به. الأول صنيع نسبه، والثاني صانِع نَسَبه.

(٥) اشرأبّتْ: امتدّتْ وتطاولتْ عُلوّاً... وكلّه بمعنى الشموخ.

(٦) نابت النوب: تتابعت الأحداث والنوائب. ونابَتْ، من النَّوْبة، أي الدور والموعد.

(٧) طَريرٌ: فتيٌّ، على جانب كبير من الرواء والحُسْن. والمعنى هنا متجه إلى القطع والبَتْر. «وطرير الغِرار مَضربُه». أي لا يحكم عقله في الضرب والتقطيع. شبّهه بالسيف في يد فتى غِرٍّ، لا يفرق بين مُوجب وسالبِ. والمِذْوَد: الذي يَذُود الحمى، وهو هنا السيف القاطع. والشّبا، واحدته شباة: حد السيف والرمح. والذرب: السليط الجارح.

(٨) النُّقُب: واحدها: نقاب، هو الخمار تضعه المرأة على وجهها فتستره عن الأعين.

(٩) للاحتقاب، غيرُ معنى، وهي كلها من الحقْب: الحزام الذي تشدُّ به الدابةُ. ومن معانيه: الادّخارُ. ومنه تراكم الحقب. وأي معنى نختاره لا يفي بالشرح المطلوب.

(١٠) الأريب: الفَطِنُ، الداهيةُ: ومثله: الأَرِبُ.

ولـم يـكـنْ لـلأديـبِ تـسـلـيـةٌ إنْ عـادَهُ الـهـمُّ وهـو مـكـتـئـبُ
ولـم يـكـنْ مـن عُـلالـةٍ لـفـتـى أمـسـتْ حشـاهُ بـالـوجـدِ تـنـتـهـبُ[1]
ولـيـس مـن دوحـةٍ لـذي أدبٍ يَـجـذبُ مـن غَـرْسِـهـا فـتَـنْـجَـذِبُ[2]
كـالـشِّـعْـرِ إمّـا صَـفَـتْ مـواردُهُ ولـم تـكـنْ بـالأجـيـنِ تـؤتـشـبُ[3]
وأحـسـنُ الـشِّـعـرِ مـا يـروقُ ومـا هـزَّكَ إمّـا تـلـوتَـهُ، الـطَّـرَبُ
ضُـرُوبُـهُ جَـمَّـةٌ فـيـومَ تـرى ضـربـاً حـلا مـنـه فـهـو لا الـضَّـرَبُ[4]
ومُـدَّعـوهُ كُـثُـرٌ، فـمِـن خَـصِـبٍ وآخَـرُ رَبْـعُ فـكـرِهِ جَـدِبُ[5]
فـواحـدٌ تُـجْـتَـنـى أزاهِـرُهُ وواحـدٌ فـنّـي ثـراهُ يُـحْـتَـطَـبُ
هـذا بـحـقٍّ كـان الـشـهـيـرَ وذا مـنـتـحـلٌ شُـهـرةً ومـغـتـصِـبُ
إن قـيـلَ، فـي حَـلْـبَـةِ الـقـريـض، بـمـن تُـحْـرَزُ عـنـد الـتـسـابـقِ الـقَـصَـبُ؟
أو قـيـلَ مـن فـي الـنـظـامِ لـهـجـتُـهُ تُـفْـتَـضُّ عن نَـشْـرِ صدقـهـا الـعُـيُـبُ[6]؟
«فـمـصـطـفـى صـادقٌ» أبَـرُّ فـتـىً حَـدَّثَ عـن فـضـلِـهِ ولا كَـذِبُ
«الـرافـعـيُّ» الـذي بـه ارتـفـعـتْ أرهـاطُ هـذا الـقـريـضِ والـشُّـعَـبُ[7]
شـبَّ فـشـبَّـتْ مـن فـطـنـةٍ مـعـهُ نـفـسٌ لـدى الـنَّـظْـمِ شـأنُـهـا عَـجَـبُ
مِـن يَـفْـعِ نـاشـئٍ أتـتـكَ بـمـا تـعـجـزُ عـنـهُ الـكـهـولُ والـشُّـيْـبُ[8]
إن قـال: لـم يـبـقَ مـا يـريـبُ ومـا كـل مـقـالٍ تُـجْـلَـى بـه الـرِّيَـبُ[9]
أو وَصـفَ الـقـومَ فـي مـسـاكـنـهـمْ وجَـدْتَـهـم حَـضْـراً وهـمْ غـيـبُ[10]

---

(١) العُلالَة: بقية كلِّ شيء.
(٢) الدوحة: الشجرة العظيمة الممتدّة الفروع، ج: أدواح. والدوح اسمٌ وجمعٌ ثانٍ.
(٣) الأَجين: الماء الآسن، تُؤتَشَب: تختلط. أي الشعر، الصافي مورداً ونَسْجاً، هو وحده الفاكهة للأديب الأَريب، والسلوان والعلاج، والدوحُ والغرْسُ وما شابه، في ما حوتْه الأبيات الأربعة السابقة.
(٤) في طبعة بيروت: ورد «ضربٌ» بدلاً من «ضرباً»؟. وأقل ما يقال فيه إنه نوع من المعاظلة.
(٥) بيت ثقيل المعنى لا يعني كثيراً.
(٦) لم نسمع (بالعُيُب) بل بالعُيوب والأعياب، ج: عَيْب. ولكن الشاعر استخدمه قياساً، للقافية.
(٧) الأرهاط، واحدها، رهط: الجماعة، ما بين الثلاثة إلى العشرة.
(٨) اليَفْعُ واليُفوع: العلوُّ والارتفاع. وهو هنا العمر الفتيّ الذي يقرب من عمر الاحتلام لدى الناشئ. والشِّيْب (بالسكون) ج: أشيَب، وحرِّكتْ للقافية الشعرية.
(٩) يَريب: يبعثُ الريبة والشكَّ.
(١٠) الحضَرُ: بمعنى الحضور، ولم نجدها كذلك في المعجم. والغُيُبُ، ج: غائب، ولم نجد هذا الجمع القياسي.

أنـظـر لـديـوانِـه الـذي نُـشِـرَتْ آيـاتُـهُ فـانـطـوتْ بـه الـكـتـبُ
أرَى شـمـوسـاً تـبـدو أشـعـتـهـا ولـم تـكـنْ كـالـشـمـوسِ تَـحْـتَـجِـبُ
مـن كـلِّ مـعـنـى كـالـراحِ مـن لُـطُـفٍ تُـقَـطَّـبُ فـي دنـهـا فـتُـقْـتَـطَـبُ(١)
أجـزاؤهـا قـد تـنـاسـقـتْ فـغـدا يـأتـلـفُ الـمـاءُ فـيـه والـلـهـبُ
فـي كـلِّ لـفـظٍ كـثـغـرِ غـانـيـةٍ مُـفَـلَّـجِ الـريـقِ زانَـهُ شَـنَـبُ(٢)
أو مـثـلِ كـأسِ إبـريـقُـهَـا غَـرِدٌ مُـقَـهْـقِـهٌ حـيـث يَـرقُـص الـحَـبَـبُ(٣)
فـكـلُّ بـيـتٍ كـأنـهُ فـلَـكٌ تـدورُ فـيـه الـكـواكـبُ الـشُّـهُـبُ
أو غُـصُـنٌ فـوقـهُ شَـدَا طـرَبـاً نـشـوانَ مـن خـمـرةِ الـصَّـبـا، طَـرِبُ
أو مـألَـفٌ طـيِّـب الـشـذا خَـضِـلٌ تـبـرزُ فـيـه الـمَـهَـا وتَـنْـسَـرِبُ(٤)
أو مـنـزلٌ يـألـفُ الـغـريـبُ لـه ولـم يـكـن عـن حـمـاهُ يـغـتـربُ
أو سـاحـةٌ تُـفـرَجُ الـهـمُـومُ بـهـا حـيـثُ تـضـيـقُ الـسـاحـاتُ والـرَّحَـبُ(٥)
تـلـك مـعـانـي الـقِـدَاحِ أم مُـقَـلٌ وذي قِـدَاحُ الألـفـاظ أم هُـدُبُ؟(٦)
فـهْـي كـمـا تـشـتـهـي الـقـلـوبُ لـنـا سـواحـرٌ أيـنـمـا بـدتْ صـيَـبُ(٧)
أمْ كـلُّ روحٍ مـن الـحـيـاةِ مَـشَـتْ فـي كـلِّ جـسـمٍ مـا مـسَّـهُ وَصَـبُ(٨)
مـثـلَ حـواشـي الـغـدران تـبـسِـم عـنْ ثـغـرٍ زهـا الـنـورُ فـيـه والـعُـشُـبُ
أو كـضـروعِ الـسـمـا تـدِرُّ عـلـى رضـائـعِ الـزهـرِ حـيـنَ تُـحْـتَـلَـبُ(٩)

---

(١) تقطب في دنها: تختلط وتمتزج، أو تُخْلَطُ وتُمْزَج. والاقتطاب، مطاوع لفعل: قطب وقطّب. والكلام كله والأوصاف، هي لآيات ديوانه الذي ضمّ صنوفاً من الأطياب والألطاف والراحات.

(٢) مفلّج الريق: متفرّقٌ في الفم بتفرُّق الأسنان، وهو مظهرُ زينةٍ وجمالٍ للفم. والشَّنَب: البياضُ.

(٣) الغَرِدُ، والغِرِّيدُ، صاحب الصوت الجميل المرتفع. والحببُ: فقاقيع تعلو وجه الماء.

(٤) المألَفُ: الموضع يُؤْلَفُ، جمعه مآلِف. والخضِلُ: النديُّ، المبتلُّ.

(٥) الرَحَبُ: مفردها؛ رَحْبَةٌ، وهي الأرض الواسعة.

(٦) معاني القِداح ـ نسبة إلى القِدْح، الذي هو غصن مَبْرِيٌّ مشذَّب ليكون في النَّبل، وهو واحد الأسهم التي يُلْعَب بها. وتجمع على أقْدُح، وأقاديح وأقداح. (تاج العروس [قدح] جـ٧ ج ٣٨).

(٧) لفظ مبهم الإعراب والجذر اللغوي، هل هو من [أصابَ] أم من [الصَّوْب] بمعنى المطر، أم بمعنى القصد والإصابة؟ ثم هل هو جمعٌ، أم مصدر؟ ولم نجد أثراً لا لهذا ولا لذاك (انظر تاج العروس [صوب] ٣/ ٢١٢ ـ ٢١٣).

(٨) الوصَبُ: التعب والفتور.

(٩) الرضائع، مفردها: رضيع. والضروع، واحدها ضَرْعٌ، وهو مدرُّ اللبن من الشاة.

شعرُكَ «يا مصطفى» لصافيةٌ بحورُهُ كلُّ وردِها عَذْبُ[1]
إنْ تُنتَخَبْ من سواكَ قافيةٌ فذي قوافيك كلُّها نُخَبُ

❁❁❁

وقال فخرُ الدولتين: السيف واليراعِ، والمنفرد بين الشعراء بالإبداع وسلامة الاختراع، طائر مصر المحكي، وشاعِرُها حضرة صديقنا الحميم الشاعر محمد حافظ أفندي إبراهيم[2]:

[من الخفيف]

قد قرأنا نَظِيمَكُمْ فرأينا حكمةً كَهْلَةً وشِعْراً فتيّا[3]
وتَلَوْنا نَثِيرَكُمْ فشهِدْنا كاتباً بارعَ اليراعِ سَرِيّا[4]
خاطرٌ يسبقُ العيونَ إلى القلـ ـبِ ويطوي منازلَ البرقِ طَيَّا
ومعانٍ كأنَّها الروحُ في الصيـ ـفِ تهزُّ النفوسَ هزَّ الحُمَيَّا[5]
من بناتِ المحارِ يصبو إليها تاجُ كسرى وتشتهيها الثريَّا[6]
إيهِ «يا رافعيُّ» أَحْسَنْتَ حتى لا أرى مُحْسِناً بَجَنْبِكَ شيّا
أنتَ واللّهِ كاتبٌ حَضَرِيٌّ إنْ عددناكَ شاعراً بدويّا

❁❁❁

وقال حضرة صديقنا الشاعر المتفنن، والأديب الشهير، الأستاذ السيد مصطفى لطفي المنفلوطي:

[من السريع]

يا ناظماً سحرَ البيانِ الذي يُغنَى به الشاعرُ والساحرُ
أحييتَ مجدَ الشعرِ في أُمَّةٍ باتَ عفاءُ مجدِها الغابرُ[7]

---

(١) الوِرْدُ العذب: المنهلُ العذب.
(٢) هو محمد حافظ بن إبراهيم فهمي المهندس. الشهير بحافظ إبراهيم شاعر مصر القومي، أو شاعر النيل المعروف بشعره الوطني والمناسبات الاجتماعية. عمل محامياً ثم تدرَّج في المدرسة الحربية، ثم محرراً في عدد من الجرائد ولا سيما «الأهرام». ترك عدة أعمال أدبية وسياسية وبعض الترجمات الأدبية. وله ديوان شعر كبير. توفي سنة ١٩٣٢م.
(٣) الكهولة، مرحلة من العمر، ما بين الأربعين إلى الستين (انظر فقه اللغة، للثعالبي ص١٣٤).
(٤) السَّريُّ: السيد الكريم.
(٥) الحميّا، هي الخمر بشدتها وسورتها.
(٦) بنات المحار: اللآلئ التي تكون في أصداف البحر.
(٧) العفاءُ: كل ما درسَ وامحى في الحياة الغابرة.

ينطقُ فيها شعرُها مثلما يَنطِقُ فيها الطللُ الداثرُ
فكانَ كالذابلِ من روضةٍ وأنتَ منهُ الصَّيِّبُ الماطِرُ[1]
تَنتظِمُ ما يعجزُ عن نظمهِ في النيِّراتِ الفلكُ الدائرُ
وتُودِعُ الحكمةَ فيهِ كما ضمَّ سوادَ الناظرِ الناظرُ[2]
والشعرُ كلُّ الشعرِ في حكمة يوحي بها للأنفس الخاطرُ
والشعرُ إن لم يكُ من «صادق» فيهِ فلا شعرٌ ولا شاعرُ

❁ ❁ ❁

وقال حضرة نجل عمنا الشاعر المجيد، والأديب اللوذعي محمد محمود الرافعي[3]:

[من البسيط]

سرى فأرَّقَ عينَ الهائمِ الوَصِبِ طيفٌ تعمَّدَ من تردادِهِ نَصَبِي[4]
وبتُّ والقلبُ أسوانٌ تُعَاوِرُهُ ذكرى الغرامِ وذكرى الخُرَّدِ العُرُبِ[5]
إذا ذكرتُ الصِّبا هامَ الفؤاد جوًى وأسبلتْ مقلتي كالواكفِ السربِ[6]
يا نفسُ لا تَخِذي ذكرَ الهوى شُغُلاً فآفةُ النفسِ بينَ اللهوِ واللعبِ
ذَرِي الغرامَ وسامي المجْدَ واستبقي إلى القريضِ تنالي غايةَ الأربِ[7]
فبالقريض تُرَجَّى كلُّ مكْرُمةٍ وبالمآثرِ، لا بالبيضِ واليَلَبِ[8]
أرَى من الشعر ديواناً قد اتَّسقتْ فيهِ المعاني اتساقَ اللؤلؤ الرطِبِ[9]
حوى من المكرماتِ الغرِّ ما قَصرتْ عنه الأفاضلُ من عُجْمٍ ومن عَرَبِ

---

(١) الصيِّبُ: ماء المطر المنهمر.
(٢) أراد بسواد الناظر: بؤبؤ العين، و«الناظر» الأخيرة: العينُ بأجزائها وعناصرها..
(٣) أحد أنسباء الشاعر، لم يترجم له **الزركلي وعمر كحالة**، ربما لأنه لم يكن مجلّياً، ولم يترك آثاراً شعرية ذات دلالة على المعيّه ونباهته.
(٤) الوَصِبُ: المريض المُوجَعُ ج: وَصَابى، ووِصَاب.
(٥) الخُرَّدُ: واحدتها: خريدة، وهي اللؤلؤة غير المثقوبة، والعُرُب، مفردها، عرباء، وهي الخالصة، في نسبها وجمالها.
(٦) الواكف: المطر المنهلُ. والسَّرِب، من سَرِبَ الماءُ سَرَباً، فهو سَرِبٌ: جرى وسال.
(٧) سامي المجدَ، ارتفعي معه وطاوليه!
(٨) البيضُ: السيوفُ، واحدها أبيضُ. واليَلَب: الحديدُ والفولاذ واحدتها: يَلَبة.
(٩) اتَّسقتْ: انتظمتْ في ما يشبه عقد اللؤلؤ.

شِعرٌ إذا تُليتْ آياتُهُ ابتسمتْ ... له العقولُ ابتسامَ النَّور للسحبِ
كأنَّ ألفاظَهُ من دقةٍ لَطُفَتْ ... أو رقةٍ عذُبَتْ صِيغَتْ منَ الذهبِ
فيا حُماة القوافي لا حِمًى لكُمُ ... إلا بِمِذْوَدِ ذاك الماجد العَرِبِ[1]
هيهاتَ أن يبلغَ الأقوامُ مَبْلَغَهُ ... أو يُدرِكوا شأوهُ في حلْبَةِ الأدبِ
ويا سميرَ العُلا لا زلتَ في جَذَلٍ ... والكاشحونَ مدى الأيامِ في تعبِ[2]
لو قارنوا بِكَ أقواماً عهدتَهمُ ... تبينوا الفرقَ بين التربِ والشهبِ

❁ ❁ ❁

وقال حضرة صديقنا الشاعر المطبوع والأديب البارع الشيخ حسين المهدي، وقد جاءنا تقريظه متأخراً:

[من مجزوء الوافر]

رأيناهُ رأيناهُ ... بِلُؤلُئِهِ ولألاهُ[3]
قريضٌ لم يَحُلْ بِمَسْمَعِ إلَّا وحلَّاهُ[4]
جُمِعَتْ به من الآياتِ ما أوحى به اللهُ[*]
فلو شعراؤنا سَمِعُوهُ قبلَ اليومِ ما فاهوا
وما أجْزَلَ مبناهُ ... وما أفحلَ معناهُ[5]
أساليبُ «أبي الطَّيِّبِ» «والرافعيِّ» أشباهُ[6]
ولكنْ ذاكَ كذَّابٌ ... فخابَ لذاكَ مسعاهُ
وهذا «صادقٌ» والصدقُ أصلٌ في مسمَّاهُ
بِمَن كنا عرفنا السحرَ في الأشعارِ، لولاهُ؟

---

(١) المِذْوَد: الذي يملك سلاح الذَّود عن الوطن. والسلاح هنا: اللسان الفصيح والبيان الآسر. والعَرِبُ، (اسم فاعل) من عَرَبَ الشيء، إذا صفا وخَلُصَ.

(٢) الجَذَل: مصدر [جَذِل] أي فرِحَ، فهو جَذْلانُ وجذلى.

(٣) اللؤلؤ: الدُّر، يكمن في أصداف البحر. واحدته لؤلؤة. جمعها لآلئ. واللألاء: كل ضوء يتلألأ.

(٤) حَلّاه، جمَّلَهُ وحسَّنه.

(*) أسقط البيت من الطبعة البيروتية.

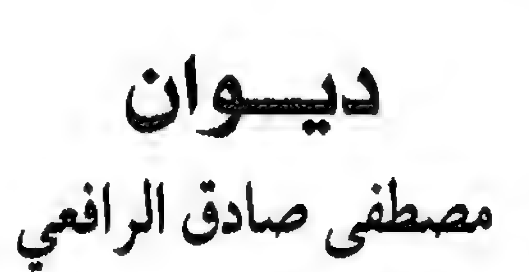
(٥) أجْزَل: أقوى وأمتن.. وأفحَل، مثل ذلك.

(٦) لا بدَّ من تسكين (الفاء) في «الرافعي» ليستقيم الشعر.

عريقٌ في الخِلالِ الغُرِّ (م) تُنَمِّيهِ سجاياهُ
فكلُّ الناسِ من أخلاقِهِ الحَسْنَا أَحِبَّاهُ[1]
تَنَبَّأَ بالقريضِ ولو دعانا لأَجَبْنَاهُ
فذا الديوانُ مَفْخَرةٌ تؤيِّدُ صِدْقَ دعواهُ

***

(١) حذف همزتي (الحسناء) و(أحباء) لاستقامة الوزن.



ديوان

مصطفى صادق الرافعي

الجزء الثاني

مقدمة الكتاب
في سرقةِ الشعرِ وتواردِ الخواطرِ

الشعرُ معنًى لما تشعرُ به النفسُ؛ فهو من خواطرِ القلبِ. إذا أفاضَ عليهِ الحسُّ من نورهِ، انعكسَ على الخيالِ، فانطبعتْ فيهِ معاني الأشياءِ كما تنطبعُ الصورُ في المرآةِ. وهوَ مِن بَعْدُ، كالحُلُم يَخْلُق في المخيلةِ، مما يَصلُ إلى الأعين، ويتأدّى إلى الآذان، ما لا يكونُ قدْ وصلَ ولا تأدّى.

وكما يأخذُ النظرُ في مَطْرحهِ ما بينَ الأرض والسماءِ، يَتناولُ القلبُ في مسرحهِ ما فوقَ سُجُفِ[1] الغيم وتحتَ أطباقِ الثرى. وإنما الخيالُ الساحر بين هذين، إنسانٌ بين مَلَكيْه، وجسدٌ بين يديهِ؛ مِنْ سِحْرهِ أن يضعَ أُذنهُ على العينِ فتسمعَ، وعينَهُ على الأذنِ فترىٰ. ولن تجدَ من شيءٍ إلا وعليهِ سِمَتُهُ، وفيه صِفَتُهُ، فأنتَ تُبصرُ الناسَ أحياءً يضطربونَ في حوائجهِمْ، وهم يُحْشَرون في يوم الحسابِ، ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾[2]؛ وبحَسْبكَ أن هذهِ الأكوانَ إنما هيَ الحقائقُ، ولكلٍّ حقيقة منها خيالٌ.

وهوَ مملكةُ الشعراءِ؛ فما مِنْ ذي خيالٍ منهم إلّا وقدْ خالطتْ قلبَهُ لذةُ المُلكِ في ساعةٍ، ربما كانت له في اليوم، أو الشهرِ، أو العامِ، أو العمرِ، هي عندَهُ الدنيا وهو مَلِكُها. فإذا رنَّ فيها صوتُهُ تَحرَّكَ الفَلكُ، فأسمعهُ من كلِّ أرضٍ فوجاً، وأرقصَ بهِ في كل بحرٍ موجاً؛ وما تزالُ الأيام تحفظُ من تلكَ الأنفاسِ في صدرِها، حتى تَبْتَني له ديواناً يعرفهُ به الناسُ؛ ولولا أنه كان مَلِكاً في تلك الساعاتِ التي نظَمَ فيها، ما سُمي شعرهُ ديواناً.

والشعرُ أسبابٌ يكونُ عنها؛ فإذا هي اجتمعتْ في واحدٍ فذلكَ[3]. ولكنكَ قلَّ أنْ تجدَ مَن يُسمّى شاعراً بحقٍّ، كما قلَّ أن ترى من لا يريدُ أن يكونَ شاعراً بالباطلِ. فمتى كانَ المرءُ على رقَّةٍ في الحسِّ، وطَبْعٍ في النفسِ، وصفاء في الذهنِ، وانتباهٍ في

---

(١) السُّجُف، مفردها سِجَاف، هو السِّتْرُ، وهو أيضاً حواشي الأشياء وامتداداتها. بهذا المعنى يُفهم تصويرُ الرافعي.

(٢) القسم الأول من الآية٨٨ من سورة النمل.

(٣) فذلك: فتلك هي حقيقة الشعر...

الخاطر، وبُعدٍ في النظر، وشدةٍ في العارضة[١]**، وقوة في البديهةِ، ومثراةٍ**[٢] **في الروايةِ، وحُنكةٍ في التجاربِ، وحِكمةٍ تحيطُ بذلكَ كلهِ، فقد اجتمعَ له من أداةِ الشعرِ ما يكونُ به شاعراً.** ولا تحسبنَّ هذا النوعِ من الكلام، مُضغةً يلوكُها الشيخُ الهِمُّ والصبيُّ الأدرَدُ[٣]، وليسَ في ماضِغَيْ أحدِهما ضرسٌ يقطعُ؛ بل لا بدّ لها من شَكَسِ[٤] الأنيابِ حديدِ المخالبِ يطحنها طحناً.

ولقد كانَ **عمرُو بنُ العلاءِ**[٥]، والزمانُ زمانٌ لا يُعَدُّ الشعرُ إلا للمتقدمينَ؛ فحدَّث **الأصمعيُّ**[٦] قال: جلستُ إليهِ عشرَ حججٍ[٧] ما سمعتُهُ يحتجُّ ببيتٍ إسلاميٍّ؛ وسُئلَ عن المولَّدينَ[٨]، فقال: ترَى قطعةَ ديباجٍ وقطعةَ مَسحٍ وقطعةَ نطْعٍ[٩]. ذلكَ، والشعراءُ يومئذٍ متوافرونَ. على أنهُ رحمهُ اللَّهُ، لوسمعَ أكثرَ شعرِ اليومِ لزَادَ: «وقطعةَ نَعْلٍ»... فقد أصبحَ الزمنُ، وما تَطْلعُ شمسُهُ إلَّا على جديدٍ، والقومُ لا يزالونَ على ما كانوا، يتمرَّغونَ في ترابِ الأولينَ؛ فإذا علقَتْ يدُ أحدهم بحِلْيةٍ، دسَّها في شعره وجعَلَها آيةَ فخْره. وإن لم يصادفْ شيئاً من ذلكَ، فأيَّةَ ما شئتَ أن تَنفضَها من كلمةٍ، لا تنتفضُ في يديكَ إلا تراباً.

وإنما مَثَلُ شعرِ اليوم والشاعرِ: مَثَلُ السفينة يطوفُ بها المحيطَ، مَنْ لا يُحسنُ

---

(١) العارضة: صفحة الخدّ، وتعني هنا: المقدرة، والبراعة، والتفنُّن في الكلام.

(٢) المثراة، (مَفْعَلة) من الثَّراء. بمعنى الكثرة. والرواية، هنا، لها غير معنى، منها: رواية الشعر والأخبار، ورواية الحديث، وفن الرواية الأدبية.

(٣) الذي سقطت أسنانه الحليبية، دلالة على صغر سنّه، وتالياً صغر تجاربه ومحدودية ثقافته. والشيخُ الهِمُّ (بالكسر) الهَرِمُ.

(٤) الشكَسُ: العُسْر في المعاملة والخُلق. وشَكَسُ الأنياب، قُصد بها: تناول كل شيء من غير مداراة.

(٥) **أبو عمرو بن العلاء** (زبّان بن عمّار التميمي)، والعَلاء لقبُ أبيه، أحد كبار أئمة اللغة والأدب، وأعلم الناس في زمانه بالأدب واللغة والقرآن والشعر. توفي بالكوفة سنة ١٥٤هـ/ ٧٧١م.

(٦) **هو عبد الملك بن قُريب** بن علي بن أصمع الباهلي، أحد كبار أئمة اللغة والأدب والبلدان، وراوية لمعظم أشعار العرب، يطوف على قبائل العرب في البيادي، ويطلع على أساليب لغاتها وأخبارها. له عدد كبير من التصانيف، وجُمعت محفوظاته الشعرية في ديوان كبير سمي «الأصمعيات». ولد وتوفي بالبصرة سنة ٢١٦هـ/ ٨٣١م.

(٧) الحجج: واحدتها حِجَّة (بالكسر)، كناية عن عام كامل، يبدأ بموسم الحج وينتهي بموسم آخر.

(٨) المولَّدون (بفتح اللام) المُحْدَثون. نسبة إلى المولَّد، أي المُحدَث الذي لم يُسْبَق إليه. وهم طائفة من الشعراء ظهروا في مطلع العصر العباسي، سمُّوا كذلك لابتداعاتهم أساليب شعرية لم تكن معروفة من قبل، وفي طليعتهم بشار وأبو نواس وشيخهم في ذلك أبو تمام.

(٩) المَسْح والنطع، مَعْنيان يفيدان السطحية والتكلف.

السباحةَ في لُجّه، فإذا انقلبَ عنها لا يَرجعُ إليها حتى تكونَ لجسمه تابوتاً. ولذلكَ تراهم يَحصُرونَ القولَ في وجوهٍ، ويَجْمعونهُ في نوعٍ منه، إلَّا ما كانَ لبعضهمْ من النُدرةِ الواحدةِ والفلْتة المفردة. . . ولم تكنْ هذهِ السماءُ التي فوقنا اليومَ، تحتَ غيرِنا من قبلُ؛ ولا كانتِ البلاغةُ شيئاً يباعُ ويُشترى، ولكنهُ الضلالُ في النشأةِ، والقصورُ في أسبابِ الصنعةِ، والجهلُ بالمقاصدِ وضعفِ اللغةِ إلى حد النزع[١]، بحيثُ لَم يبقَ إلا نَفَسُها الذي يَنطلِقُ بروحها. غيرَ ما كانَ في الصدر المتقدمِ ممنْ جعلَ الشعْرَ وَكْدَهُ، وقصَرَ عليهِ كَدَّه، وليس ذلكَ وحدَه وإنما نَفاقُ السوقِ كما عَرفت جِلاب[٢].

ولهذا أصبحَ القومُ، في أيدي جَهابِذَةِ الكلامِ[٣]، ونقَّادِ الشعرِ، أحقَّ بقولِ ابنِ بُرْدٍ:

أَرْفُقْ بعَمرٍو إذا حرَّكْتَ نسبتَهُ فإنّهُ عَربيٌّ من قَواريرِ[٤]

مع أنه فُتحَ عليهم اليوم، بابٌ جديد من الأخذِ؛ فتراهم إذا ضعُفُوا ترجَموا، وإذا ضاقتْ بهمْ مذاهبُ العربيةِ استعجموا. وما أُنكرُ أنَّ منهم من ينطبعُ على ما يأخذُ به نفسَه، ولكنهم يخرجون بالشعر عن معناهُ؛ وآيةُ ذلك أنْ لا تعرفَ في منظومهمْ روحَ التأثير التي هي حياةُ الشعرِ، بل تجد عليهِ من فَسادِ التكلُّفِ، ومغالبةِ الطبعِ، وأثر الاستكراهِ. وفيهِ من المعاني المدخولةِ ما لا تشكُّ معهُ أنهُ من مُضَاغةِ[٥] قائلهِ الأولِ.

وإنما تنفخُ النفسُ تلكَ الروحَ في الكلامِ، إذا استوتْ فيه الصنعةُ، فيتمثَّلُ بها سويّاً[٦]. وعندي أن شرطَ الشاعرِ الذي ترتفعُ عنه مظنَّةُ السَّرَق، هو أن تكون له قوةُ

---

(١) النزع: الاحتضار.

(٢) نَفاق السوق: ما يحدث فيه من بيع وشراء. والجلاب: مصدر قياسي لجلَب: أحدث الصياح والصخب؛ كأنما أراد أنَّ نتاج هؤلاء الشعراء شبيه بما يباع في الأسواق، فينفُقُ بواسطة هذه الجلبة.

(٣) الجهابذةُ، واحدها: جِهْبِذٌ، وجِهْباذٌ، نقَّاد خبيرٌ بغوامض الكلام وأساليبه.

(٤) البيت من أبيات، ثلاثة، كتبها في هجاء أبي عمرو بن العلاء، وقد ورد في الديوان:

أَرْفُقْ بنسْبة عمرو حين تَنْسِبُهُ فإنه عربيٌّ من قواريرِ

وفي رواية ثانية، ما جاء به الشاعر الرافعي، ويليه:

ما زال في كير حَدَّادٍ يُردِّدُه حتى بدا عربياً مُظلمَ النور

إن جاز آباؤه الأنذالُ في مُضَرٍ جازتْ فلوسُ بخارى في الدنانير

والقوارير: الآنية الزجاجية الرقيقة يوضع فيها العطرُ. وهو سريع الانكسار، كناية عن هشاشة نَسَبه (انظر شرح ديوان بشار بن برد، لدكتور صلاح الدين الهواري، دار ومكتبة الهلال، بيروت سنة ١٩٩٨ جـ٤/ ٨١).

(٥) المضاغة: ما يبقى في الفم من آخر ما مُضغ من أكل.

(٦) أي: كلاماً بديعاً، على غرار خلق الله الإنسان في رحم أمّه، على سبيل التشبيه المجازي.

الشعرِ؛ ودليلُها الإبداعُ، والمضيُّ في كلِ معنًى، والانتباهُ إلى أدقِّ المناسباتِ؛ **فإنَّ الكلامَ كالشجرةِ: منها الجِذْعُ، ومنها الغصونُ والأوراقُ، وما فيها من دقيقِ الخيوطِ، بعضُها فوقَ بعضٍ في الظهورِ. وإنما براعةُ الشاعرِ في الالتفاتِ إلى تلكَ الدقائقِ. فإنَّ من الكلامِ ما يتفطرُ للمعاني كما يتفطرُ الشجرُ للتوريقِ. ومن أَجْلِ ذلكَ يشبهون أجملَ البيانِ وحياً.**

والشعراءُ كالمصابيحِ: ما على أحدِها أن يتألَّقَ بنورِ غيرِهِ، ما دامَ في كلِّ مصباح زيتُه. غير أن أكثرَ مصابيح اليوم كهربائيةٌ، يستوي الجمعُ منها في الاستمدادِ من مصدرِ واحد... وقدْ كثُرتْ آلاتُ البخارِ وكثُرتْ بها المكرماتُ حتى إنَّ منْ خواطرِ هؤلاءِ الشعراءِ ما لا يتحركُ إلا (بنفَس).

ومرجعُ التفاوتِ بينَ أصنافِ القائلينَ، إنما يكونُ مِن مثْل المنشإ يطبعُ في الأنفسِ شيماً مختلفاتٍ تغلبُ على بعضِها دون بعضٍ، ومن مثْل ما يكونُ في عصرِ دون عصرٍ، وما يقعُ لشاعرٍ دونَ سواهُ، وما يتفقُ للواحدِ ولا يتفقُ للآخر، إلى غير ذلكَ مما شرطَ جميعُه وفورَ القوةِ في الشاعرِ، فلا يُستغرَبُ من رجلٍ كعنترةَ، وهو ذلكَ الذي يتمثل الموتَ في هولِ صورتِهِ، قولهُ:

[من الكامل]

إني لأعجبُ كيفَ ينظرُ صورتي　　　يومَ القتالِ مُبارزٌ، ويَعيشُ؟[1]

ولا مِن مثْل عاشقٍ كذلكَ الذي نذَروا دمهُ من أجلِ حبهِ بثينةَ قولُه، وهوَ أميرُ شِعرِهِ:

[من الكامل]

خليليَّ فيما عشتما هلْ رأيتُما　　　قتيلاً بكى من حُبِّ قاتلِهِ قبلي؟[2]

وإنما شيمةُ العاشقِ هذا البكاء.

---

(١) البيت من قطعة من ستة أبيات أنشدها عنترة لعبلة، وقد رأت آثار جراحه. ومطلع الأبيات:

ضَحِكتْ عُبَيلةُ إذ رأتني عارياً　　　خَلَقَ القميصِ وساعدي مخدوشُ

ومنها:

لا تضحكي مني عُبيلةُ واعجبي　　　مني إذا التفَّتْ عليَّ جيوشُ

ديوانه، دار بيروت، بيروت ١٩٧٨. ص١٦٢.

(٢) البيت من قصيدة أنشأها في بثينة، ومطلعها:

لقد فرِحَ الواشون أنْ صَرَمَتْ حَبْلي　　　بثينةُ، أو أبدتْ لنا جانبَ البُخلِ

ديوان جميل، دار صادر، بيروت سنة ١٩٦١، ص٣٦ و٣٧، وعاش جميل في بلاد الحجاز. وتوفي سنة ٨٦هـ/ ٧٠١م.

ولا من خليعٍ كالنواسيِّ قولهُ، يصفُ كؤوساً رأى فيها تصاويرَ، وهو الذي جُنَّ به الجاحظ:

[من الطويل]

فللراحِ ما زُرَّت عليهِ جُيوبُها ... وللماءِ ما دارتْ عليهِ القَلانسُ[1]

وكذلك لَا ينكر على مثلِ أبي فراس قولهُ في الفخرِ:

[من الطويل]

ونحنُ أناسٌ لا توسُّطَ بيننا ... لنا الصدرُ دونَ العالمينَ أو القبرُ[2]

وهو ذلكَ الذي كانَ يُزاحِم في طلبِ الصدر، ويعْلمُ أنَّ وراءَ الزلَّةِ في سبيلهِ حفرةَ القبرِ؛

ولا على منْ ترعرعَ في حِجْرِ الخلافةِ ونشأ في الترفِ، كابنِ المعتزّ قولهُ في الهلالِ:

[من الكامل]

فانظرْ إليهِ كزورقٍ من فضةٍ ... قد أثقلتْهُ حُمولةٌ من عنبرِ[3]

وقد قيلَ إن هذا البيتَ أُنشدَ لابن الروميّ، في ضمنِ أبياتٍ، وسُئل: لِمَ لا تأتي بمثل هذهِ التشبيهاتِ، وأنتَ أشعرُ منهُ؟ فبكى وقال: هذا ابنُ الخلفاءِ وهو إنما يصفُ ماعونَ بيتهِ[4]، وما حيلتي، وأنا رجلٌ أتكسَّبُ بالشعرِ وأتبلَّغُ بخبزِ الشعيرِ؟

وما بالصعبِ، على مثلِ المعرّيِّ الذي كانتْ أيامُهُ كأنها العقاربُ تتعاقبُ جسمَهُ، أن يجيءَ بمثلِ قولِهِ:

تَعَبٌ كلُّها الحياةُ فما أَعْـ ... ـجبُ إلّا من راغبٍ في ازديادِ[5]

---

(١) من قصيدة أنشأها عقب زيارته لبعض أطلال حانات المدائن، عاصمة الأكاسرة، فتأثر وقال:

ودارِ نَدامى عطَّلوها، وأدلَجوا ... بها أثرٌ منهم، جديدٌ ودارسُ

ديوانه: تحقيق أحمد عبد المجيد الغزالي، دار الكتاب العربي - بيروت سنة ١٩٨٢، ص٣٧. والقلانس، أغطية الرأس الشائعة في ذلك الحين، مفردها: قلنسوة. وتوفي أبو نواس ١٩٨هـ/ ٨١٤م.

(٢) البيت من قصيدة أبي فراس الشهيرة: «أراكَ عصيَّ الدمع» المؤلفة من سبعةٍ وأربعين بيتاً. **ديوانه**، برواية ابن خالويه، إعداد د. محمد بن شريفة. إصدار مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين، الكويت سنة ٢٠٠٠، ص١٥٢. وأبو فراس هو الحارث بن سعيد بن حمدان التغلبي، الأمير الشاعر المتوفى سنة ٣٥٧هـ/ ٩٦٨م.

(٣) لم نجد البيت في ديوانه، تحقيق محمد بديع شريف، دار المعارف بمصر، وابن المعتز، هو عبد الله بن محمد المعتز الخليفة العباسي المعروف، المتوفى سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م.

(٤) ماعون البيت، اسم جامع لمنافع البيت مما ينتفع به ويُعار.

(٥) البيت من داليته الشهيرة التي مطلعها:

غيرُ مُجدٍ في ملّتي واعتقادي ... نَوحُ باكٍ ولا ترنُّمُ شادِ

وقس على ذلكَ مَنْ قالَ من الشعراءِ، في جنسٍ ما هو بسبيلهِ، فإنَّ هاجسَهُ لا يُنْكَر عليهِ، وإنْ تَواردَ مع غيرهِ فيه.

على أنَّ للتواردِ أسباباً غيرَ ما تقدَّمَ.

منها ما يكونُ وحْيَ العينِ، إذا نزعَ الشاعرُ مَنْزعاً في صنعتهِ كقولِ **عُمارة اليمني**[1] في مصلوبٍ: [من الكامل]

ورأَتْ يـداهُ عـظـيـمَ مـا جـنَـتـا فَـفـرَزْنَ ذي شَـرْقـاً وذي غَـرْبـا

وأمـالَ نـحـوَ الـصـدرِ مـنـه فَـمـاً لِـيَـلـومَ فـي أفـعـالـهِ الـقَـلْـبَـا

فإنَّ مَن ينزعُ إلى **التعليلِ** إذا شهدَ ذلك المشهد، لا يجيء بغير هذا المعنى.

ومنها ما يكونُ **حادثة تتفقُ**، أو حالةً تنزل بالمرء، كقولِ **جليلةَ أخت جساسٍ**[2] في الاستقادةِ من أخيها حين قُتِل زوجُها: [من الرمل]

لـو بـعـيـنٍ فُـقـئـتْ عـيـنٌ سـوى أُخـتِـهـا فـانـفـقـأَتْ، لـم أحـفِـلِ

وكقول **ابنِ حسَّانٍ**، فيما كتبَ به إلى **النعمانِ** يستنجدهُ وكانَ له ظهيراً: [من الخفيف]

إنـمـا الـرمـحُ فـاعـلـمـنَّ قـنـاةٌ أو كـبـعـضِ الـعـيدانِ لـولا الـسِّـنانُ[3]

---

(١) هو عمارة بن علي بن زيدان **اليمني**، مؤرخ، شاعر، فقيه، أديب من أهل اليمن. ولد في تهامة، ورحل إلى مصر بوفادة إلى الفائز الفاطمي، من قبل أمير مكة، والي الفاطميين، ولم يكن شيعياً، بل ظل على مذهبه الشافعي. ولمّا دالت دولة الفاطميين، عمل مع عدد من أعيان المصريين على الفتك **بصلاح الدين الأيوبي**، فعاقبهم صلاح الدين، فصلبهم بين القصرين ومنهم **عمارة**. وكان قد رثى الفاطميين بشعر كثير. وكانت وفاته سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م. (**صبح الأعشى، للقلقشندي**. وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة، جـ٣/ ٥٢٦ ـ ٥٢٨، والأعلام ٥/ ٣٧).

(٢) هي **جليلة بنت مرّة** الشيبانية، زوجة **كليب بن ربيعة** الذي قتله أخوها **جساس**، وكان ذلك بداية حرب البسوس. وجليلة شاعرة فصيحة ذات شأن في عصرها. وكانت وفاتها نحو ٥٤٠م. والبيت من قصيدة أنشأتها في المناسبة، ومطلعها:

يـا ابـنـة الأقـوام إنْ لُـمْـتِ فـلا تـعـجـلـي بـالـلـوم حـتـى تـسـألـي

(انظر **شعراء النصرانية**، للأب **لويس شيخو**، دار المشرق، بيروت ١٩٦٧، ص٢٥٢).

والاستقادة: الانتقام من القتل بالقتل المماثل.

(٣) الشاعر هو عبد الرحمن بن **حسّان بن ثابت**، شاعر الرسول، شاعر أموي عاصر **الفرزدق وجرير**، وأحبَّ امرأة **هدبة بن خشرم**، ورغب في الزواج منها فلم يوفق. خاض معارك الهجاء في عصره. وكانت وفاته سنة ١٠٤هـ/ ٧٢٢م. (**معجم الشعراء في لسان العرب، لياسين الأيوبي** ـ دار العلم للملايين، بيروت سنة ١٩٨٧ ص٢٢٣). والبيت من قصيدة كتبها ابن حسّان **للنعمان بن بشير**، والي **معاوية** على الشام، مستنكراً فعْلة مروان، عامله على المدينة بجلده على إفحاشه في الهجاء. (انظر **الأغاني** (دار الكتب) جـ١٥/ ١١٥).

ومنها **الأسلوب**؛ فإنَّ من الشعراءِ من يبني القافية بالبيتِ، ومنهمْ من يبني البيتَ بالقافيةِ. والتواردُ كثير بين هذهِ الطائفةِ، كقول **النابغةِ** وكانَ **الأصمعيّ** يتعجبُ من جودتِهِ:

[من البسيط]

وعيَّرتْني بنو ذبيانَ خشيتَهُ وهل عليَّ بأنْ أخشاكَ من عارِ[١]

فلما مرت هذه القافيةُ **بأبي تمامٍ** وكان في معناها قالَ، وأبدع كما ترى:

[من الكامل]

خضَعوا لصولتكَ التي هي عندهمْ كالموتِ يأتي ليسَ فيهِ عارُ[٢]

ومنها **دلالةُ الكلامِ**، بعضُهُ على بعضٍ، إذا وفَّاهُ القائلُ قسْطَهُ من الصنعةِ، وقد سمعَ **ابنُ عباسٍ** رضيَ اللّه عنهما قولَ **ابن أبي ربيعة**:

[من المتقارب]

تشطُّ غداً دارُ جيرانِنا

فقال:

ولَلدَّارُ بَعدَ غدٍ أبعَدُ[٣]

وكذلك قال **عمرُ** وما ينبغي أن يكونَ إلَّا هكذا. ومثلهُ يروى عن **الفرزدق**[٤] حينَ سمعَ قولَ **عديّ**[٥]:

[من الكامل]

تُزجي أغنَّ كأنَّ إبرةَ رَوْقهِ

---

(١) البيت من قصيدة قالها **النابغة** في بني قومه، عندما عيَّروه خشيته من **النعمان**، كونهم تربَّعوا في موقع يخص النعمان بن الحارث الغساني. ومطلع القصيدة:

لقد نهَيتُ بني ذبيان عن أُقُرٍ وعن تربُّعهم في كل أصفارِ

(**ديوان النابغة**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٧، ص ٧٥ و٧٦).

(٢) من قصيدة في مدح **أبي سعيد الثغري**، ومطلعها:

لا أنتَ أنتَ، ولا الديار ديارُ خفَّ الهوى وتولَّت الأوطارُ

(ديوانه، شرح وتحقيق د. **شاهين عطية**. المطبعة الأدبية سنة ١٨٨٩/ ص١٢٨ و١٢٩).

(٣) الشطران، بيت تام **لعمر بن أبي ربيعة**، شاعر الغزل العربي المعروف، المتوفى سنة ٩٥هـ/ ٧١٣م. من قصيدة دالية، هو مطلعها. ديوان عمر، شرح وتحقيق **محمد محيي الدين عبد الحميد**. القاهرة. طبعة ثانية سنة ١٩٦٠ ص٣٠٨ و«تشط» ترحل وتنأى.

(٤) **الفرزدق** (همام بن غالب)، الشاعر الأموي المعروف، صاحب الباع الطويل في شعر الفخر والهجاء، توفي سنة ١١٠هـ/٧٢٨م.

(٥) البيت من قصيدة، للشاعر **عدي بن الرقاع العاملي**، في مدح **الوليد بن عبد الملك** بن مروان، ومطلعها:

عرفَ الديار توهُّماً فاعتادها من بعد ما شَمِلَ البِلى أبلادَها =

فأكْمَلَهُ بقولِهِ:

قَلَمٌ أصابَ من الدَواةِ مِدادَها

وكان يعرفُ قافيتها، وكذلكَ كانَ البيتُ.

ومنها **اختلاسُ المثَلِ** من جملةٍ بعينها، **واشتراكُ المعاني**؛ كأنْ تكونَ مستفيضةً في المناقلاتِ، أو واقعةً لو شاءَ كلُّ امرئٍ، لوجدَ إليها مَساغاً. وكذلك **التمهيدُ بلفظةٍ تؤدّي إلى معنى لا يكونُ منها غيرُهُ** إذا عَرضَتْ للحاذقِ بصناعةِ الكلامِ؛ وغيرُ ذلكَ مما مرجعُهُ في الغالبِ، إلى ما تقدَّمَ. ومثلُهُ لا يكونُ سرقةً يُعابُ بها قائلُهُ، ما دامَ على شريطةِ الشاعرِ؛ **فإنَّ التفاضلَ إنما يكونُ في ابتكارِ الأشياءِ على طريقةِ الشعرِ لا على طريقةِ النظمِ**. وقد قالَ أميرُ المؤمنينَ لولا أنَّ الكلامَ يُعادُ لنفدَ. وسُئلَ **ابنُ العلاءِ**: أرأيتَ الشاعرَيْنِ يتفقانِ في المعنى، ويتواردانِ في اللفظ، لم يلقَ واحد منهما صاحبَه ولا سمِعَ شعرهُ؟ قال: تلك عقولُ رجالٍ توافتْ على ألسنتِها[1]. وقيلَ **لأبي الطيِّبِ** مثلُ ذلكَ، فقالَ: **الشعرُ محجّةٌ، فربما وقعَ الحافرُ على موضعِ الحافرِ**.

أما السرقةُ، فقد اجتمعَ أهلُ البصر بالشعر، على أن أبا عذرة الكلامِ[2]، مَن سَبَكَ لفظه على معناهُ؛ وهم يريدون بذلكَ، أن يكونَ ما بينَ قلبِهِ ولسانِهِ، أنفاساً تترددُ شعراً. وقالوا إنهُ ليسَ لأحدٍ من أصنافِ القائلينَ، غنًى عن تناولِ المعاني ممن تقدمهمْ، والصبُّ على قوالبِ مَن سبَقهمْ؛ ولكنْ عليهمْ أنْ يُبرزوا ما أخذوهُ في معارضَ من تأليفهم، ويُؤَدُّوه في غير حليتهِ[3] الأولى، ويزيدوا في حسن تأليفه، وجودةِ تركيبِهِ، وكمال حِلْيته ومعرضهِ. فإذا فعَلوا ذلكَ فهم أولىٰ بها ممن سبقَ إليها. وهو كلامٌ لا يُمترىٰ فيهِ ولكنَّ شرْطَهُ، ما ذكرناه لكَ من قبل، واعتبرهُ بمثلِ قولِ **سعيدِ بنِ حُمَيْدٍ**[4]:

[من مجزوء الرجز]

يا ليلُ، لو تلقىٰ الذي ألقىٰ بها، أو أَجِدُ

= (ديوان عدي بن الرقاع العاملي. تحقيق د. نوري حمودي القيسي، ود. حاتم صالح الضامن. المجمع العلمي العراقي سنة ١٩٨٧/ ص٨٢). وعدي بن الرقاع، من أهل دمشق، عاصر جريراً وتهاجى وإياه، مدح بني أمية فقدموه على غيره. وتوفي سنة ٩٥هـ/ ٧١٤م. ويعد هذا البيت ممّا شُهر به الشاعر. والأغنُّ: صاحب الصوت الضعيف. وتزجي: تدفع. والروق: رأس القرن.

(١) توافت العقول على الألسنة: تتامَّتْ فيما بينها. وتوافت أيضاً، توافدتْ، وتوافقتْ.

(٢) صيغة تعني: الذي إليه مقاليد الكلام، كأنما الكلام خريدة عذراء لا يَفضُّ ثَقْبها إلّا صائغ ماهر.

(٣) حليته الأولى، صياغته، وتركيبه.

(٤) عرّف به **أبو الفرج الأصفهاني**، فقال: هو كاتب شاعر مترسّل، قويُّ الحافظة، كان مولى لبني سامة بن لؤيّ من أهل بغداد، وكان والده معتزلياً، أحب جارية المتوكل: **فضْل**، إحدى شواعر عصرها، وكتب فيها أشعاراً. لم تعرف سنة وفاته لكنه على الأرجح كان حياً سنة ٢٥٠هـ أي سنة، =

قُصِّرَ مِنْ طُولِكَ أو أُضْعِفَ مِنكَ الجَلَدُ[1]

فقد أخذه المتنبي وهذبهُ في قولِهِ: [من الطويل]

أَلَم يَرَ هذا الليلُ عينيكَ رؤيتي فتَظْهَر فيهِ رقةٌ ونُحولُ[2]؟

وأكثرَ ما يُبْدعُ أبو الطيبِ في مثلِ ذلكَ، من الزيادةِ والتهذيبِ والتمهيدِ لمعنًى يأخذهُ بما يُدْخِلُ منه إليهِ، كقولِهِ: [من الطويل]

كريمٌ نفَضْتُ النَّاسَ لمَّا بلغتُهُ كأنهمُ ما جفَّ من زادِ قادمِ

وكاد سروري لا يَفي بندامتي على تَرْكِهِ في عُمريَ المتقادمِ[3]

فإنه من قول الوائلي:

وتركتهُ يبكي بقيةَ عُمْرِهِ أَسَفاً لماضي عمره المتقدِّمِ

وأعجبُ شيءٍ في أمرِ السرقةِ، أنهُ قدْ وُجدَ مِنْ قَبلُ مَنْ كانَ يقولُ لصاحب الكلمةِ الرائعةِ «إياكَ وإياها لا تَعُودنَّ فيها، فإني أحقُّ بها منكَ»! وما كان يروى لغير أبي نواسٍ[4] معنًى بديعٌ يسمعهُ في الخمرِ، وهو حيّ وإنما هي شهادتهُ على نفسهِ.

= وفاة فضل الجارية. كتب عنه ابن خلكان، وعرّف به وبخصاله، وتوقف عند براعته في سرقة الأشعار، حتى قال فيه بعض الفضلاء: «لو قيل لكلام سعيد وشعره: ارجعْ إلى أهلك، لما بقي منه شيء». وله عدد من الكتب وديوان شعر (وَفيات الأعيان، جزء ٣/ ٧٩ ـ ٨٠). وانظر سيرته وأشعاره: الأغاني جـ١٨/ ١٥٤ ـ ١٦٨ ـ والأغاني هنا، بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم. تحقيق عبد الكريم العزباوي. الهيئة المصرية العامة القاهرة سنة ١٩٧٠.

(١) الجَلَد: الصَّبر على الشدائد.

(٢) البيت من قصيدة في مدح سيف الدولة غداة رحيله إلى ديار مصر، لإخماد فتنة القبائل، ومطلعها:

لياليَّ بعدَ الظاعنينَ شُكُولُ طِوالٌ وليلُ العاشقينَ طويلُ

(شرح الواحدي، لديوان المتنبي، بعناية د. ياسين الأيوبي (بالاشتراك). دار الرائد العربي بيروت سنة ١٩٩٩، جـ٣/ ص١٤١٣ و١٤١٧).

(٣) من قصيدة له في مدح أبي محمَّد الحسن بن عبيد الله بن طغج، ومطلعها:

أنا لائمي إنْ كنتُ وقتَ اللوائمِ علمتُ بما بي بين تلك المَعَالِمِ

(شرح الواحدي، جـ٢/ ص٩٠٦ و٩١٤). ومعنى البيت الأول من الشاهد: نفضتُ النّاس لمّا بلغْتُه، نفْضَ القادم حثالةَ زاده، لاستغنائه عنها بعد القدوم. ولم نعرف هويّة الوائلي سوى قول ابن وكيع التنيسي عن بيت المتنبي: «أخذه عن بيت المسلوب المغصوب الوائلي» («المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره» بعناية د. محمد رضوان الداية. دار قتيبة دمشق، لا تاريخ ص٦١٨).

(٤) هو الحسن بن هانئ (الحكميّ) بالولاء. كبير شعراء عصره، ولد في الأهواز ونشأ بالبصرة، ورحل إلى بغداد واتصل بخلفاء بني العباس. أشهر شعره في الخمر، وكانت وفاته سنة ١٩٨هـ/ ٨١٤م.

ولم يزلِ الناسُ من قديم، ينظرونَ في وجوهِ المعاني من بناتِ غيرهِمْ، فيجدُ الآخَرُ مما تركَهُ الأولُ، ما لو عَلمَ أنه تركَه، لأوصىٰ بدفنهِ معهُ. . . حتى قالَ بعضُ العلماءِ إن **ابنَ الرومي**[1] كانَ ضنيناً بالمعاني، حريصاً عليها، يأخذ المعنى أو يولِّدهُ، فلا يزالُ يُقلِّبه بطناً لظهر، ويصرِّفهُ في كلِّ وجهٍ، وإلى كل ناحيةٍ حتى يُمِيتَه ويَعْلَمَ أنْ لا مطمعَ فيهِ. ثم تجدُ مَنْ بعدَه قد أخذَ المعنى بعينهِ، فولَّد فيه زيادةً ووَجَد له وُجْهةً حسنةً لا يَشُكُّ البصيرُ بالصناعةِ، أن **ابنَ الرومي**، مع شرَهِهِ لم يتركها عن قُدْرة.

ومن **المعاني ما يُنَبِّهُ بعضُهُ على بعضٍ**، مما يكونُ وراءَ لفظةٍ أو تحتَ نادرةٍ؛ حتى لقد تجدُ في بُنَيَّاتِ الطريقِ ما تستخرجُ منه المعنى الفحْلَ والخاطرَ الرائعَ، وللشاعرِ من ذلكَ فضلٌ لا يُغمَطُ فيه حَقُّهُ. وكثيراً ما كان **الطائي**[2] ينحو هذا القصْدَ كما قالَ عنهُ **ابن الرومي** «إنه يطلبُ المعنى ولا يبالي باللفظ حتى لو تمّ له المعنى بلفظةٍ نبطيةٍ، لأتى بها».

ومن تلكَ المذاهب طريقةٌ كانَ يذهبُ إليها حكماءُ الشعر **كأبي العتاهيةِ**[3]، **وابنِ عبد القُدُّوسِ**[4]، **والمتنبي، والمعري**[5] وأفرادُ هذه الطبقةِ، وهي **إيداعُ الدرِّ في الصَّدَفِ** المكنون؛ فكانَ الواحدُ منهم يَقعُ على قولِ الحكيمِ، فيقتطفُهُ. ومنهم من يَحُوزهُ بما يستفرغُ فيهِ من جهدهِ كقول **المتنبي**: **[من البسيط]**

إنَّا لَفِي زَمنٍ تَرْكُ القبيحِ بهِ ... من أكثرِ الناسِ إحسانٌ وإجمالُ[6]

---

(١) هو **علي بن العباس بن جريج الرومي**. ولد ونشأ في بغداد، ومات فيها مسموماً. لم يجد حظوة لدى الخلفاء، لأنه كان متقلِّب المزاج سوداويَّهُ. لم يمدح أحداً إلّا عاد وهجاه، كما قال **المرزباني**. توفي سنة ٢٨٣هـ/ ٨٩٦م، وله ديوان شعر كبير طبع مراراً.

(٢) هو **حبيب بن أوس الطائي**، شاعر عصره، وسيد الصنعة الشعرية فيه وعلى مر العصور. ولد في جاسم (إحدى قرى حوران بسورية). استقدمه **المعتصم** إلى بغداد فأقام فيها. ومدحه بقصائد طويلة، كما مدح غيره من الولاة والكتاب. وتوفي سنة ٢٣١هـ/ ٨٤٦م.

(٣) **إسماعيل بن القاسم** (العَنَزي) بالولاء. سريع النظم، ينظم على البديهة. يعد هو وأبو نواس وبشار بن برد، في طليعة المولَّدين. اشتهر بأشعاره الزهدية في الحكمة والموعظة، وتوفي في بغداد سنة ٢١١هـ/ ٨٢٦م.

(٤) هو **أبو الهندي** (عبد المؤمن ـ وقيل غالب ـ بن **عبد القدوس**) شاعر أموي عباسي. جزل الشعر، مطبوع، ظريف، ماجن. معظم شعره في الخمر ومجالسه، قضى معظم أيامه في بلاد الفرس ومات مخنوقاً بحبل وهو سكران. تأثر به **أبو نواس**، فأخذ كثيراً من معانيه، وخاصة الاستغفار بعد الفجور (**معجم الشعراء في لسان العرب**/ ص٣٦٩).

(٥) سبق التعريف **بالمتنبي والمعرّي**.

(٦) هذا البيت من قصيدته في مدح أبي شجاع فاتك، ومطلعها:

لا خيلَ عندكَ تُهديها، ولا مالُ ... فلْيُسعِدِ النطقُ إن لم تُسْعِدِ الحالُ =

قالوا: أخذهُ من قولِ الحكيمِ: «مَن لم يَقْدِر على فعلِ الفضائلِ، فلتكنْ فضائلهُ تَرْكَ الرذائل».

وقوله:

[من الخفيف]

وإذا كانتِ النفوسُ كِباراً تَعِبَتْ في مُرادِها الأجسامُ[1]

من قولِ الآخر: «إذا كانتِ الشهوةُ فوقَ القدرةِ، كان هلاكُ الجسمِ قبلَ بلوغِ الشهوةِ».

وكذلكَ قولُهُ:

[من الخفيف]

وإذا لمْ يكنْ منَ الموتِ بدٌّ فَمِنَ العَجْزِ أن تكونَ جبانا[2]

ذَكروا أنه لبعضِ الحكماءِ في قولِهِ: «خوفُ وقوعِ المكروهِ قبل تناهي المدةِ، جَوْرٌ في الطبيعةِ وذِلَّةٌ» وما أراه إلا من قول جرير:

[من الكامل]

قل للجبان إذا تأخرَ سَرجُهُ هل أنتَ من شَرَكِ المنيةِ ناجي[3]؟

غير أنَّ أبا الطيبِ كانَ يَدبُّ إلى عرائسِ المعاني في غيرِ ظلامٍ، ويستيقظُ لها والقومُ غيرُ نيام؛ ولذلكَ وجدها معهُ كما في قوله: «قلقُ المليحةِ وهيَ مسكٌ هتكها». وكان يأخذه من هَيبةِ الكلامِ أحياناً، ما يُسيءُ معهُ الاتّباعُ أو يبلغُ به إلى إفسادِ المعنى. وكذلكَ كانَ البحتريُّ في بعضِ سَرَقِهِ من أبي تمامٍ؛ وكثيرٌ غيرهُما ممن أذهلتْهُ المعارضةُ فلم يتَتَبَّعْ على نفسهِ.

= شرح الواحدي، جـ٤/ ص١٨٨٩ و١٩٠٢. ومعنى البيت أنَّ من لم يعاملك بالقبيح فقد أحسن إليك لكثرة المسيئين.

(١) من قصيدته التي يمدح فيها سيف الدولة، وأولها

أينَ أزمعتَ أيُّهذا الهُمامُ نحنُ نبتُ الربى وأنتَ الغَمامُ

(شرح الواحدي، جـ٣/ ص١٠٨٤ و١٠٨٧).

(٢) البيت من قصيدة حكمية أنشأها في مصر، ومطلعها:

صحبَ الناسُ قبلنا ذا الزمانا وعَناهُمْ من شأنه ما عَنانا

(ديوانه بشرح الواحدي جـ٤/ ص١٨٠٠ و١٨٠٢).

(٣) البيت من قصيدة يمدح بها الحجّاج بن يوسف الثقفي وأولها:

هاجَ الهوى، لفؤادكَ المهتاجِ فانظرْ بتُوضِحَ، باكرُ الأحداجِ

(ديوان جرير: بعناية محمد إسماعيل عبد الله الصاوي. دار الأندلس - بيروت، لا تاريخ ص٨٩ و٩٠).

وجرير هو ثالث كبار شعراء بني أمية بعد الأخطل والفرزدق. وهو جرير بن عطية الخطفي من بني يربوع، من تميم، عاش زمانه يناضل أبناء زمانه ويساجلهم، وكان عفيفاً في غزله توفي سنة ١١٠هـ/ ٧٢٨م. ويريد بـ«باكرُ الأحداجِ»: هاج باكرُ الأحداجِ الهوى لفؤادك...

وجملةُ ما انتهى إليهِ الباحثونَ، ووقفَ عليه الحافظونَ، مما هو في معنى السرقةِ أنواعٌ منها: **الاصطراف**، وهو أن يُعْجَبَ الشاعرُ ببيتٍ لغيرهِ، فيَصْرِفَهُ إلى نفسهِ؛ ويُسمى **اجتلاباً واستلحاقاً**، إذا صرَفَه على جهةِ المثَلِ[١] كقولِ النابغةِ:

[من الطويل]

وصهباءَ لا تُخفي القذىٰ فهو دَونها تُصفَّقُ في راووقها حينَ تُقْطَبُ

تمزَّزتُها والديكُ يدعو صباحهُ إذا ما بَنُو نَعْشٍ دَنَوْا فتصوَّبوا[٢]

فقد استلحقَ الفرزدقُ البيتَ الأخيرَ في قولهِ:

[من الطويل]

وإجّانةٍ رَيَّا الشروب كأنها إذا غُمِسَتْ فيها الزجاجةُ، كوكبُ[٣]

«تمزَّزْتها» البيت. . . .

فإن ادّعى القائلُ شعرَ غيره جملةً، فهو **انتحالٌ**؛ فإن كان الشعر لشاعرٍ حَيٍّ غلبَ عليهِ، فتلكَ **الإغارةُ، والغصبُ**. فإن أخذه «هبةً» فتلكَ **المرادفةُ، والاسترفادُ[٤]**. وقد

---

(١) اعتمد الرافعي في تعريفه الاصطراف، والاختلاب، والاستلحاق، على ابن رشيق القيرواني، في كتابه: «**العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده**» تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، طبعة رابعة، بيروت ١٩٧٢، جـ٢/ ٢٨١ ـ ٢٨٢. فهو مأخوذ منه حرفياً. كذلك ما جاء من الشرح فيما بعد.

(٢) وَهِمِ ابنُ رشيق ومثلُه الرافعي في نسبة البيتين للنابغة الذبياني، فهما للنابغة الجعدي (شاعر جاهلي إسلامي معمّر، أحب ليلى الأخيلية، وكتب فيها الشعر الكثير، وتوفي في النصف الثاني من القرن الأول الهجري). والبيتان من قصيدة أنشأها في زمن معاوية بن أبي سفيان، ومطلعها:

ومَوْلًى جَفَتْ عنه الموالي كأنما يُرى وهو مَطْليٌ به القار أجْرَبُ

(ديوان النابغة الجعدي، بعناية عبد العزيز رباح. المكتب الإسلامي. الطبعة الأولى سنة ١٩٦٤، ص٣ و ٤).

والصهباء: الخمر. تُصفّق: تُمزج وتنقل من إناء إلى إناء لتصفو. والراووق: وعاء خاص يسمى الباطية أو: الناجود. وتقطب: تمزج. يريد أنه (أي الرائي) يرى ما وراءها لصفائها.

وتمزّزتها: تمصّصْتُها (وفي الديوان: شربتُ بها). وبنو نعش: سبعة كواكب في الجوزاء. تصوّبوا: دَنوا من الأفق للغروب.

(٣) البيت في ديوان الفرزدق. دار صادر، بيروت، لا تاريخ جـ١/ ص١٨، وهو أول المقطع الذي يتألف من ثلاثة أبيات. والإجّانة: إناء من الفخار، وقد وردت عند ابن رشيق وفي ديوان الرافعي خطأً: ريَّا السُّرور. والتصويب من ديوان الفرزدق.

والفرزدق، شاعر أموي بارز، تهاجى وجرير عهداً طويلاً. وهو من دارم من تميم، يدعى همام بن غالب بن صعصعة. ولقّب الفرزدق لجهامة وغلاظة في وجهه. تعصب الفرزدق لآل البيت، وجاهر بحبه لهم. وتوفي سنة ١١٤هـ/ ٧٣٣م.

(٤) انظر شروح «**العمدة**» لهذه المصطلحات والتمثيل عليها. (جـ٢/ ص٢٨٤ ـ ٢٨٦).

استرفدَ نابغةُ بني ذبيانَ زهيراً، فأمر ابنه كَعْباً، فرفدَه. فإن كانت السرقةُ فيما دونَ البيت، فهو اهتدامٌ، كقولِ النجاشي: [من الطويل]

وكنتُ كذي رجلَيْنِ: رجْلٌ صحيحةٌ ورِجْلٌ رَمَتْ فيها يدُ الحَدَثانِ[1]

فأخذ كثيِّرٌ القسمَ الأول، واهتدمَ باقي البيتِ، فقال: [من الطويل]

وكنتُ كذي رجلينِ رجلٌ صحيحةٌ ورجلٌ رمى فيها الزمانُ فَشُلَّتِ[2]

فإنْ تَساوى المعنيان دون اللفظِ، وخَفيَ الأخْذُ، فذلكَ هو النظرُ والملاحظةُ. وكذلكَ إن تضادَّ أوّلُ أحدهما على الآخر. فإن حَوَّلَ المعنى إلى غيرهِ، فذلك الاختلاسُ. فإن أخذَ بِنْيةَ الكلام فقط، فتلكَ الموازنةُ. فإن جعلَ مكان كلِّ لفظةٍ، ضدَّها، فذلكَ العكسُ. قالوا وإن «صحَّ» أنَّ الشاعرَ لم يَسمعْ بقولِ الآخر، وكانا في عصرٍ واحد، فتلكَ الموارد. فإن ألَّف البيتَ من أبياتٍ، قد ركبَ بعضَها على بعض فذلك: الالتقاطُ والتلفيقُ[3]. وأمثالُ هذا النوع كثيرة اليوم بين أيدينا، لا يَنفكُّ يدفع بعضُها بعضاً. وقد ضربوا له المثل فيما سبقَ بقولِ يزيدَ بنِ الطَّثْرِيَّة: [من الطويل]

إذا ما رآني مُقْبِلاً غَضَّ طَرْفَهُ كأنَّ شعاعَ الشمسِ دوني يقابِلُهْ[4]

فأولُهُ من قول جميلٍ: [من الطويل]

إذا ما رأوني طالعاً من ثَنِيَّةٍ يقولونَ: مَن هذا؟ وقد عَرَفوني؟[5]

---

(١) النجاشي: قيس بن عمرو بن مالك، شاعر جاهلي إسلامي، عمِّر طويلاً. ولد ونشأ في نجران. لقِّب النجاشي للونه الحبشي. توفي بعد مقتل الحسين بن علي. (معجم الشعراء في لسان العرب/ ص٣٥٦). والبيت في العمدة جـ٢/ ٢٨٧، كذلك ما جاء في الاهتدام وغيره.

(٢) كثيِّر، صاحب عزَّة، شاعر الغزل العذري المعروف، المتوفى سنة ١٠٥هـ/ ٧٢٣م. والبيت في العمدة ٢/ ٢٨٧.

(٣) انظر شروح ذلك وأمثلته الشعرية في العمدة ٢/ ٢٨٧ ـ ٢٩٠.

(٤) لم نجد البيت في المصادر التي تحدثت عن الشاعر، ولا سيما الأغاني (٨/ ١٥٥ ـ ١٨٥ نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية)، ولعله من قصيدة أنشأها في صديق له يدعى ابن بَوْزَل، يخبره عن ليلة أمضاها في كنف امرأة جميلة، وكان صاحبه قد وافى على الموت غيظاً.
وابن الطثرية هو يزيد بن سَلَمة الخير بن قُشَير، شاعر أموي وفارس. والطثرية: أمُه. لقِّب: الموذَّق أو المورِّق، لشدة جماله وأسره للنساء. قتل مع الوليد بن يزيد سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٥م. (معجم الشعراء في لسان العرب/ ص٢٠٩) وفيه عدد كبير من مصادر دارسته وترجمته.

(٥) البيت من قصيدة بعنوان: فراق وعتاب، مطلعها:
وغُرُّ الثنايا من ربيعةَ أعرضتْ حروبُ مَعَدٍّ دونهنَّ ودوني
«ديوان جميل، شاعر الحب العذري» جمع وتحقيق د. حسين نصّار. مكتبة مصر، الطبعة الثانية سنة ١٩٦٧/ ص٢٠٨ و٢١١.

ووسطُهُ من قول جريرٍ: [من الوافر]

فغُضَّ الطرفَ إنكَ من نُمَيْرٍ فلا كعباً بلغتَ ولا كلاباً(١)

وعجزهُ من قولِ عنترة بنِ الأخرسِ(٢):

إذا أبصَرتَني أعرَضتَ عني كأنَّ الشمسَ من قِبلي تَدُورُ

ومن تلك الأنواع ضربٌ يسمونه: كشفَ المعنى، كقولِ امرئِ القيسِ: [من الطويل]

نمشُّ بأعرافِ الجيادِ أكفَّنا إذا نحنُ قمنا عن شواءٍ مُضَهَّبِ(٣)

كشَفَه عبدةُ بن الطبيبِ وأبرزه في قوله: [من البسيط]

ثُمَّتَ قمنا إلى جُرْدٍ مُسَوَّمةٍ أعرافُهنَّ لأيدينا مَناديلُ(٤)

وذكروا أنَّ من السرقة ما يكونُ مَجْدوداً في الشعرِ كقولِ عنترة:

«وكما علمتِ شمائلي وتكرمي»(٥)

---

(١) من مطولته البائيّة التي يهجو فيها الراعي النميري، ومطلعها:

أقلّي اللّومَ عاذِلَ، والعِتَابا وقولي، إنْ أصبتُ: لقد أصابا

(ديوانه/ ص٦٤ و٧٥).

(٢) هو عنترة بن عُكْبُرة الطائي، وعكبرة، جدَّته لأمه، وهو عنترة بن الأخرس بن ثعلبة. شاعر محسن وفارس وهو جاهلي، والبيت من مقطع من خمسة أبيات، أولها:

أطِلْ حَمْلَ الشناءة لي وبُغضي وعِشْ ما شئتَ فانظرْ مَنْ تضيرُ؟

ومعنى البيت الشاهد: إذا رميتني ببصرك، لم يمكنك مَلْؤه مني بغضاً وعداوةً، حتى تُعرضَ عني، فعْلَ الناظر إلى الشمس؛ فكأن الشمس تدور من جهتي. (انظر: «المؤتلف والمختلف» للآمدي، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة سنة ١٩٦١/ ص٢٢٥. وشرح الحماسة للمرزوقي، بعناية: أحمد أمين وعبد السلام هارون. لجنة التأليف والترجمة والنشر. القاهرة سنة ١٩٦٧، جـ١/ ٢٢١).

(٣) من قصيدته في امرأته أم جندب، ومطلعها:

خليليَّ مرّا بي على أمِّ جُندبِ نُقَضِّ لباناتِ الفؤاد المعذبِ

«ديوانه» بشرحنا. المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٩٨ (ص١٤٥ و١٧١). ونمشُّ: نمسح. المضهب: الذي لم يكمل نضجه.

(٤) البيت، وحيد، قاله في الصعلكة (الشعر والشعراء، لابن قتيبة ٢/ ٧٣٢). والشاعر جاهلي إسلامي. (انظر ترجمته في الشعر والشعراء ٢/ ٧٣١).

(٥) المجدود، نسبة إلى الجَدا: العام الواسع الانتشار. وشطر الشعر لعنترة من معلقته، وصدره:

«وإذا صحوتُ فما أقصِّرُ عن ندى»

ديوانه، تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت ط٢، سنة ١٩٨٣، ص٢٠٧.

ورُزِقَ جَدّاً واشتهاراً، على قول امرئ القيس:

[من الكامل]

وشمائلي ما قد عَلِمْتِ، وما نَبَحتْ كلابُك طارِقاً مِثْلي[1]

والتنقيب على مثل ذلك، في الكثير من شعرِ اليوم، كحرارةِ الشمس في الوحْلِ لا تُنْضِجُه آجُرّاً يُبْنَىٰ به، حتى تكونَ قد بردتِ الشمسُ، واستحالتْ فحْمةً سوداءَ، وطُويت الأرضُ بمن عليها. فلو نطقتِ المدافعُ بسرقاتِ هؤلاء الشعراءِ، ما سمعَ أحدٌ؛ ومن فُتِقَ مَسْمعُه، فهيهاتَ أن يعي؛ وإنْ وعىٰ فمَبلغُ ما يكونُ منه، أن لا يزيدَ على الأسفِ؛ ولو أن الحسْرةَ تُؤثّرُ شيئاً، لانقلبَ الجوُّ ناراً.

❁ ❁ ❁

---

(١) من قصيدته التي مطلعها:

حَيِّ الحَمُولَ بجانبِ العَزْلِ إذْ لا يلائمُ شكلُها شَكْلي

ديوانه، بشرحنا، ص٤٣٧ و٤٤٢. أي لن تجدي طارقاً مثلي إخلاصاً.

كلمة للشارح

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمدُ، وصلاتُه وسلامُه على نبيه **المصطفى** الناطق بالحكمة، وعلى آله وصحبه.

أما بعد،

فهذا هو **الجزء الثاني** من (**ديوان الرافعي**)؛ وإنْ كان الأولُ هو القمر، فإنَّ هذا هو الشمسُ؛ وكم في الفضاء بعدهما من شمس ومن قمر؟

طلعَ ذلك الجزءُ على الناس فجاءةً، وله تلك المقدمة التي لم يَمْتَرِ أحدٌ في أنها فصلُ الخطاب في الشعر والشعراء؛ فانتبه أدباءُ العربيَّة لأمرٍ سيكونُ، وانتظروا من شاعرنا روحاً عالية تُنْطِقُ المتقدمين بلسان قلمه، وتُحيي أنفاسَهم في روائع كلمه؛ ولكنَّ أكثرهم مع ذلك، ممن لا يعرف الشاعر، أنكر على ابن ثلاثٍ وعشرين تلكَ الحكمة الكهلة، وذلك الديوان النفيسَ ينظمُه في سنتين هما أول قوله بعد سنةٍ قبلهما، حتى خاطبه بعضُ أمراء القلم في هذا الأمر فقال له: (شاعرُ الحسن)! إذا أكبرَ النَّاس نظْم جزء في سنتين فساء، شقَّ لهم القمر. وشاءَ اللّهُ ذلك فنظَم هذا الجزء فيما دون السنة؛ وهو يكفينا أن نشهد له بما يشهدُ لنفسه.

وقد زعم قوم أننا أطرينا الشاعر، فيما كتبناه، مقدمةً للشرح وشرحاً للجزء الأول، وأخذوا علينا من ذلك هفوةً بزعمهم؛ ولكنا نردهم إلى ما كتبه أحكم العلماء، وأعلم الحكماء في هذا الزمن، وهو فضيلة الأستاذ الأكبر **الشيخ محمد عبده**، مفتي الديار المصرية، حفظه اللّه. فقد جاءَ في خاتمة كتاب بعث به إليه، بعد صدور ذلك الجزء، هذه الكلمة:

«أسألُ اللّهَ أن يجعل للحق من لسانك سيفاً يمحق به الباطل، وأن يُقيمك في الأواخر مقامَ **حسَّان في الأوائل**». وهل كان يطاول مقام **حسّان في الأوائل** مقامٌ، وهو هو المؤيَّدُ بروح القدس؟ على أنا لو شئنا أن نُحيلهم على شيءٍ، لأحلناهم على أقوال أشعر شعراءِ الوقت، وأفاضله من كل كاتب وحكيم، والكل مُجمعون على أن

(**الرافعي**) إن لم يكن (شاعر الشرق) اليومَ، فهو شاعره غداً؛ وما يفتحُ اللَّهُ للناس من رحمةٍ فلا مُمْسِكَ لها.

وإنما مثَلُ أولئِكَ الذين (يقال) إنهم أدباء في جمودهم، على ما لهم من رأيٍ، وفيما ينفسون على (**الرافعي**)، مثَلُ رجل قال **الجاحظ**، إنه كان بالبصرة وكانت له جارية تسمى ظمياء، فكان إذا دعاها قال: يا ضمياءُ (بالضاد). فقال له **ابن المقفَّع**: قل: يا ظميا! فناداها: يا ضمياءُ! فلما غيَّر عليه **ابن المقفَّع** مرتين أو ثلاثاً، قال هي جاريتي أو جاريتك؟ . . . . ونحن بعد ذلك لا نلومهم على شيءٍ.

بقي أننا ما زلنا نجد من قصور بعض الناس، في النفوذ إلى مسالك الشعر الحق، ما ألزَمَنا أن نتولى شرحَ هذا الجزء أيضاً. ومن اللطائف أن كاتباً شهيراً قال لشاعرنا مرَّةً: إنَّ خمسة وتسعين من كل مائة قارئ، لا يُفضونَ إلى هذه الحقائق. فأجابه الشاعر بهذه الكلمة الحكيمة: أو ليس خيراً للناس، أن يرتقوا إليَّ من أن أنزل إليهم؟

وقد ألحّ عليه كثير من إخوانه، أن يضع في هذا الجزء رسمه وكلمة في ترجمته، فكان يقول لهم: (إن في كل عين إنساناً). يريد أن الناس ما زالوا مع الأهواء. فكلٌّ ينتصر لواحدٍ ولا يبصرون الحق كما قال الأول، ولكن ملء عينٍ حبيبها.

فعسى أن يعرف القومُ أنَّ بعض الفلاسفة كان يخالف صديقاً له فيلسوفاً، في كثير من رأيه، فقيل له: كيف تُخالفه وهو صديقك؟ فقال (الحق أولى بالصداقة منه)!

محمد كامل الرافعي

في التهذيب والحكمة

قال محاكياً حافظ إبراهيم في تقهقر اللغة العربية[1]:

[من البسيط]

أمْ يكيدُ لها من نَسْلِها العَقِبُ ... ولا نقيصةَ إلّا ما جنَى النَّسَبُ[2]

كانتْ لهم سبباً في كلِّ مكرمةٍ ... وهمْ لنكبتِها من دهرِها سببُ

لا عيبَ في العَربِ العَرْباء إنْ نَطَقوا ... بين الأعاجمِ إلّا أنَّهُم عَرَبُ

والطيرُ تصدحُ شتَّى كالأنامِ وما ... عند الغراب يُزَكّىٰ البُلبلُ الطَّرِبُ(*)

أتى عليها طَوال الدهرِ ناصعةً ... كطلعةِ الشمس لم تَعْلَقْ بها الرِّيَبُ

ثم استفاضتْ دَياجٍ في جَوانِبِها ... كالبدرِ قد طَمَسَتْ مِن نورِهِ السحبُ[3]

ثم استضاءَتْ، فقالوا: الفجرُ يَعْقِبُهُ ... صبحٌ، فكانَ ولكنْ فجرُها كَذِبُ

ثم اختفتْ وعلينا الشمسُ شاهدةٌ ... كأنَّها جمرةٌ في الجوِّ تلتهبُ

سَلُوا الكواكبَ كم جيلٍ تَداولَها ... ولم تَزَلْ نَيِّراتٍ هذه الشهبُ

---

(1) نظمَ الشاعر المصري حافظ إبراهيم قصيدة «تائية» بعنوان: «اللغة العربية تَنْعَى حظَّها بين الأمم» تحدث فيها بلسان اللغة العربية عن الواقع المرتجى للغة العربية، بصور شعرية آسرة. ونشرت القصيدة سنة ١٩٠٣، ومطلعها:

رجعتُ لنفسي واتهمتُ حصاتي ... وناديتُ قومي فاحتسَبْتُ حياتي

(ديوان حافظ إبراهيم، دار العودة، بيروت، لا تاريخ، مصوَّر عن طبعة مصرية قديمة سنة ١٩٣٧ جـ١/ ص٢٥٣).

(2) العَقِبُ: الولدُ. وهي هنا بمعنى «المتعاقبون» من الأبناء والأجيال.

(*) تختلف الطيرُ في أصواتها وألوانها. فمنها المليح والقبيحُ. وما يقوى فيها يكون عدوّاً لما يضعفُ؛ وكذلك لغة العامة، على قبحها، تغلبتْ على الفصحى، لقوة الأولى، وضعف الثانية. فمثَّل لهما الشاعرُ بالبلبل، لا يمدحُ صوتَهُ الغرابُ، وإن طربَ له كلُّ العقلاء.

(3) الدياجي: الظلمات، جمع الجمع: الجمع الأول: دُجًى، ج: دُجْيَة والجمع الثاني: دياجي، ج: دُجًى. ويعتمد الشاعر أسلوب الرمز والتشخيص في تصوير المراحل التي قطعتها اللغة العربية، فيذكر مرحلة الشيوع والازدهار الطويلة، حتى نهاية العصور العباسية وبعض مراحل العصور الأيوبية والمملوكية، يليها أزمنة من الانحطاط والتردّي خلال العصرين المملوكي والعثماني. وهكذا في المراحل اللاحقة، وصولاً إلى العصر الحديث.

وسائلوا الناسَ كم في الأرضِ من لغةٍ قديمةٍ جدَّدت من زهوها الحِقَبُ[1]؟
ونحنُ في عَجَبٍ يلهُو الزمانُ بنا لم نَعْتَبِرْ ولَبِئْسَ الشيمةُ العَجَبُ!
إنَّ الأمورَ لمن قدْ باتَ يَطْلُبُها فكيفَ تبقى إذا طلَّابُها ذَهبوا؟
كانَ الزمانُ لنا واللُّسْنُ[2] جامعةٌ فقد غدونا لهُ والأمرُ ينقلِبُ
وكانَ مَن قَبْلَنا يرجوننا خَلَفاً فاليومَ لو نَظَرُوا من بعدهِمْ نَدَبُوا
أَنتركُ الغربَ يُلْهِينَا بزُخْرُفِهِ ومَشْرِقُ الشمسِ يَبْكِينا ويَنْتَحِبُ؟[*]
وعندنا نهرٌ عذْبٌ لشاربهِ فكيفَ نتركهُ في البحرِ ينسربُ[3]؟
وأَيُّما لغةٍ تُنْسِي امرأً لغةً فإنها نكبةٌ من فيهِ تنسكبُ[4]
لكَم بكَىٰ القولُ في ظلِّ القصورِ على أيامَ كانتْ خيامُ البيدِ، والطُّنُبُ[5]
والشمسُ تلفحُهُ والريحُ تنفحُه والظلُّ يعوزهُ والماءُ والعشُبُ
أرى نفوسَ الورى شتى، وقيمتُها عندي، تأثُّرها لا العزُّ والرُّتَبُ[6]
ألم ترَ الحَطَبَ استعلى فصارَ لظًى لمَّا تأثَّرَ مِن مَسِّ اللظى الحَطَبُ؟
فهل نُضَيِّعُ ما أبقى الزمانُ لنا ونَنْفضُ الكفَّ لا مجدٌ ولا حَسَبُ؟
إنَّا إذاً سُبَّةٌ في الشرقِ فاضحةٌ والشرقُ منا، وإنْ كنا به، خَرِبُ[**]
هيهاتَ ينفعُنا هذا الصياحُ، فما يُجدي الجبانَ، إذا روَّعتَه، الصَّخَبُ؟
ومَنْ يكنْ عاجزاً عن دفعِ نائبةٍ فقصرُ ذلك أن تلقاهُ، يَحْتَسِبُ[***]
إذا اللغاتُ ازدهت يوماً فقد ضَمِنَتْ للعُرْبِ أيَّ فخارٍ بينها الكتبُ

---

(١) الحِقَبُ: ج: حِقْبة، وهي مدة غير محددة من الدهر. وتجمع على حُقُوب، وحُقُب وأحقاب..
(٢) اللُّسْنُ: اللسانُ، وهو الكلامُ واللغة.
(*) لا يعني بالزخرف كلَّ ما يصل إلينا من الغرب، وإنما يعني باطلَ الأمور والسفاسف التي يسمونها (تمدنا).
(٣) ينسربُ: يسيل... أي يضيع في مياهه مفتقداً فيه كل أثر لحقيقته.
(٤) من فيه: من فمه. و«في» من الأسماء الخمسة التي ترفع بالواو وتنصب بالألف وتجر بالياء..
(٥) الطنُبُ: جمع أطْناب، الحبال التي تشد بها الخيمة إلى الأوتاد.
(٦) أي أن قيمة الإنسان، بما يمتلك من نفسٍ حسّاسة تتأثر بكل حدث خارجي، فتتفاعل وتتجاوب وليست قيمته برتبه وماله وجاهه.
(**) السُّبّة (بالضم): العارُ، ومن يُكثرُ الناسُ سبَّه؛ وكلاهما منطبق على الشرقيين، وتاريخُهم غير مجهول.
(***) احتسبَ الرجلُ ابنَه أو ابنته، إذا مات أحدهما كبيراً، أي: اعتدَّه أجراً ينوي وجهَ اللّه. فإذا مات أحدهما صغيراً قيل: افترطه.

وفي المعادنِ ما تمضي برونقِهِ يدُ الصدا، غيرَ أنْ لا يَصْدَأ الذهبُ

❁ ❁ ❁

وقال في الفقر والغنى:

[من الوافر]

زمانٌ عيشُنا فيه اضطرارُ كما تحتَ الثرى دُفِنَ النُّضَارُ(*)
نُحَاذِرُهُ ومَن يخشَ الرزايا فأصعَبُ من رزاياهُ، الحِذَارُ(**)
ويلهو بعضُنا كالشاةِ ترعى وقد حَدَّتْ بجانبها، الشِّفَارُ(١)
وإطراقُ الزمانِ يَغُرُّ قوماً وما إطراقُهُ إلا افتكارُ(٢)
يظنُّ المرءُ أنْ قد فرَّ منهُ ولكنْ كانَ منهُ لهُ السِفِرارُ
إذا وسَّعْتَ في قفصٍ لطيرٍ فكيفَ يَفرُّ والقفصُ المطَارُ(***)؟
أرى ما تمنحُ الدنيا هموماً فأهنى العيش أمنٌ وافتقارُ(٣)
وكيفَ يُسَرُّ ذو دَيْنٍ تَراهُ يزيدُ ديونَهُ هذا اليسارُ(٤)
لعَمْركَ، إنما الأموالُ حزنٌ فإنَّ العمرَ ثوبٌ مستعارُ
وما ماتَ الغنيُّ بغيرِ همٍّ وأيَّةُ حسرةٍ هذا الخَسَارُ؟
كأنَّ المالَ أقلامٌ، فمنها بسِفْرِ العمرِ، حذفٌ واختصارُ(٥)
كأنَّ خِزانةَ الأموالِ قبرٌ ففي نفسِ الغنيِّ بها انكسارُ

(*) النضارُ: الذهب. وهو يكون دفيناً في عرق الثرى، مع أن بين الذهب والتراب من الفرق، بين الناس، ما تنعدم معه النسبة.

(**) حذارُ الرزيَّة: رزيَّةٌ مثلها وأصعب. وقد قيل إن علياً كرم اللّه وجهه، سئل بم تظهرُ على الأقران؟ فقال: ذلك لأني ألقى الفارس فأقدِّر أني سأقتله، ويقدِّر هو كذلك. فأكون أنا ونفسهُ عليه.

(١) الشِّفار، ج: شفرة: حدُّ السيف والرمح والسكين. وحَدَّتِ الشِّفارُ: صارت قاطعة.

(٢) إطراقُ الزمان: صمتُه وسكوته لريبة أوحادثٍ جَلَل. وهو هنا بمعنى التغافل والتراخي عن الناس.

(***) المطار: اسم مكان من [طار]. يريد أنه مهما وُسِّع للطير في قفصه ليطير فيه، فلا يزال كما كان من قبل حبيساً في القفص، وإن طار. وكذلك المرءُ في الدنيا، وُسِّعَ عليه أو قتِّر، فهو في سجنه إلى أن تنطلق روحُه.

(٣) استخدم «أهنى» بصيغة (أفضل) وصوابها: أهنا (بحذف الهمزة).

(٤) اليسار، في البيت: التطرف في البحبوحة والتنعم؛ «يريد أن غنى المرء، كالدَّين، يُتعب الفكر ويجلبُ الهمَّ، لأنه مستعار إلى الموت».

(٥) استخدم «أقلام»باعتبار ما ينتج عنها من كلام مكتوب تخطه الأقلام، وهكذا وفق الشاعر في هذه الصورة التشبيهية التي جعلت من مال الإنسان وممتلكاته، نصوصاً تعبيرية كثيراً ما يطرأ عليها الحذف والاختصار، وربما الإطالة والإسهاب.

ويا عجباً من الأقدارِ تَجري — وبعدَ وقوعِ ما تَجري، تُدارُ؟
رأيتُ الفقرَ للفقراءِ حظاً — وفي أهلِ الغنى لهمُ اعتبارُ
وإن نالَ الفقيرَ السهمُ يوماً — فأهْوَنُ من لظى النارِ، الشرارُ[١]
يَذِلُّ لهُ الزمانُ فلا يبالي — بما يأتي المساءُ ولا النهارُ
فيا كوخَ الفقيرِ غدوتَ دُنيا — وكلُّ الأرضِ للفقراءِ دارُ
على تلكَ القصورِ أرى دُخاناً — أخفُّ عليكَ منهُ، ذا الغبارُ
وفيكَ سلامةٌ من كلِّ همٍّ — وفيها من همومِ الدهرِ نارُ
عليكَ الشمسُ تاجٌ لم ينَلهُ — سواكَ ومن حُلى الظلِّ السِّوارُ
وإنْ يكنِ الزمانُ لهُ أميرٌ — فمنْ فيه لذا الدهرِ احتقارُ؟
كأنَّ الدهرَ أُلبِسَ جلدَ هِرٍّ — وكلُّ مملَّكٍ في الناسِ فارُ[٢]
وما يُغْنِي كبارَ الاسمِ شيءٌ — وأنفُسُهمْ وإن كبروا، صغارُ[٣]
فيا كوخَ الفقيرِ إذاً سلاماً — فأنتَ لبهجةِ الدنيا وقارُ
وما تلكَ القصورُ سوى ذنوبٍ — وأنت لها من الدهرِ اعتذارُ[٤]

⊛⊛⊛

وقال في وَجْهي الغنى والفقر في حياة الناس:

[من الوافر]

أرى الإنسانَ يَطْغَى حينَ يَغْنى — وما أدنى الهبوطَ من الصعودِ!
يَظنُّ الناسَ من خَلْقٍ قديمٍ — ويَحسَبُهُ أتاهم من جديدِ
كما تعمى البهائمُ، حين ترعى — عن الشوكِ الكثيرِ، لأجلِ عودِ[*]
متى كانتْ «جيوبُكَ» من نُضارٍ — فقد صارتْ جنوبُكَ من حديدِ[٥]

---

(١) رمْزَ للهَمّ، بالشرر، في مقابل النار المشتعلة التي ترمز لواقعه الماديّ المُدْقع.

(٢) جعل الشاعرُ الدهرَ في منزلة القضاء والقدر. وشبَّهه بهرّ متحفّز للوثوب على طريدته. كما جعل الناس حيال هذا الدهر، كالفئران التي تنتظر جولة الهر عليها بين الفينة والفينة.

(٣) «كبار الاسم»، أي أصحاب النعوت الفضفاضة «يريد بذلك أهل الفخفخة الباطلة».

(٤) صوَّر واقع الكوخ، يملكه الفقير، بمنزلة الاعتذار الشديد من الدهر الذي أنعم على بعض الناس بالثروة والجاه وهم لا يستحقونهما.

(*) يريد أن في احتقار الفقراء ضرراً على الغنيّ. فهم كمثل الشوك وهو كالبهيمة، تطلبُ من بين ذلك الشوك الكثيرِ، عُودَها الذي تمضغُه، فإذا لم تحذره لم تسلم منه.

(٥) كنّى «بالجيوب» عن خزائن المال، وبالجنوب (ج: جَنْب، وهو الجانب) المواقع.. والنضار: البريق الذي يتلألأ من المعدن الذهبي الأصفر. والحديدُ، رمز القوة والبأس.

ومِن عَجَبٍ يكونُ المالُ تاجاً … وحُبُّ المالِ أشبهُ بالقيودِ
فيا أسفاً على الفقراءِ أمسَوا … كمِثلِ العودِ جُفِّفَ للوقودِ(*)
دموعُهمُ دنانيرٌ ولكنْ … تعامى الناسُ عن هذي «النقودِ»(١)
أليسَ من التغابنِ وهْوَ ظُلْمٌ؟ … جزاءُ السَّعْيِ يُعطى للقَعودِ(٢)
ومَنْ يَحْصِدْ فإن الويلَ أن لا … يَذُود الطيرَ عن حَبِّ الحصيدِ
ومَنْ يحملْ على عُنقٍ حساماً … فقد ظمئَ الحسامُ إلى الوريدِ(٣)
وما زال الورى بعضٌ لبعض … حسوداً يتقي شرَّ الحسودِ

* * *

يقولُ الناسُ إنَّ المالَ ماءٌ … به يَحْيَا المُجِدُّ معَ البليدِ
أكالماءِ المرشَّحِ ما تراهُ … حوى الكَدَرَيْنِ من طينٍ ودودِ؟
وأينَ البحرُ يضطربُ اضطراباً … من المستنقعاتِ على ركودِ؟
كذا خُلِقَ الأنامُ فمِن شقيٍّ … يلازمهُ الشقاءُ ومِن سعيدِ
ومن يَسْخَطْ على زُحلٍ فلِمْ لا … يُديرُ بكفِّهِ نَجمَ السعودِ(٤)؟
وكم بينَ النحاسِ وإن جَلَوهُ … وبينَ توهُّجِ الذهبِ الشديدِ!
نواميسٌ جَرَتْ في الكونِ قِدْماً … ليتَّضحَ الفناءُ من الخلودِ

* * *

وقال في أفانين الحربِ وويلاتها:

[من الطويل]

هُم الناسُ حتَّى يَرويَ الأرضَ مَدْمَعُ … وتاللَّهِ يُرْوىٰ آكلٌ ليس يَشْبَعُ(٥)

(*) تَجْفيفُهم: في الامتهان بالخَدَم، ثم يموتون بعد ذلك مرضاً وهمّاً، كالعود يُجفَّف، فلا يكفي منعُ مواد حياته عنه، حتى يوضع في النار.

(١) شبَّه دموع الفقراء المنحدرة على خدودهم، وهي خالصة الصفاء والنقاء، بلُجَيْن الدينار ونفاسته. ولكن الناس لا تُعير هذه «العملة» بالاً.

(٢) التغابن، بمعنى الغَبْن، وهو الإجحاف بتقدير الحقيقة. وجزاءُ السعي: أي تعطى المكافأة لمن لا يستحقها، فيتساوى القاعد، الخامل، بالساعي المجاهد المكافح.

(٣) الحسام: السيف القاطع.

(٤) السعود، جمع سَعْد. وهو كل نجم يتفاءل به الناسُ. وهناك عدة كواكب يقال لها سعودُ النجوم. وزحل، كوكب بعيد، رُمز إليه، أو اعتقد الناسُ حياله، بالبؤس والنحس.

(٥) تعبير موارب، في غاية اللطف. أقسم، أو تعجَّب مستخدماً أسلوب القَسَم، من ريِّ أكولٍ =

ظَمــاءَةُ جـوفٍ أَجَّ شــوقــاً إلــى الــورَى ... وبعد الظما قد يلتظي حينَ ينقعُ[١]
ومَـسْـغَـبَـةٌ لا يَـبْـلـغُ الـخـلـقُ دفـعَـهـا ... وإن بطنَ الأحياءُ في الأرض أجمعُ[٢]
فـيـا بـارئَ الـدنـيـا حَـنـانَـيْـك إنـمـا ... طغى الناسُ جهلاً بالذي كنتَ تشْرَعُ
لـكـلِّ فـؤادٍ غـيـرَ أن طـبـيـعـةً ... مِن الشرّ بينَ القلبِ والقلبِ تَقْطَعُ[٣]
وكـلٌّ جـرى فـيـهِ دمٌ غـيـرَ أنـنـي ... أرى الحرصَ طفلاً من دمِ الناسِ يَرْضَعُ[٤]
وبـيـنَ الـمـنـى والـنـفـس لـلـشرِّ مـوقـفٌ ... فإن لم تزَعْهُ النفسُ أقبلَ يُسرِعُ[٥]
وكـلٌّ ضـيـعـفُ الـرأي مـنـفـتِـلُ الـهـوى ... عن الحَزْمِ يُمنَى بالهوانِ فيخضعُ[٦]
وتـالـلَّـهِ إنَّ الـذنـبَ لـلـمـرءِ أهـلُـهُ ... ففي أي شكلٍ تَطْبَعُ الطينَ يُطْبَعُ[٧]
وأعـجـبُ مـا فـي الـنـاسِ أن يـتـألـمـوا ... إذا أوجَعَتْهم نكبةٌ ثمَّ يُوجَعوا
وأن يُـخْـدَعَ الإنـسـانُ غـيـرَ مـجـامـلٍ ... ويَجزعَ إن أمسى كذلكَ يُخدَعُ
وفـي الـنـاسِ حـقٌّ مـا يـزالُ وبـاطـلٌ ... ولكنهُمْ للحقِ بالباطلِ ادَّعوا
لـحـا الـلَّـهُ دهـراً شـدَّ بـالـقـوةِ الـهـوى ... فكلُّ قويٍّ شاءَ ما شاءَ يَتْبَعُ[٨]
وهَـبْ أَنَّ هـذا الـظـلـمَ كـانَ سـيـاسـةً ... فمن قالَ إنَّ الظُّلْمَ في الظُّلْمِ يَشفَعُ؟
لـعَـمْـرُكَ لـو تَـبْـنِـي الـسـيـاسـةُ حُـجـرةً ... بغيرِ قلوبِ الناسِ، باتتْ تُزَعزَعُ[٩]

= نَهُوم، قائلاً: باللَّه عليكم، هل يمكن لمثل هذا الآدمي أن يرتوي وهو لا يفتأ يأكل؟ فقد أقسم مستفهماً، كأنما هو قائل: (تاللّه، لا يُروى آكل لا يشبع!).

(١) الظَّماءَةُ: مصدر ظمئ، ظَمَأً وظَمَاءَةً. العطش الشديد، وفي العجز قول حكمي يعني: أن كثرة الارتواء قد تفضي إلى العطش، وإلى اشتداد لظى الظمأ.. كما يفضي الماء الكثير ينسكب على التربة، إلى إفسادها.. وأجَّ الجوف شوقاً: اضطرم وزاد اشتعاله.

(٢) المَسْغَبَة: الجوع الشديد، أو المجاعة الكبرى. وبطنَ الشيءَ: صار في باطنه.

(٣) أي أن هناك نفوساً مريضة، ليس لها من عمل سوى قطع أواصر القربى والوئام بين المتحابين المتآلفين..

(٤) شبه الطمع الشديد، بالطفل الذي لا يحيا بدون الرضاعة.

(٥) تزَعْهُ النفسُ: من وزعَ يزَعُ وزعاً... تردعه وتزجره..

(٦) منفتِلُ الهوى: يميلُ حيث يميل هواه ومزاجه. دلالةٌ على الضعف والاسترخاء.

(٧) إنّ الذنب الذي يقترفه الإنسان يقع على ذويه ممن تولى تربيته. فهو كالطين الذي يُخرج منه صاحبُه ما يشاء من الأشكال والهيئات.

(٨) لَحَا لَحْواً: لامَ وعَذَلَ. يلوم الدهر الذي منح أهل الهوى والمزاج، قوة الفعل والإنجاز فاتَّبعوا هواهم من دون هوادة..

(٩) تُزعزعُ: تُصدَّعُ وتُشقَّقُ.

ولـو رفـعـوهـا فـوقَ غـيـر ضِـعـافِـهـم لـمـا وجـدوهـا آخـرَ الـدهـرِ تُـرْفَـعُ
إذا لـم يـكـنْ لـلـضـعـفِ حـولٌ فـمـنْ إذاً بتلكَ القوى، غيرُ الضعيفِ، يُفجَّعُ؟[١]
حـنـانـيـكَ يـا ربَّ الـضـعـافِ فـهـمْ كـمـا تـحـمَّـلَ قَـيـدَ الأرجـلِ الـضـخـمَ، إصبَعُ
ويـلاهُ مـا هـذي الـحـروبُ، ومَـنْ أرى؟ فَقِدْماً عَهدْنَا الوحشَ في الوحشِ يَطْمَعُ
مـعـايـبُ إلا أنَّ كـمْ مـن فـظـيـعـةٍ لـهـا مصدرٌ، إن يَنكشفْ لكَ، أفظع؟
فـويـحَ الـورى هـم سعَّروهـا وبعـضُـهـم لـهـا حـطَـبٌ، والـبـعـضُ فـيـهـا مُـوقِّـعُ[٢]

* * *

ونَـقْـعٍ دَجُـوجـيٍّ تَـرى الـسُّـحْـبَ فـوقَـهُ لِـمَـا راعَـهـا مـن بـرقِـه تـتـقـطَّـعُ[٣]
إذا انـفـرجـتْ لـلـريـحِ فـيـهِ طـريـقـةٌ نَـجَـتْ وبـهـا حُـمّـى تَـئِـزُّ وتَـسْـطَـعُ[٤]
وإن طـالـعـتْـهُ الـشـمـسُ تَـذْهَـلْ فـلا تَـرى أمـغـربُـهـا فـي الـنـقـعِ أمْ ذاكَ مـطـلـعُ[٥]؟
وقـد كـشـفـتْ تـلـكَ الـعـجـوزُ نِـقـابَـهـا وقـالـتْ لأهـلـيـهـا: قِـفـوا، ثـم وَدِّعـوا[٦]!
وألـقـى الـرَّدى صـيـحـاتـهِ دافـعـاً بـهـا، لـذاكَ فـمُ الـموتِ اسمُه اليومَ «مِدفَعُ»[٧]
عـلـى عُـصْـبَـةٍ لـم يـظْـلـمـوا غـيـرَ أنَّـهُـمْ مـفـاتـيـحُ إمَّـا قـيـلَ أُغـلِـقَ، مـوضـعُ[٨]
تعاطَوا كُؤوسَ الموتِ في حومةِ الوغى وذاكَ رنـيـنُ الـكـأسِ بـالـكـأسِ تُـقـرَعُ[٩]
ولـلَّـهِ مـا أشـهـى الـردَى بـعـدَ ضـيـقـةٍ تـكـونُ طـريـقـاً لـلـتـي هـيَ أوسـعُ!
كـأنَّـهـمُ، والـمـوتُ حـان نـزولـه، سـجـودٌ يـخـافُـونَ الـعـذابَ ورُكَّـعُ

---

(١) افترضَ الشاعرُ أن يكون للضعاف قوةُ الاحتمال، وإلَّا فمن ذا الذي يُفجَع بالكوارث، غيرُهم؟ فمن لا قوة له، لا تصحُّ له فجيعة، فهو مفجوع بصورة دائمة إذا طرأ عليه جديد لا يغيِّر فيه شيئاً.

(٢) ويح الورى: اسم فعل بمعنى الترحم والتوجع. وقد تعني: الويل. وقصد بالموقِّع: الذي يهندس الجريمة ويدفع الناس إلى الاقتتال.

(٣) النقعُ: الماء المجتمع في الغدير أو البرك.. والدجوجي، نسبةٌ إلى: دَجَا الليلُ: إذا سكن وانتشر.

(٤) الطريقة: التجعيد الذي يصيبُ المياه الراكدة، تتسع وتعمقُ كلما اشتدت الريح، كأثلام الفلاحة. وتئزُّ: تُصدِرُ صوتاً كصوت الماء يَغلي في المرجل.

(٥) جزم فعل «تذهل» جواباً للشرط، للضرورة الشعرية. وحقه، الجواب بمثل فعله: إنْ طالَعَته: ذَهِلَ.

(٦) كنَّى بالعجوز، عن الحرب، وقرينة ذلك، «المدفع» في قافية البيت التالي.

(٧) لم يكتفِ بإطلاق اسم (العجوز) على الحرب، بل علل سبب تسمية «المدفع» بقوله: إنه من تدافع صيحات الموت بعضها خلف بعضٍ.

(٨) لا معنى لقوله في العجز: «أمَّا قيل» ولعلّها مصحَّفة عن: (عمَّا قيل).

(٩) قرْعُ كؤوس الموت، كناية عن تقارع السيوف والأجساد والمعادن والجماجم وما شابه.

كأن ثيابَ الموتِ كنَّ بواليا ... عليهِ وبالأرواحِ أمستْ تُرَقَّعُ[١]
كأنَّ الردى إذ حجَّلَ الجندُ حولَهُ ... (وقد عطشوا)، حوضٌ من الماءِ مُترعُ[٢]
كأنَّ فمَ الميدانِ أصعدَ زفرةً ... من الجِيَفِ الملقاةِ للَّهِ تضرَعُ
زلازلُ وَيْلٍ ما تَنِي الأرضُ تحتها ... تُهَزهِزُ حتى أوشكتْ تتصدعُ
إذا نفعتْ ضرَّتْ وما خيرُ نعمةٍ ... تضرُّ الورى أضعافَ ما هي تنفعُ؟
كذاكَ أرى الدنيا فتاةً شنيعةً ... فإن ولَدَتْ، جاءَت بما هوَ أشنعُ
كأني بهذي الأرضِ قلباً معلَّقاً ... وما مَلِكٌ إلا لهُ الحرصُ أضلعُ
كأنْ قد غدا الإنسانُ وحشاً فلا أرى ... يُعَزَّزُ إلا المرءُ واديهِ مُسْبِعُ[٣]
وإنْ يأمرِ المَلْكُ الذي ليسَ تحتَهُ ... سريرٌ من القتلى فهيهاتَ يُسْمَعُ
ولن تصبحَ الدنيا سلاماً ورحمةً ... على أهلِها، ما دامَ في الناسِ مطمعُ

❂ ❂ ❂

وقال في شَرْقِيّي زمانِه:

[من المجتث]

كلٌّ يقولُ شَقِيسنا ... وكلُّسنا فاتَ أمسُهْ
هذا يُحيلُ على ذا ... وآفةُ الكلِّ جنسُهْ[٤]
وبعضُنا يتسامى ... فليسَ يُسْمَعُ حِسُّهْ
يَرْثِي لمنْ ليسَ منه ... وموتُ أهليهِ عُرْسُهْ
من كانَ ضرسُ سواهُ ... فليسَ يعنيهِ ضرسُهْ[٥]
واللَّهِ لو عقلَ الشرقُ ... لاختفتْ عنه شمسُهْ[٦]

❂ ❂ ❂

---

(١) تشبيه تخييلي لافت؛ شبه واقع الموت الرتيب، قبل الحرب، بالثوب الخَلق البالي. فجاءت الحربُ وأصلحت قماشته البالية برُقع من الأرواح المزهقة.

(٢) «حجَّل الجندُ حوله»: مَشوا بتثاقل من أثر العياء. والحوض المترعُ: الملآن.

(٣) المُسْبِع: الكثير السباع. أراد بذلك: سيادة القوة من غير رادع أو نظام أو شرعة.

(٤) الآفة: الداء العضال الذي يفسد صاحبه. وآفة الإنسان، هي الإنسان نفسه بما يقوم به من ألوان الكفر والفجور.

(٥) في البيت تداخل ثقيل في التركيب: أي من كان له ضرس موجَع، لن يَغنيه وجعُ أحد غيره. والسياق المباشر للبيت هو: من كان ضرسُ غيره هو الموجوع، فليس يعنيه ضرس غيره.

(٦) في البيت إشكال معنوي لا يستقيم بهذا الشكل. والصحيح: (ما اختفت عنه شَمْسُه).

وقال في مآسي الأغنياء والعلماء، وقد فقدوا القيم الإنسانية الرفيعة:

[من الوافر]

هيَ الأفلاكُ لا شُمُّ القِبَابِ ... ولا كالفُلْكِ تَجري في العُبابِ [(١)]

تدورُ بما تدورُ ونحنُ منها ... مكانَ الظلِّ من فوقِ الترابِ [(٢)]

ولوْ أنَّ الورى كانوا عليها ... لباتتْ كالسفينةِ في الضبابِ [(*)]

يسدُ الإنسانُ آثِمةٌ ولَوْ في ... ذُرَى الأفلاكِ مِنْ فوق السَّحابِ [(•)]

ولو أن الملائكَ عاشَرَتْهُ ... لكنتَ ترى الحمامةَ كالغرابِ [(٣)]

ضعيفٌ وهْوَ أقوى مَنْ عليها ... قويٌّ وهْوَ أضعفُ مِن ذبابِ [(٤)]

وليس الناسُ أجساماً تراءىٰ ... ولكنْ كلُّ نصلٍ في قِرابِ [(٥)]

تفاوتتِ النفوسُ فرُبَّ نفسٍ ... على فَلَكٍ، ونفسٍ في ثيابِ [(**)]

فلا عَجباً إذا الإنسانُ أمسى ... لدى الإنسانِ كالشيءِ العُجَابِ

يَعدُّ الناسُ ضَعفَ الناسِ ذنباً ... لذا خُلق القويُّ من العُقابِ [(••)]

فذُو المالِ استبدَّ بكلِّ نفسٍ ... وذو العِلْمِ استخفَّ، وذو الكِتابِ

لدُنْ رَكِبُوا سَفِينَ الدَّهرِ ظَنُّوا ... بني الدنيا مَتاعاً للركابِ

وليسَ «المالُ» غيرَ العينِ إمَّا ... غدتْ سودُ الحوادثِ كالنقابِ [(٦)]

---

(١) العُبَابُ: ارتفاع الموج في البحر واصطخابه.

(٢) نحن منها كالظلال التي ترسم حركة الأشياء من فوقها. تشبيه بليغ رائع...

(*) مراد الشاعر من هذه الأبيات أن الأفلاك تجري وفقاً لنظامها ما دام نوعُ الإنسان بعيداً عنها. فلو صاروا عليها ضلَّتْ لخبثهم، فكانت مما يأتون من ذلك، كالسفينة في الضباب، لا تدري أين تذهب.

(•) أسقط البيت من طبعة بيروت.

(٣) استخدم ضمير الإنسان من دون ذكر سابق له. كما لو كان الأمر واضحاً لا يحتاج إلى ضمائر ومداليل. ويتضح نسبة الضمير للإنسان أكثر فأكثر، في البيت التالي وما بعده.

(٤) ضعيف، في جسده وقدراته المحدودة في الطبيعة. ولكنه قوي في فكره وعلمه واختراعاته وعناده وجهاده.

(٥) «كل نصل في قراب»: كل رمح وكل سيف في غمده. وما أكثر أشكال السيوف والأغماد. وهكذا الناس.

(**) يريد أنّ من أنفس الناس ما يرتقي إلى الفَلَك، وهو مدى الارتقاء، ومنها ما لا يبرح ثياب صاحبه عجزاً وخسّةً.

(••) أسقط البيت من طبعة بيروت.

(٦) صورة تشبيهية، بليغة إذ جعل المال الذي يحيط بصاحبه ويشغله بهمّ جمعه وتضخيمه، بالنقاب الذي يحيط بالوجه فلا ترى العينُ إلّا ظلال الأشياء وجزئياتها.

فلا يَفْخَرْ بصيرٌ عند أعمى ... فما غيرُ المصابِ سوى المصابِ
سَلُوا مَن ظنَّ أمرَ المالِ سهلاً ... أكانَ السهلُ إلَّا بالصعابِ؟
لعمرُكَ إنما الذهبُ المفدَّى ... نفوسٌ لم تعدْ بعدَ الذهابِ[1]
همُ اكتسبوا لغيرهمُ فأمسى ... عليهمُ الاكْتِسابُ بالاكتئابِ[2]
وصيغَ شبابُهمْ ذهباً أليستْ ... على الدينارِ زخرفةُ الشبابِ؟[*]
يُمَنُّونَ السعادةَ وهيَ منهمْ ... منالُ الماءِ في بحرِ السرابِ[3]
وإنَّ خِزانةَ الآمالِ ملأى ... لمن تلقاهُ مهزولَ الجِرابِ[4]
ومن يغترَّ بالأقوى يَجِدْهُ ... كنصلِ السيفِ يُغمدُ في الرقابِ
متى صاحَ الدجاجُ بثُعْلُبانٍ ... فليسَ سواهُ من داعٍ مُجابِ[5]
يظنُّ الأغنياءُ الفقرَ ضَعْفاً ... وكم من حيَّةٍ تحتَ الخرابِ
ولا يَخْشَونَ ممَّنْ جاعَ بأساً ... وليسَ أضرَّ من جوعِ الذئابِ
ألم تكنِ السفينةُ من حديدٍ؟ ... فَمَا لِلماءِ يَخْرِقُها بنابِ؟
إذا شَمَخَتْ على الأمواجِ تعلو ... فما بعدَ العلوِّ سوى انقلابِ
أمَا «لِلْعِلْمِ» سلطانٌ على مَنْ ... يرى أنَّ الفضائلَ في الخلابِ؟[6]
وما ذو العلمِ بينَ الناسِ إلا ... كَمَنْ كَبَحَ البهيمةَ لاحتلابِ

---

(١) لعُمركَ: قَسَمٌ عربي شعري قديم، بمعنى: أُقسم بعُمرك وحياتك. والذهبُ الحقيقي ليس المعدن الأصفر البراق، بل هو النفس بجسدها وروحها وما تمثله من مُثل عليا وقيم إنسانية. فإنْ ذهبت هذه، لا تعود ولا تُعوَّض.

(٢) اكتسبوا: جاهدوا واجتهدوا ليجنوا الأموال والفوائد لغيرهم، فكأنما كسْبُهُم، وبالٌ عليهم وكآبة.

(*) ما ينقضي عجب الناس من هذا الذهب، ولا ينقضي (إلّا إذا فضلوا على الدينار شيئاً آخر).

(٣) صورة تشبيهية أخرى من رائع تصويره.. يتوقعون السعادة ويحسبونها في متناول أيديهم، وهي كالماء الذي يتراءى للمسافر في الصحراء فوق الرمال، كالماء المتلألئ تحت الشمس.

(٤) الجرابُ: الوعاء يحفظ فيه الزاد ونحوه. استعار للآمال «خزانة» لتتسعَ أكثر ما يمكن من الأحلام والتمنيات. وكلما كان المُؤمِّل فقيراً، ضعيف الجانب، كثرتْ آمالُه.. معادلة جدُّ معقولة في نطاق الحياة الاجتماعية.

(٥) الثعلُبان: ذكر الثعالب.

(٦) الخلابُ (بالكسر) مصدر [خلَبَ]: خدعَ واحتالَ. أي ليس للعلم سلطان على أصحاب الحيل والمداهنة..

يـظـلُّ بـهـا يـمـارسُـهـا شـقـيّـاً ... وحـالـبُـهـا يُـمـتَّـعُ بـالـوطـابِ[1]
وكـم بـيـنَ الـطّـروبِ وذي شـجـونٍ ... إذا أبـصـرتَ كـلاً فـي اضـطـرابِ[2]
أرى الـعـلـمـاءَ إذ يَـشْـقَـونَ فـيـنـا ... نـعـيـمـاً كـامـنـاً تـحـتَ الـعـذابِ
كـقـطـعـةِ سُـكَّـرٍ فـي كـأس بُـنٍّ ... تـذوبُ لـيـغْـتَـدِي حُـلْـوَ الـشـرابِ
ومـنْ أخـذَ الـعـلـومَ بـغـيـر خُـلْـقٍ ... فـقـد وجـدَ الـجـمـالَ بـغـيـرِ سَـابـي[3]
ومـا مـعـنـى الـخـضـابِ وأنـتَ تـدري ... بـأن الـعـيـبَ من تـحـتِ الـخـضـابِ[4]
إذا الأخـلاقُ بـعـد الـعـلـمِ سـاءتْ ... فـكـلُّ الـجـهـلِ فـي «فـصـلٍ وبـابِ»
ولـولا الـعِـلْـمُ لـم تَـسْـكُـنْ نـفـوسٌ ... عـلـى غَـيِّ الـحـيـاةِ إلـى الـصـوابِ[5]
ولـولا الـديـنُ، كـانـتْ كـلُّ نـفـسٍ ... كـمـثْـلِ الـوحْـشِ تـسـكـنُ لـلـوثـابِ[6]
رأيـتُ الـديـنَ والأرواحَ فـيـنـا ... كـمـا صَـحِـبَ الـغـريـبُ أخـا اغـترابِ[7]
فـلا روحٌ بـلا ديـنٍ ومـن ذا ... رأى راحـاً تُـصَـبُّ بـلا حَـبـابِ؟[8]
لـيـجـحـدْ مـن يـشـاءُ فـربَّ قـشـرٍ ... يـكـونُ وراءهُ عُـجْـبُ الـلـبـابِ[9]
ولـلّـهِ الـمـآبُ فـكـيـفَ يَـعْـمَـى ... أخـو الأسـفـارِ عـن طُـرقِ الـمـآبِ[10]؟
ومـا ظَـمَـئـي وفـي جـنـبـيَّ نـهـرٌ ... تـدفَّـقَ بـيـنَ قـلـبـي والـحـجـابِ

❂❂❂

---

(١) الوِطاب، ج: وَطْب، وهو سقاء اللبن. أي ليس لحالب الشاة من الخير والمتعة إلّا الحَلْب ومَلْءُ الوطاب.
(٢) الطروب، الذي يطربُ للغناء والسماع.. ولا فرق بينه وبين المثقل بالأحزان، كلاهما مصاب باضطرابٍ، أي اهتزازٍ بيِّن.
(٣) السابي: الآسِرُ. والسَّبْيُ: الأسْرُ. شبَّه الخُلُقَ، للعالِم بقوة الأسْر تصدر عن المشهد الجميل. فإذا خلا العلْمُ من الخُلق، افتقر إلى أهم ما يُمتع ويفيد.
(٤) الخضابُ: الصِّبغ الذي يُخْضَب به، من حِنّاءٍ وغيره.
(٥) غيُّ الحياة: ضلالها وفتنتُها.
(٦) أراد: تسكن للوثوب على الفريسة. والسكون، هنا: التربُّص، والتحفُّزُ والاستعداد. وقد استخدم مصدر «وثاب» للقافية الشعرية، والصواب: الوثوبُ، والوثْبُ، والوَثَبانُ والوثيبُ.
(٧) شبه مرافقة الدين للروح والنفس، في أيامنا، بمرافقة الغريب للغريب. أي سيبقى الاثنان غريبين في واقعهما.
(٨) الراح: الخمر. والحبابُ: الفقاقيع التي تحدث عند انسكاب الخمر أو الماء، في الإناء.
(٩) رب قِشْر، يفضي إلى لُبٍّ مُعْجِب.
(١٠) المآبُ، الرجوع..

وقال ليتلوها تلميذٌ أتمّ الدراسةَ في بعضِ مدارسِ الجمعيةِ الخيريةِ الإسلاميةِ:

[من الوافر]

أرى عــقــلــي كــســاقــيــةٍ تُــدارُ ... وأنــواعُ الــعــلــومِ لــهــا بــحــارُ[1]

ولــي فــكْــرٌ كــبــســتــانٍ نــضــيــرٍ ... شــهــيٌّ مــعــارفــي فــيــهِ ثــمــارُ

تــنــاولــتُ الــعــلــومَ وكــانَ جــهــلــي ... كــمــثــلِ الــلــيــل فــانــشــقَّ الــنــهــارُ

ولاحَ لــيَ الــورى شــيــئــاً عــجــيــبــاً ... وكــلُّ فــتــى رأى عــجَــبــاً يَــحــارُ

فــمــا الــدنــيــا كــمــا كــنــا نــراهــا ... مُــصَــغَّــرةً ونــحــن إذاً صــغــارُ

وإنَّ الــجــهــلَ يــســتُــر كــلَّ حــســنٍ ... كــنــورِ الــشــمــسِ يــحــجــبُــه الــغــبــارُ

أرى لــي مــوقــفــاً حــرجــاً كــأنــي ... ضَــلــلْــتُ ولــيــس فــي بــحــري مَــنــارُ

سَــأفــعــلُ فــعْــلَ أجــدادي فــإمَّــا ... كــمــا نــالــوا وإمــا حــيــثُ صــاروا

ومــا أنــا بــالــصــغــيــر الــعــقــلِ حــتــى ... تَــعِــزَّ عــلــى يــدي الــهِــمَــمُ الــكــبــارُ

ولا أنــا بــالــضــعــيــفِ الــقــلــبِ حــتــى ... تُــقَــيِّــدَنــي الــمــنــازلُ والــديــارُ

سَــأضــربُ فــي الــبــلادِ فــأيُّ فــجٍّ ... تــلــقَّــانــي فــذلــكَ لــي قــرارُ[2]

ولا عــارٌ عــلــى الــســاعــي لــمــجــدٍ ... ولــكــنَّ الــتــزامَ الــدارِ عــارُ[3]

ومــا قَــدْرُ الــلآلِــئِ وهْــيَ درٌّ ... إذا لــم يــنــفــلــقْ عــنــهــا الــمــحــارُ[4]

❁ ❁ ❁

وقال: وتلاها تلميذ صغيرُ السنِّ جداً:

[وهي من الرجز]

عَــدَتْ عــلــى أقــوامــنــا الــنــحــوسُ

وضــلَّــلَــتْــهــمْ هــذهِ الــكُــؤوسُ

---

(١) جعل الساقية تدار، ولا نفهم كيف تدور أو تدار؟ إلّا إذا كانت ترمز إلى الناعورة في مجرى مائي غزير شديد التدفق.

(٢) الفجُّ: الطريق الواسع. وفي القرآن الكريم، من سورة الحجّ قوله تعالى: ﴿وعلى كُلِّ ضامرٍ يأتين مِن كُلِّ فجٍّ عَميقٍ﴾ الآية ٢٧. أي من كل السبل والشعاب. و(ضَربَ في البلاد) طافَ وساحَ.

(٣) التزامُ الدار: كناية عن الاسترخاء، والتواكل، وانعدام السعي والجهاد في سبيل اللّه وتأمين لقمة العيش.

(٤) المحار: الصدَف الذي يحتوي على اللؤلؤ. واحده مَحارَة. وانفلقَ المحارُ: انشق إلى نصفين.

فانقلبتْ في الأرجلِ الرؤوسُ
وخُرِّبَ العقلُ بها والكِيسُ[١]
فجُلُّهم بينَ الورىٰ بَئيسُ
النصحُ يا قومي هوَ النفيسُ
والغَيُّ تعمىٰ عندهُ النفوسُ
فبَصِّروها فالهدى مَطْموسُ
وقد ضَرَبْنا مثلاً فقيسوا

❁ ❁ ❁

وقال في علماء ينفعونَ الناسَ، ويؤدي بهمُ العلمُ إلى الجحودِ، فيَضلُّون ضلالاً بعيداً:

[من الوافر]

مشى الجهَّالُ في طينٍ ولكنْ ... أَكُفُّهُمُ على حَجَرٍ صَلُودِ[٢]
كما يمشي الجبانُ وعن يديهِ ... صفوفُ الحارسينَ من الجنودِ
وكم مِ العالِمينَ أخي ذَكاء ... يَجُرُّ به الذكاءُ إلى الجُحودِ[٣]
أرى للعقلِ حدّاً في التسامي ... كمرمى الباصراتِ إلى حدودِ[٤]
وإنَّ السيفَ إن لم يُلْفِ غِمْداً ... كساهُ من الصدا شِبهُ الغُمودِ[٥]
وكلُّ تطرفِ العلماءِ جَهلٌ ... وبعضُ الجهلِ بالعلماءِ يُودي[٦]
إذا انحرفَ «القطارُ» براكبيه ... فقد وجدوا «المحطةَ» في اللحودِ
وسِيَّانِ: البصيرُ وكلُّ أعمَى ... إذا نظرا إلى شيءٍ بعيدِ[٧]

❁ ❁ ❁

---

(١) الكيس: كيس النقود.

(٢) الحجر الصلود، الشديد الصلابة.. وزن مبالغة من: الصَّلْد، الصلب.

(٣) وردت في الأصل: «وكم من العالمين» فحذفنا (النون) من «من» فاستقام البيت. والجُحودُ: النكران والرفضُ، وهو خاص بنكران النعم والخيرات.

(٤) لا ندري لِمَ جعل حدَّة النظر، في النساء؟ أيكون ذلك مرجعه «زرقاء اليمامة» المرأة العربية القديمة التي كانت ترى الأشياء على مسيرة ثلاثة أيام؟ (**مجمع الأمثال، للميداني** جـ١/ ١١٤).

(٥) الصدا، مخفف (الصدأ) بالهمز. وهو طبقة الحديد المهترئة بفعل أوكسجين الهواء ورطوبته.

(٦) «يودي»: مخفف (يؤدي) إلى التهلكة.

(٧) رمى الشاعر من وراء ذلك كله، إلى الابتعاد عن جوهر الأشياء ومنطلقها وغاياتها، بحيث يضلُّ =

وهذه شذراتٌ
من الحكمةِ ألحقناها بهذا البابِ

قال في أماني القلب ووجوب الإيمان برحمة الله:

[من السريع]

تَعلَّقَ القلبُ بآمالِه ... ومَن يؤمِّلْ قلبَهُ يَغلَقِ[1]

يا نفسُ بعضَ اليأسِ لا تقنطي ... من رحمةِ اللّهِ ولا تحنقي[2]

إن كانَ ما مرَّ من العمرِ لم ... يُحقِّقِ الظنَّ، ففيما بقي[3]

والناسُ في الدنيا دِلاءٌ فذا ... يهوي إلى القاعِ وذا يرتقي[4]

❁ ❁ ❁

وقال في مثله:

[من مجزوء الرجز]

لا أَعذِلُ الدهرَ على ... ما أفسدتْ لي يدُهُ

يُسُوؤني اليومَ لكي ... يعرفَ قدرِي غدُهُ

كالذهبِ الإبريزِ مَنْ ... يَنقُدُهُ يَبْرُدُهُ

❁ ❁ ❁

وقال في المنازل الخدّاعة التي يَرْقَى إليها الناس:

[من السريع]

لا تغترِرْ بالناسِ فيما ترى ... فهم مَع الفاتحِ في كلِّ بابْ

رأيتُهم يُغلُون قَدْرَ الفتى ... للسحْب كي يستمطروه السَّحابْ

وما اعتلى الميِّتُ من عِزَّةٍ ... أعناقَ من يرمُونه في التُّرابْ[5]

❁ ❁ ❁

= الباحث المتأمل في حقيقة الوجود وخالقه، عن جادة الحقيقة، فيتيه ويستعصي عليه الرجوع إلى ما كان عليه قبل التوغل والاستطراد، فيتساوى بذلك مع الأعمى الذي يخرج عن جادة سيره إلى تشعبات ودروب لا يعرفها ولا قرار له معها.

(١) أَمَّلَ قلبَه، جعلَه يَخْفقُ بكثير من الأماني والوعود البرّاقة.

(٢) أي: يا نفس إن أصابك بعضُ اليأس، فابقَيْ مؤمِّلةً رحمة اللّه التي وسعتْ كلَّ شيء.

(٣) حقه أن يقول: ففي ما. أي في الذي بقي، من العمر والحياة.

(٤) الدلاء، ج، دلْو.

(٥) يمكن النظر إلى البيتين الأخيرين كوحدة في المعنى والصورة. فقد شبَّه الذي يُغْلَى من قدره إلى السحاب بقصد الإفادة من غيثه، بالميِّت الذي يرفع على الأكتاف ليوارى في التراب.

وقال في وحشانية الإنسان:

[من المجتث]

إنَّ الأنـــــامَ وحـــــوشٌ ... وإنـــمـــا الاســـمُ نـــاسُ[1]

تَـــخَـــاتُـــلٌ وزِحـــامٌ ... وقَـــسْـــوةٌ ومِـــرَاسُ[2]

فـــاخْـــشَ الـــضـــعـــيـــفَ وإنْ لا ... نَ، كـــم مـــن الـــضـــعـــفِ بـــاسُ

والـــمـــاءُ أَلْـــيَـــنُ شـــيءٍ (م) ... لـــكـــنَّـــهُ لا يُـــداسُ

❁ ❁ ❁

وقال في من يعمل لدنياه والآخرة له بالمرصاد:

[من مجزوء المتقارب]

أَقـــلُّ الأعـــادي أذىً ... لـــكَ، الـــصـــاحـــبُ الأعـــوجُ[3]

ولـــلـــمـــرءِ بـــيـــنَ الأَنـــا ... مِ مُـــتَّـــسَـــعٌ يَـــفْـــرِجُ[4]

ومـــن يَـــغْـــنَ عـــن غـــيـــرِهِ ... فـــمـــا غـــيـــرَهُ الأحـــوجُ[5]

وأعـــدى أعـــادي الـــورى ... نـــفـــوسٌ بـــهـــا أُحـــرِجُـــوا

وذا عـــالَـــمٌ مُـــظْـــلِـــمٌ ... يـــحـــارُ بـــه الـــمُـــدْلِـــجُ[6]

فـــيـــا مَـــنْ سَـــعَـــىٰ لـــلـــدنـــا ... وأكـــفـــانُـــهُ تُـــنْـــسَـــجُ!

طَـــبَـــخْـــتَ ولـــكـــنَّـــمـــا ... طـــعـــامُـــكَ لَا يَـــنْـــضَـــجُ

حـــيـــاتُـــكَ كـــالـــطِّـــيـــبِ لا ... يَـــدومُ مـــتـــى يـــأْرَجُ[7]

---

(١) نَسب الوحشية إلى الإنسان بحكم تكوينه المشابه تماماً لتكوين الوحوش من الحيوان، ولكن التسمية هي الإنسان، ولم يقصد بها التحقير والإهانة.. ألم يقل جلَّ جلالُه: ﴿**والله خلقَ كلَّ دابَّةٍ مِن ماءٍ فمِنهم مَن يمشي على بَطْنِه ومنهم من يمشي على رجْلَين ومنهم من يمشي على أرْبَع**﴾؟ الآية ٤٥ من سورة النور.

(٢) المِراسُ: شدَّةُ الصبر والقوة في التعامل مع الأشياء. والتخاتلُ والمخاتَلةُ: المخادعة.

(٣) الأعادي، جمع الأعداء، التي هي جمع عَدُوّ. أقلُّ الأعادي أذى، ذلك الصديق السيِّئ في سلوكه وسيرته. وخلاصة المعنى «ليس أشد للمرء، من الصاحب الأعوج، فما يستقيم أمرُ صاحبه قط. وهو مع ذلك أخف بليَّةً على الإنسان من نفسه».

(٤) يفرج: يتَّسع وينكشف.

(٥) لا يستطيع أحد الاستغناء عن أحد. الناس متكاملون في المنفعة والخدمات، واحد بالآخر أو مع الآخر.

(٦) المُدْلج، الداخلُ في الليل من أوله، أو آخره.

(٧) يأرجُ: يفوحُ عطرُه. «وحياةُ المرء كالطيب، كلما أرج، أي فاحتْ رائحته فنيَ، لأنّ أرجه من المادة الذاهبة منه في الهواء. وقد قيل إن حبَّة المسك تبقى سنتين لا تنقطع رائحتُها من الموضع =

وكـم نَـفَـسٍ فـي الـهـوا ... بـنـفْـسِ الـفـتـى يَـخْـرجُ

❁ ❁ ❁

وقال ناصحاً ومُحذِّراً من مغبّة الشهوات والدسائس:

[من مجزوء الكامل]

يـا طـالـبَ الـعَـلـيـا احـتـرِسْ ... أنْ تَـصْـطـفـي عُـذَّالَـهـا[1]

إنَّ الأمـورَ رجـالُـهَـا ... فـاطـلـبْ لـتـلـكَ رجـالَـهـا

والـزَمْـهُـمُ، فـلـطـالـمـا ... وَقَـتَ الـيـمـيـنُ شِـمـالَـهـا

واجـعـلْ لـنـفـسِـك غـايـةً ... تَـهَـبُ الـنـفـوسَ كـمـالَـهـا[*]

وأَمِـتْ أمـورَكَ فـي الـفـؤَا ... دِ فـمـوتُـهـا أَحْـيَـا لَـهـا[2]

واخـشَ الـدسـائـسَ مـن عِـدَا ... تِـك واحـذرنَّ فِـعـالَـهـا

تَـجِـدِ الـقـنـابـلَ كـالـحـجـا ... رِ وقـد تـرى أعـمـالَـهـا

والـمـاءُ يُـطـفـي الـنـارَ لـكـنْ ... لا يـطـيـقُ خـيـالَـهـا[3]

❁ ❁ ❁

وقال في تخيرِ الأصحابِ وتبيُّن مواقعهم:

[من مجزوء الكامل]

لا تَـرْقَ مَـدْرَجَـةَ الـصـعـو ... دِ لأجـلِ مَـهْـواةِ الـهـبـوطِ

واجـعـلْ عُـلاكَ عـلـيـكَ شَـرْ ... طـاً حـيـنَ تُـؤخَـذُ بـالـشـروطِ

واسـتـفْـدِ مـن خَـرزِ الـصِّـحَـا ... بِ فـكـم لآلٍ فـي الـسـمـوطِ[4]

= الذي تكون فيه، ولا ينقص من وزنها مع ذلك شيءٌ. ومثلها بعض الناس الذين يتطاول عليهم الأمد، ومصيرُ الكلِّ إلى الفناء».

(١) العُذّال، ج عاذِل وعَذُول: اللُّوّام المُعَاتِبون. أي احترس من اختيار الحَسَدة الغيورين لما تبتغي من عُلاً ورفعة.

(*) إنَّ من لا يسعى إلى غاية، لا يصل إلى شيء، والعمر أضيق من أن يُبذَّر فيه. فمن لم تكن له غاية يطلبُها من هذه الحياة، فذاك الذي إنْ عاش لا يُعتنى به، وإن مات لم تحزنْ عليه أقاربُهُ.

(٢) «أَمِتْ أمورَك في الفؤاد»: إكظِمْ غيظَك والْجُمْ شهواتك، فهو أزكى للنفس وأسلمُ لها.

(٣) جاء في الطبعة المصرية أن هذا البيت أول ما نُظم من القصيدة، التي قيلت بمناسبة مرور الشاعر وبعض أصحابه بنهر انعكست عليه أشعةُ المصابيح الليلية، ثم تتالت الأبيات، ليجعل البيت الأول، آخرَها. .

(٤) لم نتبيَّن معنى كلمة «استفد» ولا طبيعتها. لعلها مصحَّفة عن كلمة أخرى. . والسُّمُوط، مفردها سمط، وهو عقد من الخرز ونحوه. أي لا تحسب عقود الخرز خالية من جواهر أو لآلئ =

إنَّ السفينةَ كلّما ... صغرتْ تراها في الشطوط
والعنكبوتُ إذا بنتْ ... بيتاً فأهونُ بالخيوطِ(*)

❁ ❁ ❁

وقال في موافقة الأمور بعضها لبعض:

[من المجتث]

لغيريَ الدهرُ سِلْمُ ... وعنديَ الدهرُ حربُ
وقد عَييتُ بسَعْيي ... إنَّ السوابقَ تكبُو(١)
وكلُّ نارٍ إذا لم ... تُصادِفِ الريحَ تَخبُو
وكلُّ عَضْبٍ إذا لم ... يقعْ على اللينِ يَنبُو(٢)
وكلُّ سَهْلٍ إذا لم ... يُوَفِّقِ اللهُ صَعْبُ
هذا شراعي ولكنْ ... مَنْ لي بريحٍ تَهُبُّ؟

❁ ❁ ❁

وقال في مثله:

[من المجتث]

يا مَنْ سعَى لِغِناهُ ... وعادَ بَعْدُ فقيرا
إنْ لم يكنْ لكَ حظٌّ ... كانَ اليسيرُ عَسيرا
أنّى تُطاوِلُ مَن طا ... لَ إنْ خُلِقْتَ قَصيرا(٣)
نَصَبْتَ فخَّكَ لكنْ ... سِواكَ ذادَ الطيورا(٤)

❁ ❁ ❁

قال في كيفية التعامل مع السفيه:

[من مجزوء الوافر]

كففتُ يدي عن الشرِّ ... وأصغيتُ لهُ أُذْني

= وأحجار أخرى؛ فكم حوت بعضُ العقود جواهرَ نفيسة خارج نطاق الخرز، وهكذا الصحاب؛ بينهم ما يشبه الخرز، وبينهم من هو أغلى من اللؤلؤ.

(*) العنكبوت تبني بيتها لتتّقي به، ولكن النسيم الخفيف يحملها وما بَنتْ. وإنما الصاحبُ يدٌ لا تَنفعُه إذا كانت شلّاء، وكلما صغرت النفسُ نزلتْ إلى معاشرة السفلة، كالسفينة التي ضَرَبها مثلاً.

(١) السوابق، ج سابقة. وهي الجياد السريعة الأصيلة. ومع ذلك فقد تكبو في سيرها وتَعثر....

(٢) العضب: السيف القاطع الذي لا يَنْبو.

(٣) المطاولة: المنافسة والمغالبة في الطول.

(٤) ذادَ: حَمَى ودافَعَ.

لأعلمَ إنْ نبذْتُ فتًى سفيهاً كيفَ يَنبذُني
فلا بالمكْرِ آخُذُهُ ولا بالمكرِ يأخذني

⁂

وقال في العلم والتجارب، ذخائرَ للمستقبل:

[من المتقارب]

تَعلَّمْ منَ الخَتْلِ ما تتقي به كيدَ كلِّ فتى خاتلِ[1]
وخُذْ لمشيبكَ مكرَ الشبابِ ومن حادثِ العامِ للقابلِ[*]
وإن كانَ جُلُّ الورى في جنونٍ فسما أنتَ وحدَكَ بالعاقلِ
فكنْ عالِماً جاهلاً بينهمْ فهمْ خدمُ العالِمِ الجاهلِ[•]

⁂

وقال في تجنب اختبار الأصحاب:

[من مجزوء الرجز]

أصبح كلٌّ مَنظَرا فاتركْ له مَنظَرَهُ
وأَغْضِبِ الصاحبَ إن أردتَ أن تخبُرَهُ[2]
فكلُّ ماءٍ كَدِرٍ مَنْ هاجَهُ عكَّرَهُ

⁂

وقال يشكو عَنتَ الأيام (في حديث جرى بينه وبين بعض أصحابه في ساعةِ همٍّ):

[من المجتث]

قد أتعبَ الهمُّ قلبي وشرَّدَ الحزنُ نومي
وسامني عنَتُ الدهـ ـر بعضَ ما سامَ قومي[3]

---

(١) الختْلُ: الخِداع والمداورة.

(*) قيل: أحمقُ ما يكون الشيخ، إذا عمل بظنّه. والقابل: المقبل من الأعوام.

(•) تصرف محقق الطبعة البيروتية، فأبدل قول الشاعر: «جاهلاً بينهم» بقوله: «عاملاً بينهم» وأبدل: «فهم خدمُ العالم الجاهل» بـ«فهم خدم العالِم العاقِل».

(٢) أصبح كل الناس وجوهاً وأشخاصاً مكتملين، كلوحات الفن والجمال. وما ذلك إلّا لفرط الغرور وحب الذات. فالويل لمن يقوم بنقدهم وتبيان عيوبهم، فقد يناله ما يشبه تعكير الماء المستنقع المكدَّر..

(٣) سامني الدهرُ: أراني صنوف المعاناة.

وقد أرى العيشَ لكن إلى لقا اللّهِ صومي[1]
يخيفني الناسُ بالمو تِ ما على الناسِ لومي
وكيفَ يخشى المنايا من ماتَ في كلِّ يومِ؟

❁ ❁ ❁

وقال في صداقات المصالحِ وقساوة القلوب:

[من الوافر]

نشأتُ ولستُ أعرفُ لي عَدُوّاً وها أنا لستُ أعرفُ مَن مُعِيني!
كأن الناسَ ليسَ لهم قلوبٌ تُحرِّكهنَّ أنفاسُ الحزينِ
إذا ما أبصروا ذا الهمِّ فَرُّوا فِرارَ الروحِ من وجْهِ المنونِ
وأكثرُ من تصاحبهمْ ديونٌ ويا ويلَ الفقيرِ من الديونِ[2]
دعِ الدنيا تُرَفِّعُ كلَّ وغْدٍ فإنَّ الخمرَ قد سُدَّتْ بطينِ(*)

❁ ❁ ❁

وقال في مغبة جهل الناس بما تنطوي عليه نفوسُهم الشرّيرة:

[من مجزوء الوافر]

دَعوني إنَّ سرِّي اليو مَ أَنّي ليس لي سرُّ
وما يُعْجَبُ من أمري سوى أنْ ليسَ لي أَمرُ
فَعُوا ما قرأَتْ عيني فإنَّ كِتابَها الصدرُ
لقد عُلِّمتُ أمرَ النا سِ مذ علَّمني الدهرُ
وعندي أن جهلَ الشرّ (م) في الناسِ هوَ الشرُّ[3]
وتركُ الفكرِ فيما تشـ ـتهي النفسُ هو الفكرُ

---

(١) العيش، هنا، كناية عن البحبوحة والتنعُّم ـ والصومُ: الصبرُ والترقب.

(٢) رمز إلى ما يقوم به الأصحاب من حسن معاملة ومجاملة، بديون مستحقَّة على صاحبها. فإذا تأخر عن سدادها، بالتودد والمصانعة المماثلَيْن، انقلبوا عليه، وطالبوه بمستحقاتهم.

(*) يُختمُ دنُّ الخمر بالطين، إذا تركتْ فيه لتختمر، فيعلوها. وهي أكرم جوهراً. وكذلك شأن الزمن في الأغبياء.

(٣) هذا البيت، على بساطته ووضوحه، ينطوي على حقيقة بالغة الأهمية، وهي أن الإنسان **عدوُّ ما يجهل**. فإن العلم لا يقف عند حدود العلوم العقلية والنقلية وغير ذلك من مسائل الفكر والمعرفة: بل أهم من ذلك، معرفة طبائع الناس وما يضمرون من نوازع شرّيرة وأساليب الدهاء والغدر والاستغلال، وهذا لا يوجد في بطون الكتب، بل في التعامل المباشر والاختبار الطويل.

حـلا الـمـوتُ لـمـن لـم يَـذْ ... رِ أنَّ مـذاقَـهُ مُـرُّ

❁ ❁ ❁

وقال في مفعول الهموم:

[من المتقارب]

لـقـد أنـحـلَ الـهـمُّ جـسـمـي فـهـلْ ... لِـذا الـجـسـم مـن هَـمِّـهِ مـخـرَجُ؟

ولـم تـكُ تُـسْـقِـمُـنـي الـحـادثـاتُ ... ولا كـنـتُ قـبـلُ بـهـا أزعَـجُ

إذا طـبـخَ الـدهـرُ جـسْـمَ امـرئٍ ... بـنـارٍ سـوى الـهـمِّ لا يـنـضـجُ

❁ ❁ ❁

وقال في سموّ جنون العقل على وضاعة التفكير الماديّ:

[من السريع]

قـالـوا جـنـونٌ، قـلـتُ: إيْ والـذي ... يُـقَـدِّرُ الـهـمَّ لـمـن يَـعـقـلـونْ

انـقـلـبَ الـدهـرُ بـأبـنـائـهِ ... لـذا تـرى الـعـقـلَ غَـدَا فـي الـبـطـونْ

جـنـونُـنـا مـا دامَ فـي رأسـنـا ... عـقـلٌ، وهـمْ مِـن عـقـلـهـمْ فـي جـنـونْ

ومـا عـلـى الـنـاسِ مـن الـنـاسِ يـا ... لـيـت إذا لـم يَـعْـرِفـوا، يَـعْـرِفـونْ![1]

❁ ❁ ❁

وقال في ضياع القيم بين الناس:

[من مجزوء الوافر]

يُـعَـزِّي الـنـاسُ بـعـضَـهـمُ ... ولا يُـجْـدِيـهـمُ شـيَّـا[2]

فـذاكَ طُـوِي وهـذا سـو ... فَ يـطـويـهِ الـردى طـيَّـا

يـمـيـنَ الـلـهِ لـو عـقَـلـوا ... لـعـزَّى الـمـيِّـتُ الـحـيَّـا[3]

---

(١) حقيقة ملموسة هي أنَّ التفكير ما دام يصدر عن الرأس، فهو دليل عافية عقلية حتى لو نَحا نحواً غريباً... ولكنه عندما يصدر عن جَشَع البطن وخسّة الشهوات، فهو الشيء المريب..
وما على الناس أن يبحثوا عن حلول مشكلاتهم، بقدر ما عليهم معرفة ما هم فيه من علم ودراية. وهذا اختصار لقول المفسرين المأثور: «إنّ «لا أدري» لَمِن العلْم»!

(٢) «لا يجديهم شيأ»، أي لا يُجْديهم ذلك شيئاً.

(٣) يبلغ الرافعي هنا ذروة معاناته من الناس، وسخفهم وضلالهم، لدرجة أن العزاء الذي يقدمونه في الأموات، أجدر بهم أن يقدموه لأنفسهم التي ضاعت معها كلُّ القيم.

في النسائيات

قال في المرأة الأديبة الجميلة، وتفضيل المحافظة على طبيعتها، ومهمتها التربوية الأولى، على سائر المهام الاجتماعية والفنية:

[من الطويل]

مدادُكِ في ثغرِ الزمانِ رُضابُ	وخطُّكِ في كلتا يديهِ خِضابُ
وكَفُّكِ مثلُ البدرِ قد لاح نصفُهُ	فلا بدعَ في أن اليراعَ شهابُ
كلحظكِ أو أمضى وإنْ كانَ آسياً	جراحَ اللواتي ما لهنَّ قِرابُ[1]
يمجُّ كمثلِ الشهدِ مَجَّتْهُ نخلةٌ	وإنْ لم يكنْ فيما يمجُّ شرابُ[2]
ويكتبُ ما يحكي العيونَ ملاحةً	وما السحرُ إلا مقلةٌ وكتابُ
فدونكِ عيني فاستمدي سوادَها	وهذا فؤادٌ طاهرٌ وشبابُ[3]
أرى الكفَّ من فوقِ اليراع حمامةً	وتحتَ جناحيها يطيرُ غرابُ[4]
كأنَّ أديمَ الليلِ طرسٌ كتبتِهِ	وفيهِ تباشيرُ الصباحِ عتابُ[5]
كأنَّ جبينَ الفجرِ كانَ صحيفةً	كأنَّ سطورَ الخطِّ فيهِ ضَبابُ
كأنَّ وميضَ البرقِ معنًى قدحتِهِ	كأنَ التماعَ الأفقِ منه صوابُ[6]

(١) الآسي، الطبيب المعالج. وهو كل من يأسو لغيره، ويداويه ويخفف من أحزانه، والقرابُ: غمد السيف.

(٢) يمجُّ الشهد، يلفظ العَسَل.

(٣) استمدي سوادها: السَّواد، هو بؤبؤ العين وإنسانُها، أي إن احتجتِ لعين بصيرة، فدونكِ عيني، وكذلك قلبي الطاهر وطاقاتي الشبابية العامرة.

(٤) كنّى بالغراب عن السطور المسوّدة بالحبر الأسود، تخطُّ به آيات الأدب والفن الجميل، ولكنه لم يوفق بصورة الغراب الذي يرمز عادة إلى التشاؤم.

(٥) الطرس، القرطاس الذي يكتب عليه، وهو أبيض اللون. وقد شبّه الحبر الذي خطّت به كتابها، بأديم الليل، وما سطّرته من عتاب، بتباشير الصباح..

(٦) تهالك الرافعي على التشبيه، لدرجة تحول الكلام عنده، والوصفُ، والإشادةُ الفنّية الجمالية، إلى التكلف في مطاردة التشبيه كيفما كان، من دون تمييز بين لحمة النص وعضويته التأليفية من جهة، وتراكم الصيغ المجازية بعضها فوق بعض، من جهة ثانية.

كـأنـكِ إمَّـا تَـنـظـري فـي كـتـابـةٍ ذُكـاءُ، وأوراقُ الـكـتـابِ سَـحـابُ[١]

أراكِ تُـرَجِّـيـن الـذي لـسـتِ أهـلَـهُ ومـا كـلُّ عِـلْـمٍ إبـرةٌ وثـيـابُ[٢]

كـفـى الـزهـرَ مـا تـنـدى بـه راحـةُ الـصَّـبـا وهـل لـلـنـدى بـيـن الـسـيـولِ حـسـابُ[٣]؟

ومـا أحـمـقَ الـشـاةَ اسـتـغـرَّتْ بِـظِـلْـفـهـا إذا حـسـبـتْ أن الـشـيـاهَ ذئـابُ!

فـحَـسْـبُـكِ نُـبـلاً قـالـةُ الـنـاسِ: أنـجـبـتْ! وحَـسْـبُـكِ فـخـراً أن يـصـونـكِ بـابُ[٤]

لـكِ الـقـلـبُ مـن زوجٍ ووُلْـدٍ ووالـدٍ ومـلـكُ جـمـيـعِ الـعـالـمـيـنَ رقـابُ

ولـم تُـخـلـقـي إلَّا نـعـيـمـاً لـبـائـس فـمَـن ذا رأى أن الـنـعـيـم عـذابُ؟[٥]

دَعـي عـنـكِ قـومـاً زاحـمَـتْـهـمْ نـسـاؤُهـم فـكـانـوا كـمـا حَـفَّ الـشـرابَ ذبـابُ[٦]

تـسـاووا فـهـذا بـيـنـهـمْ مـثـل هـذه وسِـيَّـانِ مـعـنًـى يـافـعٌ وكـعـابُ[٧]

ومـا عـجـبـي أنَّ الـنـسـاءَ تـرجـلـتْ ولـكـنَّ تـأنـيـثَ الـرجـالِ عُـجَـابُ[٨]

❁❁❁

وقال تحسُّراً على انهماك النساء بمواكبة «الموضة» النسائية السائدة في عصره، ما بين أثواب قصيرة ضيقة وواسعة ذيليّة:

[من السريع]

مـا بـالُ هـذا الـجـسـمِ يـا فـتـنـتـي؟ مَـنْ سَـرقَ الـديـبـاجَ فـي حـبْـسِ[٩]؟

---

(١) تشبيه تقليدي، لا حرارة فيه. فهي كالشمس (ذكاء) عندما تُقبل على القراءة. وأوراق الكتاب، كالسحب التي تحتجِبُ الشمسُ دونها. وهكذا نرى الشاعر لم يؤلف بين عناصر التشبيه لتصبح كياناً فنياً قائماً بذاته، بل ساق العناصر سوقاً، فبقيت متلاصقة، كلٌّ في خانته وإطاره.

(٢) تراه يدعوها لتعلم مهنة التدبير المنزلي مثل العلوم والآداب، فتفشل بناحية وتنجح بناحية؟؟

(٣) تأخذ الصورةُ الاجتماعيةُ التي يتمناها الشاعر لهذه المرأة الأديبة، بالوضوح شيئاً فشيئاً. فهو يدعوها إلى إتقان ما خُلقتْ له ألا وهو الإيناس والسكينة، مشبِّهاً إياها بصورة ضمنيّة، بالندى الذي يرشح به الهواء العليل الباكر.

(٤) رمز إلى بيت الزوجية الحاضن الوافي، ببابه الذي يعد أهم مستلزماته.

(٥) البائس، صفة للزوج الذي لا يعرف طعم الحياة والسعادة الحقيقية، إلّا بزوجة صالحة تتمتع بجمال الصورة والسلوك.

(٦) في البيت تعريض كنائي بالنساء المتحررات المتفلّتات من كل قيد والتزام أخلاقي واجتماعي؛ فشبههنّ بالذباب الذي يطير حيث يشاء حاملاً آثار أقذاره معه.

(٧) اليافع: مَن شارف الاحتلام، وهو دون المراهق. والكعاب: مِن كعَبتِ المرأةُ كُعوباً، فهي كَعابٌ، إذا نهد ثديُها.

(٨) تأنيث الرجال: تشبههم بالإناث. وهذا السلوك شائن في نظر الشاعر، الذي لا يرى بأساً في ترجُّل النساء، ما دام يرفع من قدرات المرأة ويزيد في الهمم الإنسانية.

(٩) الديباج: ثوبٌ، لُحمتُه وسَداهُ من الحرير. وهو أيضاً، من الوجه: حسْنُ البشرة.

وبعضُهُ في كَفَنٍ واسعٍ وبعضُهُ في ضيقةِ الرَّمْسِ
لكلِّ شيءٍ حَسَنٍ زينةٌ وزينةُ الخمرة في الكأسِ
والبدرُ في ديباجةٍ يجتلى وأنتِ في عُشْرٍ وفي خُمْسِ[(١)]
شريعةٌ تَنْسَخُ في يومها كلَّ الذي قد شرعتْ أَمْسِ[(٢)]
ولو تزيدُ الحسنَ أثوابُهُ لبانَ نقصُ الحسنِ في الشمسِ[(٣)]
أهانتِ الغادات أهلَ الهوى وهنَّ قد هنَّ على نفسي[(*)]
فأعيسنُ القوم وأذيالُها «مصلحةٌ» للرشِّ والكَنْسِ[(٤)]

❁❁❁

وقال في امرأةٍ حسناء أمام مرآتها، وما تداعى من ذلك، من صور ومشاهد مفعمة بالجودة والصدق:

[من الوافر]

بدتْ قمراً لهُ حظِّي ليالي وجسمي في هواها كالهلالِ[(٥)]
ولاحتْ في المرآةِ فقلْ سماءٌ تولَّتها الملائكُ بالصقالِ[(٦)]
تَرقرقَ حُسْنُها فيها فمالتْ وفي الطاووس طبعُ الإختيالِ[(٧)]

---

(١) أي عشر ما يجب لبْسه، وكذلك الخمس، كناية عن التعرّي الجزئي في اللباس، وكناية عن عدم الاحتشام.

(٢) الشريعة هنا: الزيُّ والتقليد السائد.

(٣) يشير ههنا إلى الأثواب الطويلة التي اعتمدتها بعض النساء، في جدلية تناقضية مع فريق نسائي آخر يختار الأثواب الضيّقة، كما ألمحَ في البيت الأول. ويستند في دحضه لطول الثوب إلى جمال الشمس من دون كساء.

(*) «هنّ» الأولى، ضمير، والثانيةُ فعل مُسْند إلى نون النسوة، من: هانَ يَهونُ هَوناً.

(٤) شبّه بصورة غير مباشرة، الأثواب النسائية الطويلة، بمكانس الطرقات التي تكْنِس التراب والغبار. وهو هزء صريح بهذا الزيّ. ولا نفهم تماماً المراد من «أعين القوم» إلا المراقبة والتحسُّر.

(٥) في صدر البيت ثقل بلاغي، في تشبيه حظّه مع المرأة الجميلة، (بالليالي) بصيغة التنكير، جاعلاً «ليالي» خبر مبتدأٍ مصطنع، وحقه أي (الخبر) أن يأتي مُتِمّاً للمعنى مجمّلاً، على أحسن ما يكون.

(٦) تشبيه تمثيلي رائع؛ جعل من الوجه الجميل البديع وهو قبالة المرآة، سماءً مجلوّة بأيدي الملائكة وأدواتهم التجميلية الخارقة.. ولا نعتقد بورود مثل هذه الصورة الفنية من قبل.. وفي صدر البيت خلل عروضي، يزول بتخفيف همزة «المرآة»، فنخرج بذلك عن أصل اللفظة وتركيبها.

(٧) مالت: بمعنى التمايل خيلاءً وعُجْباً. وفي العجز، تشبيه ضمني جميل، فهي كالطاووس اختيالاً ودلالاً.

وكانت كالغصونِ أَصبْنَ نهراً فداعبْنَ الظِّلالَ على الزُّلالِ[١]
وكنتُ لها بواحدةٍ قتيلاً فكيفَ بها اثنتين على قتالي[٢]
دعوها تَذرِ منها ما دَرَيْنا وتنظُرْ ما نَظَرْنا من جمالِ
فمَا مِرآتُها إلا كتابٌ يَعُدُّ لها جِناياتِ الدلالِ
وما اتُّهِمتْ محاسنُها ولكنْ يكونُ سجيةً مرحُ الغزالِ
عساها صَدَّقتْ ما أخبروها بأنَّ الطيفَ يسْمحُ بالوصالِ[٣]
فلازمتِ المرآة كما أراها تحاولُ أن تُظفَّرَ بالخيالِ[٤]
وللحسناءِ آمالٌ وماذا يُؤَمِّلُ في (السما) غيرُ المحالِ؟[٥]
فيا مِرآتها وصفاءَ قلبي وعصرَ طفولتي وخلوَّ بالي!
ويا حَظِّي وحاجبَها ودهري وطُرَّتَها وعينيها وحالي![٦]
تقلَّبتِ الليالي بي ولمَّا يَرُعْني إنْ تقلَّبتِ الليالي
كأني صرتُ مرآةً لدهري يرى فيها محاسنَهُ البوالي[٧]

---

(١) **لا يفتأ الشاعر ينكب على التشابيه، الواحد بعد الآخر، في تنوع كمّي ونوعي، بعضه آسر خالب وبعضه تقليدي سطحي**. . وفي هذا البيت زاد من نسبة الجمال في رصد جمال حركية الغصون فوق مياه النهر الصافية كالزلال، مُضْفياً على الصورة جرساً موسيقياً في مجانسة (الظلال والزلال) وهو من توفيقات الشاعر التصويرية.

(٢) الواحدة، هي صورتها الطبيعية المستقلة. والثانية: صورتها المنعكسة في المرآة.

(٣) يتوغل الشاعر، في تصوير الجمال ويلتفت إلى واقعه حِياله؛ فإذا هو موصول الشوق والعاطفة نحو هذا الوجه البديع، فلم يعد وجهها في المرآة، الصورة المنعكسة، بل أضحى خيالاً يطوف في مخيلة الشاعر وتأملاته.

(٤) في البيت اختلال عروضي سببه «المرآة» بمد الهمزة، ولا يستقيم إلّا بحذف المدّة كلها. . وقوله: «تحاول أن تظفَّر» شرح عقلاني للمشهد، حطَّ كثيراً من قدر الصورة البديعة التي رسمها الشاعر حتى الآن، للمرأة الجميلة إزاء مرآتها.

(٥) قوله هذا يُتمِّم ما أخذ به من تشبيه وجهها بالسماء، في مطلع القصيدة. أي يكفيها ما تخيلها فيه؛ فهو منتهى الأرب، لسيِّدة الجمال في بلاد العرب.

(٦) ينادي كلَّ ما يحضره في هذه اللحظة الشعورية الموحية جامعاً عناصر وأشياء بعيدة، لكنها ماثلة في ضميره وذاكرته، محدثة أصداء جمالية عميقة الغور.

(٧) جميلٌ من الشاعر أن يقلب الصورة، فيُصْبح هو، مرآةً ثانية للدهر، يراجع فيها ـ أي الدهر ـ مراحلَ غابرة من مواطن الجمال القديم التي مرَّ بها الشاعر. . وهو التفات بديع، يزيد من جمال الشعر ومزاياه الفنيّة.

فـلـمْ يـنـظُـرْ جَـبـيـنـي قـطُّ إلا تـنـفَّـسَ فـيـهِ بـالـهـمِّ الـعُـضـالِ(*)
فـديـتُـكِ، سـاعـةَ الـمـرآةِ، طـولـي أمـدَّكِ مـن لـيـالـيَّ الـطـوالِ
فـمـا أحـلـى إذا وقـفـتْ إلـيـهـا تُـبـالـي بـالـجَـمـالِ ولا تُـبـالـي(**)
وبـانـتْ فـي الـحُـلـيِّ طـريـقَ سَـبْـقٍ لـتـسـتـبـقَ الـيـمـيـنَ مـعَ الـشـمـالِ
وأعـيـا كـفَّـهـا الـشَّـعـرُ اخـتـلافـاً كـمـا تَـعْـيـا الـهـدايـةُ بـالـضـلالِ(١)
ولاحـتْ فـي لـواحـظِـهـا سِـمَـاتٌ كـمـا تـجـري الـمـنـيـةُ فـي الـنِّـصـالِ(٢)
فـلـو نـطَـقـتْ لـنـا الـمـرآةُ عـنـهـا إذاً قـالـتْ: تـبـاركَ ذو الـجـلالِ

❁ ❁ ❁

وقال في حليِّ النساء وأثر ذلك في نفوسهنّ:

[من الكامل]

رأَتِ الـمِـلاحُ عـلـى الـسـمـاءِ كَـواكـبـاً فـجـعـلْـنَـهـا فـوقَ الـصـدورِ عـقـودا
ورأينَ نور الشمس يضحكُ في الضُّحى فـلـبـسـنَ مـنـهُ أوجـهـا وخـدودا
ورأيـنَـهـا تـبـدو وتـغـربُ لاتـنـي فـجـعـلـنَ ذاكَ تـواصـلاً وصـدودا(٣)
إنـي لَـطَـبٌّ بـالـنـسـاءِ وقـد رأيـتُ لـهـنَّ قـلـبـاً لا يـزالُ حـسـودا(***)
فـلَـوَ أنَّـهـنَّ رأيـنَ عـوداً قـد تـحـلَّـى بـالـثـمـارِ حـسَـدْنَ ذاكَ الـعـودا
وإذا غـضِـبـنَ جـعـلـنَ أسـبـابَ الـتَّـوا صُـلِ إِصـبـعـاً أو مِـعْـصَـمـاً أو جـيـدا(٤)

(*) المعنى: كأنَّ دهره ذهبتْ محاسنُه (وإنما محاسِنُ الدهر أهلُه) وهو مرآة هذا الدهر. فكلما نظر في جبينه تفجّع على حسنه الزائل، فتنفَّس نَفَسَة الهمّ، فكانت في جبينه تجعداً؛ وهو إنما يكون من الهموم والأفكار.

(**) هذه الكلمة من الكلام الجامع. فكل ما تفعله الحسناء، وما لا تفعله، يقالُ فيه: (تُبالي بالجمال ولا تبالي).

(١) تشبيه تخييلي على نسبة عالية من التجريد، لكنه راقٍ، حيث جمع بين سواد الشعر وحلكة الضلال من جهة، وبياض كفِّها ويقين الهدى، من جهة ثانية، في صورة بيانيَّة متناسقة.

(٢) استخدم الشاعر التشبيه هنا، في ثوب كنائي، ألا وهو قوة نفاذ جمال العينين وسحرهما في الرائي، بمثل قوة النصل وهو يخترق الجسد زاهقاً فيه روح الحياة.

(٣) على الرغم من تقليدية الصور التشبيهية في الأبيات الثلاثة الأولى: من تشبيه عقود الحُليّ بالكواكب المضيئة، والوجوه والخدود بأنوار الشمس والضحى، والصّد والتجاوب بغروب الشمس وإشراقها، فقد صاغها بأسلوب مونق، فيه من الصدق واللطف ما يجعلها ـ أي هذه الصور ـ كالجديدة المبتكرة. «ولا تني» أي لا تفتر ولا تَعْيا..

(***) الطَّبُّ (بالفتح) الحاذق الماهر.

(٤) استخدم الإصبع والمعصم والجيد، مجازات لفظية مرسلة، ليدل على الخاتم والسّوار والقلادة.

وقلوبُهن على الحُليِّ كذي الليا لي إن عدمنَ البدرَ كانتْ سُودا
إن النساءَ خلائقٌ إن فتنها فهي الأُسارى والحُليُّ قيودا

❁ ❁ ❁

وقال يعرض للمرأة المصرية وواقعها المتردِّي:

[من البسيط]

أتى عليكِ، وإن لم تشعري، الأَمدُ وأنت أنتِ، مضى أمسٌ وحلَّ غدُ[1]
فهَبْكِ عيناً فما في الناسِ ذو نظرٍ إلّا ويُؤلمه في عينِهِ الرَّمدُ[2]
وهبْكِ قلباً فما في الخَلْقِ من رجلٍ إلا ويوجعهُ في قلبِهِ الكَمدُ[3]
وهبْكِ من كَبدٍ في جَنْبِ صاحبها أليسَ يحملُ ما تَغْلي بهِ الكَبِدُ؟[*]
عجبتُ لامرأةٍ هانتْ وما اعتبرتْ ومن رجالٍ أهانوها وما رَشَدوا
كلاهما رجلٌ في الناسِ وامرأةٌ ولا مميِّزَ إلا ذلكَ الجسدُ
وكلُّ ما حولهمْ في الذلِّ، مثلُهُمُ: يُستعبَدُ الكلُّ حتى النهرُ والبلدُ
يا بنتَ مصرَ ولا قومٌ تَعِزُّ بهمْ ولا بلادٌ ولا أهلٌ ولا ولدُ
زاغتْ عيونُ بني مصرَ وضلَّ بها غَيُّ النفوسِ وهذا الجهلُ والفَنَدُ[4]
فأنتِ في نظرِ الراقينَ سائمةٌ وفي نواظرِ فلّاحيهمُ وتَدُ[5]
وأنتِ بينهمُ في كلِّ منزلةٍ صفرُ اليسارِ بهِ يُستكملُ العددُ[6]
أقامَ في رأسكِ الجهلُ الذي سَلفَتْ به الليالي وفي أضلاعِكِ الحسدُ
وما يحلان بيتاً كانَ في رغدٍ إلا وهاجرَ منهُ ذلكَ الرغدُ
(فالسحرُ والزارُ والأسيادُ) جملتُها لأهلِها نكدٌ ما مِثلُهُ نكدُ[7]

---

(١) الأَمَد: النهاية والغاية. أي بلغتِ منتهاك في قَدَرك ومصيرك اللذين سيشرحهما في طيات القصيدة.
(٢) هَبْك، اسم فعل بمعنى: افترضي، واحْسَبي، وظُنّي.
(٣) الكَمدُ: الكآبة والحزن، يسكنان أغوار النفس.
(*) المرأة عين زوجها وقلبه وكبده؛ ولكن الجهل فيها كالرمد والكمد والمصاب الذي تغلي به الكبدُ.
(٤) الفَنَدُ: الرأي الباطل، والفَنَدُ: الضلالُ وشبهُهُ.
(٥) البهيمة السائمة: السارحة في مرعاها، حيث تشاء من دون قيد أو رقيب. هكذا شبَّه الشاعرُ المرأةَ. وليس هناك من يجعل لها قيمة، لا أهل الفكر والرقيّ، ولا أهل الريف والزراعة.
(٦) لا قيمة لها تماماً كأرقام الصفر التي هي إلى الشمال. واليسار، واقع البحبوحة والرفاهية نحو العيش.
(٧) الزار: حفلة راقصة تقام لطرد الأرواح الخبيثة.

مـا أنـتِ فـي الـصـيـنِ والأوثـانُ قـائـمـةٌ ... ولـلـشـيـاطـيـنِ فـي كـلِّ الأمـورِ يـدُ[1]

تـالـلَّـهِ لـو كـانَ مـن عـلْـمٍ وتـربـيـةٍ ... شـيءٌ يـمـازجُـهُ ذا الـصـبـرُ والـجـلَـدُ

إذاً لـمـا سـخـرتْ مـن بـنـتِ جـمـعـتِـهـا ... مَـنْ يومُـها السبتُ أو مَنْ يومُـها الأحدُ[2]

فـهـل أرى رجـلاً فـيـنـا أو امـرأةً ... بـعـد الـخـمـودِ وطـولِ الـذلِّ يـتـقِـدُ؟

يـا قـومُ لـو نـامَ لـيـثُ الـغـابِ نَـوْمَـكُـمُ ... لاسـتـنـكـفَ الـفـارُ إن قـالـوا لـه أَسَـدُ[3]

❁❁❁

وقال في رجال قومه ونسائهم وما آلوا إليه من انحطاط في الوعي والتحضُّر:

[من الوافر]

لأمـرٍ فـيـهِ يـرتـفـعُ الـسـحـابُ ... ولا يـسـمـو إلـى الأفـقِ الـتـرابُ

ومـا استـوتِ الـنـفـوسُ بـشـكـلِ جـسـمٍ ... وهـل يـنـبـيـكَ بـالـسـيـفِ الـقِـرابُ؟[4]

ومـا سِـيـانِ فـي طـمَـعٍ وحـرْصٍ ... إذا مـا الـكـلـبُ أشـبَـهـهُ الـذئـابُ[*]

رأيـتُ الـنـاسَ كـالأجـسـادِ تـعـلـو ... لـعـزتِـهـا عـلـى الـقـدمِ، الـرِّقـابُ[5]

فـلـيـسَ مـن الـعـجـيـبِ سـمـوُّ أنـثـى ... عـلـى رجـلٍ (تُـرجِّـلُـهُ) الـثـيـابُ

ولـو نـفْـسـاهـمـا بـدتـا لـعـيـنـي ... لـمـا مـيـزتُ أيُّـهـمـا الـكَـعـابُ[6]

وإنَّ لِـبـاطـنِ الأشـيـاءِ سِـرّاً ... بِـهِ قـد أعـجـزَ الأسـدَ الـذبـابُ

فـيـا لَـرجـالِ قـومـي مـن شُـمـوسٍ ... إذا قُـرِنـوا بـهـا انـقـشـعَ الـضـبـابُ!

---

(١) أراد شيوع الخرافات لدى أهل الصين في تعاملهم مع الأرواح ومظاهر العبادة الوثنية.

(٢) ثلاث تَوْريات لطيفة غير خافية على ذي الفطنة والتحليل، وهي: تورية الجمعة الدالة على المصلية نهار الجمعة، كناية عن العقيدة الإسلامية. وتورية السبت، لصاحبة العقيدة اليهودية، وتَوْرية الأحد لصاحبة العقيدة المسيحية.

(٣) استنكف: أَنِفَ وامتنع!

(٤) استوت النفوس: اتخذت شكلاً سوياً وهيئةً مكتملة القسمات..

(*) بلغ من حرص الذئب، على ما يقال، أنه ينام مغمِضاً إحدى عينيه، وناظراً بالأخرى، حذراً على نفسه وترقباً على نفسه لما يساق إليه.

(٥) أراد تشبيه الناس، بما يقبلون عليه من سلوك العزَّة والتطاول، بجسد الإنسان نفسه، وعلوِّ الرأس على القَدَم. وهكذا دواليك.

(٦) الرجل الذي «ترجِّلهُ» الثياب، هو الذي لا يمتاز عن المرأة إلّا بثيابه التي يرتديها الرجال، وإلّا لعُدَّ من النساء ولا أحد يفطن.. كذلك وضع المرأة الفتيّة التي نهد ثدياها، والشابُّ الذي من عمرها..

نساءٌ، غيرَ أنَّ لهنَّ نَفْساً إذا همَّتْ تسهَّلتِ الصِّعابُ
فإن تلقَ البحارَ تكنْ سفيناً وإن تَرِدِ السما فهيَ الشُّهابُ
ضِعافٌ غيرَ أنَّ لهنَّ رأياً يُسدِّدُهُ إلى القصدِ الصوابُ
وما مِنْ شِيمةٍ إلا وفيها لهنَّ يدٌ محامدُها خضابُ
وقومي مثلُ ما أدري وتدري فهمْ لسؤالِ شاعرِهمْ جوابُ
رجالٌ غيرَ أنَّ لهم وجوهاً أحقُّ بها لعمرِهمُ النِّقابُ
غَطارفةٌ إذا انتسبوا ولكن إذا عُدُّوا تَضَعْضَعَكَ الانتسابُ[١]
جُدودهُمُ لهم في الناس مجْدٌ وهُمْ لجدودهمْ في الناسِ عابُ[٢]
ومن يَقُلِ: الغرابُ ابنُ القُمَاري يُكَذِّبْهُ إذا نعبَ الغرابُ[٣]
عجيبٌ، والعجائبُ بَعْدُ شتَّى بأنَّا في الورىٰ شيءٌ عُجَابُ
تَقدَّمَنا النسا ونفوسُ قومي من اللائي عليهنَّ الحجابُ[٤]
وما غيرُ النفوسِ هي البرايا وأنثاها أو الرجلُ الإهابُ[٥]

⊛⊛⊛

وقال يقارن بين نساء الشرق ونساء الغرب، وكذلك بين الرجال في الشرق والغرب:

[من الطويل]

أبىٰ الجهلُ إلا أن يكونَ نساؤُنا رجالَ سِوانا والرجالُ نساءَ[٦]
فتلكَ نساءُ الغربِ ساوينَ غيرةً وفُقْنَ رجالَ المشرقِ الجُهَلاءَ
وكلُّ نساءِ الشرقِ ساوينَ في الرضا بذاكَ رجالَ المغربِ العلماءَ

---

(١) الغطارفة: واحدها، غِطريف: السيد في قومه، الشريف القويُّ.
(٢) العابُ: الوصمةُ والعيب، جمع أعياب وعُيوب.
(٣) القَماريُّ، واحدها قُمريٌّ: ضرب من الحَمَام له عنق بلون القمر، حسن الصوت والهيئة. وأنثاه: قُمريَّة، أكثر ما تظهر في الصيف في بعض حقول العنب والتين.
(٤) يعيب على أهل قومه من كلا الجنسين، بأنهم لا زالوا خارج ركب الحضارة والتمدن، وأن نفوسهم قد تحجَّبتْ عن كل ما يحيط بها من معالم المدنية والوعي الاجتماعي.
(٥) البرايا: جموعُ الناس.. وهؤلاء ليسوا بأعدادهم وعُدَّاتهم، بل بنفوسهم النيِّرة الثاقبة، والتحسُّس لما يدور حولها. لا فرق في ذلك بين الرجل والمرأة.
(٦) في عجز البيت ارتباك في التركيب، وتكلف في الصياغة. فلا معنى لـ«رجال سوانا» ولا معنى لـ«الرجال نساءً». وقد وردت القوافي (هنا) في طبعة بيروت، مضمومة الهمزة، وهو خطأ واضح.

وآيـةُ ذلّ الـنـفـسِ أنْ يـحـكـمَ الـهـوى ... وقـد أصـبـحَ الـشـرقـانِ فـيـهِ سـواءُ[1]

❁❁❁

وقال في الحفاظ على مقومات الأصالة للمرأة العربية:

[من الخفيف]

لـلـحِـسَـانِ الـدلالُ والـخُـيَـلاءُ ... ولـكِ الأمـرُ بـعـدُ يـا خَـنْـسـاءُ

فـاطْـلُـعي كيـفَ شئتِ بـدراً وشـمـسـاً ... وصـبـاحـاً مـا دامَ فـيـنـا الـضـيـاءُ!

كـلُّ بـدرٍ لـه سَـمـاءٌ ولا يُـغـ ... ـرَفُ لـلـحُـسْـنِ كـالـبـيوت، سَـمـاءُ[2]

لا تَـغُـرَّنْـكِ مَـنْ تَـرَيْـن مـن الـعُـجْـ ... ـمِ فـمـا الـشـرقُ والـشّـمـالُ سَـواءُ

كـلُّ بـيـتٍ لـه قَـطـيـنٌ وإن كـا ... نَ تـسـاوى فـي كـلّـهـن الـبـنـاءُ[3]

هـي فـي قـومـهـا وأنـتِ لـدى قَـو ... مِـكِ، والـنـفـسُ بـعـدَهـا أهـواءُ

إنَّ ظَـرْفَ الـلـسـانِ فـي لـغـة الأَهْـ ... ـلِ وعـنـوانَ قـومـهـنَّ: الـنـسـاءُ[4]

وإذا الأمـهـاتُ أحـبـبـنَ شـيـئـاً ... ورِثَـتْ حـبَّـهـا لـهُ الأبـنـاءُ

وإذا مـا الـفـتـاةُ شـبَّـتْ عـلـى الـلـهـ ... ـو، فـبـالـلـهـو بَـعْـدَ ذاك، تُـسـاءُ

إنـمـا الـبـنـتُ زوجـةٌ، ثـم أمٌ، ... ثـم يـبـقـى الـحـديـثُ كـيـفَ تـشـاءُ

وهـي كـالـمـاءِ كـلـمـا قـطّـروهُ ... زاد حـسـنـاً ورقَّ بـعـدُ، الـمـاءُ[5]

---

(١) غلَّبَ الشرق على الغرب، فثنّاهما، قائلاً: الشرقان. هكذا قالت العرب في قولها: «المشرقَين»، وهو قول الحق تبارك وتعالى بلسان الكافر يوم القيامة، ﴿حتى إذا جاءنا قال يا ليت بَيْني وبينك بُعْدَ المشرقين فبئس القرينُ﴾ الآية ٣٨ من سورة الزخرف. وسبب تغليب المشرق على المغرب، أن المشرق سبب الوجود أو دالٌ على الوجود، والمغرب دالٌ على العدم، والوجود أشرف لا محالة. (لسان العرب/ [شرق] ١٠/ ١٧٣).

(٢) أراد أن جمال المرأة في لزومها البيت الذي تتحصّن فيه، وتنصرف للتربية والقيام بدورها الذي أُعدّتْ له في أصل تكوينها.

(٣) القطين: القاطن، وهو مجموع الساكنين في الدار وغيره.

(٤) ظَرْفُ اللسان: طرافته وجدَّته وحيويته، وهو شبه محصور في النساء، كما يقول الشاعر. ويؤكد قوله بالبيت التالي، حول تأثير الأم في أبنائها.

(٥) التقطيرُ عملية تنقية الماء وتصفيتُه مما يعلق به من موادَّ غريبة. وهو أيضاً تحويل السائل إلى بخار بالحرارة، ثم تبريده ليعود سائلاً كما كان، بجهاز التقطير. والمراد من ذلك، لزوم المنزل والتحلّي بالصبر والقناعة، فتجمل المرأة أكثر وتصفو نفسها. ولئن كان المثال المضروب للتقطير سليماً في نتيجته، فإنه لا ينطبق على المرأة الملازمة بيتها، ويمكننا القول إن ذلك شبيه بركود الماء وقبوعه في المكان، فيأسن ويفسد.

لستُ أدري وليتني كنتُ أدري — نحن بينَ الأمواتِ أم أحياءُ؟
أيّ هذينِ في الرجالِ أهنَّ، الأُ — مهاتُ النُّسا، أم الآباءُ؟
صورةُ الغربِ، والنفوسُ من الشر — قِ، فهمْ في ديارِهمْ غُرَباءُ
أينَ حقُّ البلادِ، أينَ ذكاءُ الـ — قلْب، أين النفوسُ، أينَ الدماءُ؟
إنّما ضيَّعَ البلادَ وأهلِيـ — ـها قديماً نساؤُنا الضعفاءُ[1]

۞ ۞ ۞

قال في المرأة ذات الوجوه الجمالية الثمانية:

[من المتقارب]

رأيتُ نِساءَ الزمانِ كِثاراً — وحسْبُكَ واحدةٌ في الزمانْ
فإن رُمْتَها فالتمسْ وصْفَها — فقد مُيِّزتْ بصفاتٍ ثمانْ
بوجهِ الجَمالِ، ورأسِ الذكاءِ — وعينِ العفافِ، وصِدْقِ اللسانْ
وقلبِ المُحبِّ، وصدرِ الصبور — ونفسِ الكمالِ، ودمِّ الحنانْ
وتلكَ هي السعدُ، مَن نالها — فقد صارَ مِنْ بيتِه في الجِنانْ
ومن لم يكنْ حُسْنُها هكذا — فسُخريّةٌ عَدُّها في الحِسانْ

۞ ۞ ۞

وقال في ما يشبه الخروج على جادة الصواب، وهو يحصر تعليم المرأة وثقافتها (بغسل الثياب):

[من السريع]

يا قومُ لم تُخْلَقْ بناتُ الورىٰ — للدرسِ والطِّرْسِ وقالٍ وقيلْ
لنا علومٌ ولها غيرُها — فعلِّموها كيفَ «نَشْرُ الغسيلْ»[2]
والثوبُ والإبرةُ في كفِّها — طِرْسٌ عليهِ كلُّ خطٍّ جميلْ

۞ ۞ ۞

---

(١) جمْعَ المؤنثَ السالمَ، جمْعَ مذكرٍ عاقل لضرورة القافية. وهذا عيب شعري.

(٢) بلغ الرافعي من التطرف في النظر إلى المرأة، وتحديد مهامّها وعلومها، ما يدعو إلى الاستغراب فالاستهجان، لأن «العلم فريضة على كل مُسْلم ومسلمة»؛ وكلّما ازداد علمها رقيتْ في سلّم الوعي الذي هو أكبر سلاح تتسلح به المرأة. فهل هي سهوة شعرية أصابت الشاعر في هذا المقام، فأنشأ هذه الأبيات بدافع المزاح الطريف، وهو الذي مجّد الجمال فيها كل تمجيد؟ وكيف تكون المرأة جميلة موحية ببدائع الشعر، وهي لا تحسن من الحياة غير «نشر الغَسيل»؟.. والطرس في البيت السابق: الكتاب، أو الصحيفة.

وقال في مقاربة المرأة والرجل:

[من المجتث]

الأرضُ للناسِ بحرٌ ... والمرءُ فيها سفينَهْ
والمرأةُ النارُ، والريـ ... ـحُ شدَّةٌ ثم لِينَهْ(١)
والعمرُ نهرٌ ترى مِن ... حوادثِ الدهرِ، طِينَهْ
وشاطئاهُ قَرينٌ ... قد قابلَتْهُ قرينَهْ
ولم تزلْ، عَلِمَ اللّـ ... ـهُ مَرْأةُ المرءِ دونَهْ(٢)
هذا تشادُ به الدا ... رُ وهْيَ للدارِ زينَهْ(*)

❁ ❁ ❁

وقالَ فيمنْ يسلمنَ أولادهنّ للمراضعِ والخدمِ:

[من المتقارب]

يداكِ أَبَرُّ بهذا السِّوارِ ... فإنْ صارَ في يدِ أُخرى انْفَصَمْ(٣)
وصدْرُكِ أَولى بمنْ هو منهُ ... فؤاداً ونَفْساً ولحماً ودمْ(٤)
ومِنْ فيكِ تُبعَثُ فيه الحياةُ ... ويسقمهُ غيرُهُ كلُّ فمْ(٥)
وما الطفلُ إلا زيادةُ بَطْنٍ ... لجدٍّ وأبٍ وخالٍ وعمْ

---

(١) استعمل «لينة» مؤنث اللِّين، الذي هو الهدوء والرخاء. وليس له مؤنث من لفظه وأمّا ما جاء في القرآن الكريم، في الآية الخامسة من سورة الحشر ﴿ما قَطَعْتُم مِن لِينةٍ أوْ تَرَكْتُموها قائمةً..﴾ فهي في واحد من معانٍ عشرة تضمنَتْها الكلمةُ، وهي تدور حول النخل وتمره وعجوه وما شابه.
(تفسير القرطبي جـ ١٨/ ٨ ـ ١٠).

(٢) وردت «مرآة»، ويختلُّ البيت. وما أكثر ما استخدم الشاعرُ هذه الكلمة مستقيمة الوزن ومختلَّة!

(*) ليس يريد من زينة الدار أن تكون المرأةُ متاعاً ولهواً، بل يريد أن تكون زينةَ بيتها بمعنى ما هو بيت.

(٣) السِّوارُ والسُّوار، جمع: أَسْوِرَة وأَساوِر: حلقة من الذهب تُتَّخذ في المِعْصم، حِلْيَةً. ومنه قوله تعالى، في جمع «الأساور»: ﴿يُحَلَّوْنَ فيها من أَساوِرَ من ذَهَب ويَلْبَسون ثياباً خُضراً﴾ الآية ٣١ من سورة الكهف.
وقوله تعالى في جمع «الأسْوِرة» ﴿فلَوْلا أُلقِيَ عليه أَسْوِرةٌ مِن ذَهَبٍ أو جاءَ مَعَهُ الملائكةُ﴾ الآية ٥٣ من سورة الزخرف.

(٤) كناية واضحة للطفل الرضيع الذي يطالب الشاعرُ بأن تحضنه أُمُّه بقلبها ونفسها وصدرها..

(٥) لم نر وجهاً لمعنى عجز البيت، ولا لضبطه إعرابياً.

فـإنْ تُـعـطِ طـفـلَـكِ لـلـخـادِمـيـن فـمـا زدتِ إلا عـديـدَ الـخَـدَمْ[1]

❁❁❁

وقال يدعو المرأة إلى عدم استخدام مواد التجميل:

[من الوافر]

دَعي عنكِ الطِّلاءَ فليسَ حسْناً وأيُّ حقيقةٍ كانتْ مجازا؟
ومَن ذا غرَّهُ التحسينُ إني رأيتُ الشمسَ لا تحتاجُ غازا

❁❁❁

وقال والبيتُ الأولُ مترجم عن معنًى فرنسوي:

[من السَّريع]

أُجِثْ خُضوعاً واحتراماً لمنْ أمُّكَ في حوَّاءَ مِنْ أُمّهـا[2]
ألا ترىٰ الجنَّةَ فيما روَوْا مطلوبةً من تحتِ أقدامها؟[*]

❁❁❁

(١) قوله: «فإن تعط» خطأ، والصحيح: فإن تعطي، بياء المخاطبة فقط، جزماً لفعل الشرط بـ«إنْ». وهذا يعني أن الطفل الذي تربّيه خادمة، يتخلّق بأخلاقها، ويسلك سلوكاً مشابهاً لسلوكها.

(٢) أي أطع أمّك دائماً بخشوع وتكريم؛ فقد أوصانا الله بذلك في غير آية من آيات قرآنه الحكيم. ومحور ذلك، الإحسان إليها، ومن ذلك قوله تعالى داعياً التذلل لهما: ﴿واخفِضْ لهُما جَناحَ الذلِّ مِن الرَّحمةِ﴾ من الآية ٢٤ من سورة الإسراء. وهذا يقتضي الاحترام الكلي المصحوب بالانقياد والمطاوعة. (إقرأ تفسير القرطبي جـ١٠/٢٤٣ ـ ٢٤٤).

(*) أصل المعنى الفرنسي المعرّب: «أُجِث باحترام تحت قدمَيْ الجنس الذي منه أمُّكَ!».

في الوصف

التاز(*)

وهي قصيدة في وصف القبر الذي حلّت به امرأة رفيعة، وما ترك في نفسه من مؤثرات:

[من الطويل]

بَنَوْهُ على تلكَ اللحاظِ الفواتِكِ ... وصاغوهُ من نورِ الثغورِ الضواحكِ(1)

ومنذُ طَوَوْا فيهِ شبابَكِ لم يَزَلْ ... تلوحُ عليهِ مَسْحةٌ مِنْ شَبابِكِ

بناهُ لكِ الباني فلم يلبثِ الهوى ... أنِ اقتادَه حتى ثوىٰ في جِوارِكِ

سَليهِ أهذا قلبُهُ صارَ مَدْفناً ... وقَبرُكِ في السوداءِ أم غيرُ ذلكِ؟(2)

وتلكَ لآلٍ أم أمانيُّ نفسِهِ ... وذاكَ ظلامٌ أم همومُ الممالكِ؟

سَليهِ فلو هشَّتْ عظامُكِ نحوَهُ ... لرُدَّتْ إليهِ روحُه من سؤالكِ(3)

وضَعْتِ بيمناهُ فؤاداً فلم يَجِدْ ... سوى مُلكِهِ من حِلْيةٍ لشِمالكِ

فلا ما بنى «كسرى» ولا قصرُ جعفرٍ ... ولا قصرُ «غُمدانٍ» ولا للبرامكِ(4)

(*) التاز: بناء من أعظم مباني الدنيا أقامه السلطان شاه جهان، مدفناً لزوجته أرجمند على ضفة نهر جمنا قرب مدينة «أكرا» سنة ١٦٣٩.

وكانت زوجته قد توفيت وهي نفساء، فحزن عليها حزناً شديداً، وعزم أن يبني لها مدفناً يكون أعجوبة الزمان.

فقد بلغ ما أنفق عليه أكثر من مليوني جنيه. وقاعدته ١٨٦ قدماً مربعة، وارتفاعه ٢٠٠ قدم. وهو مبني بحجارة بيضاء ورخام أبيض، ومرصع من الداخل بجواهر كريمة، وفي جدرانه عضائد من المرمر الأسمر والبنفسجي، وعلى زواياه غرف أربع صفحت بصحائف كبيرة من الرخام الأبيض.

(١) أي لحاظ المرأة المدفونة وضحكات ثغرها الأقحواني الباسم.

(٢) «السوداء»، صفة للتربة التي أظلمت بعد مواراتها فيها.

(٣) أسقط البيت من طبعة بيروت.

(٤) الذي بناه كسرى، هو قصره الشهير بالإيوان الذي امتدحه البحتري، ومطلع قصيدته:

صنْتُ نفسي عمّا يُدنّس نفسي ... وترفّعتُ عن جَدا كلِّ جِبْسِ

=

كـأنـي أرى أُفـقـاً تـجـلَّـتْ نـجـومُـه ... كـأنـكِ فـيـه بـعـضُ تـلـك الـمـلائـكِ[١]

كـأنَّ قـلـوبـاً فـي غـرامـكِ أُحـرقـتْ ... فـذُوبَـهـا الـصَّـيـاغُ بـيـن الـسـبـائـكِ[٢]

كـأنَّ الـلآلـي الـمُـشْـبِـهـاتِ أزاهـراً ... فـرائـدُهـا بـعـضُ الـدمـوعِ الـسـوافـكِ

كـأنَّ ظـلامَ الـقـبـرِ فـي لَـمَـعـانـهـا ... شـعـورُ الـغـوانـي بـيـن حـالٍ وحـالـكِ[٣]

كـأن سـنـاكِ فـي ديـاجـيـه نـيِّـةٌ ... تَـردَّدُ فـي قـلـبِ طَـهـورٍ مـبـاركِ[٤]

كـأنـي أرى تـلـكَ الـمـآذنَ أيـديـاً ... تـشـيـرُ إلـى الأفـلاكِ أنـكِ هُـنـالِـكِ

بـدائـعُ نـالـتْ مِـنْ يَـراعـي، ولـم يـكـنْ ... يـراعٌ يـبـاريـهِ بـتـلـكَ الـمـسـالـكِ

وكـنَّ عـلـى قـلـبـي الـجـلالـةَ والـتـقـى ... فـأصـبـحـتُ مـنـهـا بـيـنَ نـاسٍ ونـاسـكِ

وإنَّ بـنـانـي لـلـفـؤادِ سـنـابـكٌ ... فـأطْـلِـقْ جـوادي يـنـطـلـقْ بـالـسـنـابِـكِ[٥]

❁ ❁ ❁

وقال في مغيب الشمس وحلول الظلام:

[من الطويل]

تَـمَـيَّـلُ فـي الأفـلاكِ مِـثْـلـيَ آمـالُ ... فـيُـظْـلِـمُ، أم هـذي الـحـنـادسُ أهـوالُ؟[٦]

تَـبـوَّأَ عـرشَ الـشـمـس غَـضْـبـاً وردَّهـا ... لـهـا الـغـربُ، والإظـلام سـجـنٌ وأغـلالُ[٧]

= (ديوان البحتري، شرح وتحقيق الصيرفي - دار المعرفة بمصر ١٩٧٢ جـ٢/ ١١٥٢).
وقصر جعفر، هو قصر المتوكل، جعفر بن المعتصم بن الرشيد، عاشرُ خلفاء بني العباس.
والبرامك، هم آل بَرْمَك المشهورون الذين تولوا وزارات ومناصب عالية في العصر العباسي، بينهم خالد البرمكي، وجعفر بن يحيى، ويحيى والفضل بن يحيى، وغيرهم.

(١) أسقط البيت من طبعة بيروت.

(٢) «الصيّاغ» غلط. والصواب (الصوّاغ) من: صاغَ، يَصُوغ صوغاً وصياغة.. صائغ الجواهر.

(٣) الحالي، المُحلّى بالجواهر الذهبية. والحالك: الشديد السواد. شبّه ظلام القبر، وهو يحتضن جسد المرأة البضّ، بغدائر النساء الجميلات، ذوات الشعور المتماوجة بين سواد الشعر وبريق الحليّ.

(٤) السَّنا: الضوء الشديد. والدياجي، مفردها دجى، وهي جمع دُجْيَة: العَتْمة. وها هو الرافعي، يغرق نفسه المرة تلو المرة، في سلسلة من التشابيه، يتهالك عليها بنهمٍ ملحوظ، عساه يرتوي من تصوراته المتدافعة.

(٥) السَّنابك، مفردها سُنْبُك، وهو طرف الحافر. وقد حرَّف محقق طبعة بيروت، فأورد الصدرَ: «وصارت حياتي للفؤاد سنابك».

(٦) تميَّلُ: تَمَايَلُ، أي تطوفُ مختالةً. والحنادِسُ، مفردها: حِنْدِسٌ، وهو الظلمة. وقوله: «فيُظلم» أي يظلمُ الوجودُ.

(٧) أي: تبوَّأ الغربُ عرشَ الشمس. وتبوّأ: تربَّعَ.

وشَدَّ على هذا النهارِ فلم يَقِفْ وأطلقَ من ساقِ النعامةِ أجفالُ[١]
وشقَّ له في الأفقِ، فانسابَ هارباً كما انسابَ في بطنِ الجداولِ سَلْسَالُ[٢]
وذابَ الدجى أن تفزعَ الشمسُ فزعةً تنيرُ لها من بعدما اسودَّت الحالُ
فأَوْصَدَ أبوابَ السماءِ وإنما عليهنَّ من هذي الكواكب أقفالُ
ولو كانَ ذا قلبٍ شجيٍّ لظنَّها مليكاً لهُ في هيكل الحسن تمثالُ
وما خلتُ هذا الكونَ إلا كوَجْنةٍ عليها الدُّجى فيما أُشبِّهُهُ خالُ[٣]
فيا شمسُ هل مزّقتِ ثوبَكِ عندما نُكبتِ، وهذا الغيمُ في الأُفق أذيالُ؟
أم انتشرتْ منكِ الحُليُّ لعَشْرةٍ وهذا الهلالُ الساقطُ النصفِ، خلخالُ[٤]
وهل حالَ منكِ الوجْد فازددتِ صُفْرةً وحولكِ من هذي النسائم عُذّالُ؟
لئن صرتِ مِعْطالاً فكلُّ مليحةٍ كمثلكِ، تمضي للكَرى وهْيَ مِعْطالُ[٥]
تُودِّعُكِ الدُّنيا وتستقبلُ الدُّجى كما ودَّعَ الأمَّ الرحيمةَ أطفالُ
وما الليلُ إلا ظلمةُ الهمِّ عندَ مَنْ أقامَ، وأوفى من يحبُّهُمُ، زالوا
علامَ يُطيلُ الليلُ بي من وقوفهِ فهل أنا مما شفّني الحبُّ، أطلالُ؟[٦]
كأني بهذا الليلِ قد كانَ وجهُهُ لأهلِ الهوى فالاً وقد صدَقَ الفالُ[٧]
مساكينُ يحتالونَ فيما أصابهم وفي أمرِهِمْ دهرٌ كذلك يحتالُ

(١) «أطلق»، هنا، فعل لازمٌ بمعنى انطلقَ، والأجفال ج: جَفْل وجُفُول، وهي جماعات ذكر النعام التي تنفر من كل شيء.
(٢) السَّلسالُ: الماءُ العذبُ الصافي.
(٣) لم يكتف بتشبيه واحد في صدر البيت، بل تجاوزه إلى تشبيه آخر يكشف به حقيقة التشبيه الأول.. وهذا لعمري شِبْه سَبْقٍ بلاغي، من نوعه. ومعنى البيت:
تراءى لي هذا الكونُ وجهاً أبلجَ جثمَ عليه الدجى، كما لو كان خالاً. والخال: الشامة في الوجه. أو: البثرة السوداء في الخدّ.
(٤) الساقطُ النصف: أي الذي سقط نصفُه، واحتجب. والخلخال: حلْيةٌ من فضةٍ تجعلها المرأةُ في رجلها. ج: خَلاخيل.
(٥) المعطال (مفعال) من العَطَل وهو خُلوُّ الجسد من الحليّ من أي نوع. شبّه الشمس الغاربة، وقد احتجب نورها، بالمرأة الجميلة وقد تجردت من حُليِّها.
(٦) استعارة مكنيَّة لطيفة؛ الليل مثل الشاعر العاشق الذي وقف على أطلال حبِّه، وأطال الوقوف، تأملاً واستذكاراً. وقال محمد الرافعي: لا تجد قطّ أبدع من هذا التعليل. ولم يجئ به متقدم ولا متأخر.. وأحسن ما تسمى به هذه القصيدة: «حسن التعليل».
(٧) الفالُ، هو ما يتفاءل به المرءُ من كلام طيب أو مشهد أو نحوه.

إذا نَقَضوا أو أَبرموا عَكَسَ القَضا ... وما كلُّ ذي قولٍ لما قال فعّالُ(*)

فيا ليلُ خَلِّ الصبحَ يَهدي نفوسَنا ... إلينا، فأرواحُ الورىٰ فيك ضُلَّالُ

ولستَ بِمِكْسالٍ تَدِلُّ وإن تكنْ ... فما أقبحَ الوصفَيْنِ: سوداءُ مكسالُ(١)

❁❁❁

وقال يصفُ قطارَ السلكِ المعروفِ (بالتراموايِ):

[من الخفيف]

كوكبٌ أبدلَتْهُ أيدي الليالي ... من سماءِ العُلى سماءَ المعالي

مُشْرِقٌ بيننا نهاراً وليلاً ... منذ أمسى نهارُنا كالليالي

هُو حُلمٌ، وإن شهدناهُ فالغفـ ... ـلةُ نومٌ لأعينِ الجُهّالِ

إنَّ قومي في الناسِ قومٌ نيامٌ ... فلذا يحلُمونَ بالآمالِ

لم نزل عاشقينَ للغربِ حتى ... زارنا اليومَ منهُ (طيفُ الخيالِ)

أيها الغربُ علِّم الشرقَ أنَّ الـ ... ـعلمَ لا شيءَ فيهِ صعبُ المنالِ

كلُّ شيءٍ يجوزُ لكنْ على قَدْ ... رِ العقولِ اختلافُنا في المحالِ(*)

ويحَ قومي حتى جَمادُ «أوربا» ... نالَ من رزقِ خيلِنا والبغالِ(٢)

أيُّهذا التَّرامُ أنتَ دليلُ الأُ (م) ... فُقِ في الأرضِ شرقِها والشَّمالِ

قيل فوقَ المِرِّيخ ناسٌ فلمّا ... أنكروا، جاءهم بهذا المثالِ(**)

قرأتْ من حديدكَ الناسُ سَطراً ... إنَّ قولَ الرجالِ في الأعمالِ

ولهُ القُضْبُ أحرفٌ فوقها الأسْـ ... ـلاكُ شكلٌ لموضعِ الإشكالِ(٣)

(*) أسقط البيت من طبعة بيروت.

(١) المِكْسال، مبالغة للكسول، الثقيل الحركة. وتدلُّ: تزهو وتُباهي. والسوداء المكسال (هنا) الظلمة الثقيلة.

(*) كلما ارتقت النفسُ وسَما الفكر، قلَّت المستحيلاتُ. فإنَّ الجاهل يرى صناعة الشيء البسيط، كالتلغراف مثلاً، من المحال، بخلاف العلماء فإنهم لم يقفوا عند حد.

(٢) «جماد أوربا» كناية صريحة عن «الترامواي» المجتلب إلى بلادنا من أوربا.. وكان بمنزلة قطع الأرزاق عن أصحاب الخيل والبغال التي كانت تقوم بأعباء الانتقال، وحمل الأمتعة والأثقال؛ فحلَّ (الترامواي) محلَّها.

(**) المريخ أحد الكواكب السيارة. وقد ذكر بعضُهم أنهم اكتشفوا فيه على أناس كأهل الأرض، وما زال ذلك موضوع جدال إلى اليوم.

(٣) شبَّه القضبان التي تتألف منها الشبكةُ التي يتصل عمودُ الترام الرئيسي بها، ويتحرَّك بواسطتها، =

كــلُّ دارٍ تــدورُ فــيــهــا أراهــا غَــضَّــةً ذاتَ بــهــجــةٍ وجــمــالِ
فــبــنــوهــا الــغــذا وتــلــك عــروقُ الــجــســمِ تــجــري بــهِ إلــى الأوصــالِ

* * *

لــيــتَ شــعــري أكــانــتِ الأرضُ أُفْــقــاً ســوَّدوا وجــهَــهُ مــن الأهــوالِ؟
وهْــو فــوقَ الــقــضــبــانِ، بــعــضُ الــدراري عــكَــســوهُ فــســارَ فــوقَ الــهــلال[1]
أم هــوَ الــنــفْــسُ، والــخــطــوطُ خــيــوطُ الــعــمــرِ، تــمــضــي بــهــا إلــى الآجــالِ[2]؟
فــهْــيَ مَــهْــمــا يُــمَــدُّ فــيــهــا ســواءً تــنــتــهــي مــن قــصــيــرةٍ وطــوالِ
أم هــو الــقــلــبُ فــوقَــهُ كــهــربــاءُ الــوَجْــد إن مــسَّــهــا جــرى مــن خــيــالِ؟
طــائــفــاً يَــنْــشُــدُ الــذي ضــلَّ مــنــه واقــفــاً كــل لــحــظــةٍ لــســؤال
ذلــكَ الــجِــدُّ وهْــو عــنــدَ رجــالِ الــشــرقِ شــيءٌ كــلــعــبــةِ الأطــفــال

۞ ۞ ۞

وقال يصف قدومَ الليل، وحركة المرأة فيه، ونفوره منه:

[من المتقارب]

تــقــاصَــرَ عُــمــرُ الــظّــلامِ الــطــويــلْ ولا بــدَّ مــن أَجَــلٍ لــلــعَــلــيــلْ
وضــاقَ بــه الأفْــقُ ضــيــقَ الــقــبــور فــزمّ الــكــواكــبَ يــبــغــي الــرحــيــلْ[3]
وراحَ فــخــفَّــتْ هــمــومُ الــقــلــوبْ كــمــا ســار بَــعْــدَ الــمــقــام، الــثــقــيــلْ
لــقــد كــدتُ أُبْــغِــضُ لــونَ الــظّــلام لــولا شــفــاعــةُ طَــرْفٍ كــحــيــلْ
طــوى الــشــمــس فــاخــتــبــأَتْ أُخــتُــهــا نــفــورَ الــغــزالــةِ مــن وجــهِ فــيــلْ[4]
وكــانــت إذا احــتَــجَــبــتْ قــبــلَــهُ تــجــاذَبُــهــا نَــسَــمــاتُ الأصــيــلْ(*)

= بالأحرف المضيئة، لكثرة الأضواء المتحركة الناشئة منها. كما أن هذه الشُّبكة هي في حد ذاتها إشكال يصعب فهمه للإنسان العادي.

(١) الدراري، ج: دُرّي، وهو الكوكب المتلألئ.

(٢) تشبيه لطيف آخر ينسجه الشاعر من خياله الفنّي، ما بين حقيقة الترام المشابهة للنفس، والشبكة السلكية التي يتحرّك بواسطتها، كخيوط العمر ومسالكه التي تتناهى شيئاً كالأعمار والآجال . . .

(٣) زَمُّ الكواكب: شدُّها إلى بعضها البعض وجمعها.

(٤) كان عليه أن يضع (النمر) أو (الأسد) مكان الفيل، لأن الغزال لا ينفر من الفيل بل من الحيوانات المفترسة الضارية؛ لكنه جاء بالفيل للقافية.

(*) يريد بذلك خروجها وقت العصر، كما هي عادة المتفرنجات اليوم.

أرى البدرَ غار فأغرى بها وكل جميلٍ يُعادي الجميلْ
أم الحظُّ أرسلَ لي ذا الدجى فكانَ الرسالةَ وجهُ الرسولْ[١]
أم الليلُ قد قامَ في مأتمٍ فمنهُ الحِدادُ ومني العويلْ
ولم أنسَ ساعةَ أبصرتُها وجسمُ النهارِ كجسمي، نحيلْ
وقد خرجَتْ لتُعزّي السماءْ عنِ ابنتِها إذ طواها الأُفولْ
على مركبٍ أشبهَتْهُ البروجُ تمرُّ بهِ كالبروقِ، الخيولْ
إذا قابلَتْهُ لحاظُ العيون سمعتَ لأسيافهنَّ صليلْ[*]
وإن قارَبَتْهُ ظنونُ النفوسِ رأيتَ النفوسَ عليهِ تَسيلْ
وقد أخرجتْ نفَحاتُ الرياضِ زكاةَ الرياحينِ لابنِ السبيلْ[٢]
وقد عبثَ الدَّلُّ بالغانياتِ فذي تتهادى وهذي تميلْ
كأنَّ الحواجبَ قوسٌ فما تحرِّكَ إلا جَلتْ عن قتيلْ[٣]
كأن القلوبَ أضلَّتْ قلوباً فكانتْ لحاظُ العيون الدليلْ
حمائمُ في حَرَمٍ آمنٍ بهذي الضلوعِ بناه الخليلْ[٤]
وما راعها غيرُ لونِ الدُّجى يصَدّئ لوحَ السماءِ الصقيلْ[٥]
فيا قُبْح الليلُ من قادمٍ بوجهِ الكذوب ومرأى العذولْ
بغيضٍ إلينا على ذُلِّهِ وشرٌّ من الذلِّ بُغضُ الذليلْ
وكم عزَّني بالأماني التي أرتْنيَ أنَّ زماني بخيلْ
ومِن أمَلِ الناسِ ما لا يُنالُ كما أن في الناسِ من لا يُنيلْ

۞۞۞

(١) جعل «وجهُ الرسول» الذي هو الدجى (الظلام) رسالة الحظِّ العاثر الذي يشكو منه الشاعر.

(*) المراد بالصليل: صوت العجلات، وإن كان في الأصل صوت السيوف. إلّا أنه لمّا علمَ بأنه قراعُ اللحظ باللحظ، جاز ذلك.

(٢) ابن السبيل، هو المسافر الذي انقطعتْ به السُبل، ولم يجد أحداً يُعينه على الرجوع إلى بلده. فاستحقَّ الزكاة، كما ورد غير مرة في القرآن الكريم (الآية ١٧٧ من سورة البقرة، والآية ٣٦ من سورة النساء).

(٣) تشبيه مستهلك، لا قيمة له.

(٤) الحَرَم هو الكعبة المشرفة في مكة المكرمة. والخليل هو سيدنا إبراهيم الخليل (ع). جعل قلوب العاشقين كالحمائم التي تعيش آمنة مطمئنة في الحرم المكّي.

(٥) استخدم فعل «يُصدِّئ»، والصواب: يُصْدئ (بتسكين الصاد) ولا معنى لها في سياق البيت، ولسائر التشبيهات المتراكمة في هذا النص.

وقال مرتجلاً في القمر، وقد رآه بين نجمتين ينزلان عن صفحتيهِ قليلاً:

[من مجزوء الرجز]

يا طلعةَ البدر إذ الـ ـنجمان يكنفانِها
أذكرتني حبيبةً كنتُ على سُلوانِها
ذا وجهُها وذا وذا قُرطانِ في آذانِها[1]

❁ ❁ ❁

وقال داعياً إلى شرب الخمر مستخدماً تفاعيل بحر الرمل المكفوفة[2]:

[من الرمل]

ذهباً هاتِ وإلّا فَلُجَيْنْ إنَّ هذي الراحَ بنتُ القمرَيْنْ
هاتِها كلتيهما ثمَّ اسقِني وَكِلِ الأفراحَ لي بالقَدَحَيْنْ![3]
هيَ في العينينِ نورٌ ساطعٌ وهواءٌ منعشٌ في الرئتينْ
أَخرَجُوها من حَشا الدنِّ ونا دَوا حُنَيْناً ليرى بنتَ حُنَيْنْ(*)
ثم لَفُّوها بكأسٍ وغدتْ كالصبيِّ من يدينِ ليدَيْنْ
يا حبيبي إنها نرجسةٌ وأرى في وجنتيكَ وردَتَيْنْ
ما عليكَ إنْ شممتَ هذه أو قطفتَ هذه بالشفتينْ
هاتِها ثُمَّتَ خذْها واقرعِ الـ ـكأسَ بالكأسِ وهُزَّ المنكِبَيْنْ
إنما يُعلِمنا الكاسانِ أنْ ساعةَ الأفراحِ دَقَّتْ دقّتينْ
واسقني حتى أرى الناسَ على أربعٍ يمشونَ لا على اثنتَيْنْ
إنهمْ واللهِ لا ينقصُهمْ في الحميرِ غيرُ طولِ الأُذُنَيْنْ

❁ ❁ ❁

وقال فيها:

[من المديد]

نَعِسَ النجمُ ولم أنَمِ فصِفُوا لي لذةَ الحُلُمِ

---

(١) شبه وجه القمر تحيط به نجمتان، بوجه الحبيبة زَيَّنَتْ أُذنيها بقرطين من اللآلئ والدرر..

(٢) الكفُّ في الرمل، حذف الحرف السابع من «فاعلاتن» فتصبح فاعلاتُ، بالتحريك. وقد استخدمه الشاعر ثماني مراتٍ في قصيدته هذه ذات الأحد عشر بيتاً.

(٣) «كِلْ» في العجز، فعل أمر من: كالَ يكيلُ كَيْلاً..

(*) يريد بِحُنَين: الخمّار، وهي مداعبة.

لـيـتَ شِـعـري هـل أنـا مَـلِـكٌ حـاكـمٌ فـي الـنـورِ والـظُّـلَـم
مـا تَـرانـي إن قـعـدتُ لـهـا وقـفَ الـلـيـلُ عـلـى قَـدَمِ[١]
يـا نـديـمـي عـذ لـتُـذْكِـرنـا عَـودةَ الأرواحِ لـلـرِّمَـم!
لـم يَـدَعْ فـيَّ الـغـرامُ دَمـاً وأرى فـي الـكـأسِ مـثـلَ دمـي
راحـةٌ فـي دَنِّـهـا انـعـدمـتْ وكـذا الأشـيـاءُ مـن عـدمِ[٢]
وإذا رقْـرَقْـتَـهـا سـطـعـتْ نـفـخـةُ الـوَقَّـادِ فـي الـضَّـرَمِ[٣]
وكـأنَّ الـمـزْجَ يَـفْـرغُـهـا شـيـبـةٌ فـي عـارضَـيْ هَـرِمِ[٤]
وهـي والـكـأسُ عـلـى شـفـتـي قُـبُـلاتٌ مـن فَـمٍ لـفَـمِ
حـاربـتْ آلامَ عُـصْـبـتِـهـا ولَـكَـم يـشـكـونَ مـن ألـم
فـلـهـمْ فـي كـلِّ آونـةٍ ضـجَّـةٌ مِـن خـلْـفِ مـنْـهـزم[*]
يـا رجـالَ الـشـعـرِ لـسـتُ فـتـى إن أنـا لـم يَـطْـوِكُـم عَـلَـمـي[٥]
كـيـف لا تُـعـيـي مـنـاظـرتـي وهـي حِـبْـري والـهـوى قـلـمـي؟
وأنـا فـي وصـفـهـا غَـرِدٌ تـرقـصُ الـدنـيـا عـلـى نـغـمـي

❁ ❁ ❁

(١) في البيت تلميح كنائي لطيف، ولكن على جانب من الغموض، يكمن في (القعود) هل هو التكاسل أو العناية؟ وهل قيام الليل، هو للحضور والسهر المشارك، أو الاعتراض، والاستنكاف، بسبب التكاسل؟ المهم أننا أمام صورة فنية جميلة بسبب هذا الإيحاء المختلف.

(٢) صورة فنية أخرى على جانب من الالتباس والغموض.. فهل انعدامها: فقدانها وبذلك يكون الإقرار بالعدم والتسليم به.. أم أفرغَ الدنُّ منها لإقبال الشاربين عليها؟

(٣) رقرقَ الماء والخمر ونحوهما: صبَّهُ صباً رقيقاً.. والضرم: الحطب المشتعل في الموقد. استخدمه الشاعر على سبيل الاستعارة التمثيلية.

(٤) يفرعها: تختلط الخمر بالماء فتعلوه بياضاً، كبياض الشيب في عارضي الرجل المُسِنّ.

(*) يضجُّ الشاربون مرةً بعد مرة في سكرهم، فكأنهم يصيحون بالتهزم من آلامهم التي هزمتْها الخمر، على ما ذكر في البيتين. ومن كلمات المأمون: النبيذُ صابون الهمّ. ومعنى شاعرنا مبتكرٌ له.

(٥) «لم يَطْوكم علمي» مجاز مصطنع، لا بهاء فيه، والسببُ المعنى المجازي المسند إلى العَلَم. ولو قصد (العِلْم) لكان أقرب إلى المعنى، ولكنه يخرج على زِنة القافية التي هي (فعِلن) بالتحريك.

وقال فيها أيضاً:

[من المتقارب]

أَلَا عاطِني الخمرَ إنَّ الزمانَ ... على مِيمِها وعلى رائِها[1]

وأنعِشْ بها زهراتِ السرورِ ... فقد نبتتْ قبلُ من مائِها

لعرشِ السماءِ ارتقتْ أُمُّها ... وفي الأرض (أعراش) آبائها[2]

فليستْ لغير ملوكِ الكلام ... وبنتُ الملوكِ لأكفائها

ولا غَروَ إن زادَ أعداؤها ... فقدْرُ النفوسِ بأعدائها

أليسَ منَ الظلمِ للخمرِ أنْ ... تُذَمَّ بأشهرِ أسمائِها[3]

❁ ❁ ❁

وقال فيها كذلك:

[من مجزوء المتقارب]

رَحيقٌ كماءِ الشبا ... بِ مِن وَجْنةٍ يَقْطرُ

بكأسٍ كبدرِ الدُّجى ... ظلامي بها مُقمِرُ

وساقٍ على ساقِهِ ... يُرَجْرِجُهُ المئزرُ[4]

تُحَجِّبُها كَفُّهُ ... وفي خدِّهِ تَظْهرُ[5]

أراهُ لنا قائداً ... ونحنُ له عسكرُ

كأنَّ صفاءَ الرحيـ ... ـقِ نافَسَهُ الكَوْثرُ[6]

فمن ربحَ اليومَ ذا ... فذاكَ غداً يخسَرُ

❁ ❁ ❁

(١) الميم والراء، مجموع كلمة (المُرّ) وهذا هو المقصود.

(٢) هل أراد الشاعر من أُمّ الخمر: الخمرة الإلهيّة التي يتغنى بها شعراء الصوفية؟

(٣) وهل أراد أيضاً، الكفَّ عن تسميتها بأسمائها المتداولة، كالصهباء، والصبوح، والغبوق، والكميت، وما شابه؟ إننا مع تساؤل ربما تضمن الجواب في حد ذاته...

(٤) المئزرُ: ثوب يحيط بالنصف الأسفل من البدن. والرجراجُ: المتحرّك. و«ساقٍ» الأول: الساقي، و«ساقُه» قَدَمُه.

(٥) كناية عن حمرة الخمر الطافحة في خد السّاقي أو الساقية.

(٦) الرحيق، ضرب من الطيب. والكوثر: الشرابُ العذْبُ. وهو أيضاً نهر في الجنة.. والصورة الفنّية قائمة على تداخل نكهة الشراب بصفاء لونه لدرجة المنافسة. وهذا من سموّ الشعر وجماله المؤثر.

وقال فيها متحسّراً ممنّياً النفس بعهد جديد:

[من المتقارب]

منى النفسِ لو بَقِيتْ لي المُنىٰ ... ومَن للشقيّ بِيَوْمٍ سعيدِ؟
تُعيدُ إلينا السرورَ القديمَ ... كأنّا خُلِقْنا بها من جَديدِ
وتُذْكِرُنا الأزْمُنَ الخالياتِ ... كذِكْرِ العظيمِ ليالي المهودِ[(١)]
فهاتِ اسقني بالكؤوسِ الكبار ... فما أحسنَ الفم فوقَ النُهُودِ[(٢)]
نُضَارٌ لمن يدُهُ كالنحاس ... ونارٌ لمن قلْبهُ كالحديدِ[(*)(٣)]

❂ ❂ ❂

وقال في الحال عينها على شيء من التعالي:

[من المتقارب]

هوَ الدهرُ آتِيكَ أو ذاهبُ ... وصادِقُكَ الوعدَ أو كاذبُ
فدَعْهُ كما شاءَ مَنْ ذا ترىٰ ... يَجِدُّ ومِنْ حولِهُ لاعبُ؟
وإنْ كنتَ في أملٍ فاقتصدْ ... فمُعطي النفوسِ هو السالبُ
لقد علَّمتْني تجاريبُها ... بأن القُنُوعَ هو الواجبُ
فدَعْني بربكَ لا تسقني ... فإن التمني لها صاحِبُ
وإمّا أَبَيتُ فمَهلاً إذاً ... أنا ذلكَ المِلكُ العاصِبُ[(**)]
ولي الأرضُ مَشرِقُها والمَغيبُ ... هنا جانبٌ وهنا جانبُ
فهاكَ وهاتِ وخلِّ الأنام ... يُحَجِّبهُمْ عنيَ الحاجِبُ
إذا ما شَرِبْنا أرىٰ الأرضَ تَمشي ... وكلُّ امرئٍ فوقها راكبُ

---

(١) لم نفقه معنى «العظيم» هنا ولا حتى «ليالي المهود».

(٢) استعار استدارة النهود وتكوّرها، وكل ما تثيره من تداعيات حسيّة، للكؤوس الكبيرة.

(*) يسمى النحاس صُفراً (بالضم). ويقال: يدٌ صفرٌ أي خالية. والمعنى أنها غنى في يد المعدم، ولين في القلب القاسي.

(٣) زاوج بين بريق الخمر وكؤوسها من جهة، وشقرة أو نضرة المعاصم الرقيقة التي تقوم بسقايتها، من جهة ثانية. كما زاوج بين أثر الخمر وفعلها الناريّ في النفوس والقلوب التي تسكن المعشوق المتجمد القاسي..

(**) قيل لرجل ترك الخمر، لمَ تركتها وهي رسول السرور إلى القلب؟ فقال: ولكنها رسول يأس يُبعث إلى الجوف، فيَذهب إلى الرأس.

طَـرَحْـنـا غَـمـامَ الأَسـى لـلـسَّـمـاءِ ... فـرأسُ الـسَّـمـاء بـه شـائـبُ[١]
ومِـنْ عَـنـتِ الـراحِ تُـدْنـي الـمـنـى ... وتُـحـضِـرُهـا وأنـا (غـائـبُ)[٢]
لـهـا رقـةٌ كـدبـيـبِ الـسـكـرى ... فـلا غـروَ أن يـحـلـمَ الـشـاربُ

❁❁❁

(١) زاوج أيضاً بين غمِّ النفس قبيل الشراب، وغمام الفضاء الساحب في أفق السماء.. ولكنه غمام أبيض بعد أن وشّحته راحةُ النفس فانقشع هنا، وابيضّ في أديم السماء.
(٢) لا أرى معنى «لعنت الراح» بعامة؛ والعَنَتُ هو ما أكدهُ الشاعر لشرح العنت، من إدناء المنى وإحضارها في غياب شاربها.

الخمر والهوى

قال في غدر الهوى والخمر معاً:

[من الطويل]

رأيتُ الهوى والخمر سِيَّيْنِ غَدْرةً ... وليسا على قلبي الحزين بسِيَّيْنِ[1]

إذا أتوارىٰ يَطْلبانِ فضيحتي ... فتظهر في وجهي ويظهرُ في عيني[2]

❁ ❁ ❁

وقال في توحيد الخمر والحب:

[من مجزوء الرمل]

نظروا الكأسَ فقالوا ... إنها دمعةُ صبُّ

قلتُ بل ذاكَ فؤادي ... ذابَ من نيرانِ حبي

فاعذِروني في هواها ... إنما أشربُ قلبي

❁ ❁ ❁

وقال في مراسم شُربها وتشييعها:

[من الكامل]

إنْ كنتَ قاتِلَها فبالأنداءِ ... أو كنتَ دافِنها ففي الأحشاءِ

واحمِلْ جَنازَتها على عُنُق الصَّبا ... واقطَعْ لها كَفَناً مِنَ الظَّلماءِ

وادْعُ الحَمَامَ ينوحُ ساعة دفنها ... واغسِل زُجَاجَتَها بماءِ بكائي

ولها عليكَ وَصيَّةٌ مَرْعِيَّةٌ ... أن لا يشيِّعَها سوى الندماءِ

عَذْراءُ باركها المسيحُ كأنها ... نَفسٌ تنفسها فتى العذْراءِ(*)

بينا تُعادُ الروحُ للأمواتِ إذْ ... هيَ تَخمِدُ الأرواحَ في الأحياءِ

---

(١) السِّيُّ: المِثْل والنظيرُ للمذكر والمؤنث، ويُثنّى، ويجمع فيقال: سِيَّان، وأَسْواءٌ.

(٢) أدخل (إذا) على المضارع والأَوْلى إدخالُ (إنْ) الشرطية، أو (لو). وقوله: «فتظهر في وجهي» كنى بذلك عن الخمر ذات اللون المتورِّد. و«يظهر في عيني»: كناية عن الحب الذي يرتسم في العينين بصورة لافتة.

(*) أسقط البيت من طبعة بيروت.

وإذا أدرتَ صحونها نَظَروا لها ... فكأنّها في دعوةِ البخلاءِ
خُذْها بثاري إنها شربتْ دمي ... ودمي عزيزٌ يُفتدىٰ (بدماءِ)
فتّانةٌ بمزاجها فكأنه ... لمعُ السرابِ تلوحُ في الرمضاءِ
يا وجنةَ الحَسْناءِ ضرَّجها الحيَا ... لم أدرِ أيُّكما من الحَسْناءِ؟
يا ريقةَ اللمياءِ تَلْعبُ بالنهى ... لم أدرِ أيُّكما مِنَ الصَّهباءِ[١]؟
راحٌ ورَوْحٌ كأسها، أم تلكَ من ... نارٍ ونورٍ، أم شهابِ سماءِ[٢]؟
ومُدامةٍ أم لوعةٍ أم دمعةٍ ... حَمْرا جرَتْ من (أعينٍ بيضاءِ)[٣]
أسماءُ خُصِّصَ عِلْمُهنَّ بآدمٍ ... يا ليتَ لي عِلْماً من الأسماءِ[٤]

❁ ❁ ❁

وقال يصف راقصة فريدة من نوعها، مُشارفاً آفاقاً من التصوير الفنّي الموحي:

[من مجزوء الرجز]

يا لَلْهوى والغَزَلِ ... من العيونِ النُجُلِ
من الظِّبا لا كالظِّبا ... من مرَحٍ وكَسَلِ[٥]
من المهى لا كالمهى ... في الحدَقِ المكتحِلِ
من الدُّمى لا كالدُّمى ... في حُسْنِها المُكْتملِ
أقبلْنَ يختَلْنَ فلم ... يكنَّ غيرَ الأَسَلِ[٦]

---

(١) اللمياء، المرأة ذات الشَّفَةِ اللمياء، أي السمراء، وهي صفة جمالية. **والنهى**: العقل. **والصهباء**، من أسماء الخمر.

(٢) الراح، الخمرُ، والروح (بفتح الراء) الريح الطيبة. وقد تكون (بالضم) حياة النفس. والنَّور (بفتح النون) الزهر الأبيض، وقد تكون (بضم النون) وهو الضوء. وشتان ما بين النار، التي هي لهب محرق ومصدر المواد المشتعلة، والنور، الذي هو ضوء ساطع!

(٣) كنى (بالأعين البيضاء): المكفوفة البصر. ومن طبيعتها الدمع الأحمر أو ما شابَهَ.

(٤) إشارة إلى فحوى الآية القرآنية ٣١ من سورة البقرة: **﴿وعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّها ثُمَّ عَرَضَهُم على المَلَائِكَةِ﴾**.

(٥) أراد أنهن يشاركن الظباء في جمال العيون، لكنهنَّ غيرَها رفعةً وتميُّزاً... وكذلك قوله اللاحق، في المهى، جمع مَهاة، وهي البقرة الوحشية.

(٦) الأسلُ، واحدتُها: أسَلَةٌ. وهي رأس السِّنان. كنّى بذلك عن نفاذ جمالهن في النفوس نَفاذَ رؤوس الرماح في الأبدان.

ثم نظرنَ نظرةً ... معقودةً بالأجَلِ[1]
ثم انسربنَ من هنا ... ومن هنا في سُبُلِ
منفرداتٍ وَجَلاً ... يا طيبَ هذا الوجَلِ!
مبتعداتٍ خجَلاً ... يا حسنهُ من خجَلِ!
ثم التقينَ كالنقا ... ء أملٍ بأملِ
مؤتلفاتٍ جذَلاً ... وهنَّ بعض الجَذَل[2]
مختلفاتٍ جَدَلاً ... والحسنُ أصلُ الجدَلِ[3]
هذي تُغيرُ هذهِ ... بحَلْيها والحُلَلِ[4]
وتلك من زينتِها ... زينتُها في العَطَلِ[5]
تنافسا والحُسْنُ للـ ... حسانِ مثلُ الدولِ
ثم انبرتْ فاتنةٌ ... تميلُ مَيْلَ الثَّمِلِ[6]
تُنهِضُ خَصْراً لم يزلْ ... من رِدفها في مللِ
تهتزُّ في كفِّ الهوى ... هزَّ حسامِ البَطَلِ
قائمةٌ قاعدةٌ ... جائلةٌ لم تَجُلِ[7]
كالشمسِ في ثباتها ... وظلُّها المنتقلِ
دائرةٌ في فَلَكٍ ... من خصرِها والكَفَلِ[8]

---

(١) «معقودة بالأجَل»، مختلفة المعنى والإيحاء، إمّا لمبلغ التأثير الجمالي «القاتل»، وإما نظرةٌ محدَّدةُ الأجَل، وإمّا غير ذلك!!

(٢) مؤتلفاتٍ جَذَلاً = أَلَّفَ بينهنَّ الفرحُ الغامر. وليس ذلك وحسب، بل هنَّ جزء من هذا الفرح، ليقول إنَّ ما هنَّ فيه أكبر من طاقاتهنَّ وأوسَعُ.

(٣) هل يريدنا الرافعي أن نقول بنظرية الجدلية في المسألة الجمالية؟ لا أراه بعيداً عن هذا التصور، فهو خبير جمال، محيط بثقافات إنسانية واسعة؛ فالجمال ليس هيئةً جامدة، بل متحركة، وحركتها ليست انتقالاً مكانياً وتغيراً في الموضع، بل تفاعل وتعاقب بين أحوال غير منظورة، وتطور مستمرٌ نحو السكينة الوجدانيّة. فنعم التصور والتصوير!!

(٤) الحَلْي والحُلِيُّ: المصاغ من الجواهر الثمينة. والحُلل، ج: حُلَّة: الأثواب الفاخرة.

(٥) العَطَلُ: التجردُ من زينة المصاغ وخلافه.

(٦) الثَّمِلُ: السكران.

(٧) لم تَجل من: جال، إذا سار في غير طريق.

(٨) الكفلُ: المؤخرة، وفيها الرِّدفان.

وصدرُها كالقصر شِيـ ـدَ فوق ذاكَ الطلَلِ[١]
وخصرُها كزاهدٍ منقطعٍ في (الجبلِ)[٢]
يَهزُّها كلُّ أنيـ ـنٍ مِنْ شَجٍ ذي عِلَلِ[٣]
فهي لِنَوْحِ العودِ ما زالتْ ولمَّا تزلِ[٤]
كأنَّه من أضلعي فإنْ بكى تضحكُ لي
كأنها عصفورةٌ وانتفضتْ من بلَلِ
ترتجُّ كالطير غدا في كفَّةِ المحتبِلِ[٥]
تهتزُّ لا من خبَلٍ وكلُّنا ذو خَبَلِ
تلهو ولا مِن شُغُلٍ وكلُّنا ذو شُغُلِ
ناظرةٌ في رَجُلٍ مُغْضِيةٌ عن رجلِ
من حاجبٍ لحاجبٍ ومُقْلةٍ لِمُقَلِ
كالشمسِ للعاشقِ والـ ـشعرُ له كزُحَلِ
باسمةٌ عابسةٌ مثلَ الضُّحى والطَّفَلِ[٦]
واثبةٌ ساكنةٌ مالتْ ولمَّا تَمِلِ
بينا تقولُ اعتدلتْ تقولُ لم تعتَدِلِ
وقد تظنُّ ابتُذِلتْ فينا ولم تُبتَذَلِ[٧]

---

(١) صورة مكتنفة بالغموض، تحتمل كثيراً من المعاني.. فأي قصرٍ وأي طلَلٍ؟ إنه التصور المتداعي في مخيلة الرافعي!!

(٢) من معاني الزهد: الانقطاع عن ملذات الدنيا والانصراف إلى الآخرة، فهل استعار الشاعر منه ضعف البدن ونحوله أم وقفَه (أي الخصر) على الجمال والتفرغ لحالٍ اعتزالية بالغة الإخلاص والرقة؟؟

(٣) شَجٍ: صفة منكرة للشجيِّ الذي هو الحزين، الشاكي من سوء الحال.

(٤) لا فرق بين «ما زالت» و«لما تزل» واحدة حشو للأخرى، جيء بها فقط لاستتباب الوزن.

(٥) المُحتبِلُ: القائم بصيد الطيور بنوع من الحِبالة التي تشْبهُ المصيدة، وفي هذا التشبيه توضيح لنوع الحركات التي تقوم بها هذه المرأة الراقصة التي بهرت الشاعرَ، فتفتَّقَتْ له خياله الفني وطاقاته الإبداعية.

(٦) الطَّفَلُ: إقبال الليلِ على النهار بظلمته.

(٧) الابتذال في الحياة، الخروج عن جادة الرصانة والتجويد، والابتذال لدى المرأة، انحطاط في السلوك. وهو هنا، مستوى متدنٍ من الرقص، والشاعر يجعلها في منزلة بين الابتذال وعدَمه، أو كما قال ابن الرومي في وصف وحيد المغنِّية:

«تتغنَّى كأنها لا تُغنِّي من سكون الأوصال، وهي تُجيدُ»

تُمَثِّلُ الذي درَتْ شفاهُها مِن قِبَلي
فَعَجِلٌ في مَهَلٍ ومَهَلٌ في عَجَلِ

❁ ❁ ❁

وقال في روضة أمضى في ظلالها سحابة نهاره فيما يشبه الحلْم:

[من الرمل]

روضةٌ باكَرْتُها في فتيةٍ خَصَّصُوا لِلَّهو ما قد خَصَّصُوا
طَرِبَتْ أعضاؤها حتى انثنتْ عندما قام النسيمُ يرقصُ
وذُكَاءَ كحَمَامٍ رفرفتْ حينما أفرجَ عنها القفصُ[١]
والغواني كالظِّبا في حرصِها غير أن القانصين أحرَصُ
فلَهونا ثم عُذْنا وكذا كلُّ شيءٍ بالتمام ينقصُ[٢]
وكأنَّ الصبحَ كان فرصةً وسريعاً ما تمرُّ الفُرَصُ

❁ ❁ ❁

وقال في مرجة من الزهور:

[من مخلّع البسيط]

ألا ترى الزهرَ في رباهُ كأنهُ قلبيَ السليمُ
كأنَّ أغصانهُ الحَسواني هذا وليٌّ وذا يتيمُ[٣]
تعاشقتْ مثلما ترانا هذا صحيحٌ وذا سقيمُ
وكلما تنثني غِضاباً يُصلحُ ما بينها النسيمُ

❁ ❁ ❁

وقال في طبيعتَيِ البحر والسماء، في لوحةٍ متعددة الوجوه والآفاق:

[من البسيط]

على السماءِ وفوق الشمسِ أشعاري وتحتَ أصدافِ هذا اللُّجِّ أفكاري
(وبينَ تلكَ وهاتا قد جرى قلمي) بمُعجزِ الوصفِ مِنْ درٍّ وأنوارِ

---

(١) ذُكاء، الشمسُ. وابنُ ذكاءٍ: الصبحُ. وقوله: «أفرجَ عنها القَفَصُ» مجاز عقليٌّ علاقته المكانية أو ما هو قريب من ذلك. فالقفص لا يُفرِج، بل هو المكان الذي يتم الإفراج فيه.

(٢) عجز البيت صدى بيِّن لبيت أبي البقاء الرندي، وهو مطلع قصيدته النونية التي يرثي بها بلاد الأندلس:

لِكلِّ شيءٍ إذا ما تَمَّ نقصانُ فلا يُغَرَّ بطيب العيش إنسانُ

(٣) الحواني، مفردها حانية: المنعطفة تجاوباً وتأثراً. والوليُّ ـ هنا ـ القائم بأمر اليتيم، المتدبر شؤونه..

أرى جمالاً تعالى أنْ أُلِمَّ بهِ ... وجلَّ خالقُهُ من مُبْدعٍ باري

كأنما الكون غيداءٌ مُحجَّبةٌ ... تُطِلُّ مشرِفةً من خلفِ أستارِ

فالبحرُ مقلتُها والبَرُّ حاجِبُها ... من فوقهِ جبهةٌ زِينتْ بأقمارِ

أو كانَ ذا البحرُ ديباجَ السما وقد انـ ... ـحلَّ الوشاحُ فهيا صدرُ السما عاري

أو هذه لبِسَتْ من ليلها حُللاً ... ومن كواكبِها زُرَّتْ بأزرارِ

أو إنما الشمسُ ظَنَّتْ أنها خَطفتْ ... بالحُسْنِ أبصارَ قومٍ دونَ أبصارِ

وحَالتِ الأرضُ داراً للسما فلذا ... أقامتِ البحرَ مرآةً بذي الدارِ (١)

يا مَسْكنَ الشُّهُبِ الزهراء كم عَجَبٍ ... بمعدِنِ الدُّررِ الغرَّا وأسرارِ

إن تحملي فلكاً قد دار دائرهُ ... فدونكِ اللجُّ دوَّارٌ بدوَّارِ

كلاكُما حَسَنٌ والحُسْنُ بينكما ... كالروضِ يأرجُ من أشتاتِ أزهارِ (٢)

إني أرى الشمسَ تحتَ البحرِ مُطْفأةً ... والماءُ ما زالَ ذا بأس على النارِ

كأنما هوَ كفُّ الأرضِ قد بُسطتْ ... إلى السماءِ فجادتها «بدينارِ» (٣)

أو غاصتِ الشمسُ تحتَ اللجِّ هاربةً ... فما على الناسِ من همٍّ وأكدارِ

ألستَ تبصرُها صفراءَ جازعةً ... وقد خبا زندُ تلكَ الشعلةِ الواري؟

تَشَبَّهَ الناسُ طُهراً بالملائكِ مِن ... خُبْثِ الضميرِ وكانوا غيرَ أبرارِ

والبحرُ أُفقُهمُ مِن إفكِهمْ وكذا ... لا تحملُ الأرضُ إلَّا كلَّ غرَّارِ (٤)

لو أنصفوا لرأوه في تَلجُّجهِ ... على البسيطةِ كالمستأسدِ الضاري (٥)

لكنَّ مَنْ أَلِفَ الأنغامَ مَسْمَعُهُ ... يَخالُ كلَّ زئيرٍ نَفْخَ مزمارِ

ما لِلخِضَمِّ أراهُ كاشراً فزِعاً ... يُخدِّشُ الأرضَ من لُجٍّ بأظفارِ؟

مجرِّداً، في تدَجِّيهِ، صفيحتَهُ ... مستوفِزاً بينَ بتَّارٍ وتيَّارِ (٦)

---

(١) حالت الأرضُ: أضحتْ. «وأقامت البحرَ مرآةً»: جعلته كالمرآة بهذه الدار التي جعلَ الشاعرُ الأرض داراً، وهذا النوع من الوصف التشبيه، يسمى «مراعاة النظير».

(٢) يأرجُ: يَضوعُ أرجُه، وينتشر في الأرجاء.

(٣) صوَّر الشمس الغاربة خلف الماء بدينار من الذهب المتلألئ.

(٤) الغرَّارُ: المغرور، الجاهل، الأحمق.

(٥) التلجُّجُ: حال البحر في ارتفاع أمواجه وتعاظمها.

(٦) الصفيحةُ، السيف. ومجرِّداً: شاهراً، مُنتلاً. والتدجِّي: اشتداد ظلمة الماء بسبب جبال الموج المتعالية.

يـقـيـمـهُ الـمـوجُ حـرْداً ثـم يُـقْـعِـدُهُ ... مـا بـيـنَ مـنـسـحـبٍ مـنـهُ وجـرَّارِ

والأُفـقُ مـكـتـئـبٌ حـيـنـاً ومـبـتـسـمٌ ... مـا بـيـنَ لـيـلٍ دجـوجـيٍّ وأسـحـارِ

يـا أيـهـا الـنـاسُ إن الـبـحـرَ مَـوْعِـظـةٌ ... وضـجـةُ الـبـحـرِ لـيـسـتْ غـيـرَ إنـذارِ

فـكـمْ عـلـيـكـمْ بـهِ لـلّـهِ مـن حُـجَـجٍ ... هـل يُـغـفـر الـذنـبُ إلا بـعـدَ أَعـذارِ؟[1]

الـبـحـرُ أَلْـيـنُ شـيءٍ مَـلْـمَـسـاً، فـإذا ... خـاشَـنْـتُـمـوهُ بـلَـوْتُـمْ أيَّ جـبَّـارِ

ولـو تـسـانـدَ كـلُّ الـخـلـقِ مـا قـدَروا ... أن يـحـبـسـوا مـوجـةً مـن مـوجـهِ الـجـاري

فـكـيـفَ يُـجـحـد ربُّ الـبـحـرِ قُـدْرتَـهُ ... وذلـكـم أثـرٌ مـن بـعـضِ آثـارِ؟

آمـنـتُ بـالـلّـهِ مـا شـيءٌ أَراهُ سُـدى ... لـكـنـهـا حِـكَـمٌ تـجـري بـأقـدارِ

❁ ❁ ❁

(١) وفي الطبعة المصرية: «والذنبُ يُغفر إلا بعد أعذارِ». (جـ٢/ ص٦٧).

وهذا فصْل

كتبهُ في رَمْلِ الإسكندرية يصفُ ساعةً أقامها هناكَ يوم الأحدِ. وإنما ذكرناهُ في هذا الموضعِ لمناسبةِ ما جاء فيهِ من وصفِ البحر والسماءِ؛ وهو نموذجٌ من كتاب (مَلَكةُ الإنشاءِ) الذي يضعهُ الآن [أي عند صدور هذا الكتاب عام ١٣٢١هـ].

يومُ الأَحدِ ما يومُ الأحدِ؛ كأنَّ بناتِ الأرضِ قد حسدنَ بناتِ السماءِ، فلا تزالُ كلُّ مليحةٍ تنظرُ إلى نفسها، وتنتظرُ ما بعْدَ أمسِها، حتى تقومَ سوقُ الحسْنِ فيهِ على ساقها، وتَشتبكَ أنجمُ السماءِ والأرضِ بأحداقِها، فتدورَ رحَىٰ[1] القتال، بين رباتِ الجمالِ، ويقفَ الحسْنُ والهوى بين السماءِ والأرضِ، وِقْفَةَ المَلَكين للشهادةِ في يوم العَرْضِ[2]، ولو خُلِقَ الشهرُ إنساناً، لما كانَ موضعُ عينيهِ، وبينَ جنبيهِ، غيرَ أربعةِ أيَّامِ الآحادِ.

هبَّ النسيمُ، وتوارتِ الشمسُ عاصبةَ الجبينِ، صفراءَ من الجزعِ على بناتها، وكأنما أرادتْ أن تَختجِبَ عن الأرضِ، حتى تضعَ تلكَ الحربُ أوزارَها[3]، وتفضحَ نسماتُ الصبحِ أسرارَها؛ فانكفأَتْ إلى الغربِ وغادرتْ من إشفاقِها على الأفقِ شَفقاً[4]، ونثرتْ أقداحَها التي تَحْسو بها النورَ على السماء، فكانتْ حَدَقاً. وكأَنَّ الغواني خِفنَ على جمالهنَّ من الليلِ، خوفَ الغبار على الذيل، وأشفقنَ أن تُزهر في ظلمتِهِ نجومُ السماءِ، وتتبين بضدِّها الأشياءُ؛ فنَسخْنَ آيَتهُ بآيةِ الكهرباءِ، وأوحَيْنَ إلى الأفق بألسنةِ الضياءِ، وقلنَ للقمر: أينَ أنتَ من ذُكاء، وللنجومِ أينَ خِرافُ «الخضراء»[5] من الظباء؟

---

(١) الرحى، والرحا (بالألِفَيْن): عصا غليظة أو أداة يُدار بها حَجَران مستديران ثقيلان، الواحد فوق الآخر، يوضع بينهما الحب لطَحْنه. ويُدار الأعلى على قطب. ويجمع على أرحاء وأرْحية..

(٢) يوم العَرْضِ: يوم الدينونة حيث تُعْرَضُ أعمال ابن آدم أمام ربه لمحاسبته.

(٣) وضعت الحربُ أوزارها، صيغة لغوية تعني: انتهاء الحرب. والأوزار، ج، وِزر: الأحمال الثقال.

(٤) الشفق، وقت مغيب الشمس حيث الحمرة الضوئية، وتستمر حتى حلول العشاء.

(٥) الخضراء: صفة للسماء. وفي الحديث: «**ما أظلَّتِ الخضراءُ ولا أقلَّت الغبراء [الأرضَ] أصدقَ** =

وإذا كان في يوم الجمعة ساعةٌ تُستجاب فيها الدعواتُ، فإنَّ في يوم الأحدِ ساعاتٍ، يدعو فيها العشَّاقُ، ويَضْرَع بنو الأشواقِ؛ فمِنْ ساقٍ تلتفُّ، وعينٍ تَلتفتُ، ومن نَحْرٍ على نَحْرٍ، وبَنانٍ رَخصٍ[1] على خصرٍ، وغَنيٍّ يميل على غانية، وعانٍ يشكو بثه على عانية[2]، وقد كفى البحرُ العيون إذا كان لا بدَّ في الهوى من عينٍ تدمعُ، وطلعَ القمرُ إذا لم يجدِ العاشقانِ مفراً من رقيبٍ يمنع.

ولقد رأيتُني بين الحُورِ والوِلْدانِ، أَنقلبُ من يَمنةٍ إلى يسرة، بين غصَّة وحسْرة وهكذا الشاعرُ ينظرُ، ولا يَقْدِرُ، ويشتهي، ولا ينتهي، ويَعِفُّ، حين يقف، وعليهِ الوصفُ ولغيره ما يصف.

أما السماءُ فقد أسفرَتْ عن بَدْرِها؛ وهي كالفكرِ تلألأتْ فيه المعاني، وكشفتِ الأرضُ عن صدْرِها، وهو كالقرية ارتفعتْ فيهِ من ثَديها الأمواجُ كالمباني، فأقبَلَ البدرُ، يضحك من البحر؛ وما كاد يفترُّ ثغرُهُ حتى ضاءَتْ بنورهِ الأفق[3]، وظهر وجهه حَسنَةً في صحيفة الغَسق؛ فإن كانت المَلاحةُ في الأعين السوداء، فقد جمعها البدرُ في عينهِ البيضاء، ووعاها البحرُ في مقلتهِ الزرقاء، ولكلٍّ حُسْنٌ، وكلُّ طائرٍ على غُصْن.

وخرج بعد ذلك صدرُ البحرِ فهو يَقومُ ويَقعد، ويُرغي ويُزْبِد، يَضْربُ موجةً بموجة، ويَلُفُّ إلى لُجَّةٍ لُجَّة. إن يُولد منهما كهرباء يَصفرُّ لها وجهُ القمر. ومِنَ السفاهة أن يناظرَ «الملحُ» السكَّرَ وإن كانَ كلاهما أبيضَ، وكم بينَ المِسْكِ والفَحْمِ، وهما من جِلْدةٍ سوداء!

ثم حَنِقَتْ عليه السماءُ، فما بَرِحَتْ تُرسلُ من أنجمها إلى كَبِدهِ سِهاماً، تحاولُ أن تُخرجَ الشمسَ التي ابتلعها، وتَردَّ إلى تاجهِ الجوهرةَ التي انتزعها، فتستكملَ بذلك جمالها، وتسحبَ على هامةِ الأرضِ أذيالها، والماءُ يطفئُ النارَ لكن لا يُطيقُ خيالها.

ولقد وقفَ الليلُ، وهو يُحَدِّجنا بمقلةِ سُهَيْل[4]، فلا يرى إلا قلباً يرفُّ على

= من أبي ذَرٍّ» أي أبي ذَرّ الغفاري، الصحابي المعروف. ووصفت السماء بالخضراء لخضرتها (لسان العرب [خضر] ٤/ ٢٤٥).

(١) هكذا جاء، والصواب: رخصةٍ، كون «البَنانِ»: أطرافَ الأصابع، واحدته: بَنَانَةٌ. والرخْصُ: الناعم.

(٢) العاني: المتعب، المجهد، من: عَنِيَ عَناً وعَناءً؛ والجمع عُناة.. وعدَّى «يشكو» بـ«على» والصحيح: يشكو إلى..

(٣) أنَّثَ الأفق، عملاً بالقاعدة اللغوية النحوية التي تسمح بتذكير كل اسم لا روح فيه، أو تأنيثه.

(٤) يُحدِّج بنظره: يُحِدُّ ببصره ويُحدِّق. وسُهيل، أحد النجوم اليمانية الثمانية. قيل إنه عند طلوعه تنضج الفواكه. (لسان العرب [سهل] ١١/ ٣٥٠).

حُسْن، «وطائراً» يقف على غصن، وفرحاً يبعثهُ فرح، وقدَحاً يمشي به قَدَحٌ؛ فما زالَ يتميزُ حتى كاد ينشقُّ، وحينَئذٍ زفرَ زفرةً غادرتِ الهناء كالهَبَاء، وعصفتْ بها ريحٌ شابَ لِهَوْلها رأسُ البحرِ، وقَذِيَت[١] برمالها عينُ البر، فانتشرتْ هنالكَ أذيالُ الغانياتِ كالطواويس، ودَقَّتْ قلوبُ العاشقينَ كالنواقيسِ، وانفلتَ القَنَص[٢] من حبالةِ القنَّاص، وتبدَّد الدرُّ من يد الغواصِ.

❁ ❁ ❁

(١) قَذيَتِ العينُ: أُصيبت بالقَذى، وهو كل ما يقع فيها من قَشٍّ وأعواد ونحوها.. مما يجعلها تقذف بوسخها الذي يكون في مجرى الدمع.

(٢) القنصُ: الصيد، وهو كل ما يقع في حبالة الصائد.

في المديح

قال، يهنئ صاحبَ الجلالةِ الأعظم مولانا أميرَ المؤمنين: السلطانَ عبدَ الحميد خان، أيده الله ورعاه؛ وذلك بيوم جلوسه الميمون لسنة ١٩٠٣:

[من البسيط]

يومٌ بهذي الليالي يُشْبهُ القمرا ... فإن رأى حَلَكاً في أفقها سفرا[١]

تخالُها ورقاً إن خلْته ثمرا ... والعامَ غُصْنَهما والأزمنَ الشجرا[٢]

ما زال فيهِ بريقُ التاجِ من قِدَمٍ ... واللحظُ يزدادُ سِحْراً كلما فتَرا

يومٌ جلا غُرَّةً في المجدِ سائلةً ... تناظرُ الشمسَ إن قاسوا بها الغُرَرا[٣]

مرآةُ فكرِ مليكٍ فوقها انعكستْ ... أنوارُهُ كغديرٍ مثَّل القمرا[٤]

يُضاحِكُ التاجُ منها لمعةً سطعتْ ... من الجلالة يغشى ضوءُها البصرا

«عبدَ الحميدِ» بهرتَ الخافقَيْنِ فما ... ندري أبرقاً تُرِينا أم نرى فِكَرا؟

إنْ تَغرسِ الرأيَ فالتسديدُ زَهرتُهُ ... وإنْ هززْتَ القنا أَجْنَيْنَكَ الظَّفَرا

ما بينَ سِلْمٍ وحربٍ أنتَ ربُّهما ... تركتَ هذا الورى في مأمنٍ حذِرا

فلو تشاء أمرتَ النار فانطفأتْ ... ولو تشاءُ زجرتَ الماءَ فاستعرا

تصرُّفُ الأمرَ تصريفاً كأنَّ على ... أَمْرِ القضاءِ الذي تقضي به القَدَرا(*)

ومن يكنْ قلبُهُ في كل حادثةٍ ... عيناً لفكرتِهِ لا يخطئِ النظرا

---

(١) سَفَرَ: ظهر وانكشفَ. أو: أضاء وأشرقَ.

(٢) أي: (وتخالُ العامَ غصنَهما، وتخالُ الأزمن الشجرا)..

(٣) الغُرر، واحدتها غُرّة: بياض في جبهة الفرس. والغرّةُ: أول كل شيء وأكرمُه. وهي أيضاً الليلة الأولى من الشهر القمري.

(٤) **تشبيه على التشبيه**: يومُ جلوسه كمرآة أفكار الممدوح، التي تشع أنوارها كالمياه الراكدة الهادئة، وهي بدورها، شبيهة بالقمر، ثلاثة تشابيه متوالدة بعضها من بعض، إن لم يبدع فيها الشاعر، فقد سبقَ غيره في هذا المنحى.

(*) أسقط البيت من طبعة بيروت.

يا ضارباً بشَبا السيفِ الذي ارتعدتْ — له الممالكُ، أَطعِمْ سيفَكَ الجُزُرا![1]

لا تخشَ زلزالها إنْ عُصْبةٌ رجَفتْ — فمن يكنْ مِغْولاً لا يَرْهبِ الحجَرا[2]

إذا سيوفُكَ ظَنُّوها صوالجةً — فإنَّ أرؤسَهم كانت لها أُكَرا[3]

غرستَ عندهمُ نُعماكَ في سَبَخٍ — ومَن يلومُ على ريِّ الثرى، المطَرا؟[4]

وزارعُ الحَبِّ لا ينفكُّ يَبْذُرُهُ — وليس في وُسْعِهِ إنباتُ ما بَذَرا

أرى على الأرضِ جَرَّاراً له لَجَبٌ — تَخالُه الأرضُ أطواداً إذا انحدرا[5]

كأنه يومَ يَرْتَجُّ الوغى، شُهُبٌ — تساقطَ الجوُّ منها يَرجُمُ البشَرا[6]

من كل ليثٍ إذا حفَّزْتَه قطَرتْ — أنيابهُ واستطارتْ عينُهُ شررا[7]

يلقى صدى الموتِ في الآذان من فزعٍ — كأنما ثارَ يدعوه إذا زأرا[8]

أرى العنايةَ صفَّتْ جيشَهمْ كَلِماً — حروفُها قرئت: «ما زال منتصرا»[9]

أراهُ في الأرضِ معنًى لا نظيرَ له — فما أُكذِّبُ أن أدعوهُ مبتكَرا[10]

يا عرشَ (يلدزَ) أنتَ النجمُ لا عطَلتْ — منك السماءُ التي أفلاكها الوُزَرا[11]

---

(١) الشَّبَا، واحدته شَباةٌ: حَدُّ السيف وطرفُه. و«أطعم سيفك الجُزرا» استعارة مجازية مؤداها الدماءُ التي يريقها السيف في رقاب أهل الجزر. مشبهاً السيف بالوحش الضاري الذي يقتات بالأنفس.

(٢) رجفت العصبةُ: اضطربت وقامت بحركة مريبة.

(٣) الصوالجة، مفردها صَوْلَج وصولجان: العصا المعقوفة أو غيرها، يحملها السلطان رمزاً لسلطته وملكيّته.

(٤) الأرض السَّبِخُ: التي تنزُّ ماءً مالحاً، أي أنك أنعمت عليهم وهم كالأرض السَّبخة، يرويها المطرُ من دون فائدة. شبَّههم بهذه الأرض، عقوقاً أو جحوداً.

(٥) الجرّارُ، صفة للجيش التركي الكبير عدّة وعتاداً. واللَّجَبُ: الصخّابُ بما يحدثه من أصوات الأبطال والجياد.. والأطواد، ج: طود، الجبال العالية.

(٦) الجوُّ: الفضاء الذي يمتد فوقنا في السماء، وفي هذه اللفظة، غنى صوريٌّ مُوحٍ، لما تحتمله من حالات شتى من التفسير والتأويل.

(٧) قطرتْ أنيابه: سال منها ما يتحلَّبُه الفم من سيلان الريق شغفاً بالافتراس والتمزيق. واستطارتْ شرراً: تطايرَ الشرر كألسنة اللهب تهبُّ عليه الرياح.

(٨) في صدر البيت صورة رمزية موحية، تكمن في صدى الموت ترسمه الآذان، كأنما الموت نايٌ حزينة أو أبواقٌ يُعزف فيها لحنُ الموت.

(٩) الكَلِمُ: الكلام. وهو أيضاً جمع كلمة.

(١٠) يشيد الشاعرُ بما جاء به من معنى جديد، كَمَنَ في وصفه الجيشَ الجرار كأوراق الكتاب وسطورها وكلماتها، وأنه صادق في زعمه لهذا الابتكار.

(١١) يلدز: هو المعروف بقصر «يلدز» مركز السلطان العثماني، إحدى آيات الفن المعماري في زمانه. ضمَّ في غرفه وطبقاته اثني عشر ألفاً من السكان.

غـدا بـك الـمُـلـك وَجْـنـاتٍ مـورَّدة وأعـيـنـاً مُـلـئـتْ أجـفـانُـهـا حَـوَرا
لا زلـتَ تُـشرقُ بـالـنـورِ الـذي اقـتـبستْ منـه الـعـروشُ نـجـومَ الـحـكـمـةِ الزُّهُـرا
كـذاكَ يُـلـقـي شعـاعُ الـشـمـس بـهـجـتَـه عـلـى الـقـواريـرِ حـتـى تُـشـبـهَ الـدُّرَرا

❁❁❁

وقال يهنئ الجنابَ العالي الخديوي[1] بيوم جُلوسهِ السعيدِ لسنةِ ١٩٠٣ :

[من البسيط]

عـرشٌ بـطـول مَـدارِ الـسـبـعـةِ الـشـهُـبِ والـشـمـسُ فـي تـاجـهِ لا حـلـيـةُ الـذهـبِ
حَـيِّ الـزمـانَ بـكـفٍّ الـعـزُّ مـالـكُـهُ فـصـافـحـتْ مـنـهُ كـفُّ الـمـجـدِ والـحـسَـبِ[2]
عـلـى جـوانـبـهِ نـورٌ تـلألأ مـن نُـورِ الأمـيـرِ وأجـدادٍ لـهُ وأبِ[3]
يُـدْنـي الـنـفـوسَ وتُـقْـصـيـهـا مَـهـابـتُـهُ كـزخـرفِ الـشـمـسِ فـي الـهـنـديـةِ الـقُضُبِ[4]
ومـا رأى وجـهَ «عـبـاسٍ» يـقـابـلـهُ إلا تـهـلّـلَ بـيـنَ الـتـيـهِ والـعـجـبِ[5]
مـولايَ: إنَّ بـيـومٍ قـد رَقِـيـتَ لـهُ مـن رحـمـةِ الـلّـه سـرّاً بـانَ لـلـحِـقَـبِ[6]
يـومٍ تَـمـنَّـتْـهُ مـصـر قـبـل سـوّغـهـا الـ ـلّـهُ الـمـنـىٰ وغـدَتْ مـوصـولـةَ الـسَّـبـبِ[7]
«عـبـاسُ» أسـعـدَهـا والـلّـهُ أيّـدَهـا والـدهـرُ مـجّـدَهـا بـالـعـلـمِ والأدبِ
فـامـتـدَّ جـانـبُـهـا واشـتـدَّ صـاحـبُـهـا وارتـدَّ خـاطِـبُـهـا عـن ذلـكَ الأربِ
والـنـيـلُ مـذ نـسَـبـوهُ لـلأمـيـر جـرى يـنـافـرُ «الـسِّـيـن والـتـامـيـزَ» فـي الـنـسـب[8]

---

(١) قصد بذلك الخديوي عباس حلمي بن توفيق إسماعيل، حفيد محمد علي الكبير، عاش ما بين ١٨٧٤ و١٩٤٤.

(٢) استخدم فعل «حَيِّ» بمعنى حيًا. وكلاهما في معنى واحد هو: قدِّمْ التحيّة التي تتضمن دعوةً للحياة.

(٣) كناية عن توارثه الملك والإمارة عن آبائه وأجداده، وصولاً إلى دولة محمد علي الكبير.

(٤) الهندية القُضُب: السيوف المنسوبة إلى الهند، وهي من أجود السيوف قوةً وفاعلية.

(٥) في البيت التباس في المعنى، نتيجة التركيب المقلوب. فمَنْ فاعل «رأى»؟ وما فاعلُ «يقابلُه»؟ أتُراهُ قصدَ إلى ذلك لإثارة التساؤل؟ والتأويل: (وما رأى وجهَ عباس، مَنْ رآه، وقابله، إلّا تهلّل . . .).

(٦) «رقيتُ له» يحتمل معنى الترقّي إلى الرتب المشرّفة، كأنما الذي رآه وعاشه الخديوي، قد رقيَ به إلى الرتب الرفيعة في الملأ الأعلى.

(٧) «سوّغَ اللّهُ المنى»: حقّقَها وأباحها لها.

(٨) «السين والتاميز» نهران أوروبيان، الأول في فرنسا، يخترق عاصمتها باريس، والثاني في انكلترا، يخترق عاصمتها لندن. . .

مـثـلُ الـعـروسِ إذا زُفَّـتْ تَـبَـخْـتَـرُ فـي ... اسـتـبـرقٍ عَـجَـبٍ أو سُـنْـدسٍ قـشِـبِ[١]

أو كـالـقـصـيـدةِ فـي مـدحِ الـعـزيـزِ إذا ... ما امتدَّ في الأرضِ مُدَّ الشعرُ في الكتبِ[٢]

يـا صـاحـبَ الـنـيـلِ يَـحـمـيـهِ ويـحـرُسُـهُ ... من كيدِ ذي غُلَلٍ في الصدرِ ملتهبِ[٣]

لـو يـسـتـطـيـعُ بـنـو مـصـرٍ لـقـد خـبَـأوا ... ذا الـنـيـلَ في كلِّ جفنٍ غيرِ منتحِبِ[*]

فـابـسـطْ يـديـكَ لـيـجـري لائـذاً بـهـمـا ... إنـي أرى الـرَّوعَ فـي آذِيِّـهِ الـصَّـخِـبِ[٤]

هـذي الـقـلـوبُ أَحـلَّـتْـكَ الـشَّـغَـافَ فـلـم ... تَـخْـفـقْ، وأنـتَ بـهـا، إلّا مـنَ الـطـربِ[٥]

وكـنَّ فـي مَـضَـضٍ لـم يـأْلُـهـا وَهَـجـاً ... والـيـومَ طِـبْـنَ ولـولا أنـتَ لـم تَـطِـبِ[٦]

أَفـزرْتَ مـصـرَ عـلـى ريـحٍ تُـكـفِّـئـهـا ... كـبَّ الـسـفـيـنـةَ فـي الـتـيـارِ والـعُـبُـبِ[٧]

وقَـيْـتَـهـا حـيـنَ لا أمـنٌ ولا رَغَـدٌ ... وجـئْـتَـهـا بـحـيـاةٍ وهـيَ فـي الـعـطَـبِ[٨]

فـكـنـتَ جُـنَّـتَـهـا مـن كـلِّ طـارقـةٍ ... وكـنـتَ جَـنـتـهـا فـي ربـعـهـا الـخـصِـبِ[٩]

أنـتَ الـنَّـجـابـةُ مـن آبـائـهـا ظَـهـرَتْ ... فـلـسـتُ أَعـجـبُ إن قـالـوا أبو الـنُّـجُـبِ[١٠]

سموتَ بالصاعِدَيْنِ الجَدِّ والحَسَبِ العا ... لـي وبـالـسـاعـدَيْـنِ: الـجِـدِّ والـطَّـلـبِ[١١]

---

(١) الاستبرقُ: الديباج الغليظ، والسندس: الديباج الرقيق.. وكلاهما منسوج من الحرير النقيّ. والقَشِبُ: الجديدُ.

(٢) العزيز، صفة للملِك الحاكم.

(٣) الغُلَل، مفردها غُلَّة: شدَّة العطش.

(*) ما أحسنَ احتراس الشاعر بقوله: (غير منتحب) لأنهم لو خبأوا النيل في الأجفان المنتحبة أي الباكية، لأضاعوه.

(٤) الآذيّ: الموج الشديد، جمع أواذيّ. والرَّوْعُ: الفزعُ.

(٥) الشَّغافُ: حجابُ القلب وغلافه.

(٦) المضَض: التألم والكره الشديد. ولم يألها: لم يُقصِّر في منحها الوهجَ.

(٧) أفزرْتَ وفزرْتَ: شققْتَ وأبلَيْتَ. تُكفِّئها: تقلِّبها. وكبَّ: مصدر كبَّ يكبُّ كبّاً: قلَبَ وألقى. والعُبُبُ: المياه المتدفقة.

(٨) العَطَبُ: الهلاكُ والفساد.

(٩) الجُنَّةُ (بالضم) كلُّ ما يَستُر ويغطي. وقد تكون: الدرع، والسلاحَ الواقي، ونحوهما. والجنَّة (بالفتح) الحديقة من الأشجار المثمرة والأزهار الجميلة.

(١٠) النَّجابةُ: كرمُ الأصل والحَسَب. والنجُب: جمع نجيب ونجيبة، وتجمع أيضاً على أنجاب ونُجَباء.

(١١) الجَدُّ (بالفتح) أبو الأب. والجِدّ (بالكسر)، العمل الدؤوب. وقد جانَسَ بمهارة بين الصاعدين (نسبة وائتلافاً مع السموّ في «سَمَوْتَ»، والساعِدين (نسبة إلى الساعد موضع القوة والإنتاج)).

فَـدُمْ لـمـصرٍ فـلـم يَـثْـبُـتْ سـواكَ لَـهـا صـدقُ الـعـزيـمـةِ والأيـام فـي كـذبِ[١]
إنَّ الـزمـانَ لـمـن جَـدُّوا عـلـى بَـصَـرٍ بالرأي وهْوَ على الساهينَ في اللعبِ[٢]

❁ ❁ ❁

وقال يمدح إمام الشرق وفيلسوفه العظيم، مولانا الحكيم الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية، أعزه الله. وبعث بها إليه في عيد الفطر سنة ١٣٢١هـ(*):

[من الكامل]

فَـلَـكٌ يُـطـلُّ فـهـل لـه عـيـنـانِ؟ إنَّ الـكـواكـبَ فـيـه كـالأجـفـانِ
نـظـرَ الأنـامَ فـلـم يَـزل مـتـرنـحـاً أتُـراه يُـعـجَـب مـن بـنـي الإنـسـانِ؟
وجَـرىٰ ولـو بـلَـغَـتْـه أنـفـاسُ الـورىٰ ألـهـاه مـا حـمَـلَـتْ عـن الـدورانِ
إنـي أرى الإنـسـان سـرًّا غـامـضـاً والـكـونُ مـا يـنـفـك فـي كـتـمـانِ
شـيءٌ أرادَ الـلّـهُ فـيـه إرادةً حـجـبـتْ حـقـيـقـتَـه عـن الأذهـانِ
هـذا لـذاك أخٌ فـإن يَـعـرِضْ لـه أمـلٌ تـنـاكـرَ عـنـده الأَخَـوانِ
بـئـس الـزمـانُ تـرىٰ بـنـيـه كـأنـمـا لـلـمـرء فـي نـيَّـاتـه قـلْـبـانِ
إنَّ الـسـرائـر كـالـوجـوه، أمـا تـرَىٰ هـذي الـوجـوهَ كـثـيـرةَ الألـوانِ؟
وكـذا الـنـفـوسُ مـعـادنٌ لـكـنـمـا قِـيَـمُ الـنـفـوس مـآثـرُ الأبـدانِ
والـمـرءُ إنْ عُـدَّ امـرأً بـوجـودِهِ كـان الـجـمـادُ يُـعَـدُّ فـي الـحـيـوانِ
مـا الـنـطـق فـي الإنـسـان، لـولا عـقـلُـه سـبـبـاً يُـفـضِّـلـه عـلـى الأكـوانِ
هَـذْرُ الـطـيـور، لُـغـاتُـهـا كـلـغـاتـنـا وَنَـعُـدُّهـا ضـربـاً مـن الـهَـذَيـانِ
والـنـاسُ مـمـلـكـةُ الـعـقـول وبـعـضُـهـم تَـجـدُ الـعـلـومَ عـلـيـه كـالـتـيـجـانِ
والـدهـرُ أزمـنـةٌ، لـكـلِّ عـزَّةٍ مـن أهـلـه «ومـحـمـدٌ» لـزمـانـي

---

(١) في طبعة بيروت: «لم يُثْبَتْ»؛ وفي ذلك ضعف في المعنى والقصد، إذ جعله مُثْبَتاً، بغيره. وفضلنا «يَثْبُتْ» بصيغة المعلوم، ويكون هو الثابت بذاته. وفي عجز البيت خلل في تركيب الكلام وإعرابه، ولا معنى لما جاء به..

(٢) أي أنَّ الزمان يُقَدِّر أهل الرأي والمثابرة، وينصرفُ عن اللاهين الساهين في ملذات دنياهم.

(*) أسقطها المحقق الجهبذ من طبعة بيروت، ظناً منه أن الإمام محمد عبده أحد المارقين الضلّال في هذا العصر..

القائدُ الأفكارَ في مَيدَانِها   والعِلمُ زاويةٌ من المَيدانِ

والمنتضي سيفَ الهداية بعدَما   قد كان في غِمْدٍ من القرآن

يَفري بحدَّيْه الضلالَ ولم يكن   حدَّاه غيرَ يَراعةٍ ولسانِ(١)

مولاي أمسىٰ الدينُ مما بدَّلوا   فيه كمرقَعةٍ من الأديان(٢)

ثَقُلوا وخفَّ سواهُمُ فلذا غدَوْا   في الكفة السفلى من الميزانِ

والناسُ في عملٍ وهُمْ في ضجةٍ   مما فلانٌ قد روىٰ لفلانِ

فانْضُ اليراعَ فإن للسيف الجسو   مَ ولليراعة أنفُسُ الإنسانِ(٣)

يَجري بكفك حيثما أجرَيْتَه   حِكَماً ويَقطُر من حِجًى وبَيانِ

مرهوبُ هاتيك الشَّباةِ كأنها   قدرٌ تمثَّلَ في حديدِ سِنَانِ

وتَراه مما امتصَّ من مُهجِ القلو   ب يظل يَحكي القلبَ في الخفقانِ

فادفعْ به عن أمة قد هدَّها   أبناؤها وطوارقُ الحَدَثانِ

إنَّ الزمانَ على الجبان غضنفرٌ   وعلى الغضنفرِ فيه نَفْسُ جبانِ

ولقد أراك وأنت أكرمُ منزلاً   في الناس مثلَ العين في الأجفانِ

وأرى رجالَ العقل كالألفاظ تحـ   ـت، عقولهم مما أفدتَ، معاني

وحلَلْتَ في قلبي، فمدحُك شيمةٌ   حملَتْ عليه خلائقُ الإيمانِ

هيهاتَ تُنكِرُ والحواسدُ يُطرقو   ن لأحرُفِ اسْمكَ عند كل أذانِ(*)

والشمسُ تَظهرُ للعيون جليةً   وشعاعُها رُسُلٌ إلى العميانِ

ذَرْهم فإنَّ محاسنَ الطاووس فيـ   ـما قيل، أصلُ حماقةِ الغربانِ

وإليكها (والعيد) يَصقلُها بما   أولَيْتَه من بهجةٍ وتهاني

من شاعرٍ هو والذي فضَّلْتَه   إنْ عُدَّتِ الشعراءُ، عُدَّ اثنانِ

وَهَبَ اليراعةَ هزَّها كلُّ امرئٍ   عِرْسٍ، فمَن ليراعةٍ ببَنانِ؟

❁ ❁ ❁

---

(١) يفري: يقطع. شبَّه قلمَ الإمام ولسانه بحَدَّي السيف، يقطع بهما داء الضلال والطغيان.

(٢) المرقعة، الثوب الذي جرى فيه ترقيع كثير.

(٣) نضا السيف: شهره. أي جرِّدْ سيفك الذي هو قلمك، وانفذْ به إلى النفوس والعقول!

(*) أنّى لحاسِديك التنكر لكَ، وأحرفُ اسمك (محمد) تنطلق إلى الأسماع مع كل أذان؟

وقال وبعث بها إلى صاحب السعادةِ أحمد منشاوي باشا أيامَ لهجَ أهلُ القُطْرِ بوقفيَّته[1]:

[من الكامل]

ضَنَّتْ وما أنا لو تشاءُ، ضنينُ ... والبخلُ، إلّا في الحسانِ، يَشينُ[2]

أهواكِ مانعةً، وكلُّ مليحةٍ ... ليستْ ممنَّعةَ الوصالِ تَهونُ

حسبُ المتيَّمِ منكِ وحْيُ فؤادِهِ ... إن القلوبَ على القلوبِ عيونُ

وألَذُّ ما كانَ الخيالُ زيارةً ... إنْ كانَ يخفى، مرةً ويبينُ

قالوا بَخِلْتِ وما بَخلْتِ، وإنما ... وَصْلُ المليحةِ في الجَفاءِ ثمينُ

نَسختْ معاني البُخلِ يُسرىٰ (أحمدٍ) ... وأتتْ بشَرْعِ الجودِ منهُ يَمينُ

أحيا الأُولى كنا نرى أسماءَهم ... وغدا يُرينا الجودَ كيفَ يكونُ

وسمتْ بهِ مصرٌ على بغدادَ مذ ... كَانتْ، وكانَ بقصرِها هارونُ(*)

ورأى لديهِ المالَ بحراً زاخراً ... فغَدتْ أَنامِلُهُ وهنَّ سفينُ[3]

والقومُ: ذو فَقْرٍ يُقلِّبُ كَفَّهُ ... وأخو غنًى بنعيمهِ مفتونُ

هذا يُرنِّحُهُ الأنينُ وذاكَ في ... سكَراتهِ يهفو بهِ التلحينُ

قل للذينَ استأثروا بكنوزِهم ... ما كانَ بعدَ كنوزِهِ قارونُ؟[4]

أَنِفوا مساعدةَ الضعيفِ وربَّما ... خدَموا البهائم، والجنونُ فنونُ(**)

واستحجرتْ راحاتُهم فكأنها ... صخرٌ وإن (فلقوهُ) ليسَ يلينُ[5]

---

(١) الوقفيَّة، حَبْس عقار في الأرض أو البناء، ونحوهما، لصالح مؤسسة أو طائفة أو جمعيَّة، تكون مِلْكَها وحرِّيَّة التصرف والاستفادة منها.

(٢) يشينُ: يعيبُ.

(*) أراد: هارون الرشيد، الخليفة العباسي المشهور.

(٣) تشبيه المال بالبحر الزاخر. جعله يشبّه الأصابع التي تحمله وتوزِّعه، بالسفن التي تمخر سطح اليمّ تنقله وتفرِّغه هنا وهناك.. في التشبيه إيغال في التصور لكنه على جانب من الصنعة والتكلف.

(٤) قارون: اسم لرجلين، الأول أعجمي ملك ثروةً كبيرة.. والثاني، من قوم موسى، كان كافراً، فخسف اللّهُ به وبداره، الأرض. (لسان العرب [قَرَن] ١٣/ ٣٤١).

(**) أكثر من يُسمَّون اليوم «عمداً أو بكوات وبَشَوات»، يعتنون بتربية البهائم أكثر مما يعتنون بتربية أبنائهم، بل هم يعلمون أبناءهم أن يكونوا مثلها في الراحة والرياضة، ولا يريدون مما يفعلون، إلّا الزينة والبذخ.

(٥) استحجرت: أضحت أحجاراً، تشبيهاً لهم بالأحجار التي لا تشعر ولا تدرك.. والراحات، الأيدي، كناية عن العطاء الكريم، ولا يكون إلّا باليد..

والـمـجـدُ أقـتـلُ مـا يـكـونُ هـزالُـهُ ... إمَّـا رأيـتَ الـكـيـسَ وهْـوَ سـمـيـنُ
ضـلُّـوا وأحـمـدُ بـيـنـهـمْ يـدعـوهُـمُ ... أَوَ بَـعْـدَ أحـمـدَ لـلـمـكـارم، زَيْـنُ؟
نـيـلانِ فـي مـصـرٍ فـذلـكَ قـد جـرى ... مـاءً، وهـذا عـسـجـدٌ ولُـجِـيْـنُ(*)
والـنـفـسُ إنْ تـعـزُ الـفـضـائـلَ أفـلـحـتْ ... كـالـمـاءِ يـسـقـاهُ فـيـحـيـا، الـطـيـنُ(١)
(يـا أحـمـداً) أقـرضـتَ ربـكَ والـسَّـرا ... ةُ يـئـنُّ تـحـتَ ربـاهـمُ الـمـسـكـيـنُ(٢)
والـدهـرُ أطـمـاعٌ وفـيـهِ حُـفـرةٌ ... سِـيَّـانِ فـيـهـا الألـفُ (والـمـلـيـونُ)
وبـنـيـتَ مـن كـلِّ الـضـمـائـرِ مـنـزلاً ... هُـوَ مـنـكَ مـا بـقـيَ الـورى، مـسـكـونُ
كـالـشـمـسِ مـن فـوقِ الـسـمـاءِ مـحـلُّـهـا ... وشـعـاعُـهـا تـحـتَ الـثـرى مـخـزونُ
ورفـعـتَ صـوتـكَ بـالـمـكـارمِ جَـهْـرةً ... تـدعـو الأنـامَ ولـلـسَّـراةِ طَـنـيـنُ(٣)
والـشـرقُ إن خـربـتْ نـفـوسُ رجـالـهِ ... فـلَـرُبَّ كـنـزٍ تـحـتـهـا مـدفـونُ
قـد كـنـتُ أَبـخَـلُ بـالـقـريـضِ وإنـنـي ... لَـيـعِـزُّ عـنـدي الـلـؤلـؤُ الـمـكـنـونُ
فـأَريـتَـنـي ديـوانَ مـجـدكَ شـامـخـاً ... فـحـلا لأشـعـاري بـه الـتـدويـنُ
شـعـرٌ أفـاض عـلـيـه نـوركَ مـسـحـةً ... فـكـأنَّـهُ صُـوَرٌ بـهـا تـلـويـنُ
مـا إنْ يـقـاسُ بـه سـواهُ ولـيـسَ فـي ... سـلـكِ الـزبـرجـدِ يُـنـظَـم الـزيـتـونُ(٤)
كـثـرتْ ظـنـونُ الـمـادحـيـنَ فـقـولـهـمْ ... ظـنٌّ وهـذا الـمـدحُ فـيـكَ يـقـيـنُ

❁❁❁

(*) اللُّجَين (بضم ففتح) الفضة. وإنما كسرت الجيم هنا لتستقيم القافية.

(١) إن تعزُ الفضائلَ: إن تنسبْها إليها وتستحقها. وفي التركيب استدارة فنية؛ وسياقها: كالماء يُسْقاهُ الطين فيحيا.

(٢) في البيت إشارة واقتباس من قوله تعالى: **﴿وأقيموا الصَّلاة، وآتوا الزَّكاة وأقرِضوا اللّه قَرْضاً حَسَناً﴾** الآية ٢٠ من سورة المزمِّل. وإقراضُ اللّه: الإحسان إلى الذات وإلى الناس، والعمل بما أمر اللّهُ وشَرعه. . والسَّراة، ج: سَرِيّ، وهو العزيز المقتدر في قومه.

(٣) «للسَّراة طنينُ» تعريضٌ كنائيٌّ بالرجال الوجهاء والزعماء الذين لا صوتَ لهم ولا حضور في الملمَّات والشدائد. والطنينُ: صوت الحشرات الصغيرة، كالذباب ونحوه.

(٤) سِلْك الزبرجد. عقدهُ ونظامُهُ. والزبرجدُ: حجر كريم يشبه الزمرد، متعدد الألوان.

في الغزل والنسيب

قال يشكو من حرمان الحب:

[من السريع]

حرَّمتَ يا ليلُ علينا المنامْ ... أَمَا كفى الهجرُ وَبرْحُ الغرام؟

مهلاً أبثُّ البدرَ وجدي، وقِفْ ... لا ينقل الواشونَ عنا الكلامْ

واملِكْ سبيلَ الصبحِ فالحيُّ إنْ ... ناحتْ حَمامٌ حَسِبوني الحمامْ

يا ليلُ بي همي وظلمُ الورى ... وأَنتَ والهجرُ وكلٌّ ظلامْ

أراكَ للعشاقِ قبراً فهلْ ... فيكَ من العشاقِ إلا عِظامْ[1]؟

رُحماكَ يا ليلُ ورُحماك بي ... وألفُ رُحماكَ ودعني أنامْ[2]

عسى يوافي طيفُها مَضجعي ... فتسمحَ اليومَ ولو بالسلامْ

وَيْلاه من سُقمِ الهوى، والهوى ... إنْ قلتُ ويلاهُ، يَزِدْني سَقامْ

❁ ❁ ❁

وقال محاكياً قصيدة المتنبي (القافيَّة) في مدح سيف الدولة، والقسمُ المحاكى من قصيدة المتنبي، المقدمةُ الغزلية[3]:

[من الطويل]

تعاليْ وإن لم تُجملي فترفَّقي ... فحسبيَ أنّا ساعةَ الموت، نلتقي

وإن شئتِ أن أبقى وقد أهلكَ الهوى ... ذَويهِ، وإلّا فأْمريني أَلْحقِ

---

(١) في كلمة «عظام» تورية مُتقنة، فمعناها القريب: جمع عَظْم، دلالة النحول والتشرد، وهو غير مقصود، بل المقصود المعنى البعيد الموَرّى وهو «عظام» ج: عظيم. تعظيماً للحب وللمحبين.

(٢) تهالك على المعنى واللفظ في تكرار «حماك» ثلاث مرات من غير تسويغ وتفنُّن.

(٣) مطلع قصيدة المتنبي:

لِعَينَيْك ما يلقى الفؤادُ وما لَقِي ... وللشوق ما لم يَبْقَ مني وما بَقِي

«ديوان المتنبي بشرح الواحدي» بعنايتنا، دار الرائد العربي، بيروت ط. ١ سنة ١٩٩٩ جـ٣/ ١٣٦٨ ـ ١٣٨٦. وشتّان ما بين نسيب المتنبي ونسيب الرافعي.. في الأول رقة وسلاسة وعذوبة وأساليب متنوعة في الأداء والتصوير، وفي الثاني تكلف وتجشُّم في المشابهة والمطابقة.

فَدَيتُكِ أُخَيي أو أُمَيتي فإنها حياةٌ متى ما جُدْتِ بالوصلِ تُخلَقِ[1]
وقد كنتُ لا أرضى بدنيا عريضةٍ فلمَّا دَنا يومي، رضيتُ بما بَقي
وما حيلتي إن لم تكنْ ليَ حيلةٌ وهل بعدَ ما ترمينَ لحظكِ أتقي؟
خَفِي اللَّهَ ما أقوى على كلِّ نظرةٍ، وإلا تخافيهِ فرُحماكِ، واشفقي
ألم يكفِ أنْ كانتْ خدودُكِ فتنةً لنا فتَزِينينَ الخدودَ «بِيَشْمَقِ»؟[2]
وزدتِ فتونَ الجيدِ حتى تركْتِني أموتُ على نَوْحِ الحمامِ المطوَّقِ
وقد بعثَتْ عيناكِ في الحَلْيِ نسمةً فكيفَ انثنتْ عنهُ المعاطفُ ينطقِ؟[3]
وألقتْ عليهِ من غَرامِكِ مَسْحةً فما انفكَّ مصفرّاً حِذارَ التفرُّقِ
وتبعدهُ ثدياكِ ثم تضمهُ كدأبِ الهوى في العاشقِ المتملقِ[4]
تعلمتُ منه ما يُوَشِّي يَراعتي وما كلُّ شِعرٍ بالكلامِ المنمَّقِ
وما القولُ إلا الحظُّ، أكثرُ من أرى يظلُّ به يشقى ولمَّا (يُوَفَّقِ)
فإنْ يَحسِدوني شيمةً عربيةً فيا رُبَّ فحلٍ إن هَدرْتُ يُنَوِّقِ[5]
وما لهمُ هاموا وما عرَفوا الهوى فقولي لمنْ لم يعرفِ العشقَ: يَعْشَقِ[6]
وذي عَذَلٍ لما مررتِ أشار لي فقلتُ له: ناشدتُكَ اللَّهَ، فارْفُقِ
أرى الروحَ سهماً بين فكيكِ مُودَعاً فإنْ تتحركْ هذهِ القوسُ يمْرُقِ
وداريتُهُ حتى إذا قالَ أبعدتْ عن العين، قلتُ الآن فاسكتْ أو انهقِ[7]
وما الليثُ أقوى مهجةً غيرَ أنني متى أُبصرِ الغزلانَ يمرحْنَ، أفرَقِ[8]
ولي قلمٌ كالنابِ ما زال مُرهَفاً ولكنْ متى ما مسَّه الدمعُ يُورِقِ

---

(١) أسقط البيت من طبعة بيروت.

(٢) لم نتبيّن معنى هذه الكلمة: «بيشمق» إلّا أن تكون من فعل: شَمِقَ يَشْمَقُ شَمْقاً، إذا نشِطَ. (لسان العرب [شمق] ١٠/ ١٨٦)، كأنما قال: تزينينَ الخدودَ بحركة إضافية من فتنتك وتأثيرك.

(٣) كسر حركة القاف في «يَنطق» من دون مسوّغ وحقُّها الضم. كأنما عامل «كيف» معاملة (كيفما) الشرطية.

(٤) أنّث (الثديين) فقال «تبعده ثدياكِ» ليسوّغ عطف «تضمُّه» عليه، وإلّا اضطر للتذكير بقوله: (يُضمّانِه).

(٥) ينوّق، يتشبّه بالناقة. ومنه قولهم: «استنوق الجملُ» والهديرُ: صوت الفحل.

(٦) كسر (قاف) الفعل بمعنى: لتَعْشَقْ.. كأنما قال: (الذي لم يعرف العشق ليَعْشَقْ).

(٧) «أبعدتْ عن العين» تنحّتْ وبعدت. حكْمها حكْمُ (بَعدتْ).

(٨) أفرقُ: أفزعُ، وهو من الفَرَق: الخوف الشديد.

وما أنا مَن يَطْوي على الهمِّ جَنْبَهُ ... ولكنَّ شيئاً إنْ عرى البدرَ يمْحَقِ[1]

رُوَيْدَكِ لا تَقْضي عليَّ فربَّما ... رأيتِ بريقَ التاجِ يوماً بمفرِقي

وما أَخَّرتْني في بني الدهرِ شيمةٌ ... بلى، ومتى أُطلقتُ للسَّبْقِ أَسْبِقِ

ومن كان ذا نفسٍ ترى الأرضَ جولةً ... فلا بدَّ يوماً للسمواتِ يرتقي

ومهلاً أُضئْ آفاقَها ثم انطفي ... كما أَطفأتْ أنفاسُ حبكِ رونقي[2]

أليسَ ليَ القولُ الذي إن نظمتُهُ ... أو انتثرتْ حبَّاتُهُ، يتألقِ؟

وحسْبُكِ قلبٌ بين جنبيَّ شاعرٌ ... متى هجَستْ أفكارُهُ يتدفقِ

ولن تجدي غيري يقولُ إذا بكى ... «لعينيكِ ما يلقَى الفؤادُ وما لقي»[3]

❁❁❁

وقال في دواء القبلة وإمارة الحُسْن والدلال:

[من الرمل]

في الشفاهِ اللُّعسِ ما يَشفي الألَمْ ... ودَوا القلبِ فمٌ من فوقِ فَمْ[4]

عقدَ الحبُّ «شروطاً» بيننا ... وفمي «أمضى عليها وخَتَمْ»

ورأى ذا الحبُّ سِرّاً فالشفا ... هُ على كتمانهِ تُعطي القَسَمْ

بأبي هذا الجمالُ وأبي ... لم يَلِذْني لسواهُ لَمْ ولَمْ

يا أميرَ الحُسْنِ ما تأمرُنا ... كلُّنا في دولةِ الحُسْنِ خَدَمْ

أَتُرى كُوِّنْتَ من كل دمٍ ... فلذا حنَّ إليكَ كلُّ دمْ؟

ولِمَ الصدُّ أما آن لما ... شتَّتَ الهِجْرانُ مني أن يُلَمْ؟[5]

نحمدُ اللّهَ فإنَّ الشمسَ لو ... فعلتْ فعلكَ عشنا في ظُلَمْ

❁❁❁

---

(١) يمحق: يختفي، من مُحاق القمر في أيامه الأخيرة.

(٢) صدر البيت، على جانب كبير من التعقيد، جرّاء جزم «أضئ» وإبهام معنى: «انطفي».

(٣) هذا هو الكلام الوحيد الذي ضمَّنه الشاعرُ من قصيدة المتنبي، وباقي القصيدة لا أثر لشعر المتنبي فيه إلّا في استعارة بعض كلمات القوافي التي لم تتعد الخمس. إلّا أنه لم يجار المتنبي في قوة بيانه وروعه تصاويره!

(٤) كناية لطيفة عن حركة القُبلة التي يتبادلها الحبيبان. والشفاه اللُّعس: ج: شفة لَعْساء، وهي التي في باطنها سُمْرةٌ أو سوادٌ مستحسَنٌ.

(٥) يُلَمُّ: يُجْمَع.

وقال في عصفورة الأَيْك:

[من البسيط]

أَيْكَ العصافيرِ والدنيا عليَّ أسًى ... أَما تُرَوِّحُ عني بعضَ أَحزاني؟[1]

لي فيكَ عصفورة لوْ أنها نطقتْ ... رأيتَ كيفَ السميِّتُ الفاني

ما صوَّرَ الناسُ في الأنوار أجنحة ... إلا غداةَ بدا منها الجناحانِ

فوَيحَ قلبيَ ما من مرةٍ صدَحتْ ... إلا شعرتُ بقلبي بينَ آذاني

وويحَ عُذَّالِها ما في جوانبهم ... قلبي فمن أين يحكي شأنُهم شاني؟

أنا إذا عذَلوا، عانٍ وإن عذَروا ... فانٍ، وإن حكموا لي أو لها جاني[2]

والحبُّ روحٌ لأهليهِ فعندَهُمُ ... هذي الحياةُ وهذا الموت: سِيَّانِ

❁ ❁ ❁

وقال وقد استيقظَ يوماً فإذا عينُه قد رمِدَتْ:

[من البسيط]

زارَ الخيالُ فحيَّاني وأسندني ... يدٌ على القَلْبِ والأخرى على الكَبِدِ

ومرَّ ليلُ هوًى ما كان أهنأَهُ ... لو أنني لم أقم منه إلى الأبد

وحينَ أيقظتُ عيني في الصباح بكتْ ... وعاقبَتْنيَ في جفنيَّ بالرمدِ

❁ ❁ ❁

وقال في مفاجأة خيالية مع الحبيب:

[من المجتث]

يا منْ تباعدَ عني ... حفظتُ في البعدِ عَهْدَكْ

فكيفَ حالُكَ بَعْدي ... قد ساءَ حاليَ بعدَكْ؟

يا ليتني كنتُ خالاً ... وكنتُ أَلْثِمُ خدَّكْ!

وليتني كنتُ ثوباً ... وكنتُ أَلمسُ قَدَّكْ

وليتَ طيفَكَ عندي ... وليتَ طيفيَ عندَكْ

إنْ كنتَ ترضى فهَبْني ... يا سيِّدَ الناسِ عبدَكْ

فما ليَ الحبُّ وحدي ... لكنْ لك الحسْنُ وحدَكْ

❁ ❁ ❁

(١) أيكُ العصافير، مفرده: أيْكة، وهي الشجر الكثير الملتفُّ. وفي الطبعة المصرية: «تُروِّحُ» للمجهول.

(٢) العَذْلُ: اللوم والمحاسبة، والعاني: التَّعِبُ.

وقال في لغة التجريح بين الحبيبين:

[من الرجز]

جرَحْتَني بالقولِ لكنني أرى شفاءَ الجُرْحِ في الجَرْحِ
فكمْ سِبابٍ بينَ أهلِ الهوى يكونُ تَنبيهاً إلى الصلحِ!

❁ ❁ ❁

وقال معترضاً على تشبيه الحبيبة بالشمس والهلال:

[من مجزوء الكامل]

قاسوكِ يا شمسَ الضُّحى بالبدرِ ظلماً، والهلالِ
ورأوا عيونَكِ فاشتهوا بالغزالةِ والغزالِ
يأبى جمالُكِ أن يُقا سَ وأنتِ مقياسُ الجمالِ

❁ ❁ ❁

وقال في تقلبات الصُّدود وحرارة التمنيات:

[من المتقارب]

عذرتُ فؤاداً رآكِ فطارا كذا الطيرُ إمَّا لمحنَ النهارا[1]
ودمعاً على نفخ ذكراكِ يَهْمي كما هاجتِ النَّسمَاتُ الشَّرارا
نثرتِ على الليلِ منه شعاعاً كما تنثر الشمسُ منها النُّضَارا
تداعتْ ضلوعي وعندَ الحريقِ يُهَدِّمُ أهلُ الديارِ الديارا
ولما أحسَّتْ بذاكَ، الدموع أَبَيْنَ من الرعبِ إلَّا فرارا
وأبصرَها العقلُ مُستَنفَراتٍ فمدَّ جناحيهِ خوفاً وطارا
ولا عجَبٌ أن تراني على تقلُّب (هندٍ) عدِمتُ القَرارا
فلو أن للأرض قلباً يُحِبُّ لما أبصر الناس فيها جدارا
(وهندٌ) على ما بنا لا تُبالي وحبُّكِ يا هندُ ليسَ اختيارا
إذا ما هجرتِ عذَرْنا الدلالَ فليسَ دلالُكِ إلا اعتذارا
وفي الحُبِّ شيءٌ يسمونهُ نِفَارا وما تتركين النفارا
كأن الجمالَ بأعمارنا يطولُ، ليصبحنَ منهُ قِصارا

(١) تشبيه مضطرب جرَّته القافية الشعرية، فليس هناك ما يدفع الطير إلى الطيران عند طلوع النهار.. والثابت، الانتفاض من كسل النوم والشَّدْو المرحب بقدوم يوم جديد.

وما يُربِحُ الحسنُ إنْ لم يكنْ محبُّوهُ يرضَوْنَ منه الخَسَارا
لماذا اتُجافينَ يا هندُ عني هَبيني ظِلاً وراءَكِ سارا
هَبيني نسيماً تلطَّفَ يوماً فحرَّكَ من جانبيكِ الإزارا
هَبيني أشعةَ شمسِ الأصيـ ـل نورٌ يغادرُ خدَّيكِ نارا
هَبيني من قَطَراتِ النَّدى إذا ما انتثرنَ عليكِ انتشارا
هَبيني أخاً (وهبيني طفلاً) هبيني فتى (وهبيني جارا)
هَبيني من بعدِ هذا وذاك غباراً على قدميكِ استشارا
وأُقسمُ أني لأَطهرُ نفساً وأصفى غراماً وأسمى وقارا
اتقي اللَّه إني رأيت الجفونَ تُعَلِّمُ نفسي لديكِ انكسارا[1]
وعوَّدْتِني أن أخافَ الأنامَ وما كنتُ أحذَرُ إلا الحِذارا
وحَمَّلْتِني من خطوبِ الزمانِ بما لم يَدُرْ فلكٌ حيثُ دارا
أصيخي إلى الحَلْيِ إني أرى السِّـ (م) ـوارَ يناجي بأمري السُّوارا
متى ما سمعتِ رنينَ الحُليِّ فإنَّ لهنَّ بشأني سِرارا[2]
ولا تفزعي من حفيفِ الثياب يُناديني إذْ مَلَلْنَ انتظارا
على أنَّ قلبي لها حاسِدٌ فيا ليتهُ كان فيها (زرارا)[3]
ويا ليتني، وأنا كالخيوط، نُسِجْتُ لهذا القَوام إزارا
متى قلت (يا ليتني) مرةً لأمرٍ توجعتُ منها مرارا
علمتُ من الثدْي ما تُضمرين فقد وقف الثديُ حتى أشارا[4]
فحسبي البعادُ وحسبُ النجوم إذا ما بدا صبحها أن توارى[5]

⊛⊛⊛

(١) هذا البيت مضطرب الصدر، ويزول الخلل بحذف ألف الأمر من «اتَّقي» فتصبح: تَقي.

(٢) السِّرارُ، من الشهر: آخر ليلة فيه.

(٣) الذي في القاموس: جمع زر، أزرار. وليس في المعجم: زِرارٌ، جمع زُر.

(٤) لا نفهم معنى وقوف الثدي هنا، ولم نَنْفذ إلى ما يختلج به الشاعر حياله. فالصورة ضبابية والغموض كلي لدرجة التداعي.

(٥) من أجمل التشابيه الضمنية في الشعر. فقد تمثل بريق أو وهج الثديَيْن، كالصبح الذي ينذر باختفاء النجوم.

وقال متألماً من عذاب الحب:

[من البسيط]

أنا البريء ولم تبرحْ تُعذبني ... فليتَ لي بين أبناءِ الهوى فادي

أهكذا ظبيةُ الوادي التي ذكروا ... أمِ الظباءُ بوادٍ وهْيَ في وادي

رحماكَ يا ربُّ عجِّلْ بالممات إذا ... قدَرْتَ أنَّ لهذا كان ميلادي

❁ ❁ ❁

وقال مؤكداً نحوله في الحب:

[من المجتث]

لَا تَعجَبي إن تَرَيْ ... جسمي نحيلاً يشِفُّ[1]

وكان ماءُ الصِّبا ... عن سَقيهِ لا يكُفُّ

عرضْتُه للهوا «ى» ... فمالَهُ لا يَجِفُّ[2]؟

❁ ❁ ❁

وقال في ضمور الجسد أيضاً:

[من مجزوء الرمل]

لا تلوميني على السقْـ ... ـمِ فهذا طَرْفُكِ أسقَمْ

أنتِ علَّمْتِ فؤادي ... فيكِ كيفَ يتألَّمْ

فَرحِمْتِ الحبَّ مني ... وأراهُ ليسَ يَرحَمْ

إنَّ هذا الحبَّ ضيفٌ ... وقِرَاه اللحمُ والدم[3]

❁ ❁ ❁

وقال في حال مشابهة:

[من الرمل]

قرَّحَ الجفنَ وأدمى كَبدي ... أنَّ شَملي في الهوى تَشتَّتا[4]

فإذا أثْبتُّ أني عاشقٌ ... لم يُفِدْني عندها أن أُثبِتَا

---

(١) يَشِفُّ شُفوفاً: ينحل ويرقّ من شدة الحب.

(٢) أراد الشاعر أن يورِّي بكلمة «الهوا» فجعلها في آن واحد بألِفَيْن، ممدودة، ومقصورة. ولعلها المرة الأولى التي يقدم فيها شاعر على صنيع مماثل. فهو يريد الهواء، لينسجم ويتوافق مع الجفاف، ولكنه يريد الهوى، المختلج الذي يجتاحه في أعماقه.

(٣) قِرى الضيف: إكرامه بما يستحق من ضيافةٍ، وتقديم أجود المأكول والمشروب. يعلل بذلك سبب نحوله وضموره في الحب.

(٤) عجز البيت مختلّ. ويستقيم إذا قلنا: (قد شُتّتا).

وَيلَتا مما جنى الحبُّ وكَم ... مَنْ يقولونَ معي: يا ويلتَا!

❁ ❁ ❁

وقال في إثبات تجاوب الحبيبة لحبِّه رغم الإنكار:

[من السريع]

إنْ لم يكنْ عندَكِ ما عندنا ... فمَنْ رمى الخَصْرَ بهذا الضَّنى؟

ما لكِ تُخفينَ الهوى، والهوى ... يقولُ من عينيكِ لي: ها أنا؟

وتلكَ أنفاسُكِ نمّامَةٌ ... وبينَ نهديكِ أرى مَكْمنا

حسبيَ ذا الوجهُ وألوانُهُ ... وما دليلُ الشمس إلا السَّنا

كُفّي ظنونَ الناسِ واستنكِفي ... أن تُجرِي الألسنَ يوماً بنا

ألا تَرَيْنَ الطَّيْرَ في راحةٍ ... من يومِ أمسى بالهوى مُغلِنا؟

وما كَتَمْنَا إذ كتمنا الجوى ... إلّا كما تُخفي الغصونُ الجنىٰ

والحبُّ في الصدرِ بخارٌ إذا ... خَبَّأْتَهُ هنا، جرى من هُنا

كلا فُؤادينا امتلا بالهوى ... وفاضَ حتى ملأَ الأعينا

وأيُّ ذنبٍ للإناء الذي ... يَفيضُ إن أنتِ ملأْتِ الإنا

لا تعجبي مما يُمَنِّي الهوى ... ما في يدِ العشاقِ إلّا المنى

قد نالَ بعد العشقِ أطماعَهُ ... من نالَ بعد الكيمياءِ الغنى[1]

❁ ❁ ❁

وقال يسوّغ دلال الجميلات، ويرى في ذلك عنصراً من عناصر الحب الصحيح:

[من الخفيف]

نَفْرَةٌ ثم تَغْطِفُ الحسناءُ ... وقُصارىٰ إبائهِنَّ الرِّضاءُ[2]

وذواتُ الهوى يَصِلْنَ ولكنْ ... مِن حقوق الوصالِ هذا الجفاءُ

فَتَأَبَّيْ وإنما لذةُ الحبـ (م) ـب إذا كانَ في الحبيبِ إباءُ[3]

(١) لم نتبيّن حقيقة المعنى من (غنى الكيمياء) وليس فيها ما يوحي بإحساس شاعري.. وكلُّ ما يؤدي إلى الإبهام ـ لا الغموض الفني ـ في الشعر، خارجٌ عن إطار الشعر.

(٢) النفرةُ، بمعنى النفور، وهو الإعراض والإشاحة بالوجه.

(٣) جاء في طبعة بيروت: «فتأبِّي» بكسر (الباء).

مـا يَـشـيـنُ الـوصـالَ أنَّ الـتـجـافـي ... فـي حـواشـيـهِ نـقـطـةٌ سـوداءُ
وإذا الـخـال كـانَ فـي الـخـدِّ حُـسْـنـاً ... فـتـمـامُ الـمـلاحـةِ الـخُـيـلاءُ[1]
غـضَـبٌ بـعـدَهُ الـرضـاءُ كـمـا مـرّ (م) مـذاقُ الـسـقـام يـحـلـو الـشـفـاءُ
إنَّ فـي الـحـسـنِ لـلـحِـسـانِ لـعُـذْراً ... فـاسـلـبـوا الـمـالَ يَـسـمَـحِ الـبـخـلاءُ
أوَ لا يُـعـذر الـجـمـالُ إذا مـا ... نـظـرتْ فـي مِـرآتِـهـا الـحـسـنـاءُ؟
سـائـلـيـهـا يـا ربَّـةَ الـحَـلْـيِ عـنـي ... أَلِـداءِ الـفـؤادِ مـنـهـا دواءُ؟
واذكـري أنـنـا عـلـى الـيـأسِ نـرجـو ... ومـن الـيـأسِ قـد يـكـونُ الـرجـاءُ
أوَ لـيـسَ الـسـمـاءُ يـأتـي عـلـيـهـا ... كـلَّ يـومٍ صـبـحٌ ويـأتـي مـسـاءُ؟
وضـيـاءُ الـنـهـارِ فـيـهـا ابـتـسـامٌ ... وظـلامُ الـمـسـاءِ فـيـهـا بـكـاءُ؟

❁ ❁ ❁

وقال في حسناء متقلِّبة:

[من المديد]

فـتـكـتْ فـي الـنـاسِ أعـيـنُـهـا ... وعـيـونُ الـنـاسِ تَـنْـهَـبُـهـا
مـا يُـنـاجـي أُذْنَـهـا نـفَـسٌ ... صـاعِـدٌ إلَّا ويُـطْـرِبُـهـا
وانـثـنـتْ عُـجْـبـاً فـلَـسْـتَ تـرىٰ ... عـاشـقـاً إلا ويُـعـجِـبُـهـا
كـلُّ رِجْـلٍ فـي تَـنَـقُّـلِـهـا ... تـحـتـهـا قـلـبٌ يُـقَـلِّـبُـهـا

❁ ❁ ❁

وقال يؤكد حبه لها مهما بَدا منها:

[من البسيط]

قـالـوا جَـفـتْـكَ ولا تَـنـفَـكُّ تَـذكـرُهـا ... إنَّ الـنـصـيـحـةَ سُـلـوانٌ بـسُـلـوانِ
فـقـلـتُ عـيـنـيَ مِـنّـي، وهْـيَ إنْ رمَـدَتْ ... فـلا يـكـونُ دواهـا كُـحْـلُ عُـمْـيَـانِ
نَأَتْ دَنَتْ، وصلَتْ، ضمّتْ[2] نفتْ، هجرتْ ... فـي كـلِّ ذلـكَ، أهـواهـا وتـهـوانـي
والـحـبُّ كـالـدينِ يُـرضـي الـمرءَ مـذْهـبُـهُ ... وبَـعْـده الـنـاس فـي كـفـرٍ وإيـمـانِ(●)

❁ ❁ ❁

---

(١) جميل هذا التجانس بين «الخال» و«الخيلاء». والأجملُ: امتدادُ المعنى وتنوعُ الجرسِ الموسيقي.
(٢) ضَمّتْ، بمعنى التقريب والجمع.. وهو في البيت يطرح الأشياء سلباً وإيجاباً.
(●) أسقط البيت من الطبعة البيروتية.

وقال متوجعاً على أيام حبّه القديم:

[من الطويل]

أَبيتُ وجَنبي ليسَ يَحْويهِ مَضْجَعُ ... وبعضُ الذي أَلقَىٰ من النومِ يَمْنَعُ

تُقَلِّبُني الأشواقُ وَخْزاً كأنَّني ... بكفِّ الهوى ثوبٌ رديمٌ يُرقَّعُ[١]

ولي حاجة في السُّهد والسهدُ قاتلي ... بدمعي، وبعضُ الموت في الماء ينقعُ[٢]

فيا أيها النُّوَّام ما لذةُ الكرى؟ ... أَمَا لكُمُ مثلي فؤادٌ وأضلعُ؟

وكيفَ تنامُ العينُ والقلبُ موجَعٌ ... وأنّى يَصِحُّ القلبُ والحسُّ يُوجَعُ؟

كأنَّ الهوى نورٌ، كأن بني الهوى ... كواكبُ إمَّا جنَّها الليلُ تَلْمَعُ

وما انفكَّ نورُ الحُبِّ في كلِّ كائنٍ ... ولكن لأمرٍ بعضُهُ ليسَ يَسْطَعُ

وما كلُّ مصباحٍ بذي كهرباءةٍ ... ولا كلُّ إنسانٍ رأى الشمسَ، يُوشَعُ[٣]

ويا شَدَّ ما أَلقىٰ من الحبِّ وحدَهُ ... فكيفَ وفي طبعِ الحبيبِ التمنُّعُ؟

هل الحبُّ إلّا ما ترى من فضيحةٍ؟ ... وما المسكُ لولا أنهُ يتضوَّعُ؟

كأَنَّ فؤادِي شعلةٌ قد تَعَلَّقتْ ... بجسمي وطبع النارِ في العُودِ تُسْرِعُ

وما أنا وحدي من يقولونَ عاشقٌ ... ولكنني وحدي الذي يَتَوجَّعُ[٤]

وفي كلِّ عينٍ أدمعٌ غيرَ أنني ... لعينيَّ من دونِ المساكينِ أَدْمُعُ

أعينيَّ ما دمعي عليَّ بهَيِّنٍ ... فكمْ ذا وكمْ ذا تجزعينَ وأجزعُ!

كأنَّكِ في كلِّ القلوبِ، فمن بكىٰ ... بكيتِ له، والحُرُّ بالناسِ يُخدَعُ

أحاطَتْ بيَ الأرزاءُ من كلِّ جانبٍ ... كأن الرزايا تحتَ جنبيَّ مصرعُ[٥]

---

(١) الثوبُ الرَّديمُ: البالي. جمعه: رُدُم.

(٢) ينقعُ، يمكثُ فيزدادُ فعلُه وتأثيرُه.

(٣) ورد المعنى نفسه في قصيدة سابقة. ويوشع أحد الأنبياء. استعان به موسى عليه السلام لمحاربة أعداء الله في فلسطين (عد إلى شرح ذلك مفصلاً في حاشية سابقة).

(٤) قال الأخطل الصغير في معنى مشابه، لكنه أبعد أثراً:

أأنا العاشقُ الوحيدُ لتُلْقى ... تَبِعَاتُ الهوى على كتفيّا؟

(٥) البيت صدى صادق للأبيات التي كتبها المتنبي في رثاء أم سيف الدولة:

رماني الدهرُ بالأرزاء حتى ... فؤادي في غشاءٍ من نِبالِ

فصرتُ إذا أصابتني سهامٌ ... تكسَّرت النصالُ على النصالِ

شرح الواحدي لديوان المتنبي ـ بعنايتنا، (جـ٣/ ١١٠١ ـ ١١٠٢).

كــأنــيَ فــي الآمــالِ زورقُ لُــجَّــةٍ إذا احـتـمـلـتـه كـان لـلـخَـفْـضِ يُـرْفَـعُ
وما كـلُّ مَـنْ تـحـنـو عـلـى الـطـفـل أُمُّـهُ ولا كـلُّ مـن تُـدْنِـيـهِ لـلـثـدي مُـرْضِـعُ
فـهـل تـرجـعُ الـدنـيـا كـمـا قـد عـهِـدتُـهـا؟ وهل ما مضى من سالفِ العمر يَرجِعُ؟
ولـي فـي الـهـوى شـمـسٌ إذا هـي أشـرقـتْ رأيـتُ بـهـا سُـحْـبَ الأسـى كـيـف تُـقـشـع
ولـكـنَّ لـحـظـي أنَّ حـظـيَ لـيـلُـهـا ومَن ذا يخالُ الشمسَ في الليلِ تطلعُ؟
كـلانـا بـه وَجْـدٌ ولـكـنـهُ الـهـوى دلالٌ وهـجـرانٌ ويـأسٌ ومـطـمـعُ
فـإنْ أسـتـبـنْ مـا أصـنـعُ الـيـوم يـأتـنـي غـدٌ بـالـذي لـم أسـتـبـنْ كـيـفَ أصـنـعُ

❁ ❁ ❁

قال يشكو من الاستسلام للقدر:

[من المتقارب]

عـجـبـتُ لأهـلِ الـهـوى أنـهـمْ يـعـيـشـون مَـوتـى بـأرمـاسـهـمْ
سُـكـارى بـكـأسٍ سـقـتْ مُـغْـرمـاً ومـا أنـقـصَ الـدهـرُ مـن كـاسِـهـمْ
كـأنَّ الـهـمـومَ بـأنـفـاسـهـمْ تـكـونُ ويـا حَـرَّ أنـفـاسـهـمْ!

❁ ❁ ❁

وقال يشرح واقعه ويشكو مرارة المخادعة في الوصال:

[من المتقارب]

أعِـزْنـيَ عـيـنـيـكَ يـا عـاذلـي لـعـلِّـي أرى الـحـقَّ كـالـبـاطـلِ
فـعـيـنـي قـد انـصـبـغَـتْ بـالـفـؤاد كـمِـثْـلِ الـزجـاجـةِ والـسـائـلِ
كـلانـا يـراهـا وهـيـهـاتَ مـا تَـوجُّـعَ بـالـشـكـلِ كـالـثـاكـلِ
ولـو كـانَ لـلـصـيـدِ عـيـنُ الـذي يَـصـيـدُ لـمـا اغـتـرَّ بـالـحـابـلِ[1]
هَـويـتُ وأطـعـمـتُ جـسـمي الـنـحـولَ فَـوَيْـلاهُ مـن شَـرَهِ الآكِـلِ
كـأنَّ ثـيـابـي عـلـيَّ الـربـيـعُ كـسَـا جـانِـبـيْ بـلـدٍ مـاحـلِ
كـأنَّ عـيـونـي بـمـوج الـدمـوع خِـضَـمٌّ لـه الـجـفـنُ كـالـسـاحـلِ
كـأنـي ودمـعـيَ فـي مـقـلـتـي أرى كَـفَـنِـي فـي يـدِ الـغـاسـلِ
لِـيَ الـلَّـهُ هـل أنـا إلا فـتًـى أَجِـدُّ ودهـريَ كـالـهـازِلِ
ومَـن سـادَ فـي قـومِـهِ الـجـاهـلـونَ أضـرَّتْ بـه شـيـمـةُ الـعـاقـلِ

---

(١) الصيد، استخدمت مجازاً بمعنى المَصِيد.. والحابل: مَصْيدةٌ تقع فيها الفريسة طائراً كان أم غيره.

كـأنَّ الـزمـانَ بـقـايـا دُجًـى أنـا فـيـهِ كـالـقـمـرِ الآفـلِ

نـزلـتُ عـلـى حُـكْـمِـهِ طـاعـةً لـوَخْـيٍ عـلـى مـهـجـتـي نـازلِ

ومـن كـانَ قـاضـيَـهُ مـن يُـحِـبُّ رأى جـائـرَ الـحـكْـم كـالـعـادلِ[١]

يَـعـيـبـونَ فـيـهـا نـحـولـي فَـلـمْ يُـرَ الـنـجـم فـي الأُفْـقِ كـالـنـاحـلِ

وكـيـفَ يـعـابُ الـحـسـامُ الـصـقـيـل أرقَّـت شَـبـاهُ يـدُ الـصـاقـلِ[٢]؟؟

مُـهَـفْـهَـفَـةٌ فـكـأَن الـهـوى يُـحـارِبُـنـا بـالـقَـنـا الـذابِـلِ[٣]

وأعـجـبُ مـن أمـلـي وَصْـلُـهـا وبـعـضُ الـمـنـى قـاتـلُ الآمـلِ

لـهـا مـهـجـتـانِ تُـحِـبُّ وتـسـلـو ومـا تـحـتَ ضـديـنِ مـن طـائـلِ

❁❁❁

وقال يستجيرُ بها منها، مستعيناً بمناجاة البدر وحثّه على نجدته من سوء ما حلَّ به:

[من الطويل]

مـكـانـكَ يـا بـدرٌ وإنْ كـنـتَ واشـيـاً لـعـلـكَ تَـروي عـنـدهـا بـعـضَ مـا بـيـا

مـكـانـكَ يـا بـدرٌ لأشـكـوَ حـبـهـا وتـشـهـدَ عـنـد الـلّـه إنْ كـنـتَ رائـيـا[٤]

مكانَك لا تَـعْـجَـلْ لـتـحـضُـرَ ساعتي فـإنـي أرى سـاعـاتِ عـمـري ثـوانـيـا

ويـا بـدرُ خـذ عـيـنـي فـذاكَ سـريـرُهـا وتـلـكَ، وإن لـم أدعُـهـا بـاسـمِـهـا، هِـيـا

أَغـارُ عـلـيـهـا أن تُـقـابِـلَ وجْـهَـهـا فـتـنـقـلَ عـنـهُ لـلـوشـاةِ مـعـانـيـا

وأخشى عليها من شُعَاعِكَ مثلما يخافُ على النفس الجبانُ المَواضيا[٥]

فـإنـي أرى جـسـمـاً لـو انَّ مَـدامـعـي جـرَيْـنَ عـلـيـه أصـبـحَ الـجـسـمُ دامـيـا

ومـا عَـجـبـي إلّا مـن الـبـدرِ يـدَّعـي تـمـتُّـع لـيـلـي ثـم ألـقـاهُ عـاريـا

❁❁❁

---

(١) «من يُحِبُّ»، بمعنى: المحبوبُ، الذي لا يفرّق بين جَوْرٍ وعَدْل لأنه لا يعاني من حُبّه.

(٢) الشَّبا، جمع شباة، وهي من السيف: حَدُّ طرَفه.

(٣) القنا الذابل: الرماح الدقيقة المرهفة ـ واحدته: قَناة.

(٤) استخدم «بدرٌ» منوَّنة لأجل الوزن، وحقُّها الضمُّ، لأنها مقصودة بالنداء، فضاعَ الغرض من النداء، ووقع في خطأ الإعراب لأنه جعلَ (البدرَ) أيَّ بدرٍ، وعليه فالتنوينُ (بالفتح) هو الأصحُّ.

(٥) من أسوأ ما يكون التركيب اللغوي تعقيداً وتداخلاً. وسياقه الطبيعي: يخافُ الجبانُ المواضي (السيوفَ القاطعة) على النفس.

فيا بدرُ إني مَوْضِعُ الصنعِ فاتخذْ يداً لكَ عندي تلقني الخيرَ جازيا[١]
وذي قبلةٌ مني إليها فألقها على فمها وارجعْ بأنفاسِها لِيا
وإن لم يكُنْ في الحُسْنِ إلّا عواذلٌ فيا بدرُ كنْ خيراً عذولاً وواشيا
أذِعْ حُسْنَها في كلِّ أُفقٍ تنيرُهُ وأَحْصِ علينا، ما حَيينا، اللياليا
كأن الهوى قد خُطَّ قبْلَ وجودِنا كتاباً على ما يلبثُ الكونُ باقيا
له البدرُ عنوانٌ وقد أمسَتِ السما صحائفَ فيهِ، والحروفُ الدراريا[٢]
قضى اللّهُ أن أَبلىٰ فصدَّتْ بحكْمه ولو واصلَتْني لم أكن قطُّ باليا[•]
وإني قسمتُ الروحَ شطرينِ، واحدٌ بجسمي وشطرٌ عندها لا يرانيا
ولا بدَّ من يومٍ تعودُ لأصلها فإنّا بوصلٍ بيننا أو فنائيا
ولم أرَ غيري بعضُهُ خانَ بعضَهُ فأصبحَ مشغولاً وأصبحَ خاليا[٣]
بربِّك يا نفسي وربُّكِ شاهدٌ أتهنئةٌ كانَ الهوى أم تعازيا؟
وهل ذكرتْني هندُ يوماً فأشفَقَتْ لِمَا بي وحاكَتْنِي بكاً أو تباكياً؟
وهل حدَّثتْها نفسُها أنني بها شديدُ الهوى أو أنني بتُّ ساليا؟
يكاد يفيضُ القلبُ من ذكرها دَماً لأكتبَ منه في هواها القوافيا
وتذهبُ نفسي حسرةً إن رأيتُها وأُضرِعُ وجْداً كلما قلتُ «آه يا...»
ولو أنني أرجو لهانتْ مصائبي ولكنَّ منها أنني لستُ راجيا
فيا من تُجيرُ النومَ مني جفونُها أَجيري إذاً من ذي الجفونِ فؤاديا
تُحَرِّم عيني ما لعينيكِ مثلما تَجنَّبُ مولاها العبيدُ تحاشيا[٤]
وأُقسم لو تبكينَ يوماً من الهوى لما كنتُ إجلالاً لجفنيكِ باكياً
أما ليَ عُذْرٌ في الغرام وأعيني ترى كل شيءٍ فيك للحب داعيا؟

---

(١) أي أحفظُ الصنائع الجميلة وأجازي بمثلها.
(٢) أي أمست الصحائف التي يتكون منها الكتابُ، سماءً. وأمست الحروفُ، الكواكبَ الدرّيّة.
(•) أسقط البيتُ من طبعة بيروت.
(٣) استند إلى البيت السابق: «وإني قسمتُ الروحَ..» حيث انشطارُ الشاعر إلى شطرين.. يجعل من نفسه اثنين يخون الواحدُ منهما الآخر.. ليجد أنَّ بعضَه مشغول بحبها، والثاني، خالٍ من كل همٍّ.
(٤) تتجنَّبُ العبيدُ مولاها، تحاشياً.

وقد رفعَتْك الناسُ حتى ظننتُهم لأجلك يدعونَ النجومَ جواريا[(١)]
وكم أتصابى فيكِ حتى كأنما وجدتُكِ «حُسْناً» قد تحلَّت تصابيا[(٢)]
فلو سألوني عن أمانيَّ لم أزد على أن تُميتيني وأُخلقَ ثانياً[(٣)]

❁ ❁ ❁

وقال موشَّحاً في لظَىٰ الوصال وتردِّي الحال:

[من الرجز مجزوءاً ومشطوراً]

الصبرُ لا يُجدي مِن بَعْدِ ذا البُعدِ
مع الملالْ
وليس للصَّدّ وحُرقةِ الوجْدِ
سوى الوِصالْ
مِن الهوى ياما أَشدَّ الهوى
وذا الجوى ياما أمضَّ الجوىٰ[(٤)]
قتَلْتُ نفسي والغرامُ انطوى
مذ نقضوا عهدي وأخلفوا وعدي
بذا المِطَالْ[(٥)]
وكنتُ ذا حدٍّ فصرتُ كالغِمدِ
لدى النِّصالْ
وبي ظماً ويلاهُ مِنْ ذا الظَّمَا
وقد أرى الماءَ ولكنَّما
قوليَ: يا ليتُ ويا ليتما
مُسْعَرٌ كِبْدي فلم أَنلْ قصدي
ولا أنالْ

(١) ورَّى في «جواريا» بين: المياه الجارية، والمرأة الجارية. وهذه هي المقصودة.
(٢) إشارة تاريخية إلى إحدى إماء الخليفة العباسي المستكفي المتوفى سنة ٣٣٩هـ/ ٩٥٠م وكانت ذات حسن ونفوذ بالغَيْن.
(٣) جاء في الطبعة البيروتية: «تُميتِني» وفي ذلك خلل عروضي واضح.
(٤) الجوى، إحدى مراحل الحب ودرجة متقدمة فيه.
(٥) استخدم (المِطال) بالكسر والتذكير. والصحيح، بالتأنيث: المِطَالة. وهي فعل المَطْل، أي التسويف، والتأجيل بالوعود والعهود.

وحفرةُ اللحدِ أنزِلُها وحدي
بكلِّ حالْ

❁❁❁

وقال يشكو ويتحسّر من واقعٍ لا رجاءَ فيه:

[من مجزوء الخفيف]

أنحلوني وأسقموا حَسْبِيَ اللَّهُ مِنهُمُ
أيَّ ذَنْبٍ جنيتُ حتى به اليومَ أُعْدَمُ؟
أنا يا حسرتي أنا لم أكنْ قبلُ أَعْلَمُ
كانتِ العينُ تأخذ السرَّ والقلبُ يَكْتُمُ
وتوهَّمتُ كلَّ شيءٍ فساءَ التوهُّمُ
قلتُ ذا الحبُّ جنَّةٌ فإذا هي جهنَّمُ(*)
يا فؤادي أبَعْدَ ما قُضِيَ الأمرُ، تَنْدَمُ؟
مقلةٌ تبعثُ العِتابَ، وأُخرى تُسَلِّمُ
في مُحَيّاً غدا يُشيرُ إلى خدِّهِ الفمُ
ولكم يَحْجُبُ الذي في القلوب التبسُّمُ!
وعلى البحر يَضْحَكُ الموجُ والقاعُ مُظْلِمُ
آه هيهاتَ ما لِمَا تجرحُ العينَ، مَرْهَمُ(١)
لم يُصَبْ قطُّ بالهوى عاشِقٌ ثم يَسْلَمُ(٢)

❁❁❁

وقال مستعظماً واقعه ومصيره المجهول في حومة الحب والعذاب:

[من الكامل]

يا لَلْغَرامِ ويا لَعِزِّ بَناتِهِ لِمَ لا يَذِلُّ فتى الهوى لِفَتاتِهِ؟
خُلِقَتْ ذُكاءُ منيرةً والبدرُ لو لاها لظلَّ الدهرَ في ظُلُماتِهِ

(*) أسقط البيت من طبعة بيروت.

(١) معنى البيت: أنّى للمرهم أن يعالج جرح القلب والعين؟

(٢) لا يكون هناك عشقٌ حقيقي ما لم يتجرّع المُحِبُّ كأسَ الردى فيه.

وبنو الغَرامِ اثنان تلكَ حياتُها ... ثمرٌ تعلق في الهوى بحياتِهِ[1]

كالزهر في أغصانِهِ، والنجمِ في ... آفاقِهِ، والدُّرِّ في صدَفاتِهِ

إنَّ القلوبَ كأهلها ذكَرٌ وأنـ ... ـثى كلُّ قلبٍ فيهِ من حسَراتِهِ

والقلبُ يحمِلُ في النساءِ وإنما ... ولدُ الفُؤاد يكونُ بعضَ صفاتِهِ[2]

ولذا تفاوتتِ الحسانُ فهذهِ ... أُختُ الوَفا، والغدرُ شيمةُ هاتِهِ

والحبُّ أشهىٰ ما يكون إذا الحبيـ ... ـبُ أبىٰ عليكَ القطْفَ من ثمراتِهِ[3]

إنَّ النفوسَ لِمَا مُنِعْنَ شديدةٌ ... ظمأً ويُنْسَى الماءُ عند فُراتِهِ[4]

«يا مَرْيَ» زيديني هوىً فهواكِ نُو ... رٌ لم أزلْ أَسْري على مِشْكَاتِهِ[5]

وأرى الحياةَ عليَّ ليلاً دامساً ... ضلَّتْ نجومُ السعدِ في طُرُقاتِهِ

أَخيي فؤادي ليس مثلُكِ مَن يَدي ... عِزَّ القتيلِ فأَهْوني بدِيَاتِهِ[6]

ها أنتِ مريمُ والهوى عيسى وعيـ ... ـسىٰ كان ردُّ الروحِ من آياتِهِ

قولي لكاهنك الذي قدَّسْتِهِ ... قولاً، وعودي فاسمعي لصلاتِهِ

فلسوف يَزْعُمُ أَنَّها في آيةٍ ... نزلتْ من الإنجيلِ أو توراتِهِ

يرجو ويأمُلُ أن تُبَارِكَهُ يدا ... كِ وكلُّ قومكِ آمِلٌ بَرَكاتِهِ

وإذا دعا عند الوفاةِ لدعوةٍ ... يدعو بأن يلقاكِ عند وفاتِهِ[7]

---

(١) قال: «اثنان» ولم يفصّل، بل شرح واقع الحال قائلاً: أبناء الغرام اثنان: عاشق ومعشوقة. تمثّل هذه الأخيرة الشجرة المثمرة التي لا يتكون ثمرُها، إلّا بسبب ونتيجة من العاشق. وتتأكد (الاثنينية) بما يسوق في الأبيات التالية: زهر وأغصان، نجم وآفاق، درٌّ وأصداف.. وهكذا..

(٢) أسْنَد فَعْل (الحَمْل) إلى النساء، والقلب هو الذي زرع الجنين في أحشاء المرأة.

(٣) استخدم المعنى عينه في قصيدة همزية سابقة بقوله:

فتأبٌ وإنما لذةُ الحبّ (م) إذا كان في الحبيب إباء

ثم يؤكد المعنى في أبيات تالية من القصيدة.

(٤) بيت حكمي جميل، وجماله في تعبيره المؤثر، ويبلغ ذروة جماله في تناهي السعادة عند ارتشاف الماء الفرات الذي هو العذبُ الزلالُ. وكنّى به عن اللقاء العارم بين الحبيبين، ينسى فيه كلٌّ منهما مرارة العطش والحرمان.

(٥) «مَرْيَ» ترخيم: مَرْيَم! ومسْراه في مشكاته، أي سيره في لياليه على نور حبّه المشعشع في جنباته الدامِسَة..

(٦) الديات، جمع دِيَة، وهي المال الذي يُدفع لوليّ المقتول تعويضاً عن القتيل. أي لن ينفعني، كلُّ ما يدفع عن القتلى، بشيء. لذلك أدعوك إلى إحيائي ولا ينفعني شيء إذا «متُّ» بحبّك.

(٧) أي ليست له دعوة يخص بها نفسه، وهو يُحْتَضَر، إلّا أن يلقاك، في الدنيا أو الآخرة.

شغلتهُ غفوتُه فلستُ بلائمٍ ... والشيخُ معذورٌ على غَفَلاتهِ[*]

واهاً لهذا الحبِّ، لو عرفَ الوليـ ... ـدُ الحُبَّ لاستعصى على داياتِه[1]

شيءٌ يحارُ المرءُ فيهِ لأنه ... من ذاتهِ جلبَ الشقاءَ لذاتِهِ

ما كان أبعدَني وقولي في الذي ... آتيهِ يوماً: ليتَني لم آتِهِ!

لكنَّ حالاتِ القضاءِ على الورىٰ ... شتَّى وهذي الحالُ من حالاتِهِ

أترى المريضَ اشتاقَ وجهَ أُساتِهِ ... أم كانَ يُشجِي المَيْتَ صوتُ نُعاتِهِ[2]؟

يا قومُ ما لي حيلةٌ واليومَ قد ... دنفَ الهوى والطيرُ عند شتاتِهِ

هيهاتَ أُبصِرُها وأبقى بعدها! ... فالنجمُ، نورُ الشمسِ من آفاتِه[3]

ولأَن ترىٰ ذا الصبَّ في الأمواتِ خيـ ... ـرٌ أن يراها الصبُّ بين وُشاتِهِ

❁ ❁ ❁

وقال في تراسل القبل المكتومة:

[من الطويل]

بُليتُ بهذا الحب أَحمِلُه وحدي ... وكلٌّ له وجْدُ المُحِبِّ ولا وَجْدي[4]

هي الحُسْنُ في تِمْثَالِها وأنا الهوى ... فلا عاشقٌ قبلي ولا عاشقٌ بعدي

وفي كلِّ وادٍ للغرامِ بَشَاشةٌ ... فشأنِيَ في (باريس) شأنيَ في نَجْدِ[5]

ولم أنس يوماً جئتُها ذاتَ صُبحةٍ ... عليلاً كما هبَّ النسيمُ بلا وَعْدِ

وكنتُ وكانتْ، والدلال يصدُّها ... فتُبْدِي الذي أُخْفِي وتخفي الذي أبدي

(*) أسقطت هذه الأبيات السبعة ابتداء من «أحيي» حتى «شَغَلتْه» من القصيدة. والسبب واضح. كل ما له علاقة بالأنبياء أو بأحكام الفقه الإسلامي ومقدَّسات الإسلام، وخلافه، مرفوضٌ عند محقق الطبعة البيروتية.

(١) الداية: القابلة، المولِّدةُ. أي لو عرف الإنسان قبل ولادته مبلغ العذاب والتشريد اللذين يلاقيهما في حياته، تمنَّع عن مطاوعة القابلة في الولادة.

(٢) الأُساةُ، جمع آسٍ: الطبيب المعالجُ. ويشجي المَيْت: يَهيجُ أشواقَه ومشاعرَه.

(٣) أي أن الشمس التي تمنح الكواكب أنوارها، هي نفسها آفة عليها، لأنها إن ظهرت، كسفتْ كلَّ الكواكِبِ.. وهو هنا يخص بالذكر البدر أو النجم الذي يتشبهُ هو به..

(٤) طالما ردَّد هذا الكلام، كقوله من قصيدة عينيَّة سابقة (ص٢٨٧):

وما أنا وحدي من يقولون عاشقٌ ... ولكنني وحدي الذي أتوجع

(٥) ذكر كلاًّ من (باريس) و(نجد) ليؤكد التضادَّ، وبأن الأمرَ عنده سيَّانِ، والغلبةُ هنا للجفاف والتلظِّي.

وما زلتُ حتى كاتمتني قُبلةً على حَذَرٍ حتى مِن الحَلْي والعِقْدِ
وكنَّا كمِثْلِ الزهرِ يلثِمُ بعضَهُ ولا صوتَ للنسرينِ في شفةِ الوردِ[1]
وكان فمي فيهِ إليها «رسالةً» فسلَّمها فاها وحمَّلَ بالرَّدْ
إذا لم يكنْ عندَ الحبيبةِ لي جوًى فقولوا لماذا لا يكونُ الجوى عندي؟

❁ ❁ ❁

وقال في التجافي بعد التواصل:

[من الوافر]

على الطُّرسَينِ من خَدٍّ وجيدِ أرى سَطْرينِ في معنى الصدودِ
وقد سَدَلتْ غدائرَها تُريني تَبَدُّلَ بِيضِ أيامي بسُودِ
وقطَّعني الأسى والدمعُ بَحْرٌ فعادَ بَسيطُ همِّي في المديدِ[2]
ولما أَقْصَدَتْ قلبي بلحظٍ علمتُ بأنَّهُ بيتُ القصيدِ[3]
لها دِيْنٌ ولي دينٌ ولكنْ أرى القلبَيْنِ في دينٍ جديدِ[4]
وكم من ليلةٍ مرَّتْ وأُفْقُ النـ ـجومِ كجيدِها تحتَ العُقودِ
وقد وَقَفَ الدُّجى فزَعاً يُصلِّي وظُلمةُ ذَنْبِهِ ملءُ الوجودِ
وأنفاسُ النسائمِ كهرباءٌ تُوَصِّلُ بينَ قلبي والخدودِ
وقد سَعتِ اللحاظُ بما أردْنا تُؤَكِّدُ بيننا صِدْقَ العهودِ
فكمْ لَحْظٍ وكم نَفَسٍ ترا ذا «تلغرافاً» وذا «ساعي بريدِ»[5]
فعدتُ أرىٰ النعيمَ ولستُ فيه كمِثلِ الغصنِ شُبِّه بالقدودِ
فلا أهلاً بأيامِ التجافي ويا أيامَ ذاك الوصلِ عُودي!

❁ ❁ ❁

---

(١) تشبيه التشبيه، يعتور الشاعرَ كلَّما أحسَّ أنَّ صدره يضجُّ بالمعاني والأحاسيس، فيعمد إلى تشبيه، فلا يرتوي، فيعزِّزه بثانٍ، ولا أراه مرتوياً.. والتشبيه الثاني هنا غاية في السموّ والرقَّة.

(٢) استخدم الشاعر ثلاث توريات، تقطيع بحر الدموع، والبسيط (الوزن العروضي) كذلك المديد، وهو يقصد من ذلك كله، تقطيع المعاناة والبساطة والامتداد في الهم والمعاناة.

(٣) في أصل الطبعة: أمصدَتْ، ولا معنى لها ولا وجود.. وأقصدتْ: رمت بسهام قاتلةٍ..

(٤) الدين هنا: العقيدة والمذهب، وقد يكون: السيرة والحال والشأن.. والدين الوحيد في الحب هو انشغال القلب بغيره.

(٥) لم نفقه صيغة (ترا) لا فعلاً ولا اسماً ولا حرفاً. وقد تكون مصحَّفةً عن (ترى) أي تَنْظُرُ..

وقال مصوِّراً شغفه واحتراقه في الحبيب:

[من المنسرح]

لـيـتَ أهـلَ الـغـرامِ مـا عَـشِـقُـوا ... بـل لـيـتـهـمْ قـبْـلَ ذاكَ مـا خُـلِـقـوا
إنـي وجـدتُ الـحـيـاةَ سـائـغـةً ... كـالـمـاءِ لـكـنْ لـهـا الـهـوى شَـرَقُ[1]
ومـنْ يَـجِـدْ عـاشـقـاً يـعـيـشُ فـمـا ... يَـنْـجُـو الـقـتـيـلُ الـذي بـه رَمَـقُ
وكـيـفَ يـبـقـى الـعـودُ الـذي عـلِـقَـتْ ... بـأصـلـهِ الـنـارُ وهـوَ يـحـتـرقُ؟
يـا قـمـراً فـي الـفـؤادِ مـطـلـعُـهُ ... ومِـن سُـوَيْـدَائِـه لـهُ غَـسَـقُ[2]
إن تـلـقَ فـي مـهـجـتـي سِـوَاكَ فـمـا ... يُـريـكَ غـيـرَ الـكـواكـبِ الأُفـقُ
كـانَ زمـانٌ كـلـيـلـةٍ حـلـكَـتْ ... هـواكَ عـنـدي لـصُـحْـبـهـا فَـلَـقُ[3]
وأنـتَ وَرْدي فـمـا يَـعِـيـبُـكَ أن ... يَـنْـبـتَ يـا وردُ قـبـلَـكَ الـوَرَقُ
أنـبـتـكَ الـلّـه مُـثْـمِـراً شَـغَـفـاً ... وهـذهِ أضـلـعـي لـهُ طـبَـقُ
يـا رَبِّ إن الـقـلـوبَ قـد ضَـعُـفَـتْ ... عـن فـتْـنَـتَـيْـنِ: الـخـدودُ والـحَـدَقُ

❁ ❁ ❁

وقال في وهَن البدن وضمور الأثواب:

[من البسيط]

لا يَـحـمـلُ الـصـدَّ مـنـهـا والـهـوى، بـدَنـي ... ولا أطـيـقُ بـلايـا الـحـبِ والـزمـنِ
جـسـمٌ تَـراهُ فـلا تَـدري أَمُـشْـتـمِـلٌ ... بـالـثـوبِ أم درَجـوهُ مـنـه فـي كَـفَـنِ[4]؟
يـكـادُ يـومَ الـتـنـاجـي أن يُـطـيِّـره ... مـرُّ الـهـواءِ مـع الـشـكـوى إلـى الأُذُنِ
لـولا الـحـبـيـبُ وقـصـدي أن يـبـيـنَ لـهُ ... يـريـه مـا فـعـلـتْ عـيـنـاهُ، لـم يَـبِـنِ[5]

❁ ❁ ❁

وقال في معاتبة القلوب ولغة العيون:

[من مجزوء الوافر]

تـعـاتَـبْـنـا كـأنَّ الـقَـلْــ ... ــبَ عـنـدَ الـقـلـبِ فـي شـكِّ

---

(١) الشَّرَقُ: الامتلاء، والغَصَصُ. كأنما أراد: كلُّ شيء سائغٌ إلّا الهوى، فإنه لا يُشرب إلّا بغَصَصٍ وضيق حَلْقٍ.
(٢) سويداء القلب: حبّته ومهجته. والغَسَقُ: ما تتشكل به السماء من ظلمة ما بعد العشاء.
(٣) الفَلَق: الانشقاق.
(٤) دَرجوهُ، بمعنى أدرجوه: أدخلوه.
(٥) تعقيد وملابسة في التركيب، والمعنى واهٍ لا يستحق هذه المكابدة اللغوية.

وألسُنُنا صوامتٌ والـ ـعُيونُ لبعضِها تَحكي
فقالتْ: أنتَ كالأطفا لِ، خِلْوُ القلبِ من شِرْكِ[1]
ففاضَ بمدحِها دمعي ونُطقُ «الطفلِ» أن يبكي

❁❁❁

وذكر ما حقَّقه الوشاةُ من الصدود:

[من المتقارب]

وَشى العاذلونَ بأني سلَوْتُ وأنَّ الجفونَ ألِفنَ الرقادْ
فلمَّا رأتنيَ من خِدْرِها أشارتْ لقلبيَ بالابتعادْ
وهزَّتْ سِتارتَها باليدينِ تُعلِّمني كيفَ خَفقُ الفؤادْ

❁❁❁

وقال في امرأة عصيَّةٍ على التشبيه والمقاربة:

[من الرجز]

ساتِرةٌ والبدرُ لا يُنتقَبُ وليسَ إلَّا في القلوبِ تُحجَبُ[2]
تَغْرُبُ في القصرِ ومنهُ طلعَتْ فقصرُها مَشرِقُها والمغربُ
هو السماءُ وهي بدرٌ حولَها من كل قلبٍ يتَسلطى كوكبُ
ولا أقولُ شعرُها ليلٌ وحا شاهُ فتحتَ الليلِ صبحٌ أشيبُ[3]
ولا أقولُ وجهُها شمسٌ ومثـ ـلُ الشمسِ عندي فَخمَةٌ تلَهَّبُ
ولا أقولُ خدُّها نارٌ فإنَّ (م) كلَّ نارٍ تنطفي وتَرطُبُ
ولا أقولُ ثغرُها دُرٌّ فإنَّ الدرَّ في أيدي الرجالِ يُثقَبُ
ولا أقولُ قدُّها غصنٌ فإنَّ (م) الغصنَ كيفما يكونُ حَطَبُ[4]
تباركَ اللهُ الذي صوَّرها عَجيبةٌ يَحارُ فيها العَجَبُ

---

(١) أي لا يُشركُ بحبها أحداً.

(٢) ساترة (اسم فاعل، بمعنى مفعول) كليلٍ لائل، بمعنى ألْيَلَ، أي مستورة محجَّبةٌ بنقاب..

(٣) استخدم صفة «الأشيب» للون البياض، وهي صفة ضعيفة كونها جيء بها لتعلية رتبة البياض والنور الباهر.

(٤) تفتَّقتْ أريحية الشاعر عن سلسلة تشابيه، ساقها بصيغة المعترِف بقصورها عن إضاءة الصورة وكشف مزايا المرأة الحبيبة.. وهو أسلوب مطروق جداً من القدامى، وسيبقى كذلك لدى كل من يتعاطى التشبيه بسننه التقليدية القائمة على المقارنة.

أنبَتهـا فينـا نبـاتاً حسَنـاً ... ومـن أمـانـيِّ النـفـوسِ تَشْـرَبُ
فللهـوى فـي كلِّ قلـب مَوْرِدٌ ... ولـلـهـوى مـن كـل نـفـس سـبَبُ
أبيتُ كالملسوعِ من قولـيَ آ ... ءِ إنـمـا قـولـيَ (آءٍ) عـقـربُ

۞ ۞ ۞

وقال يحنو على ذاتِه غَداة مساءلتها إياه:

[من الطويل]

أقولُ لها إذ ساءلتْ كيفَ حالتي ... أقلُّ مُصَابي لوعةٌ أكَلتْ قَلبي
وعندي، وما عندي، وهلْ تجهلينَهُ ... وأنتِ التي علَّمْتِنِي شغَفَ الحُبِّ؟
حنانَكِ يا أُخْتَ العصافيرِ خِفَّةً ... ويا ضُرَّةَ الطاووسِ في التيهِ والعُجْبِ
ويا بانتي ميلي ويا زهرتي انفحي ... ويا نسمةَ الأسحار في روضنا هُبِّي[1]
فمالتْ تُعاطيني من الشغر كوثرا ... حَسِبْتُ به حُورَ الجِنانِ إلى جنبي
فيا ربِّ حَسْبِي ما مضى إنما الدُّنا ... عذابٌ وهذي روحُ عبدكَ يا ربي

۞ ۞ ۞

وقال في حوارية غزلية جميلة:

[من الطويل]

تنادتْ: حرامٌ أنْ أُقبِّل ثَغرَها ... فقلتُ: إذاً، فالدرُّ يَحْرُمُ لَثْمُهُ
فقالتْ: وخدِّي! قلتُ يا حُسْنَ ما أرى! ... متى حُرِّمَ الوردُ الذكيُّ وشَمُّه؟
فقالتْ: وهل صار العناقُ محرَّماً؟ ... فقلتُ: وهل غُصنٌ يُحرَّم ضمُّه؟
دعي الحبَّ يَحْكمْ في الدنا بين أهلِه ... ومِن بَعْدِها يا هندُ، لِلَّهِ حُكْمُهُ(•)!

۞ ۞ ۞

وقال في أمنيَّة مستحيلة:

[من مجزوء الرمل]

بي حبيبٌ مَسَّ عقلي ... فأصابَ العقلَ مَسُّ
أتُرَى يرجِعُ قلبي؟ ... ومتى يرجِعُ أمسُ؟

---

(١) البانَةُ، واحدةُ البان: ضربٌ من الشجر سبْط القَوام، ليِّنٌ، ورقه كورق الصفصاف. يُشَبَّهُ به الحسان في الطول واللين (المعجم الوسيط: [بانه] جـ١/ ٧٧). وفي أصل الطبعة: «انفتحي» بدل: «انْفحي».
(•) سقطت هذه المقطَّعة أو أسقطت من طبعة بيروت.

ليتَ لي نفسَينِ، إن أهـ ... ـلكْ نفساً تبقَ نفسُ[1]

❁ ❁ ❁

وقال يذكر هنداً ويسترحمها الرفقَ به:

[من البسيط]

أشكو لها الحُبَّ ظنّاً أنْ سيَعْطِفَها ... والحبُّ يمنعها أن تسمعَ الشاكي

يا هندُ ما كانَ لي، أمسى عليَّ إذاً ... يا ليتَ ما كانَ لا هذا ولا ذاكِ

للدهر جَنْبانِ ما ينفكُّ منقلباً ... حيناً وحيناً كما تُغْرِيهِ عيناكِ

يا هندُ حبُّكِ نهرُ العاشقين فمَنْ ... رأى إذاً نَهَراً من غير أسماكِ؟

رُحْماكِ قاتلةٌ رحماكِ فاتنةٌ ... فالناسُ في ذا الهوى ليسوا بأملاكِ

يا هندُ ما نظرتْ عيناي في حُسْنٍ ... إلا تبيَّنتُ معناهُ بمعناكِ

❁ ❁ ❁

وقال يدعو نفسه إلى صحوة قلبية فاعلة قبل فوات الأوان:

[من الوافر]

أتاني بعد فُرقتِنا سَلامٌ ... فكيفَ وعُذّلي حولي، أتاني[2]؟

تقولُ أأنتَ لا تنفكُّ حيّاً ... تُعَاني مِن هَوانا ما تُعاني[3]؟

كفى هجراً فقد أصبحتُ نِضْواً ... تمرُّ بيَ العيونُ ولا تراني[4]

ولو هبَّ النسيمُ عليَّ يوماً ... لزحزحني وربِّكِ عن مكاني

وها أنا حينَ أنظِمُ فيكِ شعراً ... أكادُ أكونُ فيهِ من المعاني

لوَ انَّ الحُورَ حولي قد تجلَّتْ ... لجَدَّ الناسُ في طلب الجِنانِ

❁ ❁ ❁

وقال يذكِّر حبيبه ما هو فيه من ضياع ويدعوه إلى الرقة والحنان:

[من السريع]

ما أوجبَ الإعراضَ بعد الذي ... قد كانَ من وَصْلٍ وإيناسِ؟

أراكَ في الهجرِ كأني أرى ... بأعينٍ ما كُنَّ في راسي

---

(١) حرَّك (كاف) «أهلكُ» للضرورة الشعرية، وصوابها الجزم. وهكذا دأبه: يجيزُ الكثير من المغالطات في سبيل الوزن.

(٢) وسياق الكلام هو: فكيف أتاني سلامُها بعد هذه الفرقة، والعذّالُ من حولي؟.

(٣) في الأصل «من هولنا» ولا معنى لها، فضلاً عن اختلال الوزن.

(٤) النضوُ: الضعيف المهزول.

فهلْ لقلبي فيك مِن حيلةٍ ... وهل على قلبك من باسِ؟
إنْ تشبهِ الوردَ فإنني مِنَ الـ ... ـهوى عرَتْني هِزَّةُ الآسِ
يُنبئني لحظُكَ أنَّ الذي ... سبَّب هذا، قلبُكَ القاسي
فأنتَ تُخفي السرَّ لكنما ... تُظهرُهُ عيناكَ للناسِ[١]

❁❁❁

وقال يتعهدُ حبَّه ويمنح حبيبه الدرجة العليا في العلاقة:

[من مجزوء الرمل]

إنْ تجِدْ قلباً كقلبي ... تلْقَ حُبّاً مثلَ حُبي
أنتَ تُضبيني فما لي ... لا أرىٰ أولَ صبٍّ؟[٢]
[هل] تقاسَمْنا: لكَ الجنَّـ ... ـاتُ، والنارُ لقلبي؟[٣]
مُرْ بما شئتَ فغيرُ الـ ... ـحبِّ عندي غيرُ صعبِ
وتَدلَّلْ وتمنَّـعْ ... أوَّلُ الوصلِ التأبِّي[٤]
أنا في قُربي وبُعدي ... قاتلي بُعدي وقُربي
يا تُرى كيفَ أمِنَّا ... كَ وقد جئتَ لتَسْبي[٥]؟
تَرفعُ (الطربوشَ) في أهـ ... ـلِ الهوى رايةَ حزبِ
والهوى لِلقلبِ فَخٌّ ... يَخدَعُ الطيرَ بحَبِّ
ما خطَتْ رِجلُكَ إلَّا ... بانَ لي مصرَعُ جَنْبِ

❁❁❁

وقال في مليح كان في روضة:

[من المتقارب]

رأيناهُ يَخطرُ في روضةٍ ... كأنْ قد تَعلَّم مِن بانها[٦]

---

(١) وردت الضمائر في جميع أبيات النص، بصيغة المخاطب المؤنث، فصحَّحناها، باتجاه المذكر، وإلَّا وقع الشاعر في عدد ملحوظ من أغلاط النحو والوزن الشعري.
(٢) تُضبيني: تستميلني وتُحرِّك صبوتي نَحْوَكِ.
(٣) في البيت خلل عروضي، يستقيم بزيادة حرفين على أول البيت. كـ: (هل) أو (همزة) الاستفهام وحدَها.
(٤) التأبِّي: إظهار الإباء والشَّمم.
(٥) السَّبْيُ: الأَسْرُ..
(٦) تشبيه ضمنيّ لطيف، كأنه قال: كأنه من رقته وطول قامته، غصن بانٍ. وقد شرحنا البان في حاشية قريبة سابقة.

فكانت به جَنَّةُ العاشقينَ ... وكان فؤادي كرضوانها[١]

وما سُمِّيَ الروضُ باسم الجِنا ... نِ لو لم يكنْ بعض وِلْدانِها

❁❁❁

وقال يتغنى بشادنٍ:

[من مشطور المتدارك، ويمكن رَصْفُ الأشطر فيصبح الشعر من المتدارك التام]:

شفَّني بُعدُ من ... لم يَئِنْ قُربُهُ

شادنٌ لم يزلْ ... قاسياً قلبُهُ[٢]

إن يقولوا لهُ ... مَضَّهُ حبُّهُ

قال عُذري الهوى ... والهوى ذنبُهُ

❁❁❁

وقال متكلِّفاً الطباق والجناس البديعيَّين، من دون إبداع:

[من مجزوء الخفيف]

إن يكنْ طبعاً أن تَمِيـ ... ـنوا فقِدْماً مُنيتُ[٣]

أو رأَيتمْ أن لا تُعيـ ... ـنوا فإنني عَنِيتُ[٤]

أو رَغبتمْ أن لا تُبا ... لوا ففيكمْ بُليتُ

ما أراني أحسيا كذا ... فاسمحوا لي أموتُ

❁❁❁

وقال في تعلُّم الهوى واكتسابه:

[من مجزوء الكامل]

أنا عن مخاطبةِ العَوا ... ذِل كالمُصَلِّي قد نوىٰ[٥]

ألا ما يذكرون سواه ... قلتُ جلَّ عن السّوى[٦]

---

(١) رضوان، أحد الملائكة البررة الذين يتولّون الخدمة في الجنّة.

(٢) الشادن: ولد الغزال. ج: شوادن.

(٣) تَمينوا: تكذبوا، من المَيْن: الكذب. و«مُنيتُ»: كما لو كان أُصيب بمنيّةٍ.
وفي هذا البيت ثقل عروضي واضح.

(٤) عَنيتُ: شَقيتُ من العَنَاء.

(٥) قصد الخُشوع والامتناع عن حوشيّ الكلام، كمن هو في صلاة.

(٦) هكذا ورد البيت في الطبعة المصرية، وهو ساقط في طبعة بيروت، مع الإشارة إلى أنه مختلٌّ عروضياً صدراً وعجزاً.

والـلّـهِ لـولا مـقـلـتـا ... هُ لـمـا تـعـلّـمـنـا الـجَـوىٰ
والـقـلـبُ لا يـهـوى سـوى ... مـن كـانَ عـلّـمـهُ الـهـوىٰ

❂❂❂

وقال في مليح رآه في (محطة):

[من المتقارب]

مـلأتَ (الـمـحـطـةَ) بـالـعـاشـقـيـنَ ... فـهـذا يُـغـيـرُ وذاكَ يَـغـارْ
وقـلـبـيَ مـمـا تـمَـزّقَ أضـحـى ... كـأنَّ عـلـيـهِ يَـمـرُّ الـقِـطـارْ
بـربِّـكَ مـاذا فـعـلـتَ بـنـا ... ومـا لـكَ عـنـد ذوي الـحـبِّ ثـارْ؟
قـتـلـتَ وأحـرقـتَ، حـتـى الـقـطـارُ ... يَـسـيـرُ وفـي (قـلـبـهِ) مـنـك نـارْ

❂❂❂

وقال في كلام الحب وحربه:

[من المجتث]

أشـار لـي بـسَـلامِ ... ومـقـلـتـاهُ بـحـربِ
فـمـا رفـعـتُ يـمـيـنـي ... حـتـى هَـوتْ فـوق قـلـبـي

❂❂❂

وقال في عبوديته للمحبوب:

[من مجزوء الرمل]

أنـا إنْ قـلـتُ أنـا ... عـبْـدُ هـذا الـسـيِّـدِ(*)
ولـهُ الأمـرُ فـمـا ... شـاءَ مـنـي يَـجِـدِ
ويـرى قَـتْـلـي لأنـي ... صـرْتُ مـن مِـلْـكِ الـسـيِّـدِ
كـسـلـيـمـانَ لـهُ ... حـلَّ ذبـحُ الـهُـدهُـدِ

❂❂❂

وقال متشكياً من لظى القلب وفتك الألحاظ:

[من السريع]

شـكـوتُ مـا بـالـقـلـبِ مـن لـوعـةٍ ... ومِـن جَـوًى، يـا مـا أشـدَّ الـجـوىٰ
فـمـالَ بـالـلـحـظِ ولـمّـا رأى ... وَجْـدي، ثَـنـاهُ فـي يـديَّ الـهـوىٰ

(*) لا يقول الإنسان «أنا» من غير أن يُسند إليها شيء، إلّا في الفخر، كأن يقول: ها أنا، وأنا، أنا.. الخ.

والظبيُ إمّا كَسَلَتْ عينُهُ ... تَشبَّه الجيدُ بها فالتوىٰ

◎◎◎

وقال يناشد عودة الحبيب المغترب:

[من مجزوء الرمل]

يا غريبَ الدارِ إنَّ (م) ... الـدُّرَّ أعلاهُ غَريبُهْ

إن تكنْ غِبتَ فإنَّ (م) ... البدرَ قد طالَ مَغيبُهْ

فاطوِ أيامَكَ وارجِعْ ... يُبرِئُ القلبَ طبيبُهْ

إنما حظُّ الفتى من ... هذهِ الدُّنيا حبيبُهْ

قد شطرنا الدهرَ؛ لي ما ... مرَّ، لكنْ لكَ طيبُهْ[1]

ونَصيبُ المرء ممّا ... قدَّرَ اللهُ يُصيبُهْ

◎◎◎

(١) تورية لطيفة في «مرّ» ذات المعنيين: القريب: الذي مرَّ وانقضى. والبعيد المقصودُ: مرٌّ من المرارة.

في الأغراض والمقاطيع

قال في معانٍ مختلفة من الغزلِ والحِكَم:

[من الطويل]

على الشمسِ من نَسْجِ الغمام سُتورُ ... كما لِلْغَواني كِلَّةٌ وسريرُ[1]

وتُحجبُ ذات الحُسْنِ لكنَّ حسْنَها ... يدورُ بأهلِ العشقِ حيثُ يدورُ

وبعضُ تكاليفِ الصِّبا يبعثُ الأسى ... فكيفَ وأسبابُ الغرامِ كثيرُ[2]

وفي كلِّ حسْنٍ موضعُ الذكرِ للذي ... يُحبُّ فَما يسلو الغرامَ ضميرُ

أراني إذا ألقيتُ للشمسِ نظرةً ... كأني إلى وجهِ الحبيبِ أُشيرُ

وما رقبتي للصبحِ إلا تعلُّلاً ... لعلَّ طِلاعَ الشمسِ منهُ بشيرُ[3]

ولي زفراتٌ لو تجسَّمَ حَرُّها ... لأصبحَ شمساً في الفضاءِ تنيرُ

وإني ليرضيني على القربِ والنوى ... إذا فاحَ منهُ في الصباحِ عبيرُ

هما خطَّتا ذلٍّ فإمَّا ارتوى الهوى ... وإما صبرُنا والكريمُ صَبورُ

وأفئدةُ الإنسانِ كُثرٌ طباعها ... وفي الناسِ أعمَى قلبُهُ وبصيرُ

وإني وإن لم أحتملْ أمرَ معشرٍ ... فقلبي على كلِّ القلوبِ أميرُ

وسِيانِ، إما أُبلِغ النفسَ سُؤْلَها، ... كبيرٌ وإن أجللتُهُ، وصغيرُ

وما دامتِ الأفلاكُ في دورانِها ... ففيهنّ من بعدِ الأمورِ أُمورُ

وكم ليَ يومٌ دارتِ الشمسُ فوقَه ... وسارتْ عليهِ في الظلامِ بدورُ

لبستُ جناحَ اللهوِ فيهِ ولم أزلْ ... أَرِفُّ بهِ حتى لكدتُ أطيرُ

ونالَ الهوى منهُ عرائسَ لذةٍ ... لها الراحُ ريقٌ والكؤوسُ ثغورُ

زمانٌ كأنْ قدْ كانَ للهوِ منزلاً ... فساعاتُهُ للمُلهياتِ خُدورُ[4]

---

(١) الكلّة: سِترٌ رقيق مثقَّب يُتخذ وقاءً من البعوض وغيره.

(٢) تكاليف: واحدها تكليف، وهو أمر يفرضه من له شأن وسلطة. وقصد به الشاعر أوامر الحب ومُلْزَماته.

(٣) الطِّلاع، الاطِّلاع، والظهورُ.

(٤) الخدُور، مفردها خِدْرٌ، ما يُواري المرء من بيت ونحوه، وهو أيضاً سِترٌ يُمدُّ للمرأة في ناحية =

أخذنا على الدهرِ المواثيقَ عندهُ ... فأيامُهُ للنائباتِ قبورُ
وأحسنُ أيامِ الفتى يومُ لهوِهِ ... على فطرةِ الأطفالِ وهوَ كبيرُ
وإن همومَ الدهرِ موتٌ لأهلِهِ ... فما كانَ من لهوٍ فذاكَ نشورُ[(١)]

❁ ❁ ❁

وقال [مُرْجزاً] في استشراء الهمّ في حياته:

[من الرجز]

بلانيَ الدهرُ بكلِّ همهِ ... فصرتُ غيرَ جازعٍ لحكْمهِ
وصارَ معنى الهمِّ عندي كاسمهِ ... وهِمَّةُ المرء تُرى في حزمهِ
والدهرُ إن مسَّ سِوايَ يُدْمِهِ ... لكنَّ في جسميَ وقْعُ سَهْمِهِ
كعضَّةِ الصبيِّ كَفَّ أُمِّهِ

❁ ❁ ❁

وقال في تعليل أنَّ الدنيا لا سعادة فيها:

[من مجزوء الرمل]

كم أُريدُ السعدَ لكنْ ... فوقَ آمالي إرادَهْ
جُلُّ منْ يطلبُ دُنيا ... يَعْبدُ الدنيا عبادَهْ
ولهذا غضِبَ اللّـ ... ـهُ فكانَ النحسُ عادَهْ
وقضى في حكمهِ أنْ ... ليسَ في الدنيا سعادَهْ

❁ ❁ ❁

وقال ارتجالاً في غادة رآها في مرسح[(٢)] تمضغُ العِلْك «اللبان»:

[من مجزوء الرجز]

فاتنةٌ في أضلعي ... كالشمسِ في برجِ الحَمَلْ
إذا أماتتْ بالجفو ... نِ فهْيَ تُحيي بالمُقَلْ
كأنَّها لاعبةٌ، ... في راحتيها، بالأَجَلْ

= من البيت. كأنما التفّت ساعات اللهو على ذلك الزمان فأحكمت عليه السياج ومنعته من اقتحام لحظات اللهو والتمتع. صورة جميلة لا يخفى تأثيرها على المتذوق.

(١) صورة فنية ثانية أرفعُ مقاماً.. فالهموم ـ لتراكمها وشدَّتها ـ أضحت كالقبور. وما سويعات الفرح والصبوات إلّا انبعاث لتلك الحياة الموحشة في ظلام القبر والابتئاس.

(٢) ليس في المعجم اللغوي صيغة أو زنة (مفعول) أو (مَفْعَل) لجذر [رَسَح] وليس فيه ما يسمح لاستعمال (مرسح) بمعنى (مَسْرح).

أردتُ أن أقـــــــــــول آ ـهِ فــأشــارتْ: لا تــقُــلْ
وجَـعـلـتْ فـي فـمـهـا لُـبـانَـهـا مـن الـحِـيَـلْ
تـعـلَّـلـتْ بـمَـضْـغـهِ لـكـي تُـشـيـرَ بـالـقُـبَـلْ

❁ ❁ ❁

وقال في صاحب مضطرب متقلب، وكتب بها إليه وأشار فيها إلى مذهب «دروين» المشهور:

[من المجتث]

أقـــام (درويـــنُ) دعـــوى ولـــم يـجـئْ بـشـهـودِ
ومـــرَّ قـــومٌ فـــقـــومٌ وكـلُّـهـمْ فـي جـحـودِ
لـكـنـنـي بـعـد أن صــرْ تُ لـم تـراع عـهـودي
وكـلّ يـوم جـديـدِ تـبـدو بـشـكـلٍ جـديـدِ
آمـنـتُ أنـك فـي الـنـا سِ نَـسْـلُ بـعـض الـقـرودِ[1]

❁ ❁ ❁

وقال في آخر بذيء اللسان يبطن غير ما يظهر:

[من الخفيف]

كـانَ ذاكَ الـصـديـقُ فـيـمـا رأيـنـا سُـحُـبـاً فـوقَـهـا سَـمـاً سـوداءُ
خـاب فـيـهِ الـرجـا ولـيـس بِـبِـدْعٍ كـلُّ مـيْـتٍ يَـخـيـبُ فـيـهِ الـرجـاءُ
يـا سـفـيـهَ الـلـسـانِ إن أنـت لـم تـسـ ـتـحِ مـنـي فـفـي لـسـانـي حـيـاءُ
عـجـنـتْ لـي الـرواةُ أخـلاقـك الـسـو ءَ ومِـنْ طـيـنـهـا يـكـون الـبـنـاءُ
كـم حـفَـرْنـا الـتـرابَ مـن ذلـكَ الـوجـ ـهِ فـقـلْ لـي ألـيـسَ فـي الـوجـه مـاءُ؟

❁ ❁ ❁

وقال يداعبُ صديقاً رقيقَ الحالِ ذكر أنه سيشتري (عربة):

[من السريع]

حَـسْـبُـكَ أن تـدريَ يـا مُـفْـلِـسُ مـن عَـربـاتِ الأغـنـيـا بـاسـمِـهـا[2]
والأرضُ مـنَ رجـلـيـكَ مـجـروحـة فـمـا الـذي فـاتـكَ مـن جـسـمِـهـا

---

(١) لم ترد هذه الأبيات الخمسة في طبعة بيروت.

(٢) يكفيك أن تسمَع باسم العربات وهي من مقتنيات الأغنياء، ذاك أن المفلس أمثالك، لا يسعه أن يحقق شيئاً مما يؤمله من رغد العيش، أكثر من معرفة الأشياء بالسَّماع، لا العِيان...

إن تُردِ الدنيا، ومن قِسْمِك الـ ... ـفقرُ، تكنْ روحُك من قِسْمِها[1]

❁ ❁ ❁

وقال في ثقيل:

[من المديد]

وثقيلٍ باتَ في نِعَمِ ... وأراني منه في نِقَمِ

قال ألقاكَ صباحَ غدٍ ... يا غدُ عجّلتَ بالسَّقَمِ

لو يقومُ الميّتونَ غداً ... لتكاسلْتُ ولم أقُمِ

❁ ❁ ❁

وقال في زمان القرود:

[من المتقارب]

تولى زمانُ بني آدم ... وهذا الزمانُ زمانُ القرودْ

وما الموتُ إلا اصطحابُ الثقيل ... ولولاهُ فازَ الورى بالخلودْ

❁ ❁ ❁

وقال في جماعة من أصحابه دبّتْ فيهم خلالُ السُّوء:

[من مجزوء الرمل]

عِفْتُهم إذ أصبحوا ... مَطْعَماً غيرَ مريءْ

فادَّعَوْا أنْ خنتُهم ... وأنا منها بريءْ[2]

يشتهي الجيِّد من ... لا يرى إلا الرديءْ

❁ ❁ ❁

وقال أيضاً سالكاً حِيالهم بسلوكهم المماثل:

[من مجزوء المتقارب]

نَسِيتمْ ودادي فلمْ ... تَزوروا ولم تسألوا

وسِيّانِ عِندي فلا ... أقولُ اهجُروا أو، صِلوا

ومن كان بي جاهلاً ... فإني به أجهَلُ[3]

❁ ❁ ❁

---

(١) القِسْمُ والقِسْمة: الشيء المقسوم، حقّاً أو نصيباً.
ومعنى البيت: ما دمتَ فقيراً مُعْدماً فليس لك من حظ الدنيا إلّا الوهم. ولن يكون لك من مقسومها إلّا بذل الروح..

(٢) وأنا من الخيانة بريءٌ.

(٣) أجْهَلُ، بصيغة: أفعلُ التفضيل.

وقال في سفيهٍ كتبَ إليهِ كتاباً يذمُّهُ فيه استلفاتاً له:

[من السريع]

يا أيها العاتبُ مَنْ فوقَهُ ... أنظرْ إلى النجمِ فهل يَنظُرُكْ؟
أظمأتَ أقلامكَ فاضرِبْ بها ... حوافلَ المُزْنِ عسى تُمطِرُكْ[1]
وجئتَنا بالحلوِ فيما ترى ... فكانَ مِلحاً عندنا سُكَّرُكْ
وقلتَ لفظي جوهرٌ نيِّرٌ ... وعندنا أن الحصى جوهرُكْ
فقل لمَنْ يقذِفُ منشارَهُ ... في الجوِّ مَهلاً ربما يَنشُرُكْ

❁ ❁ ❁

وقال في رجلٍ طويل اللحيةِ جدّاً:

[من المتقارب]

يُطوِّلُ لحيتَهُ كالحبالِ ... فيا ليتَ عمريَ من طولِها
كمِرْوحةِ الخيشِ في العارضَيْنِ ... تُطَرِّي الهواءَ بتبليلِها
وقد لَقَّبوها بستِّ اللِّحى ... لتَعظيمِها ولتبجيلِها
ألستَ تَراها تجرُّ الذيولَ ... فيحظى الصغارُ بتقبيلِها؟
وكم بحثَ الناسُ في أصلِها ... وأينَ الوبا كانَ في جيلِها؟
وكم حكَموا أنها علّةٌ ... وما عِلَّةٌ غيرُ تعليلِها[2]

❁ ❁ ❁

وقال في حادثة السرب المشهورة:

[من الخفيف]

قُتِلَ الحبُّ يا ليالي الودادِ ... فاسلمي بالقلوبِ والأكبادِ
مُهجةٌ تَلتظي غراماً ولكنْ ... ألفُ قلبٍ يَغلي من الأحقادِ[3]
وصدورٌ كالنارِ غطّى عليها ... من سوادِ الرياءِ شبهُ الرمادِ
وهمومُ الحياةِ تُخلَقُ للقلـ ... ـبِ وأيُّ امرئٍ بغيرِ فؤادِ؟
ما أمِنّا الزمانَ إلّا كما يأ ... منُ إبليسَ زاهدُ الزهّادِ
كلُّ يومٍ يصيحُ بالناسِ صوتاً ... كضجيجِ (الساعاتِ) في الميعادِ

---

(١) حوافلُ المزْن: السحب التي حبلتْ بالمطر..
(٢) «غيرُ تعليلها»: غير الدفاع الأحمق عنها طولاً وكثافة.
(٣) المهجة التي تتلظى غراماً، هي مهجته هو وحده. وألوف القلوب الباقية تتلظى حقداً وكراهية.

أيـن مَـن يـأمـنُ الـعـواديَ والـنـا ... سُ بـأجـنـاسِـهـمْ ثـمـارُ الـعـوادي؟

مـن تَـدَغـهُ فـريـثـمـا يـدركُ الـنـضـ ... ـجَ وربُّ الـبـسـتـانِ بـالـمـرصـادِ

وقـتـيـلٌ مـن كـانَ فـي الـغـابِ حـيّـاً ... تـتـولّاهُ أعـيـنُ الآسـادِ

إنـمـا الـنـاسُ مـا يُـخـلِّـدهُ الـنـا ... سُ وإن كـانَ أمـرُهـم لـلـنـفـادِ

إنَّ ذكـرَ الـذيـنَ شـادوا وسـادوا ... لـم يـزلْ راسـخـاً مـعَ الأطـوادِ

وإذا الـمـرءُ أودعَ الأرضَ سـرّاً ... نـبـشـتْ سـرَّهُ يـدُ الآبـادِ

إن تـشـأْ أن تَـرىٰ حـديـثَـكَ بـعـد الـ ... ـموتِ فـانـظـرْ إلـى حـديـث الـعـبـادِ!

كـم تُـريـنـا الأيـامُ مـن عِـبَـرٍ شـتـ ... ـى كـأنَّ الأيـامَ فـي اسـتـعـداد!

وأراهـا فـي عـبـرةٍ قـد طـوَتْـهـا ... كـانـطـواء «الـمـلـيـون» فـي الأعـدادِ

فـي مـلـيـكٍ كـسـاهُ أمـسِ جـلالاً ... فـغـدا الـيـوم بـالـيَ الأبـرادِ[1]

وقـضـى الـعـمـرَ يـومَ عـيـدٍ فـلـمـا ... مـاتَ ضـنَّـتْ أيـامُـهُ بـانـجِـدادِ

ومـنَ الـهـمّ أن تـرى أدمـعَ الـ ... ـموتِ مـن غـيـر أدْمُـعِ الـمـيـلادِ[2]

شَـذَّ مـا يـؤخـذُ الـظـلـومُ إذا مـا ... سـارَ فـي الـنـاسِ سـيـرةَ اسـتـبـدادِ

إنـمـا أنـفـسُ الأنـامِ سـيـوفٌ ... إنْ تُـحـرَّكْ سـالـتْ مـن الأغـمـادِ

أيـنَ مـن كـانَ فـي الـثـغـورِ ابـتـسـامـاً ... وهـو الـيـومَ مـضـغـةُ الـحـسـادِ؟

أيـنَ مـن كـانَ لـلـبـلادِ رجـاءً ... وهـوَ الـيـومَ عِـبـرةٌ فـي الـبـلادِ؟

سـطَـروا ذكـرَهُ عـلـى صُـحـفِ الـتـا ... ريـخِ مـن سـوءِ فـعـلـهِ بـمـدادِ

وأرَوْهُ أنَّ الـفـسـادَ وإن طـا ... لَ فـعـقـبـىٰ أُمـورِهِ لـلـفـسـادِ

لـم يـكـنْ يـجـهـلُ الـرشـادَ ولـكـن ... عَـمِـيَ الـحـبُّ عـن سـبـيـلِ الـرشـادِ

وأَضـلَّ الـهـوى هـوَى مـلـكِ الأر ... واحِ يـبـغـي مـحـاسـنَ الأجـسـادِ

إنَّ لـلـتـاجِ ريـبـةً لا تـزيـنُ الـتـا ... (م) جَ إلّا بـطـلـعـةِ الأولادِ

---

(١) الأبراد، ج: بُردٌ وبُرْدة، وهما الكساء المخطط يُلْتَحفُ به. ويجمع أيضاً على بُرُود، وأبْرُد.

(٢) أي أن الدمع أو البكاء الذي يصاحب الولادة، أمر طبيعي يحتمه الانفصال القسري عن رحم الأم.. أما بكاء الموت فهو انفصال عن رحم الدنيا، وتالياً همٌّ كبير لا يعادله همٌّ آخر.

لا كـتـلـك الـتـي هـيَ الـصَّـدَفُ الـفـا رغُ نَـحْـسـاً لـطـالِـعِ الـصـيَّـادِ[1]

عـذَلـوهُ فـيـهـا فـكـانَ مـريـضـاً سـاخـراً بـالـطـبـيـبِ والـعُـوَّادِ[2]

وإذا كـانَ لـلـخـطـيـئـة عُـذرٌ أيُّ عـذرٍ لـمـخـطـئٍ فـي الـتـمـادي؟

أبـعَـدوهـا عـن الـقـلـوبِ فـلـم يَـرْ ضَ، وصـعـبٌ تـجـاورُ الأضـدادِ

هـو ألـقـى فـي الـنـارِ فَـحْـمـاً فـلـمَّـا أَجَّ لـم يـخـتـطـفْـه سـوى الـوقَّـادِ[3]

لـيـس لـلـمَـلْـكِ مـن يـسـوقُ هـواهـا حـامِـلِ الـتـاجِ، مـثـلُ سَـوْقِ الـجـيـادِ[4]

أنـضـجَـتْـهُ بـالـحـبِّ حـتـى إذا مـا بـلـغ الـنـضـجَ أطـعـمـتْـهُ الأعـادي

وأرتْـهُ الـعـيـنـانِ أنَّ بـيـاضَ الـحـظِّ قـد شـابَـهُ الـهـوى بـسـوادِ[5]

جـرَّدتْ مِـن لـحـاظِـهـا فـاتـكـاتٍ جـرَّأتْ كـلَّ تـلـكـمُ الأجـنـادِ

لـيـتـهـا حـيـنَ لـم تَـقُـدْهُ لـمـجـدٍ لـم تُـخَـلِّ الـزِّمـامَ «لـلـقـوَّادِ»

لـيـتـهـا حـيـن أسـهـرتْـهُ عـلـيـهـا مـا جـزتـهُ بـمـثـلِ هـذا الـرقـادِ

فـتَـلَّـتْـهُ بـبَـغْـيِـهـا وتـلَـتْـهُ وأرى الـبـغـيَ جـامـعـاً كـالـودادِ[6]

أيُّ أيـدٍ قـد بـدَّلـتْ ذلـك الـدرَّ (م) بـحَـبِّ الـرصـاص فـوق الـهـوادي؟

أوَ مـا خـافـتِ الـكـواكـبُ أن تـسـقـطَ مـن غـيـرةٍ عـلـى الأجـيـادِ؟

مـا لـتـلـكَ الـلـحـاظِ وهْـيَ حِـدادٌ أصـبـحـتْ فـي الـعـدوِّ غـيـرَ حِـدادِ؟

لـم تـؤثّـرْ فـي قـلـبـهِ نـظـراتٌ ربـمـا أثّـرتْ بـجـسـمِ الـجَـمـادِ

قَـتـلـوا ظـبـيـةَ الـقـصـورِ ولـكـنْ قـتـلـةَ الـصـائـديـنَ حـيـةَ وادي

حـسـبـوهـا فـأراً وهـمْ قـطـطُ الـبـيـتِ فـلـم يـأكـلـوهُ قـبـل الـطـرادِ

وكـذا يُـقـدمُ الـلـصـوصُ إذا مـا أبـصـروا الـرأس مـالَ فـوق الـوسـادِ

---

(١) الطالِعُ: ما يقال من نَحْس أو سَعْد لبعض الناس، استناداً إلى ما يُؤوَّل من حركة بعض الكواكب.

(٢) العوَّاد، ج: عائد، هو الزائر في المرض، ويجمع أيضاً على عُوَّد.

(٣) أجَّ وتأجَّجَ: اشتعل بشدة.. والوقَّاد: الذي يقوم بوقد النار وتأجيجها.

(٤) في البيت كله التباسٌ شديد في المعنى، لتداخل الكلام، وعدم ضبطه من قبل الشاعر الذي يعرف وحده سياقه الإعرابي والمعنوي، وما وضعناه من حركات لا يمثل بالضرورة السياق الشعري الصحيح.

(٥) شابَهُ الهوى بسوادٍ: دخله القلق والاضطراب والانكسار فاتَّشح بالسواد..

(٦) تلَتْهُ: لعلها: تلَّتْه، مخففة للضرورة الشعرية، ومعناها: هيَّأته للنحر.

مـا أرى هـذهِ الـشـهـامـةَ إلّا حُـمُـقـاً مـن فـظـاظـةِ الأكـبـادِ
عـربـدوا فـي الـدم الـمـراقِ ومـا الـوحـ ـشُ إذا اغـتـالَ يـتـرك الـدم بـادي[١]
وكـذاك الـيـهـودُ مـن قَـبْـل عَـدُّوا يـومَ صَـلْـب الـمـسـيح، في الأعـياد[٢]

❂ ❂ ❂

وقال في كتابِ حبيبٍ:

[من الكامل]

بـأبـي الـذي كـتـبـتْ يـداهُ تَـحـيَّـتـي وكـسـا الـكـلامَ بـنـعـسـةِ الأجـفـانِ
وأرى مـحـاسـنَـهُ عـلـى ألـفـاظـهِ ودمـوعَ عـيـنـيـهِ عـلـى الـعـنـوانِ
وكـأنـمـا كـانَ الـلـسـانُ يـراعَـهُ ومـدادُه مـن مُـهْـجـةِ الـولـهـانِ
فـكـتـابـهُ عـنـدي وكـتـبـي عـنـدهُ غُـنـجُ الـحـبـيـبِ وآهـةُ الـثـكْـلانِ

❂ ❂ ❂

وقال في مناسبة مماثلة:

[من الكامل]

هـذا كـتـابـي قـد جـعـلْـتُ مِـدادَهُ عـيـنـي وأقـلامـي ضـلـوعٌ تَـخـفـقُ
حمَّـلْـتُـه شـكـوى إلـيـكَ جـمـعـتُـهـا مـن كـل قـلـبٍ فـي الـبـريَّـة يـعـشـقُ
أو لا تـراهُ يـئِـنُّ مـن ألـمِ الـجـوى ويـكـادُ بـالـشـوقِ الـمـبـرِّحِ يـنـطـقُ؟

❂ ❂ ❂

وقال في الموضوع نفسه:

[من المجتث]

بـعـثـتُ قـلـبـيَ بـيـنَ الـسـ ـطـورِ حـتـى يـراكـا
عـسـاهُ يـلـثِـمُ كـفَّـيْـ ـكَ أو يُـقـبِّـلُ فـاكـا
فـإنْ تـأخـرتَ بـالـرَّ (م) دِّ ذقـتُ مـنـكَ الـهـلاكـا

❂ ❂ ❂

(١) لم نفقه تماماً مغزى هذه القصيدة، ولا مؤدّاها، وحوافزها، ومناسبتها. فلا الشاعر ولا الشارح أماطا اللثام عن كوامنها. ففاتنا الكثير من مسوّغات معانيها وأساليب تأليفها. فما المقصود (بالسِّربِ) وما «حادثتُه الشهيرة» كما يذكر عنوان القصيدة؟ لا شيء يوضح ويُفيد.

(٢) أسقط البيت من طبعة بيروت.

وقال في المعنى الأول:

[من المتقارب]

قــرأتُ الـكـتـابَ فـكـانَ الـفـؤادُ كــأنــكَ تَــلْــمِــسُــهُ بــالــيَــدِ
وقــبَّــلْــتُــهُ ثــمَّ أدنــيــتُــهُ مــن الـقـلـبِ كـالـعـيـنِ والإثـمـدِ[1]
فــطــارَ بــه طِــيــبُ أنــفــاسِــكُــمْ إلــى أنْ تــعــلَّــقَ بــالــفــرقــدِ[2]
وقـلـتُ لـعـيـنـي انـظـري لـلـفـؤادِ ومـا فـعـلَ الـشـوقُ بـي واشْـهَـدي!
فـقـالَ لـهـا الـقـلـبُ: هـذا غَـرامـي وبـعـضُ غـرامِـك أن تَـشْـهَـدي[3]
فـخُـذْ مـنـيَ الـيـومَ قـلـبـي وعـيـنـي وذي الـروحُ أُسْـلِـمُـهـا فـي غـدِ

❁ ❁ ❁

وقال في تحية تبعث الحياة في الجَسَد الميت:

[من الخفيف]

يـا نـسـيـمَ الـرُّبَـى وفـيـكَ الـتَّـحـايـا أنـا مَـيْـتٌ مِـن طُـول صـدٍّ وهَـجـرِ
وأرى هــذهِ الــتــحــيــةَ رُوحــاً فـانـفُـخِ الـروحَ يـا نـسـيـمُ بـصـدري

❁ ❁ ❁

وقال يَهفو للقاء عارم بعد طول صَدٍّ وهجران:

[من مجزوء الرمل]

يــا طــويــلَ الــصــدِّ لا أعــلــمُ مــا هــذا الــتــمــادي؟
جــمــعَ الــلّــهُ عــلــيــنــا بــيــنَ هــجــرٍ وبِــعَــادِ
فــرمــانــي فــي بــلادٍ ورمــاكــم فــي بــلادِ
أتُــرى تــجــمــعــنــا الأ (م) يّــامُ أم يــومُ الــتــنــادي؟
فــتــحــتْ ذكــراكَ مــنــي كــلَّ جــرحٍ فــي فــؤادي

❁ ❁ ❁

وقال في الغرور آفة النفس:

[من المتقارب]

أرى الـهـجـرَ أن تـذكـرَ الـهـجـرَ لـي فــإنَّ الــقــلــوبَ بــمــا تــذكــرُ

---

(١) الإثمدُ: مادة معدنية بللورية الشكل يتحد مع غيره من العناصر، ليُكتَحل به (**المعجم الوسيط**: ثمد).
(٢) الفرقد: نجم قريب من القطب الشمالي، يهتدى به.
(٣) بعضُ غرامِك: مخاطبةٌ تأنيث للعين.

وإنَّ السمساءَ إذا أبرقَتْ ... غدتْ بعدَ إبراقها تمطرُ
أخافُ عليك وما إن تخاف ... وأنتَ المُطاع بما تأمرُ
وما آفةُ النفسِ بعدَ المتا ... ب إلّا الغرورُ بمنْ يَغفِرُ

❁ ❁ ❁

وقال في شريعة وصل الشمل:

[من مجزوء الكامل]

سَنَّ الزمانُ شريعةَ الـ ... ـبؤسىٰ فدانَ الخلقُ أجمعْ[1]
لكنني معَ مَنْ أحبُّ (م) خرجتُ عمسا باتَ يُشرَعْ
وقضيتُ أياماً رأيـ ... ـتَ الشملَ فيها كيفَ يُجْمعْ
وعرفتُ لذّاتِ الوصا ... لِ وكيفَ أن الحبَّ يَضرَعْ
فتنبَّهَ الدهرُ الخؤو ... نُ وغاظهُ ما كنتُ أصنَعْ
وقضى علينا ثم شَتَّـ (م) ـتَ ذلكَ الوصلَ وقطّعْ
وأشدُّ ما يلقىٰ الفتى ... إن كانَ بعدَ العزِّ يَخضَعْ

❁ ❁ ❁

وقال يداعب صديقاً ينظر في وجه كل سيدة:

[من المتقارب]

أدرتَ عيونكَ في كلِّ وجهٍ ... ونطَّقتَ باللحظاتِ الخُصورا
وكدتَ تَشكُّ بهنَّ القلوبَ ... وتُلجِمُ أسيافُهنَّ الصدورا[2]
فلا عَجَبٌ أن يَصُدَّ الحسانُ ... وأنْ يتعلَّمنَ فيكَ النفورا
تُلَثِّمُهنَّ بلحظٍ وقاحٍ ... ويمنعهُنَّ الحياءُ السفورا[3]
لعلكَ تَعلمُ أنَّ الظبا ... ءَ يَنفِرْنَ إمّا رأينَ (البعيرا)

---

(١) دان الخلق: خضع لإدانةٍ دامغة بسبب التسيُّب وانتقاء ما يسهل الأخذ به من الشريعة. والبؤسىٰ (بالقصر): البؤس.

(٢) الإلحامُ: الالتحامُ. أي تجعل سيوف عينيك جزءاً من صدور السيدات؛ كأنها، من خلال نظراتك النافذة إليهنّ، كالسهام.

(٣) يُلثّمهنّ: يَجعلُ نظراته المتعاظمة كالغطاء، كما قال المتنبي: «فؤادي في غشاءٍ من نبال». وصديق الشاعر هذا أمطر الحسانَ بوابل من النظر المستديم، حتى لم يعد لهذه الأخيرة قدرة على السفور أي كشف الوجه وحَسْر «الغطاء» عنه. واللحظُ الوقاح: هو الذي انعدم فيه الحياءُ.

وهبكَ (خفيرا) لهذي الطريق فلستَ على النّيراتِ خفيرا
أرى نَظَراً كالطفيليّ لا يوجِّهُ حتى يعودَ حسيرا
فلو خلقَ اللَّهُ فيكَ العيونَ طيوراً لما بِتَّ إلا ضريرا

❁❁❁

وقال في غادة صفراء انعكستْ سماتُه عليها:

[من الخفيف]

قابلتْ وجْهَها بوجهي، فلاحتْ صُفْرتي فيهِ، فاكتسى من سِماتي[(١)]
وبدتْ لي صَفْرا فخلتُ فؤادي خبَّأتْ فيهِ جمرةَ الوجَناتِ
قل لمن عابَ وجهَها أيُّ ذنبٍ في انطباعِ الألوان للمرآةِ؟

❁❁❁

وقال يقص حادثة بين الشاعر وامرأة توسطت بينه وبين امرأة أخرى وقع في هواها:

[من السريع]

بيَ الهوى إن كنتِ لم تَعرفي يا أُختَ باناتِ الربى فاعطِفي
أَسألكِ الإنصافَ إن لم يكنْ يَحرُمُ في شرعكِ أن تُنصفي
وكلُّ ما تَقضِينَ أرضى به وإنما يَخشُنُ أن ترأفي
هل أنا جانٍ يا عيونَ الظِّبا؟ وأين سيفي عند ذي الأَسْيفِ؟[(٢)]
أحلفُ باللّهِ على أنني لولا اتقاءُ الرَّيْبِ لمْ أحلفِ
لأضعفَتْني عينُ تلك التي إنْ نظَرتْ في حَجَرٍ يَضْعُفِ
وأضلُعي تشهدُ أني «بري» أما تراها إن رنَتْ تَقْصفِ؟[(٣)]
فما لَها؟ هلْ عرَفوا ما لها تفتكُ بالناسِ ولا تكتفي؟
أهكذا كلُّ لِحاظِ الدُّمى وكلُّ قَدٍّ للدمى أهيفِ؟
يا أُختَها قولي لها: ذا الفتى يَئنُّ مِن وَجْدٍ بنا مُدْنَفِ

---

(١) السِّمات: الملامح المرتسمة على الهيئة الخارجية.
(٢) اشتقَّ لفظة «الأسيف» (زنة أفعل التفضيل) من السيف، ليدل على قوة عيونها وعظمة نفوذها.
(٣) «إنْ رنتْ» أي عيناها، أو: هي بعينيها. «تقصفِ»: تحدث ما يشبه قصف الرعود وطلقات المدافع.

عـــدِيـــهِ وغـــداً إنّـــهُ هـــالـــكٌ وسَـــوْفـــي مـــن بـــعـــدُ أو أَخـــلـــفـــي

* * *

قـالـت لـهـا: يـا أَخـتُ هـذا الـفـتـى أبـرُّ مَـن يـصـفـو لـمـن يـصـطـفـي
إن تـمـنـعـيـهِ الـوصـلَ أو تـمـنـحـي فـلـيـسَ يـسْـلُـونـا ولا يـشـتـفـي
وإنـنـي أخـشـى عـلـى عِـرضِـنـا قـافـيـةً كـالـصـارمِ الـمـرهـفِ[1]
«وشـاعِـرُ الـحـسْـن» إذا قـالـهـا قـدَّسَـهـا الـعـشَّـاقُ كـالـمـصـحـفِ[*]

* * *

قـالـتْ لـهـا: هـذا الـذي ضـرَّهُ إنـي أُحـب الـعـاشِـقَ الـمـخـتـفـي
الـعـشـقُ فـي الـقـلـبِ، فـمـا بـالُـهُ يُـذيـعُـهُ فـي هـذهِ الأحـرفِ؟
سِـيَّـانِ عـنـدي أن يـقـولـوا: شَـقـي مـن بـعـد هـذا، أو يـقـولـوا: شُـفـي
ومـا عـلـى مـثـلـيَ مِـن مـثـلِـه لـو أنـه كـانَ أخـا يُـوسُـفِ؟
قـولـي لـه: «لـم تَـرضَ»، ثـم انـظـري مـا يـصـنـعُ الـمـسـكـيـنُ؛ ثـم اصْـدِفـي[2]

* * *

قـالـتْ لـهـا: يـا أُخـتُ لا تـفـعـلـي إنـي لأخـشـى بـعـدُ أن تـأسـفـي
هَـبـيـهِ مـا قـلـتِ، فـكـمْ غـادةً مـمـا شَـدَاهُ فـيـكِ لـم تـوصَـفِ
وكـمْ يـداسُ الـزهـرُ لـكـنـمـا لـعـزِّهِ زهـرُكِ لـم يُـقـطَـفِ
يَـحـسِـدُنـا الـنـاسُ عـلـى شِـعـرِهِ ولـيـس إلّا فـي هـواهُ وفـيـ: ي
ولا يـكـونُ الـطـيـرُ فـي أيـكِـهِ إن طـلـعَ الـصـبـحُ ولـم يَـهـتِـف

* * *

فـاسـتـضـحـكـتْ هـنـدٌ وقـالـتْ لـهـا: إذنْ يُـوافـيـنـا إلـى الـمـوقـفِ
والـسـعـدُ كـلُّ الـسـعـدِ فـيـمـا أرى عَـوْدُ غـريـبِ الـدارِ لـلـمَـألـفِ
والـحـسْـنُ زيـتٌ لـشـبـابِ الـفـتـى إنْ جـفَّ مـنـه لـحـظـةً يـنـطـفـي

❁ ❁ ❁

(١) القافية، مجاز لغوي، للقصيدة الشعرية التي تُحْدث من الآثار والتشهير، ما يفوق فعل السيف البتّار.

(*) سقط البيت من الطبعة البيروتية.

(٢) اصدفي: أعرضي وانصرفي.

وقال في حكميات غزلية:

[من مجزوء الكامل]

تَــعِــدُ الــمِــلاحُ وأَهــونُ الْــ ـأَشـيـاءِ أَنْ تـعِـدَ الـوُعـودا
والـحـبُّ إن زاد الـحـبـيـ ـبَ أمـانـيَ الـعـشَّـاق، زِيـدا
والـحـسْـنُ أَغْـلـقُ بـالـقُـلـو بِ إذا تـمـنَّـعَ أنْ يَـجـودا
مَـن ذا يُـطـيـقُ يَـرىٰ ذُكـا إلّا إذا كـانـتْ بـعـيـدا[(١)]
والـعـبـدُ يـرقـبُـه الـورى مـن أجـل ذا سـمَّـوه عـبـدا[(٢)]
لا تَـرْجُ أن يـرضـى الـحـبـيـ ـبُ إذا بـدا لـكَ أن تُـريـدا
إنَّ الـبـخـيـلَ عـلـى غـنـا هُ يـعـيـشُ بـالـبُـخْـل سـعـيـدا
ولـوَ انَّ فـي الـدنـيـا وَفـا ءً كـانـت الـدنـيـا خُـلـودا[(٣)]

❁ ❁ ❁

وقال يناجي الكأس ويتمثل فيه حاله ونهاية مصيره:

[من مخلّع البسيط]

يـا كـأسُ مـاذا أُريـدُ بَـعْـدي؟ وقـد أَرانـي أَمـوتُ وَحْـدي
يـا لـيـتَ عـنـد الـحـبـيـبِ مـنـي مـا هُـوَ مِـن ذا الـحـبـيـبِ عـنـدي!
فـمـثْـلـي خَـدُّهُ فـإنـي رأَيـتُ مـا فـيـكِ مـاءَ (ورد)[(٤)]
يـا كـأسُ داوي جُـروحَ قـلـبـي فـإنَّ داءَ الـغـرامِ يُـعـدي
وثَـبِّـتـيـنـي عـلـى زمـانٍ يـرقـصُ بـالـنـاس رقـصَ قـردِ
قُـصَـيِّ عـلـيَّ الـذي أراهُ مـن يـومِ مـهـدي لـيـوم لـحـدي

❁ ❁ ❁

وقال يذكر صحوةً له بعد منام بديع:

[من المجتث]

قـد كـانَ فـيـكَ غـرامـي كـالـنـارِ فـي مـقـلـتـيَّـا

---

(١) ذُكا: مخفف ذُكاء: الشمس.

(٢) يرقُبُه؛ ينتظره. والورى: الناسُ.

(٣) أبدل السيد المحقق في طبعة بيروت، «خلوداً» بـ«سُعوداً»، ولم نفقه مسوّغ التلاعب والتغيير أو التبديل!

(٤) الخطابُ للكأس، وهي مؤنثة، و«ماء الورد» كناية عن حمرة الخد وحمرة الشراب.

وكـنـتَ لـي فـي منـامـي كـالـمـالِ فـي راحَـتـيَّـا
ومُـذْ صـحـوتُ مـن الـحـب إذ كَـوانـيَ كَـيَّـا
فـتـخـتُ كـفِّـي ولـكـنْ لـم أُلـفِ مـن ذاكَ شـيَّـا
وقـد يـمـوتُ هـوى الـمـرءِ وهـو مـا زالَ حـيَّـا[1]

❁ ❁ ❁

وكتب يستأذنُ على مفتي الديارِ المصرية لقوم ذهبوا في قضاء حاجةٍ:

[من السريع]

بـبـابـكَ الـعـالـي ذَوو[2] حـاجـةٍ لـولا الـتـقـى، قـلـتُ: ادخـلـوا سُـجَّـدا
فـأْذنْ لـعـلَّ الـقـومَ مـثـلُ الـذي قـادَتـهُ تـلـكَ الـنـارُ نـحـوَ الـهـدى[3]

❁ ❁ ❁

وقال، وكتبَ بها إلى نجلِ عمهِ: الأستاذِ العلامةِ الشهيرِ الشيخِ صالح أفندي الرافعي حفظهُ اللّهُ:

[من المتقارب]

أَراهـا وقـد جَـعَـلـتْ تَـمْـطُـلُ ذُكـاءُ تـضـيءُ ولا تَـنـزلُ
يَـضِـنُّ الـجـمـالُ بـأربـابـهِ وأهـلُ الـجـمـالِ بـه أبـخَـلُ
وسِـيـانِ فـي الـطـيـر: عُـصـفـورةٌ إذا انـفـلـتـتْ مـنـكَ، والـبُـلـبـلُ
فـيـا مـن جُـعِـلْـتِ لـهـا خـاتَـمـاً مـتـى تَـلـبَـسُ الـخـاتـمَ الأُنـمُـلُ؟
تـدوسـيـنَ فـوقَ الـثـرى، مـهـجـتـي وطـيـفُـكِ فـي أعـيـنـي يـرفُـلُ[4]
لـئـن مـنـعـوك فـسِـلْـكُ الـمَـنـام مـا انـفـك مـا بـيـنـنـا يُـنـقَـلُ
فـمـنـكِ إلـيَّ ومـنـي إلـيـكِ كـلانـا لـصـاحـبـهِ يـحـمـلُ
وذو الـشـوقِ يـسـعـى عـلـى عـيـنـهِ إذا قـعـدتْ بـالـهـوى الأَرجُـلُ[5]
سَـلـي الـصـبـحَ كـيـف أراقَ الـكـرىٰ وعـيـنـيَ مـا أوشـكـتْ تَـثـمَـلُ

---

(١) تجنيس لطيف خاطف، بين هوى المرء و«هو» الضمير.

(٢) وردت في طبعة بيروت: «ذووا» بألف.

(٣) إشارة اقتباسية لما جاء في القرآن الكريم عن اهتداء موسى عليه السلام للنار، وقوله في ذلك: ﴿وهَل أتاكَ حديثُ موسى * إذ رَأى ناراً فقالَ لأهْلِه امكُثوا إنِّي آنستُ ناراً لعلِّي آتيكُمْ منها بقَبَسٍ أو أَجِدُ على النار هُدًى﴾ الآيتان ٩، ١٠ من سورة طه.

(٤) يرفلُ: يتراقص من زهو الخيلاء والنشوة.

(٥) «يسعى على عينه» مجاز رائع في وضع العين مكان الرجْل، في سعْي الإنسان وجهاده.

رمى الفجرَ فانفجرتْ عينُهُ　　دماً فأتى بالندى يغسِلُ
وأَضرمَ من شمسهِ شُعلةً　　فجفَّ على حرِّها المَقتَلُ
كذاكَ أرى الناسَ في غدرهم　　تساوىٰ الأَواخرُ والأَولُ
(أصالحُ) قل لي متى نلتقي؟　　فبعضيَ عن بعضهِ يسألُ
أراكَ تُؤيِّدُني في البيانِ　　كما اتحدَ القلبُ والمِقْوَلُ[1]
ولولا الفؤادُ وميزانُهُ　　لمالَ (اللسانُ) فلا يَعدلُ
ألا أَنذرِ الفئةَ الحاسدين　　سيوفاً متى ضَرَبتْ تَفصِلُ
وقُلْ للعصافيرِ لا تَبْرَحي　　ولا تَمْرحي قد هوىٰ الأَجْدَلُ[2]
عجبتُ لهم وعَجيبٌ إذا　　عجِبْتُ لمن لم يكنْ يَعقِلُ
وما يستوي الجفنُ فيه الغبارُ،　　وإن أشبهَ الكحلَ، والأَكحلُ[3]
همُ نخلوني فماذا رأَوا　　أأمسكَ نورَ الضُّحى المُنْخُلُ؟
وثارَ الغبارُ فيا أُفقُ هلْ　　جَلا لَكَ مرآتكَ الصَّيْقَلُ؟[4]
وأقبلَ فارٌ فما للجبا　　لِ لم يلقَ عاليَها الأسفلُ
وكيفَ يُخيفُ الهلالَ الدجى　　ويُرْهِبُ عنترةَ المُنْصُلُ[5]
رأوا ليَ في حكمتي ثانياً　　كما ينظر الواحدَ الأَحْوَلُ[6]

❁ ❁ ❁

وقال(*) يهنئ صديقه الفاضل الأديب الياس أفندي العجان، بعيد رأس سنة ١٩٠٤:

[من الرمل]

يا أخا الفضل شهدنا خُلُقاً　　لو يكونُ الدرَّ كنتَ مَعدِنَهْ

---

(١) المِقْولُ: (صيغة مِفْعَل) بمعنى آلة القول، وهي: الفم واللسان.
(٢) الأجدَلُ: الصقر، وهو من الجُدُول: القوة والصلابة. جمعه: أَجَادِلُ.
(٣) لا يتساوى جفنٌ مكتحِل بالغبار رغماً عنه، وكحيلٌ بطبيعته وفطرته.
(٤) الصَّيقَلُ: صاقل السيوف، وجاليها من غبار الأرض وندوب الطعن والقتال.
(٥) المنصل: السيف. ج: مناصِل.
(٦) الأحول: من الحَوَل، وهو اختلاف محورَيْ العينين. فالأحول هو الذي يرى الأشياء منحرفة، وإذا نظرت إليه وجدت في عينيه اتجاهين مختلفين في بصره.
(*) سقطت هذه المقطّعة من طبعة مؤسسة الكتب الثقافية في بيروت. كذلك المقطّعة التالية: (النونية) في تهنئة جورج إبراهيم.

شِيمةٌ يا حُسْنَها من شيمة ... وكمالٌ رائع ما أحسنَهْ!
إنَّ أيامك للدهر حِلًى ... وفتًى مثلُك يُحْلِي زمنَهْ[(١)]
فهو يُهديك مع الأيام مِنْ ... كلِّ قومٍ فلكم «رأسَ السنَهْ»
دمتَ للمجد ودامَ مُعْلِناً ... في الورى من فضلكم ما أعلنَهْ
ولوَ أنّي اسْطَعْتُ أنطقتُ لكم ... بمديحي، كلَّ هذي الألسنَهْ

❁ ❁ ❁

وقال كذلك يهنئ صديقه الفاضل الأديب جورج أفندي إبراهيم:

[من المتقارب]

لياليك عيدٌ وعيدٌ وعيدُ ... لِنفسِكَ والصحبِ والأزمنَهْ[(٢)]
فأنت تُهنَّئ ونحن نُهنّي ... وحَتْمٌ على الدهر أن يُعْلِنَهْ[(٣)]
أرى العيدَ يأتي سواكَ بيوم ... ولمَّا أتاك أتى (بالسنهْ)
فقابِلْ بها السَّعْدَ والْقَ الزمانَ ... وأخي الحياةَ به آمنَهْ

❁ ❁ ❁

وقال لصديقه الماجد أمين أفندي الطحان، وعيدُ طائفته، بعد تلك، بأيام لاختلاف الحساب بينهما:

[من الوافر]

سَعِدْتَ فجاء عيدُك شمسَ سَعْدٍ ... تُضيءُ لك اللياليَ والسِنينا
وإنْ يَسْبِقْه عيدٌ فهو أغلى ... كذاك العينُ لا تعلو الجَبينا
كلا الإثنين دُرٌّ غير أنّي ... أَرىٰ ما في الفَم الدرَّ الثمينا
فدمتَ بكل عيدٍ للمعالي ... ودُمْتَ على خزائنها «أمينا»[(٤)]

❁ ❁ ❁

---

(١) حلًى، مفردها حلية، وهي الزينة من المصاغ وغيره.

(٢) تكررت «عيدٌ» ثلاث مرات، لتضاف إلى ثلاثة (مضافات إليه) أي: عيد لنفسك، وعيد للأصحاب، وعيد للأزمنة.

(٣) الضمير في «يُعْلنه» يعود إلى الهناء، الذي تضمّنه صدر البيت.

(٤) وقع على لفظ «أمين» تورية في إرادة المعنى البعيد وهو (أمين) المال الصادق وليس المعنى القريب وهو اسم الممدوح **أمين الطحان**.

آية العدل

وقالَ يهنئُ نسِيبه الماجِدَ الأمثلَ: السيد محمد أفندي عبد الرحمن البرقوقي، عمدة (مينة جناحٍ)، وكان قدْ حُكم عليهِ ابتداءً، في تهمةٍ باطلةٍ ثمَّ برَّأهُ الاستئنافُ:

[من السريع]

(محمدُ) ما لكَ من خاذلٍ ... فالحقُّ منصورٌ على الباطلِ

والناسُ إمَّا غفَلوا مَرةً ... عنكَ فما ربُّكَ بالغافلِ

العدلُ والعقلُ أليفا هوًى ... وليسَ كلُّ الناسِ بالعاقلِ

والسيفُ إن يصدَأْ بكفِّ الذي ... يَحملُهُ، فالأمرُ للصاقلِ

إنْ كان في الأرض نبيٌّ فما ... أراه غيرَ الحاكم العادِلِ[1]

فرحمةُ اللهِ بهذا الورىٰ ... مُنزَلةٌ في قولِهِ الفاصلِ

والحقُّ إنْ لانَ ولكنهُ ... يودي بذاكَ الباطلِ الباسلِ

كالموجِ مهما هَمَّ في وثْبِهِ ... تراهُ ينحلُّ على الساحلِ

❁ ❁ ❁

وقال وهي ساقطة من باب الغزل:

[من السريع]

دارتْ عليها للهوى راحةٌ ... فبتُّ أُسقاها وأَسقيهِ

مِن مُهجةٍ تنسابُ في مهجةٍ ... آخذها فيَّ إلى فيهِ

والقلبُ مِن ذُلِّي ومن دَلِّهِ ... كقوم إسرائيلَ في التيهِ[2]

يا طولَ سُقْمِ القلبِ إمَّا غدا ... يُمْرِضُهُ من كانَ يَشْفيهِ

❁ ❁ ❁

وقال في حبيب أورثه السقْمُ العذابَ:

[من مجزوء الكامل]

لو تُنصفونَ لقلتُ آهْ ... ماتَ العليلُ فما دواهُ

ما كانَ يَطْوي جانبيـ ... ـهِ على الأَسى حتى طواهُ

---

(١) أسقط البيت من طبعة بيروت.

(٢) يشير بوضوح إلى صلف بني إسرائيل وزهوهم بأنهم شعب الله المختار..

ورأى الـهـوى نـاراً فـلـسـمْ يَـخـسـفِ الـهـوى حـتـى كَـواهُ
شـيءٌ يُـسـمَّـى بـالـغـرا مِ ولـيـس يـدري الـنـاسُ مـا هـو
بـيـنَ الـسـعـادةِ والـشـقـا ءِ فـكـلـمـا عـرفـوهُ تـاهـوا
يـا مـقـلـتـيَّ إذا بـقِـي فـي الـجـفـنِ دمـعٌ فـاسـكُـبـاهُ
وإذا احـتـمـى بـكـمـا الـكَـرىٰ بـعـد الـتـفـرقِ فـاطـرداهُ[1]
أَخـذَ الـحـبـيـبُ عـلـيَّ عـهـ داً أنْ أُعـذَّبَ فـي هـواهُ
ومـن الـعـجـائـبِ أنـنـي راضٍ وأسـألُـهُ رضـاهُ
ألـحـاظُـهُ كـالـنـحـلِ تَـحْـ ـمي مـا أجـتـنـهُ الـشـفـاهُ[2]
فـإذا رنـا لـم يُـبْـقِ قـلـ ـبـاً سـالـمـاً إلّا رمـاهُ
وإذا مـشـى وقـعـتْ عـلـى كـبـدي وأحـشـائـي خُـطـاهُ
يـا رَبِّ هـل أبـدَعْـتَـهُ إلّا لـيَـفـتِـنَ مـن رآهُ؟
أطـلَـعْـتَـهُ قـمـراً فـكـا نَ سـوادُ حـظـي مـن دُجـاهُ[3]
وخـلـقْـتَـهُ رشـأً فـكـا ن مـراحَ أضـلاعـي حِـمـاهُ[4]
وبـرَيْـتَـهُ غُـصـنـاً فـروَّ (م) ى دمـعُ أجـفـانـي ثَـراهُ[5]
بـعـضُ الـهـوى عَـذْبٌ وسـا ئـرُه الـعـذابُ لـمـنْ بَـلاهُ

❁ ❁ ❁

وقال في حال مشابهة:

[من الخفيف]

أنـا راضٍ بـكـلِّ مـا يُـرضـيـكـا فـإلـى كـمْ هـذا الـتـمـنُّـعُ فـيـكـا؟
وكـفـانـي مـا قـدْ لَـقِـيـتُ فـمَـن لـي إنَّ مـا قـد لـقـيـتُـهُ يـكـفـيـكـا
أتـمـنـى لـو تَـعـرِفُ الـحـبَّ يـومـاً غـيـر أنـي أخـافُ أنْ يُـبْـكـيـكـا
يـا مـلـيـكَ الـجـمَـالِ أنـتَ عـلـى عـر شِ فـؤادي قـدِ اسـتـويـتَ مـلـيـكـا

---

(١) الكرى: النوم.
(٢) أجتنهُ الشفاه: خبأته.
(٣) الدجى: العتمة، واحدها دُجْيَة.
(٤) المراحُ: مكان الغدوّ والرَّوَاح. والحِمى: كل مكان مَحْميّ. وأصله موضع الكَلأ يُحْمى من أن ترعاه الماشية.
(٥) بَرَيْتَه، عُنيتَ بخَلْقه وسوَّيْتَهُ.

ولعَمْري ما قِسْتُ صاحبَ مُلْكٍ ... بكَ إلا رأيتُهُ صُعلوكا
سهَّدَ الحبُّ أعيني وجفاني ... مَن يُواسي الحزينَ إلَّا الديكا؟
فهو إن قلتُ (أوْه) من ألم الوجـ ... ـدِ رثى لي فصاحَ (كاك وكيكا)
آه مِنْ هذهِ القلوبِ وهَيْهَا ... تَ أرى لي بينَ القلوبِ شريكا!
قد تركتُ الأنامَ إني متى احتَجْـ ... ـتُ إليهمْ رأيتُني متروكا

❁ ❁ ❁

وقال في مليح رآه نائماً:

[من المجتث]

وبي مِنَ الأُنسِ ظبيٌ ... رَمَيْتُهُ ورَماني
جرى معي في هواهُ ... كما جرىٰ بي زماني
فنِمتُ كيما أراهُ ... ونامَ كيلا يَراني

❁ ❁ ❁

وقال يذكر خدَّ مليح ناري:

[من السريع]

يا مُذنِيَ الجمرةِ من خَدِّهِ ... صَيَّرتَ قلبي بينَ نارَيْنِ
فما عجيبٌ إنْ هَمَتْ أدمعي ... تجري بها عيناي نهرينِ[1]

❁ ❁ ❁

وقال في مزاوجات جناسيَّة بديعة:

[من مجزوء الرمل]

قلتُ للشادنِ: مِل لي ... قال: «دعني! أنا مالي»[2]
قلتُ: مِلْ لي ذلكَ القلْـ ... ـبَ فقالَ: القلبُ سالي[3]
قلتُ: خلِّ الروحَ تخرجْ ... قالَ: هذا الجوُّ خالي[4]
قلتُ فابلُلْ من غليلي ... قال: «هاها» من يبالي؟

---

(١) هَمَتِ العينُ: سالتْ دمُوعُها بغزارة.

(٢) مِلْ لي: امنحني شيئاً من وصلك وحنانِك. وقوله «أنا ومالي» مصبوغة باللهجة المصرية، ومعناها: ما علاقتي بالأمر؟

(٣) القلب سالي: أي: خالٍ من كل شاغلٍ.

(٤) الجو خالي: لا شيء يحول دون خروج الروح وطوافها حيث أرادت. وقوله هنا تورية بمعنى خلوّ القلب من أي نبضة حُبّ.

قُلتُ: ما أعجبَ حالي قال: ما أعجبَ حالي!

❁❁❁

وقال أيضاً في مليح فتّان:

[من مجزوء الخفيف]

شادنٌ يَفتِنُ الورى فتنةً أيَّ فتنةِ

شَهَرَ الحربَ لم يَخَفْ عندَها أيَّ دولةِ

عينُهُ في تجوُّلِ من ضميرٍ لمهجةِ

خدُّهُ في تَحوُّلِ من نُضارٍ لفضةِ[١]

تركَ الناسَ والنسا بينَ «آه ودَهْوتي»[٢]

وأُراني لِحُبِّهِ بينَ حَيٍّ وميِّتِ

هو في الحُبِّ قِبلةٌ وُجِّهَتْ كلُّ وُجْهةِ

ولقد فاتَ عاذلي عصرَ تحويلِ قِبلتي[٣]

❁❁❁

وقال في مسيح الهند غلام أحمد القادياني(*):

[من الخفيف]

عثرتْ في مَدارِها الأيامُ أم هو الدهرُ هكذا والأنامُ؟

أَهلُهُ بينَ ذي هُدًى وضلالٍ ولياليهِ ذو سناً وظلامُ

وأرانا بمدةِ العمرِ نَشقى وعدُوُّ المسوَّماتِ، اللُّجامُ[٤]

ليسَ كلُّ الذين تُبصِرُ، ناساً إنَّ بعضاً من الطيورِ الحَمامُ

---

(١) النُّضارُ: الخالصُ من كل شيء. وهو هنا، الذهبُ الخالص.

(٢) «يا دَهْوتي» تعبير عامّي مصري من جذرٍ لغويّ فصيح، يعني: يا لمصيبتي الدهياء!!

(٣) قوله في البيت السابق: «قِبْلة» بالكسر، المكان الذي يتجه إليه المسلمون في صلواتهم حيث كانوا، وهذا المكان هو الكعبة المشرَّفة في مكة المكرمة. وفي هذا البيت تضمنت «القبلة» معنيَيْن: الأول، التوجه الإسلامي الأول نحو قبة الصخرة في بيت المقدس (أو المسجد الأقصى)، ثم معنى التوجه الثاني والحاليّ، أي المسجد الحرام في مكة المكرمة.

(*) **غلام أحمد** بن مرتضى القادياني، مؤسس الطائفة القاديانية. توفي بمدينة لاهور في أيار سنة ١٩٠٨. وكانت ولادته سنة ١٨٣٦. صنف كثيراً من الكتب لدعم مذهبه، بالعربية والفارسية والأورديَّة. (**معجم المؤلفين، لعمر رضا كحالة مجلد ٢/ ١٧٤**).

(٤) المسوَّمات: هي الخيلُ المُعْلَمةُ التي يعرفها أصحابها بشيات خاصة موسومة بها في نواصيها.

ولِكُلِّ الورى رؤوسٌ فإنْ لم ... يكنِ العقلُ كانتِ، الأوهامُ
أيهِ (يا هندُ) عن مسيحكِ ما زلـ ... ـتِ وزالتْ ببيتكِ الأصنامُ
كانَ في جسمكِ الوباءُ فقد دَ ... بَّ إلى العقلِ بعدَ ذاكَ السقامُ
ضِلَّةٌ للفتى ومنْ تَبعوهُ ... أشرقَ الصبحُ والقبورُ نيامُ
مَسَحَتْهُ الجِنانُ أم مسختْهُ ... وتولاه «جلجلٌ أم عزامُ»؟
وأتتهُ الأقوامُ تَتْرى ولا غرْ ... وَعلى الجرحِ للذبابِ ازدحامُ[1]
وإذا كانَ في الرؤوس ضَلالٌ ... وقفتْ عندَ قَصْدِها الأقدامُ
نَسَخَ السيفَ ذلّةٌ ورياءٌ ... وجديرٌ بناسخيهِ الحسامُ
أيهذا المسيحُ إن الليالي ... في بنيها من الزمانِ سهامُ
وأرى الدهرَ كالوغى وقديماً ... كانَ بينَ الأنامِ هذا الخصامُ
فارفعِ الأرضَ فوقَ كفيك وأمُرْ ... يَملأِ الأرضَ بعدَ ذاكَ السلامُ
أو فعدْ للسماءِ إنَّ الشياطيـ ... ـنَ عليهمْ بابُ السماءِ حَرامُ
وتَحدَّ الورى بسُخْفِكَ أو سَجْـ ... ـعِكَ إن الكرى لهُ أحلامُ
لو سألتَ الحمارَ حينَ تراهُ ... في نهيقٍ لقالَ: ذي أحكامُ

❁❁❁

وقال، وقد ذُكرَ لهُ بعضُ من يدَّعي الشعرَ:

[من السريع]

الشعرُ في أرؤسِ من يدَّعي ... كالعلمِ في أوهامِ هذي العوامْ
مُحَرَّمٌ إلّا على أهلِهِ ... وكم من الجُهّالِ يأتي الحرامْ
فانظرْ لمنْ أبصرتَ في كفِّهِ ... منهم يراعاً! هل ترى (ذا لجامْ)؟[2]
وما (ابنُ عمّارٍ) إذا قستَهُ ... بجمعهمْ في الشعرِ إلا إمامْ[3]

❁❁❁

(١) تترى: تتكاثر وتتابع.
(٢) ذو اللجام، هو الفارس. كأنما أراد أن يقول: من يمتشقُ قلماً ليس كمن يمتشق سيفاً يقود به حصانه!
(٣) لا بد أن يكون ابن عمار هذا أحد أدعياء الشعر، ومع ذلك فهو أفضل بكثير مما يصوره الشاعر من تعاسة من يُعْلنون أنفسَهم شعراء، في زمانه.

وقال في معنى مشابهٍ:

[من الطويل]

دعِ الشعرَ ما كلُّ امرئٍ يذكرونهُ ... ببيتينِ أو شيءٍ من القولِ، قوَّالُ

لو تُخلقُ الأشعارُ في الرأسِ لم يكنْ ... برأسك إلا القَفْرُ والشعرِ أغوالُ(١)

رأيتُكَ وزَّاناً فلفظُكَ كلُّهُ ... قناطيرُ لكنَّ المعانيَ مثقالُ

وهَبْ للحصى شيئاً تغربِلُهُ بهِ ... فهلْ لكلامٍ كالحجارةِ غربالُ؟

❁ ❁ ❁

وقال، وكتبَ بها إلى نجلِ عمهِ الشاعرِ المُجيدِ، محمد أفندي محمود الرافعي، وقد أبلغهُ أن بعض من يُسمِّيهمُ العامةُ بالشعراء، قد تنقصهُ:

[من الطويل]

إليكَ فأنبئْهُمْ بأني كَفيتُهمْ ... مَلامي، ويا لِسلِّهِ كيفَ ألومُ؟

إذا لم يكنْ فيهمْ سوى هَذَيانهمْ ... فإني عليهمْ بالسكوتِ كريمُ

أَضِنُّ بلفظي أن يقالَ: استحقَّهُ ... على نزغاتِ الهجوِ منه، لئيمُ(٢)

وما ضائري أن يستعيروا شهادةً ... لبعضِهِمُ، إنَّ النفاقَ قديمُ

وكم تنعقُ الغربانُ لكنَّ بومةً ... تقولُ اسمعوا إنَّ الغُرابَ حكيمُ

فقلْ للذي ما زالَ يُجريه نومُهُ ... متى تَلْحقُ الساعي وأنتَ مقيمُ؟

وما دامَ شِعرُ القومِ أمسى كما ترىٰ ... شَعيراً، فقلْ إن الزمانَ بَهيمُ

❁ ❁ ❁

وقال يعزي ابنَ عمهِ الأديبَ الشيخَ أحمد أفندي الرافعي، عن وفاةِ والدتهِ المبرورة:

[من الخفيف]

لمنِ الأمرُ غيرُهُ سبحانَهْ ... أترىٰ المرء دائناً ديَّانَهْ؟(٣)

---

(١) قصد بأنَّ مثَل وجود الشعر في قريحة دَعيِّ الشعر، كمَثَل وجود الغول في الفلوات الواسعة. رمزاً لما هو مُخيف ومُحزن.

(٢) النَّزْغُ: كل كلام أو وسواس شيطاني، يدعو الإنسان إلى ارتكاب المعاصي، ويغريه بفعل لا تحمد عقباه.

(٣) الديَّانُ: الحقُّ تبارك وتعالى. وهو الذي يقضي ويُدينُ في يوم الحساب خيراً أو شرّاً. والدائن: المقترض، ويعني عكسَه أيضاً. ومعنى العجز: أترى يعيدُ الإنسانُ ما اقترضه أو: يعيد مالَ الله سبحانه؟ وقد ورد في الطبعة المصرية: «سجَّانَهْ» ولا معنى لها.

جَرتِ النّاسُ في الغُرورِ بعيداً — وقضا اللّهِ قدْ جرى جَرَيانَهْ[1]

فكأنَّ البسيطَ مَيْدانُ سَبْقٍ — رامحاتٍ أفراسُهُ فرسانَهْ

إنْ دعا فارسٌ إلى الموتِ قِرْناً — سبقَ الموتُ نحوهُ أقرانَهْ[2]

فلكٌ دائرُ الحوادثِ والنا — سُ يظنّونَ وقفةً دورانَهْ

باعَ في الأرضِ أنفساً بنفوسٍ — فلذا الموتُ ناصبٌ ميزانَهْ[3]

رُبَّ ذي زينةٍ يميلُ على الأر — ضِ أرتنا أثوابُهُ أكفانَهْ

وإذا ما البُستانُ أنبتَ زَهْراً — جعلَ الريحُ قبرَهُ بستانَهْ[4]

إنّما الأرضُ لابنِ آدمَ سجنٌ — وأرى الموتَ عندَها سَجّانَهْ

فمنَ الجهلِ أن تُشَيِّعَ بالحُزْ — نِ سجيناً قد فرّجوا أحزانَهْ

فاتئدْ «أحمدٌ» فتلكَ سبيلٌ — كلُّ حيٍّ لاقٍ بها إخوانَهْ

ما ترى النجمةَ المضيئةَ فَجْراً — كيفَ أغرى بها الضحى طُوفانَهْ؟

إنَّ نفساً أراكَ سِلْتَ عليها — دُرَّةٌ أُدِّيتْ وكانتْ أمانَةْ[5]

صاغها اللّهُ كالنسيمِ فلا غرْوَ — إذا ما النسيمُ حَلَّ جِنانَهْ[6]

فكِلِ الأمرَ للّذي صرَّفَ الأمـ — ـرَ وأحْسِنْ رضاً تنَلْ إحسانَهْ

إنَّ سُخْطَ النفوسِ كفرٌ بنعمى — (م) اللّهِ فليَخْرُسِ الفتى إيمانَهْ

❁ ❁ ❁

---

(١) قضا اللّهِ: مخفف (قضاءُ اللّه): الذي جرتْ فيه المقاديرُ من قبل الخليقة.

(٢) القِرْن: المِثْل في القوة والشجاعة.

(٣) فلذا: فلهذا.

(٤) أي: صيَّرتِ الريحُ هذا البستان في طي النسيان، كأن لم يكن.

(٥) سلْتَ عليها: هكذا ضبطتُها، وفهمتُ من ذلك: انسكابَ النفس على الفقيدة، وهذه النفس درّةٌ كانت أمانة في عنق الزمان والدنيا. وها هي ذي تؤدّى لخالقها الديّان تقدَّسَ اسمُه.

(٦) حلَّ جنانه: دخل النعيم وأقام فيه.

تقاريظ

قال أمير السيف والقلم، ورافع العلم والعَلَم، صاحب السعادة، الأمير الخطير المرحوم محمود سامي البارودي طيب الله ثراه:

[من البسيط]

«لمصطفى صادقٍ» في الشعرِ منزلةٌ ... أمسى يُعَاديهِ فيها منْ يُصَافيهِ
صاغَ القريضَ بإتقانٍ فإنْ تُليتْ ... صُدورُهُ عُلِمَتْ منها قوافيهِ
مهذَّبُ الطبعِ مأمونُ الضميرِ إذا ... بلوتَهُ كانَ باديهِ كخافيهِ
حازَ الكمالَ فلم يحتجْ لمنقبةٍ ... فلستَ تَنْعَتُهُ إلّا بما فيهِ

❁❁❁

وقال شاعر البدو والحضر، وسيد من نَهىٰ بين أهل الكلام وأمر، حَسَنَةُ هذا الزمان، وكوكبُ فَلك البيان، الأستاذ المفضال الشيخ عبد المحسن الكاظمي نزيلُ مصر الآن، وكان حفظه الله قد علم بشروعنا في الطبع، وهو من النسيم، سقيمٌ، فبعثَ إلينا بهذه الأنفاس التي تحملها النسمات، والعيون التي أصبحتْ كلها لحظات:

[من مجزوء الكامل]

أدرَىٰ المفوَّهُ «مصطفى» ... صفرتْ وطابَ بغيضِهِ[1]
أنَّ الحوادثَ أقعدَتْني ... عن أداءِ فُروضِهِ
لِيُصِخْ لِعذرِ أخي ضَناً ... قلقِ الضميرِ جَريضِهِ[2]

---

(١) بئس الأمانةُ عندما نَحْذِفُ كلاماً لغيرنا جعله صاحبُه في مقدمة القصيدة! والخطرُ أشدُّ عندما نسيء الفهْمَ وضبْطَ الكلام، حيث شكَّل محققُ طبعة (الكتب الثقافية) «أدريُّ المفوَّهُ» والصواب: أدرَىٰ المفوَّهُ، كما أثبتُّ. ولم يكتف بذلك، بل أغفل ذكر البيت الثاني، وهو مفعولُ «درَىٰ» في مطلع البيت. كل ذلك وهو ينسب إلى نفسه «التحقيق» فهل أصبح التحقيق تصحيفاً؟ وفي عجز البيت غموض جرَّاء التركيب اللغوي المبهم.

(٢) الجريضُ: الريق الذي يُغَصُّ به. و«ليُصخ»: من أصاخ: استمعْ جيداً.

ولقد أرىٰ والعامُ مَكْـ	ـسُوُّ العُرىٰ بنُحوضهِ[(١)]
أدباً يفيضُ على الورى	لِسلْـهِ دَرُّ مُفيضِهِ
يجلو عرائسَ خاطرٍ	كالبرقِ عندَ وَميضِهِ
وبناتِ فكْرٍ لم يصلـ	ـها الفكرُ عند وَفيضهِ[(٢)]
فكرٌ إذا ما الأمرُ أشكـ	ـلَ حلَّ عقدَ غُموضهِ
هُوَ مَنْ علمْتَ فكل فضـ	ـلٍ نابتٍ بأُروضهِ[(٣)]
فإذا انتمى الأدبُ الصر	يحُ له انتمى لمحيضهِ[(٤)]
قد حلَّ عقدةَ كلِّ صعـ	ـبٍ قبلَ شَدِّ غروضهِ[(٥)]
من بعد ما سكنَ الرجا	ءُ أنابَهُ لنُبُوضهِ[(٦)]
يا مَنْ تَنزَّى للعلىٰ	كالشِّبْلِ بعدَ رُبوضهِ[(٧)]
عرَّضْتَ نفسَكَ للتخيُّلِ	قَبْلَ حينِ عروضهِ[(٨)]
واخترْتَ أشرف مذهبٍ	فسلكتَ غيرَ دَحُوضهِ[(٩)]
فملكتَ أرسنةَ النِّظا	مِ ورضتَ صعبَ عروضِهِ[(١٠)]
وظَلِلْتَ تلعبُ بعدَها	بجَموحِهِ ومَرُوضِهِ[(١١)]
وكذا إذا نهضَ المُجِدُّ	يراحُ بعدَ نُهوضِهِ[(١٢)]

---

(١) النحوضُ: مفردها نَحْضٌ: نقصان اللحم من الهزال.

(٢) الوفضُ: ولم نجد الوفيض ـ السرعة، وهي هنا بمعنى التدفق السريع.

(٣) الأروض: ج: أرض، وتجمع على أراضٍ، وأَرْضين وأرَضين.

(٤) المحيض، معروف. مكان الحيض. وأراد منه هنا أصالة الانتماء، والرحم التي جاءت بهذا الشعر.

(٥) الغُروض، ج: غَرْض، وهو حِزامُ الرحْل.

(٦) النبوض: مصدر نَبَضَ يَنبُضُ، نُبُوضاً أي: عَلَا وسالَ.

(٧) تنزَّى: توثَّبَ وتَسرَّع.

(٨) تحتمل كلمة «عروضه» غير معنى، بحسب تشكيلها. فهي ج: عَرْض بمعنى الكشف والإبانة. والعَروض: موسيقى الشعر ويمكن إرادة المعنيين، لارتباطهما بالشعر والتخيل والقدرة البيانية.

(٩) دَحُوضٌ ودَحضٌ: زَلِق، أي اخترت مذهباً لا انزلاق فيه. وتُقرأُ الدُّحوض (بضم الدال) بمعنى مشابه.

(١٠) أرسنة، ج: رَسَن، وهو زمامُ الدابّة.

(١١) الجَمُوح: التي لا تخضع لنظام، أو قيادة. المَرُوض: ضدُّها. من راض يروضُ رياضةً. فهي الذلول المنقادة.

(١٢) يراح: يخفُّ وينشطُ فرحاً. وهي من راح، يَراحُ رَوْحاً.

وطَّـدْتَ ركـنـاً قـد أَمِـنَّـا الـ ـدهـرَ مـن تَـقْـويـضِـهِ[١]
وحـلـفـتَ لا تُـبـقـي عـلـى واهـي الـكـلامِ حَـريـضِـهِ[٢]
صُـلْ كـيـف شـئـتَ بـسُـمْـرِهِ بـيـنَ الـمَـلا وبـبـيـضِـهِ[٣]
مـا الـرمـحُ فـي تَـطْـعـانـهِ والـسـيـفُ فـي تَـفْـريـضـهِ[٤]
بـأشَـدَّ فـتْـكـاً مـن نـظـيـ ـمـكَ فـي فـؤادِ رَفـيـضـهِ[٥]
فـشَـبَـا لـسـانِـكَ لا شَـبَـا عـضـبِ الـغِـرارِ نـحـيـضـهِ[٦]
ويَـراعُ فـكـرِكَ لا الـسِّـنـا نُ يُـهـابُ عـنـدَ نُـغُـوضـهِ[٧]
الـشـعـرُ فـوَّض أمـرَهُ ونَـجَـاكَ فـي تَـفْـويـضـهِ[٨]
وعـلـيـكَ أسْـبَـغَ بُـرْدَهُ لـتَـجُـرَّ ذيـلَ رحـيـضِـهِ[٩]
فـقـبـضْـتَ مـن مـبـسـوطـهِ وبـسـطـتَ مـنْ مـقـبـوضـهِ[١٠]
وتـركْـتَـهُ مـن بـعـد مـا بـالـغْـتَ فـي تـأريـضـهِ[١١]
يـخـتـالُ بـيـن وَريـقـهِ مـتـبـختـراً وغـضـيـضِـهِ[١٢]
فـإذا أراه الـنَّـوْرَ غـضَّ الـنَّـوْرُ مـن إغـريـضـهِ[١٣]

---

(١) التقويض: الهدْم.

(٢) حريضُ الكلام: فاسِدُه.

(٣) السمْرُ: ج: أسمر، الرماح. والبيضُ: ج: أبيض، وهو السيف، لبياضه وجلاء صفحته.

(٤) التفريضُ: التحزيز، شدَّةُ الحزِّ والتجريح.

(٥) الرفيضُ: المتكسِّر.

(٦) الشَّبا، واحدته شَباةٌ: حد السيف وطرَفُه. والعَضْبُ: القاطع. والغِرارُ، ج غِرّ: الذي يُخْدَع. ويُجمع على أغرار.
والنحيضُ: الذي ترقَّق سِنانُه. أي حدُّ لسانك أمضى من كل الأسنة والسيوف يشهرها الأغرارُ.

(٧) النغوضُ: الارتجاف والاضطراب.

(٨) النَّجا، هنا: الخلاصُ والسلامة، من السَّلخ والتقطيع ـ كأنما أراد أن الشعر سلم من التشويه والإساءة عندما فوَّض أمره إليك.

(٩) البُرد: الثوب الواسع. وأسبغ: ألقاه عليك، والرحيضُ: المغْسُول؛ وقصد به: الذي تنزَّل من قريحة الشاعر مغموراً بعرق المعاناة والانصهار..

(١٠) القبضُ في الشعر، التكثيف والإلساح؛ ضِدُّه: المبسوط.

(١١) أرَّضَ الكلام: نقَّحه وهذَّبه.

(١٢) الغضيضُ من النبات: الطريُّ النضِرُ. والوَريقُ: المُورِق، الحَسَنُ الورق من الشجر ونحوه.

(١٣) الإغريض، ج أغاريض: كلُّ أبيض طريّ. والنَّور: الزهر الأبيض.

أمصوراً ما في الربو ... ع بقضّه وقضيضه؟[1]

إن الذي أعطاك أعطى ... القِدحَ كفٌّ مُفيضِه[2]

حلِّق بقادمةِ الجَنا ... ح وطِرْ بغيرِ مَهيضِه[3]

أشرقتَ فوقَ سمائه ... وسواكَ دونَ حَضيضه[4]

ديوانُ شِعرِكَ حيَّر الشـ ... ـعراءَ في تَقْريضه[5]

ماذا يقولُ مُقَرِّضو ... هُ وأنتَ رَبُّ قريضه؟

ما الروضُ، زوَّده الربيـ ... ـعُ وزاد في ترويضه[6]

وافتضَّ غادي القطرِ عُذْ ... رَةَ زهرِهِ بفضيضه[7]

أضحت تُغازلُهُ ذُكا ... فافترَّ ثغرُ أريضه[8]

وجلَتْهُ ماشِطةُ الصَّبا ... فعَلا شذا إنقيضه[9]

بألَذَّ من مختومه ... نَشْراً ومن مفْضوضه[10]

وأجَلَّ من مرفوعه ... وقفاً ومن مخفوضه

هذا البيانُ فقلْ لمن ... قد ظلَّ دونَ نقيضه

قد فاتكَ القولُ الصحيحُ ... فملتَ نحوَ مريضه

صمتاً فذا أسدُ الكلا ... مِ فما طنينُ بعوضه؟

❁ ❁ ❁

---

(١) «بقضّه وقضيضه»، أي: جميعها، ينقضُّ أولها على آخرها الكبيرة منها والصغيرة.

(٢) القِدْحُ: السهم الذي يُجعلُ فيه النصلُ.

(٣) قادمة الجناح: ريشات مقدَّم الجناح. والمهيضُ، المكسور.

(٤) الحضيضُ: كلُّ ما سفلَ من الأرض، ونهايةُ سَفْح الجبل.

(٥) التقريضُ: صناعة الشعر، من القريض الذي هو الشعر، مشتق من القَرْض الذي هو القطْعُ القائم على تقطيع الكلام وفقاً لفواصل موسقيّة.

(٦) الترويض: العناية بالروض والإكثار منه.

(٧) الفضيضُ، ما يتطاير من الماء وينتشر عند الاغتسال. وغادي القطر: مطرُ البكور.

(٨) الأريضُ: المكان الكثير العشب.

(٩) الإنقيضُ: رائحةُ الطيب (خزاعية). (لسان العرب. [نقض] ٧/ ٢٤٥).

(١٠) المفضوضُ: الذي فُضَّ خَتْمُه فانفتح.. وقوله، «بألَذَّ»: خبر «ما الروض» الواردة قبل أربعة أبيات. والنشر: الرائحة العطرية المنتشرة.

وقال حضرة الشاعر الذي ابتدأ حيث انتهى كثير من الشعراء، وبرعَ ففاق النظراء، الأديب محمد أفندي محمود الرافعي:

[من الطويل]

سمتْ بكَ نفسٌ لاقتِ العِزَّ مغنَما ... وقلبٌ إذا ما همَّ بالأمرِ صَمَّما

فأصبحتَ لا تَجري لشأوٍ قصَدْتَهُ ... من المجدِ والإفضالِ إلا مُقدَّما

وجئتَ بآياتٍ هي السحرُ دقةً ... إذا تُلِيَتْ أفحمْنَ من ليسَ مُفْحَما

كأنّ بها آيَ الكتاب نظيمةً ... كأنّ بها رُوحَ البيانِ مجسَّما

كأنكَ، والأشعارُ منكَ تتابعتْ ... سماءُ بيانٍ تهطلُ القولَ مُحكَما

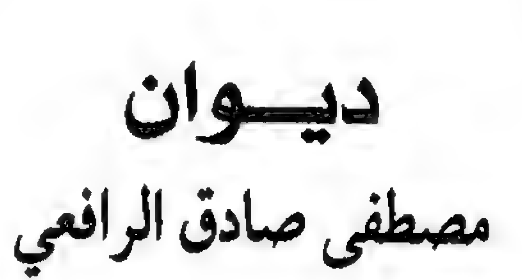
لعمرُكَ ما أدري أدُرٌّ نظمتَهُ ... ملأتَ به سمعي، أم اقتدتَ أنجما؟

طويتَ بما أوتيت يا خيرَ «صادقٍ» ... جزالةَ (بشارٍ) وطاولتَ (مسلما)[1]

فلا زلتَ موفورَ الجَنانِ مسدَّداً ... وشعرُكَ في نفسِ الزمانِ معظَّما

❁ ❁ ❁

(١) «صادق» تورية لطيفة بين اسمه (مصطفى صادق) والمعنى السامي لكلمة (الصدق). وأما «بشار» و«مسلم» فهما بشار بن برد ومسلم بن الوليد.



الجزء الثالث

مقدمة

نوع من نقد الشعر

الشعر تصويرُ عالَم حيٍّ من المعاني والألفاظ. فالمُجيدُ مَن جعلَه مختصَراً من صورة العالَم كله؛ ولا بدَّ من شعاعٍ من الروح إذا تجردتْ له النفس امتزجتْ لَطافتُها بلَطافتِه. وربما أُخذ المرءُ بلذة التصوّر، فظنَّها في مكان نفسِه وحسبَ نفسَهُ في مكانِه.

ونحن ناظرون إلى نقد الشعر، من هذه الجهة التي يتمثل فيها حياً من الأحياء، تتنازع أنواعُهُ البقاء؛ فقد أفاض المتقدمون في الأسباب التي يَحسُنُ بها ما يحسُنُ من ظاهره، ويَقبُحُ منهُ ما يَقْبُحُ؛ وجَرَّدوا الكتبَ في طبقات الألفاظ، ومخارج الأشعار، وسقَطَات الكلام؛ وألطفوا النظرَ في وجوه المعاني ومواضعها، وأصابوا منها صفة التمكُّن في مبادئها ومقاطعها؛ وإنك لتجدُ فيما وضعوه من علوم البلاغة: البحرَ الزاخرَ بهذه الأمواج، والفُلْكَ الدائر بتلك الأبراج.

غير أن الفرق بين باطن الشعر وظاهره، كالفرق الذي يَذكُرُه أصحابُ «الكلام»[1] بين المعجِزة والحيلة. وانظرْ ما حدَّثَ بِهِ **أبو ذكوان** قال: أُدخلتُ إلى **إبراهيم بن العباس**[2] وهو بالأهواز لخدمتهِ، فقال: ما تقول في شعر **النابغة**[3]؟

أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ الـلَّـهَ أَعْـطَـاكَ سُـورَةً تَـرَى كُـلَّ مُـلْـكٍ دُونَـهـا يَـتَـذَبْـذَبُ؟

---

(١) قصد بذلك أصحاب «المعتزلة»: المذهب الفكري الذي خرج به أصحابه عن أهل السنّة، واعتزلوا معظم ما آمن به هؤلاء. ولا سيما القول بأن جميع أفعال العباد.. لم يخلقها الله. (**دائرة معارف القرن العشرين مجلد ٦/ ص٤٢٣**، استناداً إلى أقوال كثيرة **لابن حزم الظاهري في** كتابه: **الفصل في الملل والنحل**). والقول بالمعجزة والحيلة، كناية عن أفكارٍ نادى بها بعضُ المعتزلة في كلامهم المستفيض على ما يقوم به الأنبياء من معجزات أو كرامات بإذن الله، وما يفعله السَّحرة من حيل وشعوذات خارقة. (انظر: **الفصل في الملل والأهواء والنحل**) دار الجيل، بيروت ١٩٨٥ جـ٥/ ٩٩ وما بعدها).

(٢) هو أبو إسحاق، **إبراهيم بن العباس الصولي** الكاتب، من أشهر كتاب عصره وشعرائه. كتب للمعتصم والواثق والمتوكل. وتوفي سنة ٢٤٣هـ/ ٨٥٧. وهو صاحب ديوان النفقات والضِّياع بسامرّاء (**معجم الأدباء، لياقوت جـ١/ ١٦٤ ـ ١٩٨**).

(٣) النابغة ـ هنا ـ هو **النابغة الذبياني**، الشاعر الجاهلي المعروف، وصاحب قصائد الاعتذاريات. =

بِأَنَّكَ شَمْسٌ وَالْمُلُوكُ كَوَاكِبٌ إِذَا طَلَعَتْ لَمْ يَبْدُ مِنْهُنَّ كَوْكَبُ

فقلت: ما عندي فيه الظاهرُ المشهور. يقول: «فضلُك على الملوك كفضل الشمس على الكواكب». فقال: نفهم معناه قبل هذا... إنما يعتذر إلى النعمان من مدحِهِ آل جَفْنَةَ الغسَّانيين وتَرْكِه له. ويريد أنَّ له في مدحهِم عُذراً. ألا ترىٰ قوله:

وَلٰكِنَّني كُنْتُ آمْرأً لي جانِبٌ مِنَ الأَرْضِ فِيهِ مُسْتَرَادٌ وَمَذْهَبُ
مُلُوكٌ وَإِخْوَانٌ إِذَا مَا أَتَيْتُهُمْ أُحَكَّمُ فِي أَمْوَالِهِمْ وَأُقَرَّبُ
كَحُكْمِكَ فِي قَوْمٍ أَرَاكَ اصْطَفَيْتَهُمْ فَلَمْ تَرَهُمْ فِي شُكْرِهِمْ لَكَ أَذْنَبُوا[1]

يقول: لا تلمني على شكري، وقد أحسنوا إليَّ، إذْ لجأتُ إليهم، وإن كانوا أعداءك. كما أحسنتَ إلى قوم شكَروك عند أعدائك. فقد أحسنوا ولم يُذنبوا. ثم قال: إعْمَل على أني أذنبت فمِنْ أين تجد من لا يذنب؟

وَلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أَخاً لا تَلُمُّهُ عَلَى شَعَثٍ أَيُّ ٱلرِّجَالِ ٱلْمُهَذَّبُ
فَإِنْ أَكُ مَظْلُوماً فَعَبْدٌ ظَلَمْتَهُ وَإِنْ تَكُ ذَا عُتْبَى فَمِثْلُكَ يُعْتِبُ[2]

يقول: مثلُكَ يعفو ويُحسن، وإن كان عاتباً، وفي كرمك ما يفعلُ ذلك. ولك العتبى والرجوعُ إلى ما يجب. ثم فضَّله عليهم فقال: «ألم تر أن الله أعطاك سورة»[3] البيتين.

يقول: ما صلُحتَ أنت لي، فإني لا أريد غيرَك من الملوك؛ كما أنَّ من طلعت عليهِ الشمسُ لم يحتجْ إلى النجوم اهـ.

فمثل هذا الشرح، إنما هو تشريحُ النفس لأجزاء الكلام. ومثلُ ذلك القولِ، إنما هو غاز العقول الذي يُضيء في أسِنَّة الأقلام.

يرتقي المبتدئ في الشعر، من مطلق النظم الذي هو النمط عليهِ في إقامة الوزن، إلى الفكر فيما يجيء بهِ؛ فإذا صارتْ له هذه المنزلةُ، أدَّتْهُ إلى الخيال؛ فإذا ارتفع شيئاً بعد ذلك، فهو في جوِّ الروح الذي يسمُّونهُ التصوُّرَ. وهناك حدُّ الطبيعة القائم، وحجابُ الغيب القاتم. فيكون في منزلة بين الوحي والإلهام، ويمر هناك خاطرُه على النفوس كما ينتقل على الأرض ظلُّ الغمام.

= والبيتان (أعلاه) من قصيدة يعتذر بها للنعمان بن المنذر، ومطلع القصيدة:

أتاني ـ أبيتَ اللعنَ ـ أنك لُمْتَني وتلك التي أهتمُّ منها وأنصَبُ

(ديوانه/ ص٧٢ و ٧٤).

(١) القصيدة نفسها، ص٧٣.

(٢) القصيدة نفسها، ص٧٤.

(٣) قصد بذلك، البيتين اللذين ذكرهما أعلاه، في أول ذكر النابغة..

وتلك هي **أطوار الشعر**: مِن طفولته التي يَعبثُ فيها بكل شيء ولا يفقه شيئاً، إلى شبيبته التي يتماسك فيها وقاراً ويندفع، إلى شِدَّته التي تعتصم بها الحكمة وتمتنع، إلى مَشيبه الذي هو نورُ الجمال، والحظُّ المقسومُ له من الكمال.

والشاعِر في الطوْر الأول: كالصبي في يده القوسُ، يُغرِقُ في نَزْعها ما يُغْرق، ثم لا يكونُ إلّا أن يَسمَع إرناناً ضعيفاً؛ فلا هو غَلَبَ وَهْمَه، ولا رمَى سهْمَه، فإذا اشتد ساعدُه، وانتقل **إلى الطور الثاني**، كان في منزلةٍ بين الخطأ والصواب. فإذا بلغ **إلى الثالث**، أَحكَمَ التسديد، واستوى عنده في الإصابة، ما كان من قريبٍ وما كان من بعيد. ومتى صار **إلى الطور الرابع**، وهو منتهى كَمَالِهِ، حسب توزُّعَ الطير في الجوّ لمخافته، وتفرّق الوحشُ في البر لمهابته، وصارتْ نظرتُه هي السهمَ لأنه في أَثَرها، ولفْظتُه عن القنيصة هي القَضاء لأنه في خبرها.

وما يكن من عيبٍ في الشاعر، فلن تَجد فيه كتسلُّط فكره عليه، وعبثه بقوافيه؛ فتراه ينظم الكلمةَ أبياتاً لا معرفةَ بين أولها وآخِرها، ثم يجيء، بعد جفاف الريق، وتخلخل اللسان، وانقطاع النفس، فيمضي فيها اختيارُهُ، ويأخذ في التوفيق بينها وهي متنافرة، ويعمل على التعريف وهي لا تزال متناكرة[١]. فَمَثَلُ الكثير من هذا الشعرِ: مَثَلُ الكلمة المفردة إذا نطقتَ بجملتها، أدَّتْ إليك معناها على أتم ما يكون؛ فإذا فككْتَ أحْرُفَها ولَفَظْتَها حرفاً حرفاً، انقلبَتْ إلى قولٍ هُراء[٢]، ولم تزد على أن تكون أصواتاً ذاهبةً في الهواء.

وأولئك هم الذي قال في شعرهم **ابنُ ميادة**[٣]: إنه «كلفةٌ وتملُّح»[*].

فإذا لم يكن فكْرُ الشاعر عند إرادته، ولم تكن إرادته عند اتجاه عواطفه، أُخِذَتْ عليه منافِذُ القول فاختلَّ، واضطربتْ جهاتُ رأيه فانحلَّ، وصار من نضوب المادة في

---

(١) متناكرة: يُنكِرُ بعضُها بعضاً، لغرابة معانيها، الواحد عن الآخر.

(٢) القول الهُراء: الذي لا معنى له. أو هو الكلام الكثير الفاسد لا نظام له.

(٣) **ابن ميادة**، هو الرمَّاح بنُ أبرد بن ثَوبان من بني مُرَّة بن غطفان. وميَّادة: أُمُّه. شاعر أموي هجَّاء من الطراز الأول، مدح خلفاء بني أمية وعاش حتى أوائل الدولة العباسية. أوصافه: أحمر، سَبْط، عظيم الجسم، لبَّاس، عطير، غَزِل، (توفي سنة ١٣٦هـ/ أو ١٤٩هـ/٧٦٦م) (**معجم الشعراء في لسان العرب**، ص٣٥١ وفيه ثلاثة عشر من مصادر ترجمته ومراجعها).

(*) ذلك قوله:

فـجَـرْنـا يـنـابـيـعَ الـكـلام وبَـحْـرَه ... فـأصـبـح فـيـه ذو الـروايـة يَـسْـبـحُ

وما الـشـعـرُ إلا شـعـرُ قـيـسٍ وخـنـدفٍ ... وشـعـرُ سـواهُـمْ كُـلـفـةٌ وتـمـلُّـحُ

والكلام الموضوع أمامه نجمة (*) في مقدمة الجزء الثالث فقط من ديوان **الرافعي**، هو لشارح الديوان الأول، **محمد كامل الرافعي**.

آخِرة أمره، كمن كتب بقلم ليس عليه إلا مسحة من رَدْغ المِداد[١]؛ فكلما كدَّه[٢] جمد؛ وكلما هَزَّه ركد؛ فإذا كتبَ مع ذلك، جاء الحرف مفرَّق الجهات لئيماً[٣] في الحروف فلا هو كتابة ولا هو مَحْو.

ولم أرَ فيما هو بسببٍ من هذا النوع، كاضطراب **أبي كبير الهذلي**[٤] في مطلعه الذي لم يكن في الشعر أصبرَ منه على سوء عبث صاحبه. وهو قوله:

أزهيرَ هل عن شَيْبَةٍ من مَعْدَلِ ... أم لا سبيلَ إلى الشبابِ الأَوَّلِ؟

ثم اضطرب فيهِ مرة أخرى فقال: **أزهير هل عن شيبة من مصرف**؟ ثم عادَ فقال: **أزهَيرَ هل عن شيبة** من **مَعْكَم**؟ أي محبس. وروىٰ **الأصمعي** في الرابعة، أنه قال: **من مقصر**؟.. ورُويَتْ له خامسَةَ: **من مَعْكَرٍ**... وهي بِلَّة هذا الطينِ[٥].

ولا أظن أن شاعراً يتخلص إلى مثل هذا. ولكنه على كل حال، نوع من ضغط الفكر على الإرادة. وهو قريب كما ترى، من ضغط الحمَّى على الفكر. فكلاهما هذَيانٌ، وإن كان منه معقول وغير معقول.

ولقد يَحار المرء، إذا نظر في شعر العرب، ورأى الكثير منه لا يتعدى الوزنَ والتقفية. ولكنَّ أكبرَ حظ القوم من شعرهم، أَن يَنقلوا الكلامَ إلى نَمَطٍ يتفق مع النغم، كما ترى في غناء هذه الأيام، فهو لا يزيد عن سائر الكلام إلَّا النمط والإيقاع، بحيث إنك لو سمعتَه، وقد جُرِّد من ألحانه، لخرجتَ منه على حسابِ ما دخلتَ فيه: لا طَرَبَ ولا عجَب.

والغناء على أي وجوهه، ينقل النفسَ من تنقيبها بين الألفاظ عما هو حَسَنٌ وغيرُ حَسنٍ، إلى تحركها على الألفاظ نفسها. وإنما النَظْمُ العربي أوزانٌ موسيقية. فكل من

---

(١) ردْغُ المِداد: استخدام مجازي، بمعنى الامتناع عن السيلان.

(٢) كدَّه: أعمل فيه الجهد واستنفده.

(٣) لئيم ـ ههنا ـ لا أصل له ولا هويَّة.

(٤) هو **عامر بن الحُلَيس**، من بني سعْد بن هذيل. شاعر جاهلي. قيل إنه أدرك الإسلام. أحبَّ امرأة من (فَهْم) لها غلام شديد الذكاء، حاد البصيرة والأحاسيس، حاول **أبو كبير** قتله مراراً، فلم يوفَّق. وهذا الغلام هو الشاعر المعروف: **تأبط شراً** (**معجم الشعراء في لسان العرب**/ ص٢٩٢ وفيه عدد كبير من المصادر والمراجع). وبيت **أبي كبير**، مطلع قصيدة، تعدادها واحد وأربعون بيتاً، وفيها: أَزُهَيرُ (بالضم والفتح) يريد زُهَيرة. (انظر: **ديوان الهذليين**، نسخة مصورة عن دار الكتب في القاهرة سنة ١٩٨٥ جـ٢/ ص٨٨). والبيت في **لسان العرب** [عكم] ١٢/ ٤١٦، وفيه، وأراد: زُهيرة: ابنته:

أزهيرُ، هل عن شَيْبَةٍ مِنْ مَعْكِمِ ... أم لا خُلُودَ لِبَازِلٍ متكرِّمِ؟

(٥) أي علَّته الكبرى. وهو من قولهم: زاد في الطين بِلَّة: أي سُوءاً فوق سوءٍ.

جاء بعد العرب من الشعراء، لا يَنظرُ إلّا في أعطاف اللفظ، وتلاحم الكلمات، وانتظام تلك المعاني القديمة، فهو من الجاهلية. وإن كان الأولون قد سُمُّوا «جاهلية» لعبادة الأوثان، فهؤلاء لعبادة الأوزان.

ويكاد **شِعرُ العرب ينحصر في غَرَضَين: الشاهدُ والمَثَل.** فقد كانوا لا يطلبون من الشعر غيرَهما، كما لا يطلبون من الخَبَر إلّا الأيامَ والمقامات. وكان أبدعَ ما يَروجُ عنهم، مِنْ أَجْل ذلك: مساقُ الخبر، ومَضرِبُ المثل، ومَقْطَع الحِكْمة. والحكيمُ فيهم يومئذ، نبيٌّ.

اعتبرْ ذلك بما تجده في أخبار الرواة، إذا أرسلوا عنهم بيتاً مما نحن بصَددٍ منهُ، وهو شيء مستفيضٌ في كلامهم. فقد كان **أبو عبيدة والأصمعي**، يُنْشِدان بيتَيْ **الطرماح**[1]، وخَيرُهما: قوله فيمن يَضرِبُ في الأرض.

يَبْدُو وَتُضْمِرُهُ الْبِلَادُ كَأَنَّهُ ... سَيفٌ عَلَى شَرَفٍ يُسَلُّ وَيُغْمَدُ

ويقولان: هذا أشعرُ الناس في هذين[2]. وكان **أبو عمرو بن العلاء** يقول: لو ضَرَبَ زهير أسفلَ قدميهِ مائتين، على أن يقول مثلَ قول **النابغة**[3]:

فَإِنَّكَ كَاللَّيلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي ... وَإِنْ خِلْتُ أَنَّ ٱلْمُنْتَأَى عَنْكَ وَاسِعُ(*)

---

(١) **الطرمّاح** بن حكيم بن الحَكَم، من قبيلة طيّئ. كنيته أبو نَفْر. والطرماح، معناه: الطويل القامة. من فحول الشعراء الإسلاميين وفصحائهم.
نشأ بالشام، وانتقل إلى الكوفة، واعتنق مذهب الشراة الأزارقة من الخوارج. وتوفي سنة ١٠٠هـ أو ١٢٥هـ/ ٧٤٣م. (**معجم الشعراء في لسان العرب**/ ص ٢١١) وقد أحصينا له في **لسان العرب** ٣١٥ بيتاً في شواهد العربية. والبيت مع بيت تالٍ له، في **«الشعر والشعراء»** لابن قتيبة جـ٢/ ٥٩٤. وفيه أن **الأصمعي** قد استجاد قوله في صفة الظليم (البيت في الحاشية).

(٢) البيت الأول قوله: البيت أعلاه. والثاني:

مجتابُ شَمْلةِ بُرجُدٍ لسَرَاتِه ... قَدَراً وأسْلَمَ ما سِواه البرجُدُ

والبرجُد ثوبٌ مخطط: غليظ.

(٣) البيت من عينيته التي يمدح فيها **النعمان بن المنذر** ويعتذر إليه، ومطلعها:

عَفَا ذو حُسىً من فَرْتَنى، فالفَوارِعُ ... فَجَنْبا أريكٍ، فالتلاعُ الدوافِعُ

(ديوانه/ ص٣٠ و٣٨).

(*) انتقد **الأصمعي** هذا البيت، فقال: أمّا تشبيههُ الإدراكَ بالليل، فقد تساوى الليلُ والنهار فيما يدركانِه. وإنما كان سبيله أن يأتي بما لا قسيمَ له، حتى يأتي بمعنى منفرد اهـ.
وليس كما فهم فإنّ الليل والنهار، وإن تساويا فيما يدركانِه، إلّا أنّ الليلَ مضِلٌّ يأخذ بالمذاهب، ويحبس الذاهبَ ويقبض البصر، غيرَ ما فيه من الروع والهول وتعفية الأثر، وهو ما أراده **النابغة**. فإنّ هذا البيت من بعض قصائده التي يعتذر فيها إلى النعمان.

ما قاله... وزهير أشعرُ الجاهلية في كثير من شعره.

وعن **الأصمعي**، أنَّ أبرع بيت قالته العربُ، قول **أبي ذؤيب**(١):

وَٱلنَّفْسُ رَاغِبَةٌ إذَا رَغَّبْتَهَا ... وَإذَا تُرَدُّ إلَى قَلِيلٍ تَقْنَعُ

ومن ههنا تجد مَثارَ الخلاف بينهم في قولهم: «هذا أشعرُ الناس» في كذا، «وذلك أشعر الشعرآء»، «وغيرهما أشعرُ الإنسِ والجن»، وهلم جرّاً...

وما عدا ذلك، ففي شعرهم من الطُّرَف المُستنكرة، مَا يَغلُظُ على الطبع، وَيثْقُلُ على الذوق. فمنهم من يُشبِّه وجهَ الحسناء ببيضة النعام، ومنهم من يشبهُ جسمَه الناحلَ بأشلاء اللجام(٢)... إلى غير هذا مما تُهَجِّنهُ الحضارةُ. ولهم مع ذلك وجهُ عُذْرٍ فيه، ومُنفَسَحٌ لِلَّوم عنه. وإنما ذكرناه مأخذاً على قوم جاؤوا بعدهم، فجعلوا الشعر صُوَراً من تلك المعاني تتخطر في حِلَى من الألفاظ، على أكثرها صدأُ الركاكة، وغبارُ القِدَم... فتراجَع الشعرُ بينهم وتعطَّلتْ قرائحُهم؛ حتى أصبحوا في اتصالهم بمتْن أولئك الشعراء كما شبَّه **أبو هفان**(٣)، شعرَ آل **أبي حفصة** الذين كان آخر شعرائهم **متوّج**، وكان رجلاً ساقطاً، وذلك في قوله: «شعر آل أبي حفصة بمنزلة الماء الحار؛ ابتداؤه في نهاية الحرارة، ثم تَلِينُ حرارتُه، ثم يَفْتُرُ، ثم يَبردُ. وكذا كانت أشعارهم. إلَّا أن ذلك الماء، لما انتهى إلى **متوّج**، جَمَد...».

وما زال هؤلاء وأمثالُهم، يأخذون الشعرَ على المنشَّط والمُكرَهِ، ويَدسُّونَهُ في أسماع الناس وصفاً وغزلاً ومديحاً وهجاءً؛ ولا أرى لهم في ذلك من مثلٍ إلا ما قيل عن **مروان الأصغر بن أبي الجنوب**(٤)، من أنهُ دخل مرة على **أشناس**، وقد مدحهُ

---

(١) هو خويلد بن خالد، شاعر **هُذلي** جاهلي مخضرم. روى **لساعدة بن جؤية الهذلي**. وشارك **عبد الله بن الزبير** في غزواته، التي مات فيها. عدَّه **حسّان بن ثابت** أشعر هذيل. توفي سنة ٢٦هـ/ ٧٤٧م. (**معجم الشعراء في لسان العرب**/ ص١٤٨ ـ ١٤٩. وفيها عدد كبير من المصادر والمراجع). كما أحصينا له في اللسان ٦٥٥ بيتاً في شواهد العربية. وبيته، من عينيّته الشهيرة التي مطلعها:

أمِنَ المنونِ وريبِها تتوجَّعُ؟ ... والدهرُ ليس بمُعْتِبٍ مَنْ يجزعُ

(ديوانه/ ص١٤٥ و١٤٨).

(٢) الأشلاء: ج: شِلْو، هي أجزاء الشيء بعد التفرق والبلى. واللجام: الرَّسَنُ. وهو ما يعرف بزمام الدابة.

(٣) هو **عبد الله** بن أحمد بن حرب **المُهَزِّمي**، راوية، عالم بالشعر والأدب، من أهل البصرة. أخذ عن **الأصمعي**، وكان فقيراً متهتكاً. توفي سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧١م وفي **معجم الأدباء** ١٢ ص٥٤ توفي سنة ١٩٥هـ (انظر **سمط اللآلي**/ ص٣٣٥).

(٤) هو **مروان بن يحيى بن أبي الجنوب**. حفيد الشاعر المشهور **مروان بن أبي حفصة** المتوفى سنة =

بقصيدة فأنشده إياها، فجعل أشناسُ يحرك رأسَه، ويُومي بيديه، ويُظهِر طرباً وسروراً. وأمر له بصلة، فلما خرج قال له كاتبُه: رأيتُ الأميرَ قد طرِبَ وحرَّك رأسَهُ ويديهِ لما كان يسمعه، فقد فهمَه؟ قال: نعم، قال: فأي شيء كان يقول؟ قال: ما زال يقرأ عليَّ «رُقية الخبز» حتى حصل ما أراد وانصرف(*) . . .

وأعجبُ شيء رأيتُه في تاريخ الشعر، أنهُ كان عصرٌ يسمُّون فيه المولَّدَ (بالرقيق)؛ ثم صار هذا الاسم عَلَماً بالغَلَبة، وأُطلق على الغزل السَّبط[1]، والرِّثاء السائل. ثم عَدُّوا منه أنواعاً عرفوها (بالألفاظ الملوكية)، وأَجْروها في بعض التشبيهات والأوصاف وما إليها. كأن الشعر كان مقضيًا عليه أن يبقى في الموتى حتى يموتَ الأَحياءُ. وأن يكون أهله نُصُباً[2] على جانبي تلك البطحاء التي كان فيها شعراء الجاهلية!. وحسبك أن أعداء ابن المعتز[3] لم يُزْروا عليه، غير نحته وسبكه، ولم يحاولوا إسقاطه إلا من بينهما، وهو بالإجماع في السطح[4] من طبقات الشعراء.

ومنتهى الحمق أن يتخذ مولَّدٌ، ذلك النمطَ الجاهلي. فإنَّ السر في بقاء شعر الجاهلية والمخضرمين، بعد أهله، حاجةُ الرواة والعلماء إلى الشاهد منهُ. فلما أَسقطوا الاستشهادَ بكلام المولَّدين، لِمَا يَدخلُ عليهم من الغَلط، ولضعف الثقة بلغتهم، سقطَتْ هذه الطبقةُ بعلَّةٍ طبيعية وهي سنَّة (بقاء الأنسب).

والعربُ إنما ابتدأتِ الشعرَ بما كان عندها من جزالة اللفظِ، وإتقانِ بِنْية القريضِ، وإحكام عِقْد القافية ونحوها مما هو طبيعة فيهم؛ فكان على من يخلفُهم أَن يأخذ في زخرف البناء وزينتِهِ، بعد أن يكون قد تمَّ منهُ ما لم يَتمَّ، وهو الذي فعَلَه أبو تمام والمتنبي ومَن في طبقتهما من أهل القوة والكفاية. ثم كان على مَن يجيء بعد هؤلاء أنْ يزيدوا فيهِ، من تُحف عصورهم ومَدنيتها، طبقةً بعد طبقة حتى يكون ذلك الموضعُ ديواناً للتاريخ ترتَّبُ فيهِ العصورُ، وتَقفُ على أبوابِهِ الدهور. ولكنَّا نجد، إلى

= ١٨٢هـ/ ٧٩٨م. كان مروان الأصغر من شعراء عصره المشاهير المقدَّمين. مدح المتوكل واختصَّ به، كما مدح المأمون والمعتصم والواثق. وتوفي سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٥م. (معجم الشعراء، للمرزباني/ ص٣٢١ ـ ٣٢٢. ووفيات الأعيان جـ٥/ ١٩٣).

(*) قالوا: أولُ من تكسَّب بالشعر: النابغةُ الذبياني، حين قبِلَ الصلةَ على شعره، وخضع للنعمان (فسقطت منزلته) وأثرى، وإنما كانت العرب قبله تقول الشعر فكاهةً أو مكافأةً على يد.

(١) الغزل السَّبط (بكسر الباء وفتحها وسكونها) الرقيقُ المسترسل.

(٢) النُّصُبُ واحدها: نُصْب ومنصوب، وهو كل ما يُعبد من أوثان وأصنام، ويجمع أيضاً على: أَنصاب.

(٣) هو الخليفة العباسي الذي حكم يوماً وليلة ثم خُلع. وهو الشاعروالمصنف الأديب. ترك عدداً من الأعمال، منها: البديع، وطبقات الشعراء، وفصول التماثيل، وغيرها. وتوفي مخنوقاً سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٩م.

(٤) في السطح، أي في المرتبة الأعلى.

عهدنا، طوائف تنقضُ ذلك البناءَ وتُقيم على أساسه، فلا يلبث أن يقع الاثنان معاً.

والشعر أقسام كانت محدودة على ما نوَّعها **أبو تمام** في «**حماسته**»، ثم جاء من تفنَّن فيها، وذهبَ بها كلَّ مذهب **كابن أبي الإصبع**[1] وغيره. وقرأت أن **البديع الأَسْطُرلابيَّ**[2] رتب ديوان **ابن حجاج**[*] على مائة وأربعين باباً وواحدٍ. ثم قفَّى كلَّ بابٍ وجعله في فن من فنون شعر الرجل.

ولكنَّ الذي قُطع **بالشعر العربي** دونهُ، إنما هو النوع الذي يُسمِّيهِ الإفرنجُ **بالشعر القصصي**. ومنهُ الملاحمُ الكبرى عندهم **كالإلياذة** وغيرها. والبسيطُ منهُ نادر في العربية، بل هو في بَسْطتها كالظل؛ شيءٌ كَلا شيءٍ. حتى إنَّ **أبا هلال العسكري**[3]، لمَّا أوردَ في كتابه الذي سماه (**ديوان المعاني**)[*]، أبياتَ **وضَّاح اليمن**[4] المشهورة التي أوّلها:

قَـالَـتْ أَلَا لَا تَـلِـجَـنْ دارَنَـا إِنَّ أَبَـانَـا رَجُـلٌ غَـائِـرُ

---

(١) هو زكيُّ الدين **عبد العظيم** بن عبد الواحد، بن **أبي الإصبع العدواني**، الشاعر المشهور وصاحب التصانيف الحسنة في الأدب والبلاغة، وفي مقدمها «**تحرير التحبير**» في البديع.. عاشَ نيِّفاً وستين سنة، وتوفي في مصر سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م فرثاه كل من **السراج الوراق**، و**أبو الحسين الجزار**، و**عفيف الدين التلمساني**، من شعراء العصر المملوكي. (انظر **معاهد التنصيص** جـ٤/ ١٨٠ ـ ١٨٢).

(٢) أبو القاسم، **هبة الله بن الحسين بن يوسف**، وحيد زمانه في صنع الآلات الفلكية. كان شاعراً خليعاً لدرجة الفحش في اللفظ. ونُعت **بالأسطرلابي** نسبة إلى الأسطرلاب: ميزان الشمس. ت٥٣٤هـ/ ١١٣٩م. (**وفيات الأعيان** جـ٦/ ٥٠ ـ ٥٣).

(*) **ابن حجاج** هذا: رجل من شعراء العراق، كان في القرن الرابع للهجرة. وكان كثير السُّخْف في شعره، يمزجهُ بلغات الخلديين والمكِدِّين وأمثالهم، وهو النمط الذي انفرد به.

وما عدا ذلك فهو كما قال **الثعالبي** صاحب «**اليتيمة**»: «مُلَحُ بنِ حجاج لا تنتهي حتى يُنتهى عنها». واسم هذا المجموع الذي رتَّبهُ الأسطرلابي (**درة التاج، من شعر ابن حجاج**).

(٣) هو الحسن بن عبد الله بن سهل، **أبو هلال العسكري**، نسبة إلى مسقط رأسه: عسكر مكرم، من كور الأهواز في خوزستان، أديب، لغوي، وشاعر، مصنف. ترك عدداً من الكتب والتصانيف. وله ديوان شعر، ويغلب على شعره المسحة الحكمية. توفي بعد سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٥م (**معجم الأدباء** جـ٨/ ٢٥٨ ـ ٢٦٧).

(*) اختار العسكري هذا الديوان من شعر الشعراء إلى أيامه، وجعله في اثني عشر باباً.

(٤) **عبد الرحمن بن إسماعيل**، يقال إنه من أولاد الفرس في زمن **سيف بن ذي يزن**. لقِّب بالوضاح، لجماله الخارق. فقد كان يستر وجهه خوفاً من العين وحذراً من النساء. أحب **أم البنين** زوجة **الوليد بن عبد الملك**، فعلم بأمره الوليد، فدفنه حياً في صندوق خشبي. كان ذلك سنة ٩٠هـ/ ٧٠٨م. (**معجم الشعراء في لسان العرب** ص ٣٧٢) وفيه عدد كبير من المصادر والمراجع، والبيت هنا مطلع قصيدة نظمها في امرأة من أهل اليمن تدعى روضة. ومطلع القصيدة:

يـا روضُ جـيـرانُـكـمُ الـبـاكـرُ فـالـقـلـبُ لا لاهٍ ولا صـابـرُ

(**الأغاني**، ٦/ ص ٢١٦).

وهو يذكر فيها محاجَّةً بينهُ وبين صاحبتِه في مدافعة الوصل، وحكم الدلال، متوخياً إنارة البرهان، وجلاء المعنى على وجه البيان، عقَّبها هناك بقول المؤمَّل[١]:

وَطَـارِقَـاتٍ طَـرَقْـنَـنِـي رُسُـلاً   وَٱللَّـيْـلُ كـالـطَّـيْـلَسَـانِ مُـعْـتَـكِـرُ

وهي مدافعة كالأولى. ثم قال العسكري: «وهذا أصعب ما يُرام من الشعر، ولا يكاد يوجد في هذا المعنى أحسنُ من هاتين المقطوعتين».

ذلك لأن الشعر العربي روحُ هذه اللغة؛ وهو من اللطافة بحيث لا يُضيءُ فيه المعنى إلّا بشعاعٍ من الخيال. فإذا أردتَ أن تقيم منهُ حديثاً سَوِيَّ التركيب، كاملَ الترتيب، زَوَتْ[٢] عليك القافيةُ وتقطّع الشعر، فلا تدري من أين تأخذ ولا من أين تَدَعُ. كالنور اللطيف تحاول أن تلقي عليهِ كثافة الغطاء، فإذا هو منبسطٌ فوق ما تلقي. فمَهما تأتِ من ذلك لا تكون قد صنعتَ شيئاً.

ورأسُ هذا الأمر عندنا، على ما يقول شبيبُ بن شَيْبَةَ[٣]: «حظُّ جودةِ القافية، وإنْ كانت كلمةً واحدة، أرفعُ من حظ سائرِ البيت». فلا بدّ لهذا النوع في لغتنا، من وضع جديد يكون وسَطاً بين النثر والنظم، حتى يحمل الألفاظ والمعاني معاً، فيتعلقُ فيه الشعرُ بالنفسِ، ويمتد السياقُ على النفَس، كما فعل الأندلسيون في وضع الموشحات لحاجتهم التي بعَثَتْهم عليها، والعصرُ يومئذ لهوٌ وترفٌ. والأَدبُ مجْدٌ وشرَفٌ.

وأساسُ هذا الشعر سلامةُ الذوق: فهي الحاسة التي تتجه بها النفسُ إلى المعاني وتنقلب عنها، بل هي العينُ المركبة في الروح تَجمعُ جمالَ الطبيعة في نظرة واحدة،

---

(١) المؤمّل (بفتح الميم وكسرها) بن أميل بن أسيد المحاربي: كوفي، خدم في جند الدولة العباسية، وانقطع إلى المهدي. شاعر مجيد، أحب امرأة من أهل الحيرة يقال لها هند. وفيها يقول قصيدته المشهورة، التي منها البيت أعلاه، ومطلعها:

شفَّ الـمـؤمّـلَ يـوم الـحـيـرة الـنـظـرُ   لـيـتَ الـمـؤمّـلَ لـم يُـخـلَـقْ لـه بَـصَـرُ

(الأغاني جـ٢٢/ ٢٤٥ ـ ٢٥١. ومعجم الأدباء جـ١٩/ ٢٠١ ـ ٢٠٤، ومعجم الشعراء، للمرزباني/ ص٢٩٨).

(٢) زوتْ عليه القوافي: ذهبتْ به، وعطّلته.

(٣) شبيب بن شيبة بن عبد الله التميمي، من رهط خالد بن صفوان، أديب من أهل البصرة، خطيب. أحد دهاة الكلمة، ونصير فذّ لقومه الذين يفزعون إليه في حوائجهم. وقد قال فيه أحد القضاة الزهّاد وهو يعزّي بموته:

«رحمة الله على أديب الملوك، وجليس الفقراء، وأخي المساكين». توفي سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م (البيان والتبيين، للجاحظ جـ١/ ٢٤ و١١٤) وقول شبيب أعلاه، أورده الجاحظ في معرض التأكيد على الإيجاز، واختيار الأهم على المهم، في البيان والتبيين جـ١/ ١١٢. وفيه كلام آخر حوله.

فتنقلُه إلى الإحساس، كما تَمُدُّ العينُ الباصرةُ بمرئياتها، وهْمَ المخيلة.

ومن الشعراء من يكون سقيمَ الذوق؛ فهو في نظره إلى الشعر مع فساد ذوقه، كاللص في نظرتِه إلى الحسناء، إذا وسوسَ حلْيُها في مسمعه. يَغفل منها عما ينتبهُ إليه الناسُ، وينتبهُ لما يَغفلون عنه.

ومن هؤلاء طائفةُ الشعراء المُصَنِّعِين، وهم الذين لا حظ لهم إلَّا في (الصنعة الشعرية)، وفنونُها لا تُعَدُّ. فيجيئون بالقصيدة كلُّها رُقَعٌ، ثم هم يتنافسون في هذا التصدير، ولا يدرون أنَّ الثوب الساذج من قطعة واحدة خيرٌ من هذه الرقع كلها، وإنْ كانت من أنفس الخز والديباج. وانظرْ ما يكونُ موقعُ هذا الثقل من نفوس الأدباء؛ فقد أراد **ديكُ الجن**[1] الشاعرُ مرةً، أن يهول على **دعبل**[2] ويَقْرَعَ سَمعَه، فأنشده بيتاً مضطرباً. . . فقال له دعبل: اسكتْ فواللَّه ما ظننتك تُتِمُّ البيتَ إلا وقد غشي عليك أو تشكَّيْتَ دماغك. ولكأني بك في جهنم، تخاطب الزبانية، أو تَخَبَّطَكَ الشيطانُ من المسِّ.

والعلةُ الطبيعية في بؤس الشعراء، هي ذلك الإحساسُ المتصل بالنفس. فكلما غَمَزَتْه المؤثراتُ، تحوَّل منه بمقدار الضغط، بخارٌ روحانيٌ ينتشر حولها، وذلك هو الشعرُ. وقد ترى النفسُ فيه ضوءاً، كأنه تبسُّمُ القلب الحزين الذي تشابه جلالُ الطبيعةِ بجلاله. لأنها مخلوقة في رأس النفس على مثاله.

وقد يكون للشاعر مُتَّسعٌ في غُلُوِّه وكبريائهِ على هذه الطبيعة، إلَّا في العواطف التي هي روابطُ القلوب بالقلوب، وموضعُ الصلة بين ما في الوجودِ وما وراء الغيوب؛ فقد يَضربُ في كلامه بسيفٍ لم يُطْبع، ويرمي بقذيفةٍ لم تُصْنَع، ويَقطعُ من خيوط الحياة ما لم يُقْطَع. ولكِنَّه فيما دون ذلك، لا يقدر أن يَذكر الحب مِن قلبٍ لم يُحِبَّ، ويُثْبِتَ للشيءِ الذي لَمْ يجْرِ عليه حكْمُ الوجوب، شيئاً مما يَجِبُ. فإذا هو فعَلَ أطفَأتِ الطبيعةُ مِن رُوائه، وقامتْ عواطفُ الناس شاهدةً

---

(١) هو عبد السلام بن رغبان؛ وديك الجن لقب غلبَ عليه. شاعر مجيد، ذهب مذهب **أبي تمام** في صنعة الشعر. وهو شاعر حمصيٌّ، من شعراء الدولة العباسية. لم يبرح نواحي الشام. كان متشيعاً باعتدال. وله في **الحسين بن علي**، مراثٍ كثيرة. توفي سنة ٢٣٥هـ/ ٨٥٠م (**الأغاني** ١٤/ ٥١ ـ ٦٨).

(٢) **دِعْبل بن علي بن رزين**، من خُزاعة، وقيل اسمه: الحسن أو عبد الرحمن. شاعر عباسي، هجَّاء بذيء اللسان، مولعٌ بالهجو بما في ذلك: الخلفاء. عمِّر طويلاً حتى ناهز المائة من عمره، وتوفي سنة ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م. (**الشعر والشعراء، لابن قتيبة** جـ٢/ ٨٥٣ ـ ٨٥٦ **ومعاهد التنصيص، للعباسي** جـ٢/ ١٩٠ ـ ٢١١).

على كَذبهِ في ادعائه. وقد ذكروا أنَّ كسرى سمعَ الأعشى[1] يتغنى ذات يوم بقوله:

أَرِقْتُ ومَا هذَا السُّهادُ المُؤرّقُ ومَا بيَ منْ سُقمٍ ومَا بيَ مَعْشَقُ

فقال ما يقول هذا العربيُّ؟ قالوا يتغنى بالعربية. فأَمَر أنْ يُفسّروا قوله. فقالوا: زعَم أنَّه سَهِرَ من غير مرضٍ ولا عشْقٍ. فقال هذا إذاً لِصٌّ...؟

وللشعر أساليبُ تُنتجُها القرائحُ، ولكنَّ جماعَ القول فيها، أنها تمثيلٌ للطبيعة. فكأن الشاعر ينقلُ مناظرَ الأرض إلى الروح العاليةِ التي تُرسِلُ إلى الجسم شعاعَ الحياة، فتَزيدُ تلك المناظِرَ في قوةِ الشعاع الإلهي، فلا يَتصلُ بالجسم حتى تفَيضَ هذه القوةُ على القلب، فتهزُّه الهِزةَ التي نَعرفُ منها الطربَ.

فأيُّ امرئٍ اجتمعتْ له قوةُ التمثيل، وسلامةُ الذوق، وهما يكونان عند سَعَة العقلِ وسمو الطبع، فذلك الذي هو في معناه بين الملك والإنسان، وهو الشاعرُ.

❁ ❁ ❁

(١) **الأعشى** (ميمون بن قيس) أو **الأعشى الأكبر**، وأعشى قيس، وأعشى بكر بن وائل. أحد كبار الشعراء في الجاهلية. عمّر طويلاً، وأدرك الإسلام ولم يسلم. عرف عنه تغنّيه بشعره فسمّي **صناجة العرب**. توفي سنة ٧٠هـ/ ٦٢٩م. انظر **الأعلام**، للزركلي جـ٧/ ٣٤١ وفيه قائمة من أربعة عشر عنواناً بين مصدر ومرجع لحياته ودراسته.
والبيت الشعري المذكور أعلاه، مطلع قصيدة في مدح **المحلّق** بن حَنْتَم بن شداد بن ربيعة. وتعداد القصيدة واحدٌ وستون بيتاً (**ديوان الأعشى الكبير**، بشرح د. **محمد أحمد قاسم**. المكتب الإسلامي، بيروت سنة ١٩٩٤/ ص٢٤٣).

الكلمة الأخيرة للشارح

هذا هو الجزء الثالث وهو تمام الديوان. وإنما كان هذا الديوان نوعاً من أنواع الشعر، تمثَّلت فيهِ أفكارُ صاحبِه وعواطفُهُ، في زمنٍ من عمره؛ فلا نستطيع أن نقول إلَّا أن هذا النوعَ، مع شهرته النادرة، كالثمرة متى جاءَ وقتُها، وحان قطافُها، انفصلتْ عن غُصنها، وتمَّ بذلك عامُها. ولا يكون انفصالُها إلَّا لتعودَ فَتظهَرَ للناس أنضجَ ما كانت؛ بما يُبْذَل في نَشْأَتها الثانية من العناية.

وهكذا صحَّ عزْمُ شاعرنا على أن يضع ديوانَ «ٱلنَّظَرَات»، وأن ينحو فيهِ منْحىً جديداً، وينزعَ إلى مقْصدٍ من المعاني بديعٍ، ويَجْرِي على نمطٍ من الشعر رفيع.

ولا نجد الآن وجهاً للكلام عن الديوان الجديد؛ فالأَيام إن شاءَ اللَّهُ، مقبلةٌ، ولكنا أردنا أن نُبين هنا عن كلمة من العذر اضْطَرَّنا إليها عارضٌ طرأَ؛

وذلك أن هذا الجزء كان قد تمَّ من نظمه نحوُ ثلثيه، قبل أن يَصْدُرَ الجزءُ الثاني من المطبعة، لأنه تأخَّر فيها عن الأَجل المضروب له سنةً ونصفاً، لأَسبابٍ ليست من جهتنا.

ثم إنه بعد أن صدرَ الجزءُ المذكور، واستأْنفَ الشاعرُ إتمام الديوان عرضتْ أحوالٌ، اضطرتْنا إلى الانتقال، وشغَلَتْنا بكثرة الأَعمال، فلم يتيسر لنا بعد ذلك، إتمامُ الشرح على ما بقي من النظم.

فما كان في هذا الباقي من نادرة تاريخية، أو نكتة أدبية، أو كلمة «كما يقال» لغويةٍ، فقد تولَّى الناظمُ بيانَها عنا، وذلك قليلٌ في الديوان.

وقد بقي علينا أن نشكر للفضلاء ثناءَهم على هذا النمط من الشرح؛ فالأَدبُ شيمةُ كلِّ فاضلٍ؛ وأَن نُوَجِّه بعد ذلك، إلى الأَدعياء كلمة الفيلسوف ابن حزم التي يقول فيها: «**لقد طال همُّ من غاظه الحق**»، ولا نَزيدُهم على ذلك شيئاً. والحمد للَّه أوَّلاً وآخراً.

«محمد كامل الرافعي»

في التهذيب والحكمة

قال في حالة مصر الاجتماعية لسنة ١٩٠٥ :

[من الطويل]

علـى أيِّ دهـرٍ مـصـرُ لا تـتـنـدَّمُ؟ ... وفـي أيِّ دهـرٍ مـصـرُ لا تـتـظـلَّـمُ؟[١]

بَنُـوهَـا بـنَـوْهـا، أَيُّـمـا تَـكُ صـدمـةٌ ... تـقـلِّـبُـهـم لـلـجـانـبـيـن، فـهُـمْ هُـمُ[٢]

ومـا يـتَّـقـون الـبـؤس لـكـنـهـمْ مـتـى ... تَـعَـضَّ بـهـم أنـيـابُـهُ، يـتـألّـمـوا

ويُـبْـطِـرُه[*] عـهـدُ الـرخـاء، فـإن مـضـى، ... فـسـهـلٌ عـلـيـهـم بـعـدُ أن يـتـنـدمـوا

كـذي مـرَضٍ فـي جـاهـلـي الـطـبِّ إنْ يـعِـشْ ... يُـعـذِّبْـه أهـلـوهُ وإلّا تَـرَحَّـمـوا[٣]

ومـا بَـرِحـوا إنْ خـاذَلَـتْـهُـمْ ظـنـونُـهـمْ ... وأعـمـالُـهـم، مَـدُّوا الـمـنـى وتَـوهَّـمُـوا[٤]

وإنْ سَـقَـمَـتْ آراؤهـم فـي مُـلِـمَّـةٍ ... تَـحـامـلَ فـيـهـا الـظـنُّ، والـظـنُّ أَسـقَـمُ[**]

فُـرادَى وأحـداثُ الـزمـان جـمـيـعـةٌ ... وقـد عَـلِـمُـوا سـرَّ الـزمـان وعُـلِّـمـوا[***]

---

(١) في هذا البيت على اختصاره، وصفُ مصرَ مِن يوم انشقَّ عنها الزمنُ، إلى عهْدنا. ولا تجدُ شاهداً على ذلك أصدقَ من التاريخ.

(٢) البيت الأول في وصْف مصر، وهذا في وصف المصريين. وقد اختلف فلاسفةُ المؤرخين في تعليل هذا المعنى، حتى إنَّ بعضهم جزَم بأنَّ العلّة طبيعية في الإقليم، ونحن لا نتعرض لشيء من هذا لا نفياً ولا إثباتاً. «وأيّ» في البيت، شرطية. ومقْطعُه تفسيرٌ لمَطْلعه.

(*) خرَجنا في تحشية هذا الجزء (الثالث) من الديوان، على النهج المتبع حتى الآن. إذْ كانت الحواشي المرقمة، في الجزئين الأول والثاني، ولمقدمة الجزء الثالث هذا: لنا، وكانت الحواشي المنجَّمة (نسبة إلى النجمة) لشارح الديوان الأول: **محمد كامل الرافعي**.

فعكسنا النهْجَ ههنا، وجعلنا الحواشي المرقمة للشارح الأول، وما سبقتْه النجمةُ، لنا، لكثرة حواشي الشارح الأول، ذات الدلالة المهمة والقيمة البيِّنة. (ي. أ).

(٣) الجاهلون بالطب، يحركون المريضَ دائماً إلى جانب الموت كلَّما أقلقوه بتجاربهم ونحوها. فإذا قضَوا عليه بجهلهم، ترحموا! وهي كلمة لا تنفعُ بعد العذاب الذي وجده منهم، وإن كانت «رحمة».

(٤) هذا البيت والذي بعده، في وصف العجز الاجتماعي الذي يصور الظن بصورة اليقين.

(**) الملمَّة: المصيبة الشديدة من مصائب الدهر.

(***) جميعة (بالتأنيث) بمعنى جميعها. قال امرؤ القيس:

فـلـو أنـهـا نـفـسٌ تـمـوتُ جـمـيـعـةً ... ولـكـنـهـا نـفـس تَـسَـاقَـطُ أنـفـسـا

(لسان العرب [جمع] ٨/ ٥٤).

فمن حادثٍ في حادثٍ عند حادثٍ كأنّكِ للأحداث يا مصرُ مُعْجَمُ[1]
كأنَّ زماني شاعرٌ جاشَ طبعُهُ وألفاكِ قرطاساً فما زال ينظُمُ[2]
كأنَّ قلوبَ البائسين محابرٌ لأقلامه فيما يَخُطُّ ويَرقمُ[*]
فيمتصُّ ما فيها من الروح مَدَّةً فأخرى، إلى أنْ تُزهَقَ الروحُ منهمُ

* * *

وممّا يزيدُ الهمّ لَهفاً وحَسرةً تصايُحُ فتيان بنا أنْ تقدَّموا
فَسُبحانك اللّهُمّ بَلْبَلْتَ[3] قومَنا فما يَفهَم المسكينَ فينا المنعَّمُ[**]
يريدون أن يَجْري إلى مُرتَقى العلى رجالٌ ضِعافٌ إنْ جرَوْا يتحطموا
ويبغون أنْ نَرقىٰ، وهاتيكَ حالُنا وما عندنا إلّا لأسفلَ، سُلَّمُ
كمن يُكرِهُ الأطفالَ أن يَحفظوا الذي يُكلِّمهم مِنْ قبل أن يتكلموا
ومَن أوْقَرَ السُّفْنَ المتاعَ بمَصْنَعٍ ولمّا يُتِمُّوها، فكيف تُعَوِّمُ[4]؟

---

(١) المراد من هذا النسق، أن الحوادِث متسلسلة؛ وقد كان العرب لا يزيدون في هذا النحو على تكرار الكلمة ثلاث مرات؛ وهو وارد في بعض الأحاديث الشريفة. والمعجم هو المصطلح على تسميته اليوم (بالقاموس).

(٢) جَيشانُ الطبع: تحرّكُهُ. وهذا الفصل من التمثيل حالة الشطر الأكبر من الدنيا. أي شطر الفقر من لدن الحياة إلى الموت. والبائسون (في البيت التالي) جمع بائس. وقولهم: «بؤساء» خطأ.

(*) في الأبيات الثلاثة التي تبدأ بـ«كأنّ زماني» وتنتهي بـ«فيمتصُّ»، تصوير بلاغي وجداني لمحمول ضمير الشاعر حيال أحداث مصر. فهي ـ أي نفسه ـ مرجلٌ جاش بالانفعال والتألم، لما يعتري مصر، وهي أيضاً قد اتخذت من قضايا البؤساء مدادها ومخزونها لكل ما يخطه القلم على القرطاس. وقوله: «فيمتص ما فيه من الروح» أي من «المحابر». والمَدَّةُ، سَكْبة المواد أو المعاناة التي منحها الشاعر صفة الامتداد الأثيري. ونعْمَ ما صوَّر واستعار!!

(٣) البلبلةُ: اختلاطُ الألسنة. ومرجعُ هذه اللفظة إلى حكاية بناء مدينة بابل وبُرْجها، التي روَتْها التوراةُ في الإصحاح الحادي عشر، من سِفْر التكوين؛ وقد أوردها ابن العِبْري في «تاريخه» بنوع من التهذيب، فرأينا أن ننقلها عنهُ غير متعرضين لها. قال في ترجمة (أرعو بن فالغ): وفي سبعين سنةً لأرعو، قال الناس بعضُهم لبعض: هلموا نضربُ لَبِناً، ونُحرِقُ آجرّاً، ونبني صرْحاً شامخاً في علو السماء، ويكون لنا ذكراً كيلا نتبدد على وجه الأرض. فلما جَدُّوا في ذلك بأرض شنغار، وهي السامرة، قال الله تعالى: هذا ابتداءُ عملهم، ولا يَعْجزون عن شيء يهتمون به. سوف أُفرقُ لغاتهم لئلّا يَعرفَ أحدُهم ما يقول الآخرُ: فبدَّد اللهُ شملَهم على وجه الأرض، وأرسل رياحاً عاصفة، فهدَمتِ الصرحَ ومات فيه نمرودُ الجبارُ، وتبلبلتْ لغاتُ الآدميين. ولذلك دُعيَ اسمُ ذلك الموضع: «بابلَ».

(**) المسكين والمنعَّم، رمزان لشريحتي المجتمع: الفقراء والأغنياء.

(٤) المصنع: المكان الذي تُبنى فيه السفنُ. وأوقرها: ملأها. وهذه الأبياتُ هي تمثيلُ طورِ التعنت، ومشابهةُ الإصلاح في الأمم؛ وهو طور الأقوال دون الأعمال.

يقولون هُبُّوا وانفضوا سِنَةَ الكرىٰ ... وما نحن، لكنَّ الليالِيَ، نُوَّمُ

زَرَعْنا، وآفاتُ السماءِ بِسِرْبِها ... مُحلِّقَةٌ فوق المزارعِ حُوَّمُ

وجَفَّ لسانُ النيلِ مما شكا الأَسى ... ومصرُ لهذا النيل من عهدها: فَمُ[*]

جَهِدْنا، فلا مَن باع أَيْسَرَ بَعْدَها ... ولا من أضاع القطْنَ، باليُسْرِ يَحلمُ

يَظلُّ الفتى والشيخُ والطفلُ والنِّسا ... جميعهُمُ بين النباتات يَخْدِمُ

إلى أن يَروها قائماتٍ كأنها ... عليهمْ، بِراحات السعودِ تُسَلِّمُ[**]

إلى أن يَرَوا أزهارَهنَّ كأنَّها ... ثغورُ ملوكٍ إذْ تُحَيِّي وتَبْسِمُ

إلى أن يروا أقطانهنَّ كأنها ... لِدامي جُروحِ الفقرِ والبُؤْسِ، مَرْهَمُ

إلى أنْ يَروها ناصعاتٍ كأنها ... لدى ظُلَمٍ[***] الآمال في العين، أَنجُمُ[1]

هناك وجوهُ النحس تُلقي لِثامَها ... وبالقطن كانت بينهم تتلثَّمُ[2]

هناك: فإمَّا أنْ تُرَىٰ شِبهَ مُعْدِمٍ ... وإلَّا، فمأخوذٌ إلى البؤسِ يُعدَمُ

وما الشؤمُ إلَّا ما يُسَمَّى تَمَدُّناً ... ولكنه في ساكني الريفِ أشأمُ[****]

تَغَيَّر فيهمْ كلُّ خُلْقٍ، فكيف لا ... يكونُ الغنى أيضاً تغيَّر فيهمُ[3]؟

وإنْ لَبِسَتْ دارٌ مَعاطِفَ زينةٍ ... فمِنْ بعضِ تبديلٍ، يُخَيَّلُ مأتمُ

* * *

زَهِدْنا على رُغْمٍ، كأنا، لضُعْفنا، ... رضيعٌ إذا ما أمسكَ الثديُ يُفْطَمُ[*****]

(*) أي أن نهر النيل يحدِّث العصور والأجيال عمَّا قاست منه مصر في تاريخها الطويل؛ فهي اللسان الناطق بكل ما مرَّ بها واجتاحها، وبكل انتصاراتها على الحدثان.

(**) الراحات، ج: راحة، وهي الكفُّ. والسعود، واحدها، سَعْد: كلُّ ما يفرحُ به المرء ويسعد.

(***) لم نتبيَّن معنى عجز البيت، بسبب الإبهام أو الالتباس الذي اعتوره، من سوء صياغته، وبخاصة كلمة «ظلم».

(1) الناصعات: شديدةُ البياض. وهذا الفصل، تمثيلٌ لنبات القُطْن الذي هو «بياضُ وجه الفلاح المصري». وقد ابتلي بآفات كالدودة والندوة وغيرهما مما هو معروف.

(2) النحسُ: ضدُّ السعد؛ وقد نسبَه القدماء إلى كواكب معروفة، وتكلموا فيه كثيراً. وربما نُلِمُّ بشيء منه في باب الأغراض والمقاطيع. وأكثرُ ما يكون اللثام في عصرنا، شَفيفاً أبيضَ من الحرير. وبهذا صحَّ التشبيهُ في البيت.

(****) أشأمُ، على غرار (آلأَمَ) أي الأكثر شُؤْماً.

(3) المراد (بالغنى) هنا الخُلُق الذي يكون في النفس. قال عبد الملك يوماً لعبد الله بن يزيد أبي خالد، وكان من أعقل الناس: ما مالُك؟ فقال: شيئان لا عيلة عليَّ معهما: الرضا عن الله، والغنى عن الناس.

(*****) أمسك الثديُ: جفَّ الحليبُ فيه. أو امتنع عن الإدرار..

ومَن كان لا يَدري، متى يُحْرَزُ الغنى؟ غدا اليومَ لا يدري متى هو يُطْعَمُ؟
ومن ذاق حُلْوَ الدَّهْرِ أُعْقِبَ مِلْحَهُ ويا ليتَ لا يأتي مع الملحِ، علقمُ! (*)
صغرْنا، وقد جاء الزَّمانُ مكبِّراً فدينارُنا بالأمس، ساواه دِرْهَمُ (١)
وبِتْنا إذا لم يَخْرُجِ القولُ من فم كما قيل، «رَسْمِيٌّ»، فهَيْهَاتَ نَفْهَمُ!
ومِن نكدِ الأيام في حَتْفِ صَرْفِها لذي الحِلْم، أن يُبْلَى بمن يتحلَّمُ
صَغارٌ وأوباءٌ وبؤسٌ وقد أتى لشِقْوتنا هذا الغَلاءُ يُتَمِّمُ (٢)

❁❁❁

وقال بعد حادثة دنشواي المشهورة: [من الكامل]

(موعظة)

يا أُمَّةً كانت إذا اسْتَبَقَ الورى (**) فغبارُها صَدأٌ على الأفلاكِ

(*) العلقم نبات مُرٌّ، وقيل: هو الحنظلُ. يفضل الشاعر الملحَ أو الملوحة، على المرارة. وقصد بالأولى: البؤس والفقر، وبالثانية: الذلُّ والهوان.

(١) ليس هذا الغلَاءُ إلَّا بمثابة انتقال الجسم من الماء البارد إلى الحار، من غير فترة بينهما؛ وإلَّا فالغلَاءُ، والعياذ بالله، هو الموتُ فيه الحياة. وقد وقع في مصر على عهد **الحاكم**؛ فكان الناسُ يأكلون الكلاب والقططَ. وبلغ ثمنُ البيضة الواحدة ديناراً. وآخرُ غلاءٍ مِنْ هذا القبيل، وهو الذي وقع في مدينة (بورارثر) في أواخر حصارها. فقد بلغ ثمنُ الديكِ الرومي أربعين جنيها، وكان الرطلُ من لحم الكلب يباع بأضعاف ثمن الشاة عندنا.

(٢) كنا نريد أن نأتي على لمحة من تاريخ مصر إلى اليوم؛ ولكنَّ المقام ضيقٌ. غير أنه لا بد لنا، بعد أنْ فرغنا من هذه القصيدة، أن نرويَ هذه النادرة: قال أبو عمرو: مات رجلٌ من بني قتال، فلفَّه أخوه في عباءة، وقال لآخر: كيف تحمله؟ قال: كما تحملُ القربة. فعمد إلى حبْلٍ فشدَّ طرَفَه في عنقه، وطرَفَه في ركبتيه، وحمَلَه على ظَهْره كما تُحمَلُ القربةُ. فلمَّا صار به إلى الموضع الذي يريد دفْنَه فيه، حفَر له حفيرةً وألقاه فيها، وهال عليه الترابَ حتى واراه؛ فلمَّا انصرفا، قال له يا هناه؟ أنسيتُ الحبلَ في عنق أخي ورجليه، وسيبقى مكتوفاً إلى يوم القيامة. قال: دعْه يا هناه، فإنْ يُرِدِ الله به خيراً يُحَلِّلْهُ (*).

(**) استبقَ الورى: سابق بعضُهم بعضاً.

(*) ونضيف إلى ما ذكره الشاعر، وعلَّق عليه الشارح، بأن أزمة الغلاء عريقة في مصر. وقد عرض لها شعراءُ العصور ولا سيما شعراء العصر المملوكي، فقال ابنُ قاضي شُهْبة (عبد الوهاب بن محمدالمتوفى سنة ٧٢٦هـ/ ١٣٢٦م) ملخصاً مأساة مصر بكاملها:

رَمَتْنا صروفُ الدهر حقاً بسبعةٍ فما أحدٌ منّا من السَّبْعِ سالِمُ
غَلَاءٌ وغازانٌ وغزوٌ وغارةٌ وغدرٌ وإغبانٌ وغمٌّ ملازم

(النجوم الزاهرة جـ٨/ ١٢٦) وفي كتابنا: **«آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي»** (ص٢٤٤ ـ ٢٤٨) نماذج شعرية أخرى لمظاهر الفقر والبؤس في مصر.

غَلبتْ على عز الممالك سطوةً كالكهرباء سطتْ على الأَسلاكِ
كانت على شجر الزمانِ أزاهراً ما بالُها صارت من الأشواك؟
هدم الشعوبُ صوامعَ الكَسلِ التي عَمَرَتْ وما برحُوا من النسَّاك[١]
مُتَوَاكِلينَ وكلُّ أمرِهِمْ بأنَّ (م) الأَمْرَ بين اللَّه والأَملاكِ
اليومَ صِيدُوا بالطيور، فيا غداً أيُصادُ فيك القومُ بالأسماك؟
يا قومُ ما نَفَعَ الضعيفَ شَكَاتُه كلَّا ولا شفَّ البكاءُ لباكِ
ذُلُّ الضَّعيفِ مع القويِّ طبيعةٌ إلَّا إذا ساواه في الإدراكِ

❁ ❁ ❁

وقال في سيَّاح مصر:

[من المتقارب]

شتاؤكِ يا مصرُ للنازلِ كقَطْرِ الدموع من الثاكلِ[٢](*)
له نَفَسٌ كرجاء المُحِبِّ (م) خالطَهُ لَهَفُ العاذلِ
وفي بقعةٍ كجمال الحُليِّ تَبَصَّرُها أعينُ العاطلِ(**)
على نَهَرٍ كسماء الشروقِ تَبسَّم في وَجْنةِ الخاملِ[٣]
تمرُّ على القلب أنفاسُه بأطيبَ مِن أمل الآملِ
وقد دفنَ الدهرُ في شاطئيـ ـهِ أسرارَ تاريخِهِ الكاملِ
فَيَكْدُرُ كالظلم حيناً وحيناً يُحاكي صفا نيَّةِ العادلِ

---

(١) نروي هنا نادرة واحدة عن اليابان التي بهرت العالم بمدنيتها؛ فقد كان يجب على معلم أولاد الأمراء فيها، منذ أربعين سنة، أن يركع أمام تلميذه مدة التعليم. واضعاً على فيه منديلاً كبيراً (فوطه) لئلا يدنِّس بأنفاسه وجه الأمير الصغير. فتأمل!

(٢) الشتاءُ في مصر أطيب شيء للأوروبيين فيها؛ فإنَّ بعضَ بلادهم في الشتاء، ربما يعلو الجليدُ في طُرقها إلى ارتفاع متر، ولذلك يُسمُّون بلادنا: بلادَ الشمس والأحلام.

(*) الثاكل في البيت: مؤنثهُ ثكلى وثاكِلة: الذي يفقدُ حبيباً.

(**) العاطل: صفة للمرأة التي خلا جيدُها من الحليّ، كذلك سائر أطراف جسدها.

(٣) يريد نهر النيل المبارك وقد كان قدماءُ المصريين يعبدون العنايةَ الإلهية باسم (أوزيريس). وكان النيل عندهم يمثل أوزيريس هذا؛ فهو في اعتقادهم تمثيلُ عنايةِ ربِّ السماءِ في الأرض. ويقال: إنَّ أقدم أسماءِ النيل (أجيبْتْ) [Egypt] ومنه اشتق اسمُ مصرَ في اللغات الإفرنجية. وكانت له مدحة عند المصريين نقلها (ماسبرو) من اللغة البربائية. يقولون فيها: أنتِ سندُ الفقراء لم تُصَوَّر في حَجَرٍ ولم تُمَثَّل بتمثال، لم يعملِ أحدٌ كنهَ محلِّكِ، ولم يصل إلى معرفة سرِّك، ولم ترسم في الكتب المقدسة، ولم يحطك مكانٌ من الأزلية.

كـأنَّ الـسَّـفـيـن عـلـى مـائـه ... خـواطـرُ فـي مـهـجـة الـغـافـلِ
فـذاك الـشِـراعُ بـيـاضُ الـمـنـى ... وذاك الـدُّخـان مـن الـبـاطـلِ(*)
ويـا مـصـرُ أرْضُـكِ مَـهـدُ الـصِّـبَـا ... هـنـاءً وعَـطْـفـاً عـلـى الـنـازل(**)
فـمـن روضـةٍ كـابـتـسـام الـزمـانِ ... إلـى نـسـمـةٍ كَـوَفَـا الـمـاطـلِ
إلـى راحـةٍ كـدَبـيـبِ الـشـفـاءِ ... إلـى الـخِـضْـبِ فـي مـنـكـبِ الـذابـلِ
إلـى أثـرٍ فـي يـديْ بـاحـثٍ ... كـمـا أشـرقَ الـنـصـرُ لـلـبـاسـلِ(١)
ومـنَّـا ومـنـهـم يـرى الـنـاظـرو ... نَ فـرْقَ الـمـفـيـق مـن الـذاهـلِ(***)
وفـيـنـا وفـيـهـم يـرى الـعـالِـمو ... نَ قَـدْرَ الـعـلـيـم مـن الـجـاهـلِ
فـهـم فـي اضـطـرابٍ كـمـوج الـبـحـارِ ... ونـحـن مـن الـهَـدْءِ كـالـسـاحـلِ(****)
وهـم يـفـعـلـون ومـنـا الـكـلام ... وأيـن الـقَـؤولُ مـن الـفـاعـلِ؟(٢)
وقـد أبـطـلـوا الـرِّقَّ إلَّا الـنـفـوسَ ... فـلـلَّـهِ مـن حـيـلـة الـعـاقـلِ!
إذا وقـعَ الـصـيـدُ فـي كـفَّـةٍ ... وإنْ وُسِّـعَـتْ فـهـو لـلـحـابـل(٣)
ويـا تَـرْجُـمَـانـاً لـهـذا الـغـريـب ... أتـطـمـع فـي الـعـرَضِ الـزائـلِ(٤)؟
تـجـيـبـهُـمُ كـلـمـا يـسـألـونَ ... بـمـا بـغَّـضَ الـشـرقَ لـلـسـائـلِ؟

(*) لوحة بليغة التعبير، قدّمها الشاعر في اختطاف أجمل الصور المترائية في الخاطر الشعري.

(**) النازل: الذي فكَّ رحله وأقام فيها.

(١) بعضُ السياح يجيء مصر للراحة، وبعضُهم للاستشفاء، وآخرون للاعتبار، وغيرُهم للتنقيب في الآثار. وهذا النسق هو المراد في الأبيات.

(***) المفيقُ: المستيقظ من سبات طويل. والذاهلُ: المشدوه، كمن أصابتْهُ سِنَةٌ ونوم من التأثر الذاتي.

(****) الهُدْءُ، والهَدْءُ: الهزيعُ من الليل، وهو من أوله إلى ثلثه وهو كذلك مصدر [هدأ]: سكَنَ.

(٢) ما قول عظماء الشرق في طلب المستر تشمبرلن، الوزير الإنكليزي الشهير الذي رصَّع تَاجَ بريطانيا العظمى بمناجم الترنسفال، حيث طلَبَ أن يُكْتبَ على ضريحه «إنه زرَع أشجاراً في طُرق وشوارع برمنجهام، واقتلعَ بيده بلاطَ الشوارع الداخلية»؟ أليس مثلُ هذا هو دليل الحياة بعد الموت؟

(٣) كفةُ الحابل وشرك الصائد: سواء(*).

(٤) زار بعضُ ساسة الأمريكان مصرَ، فكتبَ عنها في إحدى جرائد بلاده، كتابةً مطولةً قال فيها: إني رأيت الحِمَار المصري لم يَرْتقِ إلى اليوم، عما هو في الرسوم المأثورة عن القدماء، منذ أربعة آلاف سنة. وغيرُ هذا السائح (بفضل التراجمة) يَظْلمُ الناسَ في مصر، وربما أنصفَ حمارَها المظلومَ..

(*) الحابلُ: الذي يَصطاد بالحِبَالة.

ولـو أنـصـف الـقـومُ مـا سـاءَلـوا سـوى الـحـجَـر الـصـامـتِ الـقـائـلِ
ولـكـنـنـا أُمّـةٌ لـم تـزلْ مـن الـذل فـي خـدمـة الـخـاذِلِ
إذا مـا أسـاءتْ يـقـولـون فـي الـحـق؛ (م) أوْ أحـسـنَـتْ: قـيـل فـي الـبـاطـلِ[*]
وإنْ بَـلَـدٌ لـم يـكـنْ خـيـرُهُ لأبـنـائـه فـهـو كـالـمـاحـلِ[١]

❁ ❁ ❁

وقال في ذم الخمر[٢]:

[من البسيط]

بيـن الكُـؤوسِ وبيـن الأَعيـنِ النُّجُـلِ سوقٌ لبيـع الهوى والموتِ والعللِ
نُقـودُها قُبَلٌ إنْ شئتَ من ذَهَب الـ ـكاساتِ في الفمِ أو من فِضَّةِ الغَزَلِ
إمَّـا تَـرِنُ فـلا عـقـلٌ ولا جَـلَـدٌ صوتُ الجنون رنينُ الكاس والقُبَلِ
البـومُ تَنـعِـقُ في الأطـلال منـذِرَةً بالشؤم، والخمرُ فيهمْ بومةُ الأَجلِ[٣]
وفـي الكُـؤوسِ ظـلامٌ إنْ نـظـرْتَ لـه بأَعينِ العَقْل، تَنْظرْ خيبةَ الأَمَلِ
والخمرُ من حِيَلِ الفقرِ المُذِلُ، فهل أَذَلُّ ممـن يـريـد الـفـقـرَ بـالـحِـيَـلِ؟
لا تَنـظُـرُوا لـونَ أَهـلـيـهـا ورَوْنَـقَـهُ! فـذي عـلامـةُ هَـمّ الـنـفـسِ والـخَـجَـلِ
كـذلـك الـنـارُ ألـوانٌ مـزخـرفـةٌ وإنـمـا هـو حُـسْـنُ الـجـمـر والـشُّـعَـلِ[٤]

❁ ❁ ❁

(*) أي يرون الحقّ في الإساءة، والباطل في الإحسان.

(١) الماحلُ: الذي لا يُنبِتُ شيئاً. وأبياتُ هذه القصيدة وما قبلَها شروح موجزة لحوادث مطولة هي قسم من تاريخ هذه البلاد.

(٢) عمَل الإنكليزُ إحصاءً لشاربي الجِعَة (البيرة)، فوجَدوا أنَّ ما تَشْرَبُهُ أُمَّتُهم منها في عام واحد، لو صُبَّ في حوضٍ لاستطاعت كلُّ سفنِ إنكلترا وأساطيلها الضخمة، أن ترسو فيه، ولكان متوسِّطُ عمقِ الحوض ٢٠ قدماً. ثم حسبوا أنه لو لزم أنْ يشربَ كلَّ ذلك شخصٌ واحد في سنة واحدة، لاقتَضيَ له أنْ يشرَبَ في كل دقيقة (٦٦٠ برميلاً)؛ لا ينفكُّ عن ذلك ليلاً ونهاراً إلى آخر السنة. وفي أمريكا مائة وأربعون ألف حانوتٍ لبيع الخمر. وفي مصر.. تُحسَبُ الخمرُ لازمةً للتمدن وكفى.

(٣) في تاريخ ابن النجار، أنَّ كسرى، قال لعاملٍ له: صِدْ لي شَرَّ الطين، واشوِهِ بِشَرِّ الوقود، وأَطْعِمْه شرَّ الناس! فصادَ بومةً، وشَواها بحطبِ الدُّفلى، وأطعمها ساعياً (يَنم بين الناس). ولو قال كسرى: واسْقه شرَّ ما يُشْرَب، لما كان إلّا الخمرُ.

(٤) للنار ولهيبها ودخانها، ألوانٌ جميلة. ولكنَّ جمالها لا يغرُّ عما وراءها من ألم الكي والحرق.

وقال في تيه الأغنياء:

[من الخفيف]

لا تَظُنَّ الغنيَّ إنْ يَمْشِ تِيهاً ملأتْه عُجْباً فضائلُ نَفْسِهْ
إنما تلك نفحةُ الدهرِ هزَّتْ مِن رطوباتِها الجنونَ برَأْسِهْ

❁ ❁ ❁

وقال في تهالك الناس على الوظائف والرتب:

[من السريع]

قومي «ولا فَخْرٌ» على حالةٍ لا يَعْرِفُ الإنسانُ إنسانا
فكُلُّهُم مسأرَبُه واحدٌ فيما أرى شِيباً وشُبَّانا
«وظيفةٌ» تُكتبُ تحتَ اسْمِهِ أو «رُتْبةٌ» تُذْكَرُ عُنوانا[١]

❁ ❁ ❁

وقال يتخيَّلُ أنه في مِصر، صار كركفيلر في أمريكا[٢]:

[من السريع]

أرتنيَ الأحلامُ فيما أرى روضَ زماني نَضِراً مُثْمِرا[٣]
كأنما سال به لؤلؤٌ فأثمرتْ أشجارُهُ جوهرا
فقلت للدهر أفي ليلةٍ تَنفضُ في فِرْق الثريَّا ثرى؟[*]
أنا «فلان» بعدها أم أنا قد صرت في قوميَ رُكفَيْلرا؟[**]

* * *

(١) الشطر الأول للفقراء، والثاني للأغنياء، وبين الشطرين بياض..

(٢) ركفيلر هذا هو ملك الأغنياء في هذا الزمن. ولد سنة ١٨٣٩ للميلاد فقيراً، كما يولد أطفال الفقراء. فلما بلغ السادسة عشرة كان يملك عشرة ريالات. فلما صار إلى الثالثة والعشرين كانت ثروته ألفاً وخمسمائة ريال. ولما قطع السادسة والخمسين بلغت ١٥٠ مليون ريال. وثروته الآن فوق الألف مليون. ومع ذلك فهو شديد الطمع والحرص، وتلك حكمة الله.

(٣) الناظر في هذه القصيدة يجدها فصولاً، لأنها لا تكون إلا كذلك. فالموضوع خيالي لا أثر للحقيقة فيه على الإطلاق. وهو، إلى الهزل أقرب منه إلى الجد. فبعد أن ذكر الشاعر في أولها انقلابَ الحال، هوّن على نفسه أمر هذا الانقلاب، حتى لا يأخذها الشحُّ. ثم استفزَّها إلى البذل بوصف حالة البلاد التي يريد أن يبذل لها. ثم ذكَر وجوهَ الإنفاق على نحو يضمنُ النصفة، وجعلَ المالَ أخماساً. وقد جاء في الحديث (**وفي الرِّكاز الخُمس**)؛ والركازُ هو ما يُعثر عليه من كنز ونحوه. ثم كان كل هذا التخيل تمهيداً للحقيقة الأخيرة التي جعلت في الموضوع شيئاً من لا شيء، وهي تمام البيان.

(*) الفِرْق (بالكسر): الفِلْق. أو القِسْم ينفصل من الشيء.

(**) فتح (فاء) الاسم الأعجمي للضرورة الشعرية.

دنيا وما الدنيا سوى مَرْسَحٍ ... يَعقِبُ فيها مَنظرٌ مَنظرا[*]

ودولةٌ لكنها لم تَزَلْ ... يَخلُفُ فيها قيصرٌ قيصرا

يا نفسُ ما السعدُ سوى مِجْهرٍ ... يُري الورىٰ أصغرَهم أكبرا[1]

والناسُ إن تخدَعْهُمُ أعيُنٌ ... فما على الألبابِ أن لا ترىٰ

كالطفلِ من جهلٍ إذا راعهُ ... بدرُ الليالي ظَنَّه سكَّرا

* * *

هاتوا ليَ المال أسلْهُ لكي ... أكتبَ في قومي به أسطُرا

مصرٌ وما مصرُ سوى صفحةٍ ... صوَّر فيها الدهرُ ما صوَّرا

بينَا تَراها ناصعاً لونُها ... إذا به منقلِبٌ أكْدَرا

يا ليت شعري هل درىٰ أهلُها ... ماذا الذي صار ومَن صَيَّرا؟

وهل يرى في نفسه نخوةً ... تَبعثُه للعزِّ مَنْ قد دَرىٰ؟

تُعوِزنا الأخلاقُ نسعى بها ... فلا يُرَى مُقبِلُنا مُدبِرا

للجند مهما ظُفِّروا كَسْرةً ... وعسكرُ الأخلاق لن يُكْسَرا[*]

المال أخماسٌ فخُمْسٌ لمن ... في سُبُل الكَدْح له شمَّرا[**]

وخُمسُهُ للعاجزين الأُلى ... أقعدَهم مِن دهرهم ما جرى

والخُمس للأطفال في يُتمهم ... ومن رآهم أهلُهم منكرا[2]

والخُمس للعلم وأبنائه ... والخُمس للخيرات بين الورى

لا فضلَ للإنسان في قُدرةٍ ... فاللّهُ قد شاء وقد قدَّرا

هذا نباتُ الأرض ما بالُهُ ... ذلك لم يُزهِرْ وذا أزهرا[3]؟

* * *

بسَطْتُ كفي بَسْطَةً لم تدَعْ ... في مصر محتاجاً ولا مُعْسِرا

أطلقتُ روحَ العلم في نيلها ... تَخترِقُ المُدْن وتروي القُرَى

(*) لم نجد في المعاجم: «المرسح» وإنما: المسرح. وقد لحظنا ذلك في حاشية سابقة.

(١) المجهر هو المنظار المعظم كالمكروسكوب.

(**) الكَسْرةُ: الهزيمة.

(***) الأخماس. هي الحصص الخمس. معطاة لكل من جاهدَ في سبيل اللّه.

(٢) يريد «بمن رآهم أهلهم منكراً»: الأطفال اللقطاء.

(٣) لو صحَّ أنَّ (من البيان لَسِحراً)، فهذان البيتان هما إنجيلُ فضائلِ الأغنياء وتوراتُها.

تَجمعُ بَحْرَيْهَا على خَيْرِها ... أبيضَها الجائرَ والأَحمرا[١]

والعلمُ إن كان حِمىً مَعْشَرٍ ... أقام من أفكارهم عسكرا[*]

* * *

وبعد ما جُدْتُ بهذي المُنَىٰ ... أشرقتْ كالأُفُق متى أَمْطَرا[٢]

فلم أَجد غيري وغيرَ الأَسى ... ووجهَ صبحٍ قد بدا مُسفِرا[**]

النَّاس يسْعَوْن بأوطاننا ... مِنْ عَجْزِنَا نَخْدِمُها في الكَرَى

❁ ❁ ❁

وقال في الأماني البعيدة:

[من الخفيف]

لي أَمَانٍ مِنْ يوم عاشتْ بنفسي ... مات أُنسي لشُؤْمها وهنائي

إنْ يكن قتلُها دوائي فإني ... سوف يَقضي عليَّ منهن دائي

كيف أَستطيعُ خَنْقَها بيد العَجْـ ... ـز وهذي أعناقُها في السماءِ؟[***]

❁ ❁ ❁

وقال في أماني النفس الكاذبة التي تؤمِّلُها في الناس:

[من الوافر]

دَعِ الدنيا كما تجري لقوم ... يُسمِّيهمْ «زمانُكَ» بالرفاقِ!

وإنْ عَرَضوا الودادَ عليك يوماً ... فضعْ في لفظه معنى الفراقِ!

وإنْ تَجَرَ المنى بك في هواهُمْ ... فخذْها من ظنونك بالوثاق[****]

وكيف ترى الأَماني في قلوبٍ ... مُصدَّأةٍ بأنفاس النفاق؟[٣]

❁ ❁ ❁

---

(١) في وصف البحر الأبيض بالجائر، قسم من تاريخ مصر يعرفهُ من وقف على تاريخها القديم والحديث. وهي الكلمة الصغيرة التي يخرج منها المعنى الكبير.

(*) الحمى: كل ما يُحمى من الناس من أملاك ومحارم. وعسكرُ الأفكار، هم القوى العلميّة والروحية.

(٢) الإشراق هنا كناية عن النهوض والاستيقاظ. وقد جاءت متمكنة من موضعها كما ترى.

(**) أسْفَر الصبحُ، إذا طلعَ النهارُ. كنّى بذلك عن ظهور الحقيقة المرّة..

(***) أراد كيف أصرفها عن الخيال، لأي سبب كان، وهي لا تزال تزداد ائتلاقاً وقوة؟

(****) تَجرَ واتَّجر وتاجَرَ: باع واشترى.

(٣) كان الشيخ علي بن الحسين المعروف **بأبي الحسن الحريري**، ممن ينتسبون إلى الزندقة، يقول لأصحابه: بايعوني على أن نموت يهوداً ونحشر إلى النار، حتى لا يصاحبني أحدٌ لعلة... وهذا منتهى الغيظ من الناس.

وقال في فلسفة الحياة والوجود:

[من الوافر]

رأيتُ الدَّهرَ يَخدعُ كلَّ نفسٍ ... ببعضِ الهمِّ عن طلبِ الأماني
ومَن يَبْغِ الرجاءَ من الرزايا ... فقد طلَبَ اللهيبَ من الدخانِ
ومَن ظنَّ الحياةَ رؤًى ووهماً ... فوَهْمٌ ما يَظُنُّ وما يُعاني
كمن قطعَ المفاوزَ في منامٍ ... وعادَ وما تزحزح عن مكانِ(*)
ألا إنَّ الوجودَ كتابُ حقٍّ ... حياتُك فيه مِن بعضِ المعاني
وليس اللهُ ناسِخَها بموتٍ ... ولكنْ للعوالمِ لفظتانِ
خلودٌ والفَنا من ذا لهذا ... وليس الموتُ غيرَ الترجمانِ(١)
وما فَرَحُ الفتى والحزنُ إلا ... ظلالَ النفسِ تَسقُط في الجَنانِ(٢)
وليس يدوم ظلُّ الشيءِ إلا ... بمقدارِ التحوُّلِ والتفاني
وعجزٌ أن يُسَرَّ المرءُ أو أن ... يُساءَ بيومِ عزٍّ أو هوانِ
فأَغدِ ذ همةَ الغدِ كلَّ يومٍ ... فما الدنيا سوى يومٍ وثاني
وما غيرُ العظائمِ باقياتٍ ... يُكرِّرُ ذكرُها في كلِّ آنِ
كساعاتِ الزمانِ تنالُ ذكراً ... وما الإهمالُ إلا للثواني
وكيف يَدُقُّ قلبُكَ لانتظامِ الـ ... ـحياةِ وأنتَ تجنحُ للتواني؟(٣)
إذا لم أَلْقَ مِن قلبي مُعيناً ... فما أنا في الحوادثِ بالمُعانِ(**)

(*) المفاوز، ج، مفازة: الصحراء المُهلكة. سميتْ كذلك لأن من يجتازها يفوز.

(١) ضمَّن اللفظة معنى اللغة، كأن الفناء والخلود لغتان للحياة، والموتُ ترجمانٌ ينقل من لغة إلى لغة. وقد تطرَّف بعضُ الأمم في الاعتقاد بالحياة بعد الموت، حتى إنَّ أهل مملكة دهومي (وهي مملكة صغيرة واقعة على الشاطئ الغربي من غينيا العليا في غربي أفريقيا) يعتقدون أن مقام الإنسان، بعد موتِه هو عينُ المقام الذي كان له في حياته. ومن أجل ذلك إذا مات لهم ملكٌ قتلوا معهُ عدداً من الناس ليكونوا بِطانتَه وخَدمهُ في العالم الآخر. وإذا أرادوا إبلاغَ بعضِ موتاهم خبراً، قتلوا واحداً منهم وأرسلوا روحه تُبلغ ذلك الخبر للأموات.

(٢) الجنان (بالفتح) القلبُ، أوْ روعه.

(٣) التواني الكسل. ونبض القلب علامة الحياة، وهو ينبض سبعينَ مرة في الدقيقة، ويدفع عند كل نبضةٍ نحو مائة غرام من الدم، فيبلغ ما يدفعه بنبضاته: مائة طن في اليوم. ودمُ الجسم كله ثمانيةٌ وعشرون لتراً، فهو على هذا الحساب، يمر في القلب بين كل دقيقتين إلى ثلاث دقائق، ثم ينبعث منه؛ وهلمَّ جرّاً.

(**) المُعَانُ: (اسم مفعول) من أعانَ يُعين. مدَّ للآخرين، يدَ العَوْن والمساعدة.

يكاد القلبُ لو يَسْتطيعُ يوماً لِعزَّته، يفرُّ من الجَبانِ
فما في فعله منه سوى ما تَرى في الأرض مِنْ ظلِّ السِّنانِ[1]
فخُذْ في دورة الدنيا، سَواءً على القطبين: حربٌ أو أمانِ[*]
ولا تَنْظرْ لآتٍ، كلُّ آتٍ سيَجري في مدارجه لشانِ
ولا تفخرْ بماضٍ لا تراه فما للميتين وللتهاني؟[**]
تَجِدُّ النفسُ في الدنيا لتُبقي لها أثراً على أرض الزمانِ

❁ ❁ ❁

وقال في ضعف الشرق والشرقيين:

[من الخفيف]

نحنُ من ضعفِ شَرْقنا قد رأينا باطلاً في الورى لنا كلَّ حقِّ
يا (بَرَهْمَا) افْتَروا عليكَ ولكنْ صَحَّ تشبيهُهُمْ على كل شرقي[2]
كاد قومي من المذلَّة في الخَلْـ ـقِ يظنون أنهم غيرُ خَلْقِ

❁ ❁ ❁

وقال في نحو ذلك:

[من البسيط]

يا ربُّ قد صار بحرُ الدهر مضطرباً لا تستقرُّ سفيني عند ساحلِهِ

---

(١) ظلُّ السنان في الأرض ليس فيه شيء من فعله، وهو الطعنُ والمضاء. فكذلك أفعال الجبان ليس فيها شيء من روح القلب، وهي الهمة والشهامة.

(*) حقُّه أن يقول: (حربٌ أو أمانٌ) على سبيل التضاد. لكنه أحالَها إلى الأماني، التي تتضمن الدعة والأخيلة المريحة، مراعاةً للقافية.

(**) لا فخر بأشياء مضى عهدها، وأصبحت في عداد الأموات.

(٢) في الأسفار الهندية المقدسة عندهم، أن **برهما** قسم الجنسَ البشري أربعَ رُتَب سماها ألواناً. وفي البدء خلقَ مخلوقاتِ العوالم السفلى، والسمواتِ العليا، ثم هيأ الأرض مَسْكناً للأرواح الأرضية، ثم خرَج من فمه لونُ البراهمة... أي رُتبتُهم وهم أقرب إليه من سائر المخلوقات وأشبه به، ولهم وحدهم الحق أن يعلموا الناس (القيدات) التي جرتْ من شفتيه في وقتِ خلقهم، حاويةً كلَّ علم تاماً كاملاً. ثم خرجتْ من ذراعيه رتبةُ الكشاتريا، أي الجنودَ والمحاربين، ومن صدره الذي هو مقر الحياة، خرجتْ رُتبة الفائسيا، أي المنتجين كالرعاة والحراثين ونحوهم. ومن رِجْله دلالة على الوُطوء والدناءة خرجتْ رتبةُ الصدرا، أي الخدام المقضي عليهم بخدمة سائر الرتب والألوان، ومنهم الفَعَلة وأهلُ الحرف الدنيئة ونحوهم. ولذلك لم يكن أحد من الهنود يخرج من رتبته لأنه هكذا خُلق، وإلّا رُفض وانقطع عنه أهلُه وعشيرته. **وبرهما** هذا في زعم الهنود، هو أول شخص تجسّد فيه (براهم) أي الخالق، تعالى اللّه عن ذلك علواً كبيراً...

وقد غُمِرتُ بموجٍ من حوادثه يَميلُ بي لقرارٍ من مشاكلهِ
فإن أخُضْهُ فما نفسي بحاملتي وإنْ أَدَعْهُ فما جسمي بحامِله
وإنْ أمُدَّ بباعي أبتغي فرجاً فما سوى الريح شيء في أنامله
فخذ يميني إلى علياءَ تَعْصِمُني مِن جاهل الشر في الدنيا وعاقِله
فإنَّ كلَّ امرئٍ في الشرق أصبحَ لا يَظُنُّ أعجزَ منه غيرُ سائلِه[1]

❁❁❁

وقال في الطبيعة والناس:

[من الخفيف]

ضلَّتِ الناسُ: لا الفقيرُ مُمنًّى بثراءٍ، ولا الغنيُّ يبالي[2]
خفَّض الدهرُ، ثُمَّ أعلى، فأمسى بعضُهم سادةً، وبعضٌ موالي
إخوةٌ كالغصون يُنبتها الجِذْ عُ، قصارٌ تكون تحت طِوالِ
أيُّهذي النفوسُ مِلْتِ عن الفِطْـ ـرة حتى بُليتِ بالإذلالِ
الثرى يُنبت الحبوبَ جِزافاً والورىٰ يقسمون بالمكيال[3]

❁❁❁

وقال في مثل ذلك:

[من السريع]

يا أُمةَ المال وكمْ سفَّهتْ هارونَ قِدماً أمةُ العِجْلِ[4]

---

(١) هذا العجز على نوعين: ظاهرٌ كما ترى، ومعنوي على نحو ما قيل: إن رجلاً سأل آخر عن مسألة، فقال: على الخبير بها سقطتَ. سألت عنها أبي فقال: سألتُ عنها جَدَّك فقال.. لا أدري!

(٢) كان بعضهم يقول: «وددتُ أن لي مثل أُحُدٍ ذهباً لا أنتفع منه بشيء. قيل: فما ينفعُك من ذلك؟ قال: لكثرة من يخدمني عليه..».

(٣) جزافاً أي من غير مكيال. ولو أن هذا البيت قيل في أوروبا لقامت له القيامة، لأنه روح الاشتراكية الخالص، وقاعدتُها الذهبية. وهنا نأتي على كلمة صغيرة في أشهر مذاهب الاشتراكيين، وهي ثلاثة: **الأول** مذهبُ (أوِفن) وهو رجل يقول بتقسيم الأرض بين بني آدم على السواء. **والثاني** مذهب **الاتحاديين** يقولون فيه: إنه يجب تركُ الأرض للناس، تحت نظر حاكم عام، ويأخذ كلُّ إنسان منها ما يريد، فيكون التقسيم على قَدْر الاحتياج. **والثالث** مذهب (سنتْ سيمولن) يقول فيه: إن تقسيم الثروة ينبغي أن يكون حسَب الكفاءة، فيأخذ كلُّ إنسان على قَدْر استحقاقه؛ وعلى ذلك: فلا وجه للهِبة والوصية والميراث، وإنما ترجعُ الثروةُ عن صاحبها إلى الحكومة القوامة على هذا العمل.

(٤) **هارون** هو أخو موسى عليهما السلام. والعجل هو الذي اتخذه السامري لليهود؛ ولمَّا نصحَهم هارون، سفَّهوه.

لن يَصغرَ الناصحُ بين الورى أن تُكبِروا ذا المكرِ والدَّجَلِ
لِلسنِّ والرِّجل نموٌ فمَنْ يقيس طول السنِّ بالرجلِ(*)

❁ ❁ ❁

وقال في الروح:

[من الطويل]

أَلا ليت شعري كيف يشتدُّ حادثٌ فيعصفُ بالدنيا وكيف يلينُ؟
ولو لم يكن إلّا الوجودُ وشأنُهُ لهانت شؤونٌ عندنا وشؤونُ
ولكنَّها روحٌ تداولتِ الورىٰ ولم يَدنُ منها للظنون يَقينُ(١)
يُفتش عنها العقلُ وهو ضياؤها فكيف يَرَوْنَ الروحَ فيه تبينُ؟
إذا لم يكن بين اليقين وبيننا سوى الموت حدٌّ، فالحياةُ ظنونُ

❁ ❁ ❁

وقال فيما يشبهُهُ:

[من البسيط]

إحفظْ مكانَك في الدنيا بغير أسًى ما دُمتَ بعدَ ليالي العمر، تَبْرَحُهُ
فما الحياة سوى حِملٍ تَسيرُ به حتى تنوءَ، فعند القبر تَطرحُهُ

❁ ❁ ❁

وقال في كرم الأصل:

[من الكامل]

لا يَذهبُ الأصلُ الكريمُ من الفتى إن ضايقَتْهُ همومُ هذي الناسِ
فالطبعُ يَصفو بالهموم ضياؤه كزجاجة وُضعتْ على النبراسِ(**)

(*) عقد الشاعر مقارنة بين النصاحة والنفاق، فاستعار للأولى السنَّ النابتة في رأس الإنسان، ولا يكاد يشعر بها المرء من حين النمو، واستعار للنفاق، الرجْل آخر ما يؤلف جسد الإنسان من أدنى. ويخلص إلى أن مقياس الرجُل لا يكون بطول قدمه أو بقصر سنّه.

(١) الروح من أمر اللّه، وهي وراء الحد الموضوع للإدراك البشري. فلا يتناولها العقلُ، لأن العقل نفسه كما وصفه الشاعر، ضوءٌ لها. فكيف يُتَوصَّلُ بمجهول إلى مجهولٍ مثله؟ وللفلاسفة أقوال متضاربة في تعريف هذه المجهولات، تدل على أنهم أجهلُ الناس بها؛ واللّهُ تعالى يقول: ﴿وما أُوتيتمْ من العلم إلّا قليلاً﴾.

(**) النبراس: المِشعل والمصباح.

والشمس يُبْدِلها مرورُ الغَيْم مِن لون النُّضار تألُّقَ الألماسِ[(١)]

۞ ۞ ۞

وقال في استحالة التخلي عن الأماني:

[من الخفيف]

لستُ أدري: أيُّ المنى تُقنع النفْـ ـسَ، ونفسُ الإنسان تأبى الصوابا؟

الأماني مثلُ الصحائف والدهـ ـرُ يُرينا في كل يوم، كتابا

أيُّنا قانعٌ وأيُّ امرئٍ شبَّ (م) وأرضاهُ أنه قد شابا؟[(٢)]

كلُّنا يسأل الزمان: متى يا دهرُ؟ حتى يُرى المماتُ جوابا[(*)]

۞ ۞ ۞

وقال في حوادث الدهر:

[من الطويل]

عجبتُ لهذا الدهر يُضحِك مرةً ويُبكي، وشرُّ الهمّ في ضاحكٍ يَبْكي

يَزيدُ بكاه في المصيبة، كلَّما تَذكَّر في وقت البكاءِ من الضّحْكِ

ولو عرَف الإنسانُ ما سيُصيبُه تجنَّب أسبابَ الحوادث بالتَّركِ

ولكنها مثلُ التِّلِغْرافِ إنْ بدا لك السِّلكُ، لا تَدري بما هو في السلكِ

ومَنْ شكَّ في الأيام عاش بهمِّهِ ويَزدادُ همًّا من يعيشُ بلا شَكِّ[(٣)]

۞ ۞ ۞

وقال في سقوط الخير بين الناس:

[من السريع]

الدهرُ في هِزَّته ضاربٌ من أهله، الآخِرَ بالأولِ

والناسُ في كفيه قد أشبهوا ما نَخَّلَته ربةُ المنزلِ

---

(١) النضار: الذهب. والألماسُ، معروف. والمراد بالزجاجة في البيت الثاني، زجاجة المصباح، ولا يصفو نورُه بغيرها.

(٢) المعاني في ذم الشيب مستفيضة، وهي تدل على أنَّ الناس إجماع في التأفف من هذا الطور من العمر. ولعل هذا الكره غريزةٌ في النفس الإنسانية حرصاً على الحياة واستبقاءِ الذات والملذات.

(*) إحدى خواطر الشاعر الحكمية التي انتهى فيها إلى استحالة الرضا بمصير الإنسان مهما طال به العمر.

(٣) من عاش متهماً الأيام، مترقباً صُروفها، فذلك منه هو الهمُّ بعينه. ومن أغفلها معتمداً على القدَر، لا يفكر فيما يدع وما يَذر، كان همه ضِعْفين: من الهمِّ نفسه، ومن مفاجأة الهمِّ.

فـالـخـيـرُ يَـهـوي وحُـثـالاتُـهـم تُـمـسِـكُـهـا دائـرةُ الـمُـنـخُـلِ[1]

❁ ❁ ❁

وقال في العُطلة من العمل:

[من الوافر]

أرانـي سـابـحـاً والـعـمـرُ بـحـرٌ يـداي الـلـيـلُ فـيـه والـنـهـارُ[*]

ومـالـي سـاحـلٌ أمـضـي إلـيـه ولا مَـهـوًى بـه إلّا الـقـرارُ

فـإن أُهـمِـلْ يـديَّ قـتـلـتُ نـفـسـي كـذلـك عـطـلـةُ الـمـرء انـتـحـارُ

❁ ❁ ❁

وقال في التهالك على المال:

[من الوافر]

عَـجـبـتُ لـمـن سـعـى لـلـمـال حـتـى أضـاعَ بـأصـفـرَيـه، الأبَـيـضـيـنِ[2]

يَـرى فـي قـلـبـه عـيـنـاً فـيُـغـضـي بـهـا ويـرى الـظـواهـرَ بـاثـنـتـيـنِ

ومـا بـيـن الـغِـنـى والـفـقـرِ إلّا مـسـاحـةُ حُـفـرةٍ فـي خُـطـوتـيـنِ

وكـلُّ أخٍ غـنـيٌّ عـن أخـيـهِ وربـك غـيـر ثـانـي الأصـفـريـنِ[3]

❁ ❁ ❁

وقال في حذَر الناس:

[من البسيط]

إحـذَرْ فـإنَّ حِـذارَ الـنـاس لـيـس سـوى نـتـيـجـةِ الـدهـر والأيـامِ والـعِـبَـرِ

كـم تـاجَـرَ الـشـيـخُ بـالـعـمـر الـطـويـل فـلـم يُـفِـدْ بـه فـي الـورَى ربـحـاً سـوى الـحـذَرِ

❁ ❁ ❁

---

(١) يريد أن الناس كالدقيق الذي يهتز به المنخل. فلُبابُه يسقطُ والخشِنُ منه يظل مرتفعاً، وإن كان أقلَّ قيمةً في نفسه من ذاك.

(*) أي أن الإنسان مكتوب عليه العمل في الليل والنهار، فإن تخلى عنه، ترك نفسه لهاوية ليس لها قرار.

(٢) الأسودان، هما الماء والتمر العتيق. ويقال ذهبَ منه الأبيضانُ أيْ: شبابُه ولحمه.
وقد كنى الشاعر بالأصفرين عن السقم والذهب. وهذه التسمية من وضعه. وتقولُ العرب أيضاً: الأحمران، للخمر واللحم.

(٣) ثاني الأصفرين، على ما مر بك، هو الذهب، والأولُ هو السقم. وهما متلازمان. ومن المواعظ البليغة ما يُروى أن الرشيد قال لابن السماك: عِظْني! وكانت بيده شربةٌ من ماء، فقال: يا أمير المؤمنين! أرأيت إن حُبستْ عنك هذه الشربة، أكنتَ تَفديها بملكك؟ قال: نعم! قال: أرأيتَ لو حُبِس عنك خروجُها، أكنتَ تفديها بملكك؟ قال: نعم! قال فلا خيرَ في مُلْك لا يساوي شُربةً ولا بولة..

وقال في طبيعة اللؤم:

[من الطويل]

إذا ما لئيمٌ جاء بالخير واعداً ... فلا تَغتَرِرْ إني أرى المرء مائنا
وأحمقُ ممن ظَنَّ أنْ تُمطر السما ... دَنانيرَ، مَن هَيَّا لهنَّ الخزائنا[1]

❁ ❁ ❁

وقال في تأميل الخير:

[من الخفيف]

إنَّ أصحاب ذا الزمان إذا ما ... أمَّلوا الخيرَ ساعدوكَ على الهمْ
فإذا لم يُؤَمِّلوك تَخَلَّوْا ... عنك والدهرُ قد نَبا وتَجَهَّمْ[2]
كنساءٍ يَنُحْنَ «مستأجَراتٍ» ... كلُّ صوت ودمعتين بدرهَمْ

❁ ❁ ❁

وقال: سطرٌ في الطبيعة:

[من الخفيف]

أَقرَأتْني هذي الطبيعةُ سطراً ... خَطَّه الصدقُ في كتاب الزمانِ
كلُّ شيءٍ ملَوَّنٍ، فجميلٌ ... غيرَ هذا «التَّلَوُّنِ» الإنساني[3]

❁ ❁ ❁

وقال في تساؤلات روحانية:

[من السريع]

روحي، لماذا لم أكن طائراً ... في شَجَر الجنَّات بين الحَمامْ؟
روحي، لماذا لم أكن في السما، ... أو مَلَكاً يسبِّحُ بين الغمامْ؟
روحي، لماذا لم أكن قطعةً ... من الضيا أو قطعةً من ظلامْ؟
فكلُّ ما لِلّهِ تدبيرهُ ... أسعدُ مما فيه أَيدي الأنامْ(*)

❁ ❁ ❁

(١) المائنُ: الكاذب. وقد قيل: إن أشعب ساوم رجلاً في قوس، فسأله ديناراً، فقال له أشعب: واللهِ إنها لو رُمي بها طائر في جو السماء، ووقع مشوياً بين رغيفين، ما أعطيتُك بها ديناراً.

(٢) نبا وتجهم، أي: انقلب وعبسَ. وشبَّه الشاعرُ هؤلاء الأصحاب بالنائحات، وهو تشبيه ليس أمكَن منه.

(٣) المراد بهذا التلون التقلبُ الذي يكون بين الناس. ومنشؤه فساد التربية وضَياع المبدأ.

(*) كل ما خلقه الله وارتبط مصيره بقضائه وقدره، أبعثُ على الفرح والسعادة مما ربطه الإنسان بذاته وشخصه.

وقال في غدر الأيام:

[من السريع]

نَفسي أَلَا لا تَهِني بَعدَ ما ... عرفتِ طبعَ الزمن الغادرِ
يومٌ ويومٌ، ذا لجمعِ الهوى ... وذاك للبَيْنِ وللطائرِ[1]
وعادةُ الأيام أن تلتوي ... في أول الأمر أو الآخِرِ[*]

❁ ❁ ❁

وقال في عظمة الأَمل:

[من الخفيف]

أَمِتِ اليأسَ لا يُمِتْكَ فإنْ عَزَّ (م) كَ نَيلٌ يُعَزِّكَ التأميلُ[2]
وإذا جاز أن تشاهد ذا الما ... لِ فقيراً، فما الغنى مستحيلُ

❁ ❁ ❁

وقال في حكمة الله والأقدار في الخَلْق:

[من الخفيف]

حكمةُ اللّه في الخلائق أنْ قد ... طال عمرٌ بها وقُصِّر عمرُ
وأرى الناسَ في الحياة كمن يَصْـ ... ـعدُ طَوْداً منه خصيبٌ وقَفْرُ
بعضُهم دلَّهُ القضاءُ على السهْـ ... ـل وبعضٌ طريقُهم فيه وَعْرُ
كيف يشكو مَن يَصعدُ الجَبَل الشا ... مخَ، إنْ يعترِضْهُ شَوكٌ وصخْرُ؟
إنما المرءُ زارعٌ وليالي الـ ... ـعُمر بِزْرٌ، فمنه حلْوٌ ومرُّ
للحياةِ الفؤادُ مِن صَنعة اللَّـ ... ـهِ، وللموت صنعةُ الناس قَبرُ
ذاك في أمره كهذا، وكلٌّ ... فيه من هذه الخليقة سِرُّ[3]

❁ ❁ ❁

(١) الطائر هنا، هو موضعُ التفاؤل والتشاؤم عند العرب، على ما هو معروف فيما يسمونه بالزجر، ومنه طائرُ البين. وكل ذلك من خرافاتهم.

(*) يعرضُ **الرافعي** لخاطرةٍ يفترضها سنّةً أو عادةً، وهي انتكاس الأشياء والأمور إمّا في أولها وإما في آخرها.. وهذا أمر لم يقل به أحد ولا رصدته الشرائع. ولا يَعرفُ كيف تُصرّفُ الأمورُ أو يكون مصيرُ الأشياء إلّا **المدبّر الأكبر** جلّتْ قدرتُه.

(٢) (عزّك) الأولى بمعنى: عزَّ عليك. و(يعزّك) الثانية من (عزّاه) عن المصيبة ونحوها. والتأميل هو الأملُ.

(٣) الفؤادُ هو مقر الحياة، وهي سرٌّ من أسرار الغيب. والقبرُ مقر الأموات. وليس يدري أحد ما وراءه، ولا ما فيه إلا ما جاء من ذلك في الشرائع السماوية، وهو من السمعيات التي لا جدال فيها.

وقال متمنياً الموت:

[من السريع]

كم قلتُ ما بين قبورِ الورى ... يا ليتَ أني مُتُّ يا ليتنا!

يكفي حياةَ الأرضِ من ذَمِّها ... أنيَ حيٌّ أحْسِدُ الموتى

❁ ❁ ❁

وقال في السعادة الأرضية:

[من الكامل]

سأموت لكنْ لا تموتُ محبتي ... هل للهوى يا عاشقين قبورُ؟

إياكَ تأمُلُ في الحياة فضيلةً ... صِرْفاً وقد مزَجَ الحياةَ غرورُ!

لا يُبصِرُ الأشياءَ بيضاً من يَرىٰ ... بزجاجة سوداءَ وهْوَ بَصيرُ[1]

سأموت لا أَسَفٌ عليَّ ولا أسى ... مني على الدنيا ولا تحسيرُ

كلٌّ يَرى فيها السرورَ لغيرِهِ ... فالوهْمُ في الدنيا هو المسرورُ

هيهاتَ يغشى الأرَضَ ظلُّ سعادةٍ ... ما دام من جهة السما التدبيرُ[2](*)

❁ ❁ ❁

وقال في رذيلة الحسد:

[من السريع]

إمّا يناصِبْكَ فتًى حاسِدٌ ... فلا تسَلْ عن سببٍ ما هُوَهْ؟

اللصُّ والحاسِدُ في رتبةٍ ... واللص لا يرقُبُ أن تدْعُوَهْ

❁ ❁ ❁

---

(١) من وضع على عينيه زجاجةً ملونة، يبصر الأشياء منصبغةً بلونها. كذلك الإنسانُ ينظرُ من آماله وأغراضه، فتنصبغُ الدنيا كلها بألوانها الوهمية من رضاءٍ وسخطٍ وغير ذلك. ومن غريب حكمة الله، أن شعور العين بالنور، لا يتم إلّا متى بلغتْ تموجاتُ دقائقه من ٤٠٠ إلى ٨٠٠ تربليون (ألف ألف بليون وهو ألف ألف مليون). فتباركَ الله، كم في البسائط من مركبات؟!

(٢) من الغريب أنَّ كلَّ إنسانٍ في الدنيا، يظن غيره سعيداً، ولا يظن ذلك في نفسه. فالنتيجةُ من هذه المقدمة أنْ لا سعادةَ لأحد. وقد اختلف الحكماءُ وعلماءُ الأخلاق والعمران، في تعريف السعادة، ولكنَّ آيةَ هذه السورة قولُ شاعرنا هذا.

(*) لا نظن أن الشاعر ههنا على صواب أو بيِّنةٍ من أمره. إذ لا يُعقل أن يكون الله ـ مدبِّرُ ما في الأرض والسماء ـ قد خلقَ الإنسان ليشقى، وإلّا فما معنى قوله سبحانه وتعالى: **﴿طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى﴾** أي لتتعب وتأسف وتتحسّر. ولم ينزِّل القرآن ويَبْعثِ **النبيُّ محمد** إلّا لنيل كل فوز، ودَرْك كل سعادة (انظر **تفسير القرطبي** جـ١١/ ١٦٨).

وقال في ذلك أيضاً:

[من مجزوء الكامل]

إنَّ الحواسِدَ ليس تلـ ـقى منهمُ اللعَناتُ بُدّا
خرِبَتْ عقولُهُمُ فظنّوا هَزْءَهُمْ للفضل هَدّا
يا من يَذمُّ العقلَ مِنْ نقْصٍ، وأهلَ العقل حقْدا!
كالظل فوق الماء مثـ ـلُ البُرْدِ فيه وليس بُردا(*)
في البحر دُرٌّ إن تَصِدْ هُ فما سلَبْتَ البحرَ عِقْدا

❁ ❁ ❁

وقال في زمن الحماقة:

[من المتقارب]

أرىٰ زمناً كلُّه أحمقٌ فمَنْ يأمُرونَ كمن يُؤمرونْ
وهذا قويٌّ وهذا ضعيفٌ ولكنْ عن الذلِّ لا يَضعُفونْ
وأحمقُ هذا الورى، مُستَبِدٌّ يخادِعُ بالعَدْل من يُظلَمُونْ
كمن راح يَصرُخُ جِدَّ الصُّراخِ وحاذَرَ أن يَسمعَ الجالسونْ

❁ ❁ ❁

وقال في مهازل الناس:

[من المديد]

نحن في دهرٍ تُعَدُّ بهِ سيِّئاتُ الناس بالسُّبَحِ
والذي يُحيي لياليَهُ يُبدِلُ القرآنَ بالمُلَحِ(١)
سبَّحوا لكن بأكْؤسِهِمْ واستعاضوا سجْدةَ القَدَحِ

❁ ❁ ❁

وقال في ثنائية الحياة:

[من مجزوء الخفيف]

الورى اثنانِ: ذا وذا كلما انحطَّ يرتفِعْ
ولذا الدهر شيمةٌ كلما ضَرَّ يَنتفِعْ
جذَبَتْني خطوبُهُ من قريبٍ وممتَنِعْ

(*) البُرْد: ثوب مخطط يُلتحفُ به، وفيه عَصْبٌ ووشْيٌ.

(١) المُلَح، هي النوادر والفكاهات، مفردها مُلْحة.

ورمَشْنني صروفُهُ ... مِن بطيءٍ ومندفِعْ
رَمْيةٌ، والزجاجُ من ... أيسرِ الرجْمِ ينصَدِعْ
وكذا العمرُ عقدةٌ ... آخرَ الشَدِّ تنقطِعْ

❁ ❁ ❁

وقال في الكف عن محاسبة الناس:

[من مخلع البسيط]

مَن عَدَّ للناس كلَّ عيبٍ ... فليس في الناس بالأديبِ
يا مَن يَعدُّ العيوبَ، مَهلاً ... فِعلُكَ هذا من العيوبِ!

❁ ❁ ❁

وقال في تغير الناس وفقاً لتغير أحوالهم:

[من السريع]

لا تغترر بالناس في حالةٍ ... فهمْ مع التاجر في سُوقِهِ
كم خاطبٍ بنتَ غنيٍّ لكي ... يجعلَها مفتاحَ صُندوقِهِ
ومَن رماهُ دهرهُ صار مِن ... رُعاتهِ مَن كان مِن نوقِهِ[1]

❁ ❁ ❁

وقال في دهاء الناس ومكرهم:

[من البسيط]

إذا رأيتَ وجوهَ الناس باسمةً ... يَدعونَ ذا بِأخي فيهم وذا بأبي[2]
فاعلَمْ بأنهمُ سودُ القلوب كما ... تُريكَ سودُ الليالي رَونقَ الشهُبِ

❁ ❁ ❁

وقال في الوصف بالشهرة:

[من الكامل]

قد مَضَّني وصفُ «الشهير» فما أرى ... معناهُ شيئاً من فخامة لفظهِ

---

(١) النوق: جمع ناقة. والرعاة جمع راعٍ. والتمثيل واضحٌ، شواهده في حوادث التاريخ.

(٢) العرب تستعمل لفظة «الأخ» على أربعة أوجه، أحدُها المُلابِس والملازِم للشيء، كقولهم: أخو الحرب. والثاني المجانِسُ والمشابِه، كقولهم هذا الثوب أخو هذا؛ والثالث: الصديقُ؛ والرابع أخو النسب بقرابة، وهو المشهور في استعمالهم، أو قبيلةٍ، كقولهم: يا أخا تميم: وبه فُسِّر قولُه تعالى: ﴿يا أختَ هارون﴾.

كـالـشـاهِ فـي الـشـطـرنـج أكـبـرُ نـفـعـه لِـلَّاعـبـيـن، جـهـادُهُـمْ فـي حـفْـظِـهِ(١)

❁❁❁

وقال في تناهي الشر من الناس للناس:

[من الرجز]

يـا أرضُ، يـا جِـنَّـانُ، يـا أهـلَ الـسـمـا(*) يـا مَـن يـكـونـون ويـا مـن كـانـوا!

إنْ يَـسـألِ الإنـسـانُ عـن عـدوِّهِ فـخـبِّـروا أنَّ اسْـمَـهُ الإنـسـانُ!

❁❁❁

(١) الشطرنج لعبة معروفة وضعَها الفرسُ. ولها قصة طويلة. ويقال إنها تمثل في التدبير مذهبَ الاختيار المشهور، وهو أن الإنسان له اختيار في أعماله. والنردُ (الطاولة) يُمثل مذهبَ الجَبر، وهو أن الإنسان مسيَّر لا مخير، وأمره للقضاء والقدر، لأن الذي يُلقي الفصوصَ لا يَدري بماذا تجيء، فتارةً تكون سعداً وتارةً تكون نحساً. والشاه في الشطرنج مقيدٌ لا نفعَ له في الغالب، ومدار اللعب كلّه، على حفظه، وهو مع ذلك أكبر قطعة في الرقعة.

(*) الجِنَّانُ، جمع: جانٌّ. ويجمع أيضاً على جَوانٍّ.

في النسائيات

طلاق الأمبراطورة جوزفين[1]

قد رأينا أن نُورد، في شرح هذه القصيدة، فصلاً برمَّته من تاريخ فرنسا الحديث، ونجعلَهُ مقدمةً لها، ليصور هذه الحادثة للعقل، قبل أن يصورها الشعرُ للقلب، قال صاحب التاريخ المذكور في كلام:

وجاء اليومُ الذي عُين لتبليغ هذا الخبر المكدِّر الثقيل إلى جوزفين. وكان آخرَ شهر نوفمبر سنة ١٨٠٩. وكانت قد سمعتْ بأخبار متعلقة بذلك، ملأتْ قلبَها بالحزن والكدر، وهي مع نابليون في فونتينبلو. وقد جعل انتظارُ الطلاق، كلَّ شيء في القصر، مكدِّراً. وكان الضيوف قد خرجوا منه، ورياحُ الشتاء غيرُ المنعشة، تعصف بأشجار الغابة الساقطة أوراقُها. وصرفتْ جوزفين الصباحَ في خِدْرها، تذرف الدموع. وكانت شفقةُ نابليون وحنوُّ قلبه، يمنعانه أن يأتي غرفة زوجته الحزينة المظلومة. فصرفَ الصباحَ أيضاً في مكتبه، والتقيا عند الظهر على المائدة، فجلسا صامتَيْن، وأكلا بدون أنَ ينظُرَ أحدُهما إلى الآخر. وكان اصفرارُ وجه كليهما علامةً على الكَدَر الشديد في قلبه. وجلستْ جوزفين بدون أن تتحرك كأنها صنم. فارتبك نابليون، وضربَ القدح بالسكين علامةً للفراغ من الطعام، غيرَ منتبهٍ لذلك، فخرجَ الخدمُ فأقفلَ البابَ، ودنا منها وهو أصفر كالميت، وفرائصهُ ترتعد، وأمسك بيدها فوضعها فوق قلبه وقال بصوت مرتجف: يا جوزفين الصالحةَ! أنتِ تعلمين شدةَ حبي لك، والدقائقُ القليلة التي شعرتُ فيها بالسعادة قائمةٌ بك. يا جوزفين، إنَّ نصيبي متغلِّب على إرادتي، وأشد عواطفي؛ لا بدّ أن تُضحّي لما فيه خيرُ فرنسا.

وكانت منتظرة أن تَسمعَ منه هذا الخبرَ، ومع ذلك صُعقتْ له، فوقعت غائبةً عن الصواب. فخاف نابليون، وفتح البابَ بسرعة، ودعا مَن يُعينُه، فجاء الكونت دي بومون وحملها معه إلى الطبقة العليا، ودخلا بها غرفتَها، فكانت تقول وهي محمولة،

---

(١) جوزفين هذه هي امرأة الإمبراطور نابليون الكبير، وكانت أرملة ضابطٍ حينما تزوجها، وذلك قبل طلاقها بخمس عشرة سنة، وهو يومئذٍ ضابط بسيط. وقد تزوج بعدها، ماريا لويزا، ابنة امبراطور النمسا في سنة ١٨١٠ للميلاد.

غائبة عن شعورها: لا، لا، إنك لا تقدر على ذلك، لا ترغبُ في قتلي. وبعد ذلك بزمن قصير حلَّ اليومُ المعيَّنُ للطلاق، وكان الخامسَ عشر من شهر دسمبر سنة ١٨٠٩. فاجتمع كل أعضاء الأسرة الأمبراطورية، في قاعة قصر التويلري الكبيرة، واجتمع معهم كبارُ أرباب الخِطَط، وكانت سماتُ الحزن تلوح في وجوه الجميع، فكلَّمهم نابليون بصوتٍ ثابت وقد اشتد اصفرار وجهه قائلاً:

إنَّ مصالحَ امبراطوريتي السياسية وإرادةَ شعبي التي طالما كانت ضابطاً لأعمالي، تدعوني إلى أن أتركَ العرش الذي أجلَسَتْني عليه يدُ العناية، لوارثٍ يرِثُ حبَّ الأمة مني. وأراني قطعتُ الأمل من سنين كثيرة أن يَجيئني أولادٌ من زوجتي المحبوبة الأمبراطورة جوزفين. فهذا هو الذي يَحملني على تضحية أشد عواطفي، في سبيل ترقية رعيتي. وقد بلغتُ الأربعين فلا يزال لي أمل أن أعيش، وأُربِّي الأولادَ الذين يمنُّ اللَّهُ بهم عليَّ، تربيةً موافِقة لآرائي وأميالي؛ واللَّهُ أعلم بالضيق الذي أَطبق عليَّ من هذه الرغبة. على أنَّ شجاعتي تُسهِّل عليَّ احتمالَ كلِّ شديدةٍ حباً في منفعة فرنسا. ولا أشكو من زوجتي المحبوبة، بل أُثني عليها، وأُقدِّر حبَّها لي قَدْره، وقد سعِدْتُ بها خمس عشرة سنةً من عمري، وسيبقى لها تذكار في قلبي إلى الأبد. وقد توَّجْتُها بيدي، وسيبقى لها لقب «أمبراطورة» إلى الأبد. ولا ينبغي أن ترتاب في حبي لها بل تعلم أنني أصدق الأصدقاء.

وبعد أنْ فرغَ من كلامه، كان في يد جوزفين ورقة، فحاولتْ قراءة ما فيها، غير أن الحزن والبكاء منعاها من ذلك، فأعطتْها لرينو وغطَّتْ وجهَها بيديها، وجلست على كرسيها؛ فقرأ فيها ما يأتي: أقول، بإذن زوجي المعظم المحبوب، إنه لا أَمل لي بالحصول على أولادٍ لسد احتياجات سياسته، ومصالح فرنسا، فأُسَرُّ الآنَ بأن أُظهِرَ له أعظمَ براهين الحب والغيرة التي ظهرت في الأرض؛ وكلُّ ما عندي هو من جوده. فإنَّ يده هي التي توَّجَتْني. وبجلوسي على عرشه لم أرَ من الأُمة الفرنسوية غيرَ علاماتِ الحب. وإني أُشارِكُ الأمبراطورَ بالعواطف في قبول الطلاق، لإزالة ما يحول دون سعادة فرنسا، ويحرمها من الحصول على سياسة نَسْلِ ذلك الرجل العظيم الذي أَقامَتْه العنايةُ ليمحو شرورَ فتنةٍ مخيفة، وليُرجِع المذبحَ والعرشَ والنظامَ المدنيَّ؛ على أنَّ قطْعَ آصرةِ الزواج، لا يُغيِّر مِن عواطف قلبي، وسيَرى الأمبراطورُ أَنني أَصدقُ أصدقائه، وأنا عالمةٌ أنَّ هذا العمل الذي سِيقَ إليه بالسياسة، مزَّق قلبَه؛ على أنَّ كلينا يتمجَّدُ بالضحايا التي أدَّاها في سبيل مصالح البلاد.

وفي اليوم الثاني، جمع نابيون مجلسَ الأعيان، في القاعة العظيمة، ليشاهِدَ إجراءَ الطلاق رسمياً. وكان أوجين (ابن جوزفين من زوجها الأول) في كرسي

الرئاسة، فصرَّح أنَّ أُمَّه والأمبراطورَ راغبان في الطلاق، وقال: إنَّ دموعَ جلالة الأمبراطور الناشئة عن هذا الطلاق، كافية لتمجيد أُمي. وكان الأمبراطور لابساً الملابسَ الرسمية، متكئاً على عمودٍ، ولوائحُ الهم والنكد تلوح على وجهه، وهو ينظر إلى الفضاء صامتاً. فكان القوم كأنهم في جنازة. وكان في وسط القاعة منضدةٌ مستديرة عليها دواةٌ وأقلام ذهبية، وأمامها كرسي خالٍ، وأخذ القومُ ينظرون إليها كنظرهم إلى آلة الإعدام. ثم فُتح بابٌ في جانب القاعة، ودخلت **جوزفين**، وقد اشتد اصفرارُ وجهها حتى كاد يصيرُ أبيضَ كالثوب البسيط الذي كانت تلبسه يومئذٍ، وكانت متكئةً على ذراع **هورتنس** (شقيقة أوجين) التي لم تكن قادرة على التجلد، فكانت تبكي بكاء شديداً، وعند دخولها، وقف الناسُ وقد ملأتِ الدموعُ أعينَهم جميعاً. وتقدمتْ بالجَلال المخصوص بها إلى الكرسي، فجلست عليه، واعتمدت جبهتها بيدها وأصغتْ إلى قراءة كتاب الطلاق. وعندما انتهت القراءةُ المحزنة، اشتدَّ وَيْلُها، فغطَّتْ عينيها بمنديل؛ وبعد هُنيهة نهَضتْ وحلفتْ بصوت صافٍ مرتجف، بأنها تَقْبل الطلاقَ. ثم جلستْ وتناولت القلمَ ووقَّعتْ على الكتاب الذي قطع من قلبها أعظمَ الآمال وأَحبَّها عندها. ولم يقدر **أوجين** أن يتحمل ذلك، فأصيب بدوارٍ، ووقفتْ ضرباتُ قلبه، وسقط على الأرض وليس فيه ما يدل على الحياة.

وكانت بعد ذلك **لنابليون وجوزفين**، مواقف محزنة جداً، فصَّلها صاحب التاريخ الذي نقلنا عنه هذه الكلمات ببعض تصرف..(*).

القصيدة

[من الطويل]

رأى قلبُه من قلبها ما يكابدُ	فنازَعَهُ فيها الهوى والمقاصدُ
رأى حبَّهُ معبودَها، وفؤادُها	يَدُقُّ كما دقَّ النواقيسَ عابدُ
رأى دمَها وجداً، رأى وجْدَها دماً	فغيَّبَ عنه الرأيَ ما هو واجدُ
رأى قلبَها كاللؤلؤ الرطْب ناضراً	فأشفق أن تُلقى عليه الجَلامِدُ
فتًى جاهد الدنيا وجاهدَ أهلَها	وفي نفسهِ لم يَدْرِ كيف يجاهدُ
أقامتْ له الأيامُ صدْرَ أمورها	وفي صدره همٌّ من الحب قاعِدُ
بكى وبكَتْ «**جُوزْفينُ**» حزناً وقلبُها	على قدميه، من جَوَى الحب، ساجدُ

(*) لا بد من تقدير قيمة هذه المقدمة التاريخية، وذاك الأسلوب الأدبي المرهف الذي أضفى على حكاية الطلاق مسحة من التحنان والتجاوب لامَسَا جنَبات القارئ الذي أضحى ممتلئاً بالشوق والترحاب لقراءة القصيدة.. نِعْمَ ما فعل الشارحُ. ونعم ما أدّاه الشاعرُ في تكاملية أدبية مثمرة!!

ولـمـا أضـا بَـرْقُ الـمـنـى فـي فـؤاده لـهـا أيقـنَـتْ أنْ سوف تَذوي الرواعد[(١)]

* * *

يـقـولـون هـذا لَـيْـثُـنـا، أيـن شِـبْـلُـهُ؟ ألـم تـدر أن الـمـوتَ يـا لـيـثُ صـائـدُ؟

فـمَـن يَـرِثُ الـتـاجَ الـذي أنـتَ تـاركٌ؟ ومَن ينتضي السيف الذي أنت غـامدُ؟

ومـن يَـلِـجُ الـبـابَ الـذي قـد فـتـحْـتَـهُ ومِـن خـلـفـهِ الـدنـيـا وتـلـك الـفـراقـدُ؟

وأيُّ جـبـيـنٍ فـيـه سـيْـمـاكَ تُـجْـتَـلَـى. وأيُّ فـؤاد فـيـهِ سـرُّك خـالـدُ؟

سيُظلِم عرشُ الشمس إن غـاب بدرهُ ولـم يـكُ مـولـودٌ عـلـيـه ووالـدُ[(*)]

* * *

أتَـثْـبُـتُ هـذي الأرضُ لاثـنـيـن مـثْـلِـه وقـد هـزَّهـا مـا بـيـن كـفَّـيـه واحـدُ؟[(**)]

فـأولـى «بـنـابـلـيـون» نَـسْـلٌ مـن الـسـمـا يُـجـاهِـدُ فـي أفـلاكـهـا ويـجـالـدُ

لـتـنـضـمَّ فـي أمـلاكـه الأرضُ كـلـهـا ونـبـتـونُ فـي جـوِّ الـسـمـا وعُـطـارِدُ[(٢)]

ويـرمـيَ ذاك الـنـسـرُ ظـلَّ جـنـاحِـهِ إلـى حيث لا يـرقـى مـن الـوهـم صـاعـدُ

كـفـى الأرضَ مـا نـالَـتْـهُ مـن مَـطَـرَاتـهِ لـكـل أوان زارعـون وحـاصـدُ[(٣)]

* * *

ويـومَ تـولـى بُـرجَـه شـرُّ كـوكـب فـدارتْ عـلـى أقـطـابـهـنَّ الـشـدائـد

ومـدَّ عـلـيـه الـنَّـحـسُ ظـلَّ كـآبـةٍ تـغَـشَّـتْـهُ حـتـى كـلُّ مـا فـيـه كـامـدُ[(٤)]

كـأنَّ خـيـالَ الـمـوت مَـدَّ طِـرَافَـه عـلـيـه، فـكـلٌّ سـاهـمُ الـخـدِّ جـامـدُ[(٥)]

---

(١) يشير (ببرق المنى) إلى رغبة نابليون في الأولاد، و(بالرواعد) إلى ما سيكون من كلمات الطلاق.

(*) تساؤلات الشاعر في المقطع الشعري كله، هي من قبيل تجاهل العارف، على قدر كبير من الاحتجاج والرفض، اللذين لم يأخذا بعد، الطريقَ المباشر.. فهو الآن يمهد لهما. ليقول كلمته الحكمية الأخيرة، في آخر القصيدة.

(**) يرفع الشاعر من وتيرة الرفض درجةً ليقول: أنى لنا نابليون آخر، والأول قد فعل بالدنيا فعل الزلازل؟ لذلك قال إنَّ مثله لن يكون وليّاً أرضياً، بل لا بد من أن يكون من أهل السماء. وكنّى عما بين كفّيه، بالسيف.

(٢) نبتون وعطارد: كوكبان في السماء.

(٣) يريد (بالمطرات) الحروبَ التي قام بها نابليون. وتاريخُ هذا الرجل العظيم كأنه قطعة من السحر.

(٤) الكُمْدةُ: تغيرُ اللون وذهابُ صفائه.

(٥) سهومُ الخد: تغيره أو عبوسُه. وكلا الحالين يكون عند الاضطراب. والعامةُ تقول: فلانٌ مُسهِّم، إذا كان متغيّر الوجه، لذهاب فكره في أمر. والطِّرافُ بيتٌ من أدم.

كأنَّ لهيبَ الشمس في مُهجة الهوى ... فللشمس جُرمٌ أكمدُ اللون باردُ(*)
إذا كان في الأيام إيمانُ رحمةٍ ... فيومُكِ يا جوزفينُ فيهنَّ جاحدُ
صرخْتِ، فردَّ الجوُّ أنفاسَ أهلهِ ... ليصعَد صوتٌ من فؤادك شاردُ
ليصعد صوتُ العَذْل لله شاكياً ... عليه يَمينٌ من بكاكِ وشاهدُ
ليبلغ سكانَ السماء تنهدٌ ... من الأَرض إذْ جَوُّ الفضيلة راكدُ
لتضطرب الأرواحُ من ظُلْم أهلها ... لتصرُخ في سر القلوب المَحَامِدُ
فقد نزَعوا قلباً وتاجاً ونعمةً ... وزوجاً ولم يَفْقُد كهاتيكِ فاقِدُ
رمَوا قلبَكِ المكسورَ في مطْرَح النوى ... يُطارِد مِن آفاته ما يُطارِدُ
ولا فخر للأنثى سوى ضبطِ قَلْبِها ... تُقَرِّبُهُ أنى تشأ وتُباعِدُ(**)

* * *

دَوَتْ قصَفاتُ الدهر وانطوتِ المنى ... وغطَّتْ سماءَ النصر تلك المكائدُ
وجاءَ وليُّ التَّاجِ والتاجُ ذاهبٌ ... وحلَّت أماني الدهر، والدهرُ زاهِدُ(١)
وأصبح ركنُ العرش كالغصن مائلاً ... على كل ريح لا يَرىٰ مَنْ يُسَانِدُ
ودارت بنابليونَ في النحس دورةٌ ... تقابَل فيها حظُّه والنواكِدُ(***)
وقَصُّوا جَناحَيْ نسْره بعد أن دَوىٰ ... لخفقهما جَوُّ العُلا والفدافدُ(****)
فيا نَسْرُ ماذا يَصنعُ الفرخُ بعدها ... وقد حطَّمتْ ظِفْريه هذي المبارِدُ؟

(*) يوحي هذا البيت بأن مستودع اللهب والحرارة قد أُفرغَ في قلب الحبيبين، فأصبح هذا الجرم ـ أي الشمس ـ باهتَ اللون، بارداً.

(**) أفصحَ الشاعرُ ههنا، عن مزيد من التعاطف والرفض لقرار الطلاق، الذي لم يكن عادلاً تحت أية ذريعة.. والضمير في «آفاته» في البيت السابق، يعود إلى «النوى» في البيت نفسه، الذي هو الفراق. وقد استخدم الشاعر «أنى تشأ» بالجزم، وليست (أنى) شرطية إنما هي استفهامية مكانية بمعنى حيث. وصوابها «تشا» بتخفيف همزة (تَشاءُ).

(١) هذا هو ابن نابليون الذي كان سبباً في طلاق جوزفين. ومنذ خلق هذا الطفل، مات سعد الإمبراطور العظيم، ولم يكدره في منفاه غير تذكاره، حتى قال هيجو في بعض قصائده، «إن الرجل الذي لم يكن يشتري العالَم بدمعة من دموعه، صار يذرفها هدراً على خيال طفل صغير». وقد لقبه نابليون عند ولادته، بملك رومة.. فكان الجزاءُ من جنس العمل.

(***) النواكد، مفردها ناكد وناكدة. وهي بمعنى الضيق والعسْر الشديد. وقد استخدم الشاعر نواكد قياساً، لا سماعاً. (اللسان ـ [نكد] ٣/ ٤٢٨) وفيه أيضاً: الناكد: التي لا يعيش لها ولد.

(****) الفدافد واحدها، فَدْفَدٌ: الفلاةُ التي لا شيء بها. وقيل هو الموضع الذي فيه غِلَظٌ وارتفاع (لسان العرب [فدفد] ٣/ ٣٣٠).

تركْتَ له ملكاً بغير رَعيَّة وكفًّا ولكن ليس في الكف ساعدُ
وبوَّأتَه عَرْشاً إذا ما ادَّكرْتَه لقيتَ كما يلقى الخيالاتِ راقدُ
جنيتَ عليه بالسياسة قبلَها بلى قد جنَيْتَها قبل ذاك العوائدُ(*)
أتذكر إذ عانَدْتَ قلبَك جاهداً؟ فهذا الذي قد كنتَ فيه تُجاهدُ
وكذَّبْتَه والقلبُ صوتٌ من السما ولولاه ما سُدِّدْتَ إذ أنتَ قائدُ
وألزمْتَه نضحَ الورىٰ وهو مُبصِرٌ وللعينِ لا للقلب تُعطى المَرَاوِدُ(**)
فما قتَلَتْكَ الحادثاتُ وإنما أرَتْك دمَ القلب الذي أنت فاصِدُ(***)

❁ ❁ ❁

وقال في حِسان الأرض والسماء:

[من السريع]

أُنبِئْتُ أنَّ الحورَ في الفَرْقَدِ فقلتُ للقلب إليها اصْعدِ
وللضلوع، انْفَرِجي ساعةً، وللجفون: انتظري واسْهدي
وقلتُ: يا صدري تنفَّسْ بما طَوَيْتَ من دهري ومن حُسَّدي
فلم يَرُعْ قلبي سوى زفرةٍ طارت به للأُفُقِ الأبعدِ

* * *

يا هذه الحسناءُ رِفقاً فما قلبيَ من طينٍ ولا جَلْمَدِ(١)
القلبُ ذَوْبُ الروح لكنْ متى تمسَّه نارُ الهوى، يُعْقَدِ
تاللّهِ ما الوردةُ قد أصبحتْ تَرشفُ من رِيقِ السماءِ الندي
واختبأتْ ما بين أوراقها ريحٌ كنفحِ الزمنِ الأرغدِ
وما العيونُ النُّجلُ قد كُحِلتْ من إثمدِ الحسْنِ بلا مِروَدِ
وانبعثتْ ما بين أجفانِها أسرارُ حدِّ الصارمِ المُغْمَدِ

(*) العوائد، ج: عائد وعائدة، ولها غير معنى، والأقرب أنها النساء العائدات في المرض.

(**) المراود، ج: مِرْوَد: المِيلُ من الزجاج أو المعدن يكتحلُ به. وقصد بأن النصح الذي ارتآه الناسُ والمجتمع آنذاك، لم يكن في محلِّه، فهو كالمرود الذي يُكتحل به القلبُ، وهو مُعَدٌّ للعين.

(***) فاصدٌ، من فصَدَ العِرْقَ: شقَّه فسال دَمُه.

(١) هذا الأسلوب هو أسلوب القرآن الحكيم في القصص الواردة فيه. فإنهُ يَذكُر منها الأركانَ وما يمتد بينها، ولكنهُ يتركُ في كل موضع، فُرجةً يلتفتُ إليها الفكر. فمتى قرأ الإنسانُ مفتَتَح هذه القصيدة، ثم وصل إلى هذا البيت، علم أن الشاعر أمام حوراء، وأنه تهيأ لمخاطبتها، ثم خاطَبَها. وهذا كله محذوف من الكلام.

ولا شفاهُ الغيد قد أطبقتْ على ابتسام كان عن موعدِ
واحتبسَ الوجدُ بها قُبلةً لولا الحيا قد نَالَها المُجتدي
ما كلُّ ذا مُشبِهُ قلبي، وما أَظهرَ ما في القلب من مَقْصِدِ!(*)

* * *

قالت ليَ الحورُ أمَا في الدُّنا مَن لا ترىٰ مثلَك، من سيِّدِ؟
تَهواكَ أو تُرْضيكَ عند الهوى أو تَسْتُرُ الحسنَ فلا تعتدي؟
نَراكَ ظمآنَ، أَلِمَّا تَجِدْ على مياه الأرض من موردِ؟

* * *

هيهاتَ قد أصبحَ معنى الهوى بين الغواني نحوَ «سوَّريدي»(1)
يا ربُّ مِنْ طينٍ خَلقْتَ الورىٰ مَن بات في عُدْم وفي سؤدَدِ(2)
فما الحُورُ الأرض يهجُرْنَنا إن لم نكن من طينة العَسْجَدِ؟(**)

ⓞⓞⓞ

وقال في النساء الجاحدات(3):

[من الطويل]

أتجحَدُ مَن لا فضلَ فيها سوى التقىٰ ومَن لا أرى فيها سوى صورةِ القلبِ؟

(*) يسلك الرافعي ههنا، طرق الشعراء القدامى في إطالة الاستدارات التشبيهيّة، فيتفوّق عليهم، بإطالة الدائرة، من أربعة أبيات عند النابغة الذبياني ومثلها عند الأخطل.. إلى سبعة أبيات كما ترى. ونحن إن اعتدنا على هذه الاستدارات، فلجلال قِدَمِها وطبعية حبكها وتصويرها، ولكنها مع غيرهم، ثقيلة ولا سيما إذا طالت كما هي الحال ههنا..

(1) (سوِّر اليدَ) جعلَ فيها سِواراً. وهذا هو الحب الفاسد، وربما كان طاهراً، ولكنه في هذا الشكل، لسوء تربية النساء أو أكثرهن في هذا الزمانِ.

(2) العدم: الفقر. والسؤددُ: الثروة والجاه. واللّهُ تعالى قد خلق الإنسانَ من طينٍ، وهؤلاء يُردْنَ أن يكون من ذهبٍ حتى يقرضن أعضاءه، أو على الأقل يتمثل لهنّ بثروته تمثالاً ذهبياً.

(**) لا ندري السياقَ النحوي لتركيب صدر هذا البيت المختلّ: عروضياً. والأرجح أنَّ فيه حَذْفاً تقديره: (فما بال حُور الأرض يهجرننا).

(3) هذا الجحود قد كاد يصير سُنّة من سنن التمدن الغربي. وأخذ يتسرب إلى أفئدة النساء، حتى شعرت به فُضْلياتهنّ. وقد قالت الملِكة مرغريته والدةُ ملك إيطاليا الحالي، في حديثٍ لها مع أحد كبار رجال الصحافة الأمريكية: «إن الفتاة التي تتربى تربية دينية، تكون أكثر احتراماً لنفسها من التي لا تؤمن بشيء. وتلك حقيقة تؤيدها كل ظروف الحياة وأحوالُها. وهم يسمون الفتاة التي لا تؤمن بشيء (عقلاً قوياً) لكنها على الحقيقة، ليست بذات نفس قوية. ثم هي تفقد لُطْفَ التصور وشاعريةَ الوهم، ويقسو قلبُها بالتجارب الدنيوية، فلا تجد فيه قوة لاحتمال متاعب الحياة. فالمرأة التي لا دين لها زهرةٌ لا رائحةَ فيها». اهـ. وهذه هي فلسفة القلوب النسائية التي كانت دائماً مصْدَر الحكمة.

ومَنْ هي من نور السماء مضيئةٌ ... على كل نفس بالأمانيّ والحُبِّ؟
وما الحُسنُ، إذْ خُصَّتْ به، غيرَ حُجّةٍ ... على وَهَنِ المربوب في قدرة الربِّ(*)
وفيها صفاتٌ خيرُها الضعفُ إنه ... لِمَا تَدفعُ الدنيا بمنزلة الجَذْبِ(١)
وما ضَرُّها في ذلك الضعف، أنها ... من الناس، مثلُ العين للجَفْن والهُدْبِ
فأيُّ فتاة تحتمي بسوى فتًى ... وأيُّ فؤاد يتقي بسوى الجَنْبِ؟
وأقبحُ شيءٍ أنَّ أنثى ضعيفةً ... يُخامِرُها الإلحادُ، كالملْح في العذْبِ(**)
ويدعونها «العقلَ القويَّ» وإنما ... دعوْا حَطباً ما جفَّ من غُصُنٍ رطْبِ(***)
خُذوا الدينَ من قلب النساء وأطفئوا الـ ... ـصباحَ، فهل يَبقىَ سوى ظلمةِ الرعبِ؟

❁ ❁ ❁

وقال في أم الحماقة:

[من الطويل]

ألَا إنما أُمُّ الحماقةِ مَنْ غدتْ ... بما ادَّهنَتْ، تُلقي على عُمْرها سِتْرا
فيَحْسبُها مَن راءها طفلةَ الصِّبا ... ويا ربما كانت كجدَّتِه عُمْرا(٢)

❁ ❁ ❁

وقال في قوة الجنس اللطيف:

[من الكامل]

هي للنعيم، وإن شَقينا، موعِدُ ... في كل يوم مُخْلَفٌ ومُجَدَّدُ

(*) المربوب، (مفعول) من ربَّ الولدَ إذا تولّى أمره وتعهَّده، بمعنى ربّاه. الفاعل: رابٌّ، والمفعول، مَرْبوبٌ.

(١) الدفع والجذب: قوتان طبيعيتان لا يستقيم النظام بإحداهما. وما تدفعه الدنيا هو الهموم التي هي، في اصطلاح كل الناس: «عثراتُ البخت». ولا سلوة فيها إلا بالمرأة.

(**) شبَّه الإلحاد لدى المرأة الضعيفة، بالملح يوضع في ماء عذْب، فيفسدُ عندها الماءُ ولا يستقيم شرابٌ.

(***) شبَّه (قوة عقل) هذا النوعِ من النساء، بما هو عليه الحطب من قوَّةٍ هشَّة، لانطلاق هذه القوة من رطوبة الغصْن اللدن، «فأنعِمْ» بها من قوة!!

(٢) هذا التشبيه: للنساء العجائز اللواتي يحرصْن على التصابي. ومن طباع النساء تصغيرُ أعمارهن حتى قيل، إنّ لكل امرأة ثلاثةَ أعمار: العمر الحقيقي، والعمر الذي تعلنه عن نفسها، والعمرُ الذي تريد أن تُدْعى به... وقد ذكروا أن امرأة دُعيتْ إلى محكمة لأداء شهادةٍ، فسألها القاضي ما اسمك؟ فعرَّفته. فسألها: وما عمرك؟ فقالت أتركُ هذا لعدالةِ المحكمة.. والأدهانُ: هو ما يستعمِلْنه من أنواع الطِّلاء!

لَعِبَ الزمانُ بنا على آمالها ... ما إن يُحققها ولا هي تنفدُ(*)

وأشدُّ ما لقيَ امرؤٌ من نفسهِ ... أملٌ إذا اقتربتْ إليه، يَبْعدُ

قالوا النسا خَدُّ الزمان، فهل ترى ... بسِوى دماءِ العاشقين يوَرَّدُ؟(**)

قالوا بناتُ الشمس في الدنيا وقد ... صدَقوا لأنَّ لظى الهوى لا تُخمَدُ

قالوا، وأمثالُ النجوم لأنها ... ما حولَها إلا ظلامٌ أسودُ[١]

* * *

إن النساءَ هي الوجود، أما يَرى ... كلُّ الرجال، لأجلها ما يوجدُ؟

هي في القلوب، وكل شيء راجعٌ ... للقلب، فهي لكل شيء مَورِدُ

والقلبُ في نسج الطبيعة، عقدةٌ ... بين الهوىٰ والرأيِ، لم تَلِهَا يَدُ[٢]

فإذا نَظرْتَ إلى العظائم لم تجد ... إلا إرادات النسا تتجسَّدُ[٣]

وإذا بحثتَ وجدْتَ كلَّ عظيمةٍ ... في طيها نظراتُ أنثى تَشهدُ(***)

يدعونه (الجنسَ اللطيفَ) لضَعْفهِ ... فسَلِ البخارَ بلطُفه كم يَجْهَدُ؟[٤]

(*) «إنْ» حرف توكيد زائد، وفي البيت تأكيد لدوام التأمل والتمني لدى المرأة: ما إن تحقق أمنية حتى تولد أمنيةٌ، حتى الممات. يؤكد هذه الحقيقة، البيتُ الثاني الذي يرى أنَّ أقرب الآمال، يبتعد شيئاً فشيئاً.

(**) أحسن الشاعر استعارته الشعرية إذ جعل أصْلَ الوُردة (بضم الواو) مما ينزفُه أهل العشق من أفئدتهم وأكبادهم وهي تذوب من لظى المحبوب.

(١) من كلام شاعرنا «المرأة هي السر الذي لم يكشف للرجل». ولذلك ترى في الناس، من يجور عليها في الحكم حتى من أكابر الفلاسفة والملوك. وقد قال بعضُهم: لو كان الرجال بدون النساء، لأصبحوا يتكلمون مع الملائكة. وهي كلمة تفسر نفسها، لأن الرجال لا يجيئون من غير النساء، فإن كانت أشخاصٌ عاقلة من غيرهنّ، فأولئك هم الملائكة.

(٢) لم تَلِها: أي لم تعقدها. وهذا المعنى مضمَّن فيها لأن المادة لا تُفيده.

(٣) شرح هذا البيتُ تاريخَ الحوادث الكبيرة. وقد قال فيلسوف: لا يأتي عظيمٌ إلى هذا الوجود إلّا وقد سبقَتْهُ عظيمة وهي أمه. وهذا التفسير هو شطر المعنى الذي أراده الشاعر. ولما مُنح اللورد بيكنسفلد ألقاب الشرف، قال: أعطوا ذلك لامرأتي، فكل الفضل في أعمالي لها! ومثل هذا كثير.

(***) أراد بـ«كل عظيمة» كل مأثرة عظيمة أو حادثة عظيمة. ونرى أن الشاعر قد بالغ في إعطاء المرأة هذه القوى الخارقة، لدرجة احتوائها جميعاً. وهذا تطرُّف. فهناك عوامل أخرى كثيرة لها يدٌ فيما يحصل ويتحقق، ليست المرأة إلّا واحداً منها.

(٤) هذه التسمية من مصطلحات الإفرنج، وهي ظرافة في التعبير اشتهروا بها. ويُسمون الجنسَ الآخر «بالجنس النشيط» وهم الرجال. والبخارُ أضعفُ شيء لأنهُ ذرّاتٌ متحللةٌ من الماء، ولكنه مع ذلك، القوةُ التي لا تعاندُ، كما نرى من آثاره، في جرِّ الأثقال وغيرها.

ما الشأنُ في صِغَر الأمور وضعفها أين الرصاصُ إذا دوى والجَلْمدُ؟(*)
السيفُ يقطع، والردى ذو سطوة، والنارُ تُحرق، والنسا تَتودَّدُ(١)
وإذا تقلَّدْنَ الحُليَّ فإنما مفتاحُ باب القلب ما تتقلَّدُ

* * *

ما البحرُ ملتطما تضارَبَ موجُه كالغيظ في صدر امرئ يَترَدَّدُ
متواثِباً كالشيخ يَحْرَجُ صدرُهُ فتقومُ هامته لذاك وتَقعُدُ(٢)
مُتنفِّساً نَفَس القتال إذا دوى وقْعُ المهنَّد يلتقيه مهنَّدُ
مُتغيِّظاً حرِداً، فلولا أنهُ ماءٌ لسال أشعَّةً تستوقدُ(٣)
تَثِبُ العواصف فوقهُ وَثْبَ الجنو نِ يظلُّ يُبْرِق إذ يَهيجُ ويُرْعِدُ
بِأَشَدَّ من أنثى تكلَّفتِ الهوى وأتت بحيلة ضعفها، تَتَنهدُ(٤)

* * *

وقال يصف فتياتٍ صغاراً رآهنَّ وقد دُعِيَ إلى محفل لإحدى مدارس البنات:

[من الطويل]

زهورٌ وما للزهر هذي المَباسِمُ ورَوضٌ وما للروض هذي الحمائمُ؟
أرى فتياتٍ كالغصونِ وإنما تنزَّهنَ أن تُلْوي بهنَّ النسائمُ(**)

(*) يقرِّر الشاعر حقيقة علمية هي أن فاعلية الأشياء ليست في حجمها أو ثقلها.. بل في قوّتها الذاتية. دليله على ذلك الرصاصةُ، التي لا يزيد حجمها على حبة البلوط، والصخرة الكبيرة، فشتان ما بينهما من قوة وفاعلية!

(١) هذه كلها مترادفاتٌ في فعلها، وإن كان الأخيرُ أضعفَها وألينها في لفظه.

(٢) حَرِجُ الصدر: ضيقُه. وهامةُ الشيخ بيضاء. فهو إذا حرِجَ صدرُه لا يجدُ مِنْ حَوْلٍ ولا حيلة إلا القلقلة في مكانه، لأنه عاجز عن النهوض، ضعيفٌ عن كظم الغيظ، فتردُّدُ هامتِه، كما ترى في تردد الموج.

(٣) حَرِدٌ وحردان: أي غاضب. وترى البحر في تموجه كأنه يريد أن يتطاير.

(٤) هذا الفصل، لا ينطبق على كل النساء ولا طبَّقه الشاعرُ على كلهن. وإنما خصَّ به طائفة المتكلِّفات، ولسن بأشدَّ ويلاً من المتكلِّفين. وقد قيلَ إنَّ لقمانَ بن عاد تزوج عدة نساء كلهن خُنَّه في أنفسهن، وكان يقتلهن واحدةً بعد واحدة. فلما قتلَ أُخراهن، ونزلَ من الجبل، كان أول من تلقَّاه، ابنةٌ له، فوثَبَ عليها فقتلها، وقال ألستِ امرأة؟ وهذه النقطة في العمران موضعٌ عميق غرقتْ فيه أفكار كثيرٍ من فحول العلماء والفلاسفة.

(**) ورُّى «بالنسائم»: الأهواء التي تعصف بالنفوس المشبوبة. فهنَّ أقوى من الأهواء والنزوات.

أَرى أمهاتٍ لم يَجئْ بعدُ عَصْرُها ... وقد وُلِدتْ ما بَينهنَّ المكارمُ

أراهنَّ كالألماس فضلاً، وإنما ... مَدارِسُنا هذي لهنَّ، مَناجِمُ(*)

أرى العِلْم قد أمسى عليهنَّ حِلْيةً ... وما الحَلْيُ دون العلم إلا تمائمُ(١)

وأحقرُ شيءٍ في يد البنتِ إبرةٌ ... ولكنها لم تُغنِ عنها الخواتِمُ

❁ ❁ ❁

وقال في حاجات النساءِ التي لا تنتهي، وأنَّ ذلك من ضعفهنّ:

[من الوافر]

ضَعُفْنَ وضَعْفُهنَّ لنا عَذابٌ ... كهمِّ المرءِ بالسيفِ الكليلِ(٢)

ومن آياتِ ضَعْفِ النفسِ أنْ لا ... تحاولَ غيرَ شبهِ المستحيلِ

وما بكثيرِ فَضْلِ العقلِ مَن لا ... تُفَضِّلُهُ القناعةُ بالقليلِ(**)

فما همُّ المليحةِ غيرَ طَرْفٍ، ... ولو مِنْ حظِّ صاحبِها، كحيلِ(٣)

ولا ما تبتغيهِ غيرَ ثوبٍ ... ولو من عُمْرِ صاحبِها طويلِ

وكم عثرَ الفتى في ذَيلِ ذُلٍّ ... لترضى عنهُ ساحبةُ الذيولِ(***)

❁ ❁ ❁

قلب المرأة

[أرجوزة]

يا طالبَ الدُّرِّ مِن الدَّراري(****)

(*) شبّه مدارس البنات ـ بما تقوم به من حسن تربية وإعداد ـ بمناجم الذهب. وقد شرح ذلك في البيتين التاليين.

(١) التمائم، جمع تميمة، وهي ما يُعلَّق على الأطفال وقايةً لهن، وذلك من الخرافات الشائعة في كل عصر.

(٢) كلالُ السيف: تَثَلُّمُهُ ووقوفُه دون المَضاء. وفي الحديث: **النساء ضعيفاتُ عَقلٍ ودينٍ.** وذلك تركيبٌ طبيعي فيهن، أَثبَتَهُ الأبحاثُ العلمية.

(**) ليس من رجاحة العقل، تفضيلُ الكثير على القليل، إذا اكتُفي بالقليل. من هنا قيمة القول المأثور: **القناعة كنز لا يَفْنى.** ومعناه: **القناعة بالقليل.**

(٣) في الخرافات الهندية، أن الذي صنعَ المرأة هو الإله فولكان، وهو من أقبح الآلهة شكلاً وأشنعهم منظراً... وبيانُ وجه الحكمة في هذا الطباق موكول إلى الأذواق.

(***) جناس جميل في استخدام الذيل والذلّ ثم انسحاب الذيل، فالذلّ. وعثَر: بمعنى وقع في خطايا الذل والهوان.. وساحبة الذيول: الغانية المفتنَّةُ بارتداء أجمل الأثواب الطويلة!.

(****) الدراري: الكواكب العظام التي لا تُعرف أسماؤها. مفردها درّيّ، نسبةً إلى الدرّ في حسنه وبهائه.

وصائغَ الدرهم والدينارِ
مِن الضُّحى ومَغْرِب النهار[1]
ومَن إذا ثارت من الغُبَارِ
ثائرةٌ تلوحُ في الأنوارِ
كأنّها جسرٌ على الأنهارِ
يقول أَبْنني في الهواء داري

* * *

ذلك في البعد وفي الإنكارِ
يُشْبِه وصْلَ ربّة النُّفارِ[*]
تَقَلُّبٌ، والحبُّ ذو أطوارِ
حيناً يُماري ثم لا يماري[**]
وكيفما دار بنا يُداري
وعَزْمَةٌ كوُجهة التيار[2]
وذِلّةٌ في هيبة الجبّارِ
وعِزّةٌ في مَسْحَةِ انكسارِ

* * *

آهِ من المرأة في اقتدارِ
فإنما بذورُ الافتكارِ
في قلبها، إن عَمَدَتْ للثّارِ
يُنْبِتْنَ منه شجراتِ النار[***]
وقلبُ ذاتِ الحُسْنِ في اعتباري[****]

(١) المراد بمغرب النهار، وقتُ الطَّفَل، وهو الوقت الذي تنكسر فيه أشعةُ الشمس على جوانب السماء، فتكون كالذهب. وفي هذا الشطر لفٌّ ونَشْر.
(*) قصد بها المرأة الحرون، التي لا تستقر على رأي أو هوى.
(**) يُماري: يُجادل ويختلف معه ويتلوّى.
(٢) التيار لا ينصرف عن اتجاهه مطلقاً؛ وكذلك إرادة المرأة، إذا عزَمتْ. والحوادث كثيرة.
(***) صورة من صور القدرات الفائقة للمرأة المقتدرة ذات الأفكار الشيطانية. .
(****) في اعتباري ـ أي ـ في اعتقادي. والشطر الشعري هنا مطلع جملة جديدة، تتمة الجواب عليها، في الشطور التالية.

صـحـيـفـةٌ مِـن صُـحُـفِ الأقـدارِ
أكـثـرُ مـا تُـكـتـبُ بـاحـمـرارِ(١)
فـي لـغـة الأخـيـارِ والأشـرارِ
سـطـورُهـا أشـعَّـةُ الأبـصـارِ
تـوقـيـعُـهـا مـن الإلـه الـبـاري
عـنـوانُـهـا إلـى الـقـضـاء الـجـاري
مـفـادُهـا سـرٌّ مـن الأسـرارِ
يـجـمـع بـيـن الـصـفـو والأكـدار(٢)

* * *

ونـحـن فـي دهـر مـن الأدهـار
يُـبـاع فـيـه الـحـبُّ بـالأسـعـارِ
وأصـبـحـتْ عـفـيـفـةُ الإزارِ(*)
طـاهـرةَ الـذيـل مـن الأوزارِ(٣)
عَـزُوفـةَ الـنـفـس عـن الأقـذارِ(٤)
مـن دنـس «الـتـمـدُّن» الـغـرَّارِ،

---

(١) يريد (بالاحمرار) لون الدم. وفي الأمثال: الحسْنُ أحمرُ. والمرادُ أنَّ إراقة الدم، كثيراً ما يكون سببُها من النساء.

(٢) ننقل هنا جملة عن الخرافات الهندية القديمة في خَلْق المرأة، لأنها لا تخلو من حكمة، وسبيلُها سبيلُ باقي خرافاتهم المأثورة في هذا النحو:

زعموا أنَّ كبير آلهتهم، لمَّا خلَق الرجلَ استنفد فيه كلَّ مواد الخَلْق، فلم يبق لديه شيءٌ منها. فلما أراد خلْقَ المرأة، فكَّر طويلاً، ثم أخذَ من استدارة القمر، ومن اختلاف لون الأزهار، ومن لين غُصْن البان، ومن روائح العِطْر، ومن عيون الظباء، ومن شوك الورد، ومن صلابة الألماس، ومن طباع الحيَّة، ومن وداعة الحُمْلان، ومن جُبْن الأرنب، ومن شراسة النمر، ومن إعجاب الطاووس، ومن حلاوة العَسل، ومن خِفَّة الأوراق، ومن حفيف الشجر، ومن لطافة أشعة الشمس، ومن انقضاض الصاعقة، ومن بكاء السحاب، ومن نَوْح القُمْريّ، ومن حرارة النار، ومن برودة الثلج، ثم صنَع من كل ذلك المرأة. وهم يعنون بذلك أنها خُلاصة الخَلْق، وأنَّ من أصل الفطرة فيها، هذه الطباع المتناقضة. وعلى هذا النحو، جاءت أقوال كثيرة في المرأة.

(*) الإزار، ثوب يحيط بالنصف الأسفل من الجسد. وهو كناية عن الحصانة والعفَّة.

(٣) الأوزار: الذنوبُ مفردُها، وِزْرٌ..

(٤) عزفتْ نفسُه عن كذا: ترفعتْ وابتعدتْ.

تُعَدُّ بينَ سائرِ الجواري
كأنَّها من مَتْحفِ الآثارِ(١)

❁❁❁

وقال في فلسفة النسل يذكر شعوره نحو ابنته «وهيبة»(٢):

[من البسيط]

لولا اثنتان لكان الناسُ قد جَحَدوا ... الأمُّ في لُطْفِها النفسيِّ، والولدُ(٣)
حُبُّ البنين على هذا الورى حُجَجٌ ... فيها الدليلُ على الإيمان لو رَشَدُوا
هم يُهْمَلون غداً، حتى إذا خرجتْ ... أطفالُهم، أيقنوا أن الزمان غدُ(٤)
وما الصغارُ لأهليهم سوى عُقَدٍ ... في خيطِ إيمانهم بالروح تَنعقِدُ
ما أوسَعَ الجوَّ فوق الفخ إنْ نشبَتْ ... فيه القنيصةُ لولا هذه العُقَدُ

❁❁❁

أرى البنينَ إلى ألبابنا كُتُباً ... خطَّ المحبةَ في عنوانها الأَبدُ(٥)
فإنْ قرأتُ فآمالٌ مُصوَّرةٌ ... لها معانٍ هي الإسعاد والرغدُ
ألفاظُها في قواميس النفوس هي الـ ... قلبُ الشفيقُ وسرُّ الروح والكَبِدُ
ولي ابنةٌ هي معنى النفس في نظري ... وحكمةُ الفكر والوحي الذي أَجدُ

---

(١) هذا هو اصطلاح شبان اليوم «المتمدنين» الذين هم نساء الغد... وقد قيل إنَّ أرستيب الفيلسوف، شفَع لبعض أصحابه عند الملك الذي كان لعهده، فأبىٰ عليه الملكُ فخرَّ أرستيب على قدَميه يُقبِّلُهما. فنسبه بعضُ من كان موجوداً، إلى التملق والدناءة. فقال الفيلسوفُ: لا لومَ عليَّ، إنما اللومُ على الملك الذي جعل أذنيه في قدميه.

(٢) وهيبة، هي بنتُ الشاعر، وهي بكْر أبويها لا تزال في سنتها الأولى، حرسَها اللّه وحقَّق فيها آمالَ أبيها، بمنّه سبحانه وكرَمِه.

(٣) وَلَدُ الرجل ووُلْده (بالفتح والضم) جماعة أولاده. ومن أقوال بعض الفلاسفة القدماء، في حنان الأمهات ولطفهن النفسيّ: إنَّ الإله جوبيتير (كبير آلهتهم) لما لم يستطع أنْ يوجَدَ في كل مكان، أناب عنه الأمهات. والمراد من هذا التعبير، الرمزُ إلى العناية كما ترى.

(٤) لا يتم اهتمامُ الإنسانِ بالغد، ما دام منفرداً، لأنه ابنُ يومه الحاضر. ولكنْ متى رُزق ولداً أصبحَ كلُّ همِّه بالزمن الآتي، لأن الأطفال رجالُ الغد، لا رجالُ اليوم؛ فيُوقن الإنسان أنه لا بد من العمل لغده. وكذلك النفسُ لا ينبغي أن تُفكِّر أو تَعمل إلّا لآخرتها.

(٥) محبةُ الأبناء غريزية في طباع الإنسان، ولكن يوجد أناس شاذُّون عن كل قاعدة إنسانية. والشذوذُ موجود في كل شيء، كأنه من نظامات الطبيعة. ومن هؤلاء جبار اسمه (إيكولين) قالوا إنه كان في مدينة (بيزا) فوقع في أيدي أعدائه، فوضعوه مع أولاده في بُرج، وسدوا عليهم، فأكلَ أولادَه.. ثم هلك بعدهم جوعاً. والفظاعة كلها في تصور هذه الحادثة.

كـأنَّ قـلـبـي يـراعٌ مـلَّ مِـنْ يـده ... فـحُسْنُـهـا لـيَ مـن نـورِ الـسـمـاء يـدُ
صـغـيـرةٌ وعـجـيـبٌ أن يـكـون بـهـا ... قـد زاد فـي كـل هـذا الـعـالـم، الـعـدَدُ(١)
«فـيـا وهـيـبـةُ» إنْ يَـسْـعـد ذووك فـمِـنْ ... نورٍ بعينيك، يَجْلُو نَجْمَهم، سَعِدوا

* * *

لـلـدهـر شَـرْعٌ، ومنه حـكـمـة كُـتِـبَـتْ ... عـلـى الـقـلـوب، فـلـم يَـجـهـل بـهـا أَحـدُ
لا يُـضـبِـحُ الـبـيـتُ رَوْضاً لـلـذيـن بـه ... ما لـم يـكـن فـيـه هـذا «الـطـائـرُ الـغَـرِدُ»(٢)

* * *

أحلام وهيبة

وقال وهي في الشهر السابع من عمرها يصف أحلامها:

[من الوافر]

هـفَـتْ «أم الـبـنـيـن» لِـلاِضـطـجـاعِ ... تُـراعـيـهـا الـعـنـايـةُ إذْ تُـراعـي(*)
ونـامـت تُـمْـسِـكُ الأجـفـانَ مَـهْـلاً ... وتُـرْسِـلُـهـا إشـاراتِ الـوَداعِ(٣)
وأبْـسَـطُ مـا يـكـون الـحـبُّ مـعـنـىً ... إذا لـم يَـعْـدُ حَـدَّ الـمـسـتـطـاعِ(**)
«وهـيـبـةُ»، وابـتـسـامُ الـحُـلْـم بـادٍ ... عـلـى شـفـتـيـكِ، هـل يَـدْعـوكِ داعِ؟
وهـل نـاغـتْـكِ أمُّـكِ فـي دِعـابٍ(***) ... كـأنَّ كـلامـه لـغـةُ الـطـبـاعِ؟

---

(١) لو لم يكن إلا أنَّ (وهيبة) كانت السبب في إيجاد هذا المعنى في الشعر العربي، لكفاها فضلاً عليه.

(٢) الطائر الغردُ: هو هذا المخلوقُ الصغيرُ الذي يصيح (بابا، ماما) الخ.. وهي الأصوات الملائكية في الأرض. ومن الناس أجلافٌ لا عواطفَ لهم كرجل من الفلاحين كان كثير الأولاد؛ فلما ولدَتْ له بنتٌ، وقد كادت روحُه تُزْهَقُ من كثرتهم، سماها «زَهِقْنا». ولم يزل ذلك اسمُها إلى اليوم.

(*) لم نر مسوّغاً لتلقيب «وهيبة» وهي طفلة رضيعة، «بأم البنين»! ذلك يجوز لأم وهيبة وأضرابها.. أي لنساءٍ أمهاتٍ، تشبّهاً بزوجة عبد الملك بن مروان «أم البنين» ذات الصبْيان والبنات.

(٣) قبل أن ينام الطفلُ الصغير، يفتحُ عينيه ويُغمضهما هنيهةً. فكأن ذلك إشاراتٌ منه لوداع أهله في انصرافه عنهم إلى أن يستيقظ.

(**) أبسطُ الحب، أصفاه وأطهره. وهو يرمي هنا إلى حب الطفلة التي لا يتوجب عليها أكثر من جمال اللقاء وجمال الوداع. وفي هذا البيت يوحي الشاعر ببعض الأفكار الفلسفية ذات الطابع التربوي، أو العكس بالعكس.

(***) استخدم الدعاب ـ على القياس ـ والاسم: الدُّعابَةُ، وهي المزاحُ والعبث البريء. ولم يكتف بذلك، بل جعله مُسمّى له مضمونه المباشر، فنسَبَ إليه أصناف الكلام في عجز البيت وما بعده من أبيات. والطريف أنه هو ـ أي الشاعر ـ يتحدث عن الابتداع، والقياسي، والسماع، ناسباً إياها إلى طفلته، وهو الذي سبق طفلته إلى ما ذكر.

لـمـحـتُ وراءه مـن كـل مـعـنـىً وإن كـان ابـتـداعـاً فـي ابـتـداعِ

فـمِنْ «بـي بـي» إلـى «بـابـا» إلـى مـا يَـشُـذُّ عـن الـقـيـاسـي والـسـمـاعـي

ولـفـظٌ تَـقـبـلـيـن لـه ولـفـظٌ تـريـن لـه مـعـانـي الامـتـنـاعِ[*]

فـكـيـف تَـمَـيَّـزتْ لـكِ وهْـيَ طُـرّاً سـواءٌ عـنـدنـا فـي الاخـتـراعِ

* * *

«وهـيـبـةُ» مـا تَـرَيْـنَ الآن حـتـى أشَـرْتِ بـمـثـل مَـصَّـاتِ الـرضـاعِ؟

يُـخَـادِعُـكِ الـمـنـامُ وذا دلـيـلٌ عـلـى أن الـحـيـاةَ مـن الـخِـدَاعِ

فـمـا الأحـلَام غـيـرَ حـيـاةِ ضـيـقٍ وإنَّ الـضـيـقَ بـعـضُ الإتـسـاعِ[١]

كـأنـكِ يـا وهـيـبـةُ لـم تـزالـي بـبـعـض الـروح، فـي ذا الإرتـفـاعِ[٢]

فـإن نِـمْـتِ الْـتَـقـىٰ شَـطـرٌ بـشَـطْـرٍ فـكـان الـحُـلْـمُ لـذةَ الإجـتـمـاعِ

ومـا يَـقْـضِـي الـصـغـيـرُ الـيـومَ نـومـاً لأمـرٍ غـيـر هـاتـيـك الـدواعـي

* * *

رأيـتُـكِ يـا وهـيـبـةُ ذاتَ ثـغـر عـلـيـه مـن الـسـمـا بـعـض الْـتـمـاعِ

فـلـم أشـكُـكْ وربّـكِ أنَّ فـجـر الـبَـيـانِ يَـطـيـرُ مـن هـذا الـشـعـاعِ

نـظـرتُ إلـيـكِ فـي مـوج الأمـانـي كـأنَّـكِ درة لـمـعـتْ بـقـاعِ[٣]

فـإنَّ بـلـغـتْ بـك الـدنـيـا فـسِـيـري إلـى الـعـلـيـاء مـن غـيـر انـقـطـاعِ

فـإنَّ الـنـفـسَ مـثـلُ الـعـيـن تَـسـمـو إذا ضَـرَبَـتْ بـمـنـطـلـقِ الـبِـقـاعِ

عـجـبـتُ لـيـائـسٍ تـرْكَ الـمـعـالـي وأحـجَـمَ عـن كـبـيـرات الـمَـسَـاعِـي

(*) قوله: «تَقبلين» لم يُحسن إضافته إلى شبه جملة لأنه لم يضعه في موضعه الصحيح. فهو إن قال (تَقبلين) بفتح التاء، عدَّاه (بالباء)، وإن قال (تُقبلين) بالضم، عدّاه بـ(على). وصواب استخدامه ههنا: «ولفظٌ تَقْبلين به». و«طرّاً» في البيت التالي: جميعاً.

(١) الأحلام حياة ضيقة، لأن الإنسان لا يكون فيها كامل التصرف. والضيقُ إنما هو اتساع ما. وعلماءُ المنافع (وهم الباحثون في منافع الأعضاء) يُسمُّون الأعمال التي تظهر مِن آثار قوى النفس، في بدء الطور الأول من الحياة، عندما يكون همُّ الطفل قاصراً على الغذاء والنوم، «بالمنعكسة» لأنها موقوفة على حركة الدقائق العصبية. أمّا الفلاسفةُ فيسمونها «القوى البهيمية» أو الشهوية.

(٢) الارتفاع هنا كناية عن السماء. والتعليل في هذا البيت شعريٌّ محض، لأنَّ نوم الطفل ناشئ عن ضعف قواه وتأثره من اليقظة لما يعرض له فيها.

(٣) المرادُ أنَّ هذه الأمواج عميقة، لأن الأماني في طفلة صغيرة تكون بعيدة طبعاً عن الحقيقة.

ألم يكُ قبل هذا الدهر طِفلاً كما بين الذراعِ إلى الذراع؟
ومَنْ لم يتَّسِعْ في الفخر يَعجَزْ وما جَدَلُ الفتى بعد اقتناعِ[1]

❁❁❁

(١) الجدل والمجادلة والمناظرة: واحدة. فإذا تم الاقتناعُ ببرهانٍ أو بمقدمة له، انقطع الجدال وصار عبثاً، لأنه لا يكون إلا للحصول على الاقتناع. وكذلك من أيقن بعجزه عن المعالي، انقطع عن السعي لها؛ فإذا لم يتسع فيها حتى يظل في حركة، كان ذلك منه مقدمةً للعجز. ولذلك قيل: الحركة بركة.

في الوصف

القمر

[من الطويل]

أطلَّ علينا والهوى يتعطَّفُ ... كما أقبلتْ فتَّانةٌ تتأسَّفُ

وبتُّ أظنُّ البدرَ في دَوَرَانه ... جناحَ الأماني فوق رأسي يُرَفرفُ

كأن نهاري نامَ فالبدرُ والدجى ... له حُلُمٌ في نومِه يتألَّفُ

ألستَ تراها كالخيال تلاشياً ... متى انفتحتْ عينٌ من الصبح تَطْرِفُ؟(*)

كأنّي أرى بين الكواكب نسوةَ الـ ... ـعزيز وهذا البدرُ فيهنَّ يوسفُ(1)

كأنَّ النجومَ الغُرَّ سُبحةُ زاهدٍ ... مُعلَّقةٌ في الأُفْق والبدرُ مُصْحَفُ

كأنكَ يا بدرَ الكواكب بينها ... فتاةٌ مشتْ بين الأزاهر تَقْطِفُ

كأنكَ في مَوْجِ الضياء مليحةٌ ... تَرَاقَصُ في ماء الغدير فيَرْجُفُ

كأنك في شطِّ الحَنَادِس جسمُها ... وقد سترتْ من بعضه «تتنشَّفُ»(**)

تمثَّلَ فيكَ الحبُّ والحسنُ للورى ... فأنت بمعنى الحب والحسن تُوصفُ

فبينا تُرَى في التِّمِّ تُذْنِفُنَا هوًى ... وتُصْبِي غوانينا إذا أنت مُذْنَفُ(***)

كأنك كرسيُّ الزمان وهذه الـ ... ـنجومُ كراسيٌّ صِغارٌ تُصفَّفُ

كأنك سِترُ الغيب أُسدِلَ بيننا ... وبين السما فالغيبُ هيهاتَ يُكْشَفُ!

(*) طرَفَتِ العينُ، تَطْرِفُ: أصابها شيء فدمعتْ، أو: تحركتْ أجفانُها بالنظر.

(1) العزيز: هو فرعون مصر الذي كان يوسفُ عليه السلام في زمنه؛ وقد كانت امرأةُ العزيز تعشقُ يوسف، فلامها نسوةٌ في المدينة. فدعتْهن وأعطتهنّ مُدًى وفاكهة، وقالتْ ليوسف: اخرجْ عليهنّ! فلما رأينه أكبرنَهُ وقطّعن أيديهنّ، يحسَبْن أنهن يقطّعن الفاكهة لِمَا أُخِذن به من جماله. فالإضافة في نسوة العزيز، نسبية فقط.

(**) الحنادس (مفردُها، حِنْدِس): ثلاثُ ليال من آخر الشهر. وهن شديدات الظلمة. شبَّه البدْر ـ فيما شبهه به في سياق الأبيات السابقة ـ بمليحة نهضتْ من شطر الظلمات بعد استحمامها، ثم وقفت لتتَنَشَّفَ، وقد سترتْ بعض أجزاء جسدها للغاية نفسها. والصورة التشبيهية على جانب من التعقيد بسبب التركيب اللغوي الملتوي.

(***) التِّمُّ، والتَّمُّ والتَّمامُ. . كلُّها مصادرُ لكمال البدر ونحوه. والمُذْنَفُ: الذي أخذه المرضُ الشديد.

كـأن الـلـيـالـي صـوَّرتـهـا يـدُ الـهـوى ... وفـيـهـا ضـيـاء الـبـدر وَشْـيٌ وزُخْـرُفُ

* * *

ولـمَّـا تـعـاتَـبْـنَـا اتَّـهـمـتُ ودادَهـا ... لـتكـمُـلَ لـذَّاتُ الـهـوى حـيـن تَـخْـلِفُ(*)

وقـلـتُ اكـتـبـي لـي بـالـعـهـود رسـالـةً ... تُـلَـطِّـفُ مـن شـكِّ الـجـوى وتُـخـفِّـفُ

فـشـدَّتْ عـلـى قـلـبـي وقـالـت بـلَـوْعـةٍ ... إذا مـا الـتـقـيـنـا فـالـهـوى مـنـكَ أعْـرَفُ

وإنْ غـبـتُ كـان الـبـدرُ مـنـي رسـالـةً ... إلـيـك ومـا فـيـه مـن الـمَـحْـو أحْـرُفُ(١)

فـقـلـتُ بـلـى إن بـاعَـدَ الـدهـرُ بـيـنـنـا ... فـهـذا الـذي فـي أمـرِنـا يـتـكـلَّـفُ

يُـضـلِّـلُ عُـذَّالـي فـيـبـدو لـعـيـنـهـم ... إذا راقـبـوهُ واقـفـاً وهـو يَـزْحـفُ(٢)

فـإن تُـبـصـريـه فـابـسِـمـي لـلـقـائِـه ... أرى مـن هـنـا نـورَ الـثـنـايـا فـأهـتِـفُ

وإن مـرَّ فـي واديـكِ رَطْـبـاً شُـعـاعُـهُ ... فـقـولـي إذنْ: إنـي مـن الـوَجْـد أذرِفُ

وإن هـو ألـقـى فـوق فـيـك ابـتـسـامـة ... فـذاك سـلامٌ مـن فـمـي يـتـلـطـفُ

وإن جـاء يـومـاً خـاشـعـاً فـي غـمـامـة ... ومَـرَّ نـسـيـمٌ تـحـتـه يـتـأفـفُ(٣)

فـهـاتـيـك روحـي قـد أتـتـكِ فـسـلِّـمـي ... وذاك وداعـي حـيـنـمـا كِـذتُ أُتْـلَـفُ

❁ ❁ ❁

وقال يصف غروب الشمس والليل:

[من المتقارب]

تَـدَرَّجـتِ الـشـمـسُ وسْـنـىَ الـجـفـونِ ... لـمَـضْـجـعـهـا فـي سـريـر الأفـقْ

(*) يبدأ المقطع الثاني من القصيدة هنا، باسترسال سردي حكائي، موحياً ببترٍ لبعض الأبيات، لأننا أمام حوارية سرديَّة يخوض فيها الشاعرُ، على غرار قصص عمر بن أبي ربيعة، حكاياته الغرامية.

(١) المحو: هو السواد المنتشر على وجه القمر. وقد اختلفوا فيه؛ فذهب قوم إلى أنه شبح ما ينطبع فيه من جبال الأرض ونحوها، كأنه مرآة. وقال آخرون: إنه سواد النصف المظلم من القمر الذي لا يقع عليه ضوء الشمس. قالوا: والصحيحُ أنَّ بعضه لونُ الظل الذي تلقيه جِبالُ القمر المرتفعةُ على وهاده، والبعضُ الآخر لونُ الصحاري التي فيه وما يتخلل جباله من الأتربة والرمال وبقايا العَفَاء. وحينما يكون القمر بدراً فذلك المَحْوُ لونُ تلك الأتربة.

(٢) يسمون هذه الحركة الجزئية للقمر بالتمايل، وقد قسَموه إلى ثلاثة أقسام: تمايلٌ طولاً، وتمايلٌ عرضاً، وتمايلٌ يومي.

(٣) المراد (بتأفف النسيم) أنه حارٌ كما تكون زفرة الهم ونحوه. واستحسانُ القمر والتغزل فيه: عادةٌ صحبت الإنسانَ في كل دهر، حتى إنَّ قبائل الهوتانتو لعهدنا، وهي قبائلُ ضاربة في إفريقيا، تقيم كلَّ سنة حفلة رقصٍ عامة إكراماً لهذا البدر. ويعتقدون أنه خالق الموجودات.

ومدَّت يداً من وراء السحابِ ... لتكشِفَ عنه مُلاءَ الشَّفَقْ[1]
ونامت فأرْخَتْ عليها النجومُ ... وَلائِدَها كِلَّةً من غَسَقْ[*]
وأقبل يَهمِسُ هذا النسيمُ ... بأذنِ الربى ساعةً وانطَلَقْ
فمالت من النوم أغصانُها ... على بعضها والتحفنَ الوَرَقْ
ونام بها الطيرُ: بعضٌ سكوتٌ ... وبعضٌ بأحلامه قد نطَقْ
وقد فاض بحرُ الكَرىٰ فيضةً ... تُلاعِبُ زَخّارَها بالحدَقْ[**]
فمنها تَسطوَّحَ في لُجَّة ... ومنها وَشيكٌ، ومنها غَرِقْ[2]
ولكنني خفتُ من جَوْرِهِ ... فأركبتُ عيني سفينَ الأرَقْ

* * *

فيا هندُ ذا كلُّه باطلٌ ... وإنْ صحَّ؛ أمّا التجافي فحق[3]

❂ ❂ ❂

وقال في نجوم الليل والغزَل:

[من السريع]

لا تحسبي أنجمَ هذا الدجى ... أشرَكَها في لَهْونا مُشْرِكُ
الليلُ مسرور بما بيننا ... وهذه أسنانه تَضْحَكُ

❂ ❂ ❂

وقال، وهو معنى غريب:

[من الوافر]

أرى ليلاً يموتُ الصبحُ فيه ... ويَحْيَا رأفةً بالعاشقينا
كأنَّ وجوهَ أنجمه إذا ما ... طلعنَ، وجوهُ قومٍ صائمينا
وقد لَبِسَ السَّما فبَدتْ عليه ... كمُرَقَّعَة الرجال الزاهدينا[***]

---

(١) الشفق: هو النور الذي يكون بين غروب الشمس والعتمة. ويكون أيضاً بين الفجر وطلوع الشمس. وبعضُ هذا النور حاصلٌ من انكسار أشعة الشمس حينما تسقط من الأفق على كُرة الهواء. وأكثرُه يكون من الانعكاس. وتجدُ هذا الشفقَ ملوناً كأنه المُلاء وهي جمع ملاءة، [وهي الملحفة].

(*) الكِلَّةُ: ستر رقيق يتقى به من حشرات الليل الطائرة. . ج: كِلَل.

(**) الزخّارُ (مبالغة) من زَخَر البحرُ أو النهرُ يزخرُ، فهو زاخر، إذا امتلأتْ جوانبه وفاضت.

(٢) وشيك، أي قريب الغرق.

(٣) يريد بهذا كله: سهره ومراقبته الطبيعة في هواها. ومع ذلك فهي تُنكر هذا الهوى وتُجافيه.

(***) المُرَقَّعةُ (بتشديد القاف المفتوحة): لباسُ الصوفية. سميت كذلك لكثرة الرقع التي فيها. وقد =

يــذكّــرنــي، وهــمّــي أيُّ هــمٍّ | بـأبـنـاء الـغـرام الـهـالـكـيـنـا(*)
فـيـبـدو الأفـقُ مـقـبـرةً لـعـيـنـي | تُـضـيءُ بـهـا «قـبـورُ الـصـالـحـينا»(١)

❁ ❁ ❁

وقال في ليلة أُنس:

[من المقتضب](**)

مــن أشــعّــةِ الــنــظــرِ | لأشــعــةِ الــقــمَــرِ
مــن ســهــاد أعــيُــنِــهِ | لــكــواكــبِ الــسَّــهَــرِ
مــن ذبــول مُــقْــلــتِــهِ | لــنُــضــارةِ الــحَــوَرِ(***)
مــن مِــطــالِ لــيــلــتِــه | لــمُــدَبِّــر الــقِــصَــرِ
مــن نُــحــوس طــالَــعِــهِ | لــلــقــضــاءِ والــقَــدَرِ
أشــتــكــي ولــي كَــبِــدٌ | إن شــكــوتُ تــنــفــطِــرِ
غــيــر أنَّــهُ ضَــرَرٌ | مُــشــعِــدٌ عــلــى ضَــررِ

* * *

يــا فــؤادُ مــلــتــفــتــاً | نــحــوَ مــشــرقِ الــغُــررِ
قــد نــجــوتُ مــن خــطــرِ | ووقــعــتُ فــي خَــطَــرِ
طــائــرٌ بــلا حــذَرٍ | واقِــعٌ بــلا حَــذَرِ
تــارةً هــنــا وهــنــا | مــثــلَ نــحــلــةِ الــزهَــرِ

= خفّفها الشاعر للضرورة. والتشبيهُ هنا صورة تمثيلية متقنة الجوانب، متناغمة الجرس والمعنى الذي جمع سُمُوَّ العبادة الصوفية مع سموّ النجوم، وطهارةَ الاثنتين وصفاءهما، بغض النظر عن الهيئة المادية الحاصلة من المشابهة.

(*) قوله: «وهمّي أي همٍّ» يحتمل تفسيرات شتى. لكنه لا يخلو من اللوعة الداهمة في هذه اللحظة التي يصور فيها الليل، وهي لوعة عاطفية مصدرها حلكة النفس وكدرةُ المشاعر.

(١) في الأثر ما معناه، أن القبور يكون عليها نورٌ من أعمال أصحابها. وهو معنى مجازي. أمّا النور الذي يُرى على بعض القبور القديمة، في وقت الظلام، فهو مادة الفسفور المنتشرة في الهواء من الجسَد المتحلل، لأن جسمَ الإنسان يحتوي على كمية من هذه المادة. وقد كان القدماء يظنون أن الشمس والقمر، وغيرهما من الكواكب، مساكنُ لأرواحٍ عظيمة هي واسطةٌ بين العالَم وخالقه، كما أنَّ الأجسام مساكنُ للنفوس. ومن هنا نشأتْ عبادةُ هذه الأجرام. ولعلها أيضاً منشأ خرافة العقول العشرة.

(**) تفاعيله الأساسية ستٌّ وهي: مفعولاتُ مستفعلن مستفعلن (صدراً وعجزاً) لكنه لا يستعمل إلّا مجزوءاً، وزحافه الخبن (حذف الفاء) أو الطي (حذف الواو) من «مفعولات».

(***) الحَوَر: شدّة بياض بياض العين، مع شدّة سواد سوادها. وهي من أجمل أوصاف العين.

لـحـظُـهـنَّ مـنـكـسـرٌ ... فـي فـؤادِ مـنـكـسـرِ
وهـو فـيـه مـنـخـفـضٌ ... لـلـدلال والـخـفَـرِ
وهـو فـيـه مُـرتـفـعٌ ... لـلـصـدود والـبَـطَـرِ
فـي الـعـيـونِ ذُو أثَـرِ ... فـي الـقـلـوبِ ذو أثـرِ
مـثـلُ ريـشـةٍ نَـفَـضَـتْ ... صِـبْـغَـهـا عـلـى الـصـورِ(١)

* * *

الـنـجـوم سـاطـعـةٌ ... فـي سـمـاءِ مـعـتـكـرِ
مـثـلُ مُـشْـطِ غـانـيـةٍ ... فـي ذوائـبِ الـشَّـعَـرِ(٢)
والـسـمـاءُ حـالِـيَـةٌ ... بـالـكـواكـب الـزُّهُـرِ
كـنـسـيـج عـاشـقـةٍ ... خـرمَـتْـهُ بـالإبَـرِ
والـنـسـيـمُ مـن سَـقَـمٍ ... يـرتـمـي عـلـى الـشَّـجَـرِ
مـثـلُ وَعْـدِ مُـخْـلِـفِـهِ ... سـائـرٌ إلـى حـذَرِ
والـدجـى لـهـا قَـمَـرٌ ... كـجَـبِـيـنِ مُـفْـتَـخِـرِ
هـو تـحـت لُـجَّـتِـهـا ... درَّةٌ مـن الـدُّرَرِ
وهـو بـيـن مـرتـفـعٍ ... مـرةً ومـنـحَـدَرِ
مـثـلُ درهـمٍ ورِقٍ ... راقـص عـلـى الـظُّـفُـرِ(*)
لـيـلـةٌ بـهـا عُـصُـرٌ ... قـد جَـرَتْ إلـى عُـصُـرِ(**)
مَـرَّ لـي زمـانُ هـوًى ... وهْـيَ مـنـه كـالـخَـبَـرِ
فـنـسـيـمـهـا: سَـحَـرٌ ... نـائـبٌ عـن الـسَّـحَـرِ
وصـبـاحُـهـا ثَـمِـلٌ ... قـد دُعِـي ولـم يَـزُرِ
عـطَّـلُـوا لـهـا فَـلَـكـا ... إن أديـرَ لـم يَـدُرِ
يَـشْـغَـفُ الـمـحـبُّ هـوى ... بـجـمـالـهـا الـنَّـضِـرِ
ذاكـرٌ أحِـبَّـتَـهُ ... بـنـسـيـمـهـا الـعـطِـرِ

---

(١) المراد بها ريشة المصور.
(٢) يريد: مُشْطَ غواني هذا العصر، وهو المرصَّع بالألماس.
(*) درهمٌ وَرِقٌ: درهم من فضة ـ ويجمع على وِرَاقٍ.
(**) العُصْر والعُصُر (بالسكون والضم) هو الدهر. فهل أراد به، دوام هذه الليلة على مرّ العصور؟

هي روضةٌ سُقِيَتْ من غمامة الغُمُرِ
القدودُ أغصنُها ينثنين في الأُزُرِ (*)
والقلوبُ من ثَمَرٍ في الغصونِ منتَشِرِ
واللحاظُ طائرةٌ قد نَقَرْنَ في الثَّمَرِ
والحظوظُ قائمةٌ بين خِيرةِ الخِيَرِ
كلما هَفَا أمَلٌ نَبَّهُوهُ بالوَتَرِ (**)

* * *

الكؤوس جائرةٌ لم تَدَعْ ولم تَذَرِ
كالقطار واقِفَةٌ في «محطة» السَّمَرِ (***)
والعقولُ أجمَعُها أصبحَتْ على سَفَرِ
العيونُ زائغةٌ في المناظر الأُخَرِ
تَحْسَبُ الضيا نَهَراً والرجالَ كالجُزُرِ
تَحْسَبُ الدجى سُحُباً والنسيمَ كالمَطَرِ
تحسبُ المُدام لظًى والحُبَابَ من شَرَرِ
تَحْسَبُ السما نُزُلا والنجومَ كالسُّرُرِ (****)
تلك ليلةٌ جُعِلَتْ في الوَرَى من السِّيَرِ
أَهلُها شمائِلُهُمْ سُورةٌ من السُّوَرِ
والنديمُ بَيْنَهُمُ قطعةٌ من الهَذَرِ (*****)
خِلْتَهُ أعادَ لَهُ روحَهُ، أبو العِبَرِ (١)

❁ ❁ ❁

(*) الأُزُر، ج: إزار، وهو ما تأتزر به المرأة من أثواب، وخاصة في النصف الأسفل من جسدها.

(**) هفَا أمَلٌ، وهَفَا القلبُ: تحرّك خافقاً من الحزن والطرب.

(***) السَّمَرُ، ج: أسمار، هو مجلس الأُنس في الليالي..

(****) السُّرُرُ: جمع سَرير. ويجمع أيضاً، على أسِرَّة.

(*****) الهَذْرُ: الكلام الرديء الساقط.

(١) أبو العبر: رجل متحامقٌ كان في زمن بني العباس، وكان يمزج الحكمة بالسخافة دائماً. ومن قوله: إذا حدَّثك إنسانٌ بحديث لا تُحب أن تسمعه، فاشتغل عنهُ بنَتْف إبطك، حتى يكون في عمل وأنتَ في عمل...

وقال في صوت فتاة ناعمة الدَّلِّ:

[من السريع]

حديثُها مثلُ حفيفِ الصَّبا ... أقلُّ ما هَيَّجَ منه هواهْ[1]

ولفظُها مثلُ دبيبِ الجوى ... أقلُّ ما أثَّرَ فيه بكاهْ

تَغنَّتِ الأملاكُ في قلبها ... فردَّدَتْ رجْعَ صداها الشفاهْ

وكلُّ ما يُطرِب في أرضِنا ... مما بَرىٰ ربُّك أو في سماهْ[*]

يُسْمَعُ في حرفَين من لَفظِها ... إنْ هيَ قالتْ من جوى الحب «آهْ»

❁❁❁

وقال يصف الصباح:

[من السريع]

يا كوكب الليل دَهاكَ الصباحْ ... فاصْرِف إلى الغَرْبِ عِنانَ الرياحْ

واختَفِ يا ليلُ بشَعْر الدُّمى ... مِنَ الغواني وعيونِ الملاحْ[2]

ضاقت بك الحيلةُ في عَسْكَرٍ ... مُنَفِّرٍ حتى ذواتِ الجَنَاحْ[3]

يَفِرُّ حتى النومُ من وجْهِهِ ... وتَهربُ الأحلامُ خوفَ افتضاحْ

فكَم مُحبٌّ أسعَدَتْه المنى ... بخُلسة الطيف التي لا تُباحْ

فجاءهُ بين الوفا والرضا ... وكوكبُ السعد جرىٰ في النجاحْ

وزال ما قد كان من وَحشةٍ ... تَعترِضُ الأنفُسَ عند السماحْ

حتى إذا كادت دموعُ النوىٰ ... تَجفُّ من أنفاس ذاك المِزاحْ

أقبل هذا الصبحُ من «برده» ... يفتش الأجفان عنه فراحْ[4]

وكم نسيمٍ كان يسعى بما ... يَحمِلُه عمَّنْ تَشكَّى وباحْ

---

(١) الضمير في (هواه وبكاه) عائد على العاشق. وقد لحَّن هذه الأبيات وغنى فيها، بلبلُ مصر الشيخ سلامة حجازي، ووضعها في (أسطوانات الفونوغراف وله فيها صوت) «أقل ما يؤثر البكاء».

(*) حقه أن يقول بَرَا مخفف (بَرَأ) بمعنى: خلَق وأنشأ. لأنّ [برى] مقصورة، يبري: نَحَتَ؛ ومنه بَرْيُ القلم والعود ونحوهما.

(٢) الدمى، جمع دُمْية: تصاويرُ العاج.

(٣) يريد (بالعسكر) الصباح، وهو أمواج الضياء. وذواتُ الجناح: الطيرُ.

(٤) تفتيشُ الأجفان: كنايةٌ عن استيقاظ النيام. ولا تكاد تجد مثل هذا التصوير.

من دمعةٍ تَغسلُ جُرحَ الجَفا ... ورِقَّةٍ تَغطِفُ رأسَ السِّجماخ(*)

أو نَفَحاتٍ من غواني الحمى ... يَكذْنَ يَمسخنَ وجوهَ القِباخ(١)

أدركَهُ الصبحُ بأجنادِهِ ... فتاةَ من روعته في السباخ

* * *

يا صبحُ إنْ كنتَ حياةً فما ... لَبثُ حياةٍ كُتبتْ للكفاخ(٢)

الناسُ في أيدي أمانيِّهم ... والشرُّ في كفَّيهِ روحُ الصلاخ

والأرضُ ميدانٌ لهذا الورى ... يَقصِفُ منهم بالرماح الرماخ

وإنْ تكنْ يا صبحُ موتاً فما ... أهنأ قلباً قد شُفي واستراحْ!

قد عربدَ الأحياءُ من سُكرِهِم ... وإنما الشمسُ لهم كأسُ راحْ(٣)

* * *

وقال يصفُ الطبيعة في الجفاء:

[من الكامل]

تاللهِ لو سَمِعَ الزَّمانُ تنهُّدي ... يومَ الجفَا لم يَبْقَ في الدنيا جَفا

ولوَ أنَّ قُرصَ الشمس كانت نارُهُ ... هَجْراً، ومسَّتْهُ المدامعُ، لانطفا

ولوَ أنَّ جوَّ الليل كان ظلامُه ... بُعْداً، وشاهدَ ما بقلبي، لاختفى

فالليلُ عندي والنجومُ تَزينُهُ ... كالنعش تَجعلُه الزهورُ مُزَخْرَفا(**)

وكأنَّ هذا الصبحَ بَعْدَكُمُ، يَدٌ ... شَهَرَتْ لتقتلني، حُساماً مرهفا

* * *

(*) الجماخُ، مصدر جَمَخ جموخاً: وهو الخروجُ على مقتضيات العقل والرصانة. وقد أراد: الجُموحَ، فمال إلى «الجماخ» للقافية.

(١) المسخ، هنا من قولهم: على وجهها مسحة من الجمال.

(٢) يريد (بالكفاح) حركة الأحياء، واضطرابَهم في أمر المعاش. وهو تنازُعُ البقاء.

(٣) العربدة: حركةُ السكران. فشبَّه الأحياء بالسكارى، والشمس بالراح وهي الخمر، لأن لها تأثيراً في اضطرابهم بل في كل الوجود.

(**) أصاب الشاعرُ في هذا التشبيه المحزن. فلولا الواقع النفسي المترديّ، وقسوة الحياة عليه، لفَسَد التشبيهُ، لأنه لا تتفق صورةُ الليل الحالك ولآلئ النجوم التي تضيء ظلماته، مع نعش الموت تكلِّمُه الزهورُ من كل الجهات.. هناك حياة وهدوء ورؤى شاعرية، وهنا موت ورهبة وجلال.

وقال في شمس الربيع:

[من مخلع البسيط]

أصبحَ نَبْتُ الرُّبى فَطيما ... لمَّا مَضَتْ أشهرُ الرِّضاعِ[1]

وما أرى ذا الربيعَ إلَّا ... «مهندسَ» الحُسْنِ والطباعِ

زيَّنَ قصْرَ الهوى، وقصْرُ الـ ... ـهوى من الدهر في انصداعِ

ففضَّضَ الليلَ بالدراري ... وذهَّبَ الصبحَ بالشعاعِ[*]

* * *

وليلةٍ بدرُها ابتسامٌ ... كأنه موعدُ اجتماعِ

بِتْنا فكانت لكل واشٍ ... كأنها نوبةُ الصداعِ

من قُبْلَةٍ مِنْحَةً وأُخرى ... لِطاعةِ الدَّلِّ بامتناعِ

كوردةٍ فتَّحتْ وضمَّتْ ... بغيرِ صوتٍ ولا سَماعِ

والليلُ مثلُ لسفين باتتْ ... يَهُزُّها الموجُ لاندفاعِ

فلم تكن ساعةٌ وأُخرى ... حتى أتى الفجرُ بالشراعِ[2]

ولاحتِ الشمسُ مِنْ بعيدٍ ... كأنها قُبلةُ الوداعِ

❁ ❁ ❁

وقال في الياسمين السارق:

[من الخفيف]

لاحتكامِ الهوى غناءُ الحمامَهْ ... أقعدَ الغصنَ في الرُّبَى وأقامَهْ

كتَبَ الروضُ في الطبيعة شِعراً ... ليس يَدري غيرُ الحَمام نظامَهْ

فهو إن تَبْدُ صفحةٌ من غمام ... هَزَّ من أغصُنِ الربى أقلامَهْ

تسألون النسيمَ كم ذا يُحَيِّي ... وغصونُ الربى تَرُدُّ سلامَهْ!

هيَ مُذْ قيل أشبهتْها قدودٌ ... لم تَجِدْ غيرَ حسرةٍ ونَدامَهْ

ما تَرَوْنَ النسيم صار مُقيماً ... كلَّ يوم، على الغصون «قيامَه»

* * *

أيها الروضُ قد أسأتَ مُحِبًّا ... كان قِدْماً يَبُثُّ فيكَ غرامَهْ

---

(١) أشهُرُ الرضاع هنا، هي أيام الشتاء لما فيها من المطر.

(*) فضَّض، بمعنى ألبسه الفضَّة، وهي هنا أضواء الكواكب الدرِّيَّة.

(٢) الشراع: كناية عن الصباح. وهي من ألطف أنواعها.

هجرتْ من يحسبها الزهرُ لمَّا ... سرقَ الياسمينُ منها ابتسامَةْ(*)

❁ ❁ ❁

وقال في بزوغ الفجر:

[من الرمل]

فاض سيلُ الشرقِ حتى جَرَفَتْ ... موجةُ الصبحِ عن الأرض الظلاما

ثُمَّ لمَّا داهمت أعْيُنَنَا ... سَبَحتْ فيها وأغرَقْنَ المناما

❁ ❁ ❁

وقال في القلب المُتعَب:

[من المديد]

ليَ قلبٌ كلُّه صدأٌ ... من غبار الهَجْرِ والمِحَنِ

فيهِ من صَدْعِ الهوى أثَر ... هو باب الهمِّ والشَّجَنِ

أغرقَتْه الحادثاتُ إلى ... أن رماهُ شاطئُ الزمنِ

* * *

مَن لعيني أن تُلمَّ بها ... خُلْسَةٌ من غفلة الوَسَنِ(**)

أَشتكي فيها بلا عَذَلٍ ... وأُريحُ النفسَ من بدني

ليت شعري ما أفدتُ إذا ... قَصَفَتْ كفُّ الهوى غُصُني

بعتُ أيامي بلا ثمنٍ ... واشتريتُ الموت بالثمنِ

❁ ❁ ❁

وقال في مَطْرَة من مَطرات الخريف:

الروضُ ظمآن بأنفاسنا ... لذاك هذي السحْبُ ترويهِ

والصيفُ قد مات وراحوا به ... فتلك عين الشمس تَبكيهِ

ولاح شِعري في خُدود الهو(ا) ... فلَعْلَعَ الرعدُ ليُلقيهِ(١)

(*) في البيت صياغة ملتوية، فلا يسوغُ تأنيثُ «الزهر» هنا؛ ولا معنى لسرقة الياسمين ابتسامه منه، أو منها..

(**) الخُلْسةُ: ما يُسْتَلبُ نُهزةً ومخادعةً.. والوسَنُ، النعاس. يتمنى زمناً تغفل فيه الحياة عنه فيخلد إلى نوم خاطف فتستريح نفسه ويهدأ قلبه!

(١) يريد بما (لاح في خدود الهواء): قوسَ قُزح. وشبهها بالشِّعر، لأن كليهما ألوانٌ وخيالات؛ وإن كان ذلك في أحدهما حقيقةً وفي الآخر مجازاً. وهذه القوس تظهر متى كان في استقبال الشمس سحابةٌ ممطرة، وكانت الشمس بقرب الأفق، والناظرُ مستدبراً لها. وعلةُ ظهورها =

وهند قد عابتْ جبينَ السما ... فجرَّتِ الغيمَ لتُخفيهِ
وكلَّما افترَّ لنا ثغرُها ... تلألأ البرقُ ليَحكيهِ
يا هندُ ما الحسْنُ سوى صفحةٍ ... من دفترِ الغيب وما فيه

❁❁❁

وقال: في قلبي، وهي فنون من الوصف:

[من الطويل]

خواطرُ في قلبي يُضيء بها الفكرُ ... أشعَّتُها في كل مُنبَثَقٍ، فجرُ(*)
لها رونقٌ من حكمة العِبَرِ التي ... تسامتْ بها الدنيا أوِ انحدرَ الدهرُ(**)
كما مِن شعاع الشمس، والريح، والندى ... تناولَ سرَّ الحسن في أرضِهِ، الزهرُ(١)
جلوتُ على الأيام أسرارَ وَحيها ... بوصفٍ يقول الناسُ إنَّ اسْمَه الشِّعرُ
تجسَّمَ فيهمْ لفظُهُ وتحكَّمتْ ... معانيه حتى ذاك دُرٌّ، وذي سِحْرُ
إذا قلَّبُوا في شَطْرِ بيتٍ عيونَهم ... تَنزَّلَ من وَحيِ القلوب لهم سَطْرُ
وما عَرفوا من خُدعة السحر عندَها ... أقَطْرٌ على زهرٍ هنالك، أم سطْرُ؟
كأنَّ يَراعي مِن أشعة «رُنْتجٍ» ... يُري مِن وراء الحِبر ما سَتَر الحِبرُ(٢)

= انعكاسُ أشعة الشمس عن قطرات المطر المتساقط من الجوّ، بعد انكسارها فيها، وانحلالها إلى ألوانها السبعة: وهي الأحمر، والنارنجي، والأصفر، والأخضر، والأزرق، والنيلي، والبنفسجي. ويظهر اللونُ الأحمر في أعلى القوس، ثم يكون ترتيبُ سائر الألوان على ما ذكرنا. وقد تكون تلك القوسُ اثنتين، فيكون ترتيبُ الألوان في الخارجة، على العكس، أي: من البنفسجي في أعلاها إلى الأحمر في أسفلها.. وفي كل ذلك كلام طويل.

(*) المُنبثَق، هو كل فوّهة يندفع منها شيء كماء الينابيع والسيول، وهو أيضاً كل فجوة يخرج منها الضوءُ.

(**) الرونق: الصفاء والحسن الباهر.

(١) يقول فلاماريون، أكبر علماء الفلك، إنَّ الأرض كلها لا تتناول من أشعة الشمس، وهي ذلك البحرُ الناري الهائل، إلّا نصف جزء من مليار (ألف ألف مليون) جزء. وهذا النصفُ على صغره، أعظمُ من مجموع قوةِ ما يُحرقه كلُّ أهل الأرض، في سنة كاملة.

(٢) رنتجن، هو صاحب هذه الأشعة المعروفة باسمه، وهي أشعة تخترق الحجُبَ الكثيفة، فتُظهر للعين ما وراءها؛ لا يَقف في سبيلها شيء. وتتألف من بطّارية يصدرُ عنها مجرى كهربائي قوي الفعل، وبعضِ أنابيبَ على وضعٍ خاص، مغطاة بغلافٍ من المقوى الأسود الدقيق، موضوعٌ تجاهها ورقةٌ مغشاةٌ بمحلولٍ معروفٍ؛ فتتألق هذه الورقةُ بضوء ساطع وهّاج، مصدرهُ المجرى الكهربائي في الأنبوبة. وهذا الضوء يَتخلَّل الأجسامَ. وشرحُ تركيبها وكيفيةُ الإدراك بها طويلٌ، وهي مبنية على أشعة تعرف في العلوم الطبيعية «بالأشعة القطبية الإيجابية». وهذه ناشئة عن تفاعل كهربائي.

بلفظٍ ترىٰ معناه من قَبْلِ لمحِه ... كما فاح من زهر على غُصْنِهِ العِطرُ
تَهاداهُ أهواءُ النفوس كأنه ... من الدهر، للنفس، التي ساءها، عذرُ
وما كلماتي غيرُ نبضِ العُلَىٰ وما ... لساني إلّا قلبُها وهي الصَّدْرُ
أعدتُ نشاطَ الدهر بعدَ مشيبِهِ ... فقد بات مختالاً وطُرَّتُهُ البدرُ
فقولوا لحسَّادي على بُعْد بيننا: ... تَظنُّون أنَّ السحب فوق السما جِسْرُ
فإن يك في هذي العصافير طائر ... هِجَفٌّ، فما شاءوا سوى اسمِكَ يا نسرُ[1]
ولي كلماتٌ، لو يطيرون مرة ... لأمسَتْ، ومنها كل قافية، وَكْرُ[2]
ولكنهمْ إن يَصعدوا يتسفلوا ... دوالَيْكَ ذا شبرٌ، وذلكُمُ شِبْرُ[3]
صِغارٌ على كِبْرٍ، وشرٌّ فضيحةٍ ... وسخريَّةٍ، طفلٌ صغيرٌ به كِبْرُ[*]
على أنها من سُنَّة الكون لم يَزَل ... يُضايِقُ مِن خَلْط التراب به، التبرُ

* * *

وفي القلب مني لوعةٌ لو تخلَّصتْ ... من الصبر يوماً واحداً قُتِلَ الصبرُ
وفيه، وكم فيه من الحب والجوى ... فذاك له أمر، وهذا له أمرُ
وفيه من الآمال ما العمرُ دونَهُ ... فلا سَعْدَ إلّا أن يُزاد لنا عُمرُ
وفيه من الأيام ماضٍ مكفَّنٌ ... بدمعي عليه من طفولته قَبْرُ
وفيه وما فيه، وذا الدهرُ لم يَزل ... يَعدُّ علينا موجةً وهي البحرُ
على أنني لم أُفرِغِ الهمَّ كلَّه ... ولكنَّه نَزْرٌ، وقلَّ له النزْرُ[**]
تعلَّمتُ لطْفَ الوصف من لغةِ الهوى ... ففيها جنونُ القلب قيل له الهَجْرُ

❁ ❁ ❁

---

(١) في القاموس، الهِجَفُّ: الظليمُ المسنُّ. وقد حصره في هذا النوع؛ ولكنَّ بعضَ العرب استعمله للنسر، واستعمله الشاعر هنا في العصافير لمكان النكتة.

(٢) ضمَّن «الوكْر»، وهو العش، معنى القفص.

(٣) دواليك: أي مداولة.

(*) وفِّق الشاعر في وصف حسّاده، كما في وصف شعره ومقامه العالي. ويبلغ المقام ذروته في البيت الذي يتحدث فيه عن (كلماته وطيران الحساد إليها أو حولها)؛ فقد جعلها بعيدة المنال، وأن كل بيت قد امتنع في وكره في أعالي الجبال، لا تبلغه أقوى النسور، فكم بالحري «الزعانف» على حد قول المتنبي في حسّاده!! ولستُ مع رأي محمد الرافعي في تضمين الوكر معنى القفص. إذ جعل كلمات الشاعر وقوافيه سجينة.. وهي أبعد من أن يحتويها قفص أو يدانيها من يشاء من الحساد.

(**) النزرُ، من الأشياء، القليل جداً.. وما ذكر عن لواعج قلبه ووجدانه، غيضٌ من فيض، كما يقال.

وقال، يصف نور الكهرباء:

[أرجوزة]

يـا آيـةً فـي صـفـحـة الـلـيـالـي
مـن سُـورة الـكـوكـب والـهـلالِ
أقـام مـنـكِ شـاعـرُ الـجـمـالِ
تـتـمـةَ الـدلـيـل لـلـعُـذّالِ(*)
عـلـى الـقـلـوب وعـلـى الآمـالِ
فـأنـتِ لـلـعـاشـق فـي الـمِـثَـالِ
أشـعـةٌ، لـكـنْ مـن الـدلالِ
فـي ظـلـمـة الـهـجْـر أو الـمَـلالِ
بـل أنـت عـنـدي شـعـلـةُ الـخـيـالِ
تـمـثَّـلـتْ مـن رونـق الـجَـلالِ
فـي قـطـعـةٍ مـن صـفـة الـمـعـالـي
أو مَـثَـلٍ يَـسـيـرُ فـي الأمـثـالِ
أو دمـعـةِ الـهـجـر عـلـى الـوصـالِ
وأنـت مـا بـيـن الـزمـان الـخـالـي
وبـيـن آيـات الـزمـام الـحـالـي(١)
وبـيـن مـا يـأتـي فـي ٱلإسـتـقـبـالِ:
مَـعـنـى الـرجـا فـي لـفـظـةِ الـمُـحـالِ

❁ ❁ ❁

(*) العذّال، جمع عاذِل وعَذُول: اللوّام.

(١) يشير إلى أن اختراع مثل هذا النور وغيره، من باقي الاختراعات، كان كالمُحال في الزمن الماضي. وهو اليوم من السهل. فلا يبعدُ أن يتحقق المحالُ عندنا في الزمن الآتي على هذا القياس.

وهذا فصل[1]
من كتابه «ملكةُ الإنشاء»

بعثَ بِهِ لصديقِهِ الأديب الياس أفندي العجان أحد الصيادلة، وكان استبدل نورَ الغاز بالكهرباء، في المكان الذي هو فيهِ، ثم كان يعبثُ باللولب كلما زارَه صديق، فيُطفئ النورَ فجأةً، ويَبْعَثُهُ فجأةً لدعابةٍ فيهِ. قال:

ما هذا؟ صرفَ اللّه عنك شدةَ البياض، في غير الأعراضِ. أسَئِمْتَ الليلَ فأذْرَيتَهُ(*) صُبْحًا، وأورَيْتَه قدْحا(**)؟ أم زهِدْتَ في السواد، لغير الحِداد؛ وللعيون والأهداب، لا الفنون والآداب؟ فأطلَعْتَ من سقْفِك الكواكبَ تتألقُ، كالعيون السواكب تتدفق؟ وعِفْتَ تلك المصابيح، وهي كالحظ تميل مع الريح؟ فإنْ كنتَ أشفقتَ أن تطول ألسِنتُها فتُسوِّدَ عرْضَ الحائطِ، فإنَّ قطْعَ اللسان، بالإحسان لا بالهجرانِ. وما الذي جنَتْه، عفا اللّه عنكَ، حتى تُجفِّفَ من الهجر لَهَوَاتِها(***)، وتأخذَها بغير هفواتها، وتطرحها جانباً، وتنأى عنها مغاضباً؟ فلا كلمةٌ مواساةٍ تُطفئ من لوعتها حتى ولا «أفّ»(****)، ولا نفخةٌ من صدرك إلى صدرها، تُخفِّف من حَرِّها. ولا عنايةٌ من أمرك بأمرها، تَجْبُر مِن كَسْرها. وهل عميَ الليلُ وسألك العلاجَ، فتضعَ له أعيناً من زجاج؟ أم سألك الناسُ آية تَخرقُ العادةَ فمثَّلْتَ لهم بعدَ الغروب، الشروقَ؟ أم انتجعَ غيثُك بعض المُجْدِبينَ، فخيّلت له البروق، وما أشك أنك أمسيت تحاول تجزئة القمر، فتكونُ منك لكل أمة، «فِلْقَةٌ» إلى آخر العمُر.

لا أعجبُ واللّه، من فرعونَ حين قال: هذه الأنهارُ تجري من تحتي. إلّا أنتَ حين تقول: هذه النار أجري من تحتها. وليتني أعلم أهي استعارةٌ أم مجاز؟ ومن

---

(١) رأينا أن ننشر هنا هذا الفصل، لمناسبتهِ القطعة السالفة في وصف الكهرباء.

(*) أذْرى، رباعي، من [ذَرا]، بمعنى: فَرّقَ الشيء في الهواء.

(**) أوراه قَدْحاً، أخرج ناره لهباً.

(***) اللهوات، واحدتها لَهَاةٌ: اللحمة المشرفة على الحَلْق. شبَّه لسان السراج بها.

(****) «أفّ» هنا، صوتُ النفخ الذي يُطفأ به السراج.

مناهل الغاز أم من مسائل الألغاز؟ وكأني بأصابعك، وقد عرفَتْ أن لهَا خواتمَ في الهواء؛ فهي تلعبُ بها كيف تشاء. مرةً تُحبِّب لجليسك العمىٰ، وتتركه لا إلى الأرض ولا إلى السما «بأسفه ليل كلما شئت أظلما»؛ ومرةً تُذكِّره بيوم النشور[1]، فتبعثُ عليهِ النورَ، بعد أن يكونَ في ظلمة القبور.

هذا، على أنَّ كواكبك من الزجاج، لا من الأَبراج، فكيف لو كنَّ، كما لا تظن؟ أكنتَ تبتلعُ الشمسَ، لتقول: أنا اليومُ والأمسُ؟ أم كنت تلف الأرض بالأرضِ، لتنزل علينا آية: ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ ....﴾[2]؟ وإني لأَنتظرُ لك ليلةً يَخفتُ فيها زفيرُ الكهرباء، فينقطعُ بعضُ الأسلاك، ويقع وحشُ الظلمة في تلك الشباك. هنالك إذا استوحَشْتَ فرفعت رأسك، غنَّتك القناني لا القيان، وترامت على قدميك تُفدِّيك بدمائها المختلفة الألوان. وإذا مدَدْتَ رِجْلَكَ إلى الباب، ليكشف لك النقابَ، ويُميط هذا الجلبابَ[*]، حَسِبَك تُحَيِّيهِ فحيَّاك، وأبىٰ، أدام اللّهُ عليه العافية، إلّا أنْ يُقَبِّلَ جبينَك ويلثِمَ فاك. وربما مدَّ ذراعَه إلى الطوق، والظلمةُ تدعو إلى شدة الشوق، فيظنُّه عناقاً، وتَظنُّه خناقاً. ثم تَلتمسُ المخرجَ فتحسَبُ الحيطانُ، أنك تسأُها الحَنان، فتضمُّك إشفاقاً إلى صدرها، وتأخذُ رقبتَك لنحرها. وهكذا مِن حبيب إلى حبيبٍ، ومن نصيبٍ في هذا الهوى إلى نصيب حتى يُوَفَّى الكيلُ، ويُكشَفَ عنك الغطاءُ فتُبصِرَ آيةَ الليل. والسلام.

❁❁❁

---

(١) يوم النشور هو يوم قيامة الناس من أجداثهم ليُلاقوا حسابهم أمام الله.

(٢) هنا سجعات أهملناها لأنها مما تقتضيه المداعبة.

(*) الجلْبابُ: الثوب يشتمل على الجسد كله.

في الغَزَل والنسيب

قال في مراجع حبه وزفرات قلبه:

[من الطويل]

أرُونـي سـوى دارٍ هـنـالـك مَـغـهـدا ... فـأصـرِفَ هـذا الـقـلـبَ عـمَّـا تـعـوَّدا!

وهـل غـيـرُ واديـهـا يـرِقُّ نـسـيـمُـه ... وتـشـربُ أزهـارُ الـغـرام بـه الـنـدى؟

إذا خطرتْ منه على القلب نفحةٌ ... تـوهَّـمـتُـهـا مـن شـدة الشوق، موْعِـدا

وأعـشَـقُـهُ حـتـى لأَخـسَـبُـنِـي أرىٰ ... بـأشـجـاره مـن لـذة الـوجـد حُـسَّـدا

هـنـالـك لا شـكـوى سـوى قُـبَـل الـهـوى ... ولا عـتـبَ إلا صـوتُـهـنَّ مـردَّدا

هـنـالـك دارٌ قـدَّس الـحـبُّ أرضَـهـا ... فـكـلُّ فـؤادٍ فـي ثـراهـا تَـعـبَّـدا

تُـضِـلُّ بـمـا فـيـهـا مـن الـحُـسْـن والـهـوى ... وتُـهـدي بـمـا فـيـهـا مـن الـطـهـر والـهـدى

فـمـا هـبَّ مـنـهـا الـريـح إلا مُـعَـطَّـرا ... ولا مـرَّ فـيـهـا الـطـيـرُ إلَّا مُـغـرِّدا

ولـي عـنـد أهـلـيـهـا فـؤادٌ أقـمـتُـه ... عـلـى نـور هـاتـيـك الـكـواكـب مِـرْصَـدَا

ولـكـنَّ فـي مـرآتـه صـدأَ الأَسـى ... ولا شـيء إلا ريـقُـهـا يُـذهِـبُ الـصـدا

نـفـورُكِ يـا حـسـنـاءُ غـشَّـى قـلـوبَـنـا ... ومـا الـحـزنُ إلا ظـلُّ هـجـركِ والـردى

وحـيَّـرَنـي فـي الـحـب قـلـبـي كـأنـه ... صـغـيـر تـغـاضـى أهـلُـه، فـتـمـرّدا(*)

إذا مـنـعـوه لـم يـطـيـقـوا بـكـاءَه ... وإن أرسـلـوه فـي هـواه تـعـوّدا(**)

فـيُـرضـونـه طـوعـاً وكـرهـاً لـحـبـه ... ويُـتـعـبـهـمْ فـي حـبـه مـتـعـمِّـدا

فـداؤكَ يـا لـيـلَ الـرضـا الـعـمـرُ كـلُّـه ... وقـلَّ شـبـابـي أن يـكـون لـك الـفِـدا

فـمـا لـك لا تُـلـقـي عـلـى الـدهـر نـظـرةً ... كـأنـك قـد أمـسـيـت يـا لـيـلُ أرمَـدَا؟

أرى كـلَّ لـيـلٍ يـنـتـهـي عـنـد حـدِّه ... ولـيـلُ الـجـفـا يـمـضـي مـع الـهـجـر سَـرْمَـدا(***)

(*) أي: تغاضى أهله عنه، فسكتوا عما يقوم به من تجاوزات.

(**) تعوّدا، أي جعلَ سلوكه الحرّ في انطلاق الهوى، عادةً لا يسعه الإقلاع عنها.

(***) السَّرمدُ: الدائم الذي لا يزول.

وما انعكسَ الدهرُ القديم لهجرها فطال ولكنْ كل همي تَجدَّدَا
فأنسى بغمِّ اليوم يوميَ كلَّه وألهو بهمِّي في غدٍ ناسياً غدا
مضى زمنٌ عيناه قلبي وقلبها وأصبح في قبر الليالي مُوَسَّدَا
وهذا زمانٌ مُمسِكٌ بيد الجفا ولو لم يكن أعمى لما أمسكَ اليدا
فأين ليالٍ كنَّ إنْ مرضَ الهوى سرَيْنَ له من جانب الوصل عُوَّدَا(*)؟
وأين نسيمٌ كان إنْ حفَّ حولنا تناثر في جوّ الرياض تَنَهُّدَا(**)؟
فإنْ مَسَّ قدَّ البان أرقصهُ هوًى وإنْ مسَّ خدَّ الزهر فيها توردا
ألَا إنما هذا التنهدُ حيرةٌ أضلَّت فؤاداً مؤمناً فتشهدا(١)
أو الحَسَراتُ الفاجعاتُ لمهجة ضغَطْنَ على هَمٍّ بها فتصعَّدا(***)
أو الحزنُ في صدر الشجيِّ وقد طغى على خاطر في نفسه فتبدَّدا
أو الروحُ قد ضاقت، فهمَّت، فأرسلتْ لها نَفَساً يُبقِي الطريق ممهَّدا
وإلَّا فصوتُ القلب مَسَّتْهُ فَرحةٌ كما أطفأوا بالماءِ جمراً توقَّدا
فيازمني أمْلِ الهوى لأَخُطَّهُ وأوحِ إلى قلبي الغرامَ لأُنشِدا
فلستُ أرى أن تنقضي بسوى الهوى ولستُ أرى أن تنقضي في الهوى سُدى

۞ ۞ ۞

وقال يعارض بيتي عنترة المشهورين في هوس الشوق وحماسة الوجد(٢):

[من الكامل]

ولقد ذكرتُكِ يائساً فكأنما ذِكْراكِ مصباحٌ لقلبي المظلمِ

(*) العُوَّدُ (فُعَّل)، جمعُ عائد وعائدة: الزائرون في المرض.
(**) حفَّ، أحدث صوتاً خفيفاً في سريانه وهبوبه، هو الحفيف.
(١) التشهد: قولُ: أشهدُ أن لا إله إلا اللّه. وعادةُ المؤمن إذا قالها أن يمد صوته في المَدّ الأول الواقع في لفظة «لا»، حتى يشعر بها كأنها خارجة من قلبه.
(***) قوله «أو الحسرات» معطوف على «حيرةٌ» في البيت السابق. كأنما أراد: ألا إنما هذا التنهد حيرةٌ، و(حسرات) و(حزن) و(روح) معه مما سيرد في الأبيات التالية. و«التصعُّدُ» في البيت: إخراج النفَس من الصدر ممزوجاً بالتأفف والتروُّح.. من هنا القولُ: «تنفُّس الصعداء».
(٢) البيتان المشهوران لعنترة هما:

ولقد ذكرتُك والرماحُ نواهلٌ مني وبيضُ الهند تقطُر من دمي
فوددْتُ تقبيل السيوف لأنها لمعتْ كبارق ثغرك المتبسمِ

ويقال إنهما منحولان له.

بخواطرٍ غُسرٌ تسيلُ كأنها ... ضحكاتُ ثَغرِكَ للمحبِّ المُغرَمِ
هزَّتْ دمي حتى لَخَيَّلَ لي الهوى ... أنَّ القلوبَ إذاً ستُخلَقُ من دمي

❁❁❁

وقال في معجزات الحسن والجمال:

[من الطويل]

أُحبُّ التي لم أخْلُ من هَجْرِها ولا ... خَلا هجْرُهَا لي، من عَذولٍ ولائمِ
نَبِيَّةُ شَرْعِ الحُسْنِ؛ من معجزاتها ... لمن عَذلوا، إنطاقُها للبهائمِ[1]

❁❁❁

وقال في وحدة الحب:

[من السريع]

تقولُ إنّي مُشركٌ في الهوى ... يا هندُ هل يهوى الفؤادُ اثنتينْ؟
الحبُّ طفلٌ أنتِ أمٌّ لهُ ... والطفلُ لا يولدُ من مَرأتينْ!

❁❁❁

وقال في بدعة الهجر:

[من المجتث]

وَشَوْا إليكِ ولمّا ... رأوا جفاءكِ قالوا[*]
وعرَّضُوا بيَ حتى ... إذا صغيتِ أطالوا
لا بِدْعَ إن حَسُنَ الهَجْـ ... ـرُ وهو منكِ دَلالُ[2]
لونُ السحائبِ كالطيـ ... ـنِ وهْيَ ماءٌ زلالُ

❁❁❁

(١) لابن حزم: الحُسْن شيء ليس له في اللغة اسمٌ يُعبِّر به عنهُ، ولكنهُ محسوسٌ في النفوس، باتفاق كلِّ من رآه. وهو بُردٌ مكْسوٌّ بهِ الوجه، وإشراقٌ يستميلُ القلوبَ نحوه، فتجتمعُ الآراءُ على استحسانِه، وإن لم يكن هناك صفات جميلة، فكلُّ من رآه راقهُ واستحسنهُ وقَبِلَه، حتى إذا تأملْتَ الصفات أفراداً، لم ترَ طائلاً، وكأنهُ شيءٌ في نفس المرئي يجده في نفسِه الرائي. اهـ.
وقيل: الحسْنُ يُلاحِظُ لونَ الوجه، والجمالُ يلاحِظُ صورةَ أعضائِه، والمَلاحةُ تعمهما جميعاً. والمرادُ (بالبهائم) في البيت، العذال، أنفسُهم. وإنطاقُ البهائم من آيات النبوّة.

(*) «قالوا»، بمعنى، توسّعوا بالوشاية وأسهبوا في القول.

(٢) يقال: إنَّ الهجر أربعة أنواع: هجرُ ملالٍ، وهجرُ دلالٍ، وهجرُ مكافأةٍ على الذنوب، وهجرٌ يوجبهُ البغضُ المتمكنُ في القلوب.

وقال في بعض أنواع الحب، وهو ما لم يكن فيه لقاء:

[من الطويل]

يَبيعُ الهوى صبري ونومي بلوعةٍ وسُهدٍ، ولا أدري إذنْ أينَ سُوقُهُ؟
ويقتادني شرْقاً وغرباً ولم أزل أُسائلُ نفسي: أين تُفضي طريقُهُ؟
أُحِسبُ ولا أدري، وأدري ولا أعي وإن أَعِ لا أَسلُو، ولستُ أُطيقُهُ
ومَنْ غمَرَتْه لُجَّةُ البحرِ غمرةً، فطاح بها، لم يَغْنِه ما عميقُه(*)
وما لوعتي أني أموتُ بلوعتي ولكِنْ مقالُ الناس: ذاك عشيقُهُ
وكم «فَلَكِيٍّ» في الهوى سائلٍ إذا رأَىٰ مغربي من أين كان شُروقُهُ[1]؟
نموتُ وذاكَ الحسْنُ يَجهلُ ما بنا وهيهاتَ يدري البحرُ: أيٌّ غريقُهُ!

❁ ❁ ❁

وقال في حسناء عاذلة:

[من مشطور البسيط](**)

العَذْلُ من ثِقْلِهِ للقلب لم يَنْزِلِ
واللحظُ من لُطْفِهِ قد حلَّ في المَقْتَلِ
يا ربةَ الحسْنِ ما في الحسْنِ أن تَعْذلي
لِلكفِّ قُفَّازُها والنعلُ للأرجلِ[2]

❁ ❁ ❁

وقال في شدة النحول:

[من الطويل]

تقولُ: أَما تَرضىٰ مع الحب والجَفا بأنك حَيٌّ، والحياةُ كثيرُ؟
وكلُّ الذي أبقاهُ مني غرامُها بقيةُ نومٍ في الجفون تَطيرُ
كأنّيَ مِن «غاز الإنارة» في الهوى فبينا يَرى غازاً، إذا هو نُورُ

❁ ❁ ❁

(*) طاح بها: تاه في اليمّ وهلك.

(١) كنى بفلكيِّ الهوى، عن العاذل المتطفل. والمراد بالمغرب: مغرب الحياة. «ومن أين كان شروقه» أي: من أي أفق ظهر هذا الحب؟

(**) يمكن اعتماد بحر البسيط بتمامه، إذا جمعنا الشطرين الثاني مع الأول، في كل سطر شعري.

(٢) المراد أنَّ العذْل لا يناسب الحسْن، لأن مِن الحسْن حُسْنَ الكلام، كما أن النعل لا تناسب الكف مثلاً. والقفازُ هو ثوب الكف الحريري، وقد يكون من الجلد الرقيق.

وقال في ندى الغرام:

[من الوافر]

بكَتْ في روض أحزاني وحبي ... بأطهرَ من ندى زهرِ الربيعِ
وكانت فيَّ عاطفةُ التصابي ... فقد مُزجت بعاطفة الخشوعِ
وكنتِ رمَيْت في قلبي بسهم ... فهذا آخَرٌ بين الضلوعِ
دموعُكِ في الحياة ندى غرامي ... وإن كانت تسمَّى بالدموعِ

❁ ❁ ❁

وقال في تراتبية درجات الحب:

[من مجزور الرمل]

إنما الحب لِحاظٌ ... فائتسلافٌ، فهُيامُ(*)
غيرَ أنّي في هواها ... نظرةٌ عندي غرامُ(1)

❁ ❁ ❁

وقال في الغانيات المتفرنجات:

[من الخفيف]

قائماتٌ يَمِسْنَ بالقاماتِ ... هزَّهُنَّ الغرامُ للغاراتِ
فنَصَبْنَ اللحاظَ جِسْراً إلى النَّفْـ ... ـس، وأرسَلْنَ فَوقهُ الحسَراتِ
وجعلنَ ابتسامهنَّ نوراً إلى القلـ ... ـب ليكشفْنَ عن مقرِّ الحياةِ(**)
كلُّ هيفاءَ إن مشتْ عقدَ الحبُّ ... عليها جوًى من النَظَراتِ
وإذا ما تمايلتْ بَسَطَ الحسْـ ... ـنُ بساطاً لها من المُهَجاتِ
علمَ اللّهُ ذُلَّنا في هوانا ... ودلالَ الأوانسِ الفاتناتِ
فجميعُ الوجود لم يَخْلُ من ذكـ ... ـرى عذابِ المُحِبِّ للغانياتِ.
فهْيَ أنّى صغَتْ يذكُرُها الطيـ ... ـرُ من العاشقين بالآهاتِ

(*) أشار الشارح في الحاشية الآتية، إلى بعض مراتب الحب. ونضيف نحن إلى أن العرب قسموا هذه المراتب إلى اثنتي عشرة مرتبة، أولها: الهوى، وآخرها: الهُيُوم. مروراً بالعشق، والشغَف، والجوى، والتَّيم، والتبل، والتدليه (انظر: **فقه اللغة وأسرار العربية**، لأبي منصور **الثعالبي**، بعنايتنا. المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت سنة ١٩٩٩، ص ٢١١).

(١) جعل بعضُهم الهيامَ مرتبةً من مراتب العشق، بعد الوله، والولَه بعد الشغف، والشغفَ بعد الوجْد، ثم هذا بعد غيره، إلى النظر الذي هو سبب الحب. والغرام أشدها. وكل هذا تقسيم نظري.

(**) في صدر البيت خلل عروضي واضح. لم نحسن إصلاحه.

وهْيَ أنَّى تلفَّتَتْ مثْل الأُفْـ ـقُ لها من بريقه الزفراتِ
ليس خفقُ الأقدام منهن في الأر ض لهذا الثرى، سوى قُبُلاتِ
ليس نورُ النجوم والأُفقُ مِرْآ ةٌ لتلك الدمى، سوى بسمَاتِ
«أَلِفَاتٌ» فإنْ جرَرْنَ ذيولَ الـ ـوَشْي تيهاً رأيتها «لا ماتِ»[1]
وهُما حالتان في الحُسنِ صارا لمُريد التعريف خيرَ أداةِ[2]
تَلبسُ القبَّعاتِ يا ليتها تَرْ حَم نفسي من فتنة القُبَّعاتِ
حكَتِ الرمحَ في القَوام فمال الر (م) يشُ فيها ليحكيَ الراياتِ
وكأنْ قد رأى النسيمَ عتابا فالتوى من قساوة الهاجراتِ
زيَّنَتْها بزُخْرفِ الوشْي مما قلَّدتْهنَّ من بنات النباتِ
فهْي عشُّ القلوبِ تَسْكُنُ فيها بين مِثْل الثغور والوجَناتِ
ولهذا يقال فِينا: «على الرأ س» إذا ما أُجيبَ ذو الحاجاتِ
كم تَجَنَّى التي أَحَبَّ وعندي أنَّ بعض العصيان كالطاعاتِ
إنْ رأَتْنِي يدُقُّ ناقوسُ قلبي من جفاها كدَقَّة الأمواتِ
فهْي ظلمةَ الليالي إذا ما غشَتِ الأرضَ والسما هفَواتِي
أوَ ليس الظلامُ يَعْقبُه الصبـ ـح وتُمحى الآياتُ بالآياتِ؟
غيرَ أني لو كانتِ الشهبُ أقلا مي وكان الظلامُ حِبْرَ دواتي
ووصفتُ الذي أقاسي من الحب (م) وكان الوجودُ من صفحاتي
لانطوى الكونُ ثم أبصَرْتُ في آ خِرِ أوراقه «البقيةُ تأتي»[3]

❁ ❁ ❁

وقال فيمن تُستحسَنُ تشبيهاتُه:

[من مجزوء الرجز]

قالت أرى تشبيهَه يَنْتهِيْ بأمري في النهى(*)

---

(١) الألف هي الخط القائم، واللامُ هي ألف قائمة ولكنْ لها ذيلاً. وأكثرُ الناس يكتبهُ مسحوباً لا مقوّساً.

(٢) (ال) هي أداة تعريف. وفي لفظة التعريف هنا تورية جميلة. وقد جرتْ عادةُ العصر أن لا يتعرف الحِسان على أحد إلا وهنَّ «كاللامات» التي وصفها الشاعر.

(٣) هذه الكلمة وهي (البقية تأتي) من مبتذل الكلام الصحافي، يضعونها في آخر كل مقالة لم تتم؛ ولكن الشاعر نقلها بهذا البيان، إلى درجة يحسدهُ عليها أرباب الصحف على ما نظن.

(*) النُّهى: العقلُ والرشاد.

فما لها قولوا لها جَزَتْ وصالي ضِنَّها(*)
كأنسها ما قلتُ فيها مرةً «كأنها»

⊛⊛⊛

وقال في فتاة متناهية الحسْن والجمال:

[من المتقارب]

رويداً رويداً نسيمَ الرياضِ وحاذرْ على قلب مشتاقِها
يُجَنُّ إذا أنتَ أذكرْتَه بضعفكَ رقّةَ ميثاقِها
وكيف وعُشّاقُها ما دَعوْكَ تَحمَّلُ عِلَّةَ عشاقِها(١)
فتاةٌ كمشبوبةِ الكهرباءِ جمالاً وسبحانَ خلّاقها
تراها خلاصةَ حُسْنِ الوجودِ إذا ما نظرتَ لإشراقِها
فيا مَن يُعذّب شمسَ السماءِ صباحَ مساءَ، بإحراقها(٢)
دَعِ الحُبَّ يكْسِرُ من قلبها ولو قدْرَ نَغْسَةِ أحداقها(٣)

⊛⊛⊛

وقال في يقظة اللاوعي:

[من مجزوء الرجز]

قلبي معي وقد نسيتُ أنه كان معي
يومَ نفضتُ أعيني مستعطِفاً، وأضلعي(٤)
وما وعيتُ مِن جَفا ها غيرَ أني لم أعِ
تميل إن أعرِضْ لها فأين أُلقي مطمعي(**)؟
كأنَّ كلَّ مَوضعِ تراه إلا موضعي

⊛⊛⊛

(*) الضِّنُّ: الحرص الشديد والبخلُ.

(١) يشير بهذا التمثيل إلى قولهم: نسيم عليل.

(٢) تظهر الشمس في الشروق وفي الغروب، كأنها محترقة وهي أم الجمال.

(٣) هذا الكسر مجازي. والمرادُ به التواضعُ. وفي الحديث الشريف: إنَّ اللّه مع المنكسرة قلوبُهُمْ.

(٤) نَفْضُ الأعين، هو البكاء. ونفضُ الضلوع هو إظهار كل ما تجنُّه من الحب وغيره.

(**) «تميل إن أعرض لها»: تُشيحُ بوجهها عني. «فأين ألقي مطمعي» أراد مشاعر الشوق والوصال والتجاوب. أي أين ترسو بي هذه المشاعر والخلجات؟

وقال في تمثلات حبيبه الخيالية:

[من البسيط]

أضرَّ بي الهجْرُ حتى ما يطاوعني وهمي، إذا ما توهَّمْتُ الفؤادَ سَلَا

وكلَّما قلتُ في نفسي: الحبيبُ رَضي تمثَّلَتْ شخصَه عيني يُشير «بلا»

❁ ❁ ❁

وقال يعارض المتنبي في غزل إحدى قصائده(١):

[من الخفيف]

عُذرها في الصدود للعشاقِ أَنها ما دَعَتْ إلى الأَشواقِ

وهي لم تَخْلُقِ القلوبَ ولا دلَّـ ـتْ عليها نواظرُ الأحداقِ

سائلوها فأين عقلُ السُّكارى أَسَقَاهم ليسرق العقلَ ساقي؟

إنما أنجم السَّماء تبعنَ الشـ ـمسَ قِدْماً لذلك الإشراقِ(٢)

تُظْهِرُ الحُسْنَ ثم تسألنا الغضَّ (م) فليتَ القلوبَ غيرُ رِقاقِ!

ذلكم وجهُها وكيف عن الديـ ـنارِ يُغضي مَن ضاق بالإملاق(٣)؟

ليس كل امرئ يرى المالَ في كفٍّ (م) غنيٍّ يُدعى من السُّرَّاقِ

صاغها اللّه مثلَ لؤلؤة البحـ ـر صفاءً وأنسجمِ الآفاقِ

وكما تشتهي: دلالاً وظَرفاً وجمالاً في سائر الأخلاقِ

ولكون الكمال لم يُعطَ للنا س، أتى قلبها بلا إشفاقِ

❁ ❁ ❁

وقال يصف قلبه في معمعة التغيير:

[من الطويل]

بقيَّةُ قلبٍ كيفما اهتاج لم يكنْ لخشيته الألحاظَ، غيرَ مقاتلِ

---

(١) هذه القصيدة هي التي يقول في مطلعها:

أتراها لكثرة العشاقِ تحسبُ الدمع خلقةً في المآقي؟

وهذا البيت أحسن ما فيها. .

(٢) يشير إلى ما يسمى بالنظام الشمسي، وهو مجموع الأجرام الفلكية التي لها حركاتٌ حول الشمس، وذلك على رأي كوبرنيكوس الذي ظهرَ في القرن الخامس عشر للميلاد أنَّ الشمسَ ثابتة، والسيارات تدور حولها على نظام خاص، وذلك كله بفعل الجاذبية، والأرضُ من جملة هذه السيارات، وهي تجيء بعد الزهرة التي هي بعد عطارد، ثم يجيء بعدها المريخُ ثم المشتري ثم زحل.

(٣) تشبيه الوجوه الحسان بالدنانير، تشبيه قديم. والإملاق: هو الفقر.

يـردُّ دَوِيَّ الـدهـر غـيـرَ مـفـزَّعٍ وتُـفـزِعُـهُ رنَّـاتُ هـذي الـبـلابـلِ
ولـو خـالـطـتْ سُـمْـرُ الأَسـنَّـة لـبَّـهُ لـمـا أثَّـرتْ فـيـه كـمـسِّ الأنـامـلِ
وكـم فـي الـهـوى مـن مُـعْـضِـلاتِ مـسـائـلٍ ومـا الـقـلـب إلَّا بـعـضُ هـذي الـمـسـائـلِ
فـقـد بـاد، لـولا هِـزَّةٌ فـي جـوانـحـي وقـد عـاد، لـولا ظـبـيـةٌ فـي الـمـنـازلِ[1]

❁ ❁ ❁

وقال في الحب الذي يكابد الظلم إلى الأبد:

[من البسيط]

هـو الـهـوى لا طـريـق لـلـنـفـوس بـه إلَّا الـتـي هـي بـيـن الـقـلـب والـكـبـدِ
ومَـنْ يُـحِـبُّ يَـجِـدْ غـيـرَ الـهـوى كـمـداً والـنـاسُ يـدعـون هـذا الـحـب بـالـكـمـدِ
كـم كـابـدَ الـحـبُّ مـن ظُـلـم الأنـامِ ولـم يَـزَل، وسـوف يـلاقـي الـظـلـمَ لـلأبـدِ

❁ ❁ ❁

وقال في هواجس التلفظ باسم الحبيب:

[من الخفيف]

لـكِ قـلـبـي فـمـا أرى الـحـزْنَ حـزنـاً إنْ تـغـيـبـي، ولا أرى الـلـهـو لـهـوا
كـاتـمُ الـشـوقِ والـمـحـبـون بَـعْـدِي كـلُّ نـفـسٍ ومـا تـشـاءُ وتـهـوىٰ
أَسـتـحـي أن أَبـوح بـاسْـمِـك فـي الـنـا سِ لـئـلَّا أقـبِّـلَ الاسْـمَ سَـهْـوا[2]

❁ ❁ ❁

وقال يذكر خواءه من الحبيبة:

[من الكامل]

يـا ويـلـهـا زَفَـرَاتِ صَـبٍّ مـا طـوىٰ صيـفَ الـشـبـاب، فـمـن لـه بـربـيـعِ؟[*]
سَـنـةٌ عـلـى سـنـة وشـهـرٌ بـعـدَه شـهـرٌ وأسـبـوعٌ عـلـى أسـبـوع
أَجِـدُ الـزمـانَ مـن الـسـعـود كـأنـه صَـكٌّ خَـلا مـن مـوضـع الـتـوقـيـعِ[3]

---

(١) بادَ: أي فنِيَ. فالقلب بهذا المعنى معضلة من المسائل، لأنه إن ظنَّ أنه فنيَ، فالهزة الضعيفة التي يشعر بها في جوانحه تدل على أنه باق. وإن ظنَّ أنه باقٍ، فابتعاد تلك الحبيبة وتعلقُ القلب بها، يدل على أنه عندها، وأنه ليس في موضعه. وهكذا تكون المسألة دوراً.

(٢) يريد أنه إذا ذكر اسمها تخيَّلها، فلا يتمالك أنْ يُقبِّل هذا الخيال. فعندما يرى الناس أنه قبَّلَ هذا الاسم، لأن القبلة كانت بعد النطق به، يعرفون أنه اسمُ التي لا يريد أن يُعرفَ اسمُها.

(*) الصبُّ، العاشق ذو الحب الشديد والاشتياق. والفعل منه: صَبَّ يَصَبُّ صَبّاً وصبابةً.

(٣) الصك: هو ما يسمى اليوم بالسَّند؛ وهو، من غير توقيع، لا فائدة منه.

وأرى مـآبـي مـن هـواك عـطـيـةً أكـآبـتـي أم ذلـتـي وخـشـوعـي؟(*)
هـنـدٌ عـلـى وجـه الـلـيـالـي مـسْـحَـةٌ مـنـي كـسَـتْـهـا حـسـرةَ الـتـوديـعِ
تـجـديـن؟ مـا هـزَّت فـؤادَكِ رحـمـةٌ لـمـصـائـبـي ونـوائـبـي ودمـوعـي(**)
أعـطـيـتِـنِـي صِـفـراً وصـفـراً فـي الـهـوى وسـألـتـنـي عَـنـتـاً عـن الـمـجـمـوعِ...

٭ ٭ ٭

وقال في نحو هذا التوجيه:

[من الوافر]

(طـرخـتِ) الـعـيـنَ مـن نـومـي وقـلـبـي غـداةَ الـهـجْـر مـن أمـلِ الـتـلاقـي
وقـبـلُ طـرخـتِ نـفـسـي مـن هـنـائـي وآمـالَ الـوصـال مـن اشـتـيـاقـي
فَـرُخْـمـاكِ انـظـري مـن بَـعْـد هـذا أيـبْـقـىٰ غـيـرُ أصـفـار الـفـراقِ؟

٭ ٭ ٭

وقال في الكسر والانكسار:

[من الوافر]

أقـول لـجـفـنـهـا «والـكَـسْـرُ» فـيـه مـن الـعَـدد الـصـحـيـحِ مـن الـوِداد
أهـذا الـكـسـرُ مـن أعـشـار قـلـبـي؟ فـقـال: نـعـم، وكـسْـرُكُـمُ اعـتـيـادي(١)

٭ ٭ ٭

وقال في بوارق الحبيب:

[من مجزوء الخفيف]

لـي حـبـيـبٌ كـأنـه الـ ـمـاسُ بـيـن الـمـعـادنِ
أسـطَـعُ الـنـاس نـجـمـةً فـي سـمـاءِ الـمـحـاسِـنِ

٭ ٭ ٭

(*) المآب، المآل. أي المحصلة التي آب بها الشاعر، ويرى أن كل ما يعود به من محبوبته، نعمةٌ حتى (الكآبة، والذلّة والخشوع). فيا فوزَ المحبين أمثاله!!

(**) لا بد من أن تكون «تجدين» في البيت، من (وجَدَ) بمعنى أحبَّ بوَجْدٍ وحزن شديد. كأنما يسائلها ناكراً ما تدّعيه من الوجد.

(١) الكسورُ في علم الحساب، على نوعين: كسْرٌ أعشاري لأنه يدل على أجزاء من عشراتٍ، وكسرٌ اعتيادي. ففي كلٍّ من لفظة «الكسر» و«أعشار» و«اعتيادي»: تورية. والأعشار هي قِطَع الإناء المكسور.

وقال يذكر فتًى غضّ الجمال:

[من الطويل]

فتًى غنِجٌ حاكى الفتاةَ شمائلاً وأشبَهَ منهُ حسْنُهُ الغضُّ، حسْنَها
إذا قلتُ في تشبيهه ذا: كأنَهُ وأبصرتُ خدَّيه، أقول: كأنها

❁ ❁ ❁

وقال في ابتسام:

[من الطويل]

تلطَّفتُ بالسلوان حتى أَطاعني وركَّبتُ منه للصبابة مَرْهما(*)
جمعتُ له من ضِحْكة الصبح في الربى ومن بَرْد أنفاسِ الكواعب في الحِمى(**)
ومِن نَفحاتٍ هنَّ والوصلُ والمنى إذا ائتلفتْ لم تُبْقِ قلباً متيما
ومن نظراتٍ في السرائر لو أتتْ على كلِّ سرٍّ لم يغادِرْنَ مُبْهَما(***)
ومن كلِّ حسْنٍ في الطبيعة مُشْرِقٍ على صفَحاتِ النفس في الأرضِ والسما
وقلتُ لجفني نَمْ! وللقلب لا تَهِمْ! فلم يَبْقَ إلّا أنْ تتوبَ وتَنْدَمَا
ومرَّتْ ليالٍ، لا الدجى ذلك الدجى ولا ما أرى مِن أنجمٍ كنَّ أنجُمَا
إلى أن تلاقينا فلما تبسَّمتْ رأيتُ فمي قد خان عهدي وسلَّما
فعدْتُ إلى قلبي، إذا هو خافقٌ يكاد من الأشواق أن يَثِبَ الفَما(****)
فراجعتُ نفسي أذكرُ العزمَ والنهى إذا هِيَ تُغريني بأن أتقدَّما
فما يصنع المجنونُ والكون كلُّه لدى حُسْنِ ليلى لم يقاوم تبسما؟(١)

❁ ❁ ❁

(*) المرْهَم: مركَّبٌ طبيٌّ ليِّنٌ يطلى به الجرحُ. جمع: مَراهِم.
(**) الكواعب، ج: كاعب، الفتاة التي نهد ثَدْياها.
(***) بالغ الشاعر في رصد فاعلية النظرة هذه، فجعلها تخترق القلوب وتستجلى مكامن الأسرار، فتنجلي هذه الأخيرة كلُّها. إلّا أنها مبالغة فنية حَسنة.
(****) جعل فعل «يثب» فعلاً متعدياً، وهو لازم. فالوثوب: القفز. فقال ـ وفي القول حذف كثير ـ يكاد فمي من لهفة الشوق والصبابة، أن يثب من مكانه ليلثم فمها. ولا نرى ضيراً في هذه المخالفة النحوية، لأنها من باب التضمين الفني، لا التجاوز الجهول.
(١) المجنون وليلى: معروفان. والمراد بالمجنون، هنا كل من جُنَّ بعشقه، وبليلى كلُّ حسناء جُنَّ بها عاشق. وقد تفلسف بعضُ الصوفية، فزعم أنَّ في العشق اثنين وسبعين نوعاً من الجنون. لأنه جاء في الحديث أن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها هالك، إلّا فرقةً =

وقال في أحوال الحب ودوائره:

[من المنسرح]

تَبَدَّل الحبُّ والحبيبُ معاً ... والقلبُ ما زال يَحمِل الوجعَا

وكلما ضاق بي الغرامُ ترى ... عيني طريقَ البكاء متَّسعا

والحب للمرء من سعادته ... لو لم يَلِد في فؤادِهِ الطمعا

يُكابد القلبُ حِمْلَ هَجْرِهِمُ ... لينتهي أمرُه بما صَنَعا

والحب للقلب مثلُ دائِرَةٍ ... فكلما دار دورةً رَجَعا

❁ ❁ ❁

وقال في أماني النفس الكاذبة:

[من مجزوء الخفيف]

يا أمانيَّ كم بنا ... من شقاءٍ ومن عَنَا!

كيف سُمِّيتِ روضةً ... لا زهورٌ ولا جنى؟

كيف سُمِّيتِ جنةً ... وأرى فيك مَدْفنا؟

ليس يا نفسُ علتي ... وهمومي، سوى المنى

تحملُ القلبَ من هنا ... لك وترمي به هنا

للتي إن ذكرتُها ... مرَّةً، أَنْسَ من أنا

❁ ❁ ❁

وقال في أعباء الحب:

[من المتقارب]

أُحِبُّ ولكنها غادةٌ ... إذا قرَّبوا الماءَ منها التَهَبْ

فكيف بجسمي على ضعفه ... وما حَمَّلتْنِيَ هذي النُّوَبْ؟

فيا ربِّ صيِّرْ بقيةَ قلبي ... حديداً فإنَّ فؤادي «ذهَبْ»(*)

❁ ❁ ❁

= واحدة. وهو استنباط حسن، ولكن في عصرنا: لكلِّ يوم جنون، وفي كل جنون، فنون؛ وتحت كل فنٍّ سبعون نوعاً أو ثمانون. . .

(*) تورية لطيفة ومراعاة نظير ألطف، «فذهب» في معناها القريب هي: المعدن الثمين، والمعنى المورَى هو الذهاب إلى غير رجعة. ومراعاة النظير هي في مناسبته استخدام (الذهب) مع (الحديد) من غير تكلف.

وقال في نحو الهوى:

[من الكامل]

لـلـحـب نـحـوٌ قـد رأيـتُ بـدرسـه أهـلـيـه أوزانـاً «لـجـمـعِ الـقـلـةِ»

«والـعـيـنُ» فـيـه ذاتُ نـقـط تـحـتـهـا والـقـلـبُ، أنـى كـان، «حـرفُ الـعـلـةِ»

وقِـوامُـهـا ألِـفُ الـوصـال فـإن أقُـلْ (مـالـت) وتُـبْـعِـدُه، أجِـدْهـا «مـلَّـتِ»

وغـريـبُ هـذا الـنـحـو أنَّ اسم «الـذي» لم يُدْعَ (موصولاً) بغير رضا (التي)[1]

❁ ❁ ❁

وقال في طريق الحب:

[من الطويل]

تـقـولُ طـريـقُ الـحـبِّ وَعْـرٌ وأرضُـه ظـنـونٌ، عـلـيـهـا كـلُّ مـجـدٍ مُـحـطَّـمُ

ومِـن هـاهـنـا تـلـقـاه بـالـدم مُـشْـرِقـاً ومـن هـاهـنـا تـلـقـاه بـالـموتِ يُـظْـلِـمُ

فـلا تَـعْـتَـسِـفْـه إنَّ أيْـسَـرَ مـا بِـهِ عـلـيكَ أسى يُـضْـنِـي الـحشا، أو تَـنَـدُّمُ

ويـا أيـهـا الـعُـشَّـاق إن كـان فـي الـورى مـسـاكـيـنُ مـا إن يُـرحـمـون، فـأنـتـمُ(*)

* * *

بـلـى إنَّ طُـرْقَ الـحـب أوعـرُ مـسْـلَـكـاً ولـكـنـنـي بـالـحـب أدرَىٰ وأعـلـمُ

ومـاذا يَـضـرُّ الـطـيـرَ فـي الـجـوِّ أن يَـرى وعـورةَ هـذي الأرض وهـو يُـحَـوِّمُ؟

فـلـي مـن وراء الـحـب لـلـحـب مَـسْـرَحٌ وأَحْـزَمُ أهـلِ الـحـزم مـن يـتـكـتَّـمُ

كـمـا اهـتـاجَ فـي الـنـفـس الـكـلامُ فـمرَّ لا يُـحَـسُّ بـه حـتـى تَـسَـلَّـمَـهُ الـفـمُ

فـيـا فـتـنـتـي حـسـبـي مـن الـحـب رحـمـة رضـاؤكِ لـي أنـي عـلـيـكِ أُسـلِّـمُ

❁ ❁ ❁

---

(١) التورية في هذه الأبيات، ظاهرة لمن يعرف شيئاً من النحو والصرف، وإنما نذكر هنا نادرةً من عجائب أمريكا تناسب هذا النحو الغريب. فقد نشَر أمريكيان إعلاناً يقولان فيه: إنهما مستعدان لمدارسة الشبان والفتيات (علم الغرام) وسائرَ (فروعه) المتعلقة به في أوقات معينة. فتناولتْ إحدى الصحف الإنكليزية هذا الإعلان ونشرته وعلقت عليه ما يأتي:
ينبغي أن تكون الكليةُ الجامعةُ التي تنشأ في أمريكا لمدارسة الغرام، في وسط جنةٍ تجمع الحِسان من الحُور والولدان، ثم يكون ترتيب الدروس هكذا: (يوم الأحد) دروس استعدادية؛ (يوم الإثنين) الغزَل؛ (يوم الثلاثاء) الشكوى؛ (يوم الأربعاء) التقبيل والمداعبة؛ (يوم الخميس) فلسفة الدلال؛ (يوم الجمعة) تعيينُ أوقات الوصال، (يوم السبت) الامتحان العمومي...

(*) «ما إنْ يرحمون» (ما) زمانية زائدة. وكذلك (إنْ). والمعنى: حيثما وُجد من يُرحَم، فهم العشاقُ المساكين.

وقال في ركوب البحر للتنزه مع الحبيب:

[من السريع]

أرسِلْ بنا المَرْكَبَ في لجةٍ ... تُنشِقُهُ مِن أنفاسِ هذا المساءْ
إنَّ شراعَ البحرِ مِنْ يأسه ... قد انطوى، والنسماتُ الرجاءْ
فاهْجُرْ بِساطَ الأرض نَقْضِ الدجى ... في غَزَل تحت عيون السماءْ
الناس يُصغون لألفاظنا ... وأيُّ سرٌ في حروف الهجاءْ؟
جلَّت معاني الحب عن حَصْرِها ... من كل نفس بين (حاءٍ وباءْ)(١)

❁ ❁ ❁

وقال يلتمس الرقة والتلطف:

[من المديد]

فَزَعاتُ الحبُّ في نَظرةْ ... فاسألي بالله عن خَبَرِهْ!
كِذْتِ من فَرْط الصدود لَهُ ... تَنزعينَ الصبحَ من سَحَرِهْ
ولوَ أنَّ الطيرَ يَعرفُهُ ... لاستماتَ الطيرُ في شَجرِهْ
أُنظُري مُضنىٰ هواكِ ولو ... نظرةَ الماشي إلى أثرِهْ(*)
أَنتِ في ليل الهوى قمرٌ ... وهو ظلٌّ في ضيا قمرِهْ
آه من هذا الدلالِ وما ... بين باديهِ ومستتَرِهْ!
وتكالسيفِ المدلَّلِ إذْ ... يتجلى التيهُ في صُورِهْ
أنا أَضنىٰ أن أُعدِّدَها ... من تأبّيه إلى خَفَرِهْ(**)
أنا أضنىٰ أن أعرِّفها ... من تصافيه إلى كَدَرِهْ
أنا أضنىٰ أن أُحيط بها ... من تغاضيه إلى حذرِهْ
عُمُري واللهِ، أَقصرُ من ... ساعةٍ أبكي على قِصَرِهْ

❁ ❁ ❁

---

(١) الحب في التهجئة (حاء وباء) ولكنْ في معناه، لا ينتهي له معنى. وهكذا ألفاظ العشاق: يكونُ وراءها مما هو في أنفسهم ما لا يُعرَف منها ولا يكون فيها.

(*) أثر الماشي، هو آثار أقدامه على الأرض. وفي ذلك شيء من التبصر والتأمل.

(**) الضَّنى: اشتداد المرض حتى الضعف والنحول.

وقوله: «أنا أضنى» فيها حذفٌ مقدَّر وهو: أنا أضنى من أن أُعدِّد، وأعرِّف وأُحيط.. والتأبّي سلوكُ ذوي الإباء وهو الأنفة والعزة. والخَفَرُ: الحياء.

وقال في لذَّات الحب وعواقبه:

[من الطويل]

عـجـبـتُ لـهـزَّاتٍ بـقـلـبـي خـفـيـفـةٍ ... وفـي الـهـزَّة الأُولـى تـهـدَّمَ جـانـبـي

ولـلـحـب لـذَّاتٌ مـتـى هـيَ أَقـبـلـتْ ... أخـذْنَ عـلـى قـلـبـي طـريـقَ الـعـواقـبِ

فـمِـن أيـن مـا يـمَّـمْـتُ ألـقـاه جـانِـبـي ... ومِـن أيـن مـا أرتـدُّ، ألـقـاه جـاذبـي

ومـا فـي الـهـوى مِـن حـيـلـة غـيـرُ حـيـلـةٍ ... رأيتُ اسمَـهـا الـخـذلانَ بـيـن الـتـجـاربِ

ومـا يَـصـنـعُ الـعـضْـبُ الـمـهـنـدُ إن هـوى ... على الماء مهما كان ماضي المضاربِ؟

❂ ❂ ❂

وقال في محاورة ذاتية:

[من الطويل]

أقـول لـهـا أَوحـي إلـيَّ رسـالـة ... من الشعر لم ينطِق بها شاعرٌ قبلي

فـقـالـتْ: تـأمَّـلْ حـاجـبـيَّ فـواحـدٌ ... يُترجِمُ، والثاني رموزَ الهوى يُمْلي

وأبـلـغُ آيـات الـهـوى قـولُ عـاشـقٍ ... خَلا الحبُّ يا أهلَ الصبابة عن مِثْلي

❂ ❂ ❂

وقال في أطياف الحب المَرَضيّة:

[من البسيط]

رأيـتُـهـا لـلـتـي تـمـشـي بـجـانـبـهـا ... كـأنـهـا الـبـدرُ فـي لـوحِ الـزجـاج أَضـا

ترنو وتُغْضي، ولـي فـي لـحـظـهـا أمـلٌ ... فـكـلـمـا قـلـتُ وافـانـي، أراه مَـضـىٰ(*)

يـا هـنـدُ هـذا الـذي سـمَّـيـتـهِ غَـضـبـاً ... فـكـيـف أعـرف مـا يُـدعـى لـديـك رِضـا؟

وَنـلاه مـن أَمـلٍ يُـفـضـي إلـى أمـل ... حتى يـصـيـر بـه هـذا الـهـوى مَرَضـا! (١)

والـحـبُّ كـالـجـوِّ مَـن يـصـعَـدْ إلـيـه يَـجِـدْ ... مهما ارتقى فيه من بَعْد الفضاء، فَضا

❂ ❂ ❂

وقال في مهاجرة النجوم:

[من الطويل]

لـهـنَّ عـلـى وادي الـنـفـوس دَبـيـبُ ... فـفـي كـل نـفـسٍ رقـةٌ ونَـسـيـبُ(**)

(*) ترنو: تنظر وتطيل النظر بسكون. تُغْضي: تغضُّ البصر وتخفضه.

(١) لبعض الفلاسفة: العشقُ نصفُ الأمراض. وهو ينظر في ذلك إلى تأثيره في الروح، وتأثير الروح في البدن.

(**) النسيب: الكلام الجميل يقال في المرأة.

يُغازِلنَ حتى ما يبينُ لنا الهوى ... ألفظيَ أم قلبي هناك يَذوبُ؟
نجومٌ هبطنَ الأرضَ فانفتحت لها ... لتصبح أفلاكاً لهنَّ قلوبُ
فأبراجُها في النحس صَدٌّ، ونُفرةٌ ... وبَينٌ، وتبريح الهوى، ورَقيبُ
وأبراجُها في السعد وصلٌ، ورغبةٌ ... وصدق، ووعدٌ في الوفاء، قريبُ
وتَعْرِضُ ما بيني وبين عواذلي ... فيُكسَفُ وجهٌ للعذول كئيبُ[١]
فتاةٌ أتت من جنة الخلد للورى ... وفي ثوبها ريحُ الملائك طِيبُ
أليس بخدَّيها من الحُور قبلةُ الـ ... ـوداعِ ودمعٌ للوداع رَطيبُ؟[٢]
يقولون صدَّتْ عن بني الحب عِفَّةً ... وطهراً كأنَّ العاشقين ذنوبُ[**]
رأتْ ما رأتْ من أنجم الحظ فانثنتْ ... وقد علِمَتْ أنَّ الغرامَ نَصيبُ
فماذا عليها أن يَخيبَ مُؤَمِّلٌ ... إذا كان حتماً أنه سيَخيبُ؟
وعلَّمها نجمُ الهوى كيف تنطوي ... قلوبٌ على أشواقها وجُنوبُ[***]
وما ضَرَّ من يهوى الحبيبَ مدلَّلاً ... سوى عِلْمِه أنَّ الدلالَ حبيبُ
يُديرُ الهوى فيما يشاء عواطفي ... وللحبِّ صَوْتٌ في النفوس خَلُوبُ[****]
كأنَّ فؤادي مِنبرٌ أحدقتْ به ... ظنوني وهذا الحبُّ فيه خَطيبُ
وأبكي بعينٍ ليس تُمسِكُ عَبْرةً ... كأن عيونَ العاشقين ثقوبُ
ورثَّ فؤادي فهو لا يحمل الهوى ... كأن دبيب الشوق فيه وُثوبُ
وللهجر في نفسي يدٌ مطمئنةٌ ... وأُخرى، بأحلام الغرام لَعوبُ
هوًى وصدود: ذاك يأكلُ مهجتي ... وذا، لندى فجر الحياة، شَروبُ
فهل يَرتوي قلبي وقد نضَب الوفا ... وهل يُنبِتُ الآمالَ وهو جديبُ؟
تجنَّت وما في حيلتي غيرُ توبةٍ ... تَردُّ شبابَ الوصل حين يَشيبُ

---

(١) يشير إلى سبب الكسوف، وهو تعرض (القمر) بين الشمس والأرض.

(٢) قُبلة وداع الحور، كناية عن حُمرة الخدين، لأن هذه الحمرة كأنها أثر لقبلة فراقٍ طويل. ويريد (بالدمع الرطيب) تلك المسحة التي تكون على الوجنات. وتقول العامة: (خدّ نادي).

(**) في قوله: «كأنَّ العاشقين ذنوبُ» حذفٌ، وتجاوزٌ: الحذفُ هو: (كأنَّ فعل العاشقين ذنوبُ) والتجاوز هو: جعل الذنب خَبراً لمبتدأ ليس من جنسه. فعليه أن يقول: العاشقون مذنبون. لكنه حذف وضمَّن للضرورة.

(***) الجنب، هو جانب الجسدِ، وشقّه. والمقصود، ما في داخله مما يقرب من القلب والرئتين والكبد.

(****) الخَلُوبُ (فعُول) مبالغة من الخالِب: الفاتن، الآسِر.

ولكنْ إذا عدَّت حياتي وحُبَّها ذنوباً، فيا لِلَّهِ كيف أتوبُ؟

❁ ❁ ❁

وقال ارتجالاً في معنًى عرَض له:

[من الخفيف]

أنتِ يا من أُحبُّ إنْ لم تكوني فَرَجاً للشقيِّ أو لم تكوني
سلوةً للحزين أو لم تكوني دمعةً للسرور، بين جفوني
فالليالي على الهناء بكاءُ
أنتِ في أعينِ الخليِّ مَنامٌ أنتِ للطفل في الكرىٰ أحلامُ
أنتِ في مَسْمع المشوق سلامٌ أنتِ بين الأنام، لو لم تكوني[1]
رجَمتْهُمْ على الفساد السماءُ

❁ ❁ ❁

وقال في حالٍ مشابهة:

[من الطويل]

غدا السِّحرُ في عينيك والحبُّ والهوىٰ فمِن أجل ما أَعني يُقال: عيونُ(*)
وهنَّ، كقلبي حائراتٌ، وتارةً، إذا شئتِ أن تَجْني عليَّ، سكُونُ[2]
فما النجمُ برّاقاً ولا الظبيُ أَكحلاً ولا الماسُ يقسو والزجاجُ يلينُ
ولا العقلُ يحكيها إذا ابتسمتْ رضاً ولا مِثلُها، إمَّا غضبْتِ، جنونُ
وكنتُ مليكَ السعد يوم عبسْنَ لي فإن ضحِكتْ يوماً فكيف أكونُ؟
بحَسْبي كِلَا يوميكِ في الوصل: مرةً أَعِزُّ، وأُخرى في جفاكِ، أَهُونُ
على ذاك مرَّ الدهرُ؛ فالصبحُ ضاحكٌ طروبُ الصَّبا، والليل بَعْدُ حزينُ

❁ ❁ ❁

وقال في رضاءٍ بعد عتاب:

[من الطويل]

حبيبٌ يرينا قَلْبَهُ ذا قساوةٍ ويُتْبِعها خوفاً علينا بلينهِ

---

(١) قوله: «لم تكوني» في القطعة الأولى، أي: لم يكن منك، وذلك على المجاز. أما (تكوني) في القطعة الثانية، فهي من (كان) التي بمعنى: وُجِد.

(*) تضمنتْ «عيونُ» جملة معانٍ وردت في صدر البيت. أي: إنَّ هذه العيون من التأثير والفاعلية، ما يدخل فيها السحرُ والحب والهوى.

(٢) نظراتُ الحبيب، إذا كانت ساكنةً موجهة إلى نقطة واحدة، فهي أقتلُ ما تكون وقتئذٍ.

عـواطـفُـهُ يـومَ الـعـتـاب كـأنـمـا ... عقدنَ جميعاً «مجلساً» في جفونِهِ(*)
فـيـأتـي هـواهُ مُـمْـسِـكـاً بـشـمـالـهِ ... عـذابَ فـؤآدي، والـمـنـى بـيـمـيـنـهِ
يـقـول انـظُـري يـا رحـمـةَ الـقـلـبِ صـبَّـهُ ... ويـا رِقَّـةَ الـنـفـس اسـمـعـي لـحـنـيـنـهِ
فـتـحـكـم هـاتـيـك الـعـواطـفُ بـالـرضـا ... «وتَـغـريـمِـه» لـي قُـبـلـةً فـي جـبـيـنـهِ(**)

❁ ❁ ❁

وقال يصف وقفة حسناء:

[من البسيط]

بينَ الـدلال وبـين الـحـسْـنِ «مَـحـكـمـةٌ» ... أَلـيومَ «جـسـلـتُـهـا» والـحـكْـمُ فـي غَـدِهـا
والـقـلـب مـتَّـهَـمٌ فـيـهـا بـسَـلْـوتـه ... وتهمةُ النفس، فيها من تَجَلُّدِها(***)
وَيْلي على ذا الهوى، إنْ عِشتُ عِشتُ أسًى ... وإن أَمُتْ أزعـجـوا نـفـسـي بـمَـرْقـدِهـا
هـمْ يَـذكـرون سُـلُـوّي لـلـنـكـايـة بـي ... كـفـتـح أجـفـانِ مُـغْـضـي الـعـيـن أرمـدِهـا
سَلُوا التي اختلفتْ بين النوافذ والـ ... ـرفـوفِ كـيـف رأتْـنـي فـي تَـرَدُّدِهـا
يـدي عـلـى كَـبِـدِي مـنـهـا، وقـد وقـفـتْ ... حـزيـنـةً خَـدُّهـا مـلـقًـى عـلـى يـدِهـا
ترنو إلى الشمس تمضي كالحبيب على ... وعْـدٍ، فـتـخـجـل مـن إخـلاف مـوعـدِهـا
بـالـلّـه يـا كـفَّـهـا رفـقـاً بـوجـنـتـهـا ... إنَّ الـحـيـاةَ شـعـاعٌ مـن تـوقُّـدِهـا
مـن عـاب سُـقْـمـيَ فـلْـيَـنْـظرْ خـواتـمَـهـا ... مـا قـام لـؤلـؤهـا إلّا بـعـسـجـدهـا(١)
والـحـبُّ كـالـروض أَهـلُـوهُ الـزهـورُ، فـمِـن ... صُـفْـرِ الـوجـوه إلـى زاهـي مُـوَرَّدِهـا(٢)

❁ ❁ ❁

وقال في الخيرة بين جنون العقل وقساوة القلب:

[من الكامل]

لـو خَـيَّـروا الـمـجـنـونَ بـين الـعـقـل مُـكْـ ... ـتـمِـلاً، وبـيـن هـواجـس الـوسْـواسِ

(*) أن يُعقَد مجلسٌ في جفون الحبيب، يعني: انطباعَ كلِّ التأثيرات الانفعالية في جفونه وتالياً، في عيونه.
(**) التغريمُ: دفعُ الغرامة، وهي كل ما يتعلق بالخسارة ودفع الجزية وما يشبهها.
(***) التجلد: الصبر على المكاره.
(١) عبَّر (بالسقم) وأراد أثره؛ وهو صفرةُ اللون.
(٢) من العجيب أن اللون الأصفر، في الأزهار أكثرُ من غيره؛ فقد نَشَر بعضُهم تقويماً عن ألوان الأزهار في فرنسا جاء فيه، أنه يوجد من أشكال اللون الأصفر ٨٠٨، ومن الأبيض ٦٨٧، ومن الأحمر ٥٠٥، ومن الأخضر ٣١٣، ومن الأزرق ١٥٧، ومن اللون المتقلب ١٣٢، ومن البنفسجي ١٢٢. فكأن أكثرَ الأزهار عاشقة.

فالصبُّ يُعذَل إنْ تجاوز حبُّهُ ... قلباً يلينُ إلى فؤادٍ قاسي

❁ ❁ ❁

وقال في شجرة الحبيبة:

[من الكامل]

يا دوحةً طَرحَتْ على أعطافها ... ثوبَ الربيع مُطَرَّزاً بظِلالِ
يا ليتَ طيرَكِ كان يَعرِفُ ما بنا ... فلعلهُ يُفضي لهنَّ بحالي(*)
أوْ ليتَ نهرَكِ كان يَدري علتي ... فلعلهُ يُبدي لهنَّ خيالي!
حار الشجيُّ فما يُلاقي مُسعِداً ... فكأنه من غير ذي الأجيالِ(**)
يتعجَّبون لسُقمه فكأنهُ ... أثرٌ قديمٌ كان في الأطلالِ
يا دوحتي إن تأتِ هندُ فذي الصَّبا ... ريحي، وخضرةُ ذي الربى آمالي
أَنا كالسماء قناعةً، إلَّا يكنْ ... بدرٌ، رضيتُ من الدجى بهلالِ
تتقلبُ الأيامُ، لا أشكو، فإمْـ ... ـما بالنهار تجيء أو بليالي
ما في يديَّ ولا إليَّ ولا بيُمْـ ... ـنايَ الهوى يجري، ولا بشِمالي
يا هندُ ما شاء الغرامُ فإنما ... لهوى القلوب طريقةُ الأطفالِ
ما يمنعوا طلبوه حتى بالدمو ... ع، وكلهم عما لديه سالي(***)

❁ ❁ ❁

وقال في مقبرة الحب:

[من الخفيف]

خطُّ هذا الحبُّ مقبرةً ... ليَ بين الهمِّ والترحِ
كلَّ يومٍ يدفنون بها ... مَيِّتاً من جانب الفرحِ

❁ ❁ ❁

وقال في الحُسْن والردى:

[من الكامل]

شيئان قد خَفِيا على الألبابِ في ... كلِّ الأَنام وما عرَفْتُ لماذا

(*) أفضى بالشيء: أباحَ به وبلغ منه الغاية.

(**) وردتْ في الأصل: حار الشجيَّ (بفتح الياء) ولم نر لها معنى لعدم تعدي فعل [حار] هنا، فرفعنا «الشجيّ».

(***) هكذا وردت: «يمنعوا» بحذف النون. ولم نر سبباً لهذا الحذف ولا معنى إلّا إذا كانت «ما» في مطلع البيت شرطية. وهي ضعيفة هشّة الأثر.

حُسْنُ الغواني والردى، ومن العجا ... ئب أن ترى هذا يَجُرُّ لهذا

❁ ❁ ❁

وقال في غَواية الخَدّ:

[من مجزوء الرمل]

تَغرِضُ الخدُّ لعيني ... ليذوبَ الفمُ حُبّبا

إرحمي، قد كاد قلبي ... من فمي يَخرُج غَضَبا

❁ ❁ ❁

وقال في غادة متخايلة:

[من الكامل]

بي غادةٌ لم يَشْكُ هِزَّتها ... إلّا أنا، والقلبُ، والقُرْطُ(*)

سخطَتْ، فصدَّتْ، والتوتْ، ونأتْ ... يا ربِّ أيُّ فعالِها السخطُ؟

❁ ❁ ❁

وقال في رواية له:

[من السريع]

لوْ أنَّ جرْحَ القلب يَغسِلُهُ ... ماءُ الغمام العذْبُ والبحْرُ

ويكونُ مرهمَه نسيمُ صَبا ... مِن بين ما يتفتَّح الزهْرُ

ويُلفُّ في قِطَع يُمزقها ... بيديه من أنواره، الفجْرُ

لرأيتُ هذا كلَّه عَبثاً ... وعلمْتُ أنَّ دواءه الصبرُ

❁ ❁ ❁

وقال في تعاسة العشق:

[من البسيط]

هاتوا العناصرَ مِن نارٍ مؤجَّجةٍ ... ومِن ترابٍ ومن ماءٍ ومن ريحِ(١)

هاتوا السَّما ونجوماً في جوانبها ... مثلَ الحرائق أو مثلَ المصابيحِ

هاتوا التعاسةَ هاتوا كلَّ فاجعةٍ ... هاتوا الممات يُريني نزعةَ الروحِ

فكلُّ هذا على نفسي أخفُّ أذًى ... من قلب عاشقةٍ في الأرض مطروحِ

❁ ❁ ❁

(*) القرطُ: ما يعلَّق في شحمة الأذن من حُليّ ونحوها، جمع: أقراط وقُروط.

(١) هذه هي العناصر الأربعة على ما كان معروفاً قديماً؛ أما اليوم فقد أبلغها العلماء، باكتشافهم، إلى ما فوق السبعين.

وقال في زمان الحب الأول:

[من المقتضب]

الـــزمـــانُ مـــعـــتـــرِكٌ لِـــي أيَّ مـــعـــتَـــرَكِ
مُـــتُّ يـــا هـــوى صـــغـــري يـــومَ كـــنـــتَ كـــالـــمـــلِـــكِ
فـــادفـــنـــيـــه يـــا كَـــبِـــدي فـــي الـــســـرور والـــضـــحـــك!

❁ ❁ ❁

وقال في ما بعد فوات الأوان:

[من البسيط]

بيـن الغـرام وبيـن الحُسْـن لـي نَظَـرٌ طـولُ الـزمـان رمـى حـدَّيْه بـالـصـدإ(*)
فـاستـنـبـئي الـهـجْرَ عـنـي والبكـاءَ وما يُـعَـدُّ حـزنـاً فـكـل الـحـزن مِـنْ نَـبـإي
ستَـرحـمـيـنَ ولـكـنْ حـيـنَ لا أمـلٌ أنْ يَـروِيَ الـمـاءُ مَـن قـد مـات بـالـظـمـإ

❁ ❁ ❁

وقال في قُبَل الشفاه:

[من الوافر]

عـلـى شـفـتـيـك عـلَّـقْـتُ الأمـانـي إذا أنـتِ ابـتـسـمـتِ تـحـيَّـتـيْـنِ(**)
وأجْـفـى مـا يـكـونُ الـحـبُّ إنْ لـم تـحـرّكْـهُ الـشـفـاهُ بـنـسـمـتَـيْـنِ
وأظْـلَـمُ مـا يـكـونُ الـعـمـرُ إن لـم يُـضِـئْ فـيـه الـشـبـابُ بـوجـنـتَـيْـنِ
فـيـا ثـوبَ الـصـبـاح إذا تـدلَّـى وزَرَّ عـلـى الـسـمـاء بـنـجـمـتَـيْـنِ(***)
أظُـنـكَ بـعـضَ آمـالـي لـديـهـا وقـد أسـفـتْ عـلـيـه بـدمـعـتـيـنِ
ويـا عـيـنَ الـصـبـا فـي الـروض تـرنـو وتـنـعـسُ فـيـه بـيـن الـزهـرتَـيْـنِ
أظـنُّ الـوردَ قـبَّـلَ وجـنـتـيْـهـا فـأثَّـر فـي مـكـان الـقـبـلـتَـيْـنِ

❁ ❁ ❁

(*) أي أن طول الزمان قد جعل نظر العاشق في وضعٍ يُرْثى له، جرّاء الحزن والكمد والهجر والبكاء.

(**) لا يقال: ابتسمَ تحيةً.. لأن معمول الفعل هنا، يجب أن يكون من جنس الفعل معنى ولفظاً. فيقال: ابتسم ابتسامةً، وحَيّا تحيّةً. ولا يفيد التضمينُ هنا لأنه سيكون متكلّفاً وسطحياً.

(***) زَرَّ القميصَ: شدَّ أزراره وأدخلها في العُرى. والمعنى مجازي خالب. شبَّه النجومَ بأزرار الثوب وعُراه في صورة متحركة نابضة.

وقال في حسناء تُنكر أنَّ لها عاشقين، وفي صدرها وردةٌ حمراء:

[من الطويل]

رأيتُ على صدر المليحة وردةً ... عليها لأنفاسِ القلوب حفيفُ

ومن تحتها في الصدر ما لستُ قادراً ... على وصفه، لكنْ أقول: قُطوفُ

فقلت لها: لا تنكري بعدُ عاشقاً ... فإنَّ شهودَ العاشقين وقوفُ

ألم تَنظري أوراقَ وردِكِ قد حكَتْ ... جفوناً، وكلٌّ أحمرٌ ونحيفُ؟

❁ ❁ ❁

وقال في تحيُّله في تحقيق القرب:

[من مجزوء الوافر]

على قلبي دَلَلْتُهُمُ ... فمَن دلَّ على أَجَلي؟

ويا أَملي بوصلِهمُ ... سلامُ اللّه يا أملي!

تحيَّلْتُ لقربهمُ ... فقرَّبَتِ الردى حِيَلي(*)

❁ ❁ ❁

وقال في النظرة الأولى:

[من الطويل]

أقول لها: كلِّي لحسنك عاشِقٌ ... فلِمْ ذا بدأتِ الحبَّ بالعينِ والعَينِ؟

فقالت: رموزُ العشق فيكَ كثيرةٌ ... لذا أتهجّاهنَّ حَرْفَيْنِ حرفَيْنِ(**)

❁ ❁ ❁

وقال في تشبيه الحسناء بالبدر:

[من السريع]

أخطأ مَن شبَّهها ضِلَّةً ... بالبدر، ليس الكل كالبعضِ

فتلك إنْ تُسفرْ تَصُنْ حسنَها الـ ... ـنفوسُ في منزلة العرْضِ(***)

والبدرُ لمَّا لم يجدْ عاشقاً ... أَلقى بذاك النور في الأرضِ

❁ ❁ ❁

وقال في هلاكه ووقوعه في حب غادة مغناج:

[من السريع]

يا ليل رُدَّ الطيفَ عن مضجعي ... أخاف أن يغرق في أدمعي

(*) الردى: الهلاك. وفاعلُ «قرّبتْ»: الحِيَلُ.

(**) لا ندري ما إذا قصد بالحرفين (الحُبّ) المنتشر في كيان الشاعر العاشق، أم هو مجاراة للوزن والقافية؟

(***) أسفرت المرأةُ ونحوُها: ظهرتْ للعيان.

وفتِّشِ الفجرَ لعلَّ الصَّبا ... قد سرقتْ سرِّيَ من أضلعي!

أنا لِمَا بي يا نجومَ السما ... فاحترمي الموتَ ولا تلْمعي(*)

لم يَبقَ من قلبي سوى لوعةٍ ... عرفتُ منها أنَّ قلبي معي

وليس في نفسي سوى حسرةٍ ... قد خلَّفتْها لذةُ المطمعِ

يا من عذلْتمْ أهلَ هذا الجوى ... أغضبتُمُ القلبَ على المسمعِ(١)

لو كان فيكم عاشقٌ موجَعٌ ... رثَيتُمُ للعاشق الموجعِ

وكيف إن لم تَجدوا لوعةً ... تَدرون ما بالواجد المولَعِ؟(**)

ما أنتمُ في العَذْلِ إلّا كمن ... يشير للأنجم بالإصبعِ

قالوا الهوى! يا ليت هذا الهوى ... شخصٌ تَراه العينُ في موضعِ

نشكو له أو نشتكي ظلمَه ... أو نَتجنَّى الظلمَ، أو ندَّعي!

وغادةٍ فيها دلالُ الصِّبا ... إن قلتُ إني عاشقٌ: تَفْزَعِ

وهَبتُها الروحَ فقالت إذنْ: ... أُضيعُها، قلت لها: ضَيِّعي

وزاد هذا الدلُّ حتى غدت ... إنْ ذَكَروا اسمي عندَها تجزعِ

قال لها الحب: أكلتُ المنى ... من قلبه، قالت: ولا تَشبعِ!

فقال: إني قد سلبتُ الهنا ... من عيشه، قالت: ولا تَقنعِ!

يا حيرةَ الأنفس في حبها ... لم يترك الحبُّ لها ما تَعي(***)

❁ ❁ ❁

وقال في نسيم الحيّ:

[من الطويل]

هو الليلُ، فيما كنتُ أعهد، إنما ... تجاذَبه شوقي إليكَ فمدَّهُ

سئمتُ فخلتُ الصبحَ لا مُبتداً لَهُ ... ومَن هَمَّ في أمرٍ تخوَّف ضدَّهُ

فيا مَن يملُّ الهمَّ باديءَ بدئه ... تذكَّرْ إذنْ أو ساطَه ثم حَدَّهُ!

(*) أنا لِمَا بي: منصرفٌ لمعالجة ما يحيط بي من صروف وأحزان.

(١) ذلك لأن العَذْل يسقطُ من الأذن، فيؤلم القلب.

(**) الواجد: المتيّم في عشقه.

(***) أدخل الشاعر موضوعات شتى في قصيدته، لا يجمعها إلّا إطار الحب والصبابة. ولم يقف عند معنى واحد أو صورة فنية غنية!

وقـالـوا: نـسـيـمٌ، قـلـتُ مـن حـيـه إذا وجـدتُ عـلـى حـر الـحـشـاشـةِ بَـرْدَهُ
فـلـمـا شـمـمـتُ الـوردَ مـن نـفـحـاتـه عـلـمـتُ يـقـيـنـاً أنـه مـسَّ خـدَّهُ

❁ ❁ ❁

وقال في الشمس والشمس:

[من الرمل]

قـلـت يـا شـمـسَ الـضـحـى بـي غـادةٌ هـي أنـتِ غـيـر أنْ لـم تَـبِـنِ
ولـعـيـنـيـهـا شـعـاعٌ كـلـمـا قـابـلَـتْـهُ مـهـجـتـي يَـلْـذعُـنـي
ولـحـبِّـيـهـا بـنـفـسـي لـوعـةٌ حـوَّلـتْ كـلَّ الـمـنـى لـلـشـجَـنِ
فـسـرورُ الـنـاس إنّ قـدِّر لـي صـار فـي قـلـبـي أشـدَّ الـحَـزَنِ

❁ ❁ ❁

بـكـتِ الـشـمـسُ لأجـلـي دمـعـةً هـي ذا الـبـدرُ الـذي أرَّقـنـي[1]
ونـسـيـمُ الـصـبـح قـد جـفَّـفـهـا فـامَّـحـتْ مـن صـفَـحَـات الـوَسَـنِ[*]
ذاك يـا هـنـد وقـد أُنـسـيـتِـنـا فـكـأنَّ الـحـبَّ تـحـت الـكـفَـنِ
مـرَّ مـا مـرَّ وكـم مـن قـائـل لـيـت مـا كـان، إذن لـم يـكـنِ!

❁ ❁ ❁

وقال أربع رباعيات في خطاب المحبوبة:

[من مجزوء الرمل]

إرحـمـي

عـاشـقـاً فـي كَـمـدِ مُـسـتـطـارَ الـكـبـدِ[**]
وغـدُه كـلَّ غـدِ مـنـكِ حـتـى الأبـدِ

وارحـمـي

قـلـبـهَ أنْ يَـقـفـا حـسـرةً أو أسـفـا
لـوعـةً أو كَـلَـفـا فـالـذي مـرَّ كـفـى[***]

وارحـمـي

---

(١) تشبيه البدر بأنه دمعة من الشمس: آية في لطف الكناية.

(*) الوسَنُ: النعاس. وهو من وَسَنَ يَوْسَنُ وَسَناً وسِنَةً ووَسْنَةً: أخذه النعاس.

(**) الكَمدُ: الحزن الشديد، يصاحبه اصفرار في اللون.

(***) الكلفُ: درجة متقدمة من مراتب الحب، وقبله كلٌّ من الهوى، فالعلاقة. والكَلَفُ: شدّة الحب. (فقه اللغة/ للثعالبي، بعنايتنا/ ص ٢١١).

أن يــــزيـــدَ الـــلـــعـــبُ والـــجـــفـــا والـــغـــضَـــبُ
فـــهـــنـــاك الـــعـــطَـــبُ وهـــواكِ الـــســـبـــبُ

وارحـــــمـــــي

مِـــنْ جـــفـــاك الـــمُـــسْـــقِـــمِ بـــعـــضَ روحٍ فـــي دمـــي
ولـــســـانـــاً فـــي فـــمـــي طـــالـــمـــا قـــال ارحـــمـــي

❁ ❁ ❁

وقال في نحوله من ضنى الحب:

[من الطويل]

أَيُبقي الهوى مني على أيِّ حالةٍ سوى ما ترى من هيكلٍ متهدِّمِ؟
فها أنا في أهل الغرام من الضنى كآثار عضٍّ في يدِ المتندِّمِ(*)
خَفيتُ فما يَجلو النهارُ بنوره ظلالَ نحولي وهي من صَدإِ الدمِ
ويا عَجبي لا الشمسُ تسطعُ لي ولا سواها، ويجلو ظلمتي ضوءُ مبسَمِ

❁ ❁ ❁

وقال وهو يرى نفسه قتيلَ الهوى:

[من البسيط]

روضُ الكواكب قد جفَّتْ أزاهرُهُ فطار من قَفصِ الإصباح طائرُهُ
له جناحانِ إمّا يَرتمي بهما فأولُ الجوِّ في عينيه آخِرُهُ
قد عشَّشَتْ للوجود الشمسُ بينهما كما تُعشِّشُ في قلبٍ خواطرُهُ
ضُمُّوا إلى الشمس قلبي إنَّ باطنَه نارٌ وإنْ يكُ مجَّ النورَ ظاهرُهُ
قلبٌ غدا عالماً في الكون منفرداً وما معاني الهوى إلَّا عناصِرُهُ
تصرَّفَ الوجدُ فيه بين مُنْبَسِطٍ وقابِضٍ منه حتى قلتُ: ساحِرُهُ(**)
يا أيها الحب إنْ تسحَقْ فؤادَ شجٍ فامزجْهُ بالدمع إذ تهمي محاجرُهُ(***)
واكتبْ به في تواريخ الزمان: فتًى قضى بحب فلانٍ وهو هاجِرُهُ(****)

(*) الضَّنى: المرض الشديد، والهزال والضعف.

(**) المنبسط: الذي امْتدَّ وانتشر واتَّسع.. نقيضها: القابضُ. أي أنه: لشدة مأمني به أمسى في حالتيْ تجاذبٍ متناقضتين: تارة ينبسط في غمرة تأمل وانفراج، وتارة ينقبض في غمرة يأسه وكآبته.

(***) الشجيُّ (من الشَّجا): الحزين الذي شغلَه الهمُ. وتَهمي المحاجر: يسيل دمعُها.

(****) «وهو هاجرُه» أي و«فلانٌ» المحبوب هو الذي هَجَرَه.

آهٍ عـلـيـه وآهـاتٍ إذا انـصـرفـت ... مُمَالةَ اللحظِ عن وجهي نواظرُهُ(*)
مَـن لـي بـهِ وأنـاجـيَّ ومَـن لِـيَ أن ... تكونَ من بَعضِ أكفاني مآزِرُهُ
تشمُّ روحيَ منها فوق عالمها ... ريحُ الزمان الذي كانت تجاورُهُ
عسى يكونُ إلى جنبي قتيلَ هوى ... مثلي تهزُّ بقاياه مقابرُهُ
وكلُّ دهرٍ يَطيبُ المرءُ مبتهجاً ... به فأكثرُه طيباً، مآثرُهُ

❁ ❁ ❁

وقال في صراع الأهواء والهواجس:

[من البسيط]

كم قلت آهٍ ولم يَخلُصْ بها نفسي ... كأن بعضَ زوايا الهمّ تُخفيهِ؟
وكم بنفسيَ شوقٌ حين يَخطُر في ... ثوبِ الرجا تعلَقُ الأذيالُ بالتّيهِ
وفي ضلوعي فؤاد حين تَحمِلُه ... كفُّ المنى وترىٰ ما فيه تُلقيهِ
قلبٌ لقد عاش لولا ما يُزهِّدهُ ... منها، وقد مات لولا ما يُمَنّيهِ(**)
يا قومُ هل حيلةٌ في هجْر غاضبةٍ ... حتى على نظرٍ للصبّ يُلهيه؟
وتكرهُ البدرَ لا غيظاً ولا حسَداً ... لكنْ لأنّا رأينا حُسنَها فيهِ

❁ ❁ ❁

وقال أيضاً في الحسن وآياته:

[من السريع]

أقولُ آهٍ فترى أنني ... كالطفل مما ليس شيئاً بُكاهْ
واللّهِ لو ينطِقُ صَخرٌ لمَا ... خاطَبَ هذا الحسْنَ إلا «بآهْ»

❁ ❁ ❁

وقال يذكر بوحَ النفس وأنوار القلب:

[من الرمل]

رَبِّ هل مِن مَلَكٍ يُوحي الرجاءْ ... فلقد ضِقْنا بشيطان الشقاءْ!؟
كلُّ شيءٍ في العذاب هيِّنٌ ... إن تَلهَّى القلبُ عنه بالعزاءْ
ضحكتْ لي الأرضُ عن بَدرِ هوى ... فاضحكي عن نجمِ سَعْدٍ يا سماءْ!
أنا أَهوى مَلَكاً مِن طُهرهِ ... حلَّ في القلب كما يجري الهواءْ

(*) «ممالة اللحظ»: منحرفة عن خط النظر المباشر. كناية عن الإعراض والتجاهل.
(**) منّاه يُمنّيه تَمْنِيَةً: جعل له ما يتمناه ويُؤمّله.

هــي ضــوئــي فــاعــذِلــوا إنْ تــجــدوا أعــيــنــاً تُــبــصِــرُ مــن غَــيــري ضــيــاءْ! (*)
يــا نــعــيــمَ الــنــفــس مــا أبــغــي ســوى أن أضــيــئَ الــقــلــبَ مــن ذاكَ الــرُّواءْ (**)
إنَّ آمَــالـــي ومـــا يَـــخـــرجُ مـــن فَــمــكِ الــطــاهــر فــي الــحــب ســواءْ
أُنــظــري الــعــيــنَ فــقــد بــاحــت بــهــا وكــلامُ الــقــلــب لــلــقــلــب الــبُــكــاءْ

❁ ❁ ❁

وقال يفرّق بين الشوق والعشق:

[من الطويل]

حــبــيــبٌ إذا أبــصــرتــه اضــطــربَ الــهــوى بــه فــكــأنــي بــالــلــحــاظ هــزَزْتــهُ
وســاءَ لــه الــعــذالُ عــنــي وعــن هــوًى يــقــولــون مــن تــشــويــقــه قــد عــرفْــتُــهُ
فــقــال: نــعــم، قــد شُــقْــتُــه لــيــت أنَّــه أضاف (ولو عيني) وقال: عشِقْتُه (١)

❁ ❁ ❁

وقال في رسالة:

[من الطويل]

ومــا أنــسَ يــومَ الــبــيــن مــن هــنــدَ أنَّــةً تــطــايــرَ مــنــهــا بــانــفــجــار الــهــوى قــلــبــي
فــلــم تــك مــنــهــا «آهِ» غــيــرَ شــرارةٍ مــن الــشــوق مــسَّــتْ فــيَّ قــنــبــلــةَ الــحــبِّ

❁ ❁ ❁

وقال في كتاب من حبيب:

[من الخفيف]

كــتَــبــتْ لــي ســلامَــهــا فــكــأنــي نِــلــتُ مــنــهــا ســلامــةً مــن زمــانــي
فــوق رَقٍّ كــأنــه صــفــحــةُ الــمِــرْ آة فــيــهــا أطــلَّــتِ الــعــيــنــانِ (٢)
قــبَّــلَــتْــهُ فــخِــلْــتُــهُ ورَقَ الــفــلِّ (م) عــلــيــهِ تــحــيــةُ الــبــســتــانِ
وطَــوتْــهُ فــخــلــتُــهُ صــفــحــةَ الــخــدِّ (م) تــلــطَّــتْ بــقُــبــلــةِ الــوَلْــهــانِ
بــيــراعٍ كــأنَّ «ريــشــتَــه» إمَّــا (م) يــشــقُّ الــقــلــوبَ، خَــدُّ ســنــانِ
أخــذوه مــن الــريــاض وقــد شــا هَــدَ فــيــهــا مــحــاسِــنَ الــحــيــوانِ (٣)

(*) أي، لوموني كيفما شئتم، فأنا أملِك أعيناً تُبصر من دون ضياء.
(**) الرُّواء (بضم الراء) حسْنُ المنظر وصفاؤه. والرَّواء (بفتح الراء) العَذْبُ من الماء، الذي يُروي!!
(١) الفرق بين لفظتي «شُقتُه وعشقتُه» هي (العين). وقول الحبيب عن محبه: (عشقتُه) لا يساويها شيء.
(٢) يريد سواد الحروف في بياض الورق كما يظهر سواد العينين في صفاء المرآة.
(٣) الحيوان، هنا: اسمُ جنس يشمل كل أفراده.

فهُوَ اليومَ إنْ تكلَّم عنها ... سفَّه الواصفين للغزلَانِ(*)

❁ ❁ ❁

وقال يناجي متغزلاً:

[من الرجز]

أيهتدي الطيفُ إلى رقادها ... لعله يسأل عن ميعادِها

أَعدُّ أيامي وأيامَ الجفا ... نقصانُها داعٍ إلى ازديادِها

مثلَ الأفاعي انكمشتْ وإنما انـ ... ـكماشُها يكون لامتدادِها

هنَّ الغواني كلُّ صبٍّ عندها ... كالصِّفر لا «يُجمع» في أعدادِها

واهاً لأزهار الربى في حُسْنها ... أَن لا ينالَ النحلُ من شِهَادِها[1]

وبي التي يأبىٰ لها جمالُها ... أَن تَصْدأ الألحاظُ في أغمادها[2]

تَرىٰ حياة العاشقين تنطفي ... ولا تملُّ النفخَ في رمادِها

يَسْتَنِدُ القلبُ إلى اقترابها ... وقربُها يَعْثرُ في بِعادِها(**)

آهِ على أسرار ذا الغيب أمَا ... أقدِرُ أنْ أنظُرَ في فؤآدِها؟

لا تعجبوا إن رقَّ فيها غزَلي ... كرقة النفحة من أبرادِها(***)

فليس إلَّا زفراتي وأنيـ ... ـني والهوى يُخلَطُ في إنشادِها

❁ ❁ ❁

وقال في حسناء مخضَّبة الكف، تحمل زهرةً من البنفسج:

[من المنسرح]

يا غادةً ثوبُها كوجنتها ... وحَلْيُها مثلَ أدمعي، دُرَرُ

والحسْنُ لا تنتهي مناظِرُهُ ... للعين إلَّا إذا انتهى النظرُ

فضَّختِ بالزهر حُبَّ ذي شَغَفٍ ... فاحَ بأسرار قلبهِ الزهَرُ

(*) أراد: لا معنى ولا قيمة لكل ما يسطِّره الكتّاب والشعراء في أوصاف الغزلان من معان ومعالم جمالية بارزة.

(١) الشِّهاد [ج: شَهْد] والشُّهدُ: واحدٌ. والمراد هنا، مادتُه التي تكون في الزهر. وإطلاقه عليها من المجاز.

(٢) هذه كناية عن تقليب نظراتها، كأنها تستعمل الألحاظَ دائماً.

(**) البِعاد، مصدر باعَدَ، مُبَاعدةً، وبِعاداً، بمعنى: أَبعَدَ.

(***) الأبراد، مفردها بُرْدٌ، وهو الكساء المخطط يُلتحفُ به. ويجمع على بُرُودٍ وأَبرُدٍ.. والنفحُ، ضدُّ اللَّفح؛ الريح الطيبة الفائحة من الأثواب، واللَّفحُ: الريح الباردة.

بـنـفـسـجٌ فـي يـد مـخـضَّـبـةٍ ... كـالـخـدِّ فـيـهِ مـن عَـضَّـةٍ أثـرُ
ضـاع شـذاه بـكـل نـاحـيـةٍ ... كـأنـه مـنـكِ بَـيْـنـنـا خـبَـرُ
سَـلـيـهِ عـن عـفَّـتـي وعـن شـغـفـي ... فـإنـه مـن مـزيـجـهـا عَـطِـرُ
سـلـيـهِ عـن رقـتـي وعـن طـربـي ... فـحـسْـنُـهُ مـن رُوائـهـا نَـضِـرُ
سـلـيـه عـن فـتـكـة الـغـرام بـنـا ... فـلـونُـهُ مـن عـذابـهـا كَـدِرُ
تَـلْـهَـيْـنَ بـالـعـاشـقـيـن لاعـبـةً ... كـأنـهـم فـي صـحـيـفـةٍ صُـوَرُ

❁❁❁

وقال في انتظار الغرس في زحمة القحط:

[من الطويل]

غـرسـتُ الـهـوى حتى إذا أثـمـرَ الـهـوى ... وحـان جـنـاهُ، مـرَّتِ الـثـمـراتُ(*)
ومـا طـمـعـي أن يـحـلـوَ الـحـبُّ بـعـدمـا ... سـقـاهُ دمُ الأكـبـاد والـعَـبَـرَاتُ
فـيـا أَسـفـا لـلـروض لا أيـنـعَ الـجـنَـىٰ ... ولا نـفـحـتْ أرواحُـه الـعَـطِـرَاتُ![1]
ويـا لـهـفـةَ الـزرَّاع زاغـتْ عـيـونُـهُـمْ ... بَـبْـرقٍ وولَّـت عـنـهـمُ الـمـطَـرَاتُ!
ويـا حَـزَنـي والـدهـرُ مـا زال كـالـحـاً ... ولـلـحـظِّ فـي آفـاقـه عَـثَـرَاتُ!
جـزِعْـنـا ومـا مـرَّت مـن الـهـجـر لـيـلـةٌ ... فـكَـيـف إذا مـرَّت بـنـا الـعَـشَـرَاتُ؟
وفـيـنـا قـلـوبٌ كـالـورى، غـيـرَ أنـهـا ... لـكـثـرة مـا حُـمِّـلْـن، مـنـكـسِـراتُ
وأعـمـارُنـا طـولـىٰ ولـكـنَّ طُـرْقَـهـا ... بـمـا شـوَّقَـتْـنـا الـحُـورُ، مُـخْـتـصَـرَاتُ
ونـحـن بـمـغـنـاطـيـس ذا الـحـب كـالـذي ... تُـخـدِّره مـن غـيـره الـخـطَـرَاتُ[2]
تـراه إذا مـا نـام، مُـسْـتَـسْـلِـمَ الـقُـوَى ... وتـفـعـل مـا شـاءت بـه الـنـظـرَاتُ

❁❁❁

(*) «مرَّت الثمرات» أضحت مُرَّة الطعم.
(١) (ألف) يا «أسفا» هي (ألف) النُّدبة، أو هي مقلوبةٌ عن ياء المتكلم. وأصلُها يا أسفي. والأرواح جمع ريح. وقولُهم: أرياح، خطأ. .
(٢) يشير إلى التنويم المغناطيسي. وقد ثبتَ أنَّ الفاعل فيه هو توجيهُ الفكر، وتحديد النظر.

في الأغراض والمقاطيع

قال في أغراض مختلفة:

[من الطويل]

كففتُ عن الدنيا يدي ولساني ... وهمِّي ولكنَّ الجُموحَ عَناني(*)

فما برِحتْ خيلُ الليالي تردُّني ... إذا نَشِبَتْ حربُ الهوى لمكاني

عفا اللَّه عن قلبي فلولا اضطرابهُ ... بهذا الهوى ما اهتزَّ فيه لساني

وللقلب عهدٌ يَنزِلُ الجسمُ عندَه ... على حُكْمه، من عِزَّةٍ وهَوانِ(**)

فما حذَّثتني النفسُ يوم عَظِيمةٍ ... فشمَّرْتُ إلَّا زلَّتِ القدَمانِ

إذا عشِق الإنسانُ قصَّ جناحَه ... وهيهاتَ للمقصوص بالطيرانِ!

ومِن ضَيْعَة الأعمار أني أرى الهوى ... أمانيَّ لا يتْبَعْنَ غيرَ أماني

ولوْ أنَّ لي عُمْرَينِ عشتُ متيَّماً ... بعمرٍ وكافحتُ الزمانَ بثاني

ولكنما الدنيا رياضٌ وأهلُها ... ثِمارٌ على أغصانها لأوانِ(***)

وفي كل يوم رجفةٌ من فجيعة ... وهل بقيتْ دارٌ على الرجفانِ؟

فإنْ لمتموني بالزمان وأمْرِه ... معي، فأرُوني أين شخصُ زماني؟

ولو أنَّ هذا الدهرَ للعزِّ لم نكنْ ... نُسلِّمُ للدنيا بغير ضَمانِ

تَقطَّع قلبي كلُّ قسم لحادثٍ ... كأحرف رمزٍ قُطِّعتْ لمعاني(1)

(*) «عناني»، لها غير معنى، منها: أهمَّني وشَغلني؛ وقد تكون بمعنى المشقَّة والعذاب، من العَناء. فهي بمعنى: برَّحني ـ الخ.

(**) ينزل على حُكْمه: يأتمر بأمره، وينصاع.

(***) الأوان: الحينُ والموسم.

(1) أحرف الرمز: هي الأحرف التي يُتَواطأُ عليها بين اثنين أو جماعة، اصطلاحاً على تعبيرٍ مخصوصٍ يتفاهمون به فيما بينهم. ويُعرف هذا النوع عند الإفرنج (بالكرِبْتوغرافيه). وهو قديم في التاريخ، أكثرُ ما كان يستعمل في الحروب. ولم يكن إلا كتابةً؛ ثم اصطلحوا في القرن الخامس عشر وما يليه على استعمال الأرقام؛ وجرى ذلك إلى اليوم. وأكثرُ من يحتاج إليه: رجالُ السياسة.

ولهذه الكتابة طرقٌ مختلفة، وهي تكون بالكُتب، والتلغراف، والعلامات، كالمصابيح في البحر =

وذلك تاريخُ الحياة شرحْتُه ... بشعري ومن قلبي يفيضُ بَياني
إذا قلَّبَتْه النفسُ يوماً فخشخشتْ ... صحائفُه سَمَّوْهُ بالخفقانِ
سيأخذُه مني الملائكُ بعد ما ... يُصان بسِجِلْدَيْنِ هما الكَفَنانِ
فياليتَ يمحى منه «بابُ فلانة» ... وإنْ لم يكن سوءاً «وبابُ فلانِ»؟
ولكنَّ هذا الحبَّ نارٌ تسعَّرتْ ... وأيَّتُما نارٌ بغير دخانِ؟[*]
وإن عبثَتْ قلبي بالهوى وهو طَبْعُه ... فعِبْ قُرْصَ هذي الشمس باللَّمَعَانِ!

❁ ❁ ❁

وقال في صاحب لا يكتم السرَّ:

[من الطويل]

ولي صاحبٌ أودعتُ سرِّيَ حِلْمَهَ ... ولم أدرِ أنَّ الحدَّ فيه جريحُ
متى مسَّه مني على غير رِيبةٍ ... أذى خطأً، أمسى بذاك يبوحُ
أراه «فُنُغْرافاً» فمِنْ مَسِّ إبرة ... وإنْ صغُرَتْ في جانبيه، يَصيحُ[**]

❁ ❁ ❁

وقال في رجل متقلب يكون مع كل إنسان بوجْهٍ:

[من الطويل]

وجوهُكَ شتَّى: واحدٌ ذو بلاهةٍ، ... وآخرُ من هذه البلاهة باردُ
ووجهٌ أرى فيه النفاقَ ملوّناً ... وآخرُ إنْ يُبصرْ ذوي الفضلِ، حاسدُ
ووجهٌ من الكَيْد المخبأ بارقٌ ... ووجهٌ من اللؤم المشهَّر راعِدُ

= ونحوها. ولم يكن هذا الفن ذا قواعدَ عند العرب، كما هو اليوم عند الإفرنج، حتى وضعوا له المعجمات الخاصة. ومما ورد من ذلك أنَّ ملِكاً أرسل رجلاً يتجسَّسُ أحوالَ عدوِّه؛ فوقعَ أسيراً بينهم ثم أُمر أن يَكتُبَ إلى ملِكه أنَّ العدوَّ ضعيفٌ، وأنهم قليلون. فكتبَ في ذلك كتاباً جاء في آخره:
«قد رأيتُ من أحوال القوم ما يطيبُ به قلبُ الملك. نصحتُ فدَعْ ريبَكَ ودَع مهلك»! ففطن الملك إلى أن المراد بالقلب العكس، وأنَّ مقلوبَ الجملة الأخيرة «نصحت» الخ. هكذا: «كلهم عَدُوٌّ كبيرٌ عُدْ فتحصَّنْ!» ومثلُ هذا عنهم قليل.

(*) استخدمَ «أيَّتما» على غرار (رُبَّتما)، وهو استخدام لطيف لا مطعن فيه. وقد تضمَّن الاستفهام بـ(أيّ وأيّة) والزمانية بإضافة «ما» الزائدة. أي: أنَّى لك بنارٍ من غير دخان؟!

(**) يذكر الفونوغراف، الجهاز الذي كان الناس يستمعون به إلى الأغاني المسجَّلة على أسطوانات موسيقية ذات دوائر دقيقة، بواسطة إبرة تَدُور عليه... وقد استبدل ذلك كله اليوم بما يسمى «الكاسيت» أو (السّي. دي).

فيا عجباً تمشي بستة أوجهٍ ... مع الدهر بين الناس واسمُكَ واحدُ![1]

❁❁❁

وقال وهي متنوعة الأغراض:

[من الطويل]

زمانٌ على حالَيه غيرُ مذمَّمِ ... وأحلى الهوى في المُغْضَبِ المتبسِّمِ(*)

تقلَّبْنا طَوْعاً وكَرْهاً صروفُه ... ومَن لم تقلِّبْه الحوادثُ يَسْأَمِ

فمِن فرَحٍ كالوعد في فم غادةٍ ... إلى ترَحٍ كالخُلْف في قلب مُغْرَمِ(**)

وثغرُ الهوى إن دام، يبسمُ للفتى ... سَلا، ومتى يضحَكْ شبابُك تَهرمِ(***)

ولي صبوةٌ لم يَغْضُر الهجْرُ ماءها ... ولا كُدِّرتْ يومَ اللقاء بمأثمِ

صقلتُ بها قلبي فكم مرَّ حادثٌ ... يَفلُّ المواضي وهو لم يتثلَّمِ(****)

ورقَّتْ بها نفسي على كل فاجعٍ ... ومهما جهذْتُ الماءَ لا يتضرَّمِ

وأعرضتُ عن خِلٍّ رأيتُ لسانَه ... من اللؤم مثلَ الظُّفْر، غيرَ مُقَلَّمِ[2]

إذا لم يكن حُرّاً فلستُ بنادمٍ ... وإن كان حراً عاليَ النفسِ ينْدمِ

❁❁❁

وبي غادةٌ إنْ تَبتسِمْ خِلْتُ أنها ... على حُسْنها مخلوقةٌ من تَبسُّمِ

تُكلِّفُني صبراً وما الصبرُ هَيِّنٌ ... وهل نال نجماً مَنْ رأى ضوءَ أنجُمِ؟

على زَفرةٍ لو أنشقوها لنائمٍ ... رأى أنه في مارجٍ(*) من جهنمِ[3]

---

(١) إنما جَعل الأوجُهَ ستةً لتطابِقَ الجهاتِ الستَّ المعروفة، وهي الأمام، والخَلْفُ، واليمينُ، والشِّمالُ، وفوقُ، وتحتُ.

(*) «غيرُ مذمَّم» أي لا ذِمَّة له ولا عَهْدَ.. و«المغضب المتبسِّم» هو الحبيب الذي يخاصم فيغضَبُ، ثم يرضى فيبتسمُ.

(**) الخُلْف (بالضم) الإخلاف.. الإخلال بالوعد. وما أكثر ما يقع بين أهل العشق!

(***) بيتٌ ثقيل الصياغة، متكلِّف المعنى ـ فما معنى كلمة «سلا» في العجز؟ وما قيمتها ومحلُّها في الإعراب؟ وما معنى (هرم الشباب إذا ضحك)؟ هل هو مسْخٌ لقول دعبل الخزاعي:

لا تَعجبي يا سَلْمَ من رجلٍ ... ضحِكَ المشيبُ برأسه فبكى!

(****) يفلُّ: يقطع. المواضي، ج ماضٍ، وهي السيوف القاطعة. لم يتثلَّم: لم يتشقق من كثرة الاستعمال.

(٢) هذه الكلمة جامعة لكل صفات اللسان البذيء، لأن الظُّفْرَ إذا لم يقلَّم، كان طويلاً قذِراً حادًا. وهي أشهر تلك الصفات.

(*****) المارج: الشعلة الطويلة من اللهب، المختلطة بسواد النار.

(٣) «رأى»: من الرؤيا، وهي الحُلم. ومن الغريب في أمر هذه الأحلام أنك لو أدنيتَ من جفن النائم =

يقولون أَخْرِجْ من فؤادك حُبَّها! وكيف أُنقِّي الحبَّ يا قومُ من دمي؟
وما نَزل الحَسَنُ السويُّ بسُلَّمٍ إلى القلب، حتى ترفعوه بسُلَّمِ[1]
خُذوا خطراتِ الفكر عني لعلني أغالِطُ نفسي بعدَها بالتوهمِ
وإلَّا فما أذهبْتُمُ الشوقَ إن أَنا أَقَرَّ به قلبي، وأنكَرَهُ فمي
بربِّك يا هندُ اجمعي بين مهجتي وبين شهودٍ من جفونك، واحكمي!

❁ ❁ ❁

= مِصباحاً، لرأى أنه ينظر في نومه، إلى حريق مضطرم. ولو أدنيت شيئاً حارًا من قَدمه، لحلَم أنه يطأ على النار؛ ولو نضحْتَه بدفعةٍ من ماء باردٍ، لخُيِّل له المطرُ والبَرقُ، وما أشبه ذلك.

(١) الحسَنُ السويُّ: التام.

في المديح والتقريظ[1]

قال، وكتب بها إلى أستاذ الأدب، وفخر البيان في لغة العرب، الشيخ إبراهيم اليازجي[*] الشهير:

[من الكامل]

نظَرَتْ إليَّ فقلتُ يا قلبُ اتَّقِ ... وتقولُ بالألحاظ للقلب: اعْشَقِ!

وأصدُّهُ عنها فتجذِبُه، وإنْ ... قلتُ استكِنْ، تَنْظُرْ إليهِ فيَخْفِقِ

يا قلبُ ما في الحب إلَّا ذلَّةٌ ... إن مَسَّ خاطرُها عزيزاً يُطْرِقِ[**]

وصبابةٌ إنْ مسَّ جَفْنَيْ نائم ... ريحٌ تمرُّ بها عليه، يأرِقِ

هل للغواني موعدٌ يعرفْنهُ ... إلَّا مقالةَ: سوفَ، يوماً، نلتقي؟

ومتى، ودهري أحمقٌ يأتي لنا ... من صُلْبِهِ، إلا بيومٍ أحمقِ؟

وإذا تعاقَلَ دهرُ حرٌ مَرَّةً ... فهو الغراب متى تفاصَحَ يَنْعَقِ

لو أنه أعطى الرجال بِحقِّهم ... لأَحلَّ إبراهيم عينَ المشرقِ[***]

خرِسَ الزمانُ لنطقه وأَرى له ... قلماً متى أوحِي لِأَخرَسَ، ينطِقِ

---

(١) هذه القصائد والمقاطيع كان لها باب مخصوص في الجزئين الأول والثاني، لكننا أثبتناها هنا، لقلتها. وهي مرتبة على تواريخ نظمها.

(*) هو إبراهيم اليازجي ابن الشيخ ناصيف اليازجي، اللذين قاما معاً بشرح ديوان المتنبي وسمّياه: «العَرْف الطيب في شرح ديوان أبي الطيّب». وهما من بلدة كفرشيما في ساحل جبل لبنان الجنوبي. ولد إبراهيم سنة ١٨٤٧م وتوفي سنة ١٩٠٦م تاركاً في اللغة والأدب والترجمات، الآثار الكثيرة. راجع دارستنا الموسَّعة له ولوالده في كتابنا: «في محراب الكلمة» المكتبة العصرية ـ صيدا ـ بيروت سنة ١٩٩٩ (ص١٣ ـ ٤١).

(**) أطرق: سكتَ ولم يتكلم، وأغضى من الأسى والحزن.

(***) لا مِزيَّةَ في أن أبيات القصيدة، حتى الآن، شابها الكثير من التكلف.. أتراه فعل ذلك، فصقل شعره ونقَّحه وأعمل فيه علمه ولسانه، ليحاكي فصاحة اليازجي وطول باعه اللغوي؟ الأرجح أنه فعل ذلك لهذا السبب، فانخفض ألق الشعر لصالح الجهد اللغوي التعبيري.. وقد أكدَّ ذلك بنفسه في بيت لاحق لشرح إقدامه على تحبير هذه القصيدة، وسمَّاها «بنت ساعتها» وقال: إنَّ لفظة غير مطروقةٍ، خَير من كتاب...

يـهـتـزُّ فـي تـلـك الأنـامـلِ هـيـبـةً كـالـبـحـر يـلـعـب مـوجُـهُ بـالـزورقِ
قـلـمٌ إذا الأقـلامُ صِـحْـنَ تَـرىٰ لـه صـوتَ الـبـنـادق بـيـن صـوت الـبُـنْـدُقِ
وتـراهُ إن وشَّـى الـسـطـورَ أتـى بـهـا مـثـلَ الـشـبـاب عـلـى بـيـاض الـمـفـرقِ
أحْـيَـا لـنـا الـلـغـةَ الـتـي قـد شـوَّهـوا مـن خَـلْـقِـهـا، فـكـأنـهـا لـم تُـخـلـقِ
وأبـاحَ مـن ثـمـراتـهـا ولـقـد أرى غُـصُـنـاً بـكـفٍّ سـواهُ لـمَّـا يُـورِقِ

* * *

مـولايَ هـذي بـنـتُ سـاعـتـهـا وخـيـ ـرٌ مـن كـتـابٍ، لـفـظـةٌ لـم تُـطْـرَقِ
إنْ قـصَّـرَتْ عـمَّـا أريـدُ فـإنـمـا كـلـمـاتُـهـا أنـفـاس وقـتـي الـضـيِّـقِ
وحـديـثُ يـومٍ مـن لـسـانِ مـنـافـقٍ أدنـى وأقـصـرُ مـن تـحـيـةِ شَـيِّـقِ

❂ ❂ ❂

وقال وبعث بها إلى نادرة الفَلَك العلامة سليمان أفندي البستاني(*) معرِّب الإلياذة الشهير:

[من المديد]

سِـرُّهُ فـيـهـا قـد انْـهـتـكـا فـإذا مـرَّ الـنـسـيـمُ شَـكـا

* * *

نـاحـلٌ لـولا تـنـهُّـدُهُ وفـؤادٌ فـوقَـه يَـدُهُ
ودمـوعٌ مـنـه تُـسْـعِـدُهُ ظـنَّـةُ الـعـذَّالُ قـد هَـلَـكـا
وهْـوَ إنْ لاح الـصـبـاحُ لـهُ ورأى شـمـسَ الـصـبـاح، بـكـى

* * *

ظَـلَـمَـتْـهُ وهْـوَ مـا ظَـلَـمـا حـمَّـلَـتْـهُ، وهـو مـا سـئـمـا
حُـبُّـهـا والـبُـعْـدَ والـسَّـقَـمَـا تـركَـتْـهُ وهْـوُ مـا تَـرَكـا
وطـرق الـحـب واسـعـةٌ ربـمـا ضـلَّـتْ بـمـن سَـلَـكـا(**)

* * *

أنـا مـن نـفـسـي ومـن زمـنـي والـهـوى والـهَـجْـرِ والـمِـحَـنِ

(*) سليمان بن خطار البستاني، الأديب الشاعر والوزير المعروف، صاحب الإلياذة المعرّبة شعراً. ولد في بكشتين، من قرى الشوف في جبل لبنان سنة ١٨٥٦م. قام بأسفار عديدة وشغل مناصب رسمية: عضواً في مجلس الأعيان العثماني، ووزيراً للتجارة والزراعة. توفي في نيويورك سنة ١٩٢٥، تاركاً آثاراً في الترجمة والنقد والكتابة الموسوعية..

(**) في البيت خلل عروضي لنقصٍ في مطلعه. لم نضف شيئاً وربما كان البيت: (إنَّ طُرَق الحب واسعةٌ).

مـعَ هـذا الـهـمِّ والـوهَـنِ أغـزَلٌ قـد خـاضَ مـعـتـركـا
يـا سـلـيـمـانـاً وأنـتَ لـهـا ذي يـدي، فـامـدُدْ لـهـا يـدَكَـا!
أنـا دُرٌّ مـا لـه صَـدَفُ أنـا سَـهْـمٌ مـا لـه هَـدَفُ
أنـا قـلـبٌ مـضَّـه أسَـفُ أنـا جـوٌّ نـيِّـرٌ حَـلَـكـا(*)
وأرى نـجـمـي عـلـى قـلـقٍ فـكـأنْ قـد هـاجـرَ الـفَـلـكـا

* * *

أيـهـا الـشـرقُ الـمـنـيـر أمَـا قـطـرَتْ فـيـك الـقـلـوبُ دَمَـا؟
ثـم أجْـرَوا فـي الـدم الـقَـلَـمـا فـغـدا فَـخـرُ الـعـلـوم لَـكَـا
لـيـت شـعـري كـيـف صـرْتَ ومـا نُـطْـقُ طـيـرٍ، كـيـف قـيـل حـكـى؟

* * *

عـصـبـةُ الـشـرق إذا فُـقِـدوا «فـسـلـيـمـانُ» لـه سَـنـدُ(**)
هـو فَـرْدٌ تـحـتَـه عـدَدُ وهـو رأسُ الـمـال لـلـشُّـرَكـا
وكـنـوزُ الـبـحـر جـوهـرُه وإنِ الـبـحـرُ امـتـلا سَـمَـكَـا

* * *

هـو فـي الأقـلام قـائـدُهـا هـو فـي الأعـلام واجِـدُهـا
هـو فـي الأخـلاق بـيـن بـنـي آدمٍ قـد مـثَّـل الـمَـلِـكَـا(***)

❁ ❁ ❁

وقال وبعث بها إلى العلّامتَين الفاضلين منشِئَي مجلة (المقتطف) تقريظاً لدخولها في السنة الحادية والثلاثين(****):

[من البسيط]

وَصَلْتُما نَسَبَ الشرق الذي قَطَعَتْ كفُّ الليالي بأهليهِ الأُلى سلَفوا

(*) حَلَكَ: أظلم. وهو من الحُلْكَة: شدَّةُ السواد.

(**) البيت ضعيف البنية، سطحيّ المعنى والصورة. فقد أسند فعل جمع المذكر العاقل «فقدوا»، لاسم جنس، «عصبة الشرق» فلو قال: (إذا فُقِدت... فسُليمانُ لها سَندُ) كان أسلم وأقوى.

(***) لا نرى الشاعر هنا قد أجاد في شعره.. إنْ هي إلّا صورٌ وتراكيبُ لا يربطها إلّا أفكار وتصورات، يمكن أن تقال في الخطاب النثري، ولا روح شعريةً فيها.

وهكذا هو في معظم مدائحه وتقاريظه، ناظم أفكار وصائغ صور وتراكيب، لا مبدع شعر كما هو في غيرها.

(****) أنشأ هذه المجلّة، الكاتبان اللبنانيان، الدكتوران: **يعقوب صرُوف وفارس نمر**، من بواكير =

وردْتما وجنتَيْهِ بالشباب وقد غشّاهما من صَدا أيامه كَلَفُ(*)
كم بات ينظرُ مرآةَ الزمان فلا يَرى بها غيرَ آثارٍ لما وَصَفُوا!
وما الذي جاءه من كل قاصيةٍ وظلَّ يبحث في الآثار «مكتشِفُ»؟
وإنما عَدِمَ الشرقُ الرجاءَ بنا فبات يَنقُبُ في «أحشائه» الأَسَفُ
تخاذَلَ القومُ حتى لو تُسائلُ عن معنى الوفاق، لضلُّوا فيه واختلفوا
وأنتما في جوابِ الخاذِلين لهم بعُقدة الرأي تلك اللامُ والألِفُ(1)
العِلمُ في طَرَفٍ من غَرْب روضكما وللسياسة من شرقيّه طَرَفُ(**)
وبين هذين روضٌ مثمرٌ فَكِهٌ داني الجنى، ولهذا قيل «مقتطَفُ»
لوْ أنَّ للعلم شخصاً، كنتما ملَكيْ أعماله، ودليلي هذه الصحفُ

❁ ❁ ❁

وقال: يُقرّظ خطاباً في التربية، ألقته السيدة الأديبة جوليا إبراهيم حنا، وأجادت في إلقائه والإيماء به، ما شاءت الإجادة:

[من الخفيف]

نطقَتْ فالبيانُ يَقرعُ أُذْناً والمعاني إلى القلوب خِفافُ
بكلامٍ كأنّه صَدَقَاتٌ فلهذي النفوس منه اختطافُ(***)
عنده الناس في المديح سواءٌ ولهم في سواه بَعْدُ، اختلافُ
أنت «يا جوليا» إذا قلتِ قولاً لم يكن للنفوس عنه انصرافُ

= تلامذة المدرسة الكلية الأميركية في بيروت المعروفة اليوم: بالجامعة الأميركية. وكان ذلك سنة ١٨٧٦. ثم انتقلت المجلة إلى مصر سنة ١٨٨٤ لتضمَّ في صفحاتها كبار الكتاب والعلماء والشعراء الذين سمتْ بهم أقلامهم إلى أرقى المراتب.
(أنظر: «**تاريخ الصحافة العربية**» للفيكونت **فيليب دي طرازي**. بيروت سنة ١٩١٣، جزء ٢/ ٥٢ ـ ٥٧).

(*) الكلَفُ، في الحقيقة: نَمَشٌ يعلو الوجه. شُبِّه به كل شيء لا يكون من صميم جنسه، كالولوع في الحب، وصنعة الكتابة البالغة حدًّا أكبر من المطلوب، الخ.. ومنه الصدأ الذي يعلو سطح الحديد...

(1) «اللامُ والألف» لا ينفكان. ويضرب بهما المثل في التلازم والاتحاد. وهذان الفاضلان مَثَلٌ حيٌّ في ذلك.

(**) أراد أنهما جَمعا المجد من أطرافه؛ وقد أشار إلى ذلك بجهتي الغرب والشرق، رامزاً إلى ثقافة الغرب وعلومه ومدنيّته، وإلى روحانية الشرق وحضارته العريقة.

(***) تشبيه رائع، جعل كلام الأديبة هنا بمنزلة الصدقة التي تخرج من رأس المال فتزكّيه وتُطهّره. ولا أرى أنه سبق إلى هذه الصورة الراقية.

فهو الطهرُ والفضيلةُ والعزُّ (م) ةُ والمَجْسد والتقى والعَفافُ

۞۞۞

وقال: يُهنئ صديقه الطبيب الرمدي(*) الشهير اسكندر بك جريديني بزفافه، وبعث بها إليه لاقتصار الحفلة على ذويه مراعاةً للحداد:

[من الرمل]

يا عروسَ الطهرِ فوق السحُبِ
ظاهراً منها وشاحُ الذهَب(١)
في التماعِ النيِّرات الشُهُبِ
في ائتلاق الخمر أمِّ الطَربِ
في ازدهاء القَطْر فوق العُشُبِ

* * *

أُرقبي الشمسَ لدى مشرِقِها
وانزعي الإكليل عن مَفْرِقِها
وخذي الصافيَ عن مُونِقها(**)
قَبْلَ أن تُسْتَر من رونقها(***)
برداء الأُرجوان القشِبِ(****)

* * *

واجمعي من كل روض نَفَسا
واخلعي عن كل زهر ملْبسَا

(*) نسبةً إلى مرض الرَّمَد، وهو مرض يصيبُ العين، وقد سمِّي طبيبُ العيون بالرَّمَدي، لهذه النسبة!

(١) الوشاح: ما تتقلده المرأة متشحةً بهِ، فتطرحهُ على عاتقها، فيستبطن الصدرَ والبطن، وينصبُّ جانبه الآخر على الظهر، حتى ينتهي إلى العجُز، ويلتقي طرفاه على الكشح الأيسر. فهو من المرأة في موضع حمائل السيف من الرجل. والمراد بوشاح الذهب: ما يتموج من تفاويف السحاب..

(**) المونق (مخفف «مؤنق» بالهمز) وهو الجميل المُعْجِبُ. من آنَقَ إيناقاً: أعجبَ..

(***) الرونق، من كل شيء: أَوَّلُه وماؤه الصافي وحسْنُه...

(****) القَشِبُ والقشيبُ: من ألفاظ الأضداد. فهي الجديد، والبالي.
فيقال: سيفٌ قَشِبٌ: مجلُوّ، وسيف قَشِب: يعلوه الصدأ.

واجعلي ديباجه والأطْلَسا(*)

وحريرَ الياسمين الأمْلسا

حُلةً تكسو عروس العَجَبِ

* * *

ثم جيئي الطيرَ في تلحينها

وخذي الأنغام من تلقينها

واسمعي الغُدران في أنينها

واسألي الألحاظ عن رنينها

في فؤاد المستهام الوَصِبِ(**)

* * *

فإذا أتممت هذا أجمعا

فاصحبي العفّة ثمّ أسْرعا(***)

وأتيا في الأرض بدراً طَلعا

ثم قوما في زفافه معا

بين هاتيك الحِسَان العُرُبِ

* * *

فضعي الإكليل في حِلْيتِهِ

وانشري الأنفَاس في حُلّتِهِ

واجعلي الألحانَ في نغمتِه

واخْلُفي الشاعرَ في كِلْمَتِهِ[1]

إنها قُبلَة خَدِّ الأدبِ

* * *

بارَكَ اللّهُ بتحقيق المنى

(*) الديباج: ثوبٌ لُحمته وسَداه من الحرير. والأطلسُ، ثوبٌ من حرير منسوج.

(**) الوصِبُ (اسم فاعل) من وَصِبَ يَوصَبُ، إذا مرِضَ وتألَّم. وهو أيضاً، التعب الشديد.

(***) قوله: «ثم أسْرِعا» أي أنتِ والعفّة. لكنه عطفٌ ثقيل، هبط فيه المد الشعري المنساب في المقاطع السابقة، إلى حضيض الشعر.. كذلك الشطران الشعريان التاليان..

(١) الكلْمة: هي القصيدةُ. والشاعر لم يكن موجوداً هناك، بل بعثَ بقصيدتِهِ..

للعروسين وزاد في الهنا

وأدامَ الحبَّ موفورَ الجنى

لنرى الحسناءَ أُمَّ الأُمَنا(*)

ويكون «اسكندرُ» خيرَ أَبِ

❁❁❁

أبيات عينية

وبعث إليه صديقه المذكور بالأبيات الآتية:

[من الرمل]

أيها «الصادق» في وِدادِه — والسفتى البارعُ وابنُ البارعِ

طمِعَتْ في وُدِّكم نفسي وما — أنا بَعْدَ «المصطفى» بالطامعِ

وإذا الأوغادُ راموا الحطَّ من — رِفعتي لا شك أنتَ «الرافعي»(**)

❁❁❁

فكتب إليه:

كلماتٌ تلك، أم ذي أعينٌ — جعلت قلبي لها كالخاضِعِ؟

أَشرقَتْ مثلَ فتاةٍ لفتى — تلك في القصر، وذا في الشارع

وهيَ للودِّ الأقانيمُ التي — ما لها في عَدِّها من رابعِ(١)

يا طبيبَ العين هذي «قَطْرَةٌ» — من دَوا جَفْنِ القريض الدامعِ(***)

فاقبلِ التقصيرَ من عينَيْ فتىً — غضُّها في ذا الضياء الساطعِ

❁❁❁

(*) لعلها جمع «الأمين». أي الأنجال الأمناء على التاريخ والسيرة والسلالة العريقة.

(**) استخدم الشاعر الأسماء الثلاثة لمصطفى صادق الرافعي، ووظفها تباعاً في الأبيات الثلاثة. «الصادِق» في «الوداد» وهو المحبة الخالصة. و«المصطفى» أي المُسْتَصْفى، المنتقى، وهما من أجمل الأوصاف النفسية. و«الرافعي» ضمَّنها معنيين الأول: اسم الشاعر وعائلته، والثاني: (رافعي) من الرتبة الوضيعة التي رماني بها الأوغادُ، وهم: الأدنياءُ الأراذل. و«الصديق المذكور»، هو الطبيب الرمدي اسكندر الجريديني...

(١) الأقانيم: هي الآب والابن والروح؛ والمراد: أبياته الشعرية التي يشبِّهها بالأقانيم.

(***) القريض، الشعر المنظوم. و«القطرة» تورية لمعنيَيْ: قطرة الدواء الذي يصفه طبيب العين وهو الممدوح، وقطرة الدمع السائل من عين الشاعر بفعل الشوق والفرح..

وقال: مُقَرِّظاً رواية «الشعب والقيصر» التي عرَّبها صديقه الأديب جورج طنوس(*):

[من السريع]

«طنوسُ» قد أرسَلْتها نفثةً تهزأ بالسِّحر ومن يَسْحَرُ
وقطرةٌ من قلمٍ مُبرقٍ غمامُه في أرضنا مُمطِرُ
بدَتْ لنا من أُفْقٍ نيِّرٍ وأنتَ هذا الأُفقُ النيِّرُ
بين الروايات لها دولةٌ كأنهنَّ «الشعبُ والقيصرُ»

❁❁❁

وقال وبعثَ بها إلى ابن عمه الشاعر الناثر: عزّتلو، عمر بك تقي الدين الرافعي(**):

[من الكامل]

لو كنتَ تعلم ما يكونُ نَصيبُهُ لم يَستَمِلْكَ عذولُه ورقيبُه
رُدُّ السلامَ عليه أيةُ رِيبةٍ فيمن يُسَلِّم مرّة وتُجيبُه؟
وكفىٰ تعانِدُه الطبيعةُ كلها حتى لأوشكتِ الحياةُ تُذيبُهُ
فالنجمُ مكتئبٌ عليه سهادُهُ والأُفقُ مُغْبَرٌّ عليه شحوبُه
والغُصْنُ ميّاسُ القَوام يُغيرُه والأَيكُ صدَّاح الهزَارِ يُريبُه
والروضُ ممتزجٌ به نفَسُ الحبيـ ـب ولا يكون إلى المحب هبوبُه
لامرُوءَ فيما ضَرَّه؛ ما ضرُّه إلّا ملامُهُمُ وتلكَ ذُنوبُه
يا قومُ إنْ جرَحَ الطبيبُ مريضَه فكفى عزاءً أنَّ ذاكَ طبيبُه
ما قال آهٍ، لا يقول صيانةً لحبيبه، كي لا يُقالَ حبيبُه

(*) جورج طنوس: صحافي من لبنان، اشتغل في عدة جرائد ومجلات مصرية، وكتب في المسرح، وكان ينشر مقالاته تحت اسم مستعار هو «محمدين». عاش بين عامي سنة ١٨٨٠ و١٩٢٦ (الأعلام: للزركلي ج٢/ ١٤٦).

(**) من أعلام طرابلس الفيحاء ومحاميها وقُضاتها ومدرِّسيها. تنوعت أعماله، وتعدَّدت أسفاره ما بين طرابلس، وبيروت، وحلب، ودمشق، ونابلس، ومصر. وسُجن مدة طويلة بسبب مواقفه الوطنية ضد الحكم العثماني. وترك ثروة شعرية في موضوعات شتى تزيد على الستَّة آلاف بيتٍ شعريٍّ، معظمها في الزهد والتدين. ولد سنة ١٨٨١، ولم تعرف سنة وفاته.
«مصادر الدراسة الأدبية» ليوسف أسعد داغر ـ المكتبة الشرقية ـ بيروت سنة ١٩٨٣ جزء ٤/ ص٣٠٠ ـ ٣٠١.

وفضيحةُ المشتاق أهونُ عنده ... مما تُكِنُّ من الغرام جُنوبُه(*)
كالنار ذاعَ دخانُها مِلْءَ الفضَا ... والجمرُ مقتصرٌ عليه لهيبُه
ما عُدَّ في الشعراء من لا يحتذي ... شِعْري، إلى «عمرَ التقيّ» نَسيبُهُ
أتمثُّلُ الآدابَ فيه فينبري ... لعجيبهنَّ من البيان عجيبُه
خُلُقٌ تولَّى اللّهُ جمْعَ شتاتِه ... فالفضلُ أجزاءٌ وذا تركيبُه
وإليكَ يا عمرٌ تحيةَ وامقٍ ... أهداكَها بيد الزمان أديبُه(**)

⊛ ⊛ ⊛

وقال في صوت وتمثيل صديقه، بلبل العصر الغرّيد، والممثل الشرقي الفريد، الشيخ سلامة أفندي حجازي الشهير(***):

[من البسيط]

صوتٌ حوَاهُ وأبقى منه باقيةً ... لغيره فَحَواها البلبلُ الغرِدُ
تغايرتْ فيه أنواعُ الغناء فمِنْ ... تلقيبه بالحجازي يَشْتَكِي الرصدُ(****)
إن قال آهٍ لحزْنٍ خِلْتَهُ مَلَكاً ... يقول: اللّهُ، والإنشادُ يطَّردُ(*****)
وكم له أنَّةٌ في موقفٍ غَزِلٍ ... يكاد يُخْلَقُ منها للهوى كبدُ!
وكم يُشيرُ إلى حُسْنٍ فتحسبُ أن ... قد هزَّتِ القلبَ في مهد الضلوع يَدُ
وكم له نظراتٌ هُنَّ من طَربٍ ... بَيْن النفوس وأسبابُ الهوى عُقَدُ
إذا تلاهى حسبْتَ اللهوَ شيمتَهُ ... حتى يثورَ فتدري أنه الأَسَدُ

(*) الجنوب، ج جَنْب. وهو الشّقُّ من الجسم. وعنى به هنا، حناياه وجوفه بعامة..

(**) الوامِق: المُحب، الودود. وقد فرّقوا بين الوامِق والعاشق، فقالوا:
الوِمَاقُ: محبةٌ لغير ريبة، والعشق محبةٌ لريبةٍ (لسان العرب [ومق] ١٠/ ٣٨٥).

(***) وُلد الشيخ سلامة حجازي في الإسكندرية سنة ١٨٥٢، من أب يعمل في النقل البحري. ونشأ على حلقات الذكر وتجويد القرآن وترتيله. ثم أصبح شيخ طريقة صوفية وشيخ المؤذنين والمنشدين ثم اتجه إلى المسرح فألّف فرقة مسرحية، واشترك مع غيره من كبار رجال المسرح في التمثيل والغناء، مقدّماً عدداً كبيراً من المسرحيات الأوروبية والعربية، إلى أن أصيب بالشلل وتوفي بالقاهرة، وهو في أوج عطائه وتحضيره لمشاريع مسرحية بالغة الأهمية؛ كان ذلك سنة ١٩١٧م (مصادر الدراسة الأدبية ج٤/ ص٣٥٤ ـ ٣٥٧).

(****) الحجازي والرصد، نوعان من أنواع الألحان الموسيقية العربية التي تشبه الأوزان العروضية في الشعر. أحسن الشاعر استخدامهما في وصف صوت الشيخ سلامة..

(*****) يطَّرِدُ: يتتابع بنسق وتناغم متصاعدين..

مثلَ النسيم، فبينا تلتقيه صَباً ... في رقة الصبح، إذ تَلْقاه يتَّقِدُ
يا واحدَ الشرق في التمثيل دُمْتَ له ... حتى يرى الغربُ أنَّ الشرقَ منفردُ
زَفَفْتَه لكمالٍ ليس يَنقُصُهُ ... إلّا قرائحُ من كتَّابنا تَلِدُ
يُعَرِّبون، وهم يا خَجلَتَا عَرَبٌ ... كأننا ما لنا عَضْرٌ ولا بَلَدُ
يا قومُ ذا جسَدُ الشرق انطوى فمتى ... نفَخْتُمْ روحَكُم يَنهضْ بها الجَسَدُ

❁❁❁

وقال وقد بعَثَ بهما إلى الأستاذ الحكيم المرحوم الشيخ محمد عبده(*):

[من الطويل]

لكَ اليدُ يَخْشَى الظالمون يَراعَها ... وإن مُدَّتِ الأيدي فما فوقها يدُ
وأفحَمْتَ أهلَ الشِّركِ حتى كأنّما ... مِدادُك مما يَجْلُبُ الخِزْيَ، أسودُ

❁❁❁

بور آرثر(١)

قال قبل سقوط هذه المدينة الحصينة في الحرب الروسية اليابانية، وكان الروس محصورين فيها(**):

[من البسيط]

حصنٌ إذا ذَكَروه مثَّلوا الأَمَلا ... كأنما الدهرُ في تشييده عَمِلا
الإنسُ داخِلَهُ والجنُّ خارِجَه ... والموتُ بينهما ما انفكَ مُمْتَثِلا

(*) **الشيخ محمد بن حسن خير الله**، من آل التركماني؛ حكيمُ مصر في العصر الحديث، وأحد أعمدة الإصلاح الحديث، ومناوئ الإنكليز حتى مماته. حرر جريدة «الوقائع المصرية»، وأنشأ مع **جمال الدين الأفغاني** جريدة «العروة الوثقى»، وشغل منصب الإفتاء في الديار المصرية. وكانت ولادته سنة ١٨٤٩ ووفاته في القاهرة سنة ١٩٠٥ وله من الآثار: **«شرح مطول لمقامات بديع الزمان الهمذاني»، و«شرح نهج البلاغة لعلي بن أبي طالب»، و«رسالة التوحيد»، «وتفسير القرآن»**...

(**مصادر الدراسة الأدبية**، ج٤ ـ قسم أول، ص٥٩٧ ـ ٦٠٢).

(١) كان فتح هذا الحصن عجيبةً من عجائب الحروب. وقد سقط بعد نشر هذه القصيدة بأيام قلائل، وذلك بعد أهوالٍ مسطرة في التاريخ.

(**) بورآرثر، مرفأ صينيّ في الطرف الأقصى من خليج الصين في البحر الأصفر. احتلَّها اليابان من روسيا سنة ١٩٠٥، ثم أعيد إلى دول الاتحاد السوفيتي سنة ١٩٤٥ واستعادتْه الصين سنة ١٩٥٤ Petit larousse en couleur) P: 1493

بَنَوْهُ مثلَ بروجِ النحس واعتصموا ... به وما علموا أنْ اغضبوا زُحَلا(*)
يا صاحبَ (الروس) ما أغنىٰ الجنودَ إذا ... تعلّموا الحربَ أنْ يَغْدوا لها مَثَلا!
رميتَ بالجيش صخراً ليس ذا وهَنٍ ... كالنجم لا عَيْبَ إلّا أنه أَفَلا
أما الحصونُ فقد مالت إلى غَزَلٍ ... فكلما لزِمَ البابَ امرؤ دَخَلا
(وبورت أرثر) قد كانتْ مُحَجَّبَةً ... تبغي لها بَطَلاً لا يشبه البَطَلا
فما لها كشفتْ عن صدرها فغَدَتْ ... أشواقُ عاشِقهاتأتي لها شعلا(١)
وأولُ الوصْلِ أنْ يَبْقى الحبيبُ على ... شرط الإباء ولكنْ يَمنحُ القُبَلا
كأنما أرْضُها، من طول نَفْرتها ... قد استحتْ، فغَدَتْ محمرّةً، خَجِلا
وقلبُها صخرةٌ لو أنَّ نَسْمَتَها ... مرّتْ على قلب صَبٍّ عائقٍ لَسَلا(**)
وما إليها ولا منها سوى رُسُلٍ ... من النفوس وكلٌّ أكثروا الرُسُلا
ماذا استطاع امرؤٌ يَلْقىٰ مُعَادِيَه ... بحيلةٍ فيَرى مِن مِثْلِها حِيَلا؟
وما التمنع في حِصْنٍ أحاط به ... قومٌ أظافرُهُمْ قد تحفِرُ الجَبَلا؟
في الجو والبحر قد طاروا بأجنحةٍ ... وبالسفائن ماشيهِم قد انْتَعَلا
فهمْ سيوفٌ وهمْ نار وهمْ أَسَلٌ ... تَلقىٰ السيوفَ وتلقى النارَ والأَسلا(***)
وإنْ يُعَدَّ الرجالُ الصِّيدُ بينهُمُ ... يُعدَّ ناشِئُهمْ في غيرهم رَجُلا(****)
قومٌ طِبَاقُ الشرى إنْ مرّةً فَزِعوا ... رَدُّوا الزمانَ لما شاؤوا وإنْ غَفَلا
لا تزدهيهمْ حياةٌ يَحفلون بها ... ذلَّ امرؤٌ بحياةِ النفس قد حَفَلا
وكيف يُفْلِحُ مَنْ يَمْضي إلى أَجَلٍ ... يومَ الوغى، بفؤادٍ يَحْذَرُ الأَجَلَا؟
يا مُنْهِضي الشرقِ نَصْرُ اللّه يَتْبعُكُمْ ... وإنْ كفَرْتُمْ فما بالكفر مَنْ خَذَلا
سرُّ الأنام عقولٌ في رؤوسهمُ ... واللّهُ أكرمُ مِنْ أن يَخْذِلَ العُقَلا
إنَّ الصبيَّ ولا إيمانَ أطهرُ مِن ... ما بين جنبيه، مَن ذا عدَّهُ بَطَلا؟
وما لذلكُمُ الأسطولِ مُضطرباً ... يطوف بالأرض حتى أفزَعَ الدولا؟

(*) زُحَل، أبعد الكواكب السيارة في النظام الشمسي.
(١) إشارة إلى أخذ اليابانيين الحصن المعروف بنمرة ٢٠٣؛ وهو مفتاح المدينة فلم يشرفوا عليها إلا منهُ.
(**) سَلَا: نسيَ ما فيه من العذاب والهموم.
(***) الأَسَلُ، واحدها: أَسَلَة: حديدة السيف المرهفة!
(****) الأَصْيَدُ، جمعه الصِّيد: الرجل الباسل الشامخ علوّاً وأصالة..

أَظُنُّهُ شاعراً ما إنْ يَلَذُّ لهُ ... مِن (بورت أرثرَ) إلا أن يَرىٰ طَلَلا
مشى على الماء رطباً من (نضارته) ... فكلما هبَّ ريحٌ نحوه، سَعَلا[١]
وكلما ذكروا (توجو) استخفَّ به ... وسوف يَعْلَم مِن (توجو) بما جَهِلا[٢]
مثلَ الغراب تولّى عند مغربها ... يَبْغي إلى عشه في طيره السُّبُلا[*]
وكان في الأفق نجمٌ حين قابله ... جناحُه بخوافيه اختفى وعَلَا
فقال أسْوَدُها: ما بالُ أبيضِها ... وقد نفختُ بعيداً عنه قد ذَبُلا؟
فليَحْمَد اللّهَ أني لو قذفتُ له ... ملْءَ الجناحين ريحاً، لانطفا عَجِلا

* * *

يا قائدَ الدولة الجاري بطائرها ... نصيحةٌ لكَ: أمهلْ سُفْنَها مَهَلا!
مَنْ جرَّبَ البحرَ فليَهْنَأ بساحِلِهِ ... ومن يخفْ لجَّةً فليَحْمَدِ البَلَلا!

ابن القيصر[٣]

[من الخفيف]

يا نفوسَ الوغى لقيصَرَ قولي ... إنَّ نَجْمَ السعود داني الأُفولِ!
قد أتينا من السماء وكنَّا ... في غِمار الجيوش قَبْل قليلِ
أَبْلَتِ الحربُ كلَّ جسمٍ علينا ... فرَمَيْنا بهِ إلى عزريلِ[**]
أيها القيصرُ العظيمُ أناةً ... إنَّ عمْرَ الزمان غيرُ طويلِ
تأمُرُ الدهرَ أن يُذِلَّ أُناساً ... أتراهُ لديكَ مثلَ الذليلِ؟
وتُريدُ القضا إليهم رَسولاً ... أعليه أَجْرَيْتَ رِزْقَ الرسولِ؟
أنتَ تقضي بالنصر حُكماً ولكـ ... ـنَّ ورا الغيبِ مجلِسَ التبديلِ

* * *

---

(١) يشير إلى حادثة مراكب الصيادين التي ضربَها الأسطول ظناً أنها من أسطول الأعداء.

(٢) توجو: هو قائد الأسطول الياباني الذي أدهش العالَم بمهارته.

(*) قوله: «عند مَغْربها» نرجح أن يكون الضمير عائداً إلى الشمس الغاربة. وإلّا، لا معنى لقوله.

(٣) نشرتْ إحدى المجلات الإنكليزية مقالةً ذكرت فيها: أنهُ لمّا كان أميرال أسطول البلطيق، يعرض على مولاه القيصر، حالة الأسطول قبل القيام لنجدة بورآرثر، ويُفَصِّل له جميعَ قِواه من النسّافات، والطرادات، والمدرعات، وغيرها، قطَع القيصرُ عليهِ كلامَه قائلاً: أتدري أنَّ وَزْنه اليوم ١٤ رطلاً؟ فدُهِشَ الأميرال وقال: أيُّ وزْنٍ يا مولاي؟ قال: وزْنُ وليِّ العهد. فكان الأميرال في البحر والقيصرُ في البرّ.

(**) أبليتِ الحربُ: جَرَّبت واختبرتْ، فقذفتْ بالناس إلينا، فسُقناها إلى عزرائيل (ملك الموت)، كناية عن الانتصار المميت.

قـال تـاجُ الـمـلـوكِ: أيـتـهـا الـرو ... حُ، أَمِـثْـلـي يُـراعُ بـالـتـهـويـلِ؟
أنـتِ شـرُّ الأرواحِ أقـبـلْـتِ مِـن شَـرِّ (م) مـكـانٍ وبـيـن شَـرٍّ قـبـيـلِ(*)
أنـا إنْ شـئـتُ فـالـقـضـاء كـلامـي ... وعِـنـادُ الـقـضـا مـن الـمـسـتـحـيـلِ
كيف أخشى النحوسَ تَظْلِم، وابني ... نَـجْـمُ سَـعْـدي وغُـرةُ الـمـأمـولِ(**)؟
أو أهـابُ الـزمـانَ يُـدْبِـرُ، وابـنـي ... بـهـنـاء الـزمـان خـيـرُ كـفـيـلِ؟
أَوْ أظـنُّ الـخُـطـوبَ تُـشْـكِـلُ، وابـنـي ... نـورُه فـي الـخـطـوب خـيـرُ دلـيـلِ؟
أَوْ أخـافُ الـريـاض تَـذبُـلُ، وابـنـي ... زهَـرٌ نـاضـرٌ مـن الـتـقـبـيـلِ؟
وجْـهُـهُ الـدهـرُ والـحـيـاة، وذا الـمـلـ ... ـكُ، وكـلٌّ مُـشَـبَّـهٌ بـجـمـيـلِ
إنـمـا الـنـصـرُ ثـغـرُهُ وابـتـسـامٌ ... مـنـهُ خـيـرٌ مِـن صـارمٍ مَـسـلـولِ
ولَـكَـم فـي الـبـحـار أُسـطـولُ حـربٍ ... وعـلـى أذرعـي أرىٰ «أسـطـولـي»!

* * *

غـضِـبَـتْ عـنـدهـا الـنـفـوسُ وقـالـت: ... نحن في الزَّمْر، والهوىٰ في الطُّبولِ(***)
قـد فـتـحـتَ الـسـبـيـل لـلـمـوت فـيـنـا ... بـيـن أقـدامـهـم وتـحـتَ الـخـيـولِ
إنـمـا الـجـنـدُ أنـفـسٌ وجُـسـومٌ ... وهِـيَ الـحـربُ «مَـعـمـلُ الـتـحـلـيـلِ»

* * *

مـا غـنـاءُ الـدنـى وأصـغـرُ طـفـلٍ ... غـالـبٌ حـبُّـه كـبـارَ الـعـقـولِ؟!

❁ ❁ ❁

وقال بعد عَقْد الصلح بين الدولتين، وقد كسفت الشمس يومئذ إلى القيصر:

[من الطويل]

فـتـحـتَ لألـحـاظ الـسـيـوف جـفـونَـهـا ... وكـان لـهـا بـيـن الـنـفـوس دَبـيـبُ
وأسـكـنـتَ ريـحَ الـمـوت فـي فَـلـواتـهـا ... وكـانـت كـدهـري: ركـدةٌ فـهُـبـوبُ(****)

(*) القبيل ـ ههنا ـ الجماعة من الناس ونحوهم.

(**) غُرَّةُ المأمول: طليعة الآمال المعقودة عليه.

(***) قصد بهذا القول: نحن نغني البطولات وندفع لأجلها أسمى التضحيات، بينما تقيم أهواء النفوس الأخرى في الطبول؛ أي في فراغات لا تحتوي إلّا على الهواء. وشتان بين هواء مسحوب في مزامير القصب بأنغام شجية، وهواءٍ حبيسٍ في طبلٍ لا يصدر منه إلّا قرْعٌ صوتيٌّ ثقيل!!

(****) ركدتِ الريحُ رَكْداً وركوداً: سكنتْ وهدأتْ. نقيضُها: الهُبوبُ.

وأقررتَ في الأرض السلامَ لأهلها ... وكان كحظي: جيئةٌ فذهوبُ
وأطلقتَ مِن بَعد الدما الماء سَلْسَلاً ... على تَلَعَاتِ الرزق فهو خصيبُ(*)
وأمسكتَ كفَّ اليُتْمِ عن كل أسرة ... فعادَ لأهليه أبٌ وقريبُ

* * *

وغنىً وسلامٌ للمطامع والهوى ... وإن قيل أوثانٌ، وقيل صليبُ
بَخسْتُم، بلادَ الشمس في النصر، حقَّها ... كأنْ لم يكن يومٌ هناك عصيبُ[١]
كأنَّ الدماءَ الحمرَ ماءٌ على الثرى ... وتلك الشعوبُ الصفرُ فيه حُبوبُ
فقد غضِبتْ شمسُ السماء لقومها ... وكادت عن الدنيا لذاك تَغيبُ[٢]

* * *

وقال في تقلب الدهور على مصر:

[من الكامل]

يا مِصرُ مَن لكِ في الزمان ومَن تُرى ... للمُقْعَدِين إذن من المُتَوثِّبِ؟
ضحكوا إليك وصافحوك خديعةً ... فذَهِلْتِ عن نابٍ هناك ومِخْلَبِ
قومٌ هُمُ «غزل السياسة» إنْ رَنَوْا ... ذهبوا بِقلبِ الأرض كل المَذْهَبِ
غَضِبوا لأنَّ الشمسَ تَغْرُبُ وحدَها ... لِم لا تَسيرُ بشرقِها للمغرب؟
غرَّتْكِ من ضوءِ التمدن لمعةٌ ... إنَّ النحوسَ لتَسْتَظِلُّ بكوكبِ
فطلبتِ أيسرَ مطلبٍ ومن النهى ... أن يمنحوه جزاءَ أصعبِ مَطْلَبِ
أَجْرَمْتِ أوْ لم تُجرمي مِن بعدِها ... فالذنبُ معروفٌ وإن لم تُذْنِبي
إنَّ الحوادثَ مَرُّها وكُرورها ... ضربتْ عليكِ مذلةً أن تَغْضبي(**)

* * *

(*) التلعات، مفردها تلْعة، وهي مرتفع ترابي من الأرض.

(١) تُلقَّبُ اليابان بالشمس المشرقة، والصينُ بالمملكة السموية، وكوريا بمملكة الصباح، وكلها في الشرق الأقصى. ومثلُ هذه الألقاب الشعرية مستفضيةٌ هناك.

(٢) عُقد الصلحُ في يوم ٣٩ أغسطس سنة ١٩٠٥. وكانت الشروط مجحفة باليابانيين، وكَسفت الشمسُ يومئذٍ. ومن الغريب أنَّ حادثة مثلَ هذه الحادثة وقعتْ منذ ٢٤٩٠ سنة؛ وذلك على ما روى هيرودتس المؤرخُ، أنهُ في سنة ٥٨٥ قبل الميلاد، كانت الحرب دائرةً بين الماديين والفرس. وبينما هم في القتال إذ أظلمتِ الشمسُ بغتةً، فذُعِر الجيشان وحَسبوا أنَّ آلهتهم غضِبتْ عليهم لهذه الحرب، فآذنتهم بانقضاء العالم إن هُم لم يكُفُّوا؛ وما لبثوا بعد ذلك أن اصطلحوا.

(**) المَرُّ والمُرورُ، والكَرُّ والكُرور: واحد، هو سريان الزمن، كسريان الريح..

قولوا إذا الأفعى تفصّل ظهرُها ... ما شئتِ أنْ تتقلّبي فتقلّبي!

❁ ❁ ❁

وقال بعد حادثة دنشواي وقِصاص المتهمين:

[من المتقارب]

نظرتُمْ إلى العَدْلِ في أمرِهِمْ ... وأغفلْتُمُ رحمةَ العادِلِ

نعم قد غَسَلْتُمْ دماً بدمٍ ... ولكنْ صبغتم يدَ الغاسِلِ[1]

❁ ❁ ❁

وقال في ما يعانيه من نوازع الذات ويقظات الشعر:

[من البسيط]

لكلِّ ذي همةٍ حالٌ يُغالبها ... وربما عركتْهُ سَورَةُ الحالِ[*]

ولي هَمَامةُ نفسٍ صاح صائحُها ... فأنذرِ الدهرَ منها يومَ أهوالِ[**]

أقحمْتُها سُرّة العلياء فانحرفتْ ... عن الأكافيف إشفاقاً على التالي[2]

وعزمةٍ هي ضِرْسُ الدهر إن أخذَتْ ... طريقَها لعدوٌ أو لمختالِ

أظمأتُ منها الليالي فهْيَ ما برحتْ ... تخالُ كل صباحٍ نبعَ سلسالِ

وفكرةٍ كمَدار النجم جاريةٍ ... بالسعد في أمّةٍ من غُرّ أقوالي

ترمي بمنفتِق الجوِّ الأشعةَ من ... قلبي، فيحسبُها الراؤونَ آمالي[***]

❁ ❁ ❁

ورُبَّ ذي كلماتٍ بات يُبغضُني ... لما تقدَّمتُه في السلّم العالي

وما الفقيرُ الذي تلقاه منزوياً ... عن العيون بأطمارٍ وأسمالِ[3]

---

(١) لفظة «الصبغ» مضمَّنةٌ معنى التدنيس وما شابهه.

(*) سَوْرةُ الحال، يقظَتُها الثوريّة..

(**) الهَامَةُ والهُمُومةُ: الهمُّ، وهي كل ما قَدُمَ وانكسر من الهَمّ..

(٢) سُرّة العلياء: وسَطُها. والأكافيف: حُيودٌ وطرُقٌ تكون في الجبل.

(***) انفتقَ الشيءُ: انشقّ. شبّه ما يصدر من قلبه من آمال وأحلام وتصورات خفيّةٍ، بالأشعة تشق مدار السماء كما يشق الضوءُ حجبَ السحب أو الظلمات. والغريب في صورة هذا البيت أن ما يصوّره الشاعر مما يجول في خاطره، يتراءى للناس، كآماله.. وفي هذا التشبيه نوع من الاستدارة التامة على الشيء نفسه، بحيث بدأ بفكرة صدرتْ عنه، وانتهى بالآمال التي هي فحوى هذه الفكرة. ولعل هذا النوع من التمثيل البلاغي، غير مسبوق فيه من قبل.

(٣) الأطمار والأسمال: الخِرَقُ البالية.

مـرمَّـقُ الـعـيـش لا مـالٌ يـمـيـل بـهِ إلـى الـحـظـوظ ولا حَـظٌّ إلـى الـمـالِ[1]
وإنـمـا هـو ذو الآمـال عـطَّـلَـه زمـانُـه، ويـراهـا حـلْـيـةَ الـحـالـي[*]
والـشـعـرُ مـنـه جـديـدٌ كـالـقـصـور ومـا قـديـمُـه، فـاعـذروهُ، غـيـرُ أطـلالِ[**]

❁ ❁ ❁

وقال أيضاً في المعنى عينه والمنحى نفسه:

[من الطويل]

أنـا لـلـهوى والـحسْنِ مذ صرتُ شاعراً أنِـفْـتُ لأن أُدعـى مـن الـشـعـراءِ
فـهـمْ خـلـطـوا أنـفـاسَـهـم فـي هـوائـهـم ومـا غـيـرُ أنـفـاس الـحِـسَـان هـوائـي
أُسـيِّـرُ مـن قـلـبٍ لـقـلـبٍ خـواطـري وهُـمْ بـيـن مـدحٍ فـي الـورىٰ وهـجـاءِ
فـيـا لـيـلـةً ألـقَـتْ عـلـيَّ نـجـومَـهـا ظـلامـاً وفـي أطـرافـهـنَّ ضـيـائـي
رمـانـيَ فـي ظـل الـفَـنـاء سـكـونُـهـا وأعـطـيـتُـهـا مـن ذاك طـولَ بـقـائـي
سـكـنـتُ لإطـراقـي وفـكـري وحـيـرتـي فـلا أنـا فـي أرض ولا بـسـمـاءِ
كـأنـيَ سـرٌّ لـلـقـضـا أوْ كـأنـنـي أفـكِّـرُ فـي مـعـنًـى لـسـرِّ قـضـاءِ
وبـتُّ يـقـولُ الـنـجـمُ عـنـيَ سـائـلاً إذا أثـرٌ بـاقٍ مـن الـقـدمـاءِ
مـكـانَـكِ إلَّا أنْ تـحـركـنـي الـصَّـبـا لـشـعـرٍ، فـهـاتـي عـنـد ذاك لـوائـي[***]!

❁ ❁ ❁

وقال في فضيلة شعره:

[من البسيط]

نَصبتُ للحظ في الشرق الصراطَ لكي يـمـضـي إلـى جـنـة فـي الـعـيـش أو نـارِ

---

(١) مرمَّق العيش: لا يكاد يجد ما يسد الرمق.

(*) حلية الحالي؛ الحلْيةُ: كل ما تزدان به المرأة من الأحجار الكريمة من ذهب وفضة ونحوهما. والحالي هو الذي حَلِيَ بهذه الزينة، من رجل وامرأة.

(**) ينعى على هؤلاء المتأدبين المتطاولين عليه، شعرهم وأدبهم، فيراهما كالقصور التي تكلَّفَ عليها أصحابها الكثير، ولكنها خالية من الحياة. وأما شعرهم القديم، فهو أطلال، لم يبق منه ما يومئ بحياة.. يؤكد هذا المعنى في أبيات القصيدة التالية مباشرة.

(***) ضمير المخاطب، في «مكانكِ» عائد إلى «ليلة» في البيت الرابع من القصيدة. صنيعه هذا شبيه **بالالتفات**، أحد أبرز وجوه الصنعة البديعية.. ومعنى البيت الأخير هذا: إبقي كما أنتِ أيتها الليلة الظلماء! وإذا اجتاحني نسيمُ الجوى وحرَّك مداركي الشعرية، فليكن لك ما تبغينه؛ فقد قبضْتُ على لواء الشعر الذي يمنحني الضياء والحركة، وكلَّ أسباب المضيّ المستنير في أرجائك الحالكة!

فلم يكد يتخطى فوقه قدما حتى تعثَّرَ في فضلي وأشعاري

❁❁❁

وقال يخاطب بعض الكتاب:

[من مجزور الرجز]

أساءكَ الدهر؟ ولا أقبحُ من سيئتِهْ!
حظُّكَ في اليراع كالمجرم في مشنقتِهْ

❁❁❁

وقال في نحو ذلك:

[من البسيط]

ما في اليراع لأهل الشعر فائدةٌ إلا كما رُفِعتْ كفٌّ لتسليمِ(*)
همُ الملوكُ ولكنْ في السما ولِمَنْ يبغي هنالك منهم ألفُ إقليمِ
يُشبِّهون (من الإفلاس) أنجُمَها دراهماً، فهي فيهم أجْرُ تعليمِ
وهان ملكُهُمُ، فالناس لو قَبِلوا باعوا النجومَ لهم: ألفاً «بملّيمِ»

❁❁❁

وقال في أدعياء الشعر والأدب:

[من الكامل]

قل للعُداة وفي بصائرهم عمًى هل تبصرون وحكمتي مصباحُ؟(**)
صيحوا فإنَّ الجو متَّسِعٌ وكم مِن قَبْلكم فيه الورى قد صاحوا؟!
عُدّوا عن الأقلام كم فيكم فتًى يَهذي، ويحسبُ أنه إفصاحُ!
ما كاد يُحسِنُ أن يُقلّم ظفرَهُ حتى توهَّم أنه «جرَّاحُ»(1)

❁❁❁

(*) (رَفْعُ الكف للتسليم) كناية عن الاستسلام الذي يحول دون المزيد من الفقد والخسارة. فهم ـ أي أهل الشعر ـ أدعى للرثاء لهم والبكاء عليهم، من الإشادة بمآثرهم وحضورهم.

(**) العُداة، جمع عادٍ، أي الأعداء. وهو يخاطب الأدعياء من الكتاب والشعراء..

(1) الجرّاحُ: يحتاج إلى علم خاص، وأدوات خاصة. والطفل الصغيرُ يستطيع أن يقلم ظفره بيده. ومما يصح أن يكون مثلاً لهذه الطائفة، أنَّ نحوياً خاصمَ آخرَ في دَيْن له، فرافعَهُ إلى الأمير. فسألهُ الأمير: ما دَيْنك عليهِ؟ فقال: درهمان. ومدَّ (الألف) كثيراً، ونطق (النون) بغُنّة. فقال خصمه: أصلحَ اللّهُ الأميرَ. إنْ هي إلا ثلاثةُ دراهم، ولكنهُ تركَ من حقه واحداً لظهور الإعراب...

وقال في حسّاده:

[من الطويل]

حُسِدْتُ، ولكني عَلوْتُ، ونُكِّسوا ... فلم يَرَ غيرَ الظلِّ مَنْ هو حاسدُ

كنجم السما نوراً وعِزّاً ومنعةً ... وفي الأرض قد قامت عليه المراصِدُ

❁ ❁ ❁

وقال في براغيث الأعراض:

[من الوافر]

أرى قوماً لئاماً لم يرُغْهُمْ ... وقارُ المجد في القوم الكرامِ

سفاهتُهم تُرجِّحُ في اعتقادي ... بأنَّ الخُرْسَ أولى بالكلامِ

وهمْ حشَراتُ أهل الأرض جاءت ... لإتمام التناسب والنظامِ(*)

فلستُ أراهُمُ في الأرض إلّا ... براغيثاً لأعراض الأنامِ

❁ ❁ ❁

وقال، وفيه نوع جديد من البديع سماه: ضربُ المَثَل من المَثَل(**):

[من الخفيف]

مَرَّ في أرض لؤمه وهي شوكٌ ... وجنى منه كلَّ ذمٍّ ومَيْنِ(***)

يبتغي أن أجيبه وأراه ... مثلما تُبصرُ القذارةَ عيني

كم تمنَّى والشوكُ في قدَميه ... أنه عائد بخُفَّيْ حُنيْنِ(١)!

❁ ❁ ❁

وقال في الشكوى:

[من الخفيف]

بتُّ أبكي من الزمان ونفسي ... مقلتي والمنى دموعُ بكائي

(*) قصد أنهم من جملة خلْق الله الذي لم يخلق شيئاً في السماء والأرض وما بينهما باطلاً... وفي ذلك حطٌّ بالغ من قيمهم المنمازة في المجتمع، وتسوية لهم بأدنى خلق الله سبحانه وتعالى.

(**) «المَثَلُ» الأول: الحكاية أو القصة السريعة، على غرار أمثلة القرآن الكريم في تشبيهاته القصصية الخاطفة، و«المثل» الثاني، هو القول المأثور الذي حفظته الكتبُ وردَّدَته الألسن؛ كالمثل الذي انتهى إليه الشاعر: «عاد بخفَّيْ حُنَين».

(***) المَين، من: مانَ يَمينُ، كذبَ. والجمع: مُيونٌ.

(١) قيل إنَّ حُنَيْناً هذا، إسكافٌ من أهل الحيرة، ساومه أعرابي بخُفَّيْن، ثم انصرفَ ولم يشترهما. فألقى حنينُ أحدَهما في أول طريقه، والآخرَ في آخره. فمَرَّ الأعرابي بالأول، فترَكَهُ. فلما رأى الآخر أناخَ راحِلتَه ورجع ليأخذ الأول، فركبها حنينٌ وطار بها. فرجع الأعرابيُّ إلى قومه بخُفَّي حنين. وقيل في أصل المثَل غيرُ ذلك. والمثَلُ الذي انتزعه الشاعرُ، ظاهرُ المعنى.

لا مِـن الأرضِ فـي يـديَّ، ولا غيـ ـرُ لحاظـي تنـالُ وجهَ السماءِ

آهِ مـن خيبـةٍ يـجيءُ بهـا النحـ ـسُ علـى شؤمـه بـلا استحيـاءِ!

آهِ مـن غدرة الرجـال ومـا يُضـ ـمَرُ غـدراً، لا قلـوبِ النسـاءِ[*]

والـذي ضلّـت العقـولُ وحارت فيـه أنَّ الظـلامَ صنـوُ الضيـاءِ

ضقتُ حتى لقـد أرى الأرضَ طِرْساً والبـرايـا عبـارةَ استـهـزاءِ[1]

۞ ۞ ۞

وقال في أربعةٍ ملازِمةٍ له يحملها:

[من الكامل]

حُمّلْتُ أربعـةً وقـد لازَمْنَنـي: هـمّي، وجِلْدي، والهوى، وثيابي

حتـى عرفتُ فتـى رَماهُ شؤمُهُ فـإذا بـه قـد عُـدَّ بيـن صحابـي

إن قيـل عنـي البـدرُ فهـو دُجُنَّتـي أو قيل عني الصبحُ فهو ضبابي[**]

فعـدَدْتُ أربعتـي لأعرف شؤمه مـن أيِّهـنَّ، فقـال: زد: وعـذابـي!

۞ ۞ ۞

وقال في مغالبة الموت والحياة:

[من السريع]

أنـا مِـن الدنيـا ومـن ذا الهـوى يُغـالِبُ المـوتُ علـيَّ الحيـاهْ

كالنبـت فـي شاطـئ نهـرٍ متـى نَمـا قليـلاً حارَبَتْـه الميـاهْ

۞ ۞ ۞

وقال في تساوي السعد والنحس:

[من المجتث]

السَّعْـدُ فـي فلَـك النحْـ ـسِ بـالـغٌ منـهُ حـزْنَـهْ

(*) قلّما شكى الشاعر من الرجال وغدرهم ـ باستثناء بعض المقاطع الشعرية السابقة التي غمز فيها من قناة أدعياء الشعر، المتطاولين عليه والحاسدين له. فقد كانت شكاتُه واغترابُه وأحزانه: من المرأة التي لم تُخلص له الودَّ، ولم تحفظ العهدَ ولم تجبْه إلى نداءات قلبه. فها هو الآن يستثني النساء، ولكنه استثناء يتيم كما نرى!

على أننا غير واثقين من مقصد الشاعر هنا، لأن التركيب اللغوي الذي ورد فيه الاستثناء، غير سائغ، وفيه شيء من اللبس أو الخلل، الأمر الذي أدى إلى خلل عروضي بيّن.

(١) للفلاسفة والحكماء في هذا المعنى، تعبيراتٌ مختلفة. ولولا أنَّ هذه العبارة شعريةٌ، وأنَّ الشعر «مذهب واسع» لكانت من المنكَرات. ونحن على كل حال، نستغفر الله.

(**) الدُّجُنَّةُ والدُّجْنَةُ: الظلمة.

أَنّـى تَـقـلَّـب فـي الأُفـ ـق فـهـو والـلـونُ لـونُـه
مـثـلُ الـغـراب سَـواءٌ ظَـهـرُ الـغـراب وبَـطْـنُـه

❁ ❁ ❁

وقال في شَرقيٍّ يلبس قبعة كبيرة:

[من الخفيف]

فـوقَ رأسِ الـشـقـيـل قُـبَّـعـةُ الـغَـر ب كـأَن لـم تـكـن لِـذا الـشَّـرق أُمَّـة
كـوَّروهـا وقـيـل قـد رفـعَـتْـه فـي زمـانٍ مـا فـيـه لـلـفـضـلِ ذِمَّـة
وَيْـحَ هـذا الـزمـانِ أصـبـحَ لـحَّـا نـاً ألَـم (يُـرفـع) الـشـقـيـلُ (بـجـزمـه)؟

❁ ❁ ❁

وقال في رجل ذي لحية طويلة:

[من الكامل]

ذو لـحـيـة مـن شـؤمـه طـالـت كَـسُـو ءِ الـحـظِّ والـيـومِ الـعـصـيـبِ وشِـبْـهِـهِ
سـوداءَ لـم تَـخـلـكِ الـزجـاجَ مُـدَخَّـنـاً إلا لـتُـظـهِـرَ لـي (الـكُـسـوفَ) بـوجـهِـهِ[1]

❁ ❁ ❁

وقال في بعض الأغنياء والثقلاء:

[من الطويل]

دَعُـوا بـارداً قـد سـوَّدَ الـبـخـلُ قـلـبَـه بما فيه من حرصٍ على البيض والصُّفرِ[*]
فـلـو مـسَّ مـيـزانُ الـحـرارة وجـهَـهُ لأهـبـطَـهُ ذاكَ «الـبـرود» إلـى الـصِّـفـرِ

❁ ❁ ❁

وقال في غرض:

[من الوافر]

أُسـمـيـكَ الـحـبـيـبَ وذا زمـانٌ تـنـاسـى أهـلُـهُ مـعـنـى الـحـبـيـبِ
وتـدعـونـي الأَديـبَ وذي بـلادٌ تـغـافَـلَ أهـلُـهـنَّ عـن الأديـبِ

---

(١) الزجاجةُ المدخَّنة: تستعمل لرؤية كسوف الشمس في أوله، لأنها تكسر أشعتها. ومما يروى في طول اللحى الغريب، أنه كان مع المهدي رجلٌ من أهل الموصل، يقال له سليمان بن المختار، وكانت له لحية عظيمة. فذهب يوماً ليركب فوقعت لحيتُه تحت قدمه في الركاب، فذهب عامتها. فقال فيه بعض الشعراء:

ألا لـيـت الـلـحـى كـانـت حـشـيـشـاً فـنـعـلِـفُـهـا خـيـولَ الـمـسـلـمـيـنـا!

(*) البيض والصُّفر: كناية عن نوعي العملة المعدنية، الفضة والذهب وما يُضربُ منهما من نقود..

وليس بضائري مِن جَهْل قومي | إذا لم يَعرفوا قدْرَ اللبيبِ
فما كلُّ اللحاظِ إذا ترامت | تُطِلُّ من العيون على القلوبِ

❁ ❁ ❁

وقال يؤرخ ميلاد بنته وهيبة(١):

[من مجزوء الرمل]

يا عروس الشعر أهلاً | ثم أهلاً بالنجيبة(٢)
يومُ ميلادِك عيدُ الـ | ـقلبِ يا بِنْتي الحبيبَهْ
قلتُ في تاريخه زيَّـ | ـنْتِ بيتي يا وهيبَهْ
سنة | ١٣٢٣هـ

❁ ❁ ❁

وقال في حسناء تلاعب هرة:

[من الرمل]

لاعَبتْ هِرَّتَها، يا هِرَّةً | قَبِّلي في يدها ذاك السّوارا
أنتِ إنْ قَبَّل فوكِ يدَها | أتمنى أنني أُصبح فارا

❁ ❁ ❁

وقال رباعيات في مواضيع مختلفة بعنوان: الفلّاح في الصباح(٣):

[من الرمل]

هاتِ يا «محمودُ» لي المحراثَ حالا | وضَعِ الآنَ على الثور الحِبالا
يا «عليُّ» قُمْ فخذْ هذي الجِمالا | للسباخِ، قارَبَ الصبحُ الطلوعْ(*)

* * *

(١) للشاعر تواريخ كثيرة كلها جيدة كهذا التاريخ، ولكنه حذفها مع ما حذفه من شعره.

(٢) كان اليونان القدماء يعتقدون أنَّ عرائس الشعر بنات جبيتار ومتاموزين إلهة الذاكرة. وكنّ في اعتقادهم إلهاتِ العلوم والفنون. وهن تِسْع: **الأولى** ترأستْ فنَّ التاريخ، **والثانية** فنَّ الروايات والأهاجي، **والثالثة** فنَّ الروايات الفاجعة، **والرابعة** ترأست الأشعار الرقيقةَ والمراثي المحزنة، **والخامسة** للمنظومات في الفخر والفصاحة، **والسادسة** لعلم الهيئة والفلك، **والسابعة** للقدود الموسيقية، **والثامنة** للرقص، **والتاسعة** للموسيقى وألحانها. ولكل منهنَّ اسمٌ ورسمٌ وعلامات مغايرة للأخرى.

(٣) اقترحَ هذه القصيدة على الشاعر الأستاذ الدكتور **صرّوف**، صاحب **المقتطف الأغرّ**، وطلبَ أن تكون على هذا النحو من البساطة في التركيب والتعبير. وفي نية الناظم أن يصنعَ ديواناً صغيراً، على هذا النمط لطبقات الشعب المصري.

(*) السِّباخ: الأرضُ التي كثر فيها الملح والنزُّ فلا تكاد تُنبتُ. والسِّباخُ: جمعُ مفرده، سَبْخَة.

أَنتِ (يا خضرةُ) قومي فاخلُبي | (يا سَماحي) قُلْ (لزينَبْ) إذْهَبي
وخُذي خُبزاً ومِشًّا لأبي(*) | ثم أَرسِلْ (هانماً) ترعى القطيعْ(١)

* * *

يا إلهي كن بعسوني واكْفِنِي | شَرَّ أَطماع (الخواجا) واهدِني
للرضا وبالقنوع أَغْنِني | عزَّ مَن كان غنيًّا بالقُنوعْ

* * *

ربِّ بارِكْ في بَنيَّ أجمعينْ | وكنِ اللَّهمَّ لي خَيرَ مُعينْ
واكْفِنا أدواءَ هذه السنينْ | إنَّ مَن لم تكفه أنتَ، يَضيعْ

* * *

قال بسم اللَّه ربي، وخرَجْ | والصباحُ لجُجٌ فوق لُجَجْ
والضياءُ كالأماني في المُهَجْ | والدجى في مهبط النجم صريعْ

* * *

والنباتُ في غرامٍ بالصَّبا | فهيَ إنْ تأبَ عليه قَرُبا
وهْو إن تَقرُبْ تولَّى وأَبى | والندى في أعين الزهر دموعْ

* * *

ذلك الفلَّاحُ سلطانُ النشاطْ | في يديه صولجانٌ من سِياطْ(**)
ولهُ أين مشى، الزرعُ بِساطْ | وهو في مملكة الخَلْقِ وَضيعْ

* * *

مَلِكٌ لا يعرفُ الهمَّ ولا | يبتغي بكلِّ عيشٍ بَدَلا
لا يَقولُ: ليت قلبي قد خلا | من همومي أو خلَتْ منه الضلوعْ!

* * *

فتحتْ شمسُ النهار عينَها | فرأتْ في مسرح الأَرض ٱبنَها
قائماً يسأل مَنْ كوَّنها | أَن يكون العامُ ميمونَ الربيعْ

* * *

(*) المِشُّ: جُبنٌ يُعتَّق في اللبن والملح، ثم يُترك في الجرة دهراً حتى يصلح، فيصير إداماً (مصرية). عن المعجم الوسيط [مشّ] ٢/ ٨٧١. وقوله: ثم أرسلْ، الضمير فيها للفاعل: «سماحي» في البيت السابق..

(١) يشير بكثرة هذه الأسماء إلى كثرة أولاد الفلاحين، وهي النقطة العمرانية المهمة.

(**) الصولجان عصا معقوفة الرأس يحملها الملك، ترمز إلى سلطانه؛ ج صَوالج وصَوالِجَة.

فــرمَــتْ فــي الأَرض مــثــلَ الــذهــبِ وأشــارت لــلــفــتــى، إنْ تــذأَبِ:
أُعــطِــكَ الــخــيــرَ جــزاءَ الــتــعــبِ فــانــحــنــى بــالــفــأس يُــظْــهِــرُ الــخــضــوعْ

* * *

كــلُّ فــلّاحٍ عــلــى ذِلَّــتــهِ كــتــبَ الــتــاريــخُ فــي جــبــهــتِــهِ
إنَّ هــذا الــمــرءَ مِــنْ حِــرفــتــه عــاش فــي الــدنــيــا الــوضــيــعُ والــرفــيــعْ

۞ ۞ ۞

وقال في بعضهم منتقداً رذائلهم:

[من الكامل]

كــم مــن ســفــيــهٍ أَنــتــهــي مــن أمــرهِ ويــعــود يــبــدأه فــمــا إن أنــتــهــي
كــالــكــلــب فــي الأســواق يَــضْــربُ رأسَــه بــالــعــظــم، وهــو بــمــا تــألّــم يــلــتــهــي

۞ ۞ ۞

وقال في معاناته مما يتوجع منه الناسُ:

[من الطويل]

أَشَــدُّ عــذابــي مــن بــنــي الــدهــر أَنــنــي أرى ذا أَسًــى مــمــا دهــاه، يــنــوحُ
وأَنَّ فــؤاداً، كــلُّ شــيء مــؤثِّــرٌ بــه أَثــراً مــهــمــا يــعِــشْ، لــقَــريــحُ(*)
فقد صرتُ من ضغط الهموم على دمي كــأَنَّ عــروقــي فــي الــحــيــاة جــروحُ

۞ ۞ ۞

وقال في زوال الوداد والمال:

[من الخفيف]

لا يــغــرَّنْــكَ فــي الــجَــمــالِ ودادٌ إنَّ هــذا الــنــدى إذا ســال جَــفَّــا
كــلُّ كَــفٍّ تُــريــد حــفــظَ الــدنــانــيــر (م) وهــيــهــاتَ تــلــزمُ الــدنــانــيــرُ كَــفَّــا!(١)

۞ ۞ ۞

وقال في بعضهم:

[من مجزوء الكامل]

قُــلِّــبْــتَ فــي نِــعَــمٍ ولــم يــخــطــر بــقــلــبــك ٱلانــقــلابْ(**)

(*) القريحُ (بمعنى أو زنة: المقروح)، كجريح. جمع قَرْحىٰ وقَراحَى. والاسم منه: القَرْحُ..

(١) هذا التشبيه لا ينطبق إلا على الوداد الذي يكون منشؤه الجمالَ الظاهري. وهذه الحقيقةُ حرب بين فلاسفة العمران، وفلاسفة الأخلاق. [وفي عجز البيت خلل عروضي بيِّن...]

(**) أي لم يخطر لك زوالُ هذه النعم المتعاقبة عليك.

وحسبتَ همَّك قد مضى والـيومَ همُّك ذا الحساب(*)
إنَّ المعلّم إنْ نسي شيئاً فما نسيَ الكتابْ

❁ ❁ ❁

وقال في روايته «موعظة الشباب» عن لسان فتى الرواية(١) بعد انقلاب حاله من العِزِّ إلى البؤس:

[من الطويل]

لقد صار شيطانُ الرذائل حائراً بذا القلب يَخشى التيهَ بين قِفَارِهِ
ألا فانظروا الإنسان كيف اقتدارُهُ وكيف تحارُ الجنُّ عند اقتدارِهِ
مَضى ما مضى لم يَبق إلا مصائبٌ وإلّا سوادُ العمر بعد نهارِهِ(**)

❁ ❁ ❁

وقال في مغربيٍّ فيها يستحضر الأرواح:

[من الكامل]

يَستحضرُ الأرواحَ تأمُرُ بالفسا د وإنما هي روحُه تُستَحضَرُ
رُوحٌ كأخبث ما يكون تصاعدتْ من قلبه ولِنَتْنها تَتبخَّرُ(٢)
إياكَ لا يَغرُرْك نورُ جبينهِ وصلاحِه، وانظرْ إلى ما يُضمِرُ
فالهِرُّ ذو خُبْثٍ ولكنا نرى عينيه في وقت الظلام تُنوِّرُ

❁ ❁ ❁

وقال في سلاحَي العقل والحيلة:

[من الكامل]

إن كنتَ ذا عقل وعندَكَ حيلةٌ فهما اليدانِ لطالب الحاجاتِ
هيهاتَ تقدِرُ أنْ يقول الناسُ خُذْ مِن غير أن تحتالَ قبْلُ بِهاتِ

(*) «ذا الحساب» أي همُّك هذا: هو الحساب الذي تؤدي فيه حقوقاً لغيرك نعمتَ بها، أو تحاسَبُ على ما فرَّطتَ من ثروات لم تحسن صونها لأيامك السُّود..

(١) هذه الرواية هي أول رواية تمثيلية مطبَّقة على درس الأخلاق العصرية. وهي فوق ذلك تمتاز بروح الشعر الطائفة في كل معانيها. وستُطبعُ قريباً بعد تمثيلها إن شاء الله.

(**) سواد العمر: خريفُه، وهو أيضاً جوانب البؤس والتعاسة بعد أفراح النعيم.

(٢) استحضارُ الأرواح: أمرٌ كان من الشعوذة في الزمن القديم. ويقال إنه صار حقيقة ثابتة في هذا العصر. وله كتب مؤلفة فيه؛ وهو شائع في أوروبا وأمريكا. ومن عادة المَغاربة أنهم إذا شرعوا في الاستحضار، أطلقوا البخور..

باب المراثي[1]

أول الدمع

وهي أبيات نظمها ساعة قرأ نعي شيخ الشعراء صديقه المرحوم محمود باشا سامي البارودي[*]:

[من الطويل]

وددْتُ، ولا واللّه ما نَفَعَ الودُّ ... فيا ليت هذا النجمَ إذْ غاب لم يَبْدُ!

ويا ليت «يا محمودُ» إذْ قُضيَ الردى ... وجاء كتاب الموت، أنّى له ردُّ؟

زمانٌ كما أبصرت لا النفسُ تُفتَدىٰ ... بمجدٍ ولا يُفدىٰ بنفسِ امرئٍ مَجْدُ

وليس وجودُ الخَلْق إلّا ذريعةً ... لفقدهمُ، بعضُ الوجود هو الفقدُ[**]

وما جارتِ الدنيا ولا جارَ ربُّها ... ولكنَّ غاياتِ الأُمور لها حدُّ

خَزنتُ الدموعَ الحمرَ دهراً ولم أكنْ ... أُحاذِرُ أنَّ العهدَ يعقبهُ عَهْدُ[2]

فما هي إلّا أحرفٌ مرَّ نصْلُها ... على خيط هذي العين فانتثرَ العِقدُ[***]

---

(1) كل الشعراء قد درجوا على وصف الموت بصورة محزنة. وقد كان قدماء اليونان يمثلونه مع النوم على هيئة شابين: تارة راقدَيْن على صدر أمهما، وتارة بأعين فاترة أو منطبقة، وفي يد كليهما مشعل ملتهب النار، ثائر الدخان. وليس في هذا التمثيل ما يدل على فظاعة. وأول من مثّل الموتَ بصورة تبعث الخوف، وتُلقي الرعب هو «إيربيد» اليوناني؛ فقد مثله متّشحاً برداء أسود، وقد أتى ليترشف من دماء الضحايا المذبوحة على القبور. وكان ذلك بعد عصر الشاعر هوميروس الشهير. ثم توسع الشعراء والمصورون في هذا المعنى، وساعدهم على ذلك جبنُ الحضارة، حتى صار الموت كما يصفه شعراء اليوم، آيةَ الأحزان وشقاءَ بني الإنسان.

(*) مرّتْ ترجمة البارودي في حواشي الجزء الأول من ديوان الرافعي.

(**) قوله: «بعض الوجود» فيه غير معنى متداخل. فهو إما الوجود السطحي الهامشي الهش الذي لا فرق بينه وبين الموت، وإمّا وجود ولكنْ في العالم الآخر، يفتقده كلُّ من في هذه الدنيا.

(2) المراد (بالعهد) عهدُ البكاء. ويفسره قوله: «خزنتُ الدموع» الخ.

(***) شبّه مسلسلَ الحياة بعقد من الجواهر، كلُّ حبّة تمثّل نفساً حيّة.. ثم ما لبث هذا العقدُ أن =

وهــزَّ فــؤادي ذلــك الـخـطـبُ هِـزَّةً رأيـتُ لـهـا ركـنَ الـجـوانـح يـنـهـدُّ
فـيـا مـصـرُ لا تُـبـقـي عـلـى الـقـول عبرةً وخَلِّي لنجديك وصف الهوى نجدُ(*)
ويـا روضُ قـد طـار الـهـزارُ لـجـوِّه فـقـل لـعـصـافـيـر الـربـى بـعـدَه تَـشْـدو!
ويـا نـاسـجـي الـشـعـر الـذي أخـلـقَ الـبـلـى رويـدَكُـمُ مـا مـصـرُ فـي الـعُـجـمـة الـهـنـدُ
سـدَدْتُـمْ عـلـيـنـا كـلَّ فَـجٍّ بـلـفـظـةٍ يـلـيـن لـهـا فـي بـأسـه الـحـجَـر الـصـلْـدُ
فـإن تَـجـدوا لـلـشـعـر ريـحـاً زكـيَّـةً عـلـى شَـبَـهٍ مـنـه فـمـا كـالـدم الـوَرْدُ[١]
إذا فُـلَّ حـدُّ الـسـيـف فـاسـألْ بـه الـوغـى أقامَ مقامَ السيف في الساعد، الغِمْدُ؟
وفي كنَف الرحمن «يا ساميَ» العُلى فـمـا ثَـمَّ إلا نـعـمـةُ الـلّـهِ والـخُـلْـدُ

❁ ❁ ❁

وقال يرثي فقيد الحكمة المرحوم الشيخ محمد عبده(**) مفتي مصر، وكان لموتِهِ يوم مشهود:

[من الطويل]

سـكـتَّ وقـد ضـجَّـتْ لـك الـثـقـلانِ وأَغْـضَـيْـتَ والأبـصـارُ فـي رَجَـفـانِ
فـويـحـي مـتـى تُـصـغـي إلـيَّ مـنـاجـيـاً وويـحـي إذا أدعـوكَ كـيـف تـرانـي؟
أمـانٍ وآمـالٌ وديـنٌ وحـكـمـة ذهـبْـتَ بـهـا عـنـا بـبـضـع ثـوانـي
ضـبـطـتَ عِـنـان الـحـادثـاتِ فـأمـسَـكـتْ وخـلَّـفْـتَـهـا تَـجـري بـغـيـر عِـنـانِ
وكـنـتَ أمـانَ الـرأي مـن عـثـرة الـهـوى فـمَـنْ ذا لـه مِـن بَـعْـدِهـا بـأمـانِ؟
وكـنـتَ لـنـا فـي أُمَّـة الـشـرق أُمـةً فـيـا ضَـعْـفَـهـا كـفَّـيْـنِ تـنـفـردانِ!
وكـنـتَ رجـاء الـديـن فـالـديـنُ سـاكـنٌ ولـكـنَّـه قـد عـاد لـلـخـفـقـانِ

= مرَّتْ عليه شفرةُ الموت فقطعتْه، فانتثرت حبات العقد، وتفرقت بعد أن قُطعتْ منه أو فُقدت حبَّةُ العقد الكبرى، وهي الشاعر البارودي المرثيُّ..

(*) لم نتبيَّن السياقَ النحوي لعجز هذا البيت: فلا مفعولُ «خلِّي» واضحٌ، ولا المبتدأ الذي خبرُه «نَجْدُ» بيِّن. كلُّ ما يقال ترجيحٌ مضطرب لا يقوى على النقض والاعتراض. لذلك لم نشكُلْه.
وقد وقع الشاعر وأوقع قارئه بكثير من اللبس والاضطراب، في مواضع كثيرة من ديوانه، أشرنا إليها في حينه، وأغفلنا عنها بصورة غير مقصودة.

(١) أي أن ما ينظمونه هو شبْه الشعْرِ لا الشعر نفسه؛ كما أن الدم فيه شبَهٌ من الورد بحمرته، ولكنْ لكل واحدٍ منهما رائحة هي ضدُّ الأخرى.

(**) سبقت ترجمة محمد عبده في حاشية قريبة سابقة.

سنعرفُ إنْ مدَّ المَدى عمَّ تنجلي ... وغى فقدَتْ من راحتيك يماني؟(*)

ونسمعُ إن طار الجدالُ بفتنةٍ ... عن الصارخ الهاذي بغير بَيانِ

ونُبصرُ إمَّا غيَّم الشكُّ مرةً ... بوارقَ أفكارٍ بلا لَمعانِ

ولا بدّ منها إنها النارُ أُطفئت ... وما بعد طَفْءِ النار غيرُ دُخانِ

* * *

«محمدُ» قد هِيلَت لمصرعك الورىٰ ... أقاصيهِمُ فوق الثرى وأداني(**)

ولو أنه يومٌ تَدَجَّى ظلامُهُ ... لكشَّفه عن أُفقنا القَمَرانِ

ولكنها من ظلمة الحزن والأسى ... وذُلٌ لمن أسعدْتَهُمْ وهَوانِ

فقد كنتَ من عين الزمان وسَمْعه ... بحيث غدا يخشاك دانٍ وذانِ

حفظتَ لجنبيّ الفؤادَ فما له ... تفلَّقَ عنه بَعْدَك الصدفانِ(***)

وكنتَ لدهري جِدَّةً فمَسَاؤُه ... وإصباحُه من بعدها خَلقَانِ(****)

وكانت علوم الناس في الدين والدُّنى ... كحبلٍ ومنه عندكَ الطرفانِ

فهل تتغانى بعدَ فقدِك أُمَّةٌ ... على فقرها، لمَّا تجدْ لك ثاني؟

بكائي على فِكْر خفضتَ جناحَه ... على الموت حتى عَيَّ بالطيرانِ

بكائي على تلك الخواطر قد هوىٰ ... بها فَلكُ الدنيا من الدورانِ

بكائي على ذاك اليَراع مُمَدَّداً ... وكم خطَّ عنه لفظَةُ المَلَكانِ؟

تفرَّدَ بالآيات عن كل كاتبٍ ... ولم يشترك في زهره غُصُنانِ

ولهفيَ من داءٍ يَغيضُ به الهُدى ... وكيف يجفُّ البحرُ للسرطانِ[1]؟

على أنها الدنيا تَجرُّ إلى الردى ... فمِن عَجِلٍ فيها ومِنْ مُتَواني(*****)

۞ ۞ ۞

(*) اليماني، صفة السيف الذي كان رمزاً للقوة والمضاء في الحكمة والرأي.

(**) الأقاصي والأداني، جمع: الأقصى والأدنى، أي الأبعد والأقرب.

(***) الصدفان، صورة حسِّية لجَنْبَيْ الشاعر اللذين يشملان على فؤاد الشاعر، وقد انشقَّت الصَّدَفة بطبقيها عن محار الشاعر (فؤاده وخلجات وجدانه).

(****) حقه أن يقول: إمساؤه وإصباحُه. والجِدَّةُ: مصدر جَدَّ يَجِدُّ، جِدَّةً: صار جديداً.

(١) مات المرحوم بعلة السرطان.

(*****) المتواني: المتباطئ، المتخاذل، المقصِّر..

وقال يرثي فقيد الإسلام، وفقيهَ الأنام، عمَّه المرحوم الشيخ عبد القادر الرافعي الكبير مفتي الديار المصرية، وكان قد تولى الإفتاء بعد الشيخ محمد عبده. فما لبث أن هنأه الناس حتى قضى، رحمه اللَّه:

[من البسيط]

الدهرُ طِرْسٌ ونحنُ الأحرفُ السودُ ... والموتُ آخِرُهُ، والعمرُ تمهيدُ

وذي الليالي بلاغاتٌ مُحبَّرة ... جِناسهُن الأماني والمواعيدُ(*)

عيشٌ وموتٌ وما الإثنان في نَسَقٍ ... فواحدٌ منهما لا شكَّ تقليدُ(**)

ويحَ الفواجع قلبٌ ساكنٌ وبه ... في العلم زلزلةٌ، فالعلمُ مَهْدودُ

ويحَ العجائبِ دهرٌ في التقى هَرِمٌ ... يطويه يومٌ درى بالأمس مولودُ

ويحَ الحوادثِ مِنْ ظلٍّ رمينَ به ... على المنى، وهي بيضٌ، فالمنى سودُ(***)

الموتُ صدقٌ ولكنْ في روايته ... بين الفواجع، قد ضاعت أسانيدُ

كتابُه لِلْورى حقٌ ولو قدَروا ... أستغفرُ اللَّهَ، قالوا عنه «مردودُ»

* * *

يا نائماً في ظلال الخُلد مُلْتحِفاً ... وفوقَ نعشك نورُ اللَّه ممدودُ

أُنظر فذي الأرضُ تجري من مدامعنا ... والجوُّ من زَفَرات الناس مسْدودُ

في النفس فاجعةٌ، في القلب قاطعةٌ ... في اللب رائعةٌ، في العقل تشريدُ

يا ويح فتيا الورى جاءتك قاصدة ... ومَن سواك لهذا الأمر مقصودُ؟

رأى لك اللَّهُ زُهْداً وهي طامعة ... فالحدُّ بينكما بالموت محدودُ

تَبْغي المَجرَّةُ أنْ لو ألحدوكَ بها ... وأنَّ بعضَ دَراريها جلاميدُ(****)

فإنَّ قبرَكَ فخرٌ للتراب بما ... يَحويه من كل معنًى فيه تخليدُ

(*) جناس الليالي، هو الشيء الذي يتشكل من جنسها. ومن هذا الجنس، الأماني والمواعيد، التي تملأ خيال الناس في دياجيها المتعاقبة.. و«البلاغات المحبَّرة» هي رموز لأحداث صيغتْ بحكمة وعناية بالغة.

(**) قوله: «فواحد منهما» يعني: كلاهما. و«التقليد» معناه: الاعتيادي. ولا فرق بين الواحد والآخر، وكلاهما واقع، وكلاهما حتمي لدرجة التقليد والمحاكاة في جميع مراحل الحياة.

(***) أي أن الحوادث الأليمة قد رمتْ بظلها على أزاهير المنى (جمع مُنْيَةٍ أي: حلم) وهي بيضاء في إشراق مقْدمها ومؤدَّاها، فإذا بها تَسْودُّ ويُظلم معها كلُّ شيء.

(****) تخيُّلٌ رائع أن تتحول المجرَّةُ (وهي عالم من الكواكب والنجوم البعيدة في السماء) إلى مقبرة تكون فيها الكواكب جلاميد يوارى تحتها الفقيد.. صورة خيالية مشوِّقة.

وإنما الأرضُ جِيدٌ والقبور لها عِقدٌ، ومثلُكَ دُرٌّ فيه مَنضودُ
سَيلثِمُ الفجرُ ترباً أنتَ فيه، عسى يُلْقَى على الصبح نورٌ منك مَشْهودُ
ويَطْلعُ الليلُ في ثوب الحِداد وفي جفون أنجمِه من ذاك تسهيدُ
فاذهبْ إلى اللّه في كفيك مُصْحَفُهُ وسُنَّةٌ كان فيها منك تجديدُ(*)
وخلْفَكَ الرحماتُ الغرُّ صاعدةٌ بها لألسنة الكونين ترديدُ(**)
عليك في الأَرض نَوْحٌ للأنام وفي جوار ربك للأملاك تَغريدُ
وإنما هي أيامٌ لها ولنا ما دام يتَّبِعُ المفقودَ موجودُ

تَمَّ شرح ديوان **مصطفى صادق الرافعي**، بفضل من اللّه
ورضوانه، قبيل منتصف ليلة الحادي عشر
من جمادى الآخرة سنة ١٤٢٢ للهجرة،
الموافق لليلة الثلاثين من آب سنة ٢٠٠١.
والحمد للّه أولاً وآخراً.

ياسين الأيوبي

(*) السنّة هنا، هي السنّة النبوية الشريفة التي أحسن الفقيدُ تطبيقها نصّاً وروحاً؛ فجدَّد في أساليب تطبيقها تماشياً مع العصر ومتطلباته من غير تغيير في الجوهر.
(**) «ألسِنة الكونين» هي ألسنة عالمي الدنيا والآخرة، أو الأرض والسماء..

تقاريظ

قال حسَنةُ البيان، وبديعُ الزمان، وآيةُ البلاغة الناطقة بالإحسان، صديقُنا الحميم، نابغةُ العصر: حافظ أفندي إبراهيم(*):

[من الوافر]

أراكَ، وأنتَ نَبْتُ اليوم تمشي ... بشِعركَ فوق هام الأوَّلينا

وأُوتيتَ النبوّة في المعاني ... وما دانَيْتَ حدَّ الأربعينا

فزِنْ تاجَ الرئاسة بعد «سامي» ... كما زانت فرائدُهُ الجبينا[1]

وهذا الصولجانُ فكُنْ حريصاً ... على مُلْكِ القريض وكن أمينا

وحسْبُكَ أنّ مُطْرِيَك «ابنُ هاني» ... وأنك قد غدَوْتَ له قرينا(**)

❁ ❁ ❁

وقال صديقنا نابغة البرازيل المجيد، وأديبها الفريد، قيصر إبراهيم معلوف صاحب ديوان «تذكار المهاجر» الشهير:

[من الكامل]

ذَهبَ الورى أنَّ الأوائلَ لم تَدَعْ ... لبني الزمان من المعاني مُبْتكَرْ

حتى نشرتَ عليهمُ «يا مصطفى» ... آياتِك الغرّا فكذَّبْتَ الخبَرْ

ديوانُ شعرك فيه كلُّ بديعةٍ ... لنظير آيتها ابنُ بُرْدٍ ما نظرْ(***)

إنْ يُشْتَهرْ بالقول غيرُك إنه ... بقصيدةٍ سمحَ الزمانُ بها اشْتُهِرْ

(*) مرّت ترجمته في حاشية من حواشي الجزء الأول من ديوان الرافعي.

(1) يريد رئيس الشعراء المرحوم محمود باشا البارودي. وقد كان رحمهُ اللّه، يقرّظ كلَّ جزء من هذا الديوان. فنحن نضعُ في مكان تقريظه من هذا الجزء، طلب الرّحمة والكرامة له من اللّه.

(**) في اللقب هنا التباس واضح. هل هو قرين أبي نواس (الحسن بن هانئ) أم الشاعر الأندلسيّ الشهير محمد بن هانئ المتوفى سنة ٣٦٢هـ؟

(***) ابنُ بُرْد: لقب الشاعر العباسي المخَدْث: بشار بن برد..

لكنَّ شعرَك كلَّه «يا رافعي» مِن مُعجزات الشعر والدُّرر الغُرُز
فات العدىٰ المتشدقين بأنك الـ ـمَلِكُ الذي يعنو البيانُ إذا أمرْ(*)
لو كان «أحمدُ» عالِماً بك ما ادَّعى حقُّ التنبؤ ظاهر لك كالقمرْ(**)

❁ ❁ ❁

وقال كوكبُ الشعر الساطع في سماء المعاني، والأديب الذي يتعلق كلامه بالنفوس كأنه من الأماني، نجل عمنا الفاضل عمر بك تقيّ الدين الرافعي:

[من الرجز]

بُعِثتَ بالحق لمن نازعوا بسِحْرِهم موسى وما ضارَعوا
ألقيْتَ ما يَلْقفُ من إفكِهم يراعةً كوكبُها ساطعُ(***)
فأُبطِلَ السحرُ وما يَعمل السا (م) حرُ برهانٌ لها قاطعُ
وحسْبُها (الصادقُ) فيما أتى مؤيِّداً إذْ كلُّهم خاضِعُ
ألقى من الحكمة ألواحَها فجلَّتِ الحكمةُ والصانعُ
طِرازُه الأولُ في شعره وغيرُه الثالثُ والرابعُ
فليَهْنَ هذا الشرقُ (يا رافعي) ولْيهْنِك التوفيقُ والطالِعُ

❁ ❁ ❁

وقال الشاعر المفلق، والنجم المشرق، نجل عمنا الأديب محمد أفندي محمود الرافعي:

[من البسيط]

بلغتَ بالسَّبْق يا ابنَ السادة الصِّيدِ في حلْبة الفضْل شأناً غيرَ محدودِ
زِنْتَ القريضَ بما يعيا الفحولُ به مما ابتكرْتَ ومِنْ رأيٍ وتسديدِ

(*) يعنو الزمان عَنْوةً: يخضع وينقاد.

(**) «أحمد» هنا هو اسم الشاعر العباسي الأشهر أبي الطيب المتنبي. واسمه: أحمد بن الحسين الجُعْفي. وفي عجز البيت حذف واضح تقديره: (إن حقَّ التنبؤ ظاهر لك كالقمر). أو: «لو كان أحمد» عالماً بك ما ادَّعى حقَّ النبوءة.. «حقُّ التنبؤ ظاهر لك كالقمر».

(***) جعل الشاعرُ الممدوحَ هنا، بمنزلة موسى عليه السلام، في خطفه كل بريق لجميع شعراء عصره، تماماً كما خطف موسى بآياته كل أثر للسَّحرة في زمانه. وذلك في قوله تعالى: ﴿فألْقى مُوسى عَصَاهُ فإذا هي تَلْقَفُ ما يأفِكونَ﴾ [الشعراء: ٤٥].

كـأنَّ شـعـرَكَ فـيـمـا جـئـتَ مـن طُـرَفٍ نـفْـحُ الأزاهـرِ أو مـاءُ الـعـنـاقـيـدِ

كـأنـنـي حـيـن أتـلـو آيَـهُ، ثَـمِـلٌ يَـهـتـزُّ نـشـوانَ بـيـن الـنـاي والـعـودِ

لـو أدركـوا كُـنْـهَ مـا أَلّـفـتَ مـن دُرَرٍ في سِلْك نَظْمك، ألْقَوا بالمقاليدِ(*)

۞۞۞

(*) المقاليد، ج: مِقْلاد، وهو المفتاح. قصد بذلك القيادة والرئاسة..

الفهارس العامة

١

فهرس أشعار المقدّمات

بما في ذلك مقدّمات الشاعر لأجزاء ديوانه الثلاثة(*)

أول البيت	آخرهُ	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	رقم الصفحة
		حرف الهمزة			
أبى	نِساءَ	مصطفى الرافعي	الطويل	١	٥٦
		حرف الباء			
ورأتْ	غَرْبا	عمارة اليمني	الكامل	٢	٢١٨
فغُضَّ	كلابَا	جرير	الوافر	١	٢٢٦
إذا	فتصوّبوا	الفرزدق	الطويل	١	٧
وإجّانةٍ	كوكبُ	الفرزدق	الطويل	١	٧
كأنَّ	ضبابُ	مصطفى الرافعي	الطويل	٢	٣٨
كأنّكِ	سحابُ	مصطفى الرافعي	الطويل	١	٣٨
هي	العبابُ	مصطفى الرافعي	الوافر	١	٣٨
ومنْ	غائبُ	مصطفى الرافعي	المتقارب	٢	٥٧
وصهباءَ	تقطبُ	النابغة الجعدي	الطويل	٢	٢٢٤
وإجّانةٍ	كوكبُ	الفرزدق	الطويل	١	٢٢٤
ألمْ	يتذبْذبُ	النابغة الذبياني	الطويل	٢	٣٤٧ _ ٣٤٨
ولكنّني	ومذهبُ	النابغة الذبياني	الطويل	٣	٣٤٨
ولست	المهذبُ	النابغة الذبياني	الطويل	٢	٣٤٨
يمنّونَ	السرابِ	مصطفى الرافعي	الوافر	١	٤٢
فدُمْ	كذبِ	مصطفى الرافعي	البسيط	١	٥٨

(*) اعتمدنا في وضع هذا الفهرس على الترتيب الألفبائي لرويّ الأشعار وفقاً للنظام الآتي: السكون، فالفتح، فالضم، فالكسر.

أول البيت	آخرهُ	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	رقم الصفحة
واللّهِ	شمسُه	مصطفى الرافعي	مجزوء الرجز	١	٥٦
ليت	نفسُ	مصطفى الرافعي	مجزوء الرمل	١	٦٤
فللرّاح	القلانسُ	أبو نواس	الطويل	١	٢١٧
هل	عبسِ	مصطفى الرافعي	الخفيف	١	٦٣
حرف الشين					
إنّي	ويعيشُ	عنترة	الكامل	١	٢١٦
حرف الضاد					
وقد	الفرضَا	مصطفى الرافعي	الهزج	١	٥٢
أدرى	بغيضِهِ	مصطفى الرافعي	مجزوء الكامل	١	٦
حرف العين					
همُ الناسُ	يشبعُ	مصطفى الرافعي	الطويل	١	٣٦
كأنهمُ	وركَّعُ	مصطفى الرافعي	الطويل	١	٣٦
كأنّ	ترقّعُ	مصطفى الرافعي	الطويل	١	٣٦
كذاك	أشنعُ	مصطفى الرافعي	الطويل	١	٣٦
كأنْ	مُسبعُ	مصطفى الرافعي	الطويل	١	٣٦
فإنّكَ	واسعُ	النابغة الذبياني	الطويل	١	٣٥١
والنفسُ	تقنعُ	أبو ذؤيب الهذلي	الكامل	١	٣٥٢
لو شئتَ	تنفعِ	مصطفى الرافعي	السريع	١	٥٦
ولفظٌ	الامتناعِ	مصطفى الرافعي	الوافر	٢	٦٨
وهل	الطباعِ	مصطفى الرافعي	الوافر	١	٦٨
حرف الفاء					
كأنك	تنشّفُ	مصطفى الرافعي	الطويل	٥	٤٠
لا يعرف	فيعرفُهُ	ابن الرومي	المنسرح	١	٧٨
حرف القاف					
أصدقُ	تصدقُ	مصطفى الرافعي	مجزوء الرجز	٢	٥١
أرقتُ	معشقُ	الأعشى	الطويل	١	٣٥٧

أول البيت	آخره	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	رقم الصفحة
ومهلاً	رونقي	مصطفى الرافعي	الطويل	١	٥٨
نظرتَ	أعشقِ	مصطفى الرافعي	الكامل	١	٦٠
ومتى	أحمقِ	مصطفى الرافعي	الكامل	١	٦٠
لو	المشرِقِ	مصطفى الرافعي	الكامل	١	٦١

حرف الكاف

أول البيت	آخره	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	رقم الصفحة
وليت	عندكْ	مصطفى الرافعي	المجتث	٥	٥١
ولو	لتحرّكا	مصطفى الرافعي	الطويل	٢	٥٢
وطُرَق	سلكا	مصطفى الرافعي	المديد	١	٦٤
لا تعجبي	فبكى	دعبل الخزاعي	الكامل	١	٦٠
كأني	هنالِكِ	مصطفى الرافعي	الطويل	٦	٣٧
كأنّ	السبائكِ	مصطفى الرافعي	الطويل	١	٦٦

حرف اللام

أول البيت	آخره	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	رقم الصفحة
والثوبُ	جميلْ	مصطفى الرافعي	السريع	٣	٥٣
ألم يرَ	ونحولُ	أبو الطيب المتنبي	الطويل	١	٢٢١
وإنّا لفي	وإجمالُ	أبو الطيب المتنبي	البسيط	١	٢٢٢
ثُمّت	مناديلُ	عبدة بن الطبيب	البسيط	١	٢٢٦
إذا ما رآني	يقابلُهْ	يزيد بن الطثرية	الطويل	١	٢٢٥
فكنْ	الجاهلِ	مصطفى الرافعي	المتقارب	١	٦
فكنْ	العاملِ	مصطفى الرافعي	المتقارب	١	٦
وكانت	الزّلالِ	مصطفى الرافعي	الوافر	٢	٤١
ثمَّ	بالأجلِ	مصطفى الرافعي	مجزوء الرجز	٢	٥٧
وصدرُها	الطَّلَلِ	مصطفى الرافعي	مجزوء الرجز	١	٥٧
ولاحت	بالصقالِ	مصطفى الرافعي	الوافر	١	٦٣
خليليّ	قبلي	جميل بثينة	الطويل	١	٢١٦
لو بعينٍ	أحفلِ	جليلة : أخت جساس	الرمل	١	٢١٨
وشمائلي	مثلي	امرؤ القيس	الكامل	١	٢٢٧
أزُهيرُ	الأولِ	أبو كبير الهذلي	الكامل	١	٣٥٠

أول البيت	آخرهُ	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	رقم الصفحة
ترمي	آمالي	مصطفى الرافعي	البسيط	٢	٤٦
حرف الميم					
رحماك	أنامْ	مصطفى الرافعي	السريع	١	٥١
ومنْ	فمْ	مصطفى الرافعي	المتقارب	١	٥٦
فإن	الخدمْ	مصطفى الرافعي	المتقارب	٢	٦٦
إذا	وسلّمَا	بشار بن برد	الطويل	٢	٧٩
سمتْ	صَمَّمَا	محمد محمود الرافعي	الطويل	٨	٣٤٤
وإذا كانت	الأجسامُ	أبو الطيب المتنبي	الخفيف	١	٢٢٣
خَبَأوا	الأكمامِ	مصطفى الرافعي	الكامل	٢	٤٢
وثغر	يهرمِ	مصطفى الرافعي	الطويل	١	٦٠
كريمٌ	قادمِ	أبو الطيب المتنبي	الطويل	٢	٢٢١
وإذا	وتكرّمي		الكامل	١	٢٢٦
حرف النون					
تطيرُ	دينَا	مصطفى الرافعي	البسيط	١	٧
على ليالٍ	وتسبينَا	مصطفى الرافعي	البسيط	١	٨
كفى	مآقينا	مصطفى الرافعي	البسيط	٤	٥٠
إنْ	مِتنَا	مصطفى الرافعي	الخفيف	٣	٥٥
وإذا لم يكنْ	جبانًا	أبو الطيب المتنبي	الخفيف	١	٢٢٣
قد	الغنى	مصطفى الرافعي	السريع	٢	٥٨
إنّما	السِّنانُ	عبد الرحمن بن حسّان	الخفيف	١	٢١٨
مولاي	الأديانِ	مصطفى الرافعي	الكامل	١	٨
يا منْ	إلى آنِ	مصطفى الرافعي	البسيط	١	٢٥
دارُ	الهاني	مصطفى الرافعي	البسيط	١	٢٥
لولا	لم يَبنِ	مصطفى الرافعي	البسيط	١	٥٩
إذا	عيني	مصطفى الرافعي	الطويل	٢	٦٦
إذا ما رأوني	عرفوني	جميل بثينة	الطويل	١	٢٢٥
وكنتُ	الحدثانِ	النجاشي	الطويل	١	٢٢٥

أول البيت	آخرهُ	اسم الشاعر	البحر	عدد الأبيات	رقم الصفحة
حرف الواو					
ألا	السُّوى	مصطفى الرافعي	مجزوء الكامل	٢	٦٤
وذا	الجوى	مصطفى الرافعي	السريع	٤	٦٧
حرف الياء					
وأخشى	المواضيا	مصطفى الرافعي	الطويل	١	٥٩
مكانكَ	رائيا	مصطفى الرافعي	الطويل	١	٦٧

٢

فهرس أشعار الدِّيوان(*)

(*) اعتمدنا في هذا الفهرس الترتيب الآتي: الكلمة الأولى من البيت الأول وقافيته ورويّه، حسب التّسلسل الألفبائي؛ وفقاً لما يلي: السكون، فالفتح، فالضم، فالكسر.

حرف الباء

حرف التاء

أول البيت	آخرهُ	البحر	عدد الأبيات	رقم الصفحة
حرف الجيم				
زُفّت	الزّواجْ	السريع	٨	١١٥ ـ ١١٦
أقلُّ	الأعوجُ	مجزوء المتقارب	٩	٢٤٤ ـ ٢٤٥
لقد أنحلَ	مخرجُ	المتقارب	٣	٢٤٩
ربّما	المهجِ	المقتضب	٢	٩٤
حرف الحاء				
يا كوكبَ	الرّياحْ	السريع	١٨	٤٠٤ ـ ٤٠٥
ملْ بي	افتضحَا	المنسرح	١٤	١١٤ ـ ١١٥
لا تلمْ	يفوحَا	الخفيف	١٥	١٣٦ ـ ١٣٧
يا ويحَ	تصحيحُ	المجتث	٤	٩٥ ـ ٩٦
هجرتني	الملاحُ	الخفيف	٥	١٧٧ ـ ١٧٨
مشى	نفحُ	الطويل	٢	١٨٩
ولي صاحبٌ	جريحُ	الطويل	٣	٤٤٣
أشدُّ	ينوحُ	الطويل	٣	٤٦٨
قُل للعداةِ	مصباحُ	الكامل	٤	٤٦٢
إحفظْ	تبرحُهُ	البسيط	٢	٣٧٢
إلى البيضِ	الجناحِ	المتقارب	٨	١٩٣
جرحتني	الجرْحِ	الخفيف	٢	٢٩٥
نحنُ	بالسُّبحِ	المديد	٣	٣٧٨
خطّ	والتّرحِ	الخفيف	٢	٤٣١
هاتوا	ريحِ	البسيط	٤	٤٣٢
حرف الدال				
وَشَيُ	الرّقادْ	المتقارب	٣	٣١٠
تولى	القرودْ	المتقارب	٢	٣٢٠
ذاتُ	العبيدَا	الخفيف	٧	١٣٧
وأتِ	عقودَا	الكامل	٨	٢٥٤ ـ ٢٥٥
تعِدُ	الوعودا	مجزوء الكامل	٨	٣٢٩
ببابكَ	سُجّدا	السريع	٢	٣٣٠

حرف الذال

حرف الراء

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

أول البيت	آخرهُ	البحر	عدد الأبيات	رقم الصفحة
يا مخْلفَ	تنطِقُ	مجزوء الرجز	٢	١٧٨
ليت	ما خلقوا	المنسرح	١٠	٣٠٩
هذا كتابي	تخفقُ	الكامل	٣	٣٢٤
يبيعُ	سوقُهُ	الطويل	٧	٤١٦
ويحكَ	بالحَدَقِ	المنسرح	٦	١٤٣
نزعَ	طريقي	الخفيف	٣	١٥٩
قلتُ	بباقِ	الخفيف	٢	١٦٤
أرى	الحدقِ	البسيط	٢	١٨٨
تعلّق	يعلَقِ	السريع	٤	٢٤٣
تعاليْ	نلتقي	الطويل	٢٨	٢٩١ ـ ٢٩٣
دعِ	بالرّفاق	الوافر	٤	٣٦٨
نحن	حقّ	الخفيف	٣	٣٧٠
عُذرها	الأشواقِ	الخفيف	١٠	٤٢٠
طرحتِ	التلاقي	الوافر	٣	٤٢٢
نظرتُ	اعشقِ	الكامل	١٧	٤٤٦ ـ ٤٤٧
رُويداً	مشتاقِها	المتقارب	٧	٤١٩
لا تغترر	سُوقِهِ	السريع	٣	٣٧٩

حرف الكاف

أول البيت	آخرهُ	البحر	عدد الأبيات	رقم الصفحة
أهويتُ	إليكَا	المجتث	٢	١٣٤
لم يألُ	لسلاكَا	الكامل	٦	١٥٤ ـ ١٥٥
بنفسي	اشتكَى	الطويل	٢	١٥٧
يا كحيل	يعبدوكَا	الخفيف	٤	١٦٤ ـ ١٦٥
يا ناعسَ	رُحماكَا	البسيط	٢	١٩٢
بعثتُ	يراكَا	المجتث	٣	٣٢٢
أنا راضٍ	فيكا	الخفيف	٩	٣٣٤
سرّه	شكَا	المديد	٢١	٤٤٧ ـ ٤٤٨
لا تحسبي	مشرِكُ	السريع	٢	٤٠٠

حرف النون

حرف الهاء

٣

فهرس المصادر

حرف الهمزة والألف

١ ـ القرآن الكريم.

٢ ـ **الأغاني**: **أبو الفرج الأصفهاني**، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة سنة ١٩٦٣.

٣ ـ **الأغاني**: **أبو الفرج الأصفهاني**. تحق عدد من الكتاب المختصّين بإشراف محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصريّة العامّة. القاهرة (١٩٧٠ ـ ١٩٧٤).

حرف الباء

٤ ـ **البيان والتبيين**: عمرو بن بحر (**الجاحظ**). تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي بمصر. طبعة رابعة ـ القاهرة سنة ١٩٧٥.

حرف التاء

٥ ـ **تاج العروس**: من جواهر القاموس: محمد مرتضى **الزبيدي** (أجزاء مختلفة) وزارة الإعلام، الكويت بدءاً من سنة ١٩٦٥.

٦ ـ **تفسير النسفي** (مدارك التنزيل وحقائق التأويل) **عبد الله بن أحمد النسفي**: تحقيق الشيخ مروان الشعار، دار النفائس، بيروت، ١٩٦٦.

حرف الجيم

٧ ـ **الجامع لأحكام القرآن**: **القرطبي** المعروف **بتفسير القرطبي**: أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي. دار الكتاب العربي ـ بيروت. تصحيح وتحقيق أحمد عبد العليم البردوني. القاهرة سنة ١٩٥٢.

حرف الخاء

٨ ـ **خزانة الأدب** ولب لباب لسان العرب: **عبد القادر بن عمر البغدادي** تحقيق وشرح عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي والهيئة المصرية العامة القاهرة، ودار الرفاعي بالرياض (١٩٧٩ ـ ١٩٨٣).

حرف الدال

٩ ـ **ديوان ابن الرّومي**: شرح عبد الأمير علي مهنّا. دار ومكتبة الهلال. بيروت، ١٩٩١م.

١٠ ـ **ديوان أبي تمام**: شرح وتعليق د. شاهين عطية. المطبعة الأدبيّة، بيروت سنة ١٨٨٩م.

١١ ـ **ديوان أبي نواس**؛ حققه وجمعه وشرحه: أحمد عبد المجيد الغزالي. دار الكتاب العربي. بيروت ١٩٨٢م.

١٢ ـ **ديوان الأعشى الكبير**: شرحه وضبطه د. محمد أحمد قاسم. المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٩٤م.

١٣ ـ **ديوان امرئ القيس**: جمع وشرح وتقديم: د. ياسين الأيوبي. المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٨م.

١٤ ـ **ديوان البحتري**: تحقيق حسن كامل الصيرفي. طبعة ثانية. دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٧٢.

١٥ ـ **ديوان بشار بن برد**: جمع وتحقيق السيد بدر الدين العلوي. دار الثقافة، بيروت سنة ١٩٦٣.

١٦ ـ **ديوان جرير الخطفي** بعناية محمد إسماعيل عبد اللّه الصاوي. دار الأندلس، بيروت، لا تاريخ.

١٧ ـ **ديوان جميل بثينة**: جمع تحقيق د. حسين نصّار، مكتبة مصر. طبعة ثانية سنة ١٩٦٧م.

١٨ ـ **ديوان حافظ إبراهيم**: دار العودة، بيروت عن طبعة مصريّة. القاهرة سنة ١٩٣٧م.

١٩ ـ **ديوان أبي ذؤيب الهذلي**: شرحه سوهام المصري. راجعه وقدّم له: د. ياسين الأيوبي. المكتب الإسلامي. بيروت ١٩٩٨.

٢٠ ـ **ديوان شرف الدّين البوصيري**: تحق محمد سيد كيلاني. القاهرة، ط٢ ١٩٧٣م.

٢١ ـ **ديوان طرَفة بن العبد**: شرح وتقديم د. سعدي ضناوي. دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٩٤م.

٢٢ ـ **ديوان عدي بن الرّقاع العاملي**: تحق: نوري حمودي القيسي، وحاتم الضامن. المجمع العلمي العراقي بغداد: ١٩٨٧م.

٢٣ ـ **ديوان عمر بن أبي ربيعة**: تحق: محمد محيي الدّين عبد الحميد. القاهرة، ط٢، ١٩٦٠م.

٢٤ ـ **ديوان عنترة**: دار بيروت، بيروت، ١٩٧٨م.

٢٥ ـ **ديوان عنترة**: تحق: محمد سعيد مولوي، المكتب الإسلامي، بيروت ط٢، ١٩٨٣م.

٢٦ ـ **ديوان الفرزدق**: دار صادر. بيروت. لا تاريخ.

٢٧ ـ **ديوان محمود سامي البارودي**: دار الجيل، بيروت سنة ١٩٩٥م.

٢٨ ـ **ديوان المتنبّي، بشرح الواحدي** قدّم له وعلّق عليه، ووضع فهارسه: د. ياسين الأيوبي (بالاشتراك) دار الرائد العربي، بيروت، ١٩٩٩م.

٢٩ ـ **ديوان النّابغة الجعدي**: تحق: عبد العزيز رباح، المكتب الإسلامي، ط١، ١٩٦٤م.

٣٠ ـ **ديوان النّابغة الذّبياني**: تحق: محمد أبو الفضل إبراهيم. دار المعارف مصر، ١٩٧٧م.

٣١ ـ **ديوان الهذليين**: (نسخة مصورة عن دار الكتب بالقاهرة) صدر عن الدار القومية. القاهرة سنة ١٩٦٥م.

حرف السين

٣٢ ـ **سقط الزند**: **أبو العلاء المعرّي**: دار الفكر، بيروت، ١٩٦٥م.

٣٣ ـ **سمط اللآلي في شرح أمالي القالي**: بعناية عبد العزيز الميمني. دار الحديث الطبعة الثانية، بيروت ١٩٨٤م.

حرف الشين

٣٤ ـ **شرح ديوان بشار بن برد**: شرحه د. صلاح الدين الهوّاري. دار ومكتبة الهلال، بيروت ١٩٩٨م.

٣٥ ـ **شرح ديوان الحماسة، المرزوقي**: تحق: أحمد أمين، وعبد السلام هارون، لجنة التأليف والنشر، القاهرة ١٩٦٧م.

٣٦ ـ **شرح الواحدي لديوان المتنبّي**: قدّم له وشرحه وضبطه د. ياسين الأيوبي (بالاشتراك) دار الرائد العربي، بيروت ١٩٩٩م.

٣٧ ـ **شعر الأخطل، صنعة السكري**: تحق: فخر الدين قباوة. دار الآفاق الجديدة، بيروت ط٢، ١٩٧٩م.

٣٨ ـ **الشّعر والشّعراء**: **ابن قتيبة الدينوري**: تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر. طبعة ثالثة، دار التراث العربي، القاهرة سنة ١٩٧٧.

حرف الصاد

٣٩ ـ **صحيح سنن ابن ماجه: ابن ماجه**: مكتب التربية العربي لدول الخليج، إشراف زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت ط٣، ١٩٨٨م.

٤٠ ـ **صُبح الأعشى في صناعة الإنشا: أبو العباس القلقشندي**: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، القاهرة ١٩٦٣.

حرف العين

٤١ ـ **العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني**: تحق: محمد محيي الدين عبد الحميد، ط٤، بيروت ١٩٧٢م.

حرف الفاء

٤٢ ـ **فقه اللغة وأسرار العربية: أبو منصور الثعالبي**: شرحه وقدّم له وضبط نصّه: د. ياسين الأيوبي. المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت ١٩٩٩م.

حرف الكاف

٤٣ ـ **الكامل في التاريخ: عز الدين بن الأثير**: دار بيروت، بيروت ١٩٨٢م.

حرف اللام

٤٤ ـ **لسان العرب: ابن منظور** دار صادر ـ دار بيروت، بيروت ١٩٦٨.

حرف الميم

٤٥ ـ **مجمع الأمثال: أبو الفضل الميداني**. تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد. دار المعرفة، بيروت، لا تاريخ.

٤٦ ـ **معاهد التنصيص**: عبد الرحيم بن أحمد **العباسي**. حققه محيي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية، مصر سنة ١٩٤٧.

٤٧ ـ **المؤتلف والمختلف: الآمدي**: تحق: عبد الستار أحمد فرّاج. القاهرة، ١٩٦١م.

٤٨ ـ **معجم الأدباء: ياقوت الحموي**: دار المأمون، القاهرة سنة ١٩٣٦م.

٤٩ ـ **معجم البلدان: ياقوت الحموي**: دار صادر، بيروت سنة ١٩٧٧م.

٥٠ ـ **معجم الشعراء: المرزباني**: تحقيق عبد الستار أحمد فراج، القاهرة سنة ١٩٦٠.

٥١ ـ **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: ابن هشام الأنصاري**: مراجعة سعيد الأفغاني. دار الفكر، طبعة خامسة، بيروت ١٩٧٩.

٥٢ ـ **الملل والنّحل**: **الشهرستاني**: دار الجيل، بيروت ١٩٨٥م. نسخة مصوّرة عن دار الكتب في القاهرة.

٥٣ ـ **المنصف في نقد الشعر وبيان سرقات المتنبي ومشكل شعره**: تحق: د. محمد رضوان الدّاية، دار قتيبة، دمشق سنة ١٩٨١.

حرف النون

٥٤ ـ **النجوم الزّاهرة في ملوك مصر والقاهرة**: **ابن تَغري بَرْدي**. نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية وزارة الثقافة والإرشاد القومي. القاهرة ١٩٦٣.

٥٥ ـ **نقد الشعر**: **قدامة بن جعفر**: المكتبة العلمية، بيروت ١٩٨٠م.

حرف الواو

٥٦ ـ **وفيات الأعيان، وأنباء أبناء الزمان**: شمس الدين **ابن خلكان**: تحقيق د. إحسان عباس، دار صادر، بيروت سنة ١٩٧٨.

حرف الياء

٥٧ ـ **يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر**: **أبو منصور الثعالبي**. حققه وفصله وضبطه وشرحه: محمد محيي الدين عبد الحميد. طبعة ثانية، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة سنة ١٩٥٦م.

٤

فهرس المراجع

حرف الهمزة والألف

٥٨ ـ **الأعلام**: **خير الدّين الزركلي**: دار العلم للملايين، بيروت، ط٧، ١٩٨٦م.

٥٩ ـ **آفاق الشعر العربي في العصر المملوكي**: د. **ياسين الأيوبي**: دار جرّوس برسّ. طرابلس ـ لبنان سنة ١٩٩٥.

٦٠ ـ **الإمام مصطفى صادق الرافعي**: مصطفى البدري. دار البصري، بغداد ١٩٦٨م.

حرف التاء

٦١ ـ **تاريخ الشعر العربي الحديث**: **أحمد قبّش**: دار الجيل، بيروت ١٩٧١م.

٦٢ ـ **تاريخ الصحافة العربية**: **الفيكونت فيليب دي طرازي**: بيروت ١٩١٣م.

حرف الجيم

٦٣ ـ **جامع الدروس العربية**: **الشيخ مصطفى الغلاييني**: المكتبة العصرية، صيدا ـ بيروت. ط١٤، ١٩٨٠م.

٦٤ ـ **حديث القمر**: **مصطفى صادق الرافعي**: دار الكتاب العربي، بيروت ط٧ ١٩٧٤م.

٦٥ ـ **حياة الرّافعي**: **محمد سعيد العريان**: القاهرة ١٩٣٩م.

حرف الدال

٦٦ ـ **دائرة معارف القرن العشرين**: **محمد فريد وجدي**: طبعة ثالثة ـ دار المعرفة ـ بيروت سنة ١٩٧١.

٦٧ ـ **ديوان مصطفى صادق الرافعي**: عني به محمد كامل الرافعي (ثلاثة أجزاء) القاهرة سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩٠٤ و١٩٠٥م.

حرف الشين

٦٨ ـ **شرح ديوان مصطفى صادق الرافعي**: حققه وعلّقه عليه: أسامة محمد السيد. مؤسسة الكتب الثقافية. بيروت سنة ١٩٩٣.

٦٩ ـ **شعراء النصرانية: الأب لويس شيخو**. دار المشرق، بيروت ١٩٦٧م.

حرف الفاء

٧٠ ـ **في محراب الكلمة: د. ياسين الأيوبي**: المكتبة العصرية صيدا ـ بيروت ١٩٩٩م.

٧١ ـ **فنّ التَّشبيه، علي الجندي**: مكتبة الأنجلو المصريّة، القاهرة، ط٢، ١٩٦٦م.

حرف القاف

٧٢ ـ **قصائد للزمن المهاجر: د. ياسين الأيوبي**: دار الرائد العربي، بيروت ١٩٨٣م.

حرف الكاف

٧٣ ـ **كشف الغموض عن قواعد البلاغة والعروض: د. ياسين الأيوبي**: (بالاشتراك) دار الشمال ـ طرابلس ـ لبنان، ١٩٩٠م.

حرف الميم

٧٤ ـ **المجموعة الكاملة، طه حسين**: دار الكتاب اللبناني، بيروت ط٢، ١٩٨٠م.

٧٥ ـ **مصادر الدراسة الأدبية: يوسف أسعد داغر**. منشورات جمعية أهل القلم في لبنان. القسم الأول (الرّاحلون).

٧٦ ـ **مصادر الدراسة الأدبية: يوسف أسعد داغر**، المكتبة الشرقية، بيروت ١٩٨٣م.

٧٧ ـ **مُصطفى صادق الرافعي** (رائد الرمزية العربية المطلّة على السوريالية): **د. مصطفى الجوزو**. دار الأندلس، بيروت ١٩٨٥م.

٧٨ ـ **مطالعات في الكتب والحياة: عباس محمود العقاد**. دار الفكر، القاهرة، ١٩٧٨م.

٧٩ ـ **معجم الشعراء في لسان العرب: د. ياسين الأيوبي**: دار العلم للملايين. الطبعة الثالثة، بيروت، ١٩٨٧م.

٨٠ ـ **معجم المؤلفين: عمر رضا كحّالة**: مكتبة المثنى، ودار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٥٧م، ج١٢.

٨١ ـ **المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية في القاهرة**: ط٢، ١٩٧٢م.

حرف الواو

٨٢ ـ **وحي القلم: مصطفى صادق الرّافعي**: (٣ أجزاء) دار الكتاب العربي، بيروت، لا تاريخ.

٥

فهرس تحليلي لمحتويات الديوان

ثانياً: مسيرة التعثُّر الشّعري

الدِّيوان

الجزء الأول

الباب الأوّل: في التهذيب

شذرات من الحكمة

الباب الثّاني: في المديح

الباب الثالث: «في الوصف»

الباب الرّابع: «في الغزل والنّسيب»

الباب الخامس : في الأغراض والمقاطيع

الباب السادس: في الرِّثاء

باب التقاريظ (قصائد مدْح نظمت فيه)

الجزء الثاني

الباب الأول: في التّهذيب والحكمة

وهذه شذرات من الحكمة ألحقناها بهذا الباب

في النسائيات

الباب الثالث: في الوصف

الخمر والهوى

فصل

الباب الرّابع: في المديح

الباب الخامس: في الغزل والنّسيب

الباب السادس: في الأغراض والمقاطيع

تقاريظ في الشاعر

الجزء الثالث من ديوان الرّافعي

الباب الأول: في التّهذيب والحكمة

الباب الثاني : في النسائيات

الباب الثالث : في الوصف

وهذا فصل من كتاب (ملكة الإنشاء)

الباب الرابع: في الغزل والنسيب

الباب الخامس: في الأغراض والمقاطيع

في المديح والتّقريظ

باب المراثي

تقاريظ في الشاعر

الفهارس العامة